المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء السابع

المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

٧

○ الطبعة الثانية ○
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل الثامن والثمانون

أثر الطبيعة في اقتصاد الجاهليين

للوقوف على أسس اقتصاد أمة من الأمم،لا بد من الوقوف على طبيعة إقليمها من جوّ وأرض. فللطبيعة أثر كبير في تحديد خيرات تلك الأمة وفي تكوين سماتها وعاداتها وانتاجها: من ناتج زراعي أو حيواني أو صناعي ، ثم في فقرها وغناها.

فالجوّ البارد ذو الأمطار الغزيرة ، لا يمكن أن يكون أثره في الأحياء أثر الجو الحار الرطب ، أو الجو الحار الجاف،أو الجو المعتدل . الجو البارد يدفع الانسان إلى العمل ويبعث فيه الحيوية والنشاط ، ويجبره على العمل ، ويقدم له الماء هدية من السماء ، ثم هو يُكره الأرض أن تتلقح بماء المزن ، لتولد خضرة تكسو الأرض ببساط جميل يخلب الألباب ، ولتولد للماشية علفاً طرياً شهياً ، وللإنسان أرضاً طيعة لا تحتاج الى سقي باليد أو بالآلة ، ثم هو يوفر له كثيراً من الجهد الذي يجب على الانسان أن يبذله في البلاد الحارة الجافة لاستصلاح التربة ولمكافحة الحشرات التي تبارك فيها الحرارة الى غير ذلك من صعوبات ، لا تقاس بها الصعوبات التي تواجه سكان البلاد الباردة الممطرة .

أما الجو الحار الرطب ، فيغيث الانسان بمطر ، قد ينهمر انهماراً، وقد ينزل بمواسم ، لكن حرارته الشديدة المتشبعة بالرطوبة ، تهدّ الجسم ، وتعطيه رخاوة في بدنه وفي عقله ، تجعله يميل الى الخمول والكسل والدعة ، والى الاسترسال في العواطف ، ثم تحرمه من نشاط انسان الجو البارد ، وتجعله دونه في العمل وفي السعي في هذه الحياة والضرب في هذه الأرض وفي استغلال التربة وما فيها وما

عليها . وأما الجو الحار الجاف ، فيحرم سكانه من نعمة (الغيث) في الغالب ، ويلبس سطح الأرض أكسية غبراء من رمال تذروها الرياح ، ثم هو يجعل من الصعب على الانسان أو الحيوان ان يجد قوته في هذه القفار الواسعة المغبرة ، أو ان يعيش فيها عيشة مستقرة دائمة، في مجتمعات كثيفة كمجتمعات الأجواء الباردة أو المعتدلة أو الحارة الرطبة ، فاضطر إلى التنقل والارتحال بحثاً عن الكلأ والماء ، اللهم إلا في مواطن الماء ، وهي عزيزة ثمينة لأنها في أرض غلب على طبعها الجفاف . فتصير هذه المواطن القليلة هدفاً لهجات العطاشى عليها في سني القحط وانحباس المطر ، وايام الضيق والشدة ، لسد الرمق وللمحافظة على ما في الجسم الذابل النحيل من عروق لتعينه على البقاء، حتى يفنى بطعنة ، أو يموت حتف أنفه.

تبلغ مساحة جزيرة العرب حوالى مليون وربع مليون ميل من الأميال المربعة . اذا ثبتنا مواضع المياه على (خارطتها) ، نجد انهـا قليلة ، لا يتناسب توزيعها ووجودها مع هذه المساحة الشاسعة. ثم انها مياه ضيقة المعين، لا يتسع صدرها لارواء بقاع واسعة على نحو ما نجده في مياه الأنهار الكبيرة . وفي هذه المواضع انحصر السكن ، فصار من ثم عدد سكانها قليلاً جداً في كل وقت . واذا قسنا مساحة الأرضين الخصبة منها القابلة للزرع والإنبات ذات الماء بالأرضين المجدبة، نجد انها قلة إلى كثرة ، وان ما لا يصلح منها للزرع أكثر بكثير ممـا يصلح له . وان مساحة البراري والبوادي تزيد على مساحـة الأرض الطيبة الخصبة ، وان هنالك أرضين ذات طبقات ثخينة من الرمال ، أكرهت الناس على الابتعاد عنها ، ترفعاً من ان يطأ وجهها خف جمل أو نعل انسان ، أو ان تدوسها الأقدام .

وقد نشأ عن هذا الوضع ضيق في مساحة الأرضين المزروعة ، لشح الماء وعدم كفايته لارواء الانسان ولارواء ماشيته واسقاء أرضين واسعة ، ضيق أثر في شكل تكوين المجتمع العربي ، فلم يسمح بظهور المجتمعات الكثيفة الكبيرة في جزيرة العرب ، والمجتمعات الكثيفة الكبيرة ، هي المجتمعات الخلاقة التي تتعقد فيهـا الحياة ، وتظهر فيها الحكومات المنظمة للعمل وللانتاج وللتعامل بين الناس . جعل المجتمعات المذكورة مجتمع مستوطنات ، رزقها من زراعتها الصغيرة ومـن رعاية الماشية ، وصار اقتصادهـا من ثم اقتصاداً بدائياً لا تعقيد فيه ولا تطوير يحول المواد الأولية الى مواد أخرى أفيد منها وأكثر ربحاً تفيد المجتمع ، وتعود عليه بأرباح طائلة من بيع المنتجات في الأسواق .

وهو ضيق صبر العرب قوماً يكرهون الزراعة وينفرون منها ، ويرون المزارع مواطناً من الدرجة الدنيا ، ولا سيما ذلك المزارع الذي يزرع الخضر والبقول وعلف الحيوان ، فهو عندهم (خضّار) . ولو كانت للعرب ميـاه فائضة ، وأمطار غزيرة لما كرهوا الزراعة ، ولما ازدروا شأنها ، فحرمانهم من الماء جعلهم يستحقرون شأن الزراعة لأنهم لم يتذوقوا ثمرتها ولم يشعروا بخيراتها ، ولهذا اختلف عنهم أهل اليمن وبقية العربية الجنوبية ومن وجد عندهم المـاء ، فغرسوا وزرعوا واعتبروا الزراعة نعمة ، وتقدموا إلى آلهتهـم لكي تبارك في زرعهم وتنعم في حصادهم وتعطيهم غلات وافرة كثيرة .

وجوّ جزيرة العرب جو من أجواء البلاد الحارة الجافة . أمطاره على العموم قليلة ، ولا سيما في أواسط جزيرة العرب . وقد تنحبس في بعض السنين انحباساً تاماً ، فيسبب انحباسها هذا كارثة ومصيبة ، يجف في أثنائهـا العشب ، وييبس كل أخضر ، فلا تجد الإبل لها طعاماً ، ولا يكون في وسع أهلها تقديم طعام لها لعدم وجوده عندهم ، وقد ينفق مالهـم من العطش والجوع ، فيصاب أصحابها بخسائر كبيرة ، وقد يهلك عدد من الناس قبل بلوغهم موضع ماء ، إما من شدة الحر والعطش والجوع ، وإما من السيف الذي لا بد لهم من استعماله لاجبار أهل الماء على السماح لهم بمشاركتهم لهـم اياه ، او بالاستحواذ عليه ونزولهم بـه ، وطردهم أصحابه عنه الى أماكن أخرى ، أو بهروبهم من هذا الموضع لقوة أصحابه ولتمكنهم من رد الطامعين عنه .

وتتساقط الأمطار في العربية الغربية والعربية الجنوبيـة ، ولكن سقوطها ليس منتظماً وعلى طول أيام السنة . فقد تثور السماء فجأة على الأرض ، فترسل عليها سيلاً مدراراً ، يكتسح ما يجده أمامه من إنسان وحيوان وكل عائق ، ليجد له سبيلاً الى أرض منخفضة أو الى أوديـة ، ثم لا يلبـث أن يختفي ويزول ، لأن عمره قصير في الغالب ، إذ تبتلعه أرض رملية ، فيغور الى باطنها ليكوّن مياهاً جوفية ، وقد تبتلعه البحار . إذ يسيل بشدة الى الأودية المنحدرة الشديدة الانحدار فيتوجه مسرعاً نحو البحر ، فيذهب فيها هباءً من غير أن يفيد أحـداً من الناس أو أن يغيثهم بشيء . وفي كتب أهل الأخبار قوائم بسيول كثيرة مهلكـة مدمرة وقعت قبل الإسلام وبعده .

والأمطار في جزيرة العرب هي قليلة على العموم ، مقدار ما يتساقط منهـا

لا يسد رمق الزرع ولا يغني الزارع ولا يكفي في بعض السنين لانبات الخضرة ولظهور الكلأ . وقد يستمر هذا المعدل سنين ، فيتضايق الناس ، وقد ترد بعدها سنين ينهمر فيهـا المطر انهماراً ، فيسقط من السماء وكأنه ماء انهمر من أفواه قرب ، فيسبب سيولاً تؤذي الناس ولا تنفعهم ، وقد يستمر هطول المطر على هذا المعدل من الشدّة عدة سنين ، ثم يقف فيشح ، وتبخل السماء ، فلا تعطي الأرض من غيثها إلا قليلاً . وقد تبخل بخلاً شديداً فلا تعطيها منه شيئاً يذكر ، فيتضايق الناس ، ويعيشون عندئذ عيشة صعبة قاسية ، قد تضطرهم إلى الارتحال الى مواضع أخرى بحثاً عن الكلأ والماء .

وقد يكون انحباس المطر ، ظاهرة موضعية ، تصيب موضعاً ، ولا تصيب مواضع أخرى ، وقد يكون عاماً ، يصيب أكثر جزيرة العرب أو كلها. وتكون شدته عندئذ في هذه الحالة أعم وأشد . وضرره في الناس أكثر ، فأينما ترحـل القبائل لا تجد أمامها إلا القحط والمحنة ، وقلة المـاء والغذاء ، أي (القحط) والجدب والمحل . و (القحط) الجدب من أثر احتباس المطر ، فيتأذى الناس ، ويقل الطعام وترتفع أسعاره . ويعيشون في شدة [1] . ويلازم القحط في الغالب ، اختفاء الطعام وارتفاع ثمنه . فالقحط ملازم اذن لانحباس المطر ، ويلازمه الجوع وارتفاع السعر ، وقلة الطعام ، واختفاؤه من السوق ، بسبب الخزن أمـلاً في الحصول على ربح ومكسب ، أو بسبب قلة حاصل الموسم . ويقال أقحط القوم ، أي أصابهم القحط ، وكان ذلك في اقحاط الزمان .

وقد يعقب انحباس المطر ظهور الملح في طعم مياه الآبار والعيون[2] ، حتى قد يصير الشرب منها صعباً ، والزرع عليها غير ممكن . فيضطر أصحابها عندئذ الى تركها والارتحال عنها الى مواضع أخرى ، يحفرون فيها آباراً جديدة ؛ تكلفهم مالاً وجهداً ، وقد لا يجدون في الأرض الجديدة ماءً عذباً سائغاً فراتاً للشاربين ، وقد لا يجدون فيها ما يكفيهم لشربهم ولشرب أموالهم ؛ مما يحملهم على الارتحال إلى أرض أخرى ، أو على التشتت والتبعثر ، بسبب عدم وجود الماء أو عـدم سدّه حاجتهم .

---

١ تاج العروس (٥/ ٢٠١) ، (قحط) .
٢ تاج العروس (٢/ ٢٢٩) ، (ملح) .

ويقال للسنة وللأرض التي لم يصبها المطر : (الجماد) . وسنة جامدة لا كلأ فيها ولا خصب ولا مطر . وأرض جماد ، يابسة لم يصبها مطر ولا شيء فيها [1]. وهي من السنين الحرجة في حياة العرب ، المؤذية المهلكة للأنفس وللمال . ويقال للمُحل (الجدب) . والجدب نقيض الخصب[2] . و (المحل) الجدب وانقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ . وتعد أيام المحل من شرّ الأيام ، يقال : (زمان ماحل) ، و (مكان ماحل) ، و (بلد ماحل) ، و (أرض محل) ، وأرض محلة ومحول . يريدون بالمحل الشدة والجوع الشديد وإن لم يكن جدب ، على سبيل المجاز ، لأن المُحل الجدب ويبس الأرض وانقطاع المطر ، فتشتد حالة الناس ، ويظهر الجوع ويعيش الناس في ضنك شديد[3] .

ويقال لمثل هذه السنين الشديدة ، التي تجف فيها المراعي ، ويصاب الناس فيها بأزمة شديدة،سنة جرداء ، وسنة الجمود لجمود الرياح فيها وانقطاع الأمطار وذهاب الماشية وهزالها وثبات الغلاء ؛ ويقال لها الحطمة والأزمة واللّزبة والمجاعة والرّمد ، وكحل والقصر والشدة والحاجر ، وما شاكل ذلك من ألفاظ فيها معاني الشدة والفقر والجوع[4] .

وكان منهم من يتصور أن نجوم الشتاء هي سبب نزول الغيث . ولذلك كانوا إذا لم يمطروا ، واحتبست السماء عندهم يقولون : « أجحرت النجوم » . قال الراجز :

إذا الشتاء أجحرت نجومه   واشتد في غير ثرى أزومه

ومن المجاز أجحر القوم ، إذا دخلوا في القحط . والجحرمة الضيق[5] . وليس أشد على العرب وأضيق في احتباس المطر عنهم .

---

١ تاج العروس (٢/٣٢٤ وما بعدها) ، (جمد) .
٢ تاج العروس (١/١٧٦) ، (جدب) .
٣ تاج العروس (٨/١١٣) ، (محل) .
٤ الصفة (٢١٤) .
٥ تاج العروس (٣/٨٨) ، (جحر) . قال زهير بن أبي سلمى :
اذا السنة الشهباء بالناس أجحفت   ونال كرام المال في الجحرة الاكل
يريد بكرام المال الابل ، يقول : انها تنحر وتؤكل لانهم لا يجدون لبنا يغنيهم عن أكلها ، تاج العروس (٣/٨٨) ، (جحر) .

واذا أمطرت السماء ، استبشر الناس خيراً ، فالمطر خير وبركة ونعمة . يعقبه ربيع مفرح مبهج ، تسمن فيه إبلهم ومواشيهم ، ويكثر ولدها ، فتنمو أموالهم، وكانوا يقولون اذا ألبنوا وسمنت إبلهم : « كان ربيعنا مملوحاً »[1] .

وقد تهب بعض الرياح فتنكب الناس بأنفسهم وبأموالهم وتؤذيهم، لذلك يسمونها (النكباء) . و (النكباء) ريح انحرفت ووقعت بين ريحين . وهي تهلك المال وتحبس القطر . ذكر انها تهب بين الصبا والشمال ، والجربياء التي بين الجنوب والصبا . وذكر بعضهم ان نكب الرياح أربع : الأزيب ، وهي نكباء الصبا والجنوب ، مهياف ملواح ميباس للبقل ، وهي التي تجيء بين الريحين . وذكر بعض آخر ان الأزيب ، هو الجنوب لا نكباؤها . والثانية الصابية ، وتسمى النكيباء أيضاً ، وهي نكباء الصبا والشمال ، معجاج مصراد لا مطر فيها ولا خير عندها . والثالثة الجربياء ، وهي نكباء الشمال والدبور ، وهي قرة وربما كان فيها مطر قليل ، وهي نيحة الأزيب . والرابعة الهيّف ، وهي نكباء الجنوب والدبور، وهي نيحة النكيباء[2] .

وقد تأتي السماء بسحب كثيفة من جراد ، فلا تهبط مكاناً إلا جردته . والجراد من شر الآفات والنوازل التي تنزل بالزرع، يجرده جرداً وينزل الخسائر بأصحابه، أضف الى ذلك الأوبئة والأمراض التي كانت تهب بين الحين والحين ، فتصيب الانسان أو الحيوان أو الزرع ، وهو عاجز إذ ذاك عن مقاومتها وعن التغلب عليها ، نضيف اليها الحميّات التي كانت قد عششت في مواضع المياه، كالعيون ، فكانت تصيب الناس ، ولا يكاد يسلم منها انسان ، فقد عرفت (خيبر) بالحمى، حتى قيل لها (حمى خيبرية) أو (خيبرية) ؛ وعرفت يثرب بالحمى أيضاً ، وعرفت مواضع من وادي القرى ، بالحمى كذلك ، كما عرفت (هجر) في العربية الشرقية بهذا الوباء كذلك .

ويتضايق الانسان في التهائم من أثر الحرارة المتشبعة بنسب عالية من الرطوبة . ودرجات الحرارة فيها وإن كانت دون درجتها في الأماكن الأخرى في الأغلب ، غير أن اقترانها بالرطوبة العالية جعلتها حرارة تضايق الانسان الى حد مزعج ، تبعث على الاسترخاء والكسل ، حتى صيرت الجسم خاملاً ، خال من الحيوية

---

١ تاج العروس (٢/٢٢٨) ، (ملح) .
٢ تاج العروس (١/٤٩٤) ، (نكب) .

والنشاط ، غير فعّال لا يستطيع أن يعمل بنشاط وهمة أهل الأجواء المعتدلة أو الحارة الجافة . وعلى الرغم من ارتفاع نسبة الرطوبة في هذه التهائم وتشبع هوائها ببخار الماء ، فإنها لم تحظ بدرجة عادلة من المطر ، يخفف من شدة وطأة الحرارة فيها . ويسقي أرضها سقياً كافياً لتنبت لسكانها ما ينبته الجو الاستوائي المشبع بالرطوبة المذابة في الحرارة المشابه لجو هذه التهائم في البلاد الأخرى . فحرمت من الغابات ومن الأشجار الضخمة ذات الخشب الصلد ، ومن الأدغال التي تؤوي الوحوش ، ومن المياه الفوّارة المتدفقة ، ومن الحشائش ، ومن أمثال ذلك مما يرى في البلاد ذات المناخ المشابه ، مما يكون ثروة لسكانها ، قد تعوض عن حرمانهم من الجو المعتدل ، أو الجو البارد المنشط .

وتخف الرطوبة ويقل شأنها وتذهب حدّتها كلما ابتعد الانسان عن الساحل ، فيزداد الجفاف في الجو حتى يبلغ أقصاه في البواطن،فيشعر الانسان عندئذ بانطلاق في جسمه وبشيء من النشاط في حركته ، وبحدة في ذهنه ، لأنه يجد أمامه مناخاً أصح وأصفى من مناخ السواحل ، هواؤه جاف في الشتاء وفي الصيف ، البرودة فيه في موسم الشتاء أظهر وأبرز من برودة الأشتية في التهائم ، والحر فيه في الصيف أخف على الجسم بكثير من حر صيف السواحل . أما المطر،فنسبة سقوطه في الباطن أقل من نسبة هطوله على التهائم وفي العربية الجنوبية . وقد عوضت الطبيعة أهل البواطن عن شح مطرها هذا ، بارسال ألوان وأشكال من الأهوية والرياح والعواصف عليهم ، تحمل بعضها في أمواجها سحراً عجيباً ينعش الروح والبدن ، اذا مس انساناً أنساه شظف عيشه وغلظ الجو الذي يعيش فيه ، وصيره يحس وكأنه ملك الملوك ، وصاحب خزائن الأرض ، واذا مست عصاه أحداً من أصحاب الحس المرهف ، أثارت فيه قريحته ، فصيرته شاعراً ينظم إحساسه بكلم موزون مقفى ، وبشعر غزلي ، يتغزل فيه ، يتغزل بتلك الأهوية ، التي لمست جسمه ، وأغرقت فمه ووجهه بقبلاتها الحبيبة المثيرة ، التي أنسته أشجانه وما يلاقيه في حياته من ضيق وشح ، وهو ما يكاد يفيق من حلم حبه هذا ، حتى يفاجأ بأعاصير ورياح الواقع ، تعصف به وبخيمته الخفيفة ، وبماله ، تتلاعب به ، وقد ترشق وجهه بموجات متعاقبة من سموم مشبع برمال ، تجعله يغمض عينيه ويسدّ فمه ، ويبرقع وجهه ببرقع ليقيه من هذه الرياح العاتية التي تحرشت بـه من غير سبب ، مع انه انسان مسكين قنوع ، لا دخل له في وجوده في هذا المكان ،

ولد فيه عن غير عمد ولا اختيار ، وسيموت فيه وهو لا يدري لمَ يموت ، ولمَ عاش ، والى أين ذاهب . فاذا ذهبت وولت ، وركد الجو واستقر ، جلس تحت خيمته التي لا تقيه من حر ولا من برد ، ولا من شمس ولا من مطر : إلا بقدر ، ليستجم ويستريح ، أو ليستلقي على أرضها ، وليتناول أكله ، وهو أبسط أكل يأكله انسان في هذه الحياة من غير شك .

والسعيد في جزيرة العرب من ولد في مستوطنة ذات ماء . فهو في عيشة هنيئة راضية ، في بيت مهما كان نوعه ، فإنه أحسن حالاً على كل حال من بيوت الوبر أو الشعر ، يستطيع أن يشرب فيه ماءً يتناوله من منبعه ، لا من قرب خزن الماء فيها أياماً ، وأن يرى نخلاً وشيئاً من شجر وخضرة وزرع ، وصوت رجال ونساء وأطفال ، وبعض بائعين وبائعات . أي حياة جماعة . وهو أكثر سعادة وحضارة إن كانت مستوطنته على ملتقى طرق ، تمر بها القوافل لتمتار منها ميرة الطريق ، ولتأخذ منها الماء ولتسقي إبلها وترويها ، ولتشتري منها ما تجده من حاجات ضرورية ومن منتوجات موضعية ، تحتاج اليها ، أو يمكن بيعها في مواضع أخرى . وفي هذه المواضع نجد الحضارة الجاهلية ومن آثارها نستنبط التأريخ الجاهلي ، وفيها نرى معدن الرقة وموطن اللين والدماثة ، لما فيها من ظرف تهدأ النفس وتريح الأعصاب ، فصار أصحابها من ثم ألين عريكة وأسهل انقياداً من الأعراب الذين ولدوا في محيط خشن ، ونشأوا من خشونة ، فصار طبعهم من ثم غليظاً خشناً ، وهو لا يمكن أن يكون إلا كذلك ، وليس له دخل في ظهور هذا الطبع عنده .

ومن هنا صار أهل اليمن من ألين العرب عريكة ، ومن أكثرهم تعاوناً فيما بينهم . جاء في الحديث : « ان رجلاً من أهل اليمن قال للنبي ، صلى الله عليه وسلم : إنا أهل قاه ، فاذا كان قاه أحدنا دعا من يعينه فعملوا له ، فأطعمهم وسقاهم من شراب يقال له المزر ، فقال : أله نشوة ؟ قال : نعم . قال : فلا تشربوه . قال أبو عبيدة : القاه سرعة الاجابة وحسن المعاونة ، يعني ان بعضهم يعاون بعضاً ، وأصله الطاعة . وقيل المعنى : إنا أهل طاعة لمن يتملك علينا ، وهي عادتنا لا نرى خلافها ، ، فاذا أمرنا بأمر أو نهانا عن أمر أطعناه ، فاذا كان قاه أحدنا ، أي ذوقاه أحدنا دعانا الى معونته . وقال الدينوري : اذا تناوب أهل الجوخان ، فاجتمعوا مرة عند هذا ومرة عند هذا وتعاونوا على

الدياس ، فان أهل اليمن يسمون ذلك القاه ، ونوبة كل رجل قاهــة ، وذلك كالطاعة له عليهم »[1] . وجاء في الحديث : « أهل اليمن هم أرق قلوباً ، أي ألين ، وأقبل للموعظة ، والمراد ضد القسوة والشدة »[2] .

ومن هنا صار الأعرابي جلفاً صعباً خشناً ، يكره كل شيء لا يجده عنده ، لا يخضع لسلطان ، ولا يستسلم لقيادة أحد إلا لقيادة قبيلته المتمثلة في سيدها الى غير ذلك من صفات وسمات تحدثت عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وفي مواضع أخرى من الأجزاء الباقية .

والماء في أغلب أجزاء جزيرة العرب مقنن قدر بقدر ، ليس فيه فيض ، ولا زائد يحمله الى الجري الى مسافات بعيدة وبكميات كبيرة عن منبعه . ثم هو بين عيون وحسي وآبار محفورة،ومدى موارد هذه المياه مقدر محدود ، وهي لا تفيض فيض مياه الأنهار . فلم يتسع زرعها ، ولم تتحمل نشوء مجتمعات كبرى عندها ، وإنما ساعدت على ظهور مستوطنات ، لم تكن حضرية تماماً ولا بـدوية تماماً ، بل كانت متنزلة بين المنزلتين ، ودرجة وسطى بين الحضارة والبـداوة . تمكنت من إعالة نفسها ، بما توفر فيها من مواد أولية ، وبما زرعته من نخيـل وحب وخضر ، ومن بيع ما زاد عن حاجتها الى من حولها والى من كان يقصدها من الأعراب . وأوجدت فيها حرفاً ، ولكنها لم تكن حرفاً متطورة ذات انتاج واسع، لضآلة الموارد ، ولصغر المجتمع ، ولعدم وجود رؤوس الأموال الكبيرة لتشغيلها في استغلال ما قـد يكون فيها من موارد طبيعية كامنة أو ظاهرة . وفي تغرير الناس للعمل في استثمارها وفي استثمار الأرض استثماراً واسعاً ، ينتج غلة وافرة ، وفي مجتمعات صغيرة ، ذات مـوارد محدودة ، لا يمكن أن تظهر فيها رؤوس أموال كبـيرة ، وكيف تبرز رؤوس الأموال في مستوطنات فقيرة ، مواردها محدودة ، وخيراتها مقننه ، وهي في محيط فقير ، تتناولها الرياح من كل جهة ، وأعين الأعراب الجياع الفقراء لها بالمرصاد .

وقد انتشرت هذه المستوطنات وتناثرت وتبعثرت في أرضين واسعة غلب على طبعها اليباس والجفاف ، كسيت بطبقات متفاوتة السمك من الرمال، فحالت بينها

---

١ تاج العروس (٤٠٧/٩) ، (القاه) .
٢ اللسان (١٢٢/١٠) ، (رقق) .

وبين تكوين المجتمعات الكبيرة ، وبين ظهور حكومات كبيرة قوية في جزيرة العرب . وجعلت من العرب شعوباً وقبائل ، متناثرة متشاحنة ، ذات لهجات ، تشعر كل قبيلة منها ، انها أمة قائمة بذاتها ، ولها كيان خاص ، ونسب وجدّ ، ولاء أبناؤها للقبيلة ، ولرمزها : سيد القبيلة ولرؤسائها المتزعمين لفروعها ولأغصانها ، أو للمكان الذي أقامت فيه . ومجتمع مثل هذا ، حضره في مستوطنات متباعدة صغيرة ، وبدوه متباعدون متنافرون متشاحنون ، لا أمان فيه للافراد وللتجار وللمسافرين إلا بعقود وبعهود ، لا يمكن ان يظهر فيه اقتصاد متين متطور ، ذو انتاج متطور متقدم ، يفيض على حاجة أهله ، فيصدره الى الخارج ، فتخلف اقتصاده ، ولم ينتج إلا المواد الأولية البسيطة المتوفرة لديه ، مثل التمور والحبوب والخمور والجلود ، وهي سلع استهلكت في الداخل ، ولم يصدّر منها الى الخارج إلا القليل مثل الجلود ، ثم هو أخّر الزراعة وعاق أهل المال من البحث عن الماء لخوفهم من تعرضهم لغارات الأعراب الفقراء. وخطر الأعراب على الزرع لا يقل عن خطر الجراد عليه. لذلك لم يقبل المتمكن المتمول استنباط الماء ومن الزرع عليه، إلا اذا وجد نفسه في مكان مأمون وفي موضع محمي له فيه أهل وعشيرة وجوار .

أما السلع المعدنية ، فهي من حاصل مواطن الحضر ، وهي من حديد ، في الغالب، صنعت من حديد استخرج من معادن جزيرة العرب ، ومن حديد استورد من الخارج، ومن سلع حديد استوردت من الخارج ، إذا استهلكت أعيد سبكها ، ثم استعملت من جديد . وأغلبها صناعة سيوف وخناجر ، ومساحي ومناجل وما شابه ذلك من مواد ضرورية للحياة في جزيرة العرب . ولم نسمع بتصدير شيء منها الى الخارج ، لأنها لم تكن بانتاج واسع ولا باتقان لتنافس السلع المماثلة لها في الخارج ، بل نجد أن أهل جزيرة العرب كانوا يستوردون أمثالها من الخارج أيضاً ، لرخص ثمنها بالنسبة الى المنتوج المحلي ، ولتفوقها على المنتوج العربي في نقاوة المعدن وفي الصنعة والاتقان .

والمعادن في جزيرة العرب ، محدودة وبقدر وبشح في الغالب ، وقد تحدثت في الجزء الأول من هذا الكتاب عن وجود ذهب وفضة وخامات حديد ونحاس في مواضع من جزيرة العرب . وسأتحدث عنها أيضاً في أثناء بحثي عن الصناعة عند الجاهليين . وهي في العربية الغربية وفي العربية الجنوبية في الغالب . وقد

عرفت المواضع التي استخرج المعدن منها بـ (المعدن) و (معدن)[1] . والمعدن مكان كل شيء يكون فيه أصله ومبدؤه[2] . ولكن استخراج المعدن من منجمه وخامه ، يحتاج الى مال وعلم وأيد عاملة فنية ، لها مران وخبرة في الاستخراج وفي التنقية ، ليمكن استخراجه بكميات وافرة ، وبسعر اقتصادي مناسب ، منافس للأسعار العالية في الأسواق الأخرى . وهذه الشروط لم تكن متوفرة عند أهل الجاهلية ، لذلك لم نسمع بتصديرها من المعادن ، إلا الذهب ، حيث قدمه السبئيون للآشوريين وللعبرانيين ، رشوة وجزية كما تقول الموارد . أما المعادن الأخرى ، فلم نسمع في كتب المتقدمين على الإسلام من الأعاجم ، ولا في كتابات الجاهليين ولا في أخبار أهل الأخبار ، أنها صُدّرت الى الخارج .

وأما الأخشاب الصلدة الثقيلة القوية مثل الساج ، وهو خشب رزين قوي[3] ، ومثل الآبنوس ، والصندل ، وأمثالها ، فغير موجودة في جزيرة العرب ، وانما كانت تستورد من الهند في الغالب لعمل السفن وللأغراض الأخرى ، لأنها من أشجار تحتاج الى أمطار وحرارة ورطوبة ، وهي شروط غير متوفرة في أكثر أنحاء بلاد العرب . وفي بلاد العرب أشجار ذات خشب ، نمت في الجبال بصورة خاصة ، لذلك عرفت بـ (شجر الجبال)[4] ، سأتحدث عنها في أثناء بحثي عن الشجر ، أمدت أهل العربية الغربية والجنوبية ، بشيء من حاجتهم الى الخشب ، حيث استعملوه في البناء وفي الأثاث ، لكن أخشابها لم تكن قوية صلدة مثل الأخشاب المذكورة ، ثم ان الناس كانوا يقتطعون شجرها ولا يزرعون غيرها في مواضعها ، فقلّت ، وقلّ الخشب نتيجة لذلك ، حتى ان أهل الأخبار ليذكرون ان أهل مكة لما أرادوا تسقيف الكعبة ، لم يجدوا خشباً يصلح للتسقيف،فلما سمعوا بخبر تحطم سفينة رومية عند (الشعيبة) ، ذهبوا الى هناك ، وجاءوا بالخشب اللازم للتسقيف من ذلك الميناء . وخشب السراة،وخشب المواضع المرتفعة الأخرى، خشب لا يضاهي خشب الهند أو افريقية في الصلابة وفي المتانة والصلادة ، لذلك لم يستعمل في بناء السفن ولم يساعد في تطوير وسائل النقل في البحار .

---

١ كمجلس
٢ تاج العروس (٩/٢٧٥) ، (عدن) .
٣ تاج العروس (٢/٦١) ، (ساج) .
٤ تاج العروس (٨/٣٣٥) ، (الساسم) .

أما الأنحاء الأخرى من جزيرة العرب ، فلم يكن شجرها من النوع المنتج للخشب الصلد المتين الصالح لصناعة السفن أو لأعمال البناء ولصنع أثاث البيت وغيره ، وإذا وجد شجر ذو خشب أنبتته الطبيعة ، أو كان من زرع الانسان، فإنه لم يكن كثيراً ولا كافياً لسدّ حاجات الناس . ثم ان شجر الطبيعة — ما نبت منه في الجبال ، وما أنبت منه في السهول والمنخفضات — مشاع بين أهل المنطقة ، يقطعه من يريد ، لا يجبر قاطعه على زرع غيره في محله ، لذلك قضى عليه هذا القطع والاهمال ، وصار الخشب اللازم للنجارة وفي الأعمال الاخرى قليلاً في جزيرة العرب ، مع أنه من الوسائل المهمة الداخلة في تنمية الاقتصاد وفي الترفيه عن الناس وفي رفع مستواهم الحضاري .

ولم تعرف بلاد العرب بتصدير الخضر والاثمار والحبوب . فلم نعثر في الاخبار على خبر يفيد تصدير شيء منها الى العراق أو بلاد الشأم ، أو أي بلد آخر خارج حدود جزيرة العرب . بل نجد أنها كانت تستورد الحبوب والدقيق والزيوت من بلاد الشأم ، وذلك لان موارد الماء فيها لم تمكنها من زرع زراعة كثيفة واسعة ، فصارت زراعتها زراعة محلية في الغالب ، عمادها الاستهلاك المحلي ، أو التصدير الى الارضين المجاورة للمزارع في داخل الجزيرة وفي المواسم الجيدة وعند ظهور فيض في الحاصل ، فصارت اليمامة ريفاً لاهل مكة تمونهم بالحبوب، وكانت سوقاً للأعراب ، تمدّهم بالتمور . وكانت الطائف ، مزرعة تمد أهل مكة بالاثمار والزبيب .

والجمل في طليعة حيوان جزيرة العرب من حيث الفائدة والشهرة . هو رمز البداوة وعنوان الصحارى، والحيوان الوحيد الذي رضي بمصادقة الأعرابي وبتمضية حياته معه ، قاطعاً الفيافي والبراري معرضاً نفسه للجوع وللعطش ، ولتحمل الحياة الشاقة الخشنة في البادية ، مع الأعراب الغلاظ الجفاة ، الذين استصعب اخوانهم أهل الحضر العيش معهم ، وهو لولاه لما تمكن الأعراب من اختراق البوادي ومن التنقل بها ، ولما طابت لهم الحياة . فخيامهم من وبره ، وشربهم وكسر حدة جوعهم من لبن نياقه ، ثم هو طعامهم عند الحاجة ، ورأس مالهم ، اذا احتاجوا الى مال . تليه الخيل والضأن والمعز والحمير وغيرها . وهي كلها دونه بكثير في تحمّل العطش والجوع ومشقات الحياة ، ثم هي لا تستطيع تحمل غلظ الأعراب وصعوبة حياتهم ، لأنها أكثر رقة من الجمل ، لذلك اجتنبت البوادي،

وعاشت على المراعي الخضراء وعند مشارف الحضارة ، وشاركت الحضر في بيوتهم ، فهي من أموال العرب في الغالب ، أي الحضر والرعاة الملازمين للمراعي المتصلة بمشارف الحضارة .

ودولة الحيوان في جزيرة العرب دولة صغيرة ، اذا قيست بما يجب ان تكون عليه بالنسبة الى المساحة السطحية . وسبب صغرها ان المراعي الغنية بالعلف اللازمة لتربية الحيوان ولإكثار نسله ، لم تكن متوفرة عند أهل الجاهلية ، وان أصحاب الماشية كانوا عالة على الطبيعة ، لعسر أحوالهم وعدم تمكنهم من الانفاق على الماشية وتهيئة العلف الصحي اللازم لنمو الحيوان ولاكثار نسله، ثم إن الأحوال الاقتصادية لم تكن حسنة وعلى ما يرام ، بل كانت منخفضة ، وهذا ما حدّ من الاستهلاك المحلي ، وحدّ من عدد الذين كانوا يمتهنون حرفة تربية المواشي ، الى أسباب أخرى لا مجال للبحث عنها في هذا المكان .

والعدد العام لسكان جزيرة العرب ، في الجاهلية وحتى الآن هو قليل بالنسبة الى ما يجب ان يكون عليه اذا قسنا العدد بعدد الأميال المربعة التي تكوّن المساحة السطحية لبلاد العرب . وسبب ذلك ان المسكون المعمور منها ، قليل بالنسبة الى المهجور القفر ، والبوادي فيها أوسع وأكثر من الأرضين الصالحة للزرع وللرعي وللسكن . وان الموارد المعاشية التي تُعيّش الانسان وحيوانه ، لا تكفي في معظم أنحاء جزيرة العرب لاعاشة المجتمعات الكثيفة المكتظة ، والمستوطنات الضخمة : فالحسي أو العيون أو الآبار أو البرك ، أو ما أشبهها من موارد ماء ، لا يمكن ان تستضيف مجتمعاً كبيراً مع توابعه من المواشي، وهي لا تتمكن أيضاً من توفير الماء اللازم لزرع كثيف ، ولتهيئة كلأ تعلفه المواشي. لذلك صار حجم مستوطناتها يتناسب مع حجم الماء المتوفر فيها ، وانتاجها انتاج محدود ، هو حاصل زراعي في الغالب ، يختلف قلة وكثرة باختلاف حجم المساحات المزروعة ، أي سعة الماء الموجود في المستوطنة .

وفي هذه المستوطنات وفي الأرياف والقرى، نجد الملكية الفردية ، بصور متباينة. ملكية دور ثابتة ، وملكية مزارع وآبار . فالذي يحضر بئراً وينفق من ماله على حفرها تكون البئر بئره ، في امكانه بيع الماء منها للمحتاج اليه ، وفي امكانه الزرع عليها ، فيكون الزرع زرعه بالطبع ، وله بيع حاصله من تمر أو خضر ، أو

حب . والذي أقام على مقربة من الحضر ، ولا سيما من حضر العراق وبلاد الشأم استطاع الاتجار مع تلك البلاد ، ببيع ما عنده من ماشية وجلود وبشراء ما كان يحتاج اليه من مواد ضرورية، أو من مواد يتاجر بها مع المستوطنات ومع الأعراب. فتولد رأس المال في هذه المستوطنات ، ولا سيما في الكبيرة منها ، ذات الماء الغزير ، وجاء الرأس المال بالعبيد ، لتشغيلهم في الزرع .

أما البوادي وديار الأعراب ، فالأرض فيها للقبيلة ، ما خلا الاحماء . وأما الماء والكلأ فللجميع ، لا يمنع أحد من أبنائها من وروده ، وحق الرعي فيهما للجميع . لصاحب الإبل حق رعي إبله في أي موضع شاء من حيّه ، وله أن ينقل بيته في (ديرته) ، ليجد لإبله الكلأ اللازم لها ، وأن يذهب الى البرك ومواضع الماء لأخذ ما يحتاج اليه من الماء ، الذي يكون في الغالب على ساعات أو أيام من بيته . واذا جف الكلأ واختفى خير الأرض ، اضطر للانتقال الى مواضع أخرى ، ليجد فيها ما يعلف إبله . وفي هذا المجتمع الاعرابي ، ملكية فردية ، هي ملكية الخيام وما فيها من أشياء بسيطة وملكية إبل ، وبعدد ما يملكه الإنسان من جمال ونوق ، تقدر ملكية الأفراد . وفيه شيوع : شيوع في الماء والكلأ والنار. الماء للجميع ، ما لم يكن محمياً ولا مملوكاً ، والنار للجميع ، أي حق الاحتطاب ، فلكل حق قطع الشجر وما يراه من زرع نابت غير محمي ولا مملوك .

ومجتمع على هذا النوع من البساطة في الحياة ، يكون اقتصاده بالطبع بسيطاً ، الجمل والناقة فيه ، المال ورأس المال . وكل شيء يقاس فيه على عدد من الناحية الاقتصادية، ما يملكه الانسان من أباعر ونوق . فهو اقتصاد إبل ، الإبل فيه في محل الدراهم والدنانير أو الفضة والذهب . وهو عالم استهلاكه قليل وتصديره قليل كذلك ، ليس فيه استهلاك سلع متطورة ، وليس فيه انتاج متطور ، كل انتاجه الإبل ومشتقاتها وكفى .

وقد حالت البراري بين العرب وبين تكوين المجتمعات الكبيرة ، وعرقلت الاتصال بين المستوطنات التي بعثرتها ونشرتها هنا وهناك . وبعثرت الأعراب في البوادي على شكل قبائل وعشائر ، تغزو بعضها بعضاً طمعاً في رزق هي في حاجة اليه ، وتعقد أحلافاً فيما بينها للدفاع عن نفسها ، ثم هي توجه كل أنظارها نحو

المستوطنات ومواضع الحضر ، لتجد فيها غفلة أو موضع ضعف تدخل منه الى ديارهم لتأخذ منها كل ما يمكن أخذه ، وكل شيء يقع في أيديهم هو ثمين بالنسبة لهم ، لأنهم لا يملكون شيئاً ، والذي لا يملك شيئاً ويجهل قيم الأشياء يحسب كل شيء يقع في يديه ثميناً له قيمة . وهكذا صارت البوادي والأعرابية من عوامل القلق وعدم الاستقرار في جزيرة العرب،ومن عوامل التحاسد والتباغض والتناحر فيما بين سكانها لأتفه الأسباب ، حتى صارت من الأمراض المستعصية عند العرب ، التي لا تزال باقية حية . وفي ظروف من هذا النوع ، لا يمكن أن يظهر فيها اقتصاد متطور وانتاج كبير ، وان يرتفع مستوى حياة الناس ، فتأخر اقتصاد سكان جزيرة العرب ، وغلب على سواد الناس . وهبط بينهم مستوى المعيشة ، حتى اضطر البعض إلى وأد بناتهم خشية املاق، أو بيع أولادهم من جوع وفقر .

وقد وجدت هذه الروح الأعرابية بين الحضر كذلك ، تجسمت في العصبية للحي وللقرية ، وفي تناحر الزعماء على الزعامة والملوك على الملكية ، حتى في اليمن التي تمثل النموذج الحسن للانسان الحضري الطيع الهادىء،نجد الملوك يحاربون بعضهم بعضاً ، والزعماء يثورون على ملوكهم لأخذ عروشهم ، مما حمل الحبش والفرس والروم على التدخل في شؤونها ، فدمرت المدن والقرى والمستوطنات ، وأحرق الزرع ، وتباهى الملوك والثوار بعدد ما أحرقوه من مدن وقرى وزرع ، ومحيط تسوده الفتن والقلاقل والحروب لا بد وان يتأثر اقتصاده بها ، وأن يتأخر زرعه وعمله ، وكيف يعمل الانسان ويجازف بماله ، وهو غير مطمئن على حياته ولا واثق من يومه ولا مما سيأتيه به الغد من مصائب وأحزان !

لقد حالت البوادي بين العرب وبين ظهور اقتصاد متقدم متطور عندهم ، يقوم على تحويل المواد الأولية ، أي المواد الخام الى مواد أفيد منها وأهم ، والى انتاج كبير راق ، يجلب لهم دخلاً طيباً يرفع من مستواهم . فساءت أحوالهم وغلب الفقر عليهم . وصار معاشهم ضيقاً ، وحياتهم الاقتصادية متأخرة ، أغلب منتجاتهم بسيطة ، ليس فيها تطوير ولا تنويع ، ولا تصنيع ، وليس في أسواقهم مشترون جيوبهم منتفخة بالعملة ، ليجازف التاجر بجلب سلع متنوعة اليها،فصارت سلعهم قليلة ، اقتصرت على السلع الضرورية جداً للبيت ، وعلى الناتج الطبيعي المستحصل من الزرع أو من الحيوان ومن الحاصل المحلي في الغالب .

وقد أوجد عدم التناسق والتناسب والاتزان بين نسب توزيع الخصب الى الجدب تبايناً كبيراً في كيفية توزيع الناس ، فجعل السكان ثلاث طبقات : أهل مدر ، وهم حضر مستقرون ، وهم أرقى أهل جزيرة العرب . وأهل وبر ، وهم أعراب يقطنون البوادي . وطبقة ثالثة ، كانت بين بين ، ووسط بين الحضر وبين البدو ، عاشت على اتصال ومقربة من الحضر ، لم تبتعد عنهم ، ولم تفارق الماء والحضارة ، بل لازمتها ، ولم تمعن في البادية إلا في أيام الربيع عند نزول الغيث واخضرار الأرض، فتبتعد عندئذ بماشيتها الى البادية لتنعم هناك بنعمة الربيع. وهي جماعة الرعاة . والرعاة قوم بين الحضر وبين الأعراب . كانوا متنقلة في الأصل ، فلما قاربوا الماء والحضر ، تأثروا بالظروف الجديدة ، فاستقروا بعض الاستقرار ، وأضافوا الى رعاية الإبل ، رعاية البقر والغنم والخيل . وكان هؤلاء مادة الحضر في الغالب ، والجرثومة التي كونت المجتمع الحضري .

واقتصاد الأعراب اقتصاد واحد ، وان تنوع أصحابه قلوا أو كثروا ، قبائل كانوا أم عشائر أم أفخاذ . لأن جذوره وأسسه واحدة، هي البادية وتربية الإبل ، وليس في البادية غير كلأ وعشب وشجيرات أو أشجار ، تعلف أوراقها وأغصانها الإبل ، ويحتطبها البدو لبيع حطبها من أهل الحضر ان كانوا على مقربة منهم ، أو لاستعماله وقوداً لهم ، أو فحماً يبيعونه للحضر ، وليس فيها غير (وبر) ، وشيء من الملح ، يحملونه الى أهل الحواضر لبيعه منهم . وأما مشترياتهم ، فبسيطة، تمور ودقيق وأبسط أنواع الثياب وما يحتاج البيت اليه من مواد . واقتصاد من هذا النوع ، لا يساعد على ظهور رأس مال كبير ، وعلى حدوث تطوير في الصناعة، لذلك تخلف اقتصاد الأعراب عن اقتصاد المستوطنات والقرى بدرجات ودرجات .

أما اقتصاد أهل الحضر ، فإنه اقتصاد متطور بالقياس الى اقتصاد الأعراب : اقتصاد البداوة ، أو اقتصاد بدوي إن شئت تسميته بذلك . اقتصاد الحضر متفاوت في الدرجات ، أبسطه اقتصاد المستوطنات الصغيرة المنتشرة في بواطن جزيرة العرب وأعلاه اقتصاد المدن الواقعة في أطراف الجزيرة وعلى سواحل البحر وفي أرضين خصبة غنية بالماء وبالزرع . وقد برز بعض أهل تلك المستوطنات في التجارة ، وبرز بعض آخر بالزراعة ، وجمع بعض آخر بين الزراعة والحرف اليدوية القائمة على أساس تحويل المنتجات الزراعية الى منتجات أخرى ، أو تحويل الجلود الى

أدم ، أو تحويل المواد الأولية المتيسرة الى مـــواد ذات ضرورة للمجتمع . وهي إما استهلاكية ، تُوجِرَ بها في الأسواق الداخلية ، وإما انتاجية، صنعت للإستهلاك المحلي وللتصدير .

ومن أبرز المستوطنات التي ظهرت في باطن جزيرة العرب ، مستوطنات اليمامة، والمستوطنات التي ظهرت على الأودية ومواضع الماء . وقد عاشت عـلى الزراعة وتربية الماشية ، وموّنت الأعراب بالتمور ، وموّنت الحجاز بالحبوب . ومنهـا ما كانت ملتقى طرق برية ، ربطت العربية الجنوبية بالعراق ، ومنها ما ربط بين العربية الشرقية وبلاد الشأم . وأنا آسف ، لأن أقول إن معارفنا عن المستوطنات قليلة ، لعدم وصول شيء في النصوص الجاهليه عنها ، ولعدم تطرق أهل الأخبار اليها ، إلا عندما يكون لذكرها صلة بالأيام أو بالشعر أو بالحوادث البارزة جداً التي وقعت قبيل الإسلام ، أو التي كان لها اتصال بظهور الاسلام .

وأما المستوطنات التي برزت وظهـــرت في أطراف الجزيرة ، فهي عديدة ، أشهرها وأعرفها وأعرضها ذكـــراً مكة والمدينة . مكة في التجارة ، والمدينة في الزراعة . ولا يعني ذلك،ان المدينتين المذكورتين كانتا أعظم المستوطنات المذكورة، وأبرزهما في التجارة والزراعة عند ظهور الاسلام ، وان البقيـــة الباقية ، لم تكن لاحقة بهما في الناحيتين . فقول مثل هذا لا يمكن ان يجزم به مؤرخ حصيف ، وانما جاءتهما هذه الشهرة بفضل الاسلام،فقد ظهر الاسلام في المدينتين المذكورتين، ونزل القرآن الكريم فيهما ، وأشير فيه الى أمور عديدة وقعت بهما،وعاش الرسول فيهما ، فمن هنا صار اهتمام العلماء وأهل الأخبار بهما أكثر من سائر مواضع جزيرة العرب ، ولا سيما المواضع البعيدة النائية عن المدينتين ، والتي لم يكن لها اتصال متين بظهور الاسلام ، ومن هنا كثرت أخبارهما ، حتى ظن الناس ان مكة قبل الاسلام . كانت أرض التجارة والتجار ، وقبلة جميع العرب، ومجمع أصنام كل العرب ، وموضع تكدس الأموال، وبلد الربا والمرابين . وهو استنتاج أخذ من الروايات التي قصها أهل الأخبار عنها دون نقد ولا تحليل . ولكننا لو استعرضنا ما ذكره أهل الأخبار أنفسهم عن هجر وعن البحرين وبقية العربية الشرقية ، فانه يرينا على قلته ، ان مدن وقرى هذا الجزء من جزيرة العرب ، لم تكن أقل درجة في المال والتجارة والانتـاج من مكة أو المدينـــة ، إن لم تكن قد تفوقت عليهما بالفعل ، بدليل ما جاء في أخبارهم عن مقدار الزكاة والصدقات التي أرسلها عمال

الرسول والخلفاء الى المدينة ، فانها تدل على وجود تجارة وأعمال في هذه الأرضين ربما كانت قد فاقت أرباح وأعمال أهل مكة ، لكننا لا نعرف عنها شيئاً ، بسبب عدم اهتمام المؤرخين والأخباريين بأخبارها في الجاهلية ، لعدم وجود صلة لها بتأريخ الاسلام ، أو بسبب عدم وقوفهم على أخبارها ، فلم يتطرقوا لذلك الى شيء من أحوالها بصورة مفصلة،فظهرت وكأنها قد تأخرت عن مكة من النواحي الاقتصادية بكثير . وصارت مكة،بذلك،الموطن المتفوق الأول في المال وفي الزعامة وفي كل شيء في جزيرة العرب .

لقد أثر الجو اذن على اقتصاد جزيرة العرب ، كما أثر عليهم في كل شيء، حتى صيرهم على النحو المعروف،لهم خصائصهم وصفاتهم المميزة لهم عن غيرهم، ولو كان للعرب جو مثل أجواء أوروبة ، لكان شأنهم ولا شك في التأريخ شأن آخر . على كل ، فقد كتب عليهم أن يعيشوا في الجو المذكور ، وكان من نصيبهم في هذه الحياة حرارة وجفاف ، وحرارة ورطوبة ، وأرضون غلب عليها اليبس والجفاف ، فصارت موارد رزقهم شحيحة في الجاهلية، وتخلفوا عن غيرهم في الانتاج وفي الابداع ، وغلب على سوادهم الفقر . والفقر كافر لا يرحم ، ولولا (النفط) اليوم ، الذي جاء على عرب القرن العشرين بالمال ، لما تضخمت جيوب الأسياد ، وبنيت القصور الشاهقة الضخمة بالملايين من الجنيهات ، وأملي ان يكون هذا المال سبباً في استغلال العرب أنفسهم لمواردهم الظاهرة والباطنة ، وأن يكون سبباً من أسباب التعمير ، لا الانفاق والتبذير ، وأن يحول الطاقات المهملة الى طاقات منتجة ، قبل أن يأتي يوم تنضب فيه آبار النفط ؛ أو ان يموت النفط فيه أو يهمل،بسبب العثور على موارد تكون أحسن نوعية وأقل كلفة منه .

لقد جعل هذا الجوّ العرب — كما سبق أن ذكرت — قبائل وشعوباً متنابذة متخاصمة ، متحالفة متعاقدة متآخية ، متطرفة في كل شيء ، متطرفة في حبها وفي اخلاصها ، متطرفة في الوقت نفسه في بغضها وفي حقدها ، تميل الى المادة الى درجة العبادة ، ثم تتطرف في أمور عاطفية بعيدة عن المادة والماديات بعداً كبيراً، تمجد العقل والتعقل ، وتقيم وزناً كبيراً للحكمة ولضرب الأمثال ، حتى ليخيل إليك أن كل أفعال الناس وأعمالهم إنما تصدر منهم عن عقل وحكمة ، لكنك سرعان ما تصطدم بوجود واقع آخر ، هو واقع تغلب العواطف على العقل ، وانصياعهم الى الانفعال وسرعة التأثر وفقدان الوزن بين الأمور بميزان العقل ،

وتركهم أنفسهم فريسة لهذه العواطف ، تعبث بهم في حياتهم ، ولا تزال تعبث بهم الآن . تراهم كرماء ،يقدمون أعز شيء عندهم لضيوفهم ، بإسراف وتبذير، ثم تراهم بخلاء يحرصون على أتفه الأشياء أحياناً حرصاً يدفعك على الاستغراب من وجود هـــذا التضاد في الأخلاق ، أو ما نسميه بازدواج الشخصية في اصطلاح المحدثين على نحو ما تحدثت عن ذلك في الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب .

لقد أثرت الطبيعة اذن في تكييف اقتصاد الجاهليين وفي تعيين موارده ، وفي توجيههم توجيهاً تجارياً في المواضع التي قلّ فيها الزرع ، مثل مستوطنات الأطراف حيث نجد أهلها يميلون الى التجارة ، ويرون فيها مهنة من أشرف المهن،وتوجيهاً زراعياً في المواضع التي توفرت فيها شروط الزراعة ، وتوجيهاً رعوياً في المواضع الأخرى ، لا سيما بين الاعراب . فلندخل الآن في استعراض هذا التوجيـــه وفي دراسة الموارد الطبيعية لجزيرة العرب ، وفي دراسة كيفية تعامل أهل الجاهلية في الاسواق ، بعد أن قدمنا مقدمتنا القصيرة عن أثر الطبيعة في الاقتصاد .

الفصل التاسع والثمانون

الزرع والمزروعات

والزراعة هي عماد ثروة اليمن وبقية العربية الجنوبية والمواضع التي تتوفر فيها المياه في جزيرة العرب . وهي رأس مالها الاكبر في حياتها . والمورد الأول الذي يتعيش عليه النـاس . وقد انحصرت في المواضع الخصبة ، أي في المواضع التي جادت عليها الطبيعة بالأمطار أو بالينابيع والجعافر والعيون وبالمياه الجوفية القريبة من سطح الأرض وبالحسي وما أشبه ذلك . وحيث أن أغلب أرض بلاد العرب هي أرض صحراوية موات ، لهذا فإن الزراعة فيها معدومة ، ويمكن في المستقبل احياء قسم منها،وذلك باستخدام الوسائل الحديثة التي استنبطها العقل والتي سيستنبطها في استخراج الماء وفي اصلاح التربة ، وسيتحول شكل جزيرة العرب عندئذ عمّا هو عليـه الآن كثيراً ولا شك . وقد حولت في هذه الأيام منـاطق موات ، الى أرض عمار ، تسقى بالميـاه المنبعثة من الآبار (الارتوازية) ومن السدود التي حبست ميـاه السيول ، وصارت تنتج في مواضع عديـدة من جزيرة العرب غلة زراعية وافرة بفضل استعمال الفن الحديث في استنباط الماء وفي كيفية الاستفادة من التربة وفي ادخال أساليب الزراعة الحديثة الى هـذه الأماكن . وقد يأتي يوم ، تتحول فيه معظم أرض جزيرة العرب الفارغة المهملة التي يخشى الانسان من ولوجها الى أرض خصبة منتجة ، اذا ما زرعت زراعة حديثة ، تناسب جو بلاد العرب وتركيب تربتها،واستنبطت المياه الكافية من جوفها للزراعة وللشرب .

ونحن وإن كنا لا نملك مراجع جاهلية مكتوبة واسعة تتحدث عن الزراعة في

جزيرة العرب قبل الاسلام وعن أنواعها وتفاصيلها وأساليبها وطرقها وضرائبها وعن كيفية استغلال الأرض وطرق الاستفادة منها وواجب الفلاح تجاه صاحب الأرض، وعن الحاصلات السنوية ومقدار ما تأخذه الحكومة من المزارعين من ضرائب ، وأمثال ذلك من أمور متصلة بالزراعة ، لكنا قد تمكنا من تكوين رأي فيها من مراجعتنا للكتابات الكثيرة التي وصلت الينا وفيها أمور متعددة لها علاقة بهذه الموضوعات، كما ان آثار الأقنية والسدود الجاهلية المنتشرة في مختلف نواحي اليمن ، هي في حد ذاتها شاهدة على مقدار توسع اليمانيين في الزراعة في ذلك العهد. ونجد مثل هذه الآثار الجاهلية في مواضع أخرى من جزيرة العرب ، وهي دليل واضح على انها كانت مزروعة معمورة، لا مغمورة مهملة كما هو شأنها في الوقت الحاضر.

أما بخصوص الزراعة واستغلال الأرضين وايجارها وجباية الضرائب عنها والعقود التي كان يعقدها الملوك مع كبار الاقطاعيين وتنظيم المياه وأمثال ذلك، فقد وصلت الينا كتابات وأوامر عامة فيها ، كان يصدرها الملوك و (الكبراء) ، يعلنونها على الناس ، ليطلعوا عليها ، وليعملوا بموجبها ، تكتب على الحجارة ، وتوضع في محلات عامة ، أو في خزانات المسؤولين وذوي الشأن، ليرجع اليها حين الحاجة.

وهنالك كتابات كتبها رؤساء عشائر وأصحاب أملاك ، عن حدود أملاكهم، أو عن تأجيرها لغيرهم ، أو عن انشاء سدود لضبط المياه وتوزيعها ، أو عن حفر آبار ، وأمثال ذلك ، وهي كلها على صفتها الشخصية ذات قيمة بالقياس إلى هذا ، لما ورد فيها من أفكار ومصطلحات فنية ، تمكننا من تكوين رأي في الزراعة والنظم الاقتصادية في العربية الجنوبية في ذلك العهد .

واذا كنا قد حصلنا على فكرة ما عن الزراعة في اليمن وفي بعض أقسام العربية الجنوبية استناداً الى الألفاظ والمصطلحات الزراعية في الكتابات الجاهلية والى الوثائق الخاصة بالأرض وبالضرائب وبالتأجير وبعقود البيع والشراء ، والى بعض الصور المنقوشة على هذه الكتابات ، فاننا لم نعثر ، ويا للأسف ، على كتابات جاهلية تتحدث عن هذه الأمور في الحجاز وفي أواسط جزيرة العرب وفي الأقسام الشرقية منها ، وآراؤنا عنها مستمدة في الدرجة الأولى من المراجع الاسلامية ومن مشاهدات السياح لمناطق الآثار ووصفهم آثار الزراعة في المناطق التي مروا بها ، ومن تقارير الخبراء (الجيولوجيين) وغيرهم من موظفي شركات النفط العاملة في جزيرة العرب .

وفي لغة المسند مصطلحات زراعية تعبر عن معان خاصة ، وفيها مسمّيات لآلات وأدوات استخدمت في الزراعة . ولا بد أن تكون لهجات أهل العربية الجنوبيــة أوسع ألفاظاً في الزراعــة من لهجات العرب الآخرين القاطنين في الأنحاء الأخرى من جزيرة العرب ، بسبب تنوع الأجواء في العربية الجنوبية ، وما أعقب ذلك من تنوع الزرع وطرق الزراعة فيها ، أضف الى ذلك خصب التربة ووجود الماء فيها ، وجوداً لا يماثله أي مكان آخر في جزيرة العرب . فظهرت فيهــا ألفاظ زراعة ومصطلحات زراعية لم تعرفها عربيات بقية جزيرة العرب،اضطرت اللهجات الأخرى إلى أخذهــا منها ، لعدم وجودها عندها ، ونجد في معجمات اللغة وفي كتب النبات والأدب ألفاظاً زراعية ، نص العلماء على أنها من لغات أهل اليمن .

وقد حفظت الأيام بعض الحجارة المكتوبة بالمسند ، وعليها صور ، أفادتنا في تكوين فكرة عن ملامح المزارع قبل الاسلام ، وفي تبين طراز معيشته ، وشكل بعض ملابسه ، وما شابــه ذلك . وبين هذه الحجارة المصورة المكتوبة ، حجر حفرت عليه صورة حرّاث حافي القدمين وقد ارتدى ثوباً بلغ ركبتيه وشد وسطه بحزام وأمسك بيده اليسرى الحبل أو النطاق المتصل بالمحراث ، وباليمين آلة على هيأة فأس من خشب ، ربما استعملها في ضرب ثوري المحراث ، أو استعملهـا في حفر الأرض أيضاً وفي تفتيت التراب المحفور . وقد رُبط الثوران بالمحراث، وأخذا يحرثان الأرض ، والفلاح يوجههما . ورسمت تحت الصورة صورة ثلاثــة رجال ، يظهر من ملامحهم ومن شكل ملابسهم أنهم كانوا من أصحاب الأرض.

ولأهل اليمن سبق على غيرهم من أهل جزيرة العرب في الزراعة ، وهم حتى الآن على ما كانوا عليه من ميل اليها ، ويشتغل عدد منهم اليوم في المملكة العربية السعودية أجراء لغيرهم في زراعة الأرض ، أو مشاركون لأصحاب الأرض في الحاصل . أمــا الأعراب ، فكانوا يزدرون شأنها ، وينقصون من قدر المزارع (الحضار) . ونجد هذه النظرة الازدرائية الى المزارع عند أهل الحضر أيضاً ، حتى أن بعض الصحابة كرهوا تعاطي العمل في الأرض ، حتى بعد الفتح، تاركين ذلك الى أهل الذمة . روي عن (أبي أمامة الباهلي) أنه قال ، إذ رأى سكــة وشيئاً من آلة الحرث ، فقال : سمعت النبي يقول : لا يدخل هــذا بيت قوم إلا أدخله الذل . قالوا في تفسيره: « لما يلزمهم من حقوق الأرض التي يزرعونها، ويطالبهم بها الولاة . بل ويأخذون منهم الآن فوق ما عليهم بالضرب والحبس ،

بل ويجعلونهم كالعبيد أو أسوأ من العبيد ، فإن مات أحد منهم ، أخذوا ولده عوضه بالغصب والظلم ، وربما أخذوا الكثير من ميراثه ويحرمون ورثته ، بل ربما أخذوا من ببلد الزارع فجعلوه زراعاً ، وربما أخذوا ماله »[1] . وهو تفسير فيه شيء من التكلف ، يفصح عن كراهية القوم للزراعة أكثر من المعنى المذكور ، وأما الحديث نفسه ، من حيث الصحة أو الضعف ، فللعلماء كلام فيه . وفي كتب الحديث أحاديث أخرى تحث على الزراعة والزرع .

وورد في الحديث أن الرسول كان يحدث جمعاً من الصحابة عن الجنة ، وعن رجل زرع في الجنة فاستوى نباته ، وعنده رجل من أهل البادية ، فلما انتهى الرسول من كلامه ، قال الأعرابي : « والله لا تجده إلا قرشياً أو أنصارياً ، فإنهم أصحاب زرع . وأما نحن ، فلسنا بأصحاب زرع »[2] .

وكراهة الزرع ، كراهية نشأت من عدم توفر الماء والأرض لأكثر الناس ، فصاروا يكرهونها ،أما الذين ملكوهما فلم يزدروها ولم يغضوا من شأنها، والأعرابي لا يملك شيئاً ، فصار يكره كل شيء لا يملكه ولا يقدر عليه ، من زراعة ومن حرف ومن قيود اجتماعية ومن تنظيم ، ومن كل ما يخالف مألوفه من عرف وتقاليد . ولذلك صارت الزراعة من عمل أهل المدر ، وعمل كل من وجد لديه الماء الوافر ، ليأخذ منه ما يلزمه للزرع ، وسادات القبائل ، الذين توفر الماء عندهم ، أو كان لديهم المال لتشغيله في البحث عن الماء ، زرعوا مثل أهل الحضر ، وشغلوا العبيد وأتباعهم في الزراعة ، لما وجدوا فيها من مكسب وربح ، وكان للكثير منهم زرع وحوائط .

ونظراً لتغير الحال عند العرب في الاسلام ، وظهور الدعوة فيه الى الأمة والجماعة ، فقد حث الرسول المسلمين على الزرع ، وظهر من روى عن الرسول انه قال الزراعة أفضل المكاسب ، وذلك لما فيها من عموم الانتفاع ، حتى ان منهم من فضلها على التجارة للتوسعة على الناس ، ولما للقوت الذي يأتي منها من صلة بحياة الناس[3] . ومع ذلك ، فقد بقي العرف الجاهلي مسيطراً على عقلية السادة

---

١ ارشاد الساري (٤/١٧٢) .

٢ ارشاد الساري (٤/١٩٠) .

٣ ارشاد الساري (٤/١٧١) ، (ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة الا كان به صدقة) ، صحيح البخاري (كتاب المزارعة وفي كتاب الادب في باب رحمة الناس والبهائم) ، صحيح مسلم (كتاب البيوع في باب فضل الغرس والزرع) ، زاد المسلم (٢/٣٣٣ وما بعدها) .

الكبار ، من افتخارهم بحيازة الأرض ، ومن ازدرائهم من الاشتغال بأنفسهم بها ، فكانوا يستخدمون العبيد والأجراء وكُرّاء الأرض في استغلالها ، فهؤلاء وأمثالهم خلقوا للعمل في الأرض ، أما هم فقد خلقوا ليكونوا سادة ، عملهم امتلاك الأرض ، وقد ظهر من هؤلاء جيل امتلك أرضين واسعة في البلاد المفتوحة شغل فيها أهل الذمة ، والنبط وسكان الأرضين المفتوحة ، ومئات وآلافاً من الرقيق والعبيد ، كان عليهم العمل ، ولسيدهم الكسب الوفير والمغنم .

وقد يزرع أهل الحضر في جوف القرية من النخيل والأشجار ، أو داخل ما طاف به سور المدينة ، ويقال لذلك (الضامنة) ، لأن أربابها قد ضمنوا عمارتها وحفظها ، فهي ذات ضمان ، محروسة آمنة ، وتحت رعاية وعيون أصحابها . وقد يزرعون خارج قريتهم ، وخارج العمارة في البرّ ، أي في الضاحية ، ويقولون لذلك (الضاحية) . وفي كتاب النبي لأكيدر : إن لنا الضاحية من البعل ، وان لكم الضامنة من النخل[1] . وقد كان زرع أهل الطائف وأهل يثرب وقرى اليمامة واليمن وغيرهـا بين ضاحية وضامنة . والضاحية أوسع وأكثر بالطبع ، لاتساع العين ووفرة الماء .

ولم يكن من الممكن بالنسبة لأيام الجاهلية ، زرع مساحات واسعة بالحبوب أو الخضر والنخيل وبقية الشجر ، لصغر حجوم المياه ، وقلة المطر ، وعدم كفايته لارواء الزرع منذ بذر بذوره حتى حصاده ، وللظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت مهيمنة على مجتمع ذلك العهد ، من عدم وجود حكومات قوية كبيرة ترعى الأمن وتحمي حقوق المزارع وزرعه من العبث به ، ثم تشجيعه وتقديم المعونة له . لذلك كان من الصعب ظهور مزارع كبيرة تنتج غلات عظيمة تعرض للاستهلاك المحلي وللتصدير . ولم يكن في وسع أحد انشاء مثل هذه المزارع إلا اذا كان متمكناً ذا مال ونفوذ ، وصاحب عشيرة قوية ، تحمي حقه ممن يريد الاعتداء عليه .

وزرع ، بمعنى طرح البذر . وقيل الزرع نبات كل شيء يحرث . ويقال زرعت الشجر كما يقال زرعت البرّ والشعير . والزريعة الشيء المزروع ، والزرعة البذر[2] . فالزراعة اذن ، هي التي تكون بفعل انسان . بطرح بذراً أو يغرس

١ تاج العروس (٢٦٦/٩) ، (ضمن) .
٢ تاج العروس (٣٦٨/٥) ، (زرع) .

غرساً ، أو ينبت نبتاً . وأزرع الزرع طال . وموضع المزروع المزرعة . وقد غلب على المكان الذي يزرع برّاً وشعيراً[1] .

ويكون (الغرس) بفعل انسان ، يقوم بغرس الغرس . وغرس الشجر يغرسه غرساً ، أثبته في الأرض ، والغرس الشجر ، والغراس وقت الغرس[2] . فلا يكون الغرس ببذور ، وانما بغرس غرس ، ينمو ويكبر ، فيصير غرساً . ولا تعبر لفظة (غرس) عن ظهور النبات بفعل الطبيعة ، وانما تعبر عن غرس (فسيل) ليصير شجراً . من ذلك فسيل النخل ، وقضبان الكروم والأوراد،وأمثال ذلك[3] . ويعبر عن صغار الفسيل بـ (الوديّ) . وفي حديث أبي هريرة ، لم يشغلني عن النبي غرس الودي[4] . و (التغاريز) ما حول من فسيل النخل[5] .

وغرسوا الشجر سككاً . والسكة السطر المصطف من الشجر والنخيل . وقد كانت بساتين يثرب سككاً مسطرة بسطور النخل . ومنه الحديث : خير المال : سكة مأبورة ومهرة مأمورة . المأبورة المصلحة الملقحة من النخل، والمأمورة الكثيرة النتاج والنسل[6] . وغرسوا النخل أسطراً على جانبي مسايل الماء والجداول والسواقي. والسطر ، الصف من الشيء كالكتاب والشجر والنخل . يقال بنى إسطراً من نخل، وغرس سطراً من شجر ، أي صفاً[7]

وغرسوا (الكرم) سككاً كذلك . وقد يتخذون له (عريشاً) يعترش العنب . و (العريش) ، ما عرش للكرم من عيدان تجعل كهيأة السقف ، فتجعل عليها قضبان الكرم فتعترشها[8] .

ويعبر بلفظة (نَبَتَ) عن كل ما نبت من نفسه ، أي بدون فعل فاعل، وانما بفعل الطبيعة في التربة ، وذلك في الغالب المألوف . وذلك بتأثير المطر عليها، أو بتأثير السيول والطوفان والرطوبة والمياه الجارية ، وأمثال ذلك ، مما يكون سبباً

---

١ تاج العروس (٣٦٨/٥) ، (زرع) .
٢ تاج العروس (٢٠١/٤) ، (غرس) .
٣ تاج العروس (٥٨/٨) ، (فسل) .
٤ تاج العروس (٣٨٧/١٠) ، (ودي) .
٥ تاج العروس (٦٤/٤) ، (غرز) .
٦ تاج العروس (١٤٣/٧) ، (سك) .
٧ تاج العروس (٢٦٦/٣ وما بعدها) ، (سطر) .
٨ تاج العروس (٣٢٢/٤) ، (عرش) .

لنبت النبات . يقال : « نبتت الأرض وأنبتت » ، و « نبت الكلأ »[1] .

وترد لفظة (سقح) بمعنى زرع وغرس في لغة المسند[2] . وقد فسرها بعض علماء العربيات الجنوبية بمعنى هيأ المـــاء وجمعه وأجرى السواقي والأرض وحفـــر القنوات ومهدها للزرع ، وبعبارة مختصرة التمهيد لكل شيء ولكل عمل[3] .

التربة :

وللتربة عند العرب أسماء ، وذلك لأهميتها بالنسبة الى حياتهم . فنجد في كتب المعاجم ألفاظاً كثيرة لها ، من حيث لونها ومن حيث خصبها ومن حيث نوعهـا ومن حيث وجود الماء فيها الى غير ذلك . وهم يقولون للأرض الطيبة السهلـــة التي لا يعلوها السيل (الأبهر) . وقيل الأبهر ما بين الأجبل[4] . ويقولـــون : (السُخاخ) للأرض اللينة الحرّة[5] . ويقولون أرض حلاوة ، تنبت ذكور البقل[6] . و (الخصب) نقيض الجدب ، وأرض خصبة منبتة ، قابلة للزرع . و(العثعث) ما لان من الأرض ومن مكارم المنابت : وقيل الكثيب من السهل أنبت أو لم ينبت[7] . و (الجادسة) ، الأرض لم تعمر ولم تعمل ولم تحرث . ورد في الحديث : من كانت له أرض جادسة ، قد عرفت له في الجاهلية حتى أسلم ، فهي لربها . أي الأرض التي لم تزرع قط[8] .

والسبخة ، أرض ذات نزو وملح . والسباخ الأرض التي تعلوهـــا الملوحة ، ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر[9] .

---

١ تاج العروس (٥٨٨/١) ، (نبت) .

٢ كما في هذه الجملة : « وسقح كل اسررس وجروبس » ، أي « وزع كل الاوديه والجروب » ، Mordtmann und O. Mittwoch, Alt sud. Inchr., S. 9.

٣ وذلك كما في هذه الجملة : « صير وبقر وجرب وبقل وسقح كل اسررم وجربم » ، ومعناها « صير وحرث وعمل المدارج وزرع البقول ومهد كل الاودية والجرب » ، REP. EPIGR 3856, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 35.

٤ تاج العروس (٦٣/٣) ، (بهر) .

٥ تاج العروس (٢٦١/٢) ، (سخ) .

٦ تاج العروس (٩٦/١٠) ، (حلو) .

٧ تاج العروس (٦٣٣/١) ، (عث) .

٨ تاج العروس (١١٨/٤) ، (جدس) .

٩ تاج العروس (٢٦١/٢) ، (سبخ) .

والبلوقة ، المفازة ، وهي الأرض المستوية اللينة،أو التي لا تنبت إلا (الرخامي) على رأي آخر،والثيران تولع به وتحفر أصوله فتأكل عروقه . وهي من الأرضين التي ليس بها شجر ولا تنبت شيئاً البتة على بعض الآراء . وقد يكون قفرها هذا ، وعدم انباتها سبب قول الأعراب أنها مساكن الجن . ويظهر من أقوال بعض علماء اللغة أن البلوقة أرض واسعة مخصبة ، أي على عكس ما ذكره بعض آخر ، من أنها الأرض التي لا تنبت شيئاً[1] .

ويعبر عن الأرضين الزراعية بلفظة (ارض) (أرض) في جميع اللهجات العربية الجنوبية . وهي من أصل يرد بهذا المعنى في جميع اللهجات السامية . وهي تشير في الغالب الى الأرضين المعدّة لزراعة الخضر والحبوب ، وقد يراد بها الأرضين المزروعة بالخضر والحبوب . ولذلك فلفظة (أرض) ، قد تعني أرضاً صالحة للزرع ، غير أنها غير مزروعة ، وقد تعني أرضاً مزروعة ، ويرادف هذا المعنى معنى لفظة (المزرعة) .

والقراح : الأرض لا ماء بها ولا شجر ، وقيل الأرض المخلصة للزرع والغرس ، وقيل : القراح المزرعة التي ليس عليها بناء ولا فيها شجر[2] .

و (الجربة)[3] ، المزرعة . ومنه سميت الجربة المزرعة المعروفة بوادي زبيد . والجربة : القراح من الأرض المصلحة لزرع أو غرس ، واستعارها (امرؤ القيس) للنخل ، فقال :

كجربة نخل أو كجربة يثرب[4]

والركيب : المزرعة والقراح الذي يزرع فيه ، والمشارة ، أو الجدول بين الدبرتين ، أو ما بين الحائطين من النخل والكرم،وقيل ما بين النهرين من الكرم . قال تأبط شراً :

فيوماً على أهل المواشي وتارة لأهل ركيب ذي ثميل وسنبل

وأهل الركيب ، هم الحُضّار[5] .

---

١ تاج العروس (٢٩٩/٦) ، (بلق) .
٢ تاج العروس (٢٠٥/٢) ، (قرح) ، المخصص (١٤٨/١٠) .
٣ بالكسر .
٤ تاج العروس (١٧٩/١) ، (جرب) .
٥ تاج العروس (٢٧٨/١) ، (ركب) .

فالركيب اذن أرض زراعة ، تكون محددة ، معينة المعالم ، يمتلكها مالك أو ملاك ، تزرع أشجاراً مثمرة في الغالب ، لا حبوباً .

والحقل ، قراح طيب يزرع فيه ، وقيل هو الموضع الجادس أي البكر الذي لم يزرع فيه قط . يقال أحقلت الأرض ، صارت ذات حقل . والمحاقل المزارع[1].

والمبقلة : الأرض التي يزرع البقل فيها . وأما المبطخة ، وتجمع على مباطخ، فالأرض التي يزرع فيها البطيخ . والمرج : الأرض الواسعة ذات كلأ وماء ، تمرج فيها الدواب حيث شاءت[2] .

والسبخة أرض ذات نز وملح ، وهي الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض النبات . ولهذا لا يزرعها الفلاح ، وتترك لعدم صلاحها للزرع ، ولصعوبة استصلاحها بغسلها من الأملاح[3] . وفي جزيرة العرب سباخ رخوة قد تغوص فيها الأقدام ، لذلك ابتعد عنها المسافرون .

ويعبر في المسند عن الأرض المزروعة نخيلاً بلفظة (انخل) ، أي (نخيل) . ويراد بذلك الأرض المغروسة نخلاً . ويعبر عن الأرض المزروعة أشجاراً بلفظة (اثمر) ، أي أشجاراً مثمرة ، وعن الأرض المخصصة بزراعة الحبوب بكلمة (مذرا) (مذرى)[4] . وعن الارض التي تزرع أعناباً بـ (اعنب) ، أي بساتين الكروم .

وفسر بعض الباحثين في العربيات الجنوبية لفظة (موفرن) (موفر)، الواردة في نصوص المسند ، بمعنى الأرض الصالحة للزراعة بصورة عامة ، كما فسرها بعضهم بمعنى المزرعة والحديقة[5] . وهي في مقابل لفظة (الوفراء) في عربيتنا ، والوفراء الأرض التي لم ينقص من نبتها شيء ، والأرض التي في نباتها فرة ، أي كثرة . يقال أرض وفراء ، وهذه أرض نباتها فر ، وفرة[6] .

---

١ تاج العروس (٧/ ٢٨١) ، (حقل) ، القاموس (٢/ ٣٥٨) ، جامع الاصول (١١/ ٤٧٨) .
٢ عمدة القارىء (١١/ ٢١٤ وما بعدها) .
٣ تاج العروس ٢(/ ٢٦١) ، (سبخ) .
٤ REP. EPIGR., Tome, V, p. 196.
٥ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 58.
نقوش خربة معين (ص ٢٥) ، النقش رقم ١٧ .
٦ تاج العروس (٣/ ٦٠٥) ، (وفر) .

وقد حوّل بعض أصحاب الأرض والمزارعين الأرضين الزراعية الى بساتين وحدائق ، غرست بالنخيل والشجر الملتف درّت عليهم أرباحاً حسنة ، من بيع ثمارها . واكتسبت بعضها شهرة ، بسبب وقوع أحداث فيها ، مثل : (الحديقة) من أعراض المدينة ، كانت بها رقعة بين الأوس والخزرج[١] ، ومثل (حديقة الرحمان) ، بستان كان لمسيلمة بفناء اليمامة ، فلما قتل عندها سميت : (حديقة الموت)[٢] .

والحديقة ، الروضة ذات الشجر ، والبستان عليه الحائط ، وخص بعضهم من النخل والشجر الملتف ، وخص بعضهم الشجر بالمثمر ، وقال بعضهم بل هي الجنة من نخل وعنب ، والقطعة من النخل[٣] . و (المخرف) مثل (الخروفة) النخلة أو النخيل دون البستان[٤] . و (المخرفة) سكة النخل والبستان من النخل[٥] .

وقد وردت الجنة مفردة ومجموعة ومنكّرة ومُعرّفة في القرآن الكريم . وتقابل (كن) « Gan » و (كنّه) « Gannah » = « Gehenne » في العبرانية ؛ وهي في معنى (فردوس) الفارسية الأصل ، و « Paradise » في الانكليزية[٦] . ويراد بها موضع للأشجار الجميلة التي تسرّ الناظرين والأشجار المثمرة والورد والزهر والمياه . والحديقة ذات النخيل والشجر ، أو ذات النخل والعنب . وهي البستان عند بعض اللغويين[٧] . وأما (الجنينة) ، فتصغير جنة .

و (البستان) من الألفاظ المعربة . ذكر علماء اللغة أنها (معرب بوستان . فبو بمعنى الرائحة.وستان – بالكسر– الجاذب) بالفارسية[٨] .و (الروضة) و (الريضة) ، مستنقع الماء من قاع فيه جراثيم وروابِ سهلة صغار في سرار الأرض . وقيل الأرض ذات الخضرة ، وقيل البستان الحسن ، وقيل الروضة عشب وماء ، ولا تكون روضة إلا بماء معها أو الى جنبها ، وقيل أرض ذات مياه وأشجار وأزهار

---

١ تاج العروس (٦/٣٠٩) ، (حدق) .
٢ تاج العروس (٦/٣١٠) ، (حدق) .
٣ تاج العروس (٦/٣٠٩) ، (حدق) .
٤ الروض الانف (٢/٢٩١) .
٥ تاج العروس (٦/٨١) ، (خرف) .
٦ Ency., I, p. 1014, Hastings, p. 282, 681.
٧ القاموس (٤/٢١١) ، تاج العروس (٩/١٦٦) ، (جنن) .
٨ تاج العروس (٩/١٤٠) ، (البستان) .

طيبة . وإن كانت الرياض في أعالي البراق والقفاف ، فهي السلقان ، واحدها سلق ، وان كانت في الوطاآت فهي رياض . ورب روضة فيهـا حرجات من السدر البري ، وربمـا كانت الروضة ميلاً في ميل ، فإذا عرضت جداً فهي قيعان . ورياض (الصمان) والحزن بالبادية أماكن مطمئنة مستوية يستريض فيها ماء السماء ، فأنبتت ضروباً من العشب ولا يسرع اليها الهيج والذبول[1] .

ويقال للبستان إذا كان محاطـاً بجدار (الحائط) ، وتجمع على حوائط . وقد وردت هذه اللفظة في كتب الحديث[2] . وهناك لفظة أخرى تؤدي هذا المعنى هي (الحظار) . ويراد بها الأرض التي فيها الزرع المحاط عليها . وقد ذكرت في كتب الحديث[3] . وذكر علماء اللغة أن من معاني (الحظار) ، الحائط وكل ما حال بينك وبين شيء ، وما يعمل للابل من شجر ليقيها البرد والريح . والجدار من الشجر يوضع بعضه عـلى بعض ليكون ذرى للمال يرد عنه برد الشمال في الشتاء[4] .

ويعبر في المسند عن الحقول والبساتين وكل المزارع التي تكون داخل حدود القرى و (الهكر) (الهجر) أي المدن ، أو في ضواحيها وأطرافها ، بلفظة (اقنى) ، التي تعني الممتلكات ، أي المزارع المملوكة المغروسة بالشجر . أما لفظة (أرض) ، فتطلق بمعنى المزارع والأرضين المزروعة خارج حدود القرى والمدن ، وتزرع عادة بالمزروعات الواطئة ، أي : (الخضر)[5] .

وتحدد الأرضين بحدود تعين معالمها وتثبتها . ويقال للحدود (وثن) أي حد ، ويجمع على (اوثن) . وهناك لفظة أخرى تطلق على الحد هي (زنن) . وتعني الخط الفاصل الذي يعين الحدود[6] . وتجمع اللفظة على (ازنن) .

والدِّبر مشارات المزرعة ، أي مجاري مائها . وقيل : الدبار الكـردة من

---

١ تاج العروس (٥/٣٨) ، (روّض) .

٢ القاموس (٢/٣٥٥) ، (حوط) ، جامع الاصول (١١/٤٧٧) ، تاج العـروس (٥/١٢٣) .

٣ جامع الاصول (١١/٢٢٩) .

٤ تاج العروس (٣/١٥٠) ، (حظر) .

٥ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 8.

٦ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 69, 72, Glaser 1061, Hofmus. 12.

المزرعة ، والدبار : الأنهار الصغار التي تنفجر في أرض الزرع[1] . و (الكردة) ، الدبرة من المزارع ، وهي المشارات أي سواقيها . وهي من الألفاظ المعربة عن الفارسية[2] . و (المَشارة)[3] ، الكردة ، وهي من الألفاظ المعربة[4] .

ويعرف حافظ الكرم والنخل والزرع بـ (الناطر) و (الناطور) . ذكر علماء اللغة ان اللفظة من كلام أهل السواد ، ليست بعربية محضة ، ومنهم من جعلها من الألفاظ الأعجمية[5] . و (النُطّار) الخيال المنصوب بين الزرع[6] .

وقد استغل أهل اليمن الجبال والمناطق المرتفعة ، فزرعوها بمختلف المزروعات التي تلائم طبيعتها ، ففي المحلات التي يكون الجو فيها بارداً في الشتاء ولطيفاً في الربيع والصيف غرست الأشجار التي تلائم ذلك ، وزرعت في المناطق الوسط المعتدلة النباتات التي تحب اعتدال الجو . أما في التهائم والمناطق المنخفضة الحارة، فقد زرعت النباتات التي تحب هذا الجو . وبذلك تنوعت المزروعات . وتكاثرت ألوانها ، وصار في الامكان الحصول في موسم الشتاء على المزروعات التي تزرع في الصيف ببعض البلاد الباردة ، والحصول في موسم الصيف على المزروعات التي تزرع في الشتاء .

ولتحقيق غرس الجبال والمناطق المرتفعة ، لا بد من تمهيدها للزرع . وذلك بجعلها مدرّجات عريضة ، تسند جوانبها الظاهرة بالصخور والحجارة منعاً من انهيار تربتها والمزروع فيها ، ويقال لهذه المدرجات في المسند (جروب) (جرب) جمع (جربت) (جربة) . وتحمى الجربة بحائط من الحجارة . وهي تعني الحجارة المقطوعة، على سبيل المجاز المرسل من باب تسمية الكل باسم الجزء علاقة[7] .

وأهل اليمن لا يزالون يتبعون هذه الطريقة ، وفي كثير من المناطق الجبلية والهضاب المهملة الآن آثار تلك المدرجات . تتحدث عن زرع يانع في الأيام

---

١ تاج العروس (١٩٧/٣) ، (دبر) .
٢ تاج العروس (٤٨٥/٢) ، (كرد) .
٣ بالفتح .
٤ تاج العروس (٥٤٢/٣) ، (هشر) .
٥ تاج العروس (٥٧٢/٣) ، (نطر) .
٦ تاج العروس (٥٧٣/٣) ، (نطر) .
٧ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 43, 124, Kat. Texte, II, S. 32.

القديمة ، وهي تناجي أهل البلاد لعلّهم ينتبهون اليها فيعيدون اليها الحياة . وقد كانت زراعة الكروم ولا تزال من أهم المزروعات التي تعتمد على هذه الطريقة . وهي تتحمل جواً بارداً بعض البرودة ومعتدلاً ، ولهذا تجود بالثمر الكثير الطيب في هذه المدرّجات .

وقد أشار (بطلميوس) ، الى اتخاذ أهل النجود والجبال في بلاد العرب المدرجات لزرعها وتشجيرها.وأطلق على الجبال المكونة للقسم الجنوبي من (السراة) اسم « Climax Mons » ومعناه الجبال المدرجة ، فترى وكأنها ذات سلالم . وهذه الطريقة شائعة في اليمن حتى اليوم ، ولا سيما في جبل حضور نبي شعيب وفي الأقسام الغربية من السراة . فجبال (القليمس) « Climax Mons » التي يشير اليها (بطلميوس) ، إذن هي القسم الجنوبي من السراة الممتد في اليمن وعسير[1].

وزرع أهل (السراة) على هذه الطريقة أيضاً ، وكذلك أهل الجبال والمرتفعات، ففي استطاعة المزارع في المواضع المرتفعة الاستفادة من ماء المطر وبالتحكم فيه ، وبحصره في (الركيب) أي المشارة المزروعة ، أعني المزرعة التي يزرع بها ، والتي قد تكون ما بين ساقيتين أو الجدول بين الدبرتين ، أو المزرعة بصورة عامة. كما جاء في قول تأبط شراً :

فيوماً على أهل المواشي وتارة لأهل ركيب ذي ثميل وسنبل[2]

لقد تبين من نتائج الفحص العام الذي قام بــه الباحثون لمواضع من العربية الجنوبية ، ان الزراعة كانت متقدمة تقدماً كبيراً في اليمن بالنسبة الى بقية أنحاء جزيرة العرب ، وأن العربي الجنوبي حرص حرصاً شديداً عـلى الاستفادة من الأمطار في إرواء أرضه ، كما يتبين ذلك من آثار السدود التي تلاحظ في كـل واد تقريباً . وهي سدود أقيمت لا لكي تتحكم في سير (السيول) وفي ضبطها خشية إغراق المـدن والقرى والزرع فقط ، بـل لكي يمكن خزنها في أحواض وتوجيهها الوجهة التي يريدونها في أوقات الحاجة اليها ، وذلك بواسطـة أبواب

---

١ Glaser, Skizze, II, S. 215, D.G. Hogarth, The Penetration of Arabia, p. 20, Forster, II, p. 270. f.

٢ تاج العروس (١/٢٧٨) ، (ركب) .

تفتح وتغلق حسب الحاجة ، وقنوات ومجاري للماء توصل إلى مواضع الزرع والحاجة إلى الماء .

وقد درس بعض الباحثين ومنهم (بوون) « R. Le Baron Bowen » حالة الإرواء والزراعة في العربية الجنوبية دراسة علمية قيّمة وقدّم لنا معلومات ثمينة عن هذا الموضوع ، جعلتنا نأخذ فكرة عن أسلوب الزراعة والري عند العرب الجنوبيين منذ الألف الثانية قبل الميلاد إلى ما بعد الميلاد[1] . ودرس غيره من الباحثين بعض أساليب الزراعة واستغلال الأرض عند العرب الجنوبيين ، ولا سيما القتبانيين وعند غيرهم أيضاً ، وفي تقارير خبراء الزراعة والنفط والمعادن الذين سبروا أرض جزيرة العرب في مواضع مختلفة منها ، بعض المعلومات المفيدة عن الزراعة وعن أمور الري عند الجاهليين .

والأودية هي من أهم مناطق الزراعة في اليمن وفي العربية الجنوبية وفي بقية أنحاء جزيرة العرب ، ففيها الخصب والنماء والماء . ويقال للوادي (سرن) (السر) و (سرم) (سرّ) ، والجمع (أسرار) ، في العربيات الجنوبية . (والسر) في قول علماء اللغة بطن الوادي وأطيبه ، وأفضل موضع فيه ، وأخصب الوادي، والذي كتم نداه ولم ييبس[2] . ويقال له (نخل) في اللهجة الصفوية . وقد وردت في الكتابات الصفوية أسماء جملة أودية ، زرعوا بها[3] .

ونجد أطراف الأودية وجروفها وقد ظهرت المستوطنات بها ، كما ظهرت عند مصبّاتها ، وذلك لاستفادتها من السيول التي قد تهطل فتملأ بطونها . وهي تشبه المستوطنات التي تظهر على شواطىء الأنهار ، حيث تستفيد من المياه الجارية في النهر . وهي مستوطنات زراعية ، جلّ زراعتها النخيل ثم الحبوب وبعض الأشجار المثمرة والخضر والبقول .

وقد عثر على كتابات عديدة بالمسند وباللهجات العربية الأخرى ، تتحدث عن حفر آبار وعن زرع وعن تملك لهذه الآبار ، وأسماء تلك الأودية والمواضع التي

---

١ The Bible and the Ancient Near East, p. 317, 321, 325, R. Le Baron Bowen, Irrigation in Ancient qataban, Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 43.

٢ تاج العروس (٣/٢٦٣) ، (سر) .

٣ CIS 269, Pars quinta, p. 44, Dunand 1330 a.

حفرت بها تلك الآبار . وهي وثائق تملك ، تبين حق صاحبها في تلك البئر .

ونجد في كتاب صفة جزيرة العرب وصف مواضع كانت غنية بالأغيال والمآجل والعيون ، وقد نبتت حولها الأشجار المثمرة والزروع ، وأنواع الخضر والبقول والأزهار ، مما يشير الى ما للماء من أهمية في احياء هذه الأرضين وفي استنباتها ، فلولا الأمطار الموسمية التي غذت اليمن بالماء الذي أولد الحياة في الأرض، لكانت اليمن قفراء مثل أكثر أرجاء جزيرة العرب ، ليس فيها نبت ولا زرع ، يكره أهلها الزراعة ويستهجنونها ، ويرون في الاشتغال بها خسة ودنية . وقد أقبل أهل هذه الأرضين التي توفرت بها مصادر الماء ، على استغلالها استغلالاً طيباً ، يدل على أن العرب لو تهيأ لهم الماء لما كرهوا الزراعة وازدروا شأن المزارعين .

واليمامة من الأرضين الخصبة في جزيرة العرب ، قال عنها أهل الأخبار : «وكانت أحسن بلاد الله أرضاً،وأكثرها خيراً وشجراً ونخيلاً من سائر الحجاز»[1]. وقد نعتت بـ (ريف مكة) ، إذ كانت تمون مكة بالحبوب ، ولولاها لما تمكنت مكة من العيش برخاء . فلما أسلم (ثمامة بن أثال بن النعمان) الحنفي سيد أهل اليمامة ، أراد العمرة ، فلما سمع به المشركون جاءوه ، فقالوا : يا ثمامة صبوت وتركت دين آبائك ! قال : لا أدري ما تقولون إلا اني أقسمت برب هذه البنيّة لا يصل اليكم من اليمامة شيء مما تنتفعون به حتى تتبعوا محمداً من آخركم .. وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة ، ثم خرج فحبس عنهم ما كان يأتيهم منها من ميرتهم ومنافعهم ، فلما أضرّ بهم كتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحض عليها ، وإن ثمامة قد قطع عنا ميرتنا وأضرّ بنا ، فان رأيت أن تكتب اليه أن يخلّي بيننا وبين ميرتنا فافعل . فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان خلّ بين قومي وبين ميرتهم »[2] . وبذلك استراحوا وعادت أقواتهم اليهم .

ويجب ان نحمل ما جاء في الشعر من (جوع قديم) لبني حنيفة ، وهم من أهل اليمامة ، محمل الأقوال التي يقولها الشعراء عند استهزائهم بخصومهم ، أو عند

---

١ تاج العروس (٩/١١٥) ، (يمم) .

٢ الاستيعاب (١/٢٠٦ وما بعدها) ، الاصابة (١/٢٠٤) ، (رقم ٩٦١) ، صحيح البخاري (كتاب الصلاة، باب الاغتسال اذا أسلم وربط الاسير في المسجد)، صحيح مسلم (كتاب الجهاد) ، زاد المسلم (٢/٢٧٨ وما بعدها) .

حنقهم على قوم لم ينالوا منهم خيراً ، أو محمل العصبيات القبلية . ورد في الشعر قول أحد الشعراء :

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعه
لم يحذروا من ربها سوء العواقب واتباعه

وروي بهذه الصورة :

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن اعواز[1]

وقد ذكروا ان (بني حنيفة) كانوا قد اتخذوا إلهاً من حيس ، فأصابتهم سنة ، فعمدوا اليه فأكلوه فعيرهم الشاعر به . والحيس في تفسير علماء اللغة : تمر يخلط بالسمن وأقط فيعجن ، أو هو التمر البرني والأقط يدقان ويعجنان بالسمن عجناً شديداً ثم يندر منه نواه ، ثم يسوى كالثريد ، وهي الوطبة ، وربما جعل فيه سويق أو فتيت عوض الأقط[2] .

وذكر أن اسم اليمامة القديم هو (الجوف) ، وأن الجوف المطمئن من الأرض وهو أوسع من الشعب تسيل فيه التلاع والأودية وله جرفة[3] . فالجوف أرض خصبة ذات مياه قد تسيل وقد تكون قريبة من سطح الارض . ولما كانت اليمامة على هذه الصفة ، لا يستبعد أن تكون قد سميت بهذه التسمية .

وباليمامة أودية خصبة ، صارت من أهم مواضع الخصب فيها ، لوجود الماء فيها على مقربة من سطح الارض ولوجود العيون العذبة بها . من هذه الاودية : (العرض) . والعرض الوادي يكون فيه قرى ومياه ، أو كل وادٍ فيه نخل ، وقال بعضهم : كل وادٍ فيه شجر[4] . ومن أعراض اليمامة ، عرض شمام ، وعرض حجر . فالاول يصب في (برك) وتلتقي سيولها بـ (جو) في أسفل (الخضرمة) ، فإذا التقيا سمّيا (محققاً) ، وهو قاع يقطع الرمل . قال الاعشى :

---

١ الاعلاق النفيسة (٢١٧) .
٢ تاج العروس (٤/١٣٥) ، (حاس) .
٣ تاج العروس (٦/٦٢) ، (جوف) .
٤ تاج العروس (٥/٤٥) ، (عرض) .

ألم ترَ أن العرض أصبح بطنه نخيــلاً وزرعاً نابتاً وفصافصا

وقال المتلمس وبه لقب :

وذاك أوان العرض جنّ ذبابـه زنابـيره والازرق المتلمـس[1]

وفي الشعر المتقدم دلالة على خصب (العرض) ، وكثرة زرعه ونخله ، وعلى اشتغال أهله بالزراعة .

وفي اليمامة مرتفع يقال له (عارض اليمامة) . والعارض الجبل وقد جاء ذكره في الحديث[2] . وإلى ذلك أشار (عمرو بن كلثوم) بقوله :

وأعرضت اليمامة واشمخرت كأسياف بأيدي مصلتينا[3]

ومن أودية اليمامة (العقيق) ، وهو واد واسع مما يلي (العرمة) تتدفق فيه شعاب العارض وفيه عيون عذبة الماء[4] . وبه معدن .

ومن مواضع اليمامة الخصيبة (قُرّان) ، موضع به ماء ونخيل ، وهـــو لبني سحيم من بني حنيفة ، ويذكر مع (ملهم)[5] . و (ملهم) موضع كثير النخل، به ماء . ويوم (ملهم) حرب نسبت لهذا المكان بين تميم وحنيفة[6] .

وكانت في الحجاز ، ولا سيما ما وقع منه شمال المدينة ، عند ظهور الاسلام، مواضع كثيرة ذات عيون ومياه جارية ، غرست بالنخيل،واشتغل أهلها بالزراعة. وقد كان وادي القرى كثير المياه بصورة خاصة،بالنسبة إلى باطن جزيرة العرب، وعلى مواضع المياه أقيمت مستوطنات وقرى عديدة ، عاشت على النخيل والزرع وعلى القوافل التي تسلك هذا الوادي تحمل التجارات . وقد وردت أسماء مواضع عامرة آهلة بالسكان في غزوات النبي ، تقع كلها في شمال (يثرب) الى فلسطين، وبين مكة ويثرب بعض مواضع مياه ، عاش سكانها على النخيل والقوافل والرعي

---

١ تاج العروس (٥/٤٦) ، (عرض) .
٢ تاج العروس (٥/٤٣) ، (عرض) .
٣ تاج العروس (٥/٤٩) ، (عرض) .
٤ تاج العروس (٧/١٥) ، (عق) .
٥ تاج العروس (٣/٤٨٨) ، (قرر) ، (٩/٣٠٩) ، (قرن) .
٦ تاج العروس (٩/٦٨) ، (لهم) .

وبعض الزرع . وكذلك وجدت بعض مواضع مياه (مكة) والعربية الجنوبية .
ومن الأماكن الخصبة (وادي الغرس) ، قرب (فدك) بينهما وبين (معدن النقرة) ، وكانت فيه منازل بني النضير[1] .

ومن المواضع التي استغلت في الزراعة الجرف . وهو موضع قرب المدينة على ثلاثة أميال منها ، بها كانت أموال (عمر) . ومنه حديث (أبي بكر) انه مرّ يستعرض الناس بالجرف فجعل ينسب القبائل حتى مر ببني فزارة[2] . وكان (عبد الرحمن بن عوف) يزرع به على عشرين ناضحاً ، فكان يدخل منه قوت أهله سنة[3] . أي انه كان يسقي زرعه نضحاً ، والناضح البعير أو الحمار أو الثور الذي يستقي عليه الماء ، والنضيح من الحياض ما قرب من البئر حتى يكون الافراغ فيه من الدلو ، ويكون عظيماً ، وهي ناضحة وسانية[4] .

وأرض يثرب وما تبعها من أطراف ، هي من الأرضين الخصبة ، وقد حفر أصحابها آباراً بها ، وسقوها منها ، وغرسوا عليها النخيل وزرعوا بها ؛ واتخذوا لهم بها (الحوائط) و (البساتين) . ويظهر أن بعضها كانت واسعة تسقى بآبار غنية بالماء ، لها جملة نواضح . وهي تظهر أن أهل المدينة كانوا مزارعين، وأن مزارعهم كانت تأتي عليهم بمال طيب ، جعل بعضهم من الأثرياء . وقد استفيد من شراج الحرة في سقي المزارع ، وكانت تستمد ماءها من الحرة . وقد كانت للزبير بن العوّام مزرعة على هذه الشراج ، كما كان لأنصاري مزرعة عليها كذلك ، وقد ورد ذكرهما في كتب الحديث بسبب اختلافهما على السقي[5] .

وتنافي هذه الأخبار المتحدثة عن اشتغال الأنصار بالزراعة ، الأخبار الأخرى التي يرويها أهل الأخبار أيضاً ، الذاكرة أن الأنصار ، أهل المدينة لم يكن لهم علم بالزراعة ولم يكونوا يقبلون عليها ، إقبال يهود خيبر وفدك ووادي القرى على الفلاحة . ويظهر أن رواياتهم هذه إنما نشأت من الوضع السيء الذي كان فيما بين الأوس والخزرج ومن تقاتلهم بعضهم مع بعض ، على الرئاسة والزعامة، وبسبب العصبية القبلية الضيقة ، فأثر كل ذلك على الزراعة في يثرب وفيما حولها

---

١ تاج العروس (٤/٢٠١) ، (غرس) .
٢ تاج العروس (٦/٥٦) ، (جرف) .
٣ الاستيعاب (٢/٣٨٨) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ تاج العروس (٢/٢٤٠) ، (نضح) .
٥ ارشاد الساري (٤/١٩٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٢/٦٣) ، (شرج) .

فجعلها متأخرة لاعتداء كل جانب منها على زرع خصمه ،وقد ألهاهم عن الزرع .

وبالمدينة وأطرافها مواضع عرف الواحد منها بـ (البقيع) . والبقيع الموضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى ، والمكان المتسع ولا يسمى بقيعاً إلا وفيه الشجر ، ومنه (بقيع الغرقد) ، وقد ورد في الحديث ، وهو مقبرة مشهورة بالمدينة . سمي بالغرقد ، بشجر له شوك فذهب وبقي الاسم لازماً للموضع، وبقيع الخيل ،وبقيع الخبجبة، وبقيع الزبير ،وبقيع الخضمات،موضع عند خرم بني النبيت [1] .

وبيثرب ثلاثة أودية مهمة هي : العقيق ، وبطحان ، وقناة [2] . وفي وادي العقيق عيون ونخيل ، وقد ذكر في الحديث [3] . والأودية المذكورة من المواضع الخصبة المنبتة في هذه المنطقة ، ومياهها قريبة من سطح الأرض ، ومن الممكن العثور عليها بسهولة بحفر الآبار بها .

ومن الأودية التي استفيد منها في الزراعة (وادي مهزور) ، وقد ذكر في الحديث . ذكر انه وادي بني قريظة ، وان الرسول قضى في سيله ان يحبس حتى يبلغ الماء كعبين . وذكر بعضهم انه يذكر مع (مذينيب) يسيلان بماء المطر خاصة ، وهو من أودية المدينة . ومن مهزور الى مذينيب شعبة تصب فيها [4] .

وقد كان من الممكن استصلاح الأرض المحيطة بيثرب ، بحفر الآبار بها ، فالماء فيها غير بعيد عن سطح الأرض ، وهو عذب أو مج لكنه يصلح للشرب ولسقي الزرع . ولما نعمت يثرب بالهدوء في عهد الرسول ، أقبل بعض المهاجرين على الزراعة فيها ، فحفروا الآبار وزرعوا عليها ، وحوّطوها ، وجنوا منها ثمراً طيباً ، ولولا الفتوحات الاسلامية التي اجتلبت اليها المهاجرين والأنصار على السواء، للخيرات الكثيرة التي كانت في الأرضين المفتوحة ، لتحولت يثرب الى بساتين ومزارع منتجة ، تمون الأماكن البعيدة عنها بالتمور وبالفواكه والخضر .

وقد زرع أصحاب الأرض بيثرب أرضهم بقولاً وحبوباً ، ومنهم من زرع تحت النخيل ، وورد أن مولى من موالي (عثمان بن مظعون) كانت في يده أرض

---

١ تاج العروس (٥/٢٨٠) ، (بقع) .
٢ تاج العروس (٢/١٢٥) ، (بطح) .
٣ تاج العروس (٧/١٥) ، (عق) .
٤ تاج العروس (٣/٦٢٠) ، (هزر) .

لآل مظعون بالحرة ، فكان يزرعها قثاءً وبقلاً [1] . ولما صارت أرض (بني النضير) خالصة لرسول الله ، كان يزرع تحت النخل في أرضهم فيدخل من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة ، وما فضل جعله في الكراع والسلاح [2] . وقد كان بنو النضير قد استغلوا أرضهم ، وأقاموا بها (الحوائط) ، ولما أسلم (مخيريق) ، وهو أحدهم ، جعل للرسول ما له وهو سبعة حوائط ، فجعلها الرسول صدقة [3] .

وذكر في بعض الروايات أن (أحيحة بن الجلاّح) ، وكان من أصحاب الأملاك بيثرب ، كانت له بساتين وأرضين يزرعها ويسقيها بالسواني فلا يعبأ بتأخر المطر وانقطاعه . ونسب بعض أهل الأخبار له هذه الأبيات :

إذا جمادي منعت قطرها　　إن جناني عطن معصف
معرورف أسبل جباره　　أسود كالغابة مغدودف
يزخر في أقطاره مغدق　　بحافتيه الشوع والغريف [4]

ويظهر من وجود المصطلحات الآرامية والفارسية والنبطية في لغة زراع يثرب، أنهم استعانوا في الجاهلية بالرقيق المستورد من العراق ومن بلاد الشأم في زراعة الأرض وفي انباتها ، حتى أنهم أخذوا مسمّياتها منهم ، مثل (الخربز) الذي هو البطيخ في لغة أهل مكة ، كانوا يسمونه (الخربز) ، و (الخربز) لفظة عربية معربة ، من أصل فارسي ، وقد وردت في الحديث [5] .

ونجد في مواضع من بقية جزيرة العرب مياهاً صارت مواطن لسكن ، اختلفت كثافة سكانها باختلاف مقدار الماء. وهي رحمة وغوث بالنسبة للرحل ولأهل القوافل ولذلك صارت ملاذاً استليذ به في هذه البوادي البعيدة الأبعاد الجافة القاسية ، وقد اضطرت القوافل إلى الاتجاه نحوها للوصول الى أهدافها ، لذلك صارت عقداً ، تجتمع في بعض منها جملة طرق برية ، إذ كانت ذات مياه غزيرة وعلى مفترق طرق ، تختصر الأبعاد والمسافات ، وفي هذه الأماكن ، ظهرت زراعة النخيل ، وهي زراعة تقنع بالقليل من الماء ، لامتصاصها الرطوبة من باطن الارض،وبعض

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٢) .
٢ البلاذري ، فتوح (٣١) .
٣ البلاذري ، فتوح (٣١) .
٤ تاج العروس (٤٠٤/٥) ، (شوع) .
٥ تاج العروس (٣٣/٤) ، (الخربز) .

النباتات الاخرى ، التي لا تحتاج الى سقي كثير ، وظهرت البيوت المعدة لاستقبال التجار والمسافرين وأصحاب القوافل .

وفي العربية الشرقية مواضع قرب فيها الماء العذب من وجه الأرض ، أو ظهر على وجهها وفار على شكل عيون ، وفي هذه المواضع صار سكن وزرع تناسبت كثافته مع كثافة الماء ومدى وصوله ، حيث توقف عند ذلك المكان الذي انتهى اليه . فالماء هو الذي يحدد الزرع ويعين نوعه ، وهو الذي يقرر السكن ويثبت حده . ومن هذه المواضع التي وجد فيها سكن وزع (هجر) ، وقد اشتهرت بنخيلها ، فقصدها الأعراب لامتيار التمر منها ، حتى ضرب بها المثل في كثرة التمر ، فقيل : كمبضع تمر الى هجر . ويظهر ان مياهها كانت راكدة متجمعة ، فتسببت في ظهور الأوبئة فيها . قال (عمر) « عجبت لتاجر هجر ، وراكب البحر . وانما خصها لكثرة وبائها،أي تاجرها وراكب البحر سواء في الخطر »[1].

والأحساء من المواضع المشهورة بالزراعة في العربية الشرقية ، وقد عرفت بزراعة النخيل وبعض الأشجار والخضر ، وهي لا تزال على مكانتها ، فلا تزال عيون مائها تمون الناس بماء شربهم وزرعهم . و (قطر) موضع قديم يعود عهده الى ما قبل الميلاد ، وقد أشير اليه في الكتب اليونانية واللاتينية ، وأسس به المبشرون كنائس، وقد ساهم أساقفته في المجامع الكنسية التي انعقدت للنظر في أمور الجدل بين المذاهب النصرانية ، كما اشتهرت بثياب جيدة نسبت اليها ، أشير اليها في الحديث ، كما أشرت الى ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب .

و (كاظمة) اسم قديم معروف ، يرد في الشعر الجاهلي وفي القصص ، جوّ من سيف البحر من البصرة على مرحلتين . وفيه ركايا كثيرة وماؤها شروب . وقد أشير الى قطاها في شعر لامرىء القيس[2] . و (المرائض) في ديار (تميم) بين (كاظمة) و (النقيرة) فيها أحساء[3] .

---

١ تاج العروس ٣(٦١٤/) ، (هجر) .
٢ تاج العروس (٤٧/٩) ، (كظم) .
٣ تاج العروس (٣٩/٥) ، (روض) .

الفصل التسعون

الزرع

ولا بد من حرث الأرض وتنقيتها من الشوائب الضارة بالزرع ، ومن تليينها، وذلك قبل الشروع بالبذر أو بالغرس . وقد كان بعضهم يحرق الأدغال والأعشاب وما يجده على الأرض المراد زرعها من زوائد وأوساخ ، وذلك للتخلص منها ، وللاستفادة منها في تقوية التربة وزيادة نمائها . ثم يقومون بحراثتها فيندمج رمادها في التربة ويصير جزءاً منها . وقد يقتلون أصول الزرع السابق وما يكون قد نبت على الارض من نبات غريب مؤذ للزرع ، قبل حراثة التربة . فاذا تم ذلك ، ونظفت التربة،سقوها بالماء ليكون من السهل على الأكار حرث الارض وتعزيقها، وربما لا يسقونها ، بل يحرثونها مباشرة . وذلك بالنسبة للأرضين التي تسقى بماء السماء ، حيث لا يتوفر الماء الجاري ، أو ماء الآبار . ومتى تمت الحراثة وقلبت التربة ، تهيأت للزرع ونظمت وفقاً لنوع الزرع الذي سيكون فيها ، على هيأة ألواح طويلة دقيقة ، أو مربعات تتخللها السواقي والقُني ، أو غير ذلك ، ثم يشرع بعد ذلك في الزرع والغرس . ويقوم الزارع نفسه في العادة بحرث أرضه واصلاحها وتمهيدها للزرع . وقد يقوم بالحراثة أشخاص مقابل أجر يدفع لهم .

والحرث والحراثة العمل في الأرض زرعاً كان أو غرساً . وقد يكون الحرث نفس الزرع . وذكر أن الحرث قذفك الحب في الأرض للازدراع ، والحرّاث الزرّاع[1] . و (الكرّاب) في مرادف الحرّاث ، والكرابة الحراثة . والكراب

---

[1] تاج العروس (٦١٤/١) ، (حرث) .

والكرب إثارتك الأرض . و (الفلاح) في معنى الحرّاث والأكار . لأنه يفلح الأرض ، وحرفته الفلاحة . ورد : « أحسبك من فلاحة اليمن ، وهم الأكرة، لأنهم يفلحون الأرض يشقّونها » . والفلاحة الحراثة ، وهي حرفة الأكار [1] .

و (الجوّار) الأكار ، وقيل : هو الذي يعمل لك في كرم أو بستان [2] . و (الأكار) الحرّاث والزارع ، والمؤاكرة المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع في الأرض . وهي المخابرة . ويعدّ الأكار من الطبقات المحتقرة عند العرب . وفي حديث قتل أبي جهل ، فلو غير أكّار قتلني . أراد به احتقاره وانتقاصه، كيف مثله يقتل مثله [3] ، فهو رجل شريف غني ثريّ ، فكيف يقتله من هو دونه في المنزلة والمكانة ، فكان يتمنى وهو مقتول ، لو كان قاتله مثله في المنزلة والمكانة .

وقد اشتهرت اليمن بالفلاحة ، ورد : « وأحسبك من فلاحة اليمن . وهم الأكرة ، لأنهم يفلحون الأرض ، يشقونها » [4] . وقد بقيت شهرة أهل اليمن بالفلاحة الى هذا اليوم ، ومنهم قوم هاجروا الى العربية السعودية للاشتغال بالفلاحة في أرضها .

وأساليب الحراثة تكاد تكون واحدة عند جميع شعوب الشرق الأدنى . وبعض الاساليب بدائي جداً ، يُستعمل في حراثة الارضين الصغيرة بصورة خاصة . فتستعمل الحجارة أو الاخشاب أو الفؤوس على اختلاف أنواعها ، وبعضها متقدم نوعاً ما اعتمد على المسحاة وعلى آلات الحراثة التي تجرها الحيوانات ، وتستعمل هذه الطريقة في حراثة المزارع الكبيرة ، ومنها سكة الحراث حديدة الفدان التي يحرث بها الارض . وينسب الى الرسول قوله : ما دخلت السكة دار قوم إلاّ ذلوا . إشارة الى ما يلقاه أصحاب المزارع من عسف السلطان والجابه عليهم بالمطالبات وما ينالهم من الذل عند تغير الاحوال بعده . وقد ذكرت السكة في ثلاثة أحاديث بثلاث معان مختلفة [5] . وورد في بعضها ما يفيد العكس ، أي مدح

---

١ تاج العروس (٢/ ٢٠٠) ، (فلح) .
٢ تاج العروس (٣/ ١١٣) ، (جار) .
٣ تاج العروس (٣/ ١٧) ، (أكر) .
٤ تاج العروس (٢/ ١٩٩) ، (فلح) .
٥ تاج العروس (٧/ ١٤٣) ، (سكك) .

للزراعة والزراعة وحث عليها .

وتشبه آلات حراثة الجاهليين الآلات التي يستعملها الفلاحون في بلاد العرب اليوم . وقد استعملوا (الفدان) في الفدن . و (الفدان) الثوران اللذان يفدن عليهما ، ولا يقال للواحد فدان[1] . وذكر ان (الهيس) الفدان ، أو أداته كلها بلهجة أهل اليمن ، أو بلغة أهل عُمان[2] .

ومن الآلات التي استعملت في حراثة التربة : المحفار ، وهي المسحاة وغيرها مما يحفر به[3] . والمِخَدّة ، حديدة تخدّ بها الارض[4] ، والمعول ، لتكسير الحجارة والحفر . والمسحاة ، وهي من حديد ، وصانعها سحّاء ، وحرفته السحاية[5] ، وهي لا تزال تستعمل في الحراثة وفي سد المياه وفتحها في السواقي لسقي المزارع والبساتين ، ولقلع الأعشاب والأشجار . و (المرّ) ، المسحاة أو مقبضها ، وقيل هو الذي يعمل به في الطين[6] .

ومن المصطلحات المستعملة في الحراثة ، العزق ، وهو تشقيق الارض بفأس . والأداة المعزق والمعزقة[7] . والكور الحفر ، ومنها كرت الارض كوراً أي حفرتها[8] . والجوّار الأكار ، والأكار الحفّار[9] . والتربيك في الحرث رفع الأعضاد بالمجنب[10] . والكَرَم من الارض التي عدنوها بالمعدن حتى نقّوا صخرها وحجارتها ، فتركوا مزرعتها لا حجر فيها ، وهي أفضل أرضهم . والارض الكرم يحرث فيها البرّ ، وهي سهلة لا تحتاج الى العدن[11] . والمعدن الصاقور . ويقال عدنت الارض أي أصلحتها[12] . وأما قولهم نخنختُ الارضَ فبمعنى شققتها

---

١ القاموس (٤/٢٥٥) ، (فدن) ، المخصص (١٠/١٥٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/٢٩٩) ، (فدن) .

٢ المخصص (١٠/١٥٢) ، القاموس (٢/٢٦٠) ، تاج العروس (٤/٢٧٦) ، (الهيس) .

٣ القاموس (٢/٤٢) ، تاج العروس (٣/١٥١) ، (حفر) .

٤ المخصص (١٠/٤٧) .

٥ تاج العروس (١٠/١٧٠) ، (سحا) .

٦ تاج العروس (٣/٥٣٨) ، (مرر) .

٧ القاموس (٢/٢٦٤) ، تاج العروس (٧/١٢) .

٨ تاج العروس (٣/٥٣١) ، (كور) .

٩ القاموس (١/٢٦٥ ، ٢٩٤) ، تاج العروس (٣/١١٣) ، (جاد) .

١٠ المخصص (١٠/١٤٨ وما بعدها) ، القاموس (١/٤٩) .

١١ المخصص (١٠/١٤٨) ، تاج العروس (٩/٤١ وما بعدها) ، (كرم) .

١٢ المخصص (١٠/١٤٨) ، تاج العروس (٩/٢٤٧ وما بعدها) ، (عدن) .

للحرث . والنخة البقر العوامل[1] . ويقال رضت الارض اذا أثرتها[2] . وأما وطدت الارض فبمعنى ردمتها لتصلب ، والميطدة خشبة يوطد بها المكان من أساس بناء وغيره ليصلب[3] . ويقال شحبت الارض شحبـــاً وأشحبها ، اذا قشرت وجهها بمسحاة وغيرها ، وهي يمانية[4] . ويقال لكـــل واحد من أخاديد الارض تَلَم والجمع التِلام . وهو مشق الكراب في الارض بلغة أهل اليمن[5] . والحرق بمعنى شق الارض للحرث . وخضضت الارض بمعنى قلبتها[6] .

والحيوانات المستخدمة في الحراثة هي الثيران والحمير والخيـل والجمال ، وذلك بحسب كثرة هذه الحيوانات وقلتها،ويستعمل في الحرث حيوان واحد حيناً وحيوانان حيناً آخر . وقد وصلت الينا بعض النصوص الجاهلية محفوراً فيها صور حيوانات تحرث ، تجر المحراث ويسوقها الفلاح . ويكون الكراب على البقر ، وهو الغالب، وفي المثل : « الكراب على البقر »[7] .

ويظهر من كتب الحديث أن اعتماد أهل الحجاز في الحراثة كان على البقر . وقد ورد في الحديث : « بينما رجل راكب على بقرة ، التفتت اليه ، فقالت : لم أخلق لهذا ، خلقت للحراثة »[8] . ويظهر أنهم كانوا يستعملون الكـلاب في الحراثة كذلك . ففي الحديث : (كلب حرث) . وقد ورد أيضاً (كلب غنم) و (كلب ماشية) ، و (كلب صيد) ، و (كلب زراعة)[9] .

ويشتغل الفلاح بعد حراثة الارض باصلاحها ونـثر الحب فيها نثراً متساوياً منتظماً ، ويستعمل لذلك بعض الآلات ، مثل (المـالق)[10] و (المِمْلَقَة) .

---

١ تاج العروس (٢/٢٨٢) ، (نخخ) .
٢ تاج العروس (٨/٣١٣) ، (رضم) .
٣ القاموس (١/٣٤٥ وما بعدها) .
٤ المخصص (١٠/١٤٨) ، القاموس (١/٨٥ وما بعدها) .
٥ المخصص (١٠/١٤٨) ، القاموس (٤/٨٣) .
٦ المخصص (١٠/٢٤٨) .
٧ المخصص (١٠/١٥٠) .
٨ عمدة القارىء (١٢/١٥٩ وما بعدها) ، (باب استعمال البقر للحراثة) .
٩ عمدة القارىء (١٢/١٥٧ وما بعدها) ، جامع الاصول (٧/٤٦١ وما بعدها) ، « في ذكر الكلاب واقتنائها » ، ارشاد الساري (٤/١٧٢ وما بعدها) ، (باب اقتناء الكلب للحرث) .
١٠ كهاجـــر .

وهي خشبة عريضة ، تجرها الثيران ، وقد أثقلت لتستوي السَنّة واللؤمة فتتلما على الحب ، وتملس التربة المثارة[1] . و (المِجَزّ) ، وهي شبحة فيها أسنـان وفي طرفها نَقْران يكون فيهما حبلان وفي أعلى الشجة نقران فيهما عود معطوف ، وفي وسطها عود يقبض عليه ثم يوثق بالثورين فتغمز الاسنان في الارض حتى تحمـل ما قد أثير من التراب حتى يأتيا به المكان المنخفض[2] . (والمجنب) وهي شبحة مثل المشط ، إلا أنها ليست لها أسنان ، وطرفها الاسفل مرهف يرفع بها التراب على الاعضاد والفلجان[3] .

ويعبر في عربية القرآن الكريم عن طرح البذر في الارض بلفظة (زرع) . ويقال أيضاً : زرعت الشجر كما يقال زرعت البُرّ والشعير . والزرع الإنبات . ومن هذا الاصل لفظة الزرع والزراعة[4] .

وتثار الارض وتقلب على الحبّ ، لضمان طمر الحب في التربة ، فلا يظهر على سطحها ، فتلتقطه الطيور ، ويتعرض للعوارض الجوية التي تفسده وتتلفه . ثم تسقى الارض ، ويقال للسقية الاولى العَفْر ، ثم تسقى بعد ذلك بحسب الحاجة حتى ينمو الزرع وينضج ويجمع ، فيقطع عندئذ السقي[5] .

والحِبة[6] ، بزور البقول والرياحين ، أو بزر العشب ، أو جميع بزور النبات ، وبزر كل ما نبت . والحبّة أيضاً يابس البقل ، تقول العرب : رعينا الحبة ، وذلك في آخر الصيف ، اذا هاجت الارض ويبس البقل والعشب وتناثرت بزورها وورقها ، فإذا رعتها النعم سمنت عليها . ويسمّون الحبّـة بعد الاندثار : القميم والقف[7] .

والبزر كل حب يبذر للنبات. والبزور : الحبوب الصغار ، مثل بزور البقول وما أشبهها[8].

---

١ المخصص (١٠/١٥٤) ، القاموس (٣/٢٨٤) ، تاج العروس (٧/٧٣) ، (ملق) .
٢ المخصص (١٠/١٥٤) ، تاج العروس (٤/١٦) ، (جز) .
٣ المخصص (١٠/١٥٤) ، تاج العروس (١/١٩١) ، (جنب) .
٤ تاج العروس (٥/٣٦٨) ، (زرع) .
٥ تاج العروس (٣/٤١٠) ، (عفر) .
٦ بالكسر .
٧ تاج العروس (١/١٩٨) ، (حبب) .
٨ تاج العروس (٣/٤٠) ، (بزر) .

و (البذر) ، ما عزل للزراعة من الحبوب . و (البذر) زرع الارض[1] .

وتزرع بعض الزروع على السواقي وأطراف مسايل الماء ، وذلك بوضع (البذر) أو (البصل) في حفر ، ثم يوضع فوقها قليل من التراب ، لمنع الطيور من التهامها ، وللمحافظة عليها من أثر الجو فيها . وقد يزرع البزر ، فإذا نبت ، تقلع النبتة الواحدة ، لتزرع في موضع آخر .

وإذا أصاب الزرع الخصب والنماء ، عبر عن ذلك بلفظة (خصب) في المسند[2]. اللفظة التي نستعملها نحن في الزراعة ، بمعنى كثرة العشب والزرع والنماء والوفرة[3].

ولا بد لنمو الزرع ونضوجه من اسقاء ، ويعبر عن السقي بلفظة أخرى هي (المكر) . والمكر سقي الارض . يقال أمكروا الارض إذا سقوها[4] .

ولتقوية الارض وإعادة الحيوية اليها ، استخدم الجاهليون التسميد . وبالسماد تعاد الى الارض بعض قوتها ، وينمو الزرع . وقد استعملوا في ذلك جملة وسائل كما يفعل المزارعون في الزمن الحاضر الذين لا يزالون يسيرون على طريقة القدماء في التسميد ، فاستعملوا فضلات الانسان والحيوانات ، كما استعملوا الزبل أيضاً . وذكر أن من أسمدتهم عذرة الناس والسرقين برماد ، يسمد به النبات ليجود[5] . والسرجين ، والسرقين ، الزبل تدبل به الأرض[6] . والمزبلة موضع الزبل ، وزبل زرعه يزبله ، سمده ، أي أصلحه بالزبل وكذلك الأرض[7] . ويقال لتسميد الأرض بالزبل (عدن الأرض) أي أصلحها بالزبل[8] . ويقال دبل الأرض دبولاً ، بمعنى أصلحها بالسرقين ونحوه لتجود ، فهي مدبولة[9] .

ولحماية الزرع من عبث الطيور وبقية الحيوانات به ، اتخذوا وسائل عديدة لحمايته . منها : اللعين . ما يتخذ في المزارع كهيأة رجل ، أو الخيال تذعر به

---

١ تاج العروس (٣/٣٥) ، (بذر) .
٢ REP. EPIGR. 4646.
٣ تاج العروس (١/٢٣٥) ، (خصب) .
٤ تاج العروس (٣/٥٤٨) ، (مكر) .
٥ تاج العروس (٢/٣٨١) ، (سمد) .
٦ تاج العروس (٩/٢٣٤) ، (سرجن) .
٧ تاج العروس (٧/٣٥٤) ، (زبل) .
٨ تاج العروس (٩/٢٧٤) ، (عدن) .
٩ تاج العروس (٧/٣١٧) ، (دبل) .

الطيور والسباع والوحوش[1] . و (الخيال) ، كساء أسود ينصب على عود يخيل به للبهائم والطير فتظنه انساناً . وقيل خشبة توضع فيلقى عليهـا الثوب للغنم اذا رآها الذئب ظنها انساناً . و (الخيلان) ، ما ينصبه الراعي عند حظيرة غنمه . وقيل : الخيال ، ما نصب في أرض ليعلم انها حمى ، فلا تقرب[2] .

الحصاد :

ويحصد الزرع بعد نضجه ، يحصد بالمنجل . وأكثر ما يستعمل في البر والشعير ونحوهما من الزرع . والمحصد ، المنجل[3] . والحصاد هو (فقل) في المسند[4] . وقد فسر بعض العلماء لفظة (خرفت) بمعنى الحصاد كذلك[5] . ولا يقصد بالحصاد هنا حصاد الحبوب وحدها ، كالحنطة والشعير ، كما نفهم من معنى اللفظـة في عربيتنا ، وانما يقصد بها هذا ومعنى آخر هو جني الثمار وقطف الأعناب ، عند نضوجها .

ويقال لمن يحصد الحصاد بالأجرة (المحاين) ، وللعمل (المحاينة) ، يقال استأجره محاينة ، أي على الحصاد[6] .

وترد لفظة (افقل) من أصل (فقل) في النصوص الزراعية ، وهي من الالفاظ اليمانية القديمة التي وعتها كتب اللغة ، فذكرت ان (الفقل) التذرية بلغة أهل اليمن ، وان أهل اليمن يذرّون بالمفقلـة ، وهي الحفراة ذات الاسنان ، يرفعون بها الدق ثم ينثرونه ويذرونه لاستخلاص الحب منه . و (الدق) ما قد ديس ولم يذر[7] . و (افقل) في نصوص المسند ، هي البيادر التي تتجمع من

---

١ تاج العروس (٣٣٥/٩) ، (لعن) .
٢ تاج العروس (٣١٥/٧) ، (خيل) .
٣ تاج العروس (٣٣٦/٢) ، (حصد) .
٤ Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 117.
٥ Glaser 181, CIH 197, REP. EPIGR. 3966, Mordttmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 113.
٦ تاج العروس (١٨٨/٩) ، (حين) .
٧ تاج العروس (٦٥/٨) ، (فقل) .
REP. EPIGR., VII, p. 285, Num. 4636, Rhodokanakis, Stud. Lexl., II, S. 157.

هذه الحبوب بعد التذرية .

وترد لفظة (خرف) في عربية القرآن الكريم بمعناها الوارد في نصوص المسند. فذكر علماء اللغة ، ان (خرف) بمعنى صرم واجتنى ، وان الاختراف بمعنى لقط النخل بسراً كان أو رطباً ، وأنها تعني قطف الثمر ، كما وردت لفظة (المخرفة) بمعنى البستان والنخل والسكة بين صفين من النخل ، يخترف المخترف من أيهما شاء ، والمخترف هو القاطف للثمر ، وأن (المخرف) بمعنى زنبيل صغير يخترف فيه من أطايب الرطب،أو الآلة التي تخترف فيها الثمار و (الخارف) حافظ النخل ، والخرّاف النظار ، والخرافة ما خرف من النخل[1] .

وقد وردت لفظة (نحقل) بمعنى الناتج والمحصول . و (حقل) بمعنى الحاصل. أي الحاصل الزراعي المجموع من الحقل والمزرعة ، وذلك كما في هذه الجملة : « نحفل ثمنيت الفم بقسلم لس » . ومعناها : « الحاصل ثمانية آلاف لس من البقول » . و (لس) نوع من الكيل أو الوزن ، أو الكومات ، أو الحزم .

ويعبر عن الدراسة بلفظة (علص) في المسند . وفسّر بعض علماء المسند لفظة (معلصت) ، بمعنى المزرعة والحقل[2] . ولا استبعد كونها آلة من آلات الدراسة أيضاً .

واذا ديس الزرع قيل لذلك العمل الدق والدياس والدّراس. والإكادة كالإداسة[3] . وأما الدقّوقة ، فالبقر والحمر التي تدوس الزرع لاستخراج حبه وتهشيم سيقانه[4] . وقد تستعمل بعض الآلات لقطع سوق الزرع وتهشيمه وتهشيم السنبل ، تجرها الثيران أو الحمير ، ويجلس عليها شخص ليثقلها ، وهي مثل العجلة ، التي تقطع الجلّ ، يقال لها (الحيلان) . وهي آلة من خشب لها محالتان كمحالة العجلة ، قد أنعلتا بحديد مضرس اذا دارتا على الجل قطعتاه ، فتجعلان في طرفي عارضة

---

١ تاج العروس (٨١/٦ وما بعدها) ، (خرف) .

٢ Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 115, Nr. 84, RW 125, CIH 197, Glaser 181.

٣ « أكد الحنطة داسها ودرسها » ، تاج العروس (٢٩١/٢) ، « أكد » .

٤ تاج العروس (٣٤٦/٦) ، (دق) .

ضخمة ، ويقعد عليها رجل ليثقلها ، ثم يجرها الثور على الجل[1] . وأما (المقحفة) فالخشبة المتقفعة التي يقحف بها الحب ، أي يذرى[2] .

وبعد الدياسة والدراسة يذرى الطعام لفصل الحب عن التبن . ويستعملون في ذلك آلات التذرية ، وهي آلات يدوية ما زال الفلاحون يستعملونها كما كانت قبل آلاف السنين ، تتألف من مقبض طويل وأصابع في رأسه يذرى بها الهشيم في الهواء ، ليحمل الهواء التبن ، وهو خفيف الوزن إلى مكان والحب الى مكان آخر . وقد ذكر العلماء جملة أسماء لآلة التذرية ، منها (المذرى) و (المذرّة)[3] و (المروح) و (المرواح) و (الميثار)[4] و (الحفراة) ، وهي (الرفش) أيضاً[5] .

ويتولى الفلاحون دوس الحاصل بأنفسهم ، لهشم السيقان والحصول على التبن والحب . يستعملون في ذلك أرجلهم وآلات الدياسة . أما إذا كان الحاصل كبيراً ، فيستعملون عندئذ الحيوان يمشي عليه ، أو يجر آلات الدياسة الثقيلة لهشم السيقان وفصل الحب عنها .

ومن عادات أهل اليمن في الدرس والدياسة التناوب ، وذلك بأن يجتمعوا مرّة عند هذا ومرة عند هذا ، فيتعاونوا على الدياس ، ويسمون ذلك (القاه). وذلك كالطاعة له عليهم ، لأنه تناوب قد ألزموه على أنفسهم ، فهو واجب لبعضهم على بعض . وقد وصف أحد أهل اليمن ذلك للرسول بقوله : « انا أهل قاه ، فإذا كان قاه أحدنا دعا من يعينه ، فعملوا له ، فأطعمهم وسقاهم من شراب يقال له المزر »[6] . وكان أهل (الجوخان) يتناوبون ويتعاونون على الدياس ، يجتمعون مرة عند هذا ومرة عند هذا ، يرون التعاون فيما بينهم لزاماً عليهم ، وكالطاعة لهم ، ونوبة كل رجل قاهة[7] .

---

١ المخصص (١١/٥٥) .
٢ تاج العروس (٦/٢١٦) ، (قحف) .
٣ المخصص (١١/٥٥) ، تاج العروس (٣/٢٢٤) ، (ذر) .
٤ المخصص (١١/٥٥) .
٥ تاج العروس (٣/١٥٢) ، (حفر) .
٦ تاج العروس ٩(/٤٠٧) ، (القاه) ، المخصص (١١/٥٥) .
٧ تاج العروس (٩/٤٠٧) ، (القاه) .

ويجمع الفلاحون الحاصل ثم يقسمونه بحسب الانفاق ، إن كان هناك فلاح ورب أرض ، ليأخذ كل واحد منهما نصيبه ، أو يوزع حسب نصيب كل من الشركاء ، إن كان الزرع شركة . أو يسلم الى صاحب الزرع ، ان كان الزرع زرعه ، وكان الفلاحون عبيداً له . ويخزن الحاصل في مخازن مبنية ، وفي بيادر وبيدر الطعام كومه . والبيدر الموضع الذي يداس فيه الطعام ، والمكان الذي يجمع الطعام فيه . وهو (الأندر) ، و (الكدس)[1] . و (الأندر) ، كدس القمح خاصة[2] . والكُدس : الحب المحصود المجموع . وهو العرمة من الطعام والتمر والدراهم ونحو ذلك ، مما يكدس بعضه فوق بعض[3] .

وذكر علماء اللغة أن (الجرين) للحب ، والبيدر للتمر . وذكروا أيضاً أن الجرين موضع السبر ، بلغة أهل اليمن ، وان (الجرد) الطحن شديداً بلغة هذيل[4] .

وينقل الطعام بأوعية الى المخازن ، ومنها نوع يقال له (العيبة) ، وهو زنبيل من أدم ، ينقل فيه الزرع المحصود إلى (الجرن) في لغة همدان[5] . وهناك أسماء أوعية أخرى استعملت في نقل الحاصل من أرض الحصاد وكوم التذرية الى المخازن. ويعبر عن حمل الزرع بعد الحصاد إلى البيدر بلفظة (رفع) كأن يقال : (رفع الزرع) ، و (الرفاع) اكتناز الزرع ورفعه بعد الحصاد[6] . وأما (الغبوط) فالقبضات المصرومة من الزرع . و (الغبوط) هي القبضات التي اذا حصد البر وضع قبضة قبضة ، الواحد غبط[7] . وأما (المكتل)، فزنبيل يحمل فيه التمر أو العنب إلى (الجرين) ، وقيل هو شبه الزنبيل يسع خمسة عشر صاعاً . وفي حديث خيبر : فخرجوا بمساحيهم ومكاتلهم[8]. وكان (عمال خيبر) قد خرجوا بمساحيهم

١ تاج العروس (٣/ ٣٥) ، (بدر) .
٢ تاج العروس (٣/ ٥٦٠) ، (ندر) .
٣ تاج العروس (٤/ ٢٣٠) ، (كدس) .
٤ تاج العروس (٩/ ١٦٠) ، (جرن) .
٥ تاج العروس (١/ ٤٠٢) ، (عاب) .
٦ تاج العروس (٥/ ٣٥٨) ، (رفع) .
٧ تاج العروس (٥/ ١٩٠) ، (غبط) .
٨ تاج العروس (٨/ ٩٤) ، (كتل) .

ومكاتلهم ، فلما رأوا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم والجيش ، قالوا : محمد والخميس معه ، فأدبروا هراباً »[1] .

و (الحنوان) ، هما الخشبتان اللتان عليهما الشبكة ينقل عليها البُرّ[2] .
و (الوشيجة) ، ليف يُفتل ثم يشبك بين خشبتين ينقل بها البر المحصود[3] .

ويعبر عن جمع المحصولات في مواضع معينة لتحسينها ، أو لخزنها ، أو لتجفيفها وللمحافظة عليها بجملة ألفاظ ، منها : (الكدس) ، ويراد بها الحب المحصود المجموع ، وهو العرمة من الطعام والتمر والدراهم ونحو ذلك[4] . ومنها (المربد) ، والمربد كل شيء حبست به الإبل والغنم . ولهذا قيل مربد النعم الذي بالمدينة . وهو أيضاً الجرين الذي يوضع فيه التمر بعد الجداد لييبس ، وهو (الأندر) بلغة أهل الشأم ، والبيدر بلغة أهل العراق[5] . وأما (المسطح)، فكان مستو يبسط عليه التمر ويجفف ، ويسمى (الجرين) يمانية[6] . وأما (الصبرة)، فما جمع من الطعام بلا كيل ووزن بعضه فوق بعض . يقال اشتريت الشيء صبرة، أي بلا وزن ولا كيل . والصبرة الكدس[7] .

وللمحافظة على الحبوب وغيرها من التلف ، اتخذت مخازن تحت الأرض تحفظ فيها سميت (مدفن) (المدفن) في المسند[8] . ولا تزال هذه الطريقة معروفة في مواضع من جزيرة العرب حيث يخزنون القمح وسائر الحبوب في حفر تحفر في الأرض . ويعرف (المدفن) بـ (قنت) ؛ أي الحفرة في لغة المسند كذلك . وهي مخزن يخزن فيه الحب . وذكر (الهمداني) ، ان أهل اليمن كانوا في أيامه يحفرون حفراً في الأرض ويدفنون الذرة فيها ، ويسع المدفن خمسة آلاف قفيز الى ما هو أقل . ويسد عليه ، ويبقى على ذلك مدة طويلة . فإذا كشف المدفن ترك

---

١ سيرة ابن هشام (٢/٢٣٦ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .
٢ المخصص (١١/٥٥) .
٣ المخصص (١١/٥٥) ، تاج العروس (٢/١١١) ، (وشج) .
٤ تاج العروس (٤/٢٣٠) ، (كدس) .
٥ تاج العروس (٢/٣٤٩) ، (ربد) .
٦ تاج العروس (٢/١٦٣) ، (سطح) .
٧ تاج العروس (٣/٣٢٤) ، (صبر) .
٨ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 73.

أياماً حتى يبرد ويسكن بخاره ، ولو دخله داخل عند كشفه لتلف بحرارته[1] .

ويعبر عن قطف الثمار وجزها ، ولا سيما النخل بلفظة (الصرام) ، و(صرم) و (اصطرام)[2] . و (اصطرام) النخل اجترامه . وجرم النخل جرماً ، خرصه وجزه ، والجرام صرام النخل[3] . وتؤدي لفظة (الجداد) معنى (الصرام) كذلك، وقيل : الجداد بمعنى الحصاد والقطاف[4] .

---

١ الصفة (١٠٨) ٠

٢ تاج العروس (٨/٣٦٥) ، (صرم) ، جامع الاصول (١١/٤٧٧) ٠

٣ تاج العروس (٨/٢٢٤) ، (جرم) ٠

٤ تاج العروس (٢/٣١٣) ، (جدد) ٠

الفصل الحادي والتسعون

المحاصيل الزراعية

الحبوب :

يطلق علماء اللغة على الحنطة والشعير لفظة : (الحب)[1] . وهما عماد الخبز في جزيرة العرب حتى الآن . وتقابل اللفظة كلمة (مبرس) في المسند .

والحنطة من أهم المواد الضرورية التي يتاجر بها ، وهي (بُر) في المسند[2] . والبُر[3] ، الحنطة في لغة القرآن الكريم كذلك . وهي (قمح) أيضاً . وقد تكلم بها أهل الحجاز ، ووردت في الحديث . وذكر أنها شامية وقيل قبطية[4] . وهي آرامية الأصل ، من (قمحو) « Gamho »[5] . وهي غذاء الطبقة المترفة والموسرة في الأكثر لغلاء ثمنها بالنسبة الى الفقراء . وقد تباهى الناس وافتخروا بتقديمهم (البر) الى الضيوف[6] . و (الحنطة) من الألفاظ التي كانت شائعة عند العرب أيضاً ، فهي

---

١ تاج العروس (١٩٨/١) ، (حبب) .

٢ راجع السطر : «٩٧» من النص الموسوم بـ : CIH 241, Glaser 613.

٣ بالضم .

٤ تاج العروس (٢٠٨/٢) ، (قمح) .

٥ غرائب اللغة (٢٠٢) .

٦ قال المتنخل الهذلي :

لا در دري ان أطعمت نازلكم قرف الحتى وعندي البر مكنوز

تاج العروس (٣٨/٣) ، (بر) .

(حطاه) (خطاه) « Chittah » في العبرانية مثلاً [1] . وقد قيل لهـا (بر) في العبرانية كذلك[2] .

ويقال للحنطة : (البيضاء) ، وهي (السمراء) أيضاً [3] . و (البثنية) ، الحنطة الجيدة [4] .

وذكر (ابن المجاور) اسم موضع يقال له (بحرى) ، ذكر انه اشتهر بزرع الحنطة ، وان سكانه يزرعون الحنطة مرتين في السنة ، في كل ستة أشهر مرة [5] . واشتهرت (الطائف) بزراعة نوع من الحنطة الجيدة [6] . وأشير إلى نوع من الحنطة عرف بـ (المهرية) ؛ قيل انها حنطة حمراء ، وكذلك سفاها ، وهي عظيمة السنبل غليظة القصب مربعة [7] .

والشعير ، أرخص من الحنطة ، ولذلك كثر استعماله في الأكـل ، فمنه كان خبز أكثر الناس[8] . ولا زال خبز أهل القرى وبعض الأعراب . وقد كان يهود المدينة يتاجرون به وبدقيق الشعير : يبيعونه في مواطنهم ، وفي الأسواق ولا سيما سوق (بني قينقاع) . وقد استدان الرسول من أحـد اليهود صاعين من دقيق الشعير .

ويقال للطحين في كتابات المسند (دققم) أي (دقيق)[9] . ويصنع بطرق مختلفة ، أشهرها (الرحى) ، التي تدار باليد ، والتي يديرها الحيوان ، والتي تدار بالقوى المائيـة . و (الطحانة) التي تدور بالماء[10] . ومع ان معظم الأسر تصنع الطحين في بيوتها ، فإن كثيراً من الناس يشترون الطحين من الأسواق ، ويستوردونه من الخارج من بلاد الشأم في الغالب ، ويبيعونه في الأسواق المحلية . ويقال للدقيق (طحنم) في لغة المسند كذلك ، أي (طحين)[11] .

---

١ Hastings, p. 972, The Bible Dictionary, II, p. 549.
٢ Encyclopaedia Biblica, by Cheyne, Vol., II, p. 908.
٣ تاج العروس (٥/١٠) ، (بيض) .
٤ تاج العروس (٩/١٣٥) ، (بثن) .
٥ ابن المجاور (١/٢٦) .
٦ ابن المجاور (١/٢٥) .
٧ تاج العروس (٣/٥٥١) ، (مهر) .
٨ البخـاري (٥/٤٧) .
٩ راجع السطر الـ «١٢٠» من النص الموسوم بـ : CIH 241, Glaser 618.
١٠ تاج العروس (٩/٢٦٨) ، (طحن) .
١١ Handbuch, I, S. 137

ويظهر ان (الرز) لم يكن من الحبوب المعروفة عند أهل الحجاز ، أو الأماكن الأخرى من جزيرة العرب . وهو من طعام الحضر .

وقد تعود الناس استعمال حبوب أخرى بدلاً من الحنطة والشعير والذرة ، وذلك في سني الفاقة والعوز . وبعض هذه الحبوب هو من الحبوب التي تنبت بالطبيعة . ومن جملة هذه الحبوب (الطهف) ، حب يؤكل في المجهدة ضاو دقيق . لونه أحمر ، ويختبز[1] . و (العَلَس) ، وهو حبة سوداء ، إذا أجدبوا طحنوها وأكلوها . وقيل هو ضرب من الحنطة ، يكون بناحية اليمن ، وقيل هو طعام أهل صنعاء . ويقال إنه العدس[2] . و (البيقية) ، وهو حب أخضر يؤكل مخبوزاً ومطبوخاً ، حبّه أكبر من الجلبان ينبت في الحروث[3] . و (السلت) ، وهو حب بين الشعير والبر ، إذا نقي انجرد قشره ، فكان مثل البر . وقيل شعير لا قشر له أجرد، كأنه الحنطة يكون بالغور والحجاز[4] . ويقال للرطب من السلت: (البيضاء)[5] .

وقد عرفت زراعة الذرة باليمن بصورة خاصة ، كانوا يخبزونها ويستخرجون منها شراباً يقال له : (المزر) . أشير اليه في كتب الحديث والفقة ، وقد نهى الرسول عن شربه[6] . وذكر أن المزر نبيذ الذرة والشعير والحنطة والحبوب ، وقيل نبيذ الذرة خاصة ، وقيل المزر من الذرة ، والبتع نبيذ العسل ، والجعة نبيذ الشعير ، والسكر من التمر ، والخمر من العنب[7] .

القطنية :

ويطلق علماء اللغة على حبوب الأرض التي تدخر كالحمص والعدس والباقلاء والترمس والدخن والأرز والجلبان : (القطنية) ، وأطلقها بعض آخر على ما سوى

---

١ تاج العروس (١٨٦/٦) ، (أطهف) .
٢ تاج العروس (١٩٥/٤) ، (علس) ، المخصص (٦٤/١١) .
٣ تاج العروس (٣٠٢/٦) ، (بيقية) .
٤ تاج العروس (٥٥٤/١) ، (سلت) .
٥ تاج العروس (١٠/٥) ، (بيض) .
٦ الاصابة (١٣٧/١) ، (رقم ٥٦٧) ، (أوس بن بشير) .
٧ تاج العروس (٥٤١/٣) ، (مزر) .

الحنطة والشعير والزبيب والتمر ، أو على الحبوب التي تطبخ . وجعلها بعضهم : العدس والخلر ، وهو الماش ، والفول ، والدجر ، وهو اللوبياء ، والحمص وما شاكلها . وقد ذكر ان الخليفة (عمر) كان يأخذ من القطنية العشر[1] .

و (الحمص) معروف عند العرب ، وهو بري ، أي وحشي ، ينبت من نفسه ، وبستاني ، أي ينبت بزرع الانسان. وقد علفوا به فحول الدواب والجمال. وقد عالجوا به وبدقيقه وبنقيعه أمراضاً عديدة[2] . و (العدس) ، معروف عندهم أيضاً ، ويقال له (العلس) ، و (البلس) أيضاً[3] . وذكر ان (العلس) ، ضرب من البر جيد ، تكون حبتان منه في قشر ، يكون بناحية اليمن . وهو طعام معروف عند أهل صنعاء[4] .

والجلبان من (القطنية) (القطاني) ، نبت يشبه الماش ، أو هو حب أغبر أكدر على لون الماش إلا انه أشد كدرة وأعظم جرماً يطبخ[5] . و (الماش) ، معروف عند العرب كذلك ، يأكله الحضر ، ويداوون به[6] .

وقد أشير في القرآن الكريم الى البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل[7] . ولفظة (بقلن) ، و (بقلت) ، الواردة في نصوص المسند ، هي في مرادف (بقل) ، و (البقل) في عربيتنا ، وأما لفظة (تبقلت) ، فتقابل لفظة (تبقيل) ، ويراد بها زرع الأرض بالبقول .

والسلق من البقول ، وهو نبت ، له أوراق طوال،وأصل ذاهب في الأرض ، يطبخ ورقه . وقد ذكر ان أهل المدينة كانوا يأخذون ورق السلق ، فيجعلون فيه حبات من شعير ، ويطبخونه ، فيكون من ذلك أكل لذيذ[8] .

و (القثاء) ، الخيار ، ويقال انه اسم جنس لما يقول له الناس الخيار ، والعجور والفقوس ، وبعض الناس يطلقه على نوع يشبه الخيار . ويقال هو أخف

---

١ تاج العروس (٩/٣١١ وما بعدها) ، (قطن) ، اللسان (١٣/٣٤٤) .
٢ تاج العروس (٤/٣٨٣) ، (حمص) .
٣ تاج العروس (٤/١٨٦) ، (عدس) .
٤ تاج العروس (٤/١٩٥) ، (علس) .
٥ تاج العروس (١/١٨٦) ، (جلب) .
٦ تاج العروس (٤/٣٥٢) ، (ماش) .
٧ البقرة ٢٢ ، الآية ٦١ .
٨ عمدة القارىء (١٢/١٨٢) ، صحيح البخاري (٢/١٠٩) ، تاج العروس (٦/٣٨٢)، (سلق) .

من الخيار[1] . ويطلق العرب لفظة (الشعارير) على القثاء الصغير[2] . وذكر بعض علماء اللغة أن الخيار شبه القثاء ، وأن اللفظة ليست بعربية أصيلة[3] . وهي من أصل فارسي ، هو (خيار) ، ولهم نوع آخر من الخيار اسمه (خيار جنبر)[4]. وأما لفظه (القثاء)،من المعرّبات كذلك ، عربت من أصل آرامي[5] . و (القثد) نبت يشبه القثاء ، وقيل ضرب منه ، وهو القثاء المدور ، أو هو الخيار . وفي الحديث انه كان يأكل القثد بالمجاج[6] . والمجاج العسل .

ويقال للقثاء (قشّام) (قشّائم) « Kishshu'im » في العبرانية،و (قثوتو) في لغة بني إرم . ويظهر أن لفظة (قثّاء) من الألفاظ القديمة . وقد ذهب بعض الباحثين الى أنها من الألفاظ الإرمية في الأصل[7] . أما لفظة (خيار) فيرون أنها من أصل فارسي[8] .

وذكر علماء اللغة أن (الفقّوس) ، هو البطيخ الشامي ، والذي يقال له البطيخ الهندي ، بلغة أهل مصر ، والحبحب بلغة أهل اليمن[9] .

وقد اختلف علماء التفسير واللغة في معنى (الفوم) ، فذهب بعضهم الى انه الثوم ، وقال بعض آخر الحنطة ، وهو لغة قديمة فيها . وذهب بعض آخر ، الى انه الحنطة وسائر الحبوب التي تخبز ، كما ذهب جماعة الى ان الفومة هي كل عقدة من بصلة أو ثومة أو لقمة عظيمة[10] .

والثوم ، بقلة معروفة كثيرة بأرض العرب،يأكلونها ويداوون بها نيئة ومعجونة، ومسحوقة ، ومطبوخة ، ومسلوقة[11] .

---

١ تاج العروس (١/١٠٠) ، (أقثأ) ٠
٢ تاج العروس (٣/٣٠٤) ، (شعر) ٠
٣ تاج العروس (٣/١٩٥) ، (خير) ٠
٤ غرائب اللغة (٢٢٦) ٠
٥ غرائب اللغة (٢٠٠) ٠
٦ تاج العروس (٢/٤٥٩) ، (قثد) ٠
٧ Encyclopaedia Biblica, by Cheyne, Vol., I, 965, Hastings, p. 271, Hastings, A Dictionary, Vol., I, p. 531.
٨ غرائب اللغة العربية (ص ٢٢٦) ٠
٩ تاج العروس (٤/٢٠٩) ، (فقس) ٠
١٠ تاج العروس (٩/١٥) ، (فوم) ٠
١١ تاج العروس (٨/٢٢٠) ، (الثوم) ٠

والبصل معروف وواحدته بصلة . وذكر انه (الفراريس) ، أو (الفراديس)[1]. وهم يداوون به ، ويضرب به المثل ، فيقال : أكسى من البصل[2] .

الكمأ :

والكمأ نبات معروف في جزيرة العرب ، يخرج من غير زرع كما يخرج الفطر . والعرب تسميه (جُدري الأرض) ، ويقال لبائعه (الكمّاء) . وقد استعمل العرب ماءه لشفاء العين . وقد أشير اليه في الحديث . وهو من النبات الذي يقتات به في أوقات ظهوره[3] . والكمأة السوداء خيار الكمأة. وأما (الجبأة)، فالكمأة الحمراء ، وقال بعض علماء اللغة الجبأة هنة بيضاء كأنها كمأة[4] .

وأما (الفطر) ، فهو ضرب من الكمأة . وقد ذكر علماء اللغة أنه قتال[5] . وقد أخذوا هذه الفكرة من وجود فصائل سامة منه . إلا أن بينه ما هو غير سام .

وذكر علماء اللغة أسماء أنواع عديدة لنباتات تشاكل الكمأة ، منها : العرجون، والطرثوث ، نبت رملي طويل مستدق كالفطر ، يضرب الى الحمرة وييبس ، يؤكل منه حلوّ ، وهو الأحمر ، ومنه مرّ وهو الأبيض ، وذكر بعض علماء اللغة أن الطرثوث نبت على طول الذراع ، لا ورق له ، كأنه من جنس الكمأة[6] و (الطرنوث) و (الضغبوس)[7] . وذكر بعض علماء اللغة ، أن (الضغابيس) صغار القثاء ، جمع ضغبوس . وقيل : هي أغصان شبه العراجين تنبت بالغور ، في أصول الثمام والشوك طوال حمر ، وهي التي تؤكل ، أو نبات كالهليون ، ينبت في أصل الثمام يسلق بالخل والزيت ويؤكل[8] .

---

١ تاج العروس (١٥/٩) ، (فوم) .
٢ تاج العروس (٢٢٨/٧) ، (بصل) .
٣ تاج العروس (١١٢/١) ، (كمأ) ، المخصص (٢/١٢ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٥٠/١) ، (جبأ) .
٥ تاج العروس (٤٧٠/٣) ، (فطر) .
٦ تاج العروس (٦٣١/١) ، (طرثوث) .
٧ المخصص (٢/١٢ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (١٧٦/٤) ، (الضغابيس) .

وهناك بقول برية ، منها (القلقلان) ، و (البسباس)[1] ، و (الذرق)[2] ، و (النفل)[3] ، و (الملاح)[4] .

فصيلة اليقطين :

و (اليقطين) في تعريف علماء العربية : ما لا ساق له من النبات ونحوه ، أو كل شيء ذهب بسطاً في الأرض ، نحو القرع ، والبطيخ ، والشريان ، والدباء ، والحنظل ، ونحوها[5] . فكل هذا النبات هو من اليقطين .

واليقطين ، مذكور في القرآن الكريم[6] . وقد ذهب بعض علماء التفسير الى ان المراد من اليقطين في القرآن الكريم ، القرع ، وذهب بعض آخر ، الى انه الدباء ، وذهب بعض آخر الى انه البطيخ . وذهب قوم الى ان اليقطين شجرة غير ذات أصل من الدباء ونحوه أو غيره . وقد ذكروا ان أمية بن أبي الصلت أشار الى قصة (يونس) ، وكيف ان الله أنبت عليه شجرة من يقطين ، أظلته وعاش عليها ، وذلك قبل الاسلام ، إذ قال :

فأنبت يقطيناً عليه برحمة   من الله لولا الله ألفي ضاحيا[7]

وذكر ان (القرع) ، حمل اليقطين ، وكان النبي يحبه . وأكثر ما تسميه (الدباء) ، وقلّ من يستعمل القرع[8] .

والبطيخ من المزروعات المعروفة في بلاد العرب[9] . وعرف أيضاً بـ (الخربز). وهي لفظة معربة من أصل فارسي هو (خربوزة)[10] . وقد وردت لفظة (الخربز)

---

١ تاج العروس (٤/١٠٩) ، (بس) .
٢ تاج العروس (٦/٣٥١)، (ذرق) .
٣ تاج العروس (١/١٤١) ، (نفل) .
٤ تاج العروس (٢/٢٢٩) ، (ملح) .
٥ تاج العروس (٩/٣١١) ، (قطن) .
٦ الصافات ، ٣٧ ، الآية ١٤٦ .
٧ تفسير الطبري (٢٣/٦٤ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (٥/٤٦٢) ، (قرع) .
٩ القاموس (١/٢٥٧) ، تاج العروس (٢/٢٥٣) ، (البطيخ) .
١٠ القاموس (٢/١٢٥) ، تاج العروس (٤/٣٣) ، (الخربز) .

في الحديث ، مما يدل على انها كانت معروفة في الجاهلية . والظاهر انها وردت من العراق بواسطة التجار العرب أو التجار الفرس الذين كانوا يتاجرون مع الحجاز ، أو بواسطة الرقيق المستورد من هناك ، والذي استخدم في الزراعة في هذه الديار .

وذكر علماء اللغة أن (الحبحبة) البطيخ المعروف بالبطيخ الشامي ، الذي يسميه أهل العراق: (الرقي) والفرس تسميه : (الهندي) لما أن أهل العراق يأتيهم من جهة (الرقة) ، والفرس من جهة الهند ، وأن أصل منشئه من هناك . وذكر بعض علماء اللغة أنه يسمى (الجوح) ، ويسميه المغاربة : (الدلاع)[1] .

والحنظل ، معروف جداً عند العرب ، وهم يداوون به ، ويعالجون به أمراضاً كثيرة،ولا زال الأعراب يقيمون له وزناً كبيراً في طبهم . ويأكلون حبه أيضاً .

النبات الشائك :

ومن فصائل النبات عند العرب ، النبات الشائك ، أي ذو الشوك . وهو كل نبات به شوك ، وأرض شاكة كثيرة الشوك . وشجرة مشوكة كثيرة الشوك ، وأرض مشوكة فيها السحاء والقتاد والهراس ، وذلك لأن هذا كله شاك . والسحاء، نبت شائك ، له زهرة حمراء في بياض تسمى (البهرمة) ، يرعاه النحل عسله غاية[2] . و (القتاد) ، شجر صلب له شوكة كالابر ، وجناه كجناة السمر ، ينبت بنجد وتهامة . قال بعض علماء اللغة ، إنه من العضاه ، وهو ضربان . فأما القتاد الضخام ، فانه يخرج له خشب عظام ، وشوكة حجناء قصيرة . وأما القتاد الآخر ، فإنه ينبت صعداً لا ينفرش منه شيء ، وهو قضبان مجتمعة ، كل قضيب منها ملآن ما بين أعلاه وأسفله شوكاً . وفي المثل : من دون ذلك خرط القتاد . وقد ذكر أن الإبل لا تأكل القتاد إلا في عام جدب ، فيجيء الرجل ويضرم فيه النار حتى يحرق شوكه ثم يرعيه إبله ، ويسمى ذلك التقتيد . والتقتيد هو أن تقطع القتاد ، فتحرقه ، أي شوكه،فتعلفه الإبل ، فتسمن عليه ، وذلك عند الجدب[3] .

---

١ تاج العروس (١/١٩٩) ، (حبب) ، (٢/١٣٤) ، (جوح) .
٢ تاج العروس (١٠/١٧١) ، (سحا) .
٣ تاج العروس (٢/٤٥٨) ، (قتد) .

و (الهراس) ، شجر شائك ، شوكه كأنه حسك ، ثمره كالنبق ، قال بعض علماء اللغة : انه شجر ، وقال بعض آخر انه بقل ، أو شوك من أحرار البقول[1] . و (الحسك) ، نبات له ثمرة خشنة تعلق ثمرته بصوف الغنم ووبر الإبل في مراتعها ، وعند ورقه شوك ملزز صلب ذو ثلاث شعب ، لا يكاد أحد يمشي في أرض حسكة ، إلا أحد في رجليه حذاء[2] . و (النفـــل) ، نبت من أحرار البقول ، ومن سطاحه ، ينبت متسطحاً وله حسك ، قيل : هو قت البرّ ، تأكله الإبل والخيل وتسمن عليه[3] .

والعوسج ، شجر من شجر الشوك ، له ثمر أحمر مدوّر ، كأنه خرز العقيق. وقيل : هو شجر كثير الشوك ، وهو ضروب ، منه ما يثمر ثمراً أحمر يقال له المقنع فيه حموضة . والعوسج المحض ، يقصر أنبوبه ويصلب عوده ولا يعظـــم شجره ، فذلك قلب العوسج ، وهو أعتقه[4] . وذكر ان (المصعة) ثمرة العوسج وحمله ، وهو قدر الحمصة حلو طيب يؤكل ، أحمر ، ومنه قولهم : هو أحمـــر كالمصعة ، ومنه اسود لا يؤكل على أردأ العوسج وأخبثه شوكاً[5] .

---

١ تاج العروس (٤/٢٧٢) ، (هرس) .
٢ تاج العروس (٧/١١٩ وما بعدها) ، (حسك) .
٣ تاج العروس (٨/١٤١) ، (نفل) .
٤ تاج العروس (٢/٧٤) ، (عسج) .
٥ تاج العروس (٥/٥١٢) ، (مصع) .

الفصل الثاني والتسعون

الشجر

الشجر في تعريف علماء اللغة : ما قام من النبات على ساق ، أو ما سما بنفسه دق أو جل ، قاوم الشتاء ، أو عجز عنه[1] . وتطلق اللفظة على كل الشجر ، مهما كان أصله ، شجر زرعه إنسان بغرس ، أو بحب . أو شجر أنبتته الطبيعة. شجر الحضر ، أي الشجر الذي يعيش بين أهل المدر ، وشجر وحشي ، نبت على الجبال أو في البوادي ، دون أن تتعهده يد إنسان .

والشجر : شجر مثمر ، وشجر غير مثمر . ثم هو أهلي ، أي من غرس وزرع الانسان ، وبري أي من انبات وغرس الطبيعة . والعادة ان ثمر الشجر الأهلي أطيب وألذ من ثمر الشجر البري ، لاعتناء الانسان به ورعايته له. ويستعمل الشجر الذي لا ثمر له ، حطباً أو في أعمال البناء إن كان ذا خشب جيد ، وفي أعمال أخرى . وفي جبال (السراة) أنواع من أشجار الجبال . ومن الأشجار المثمرة النخيل وسائر أشجار الفواكه .

وقد وجد النخل في كل مكان من جزيرة العرب فيه ماء ولو كان قليلاً . وهو شجر صبور ، يصبر على العطش طويلاً ، ومن أجل ذلك صار مثل الجمل رمزاً للصحراء . ولم ينفر العربي من زراعة النخيل نفوره من زراعة أشجار الفواكه والخضر بوجه خاص . وقد تخصص بزراعة النخل المستقرون بالطبع .

---

١ تاج العروس (٣/٢٩١) ، (شجر) .

أما الأعراب ، فإنهم لاضطرارهم الى التنقل من مكان الى مكان،ولعدم استقرارهم في موضع واحد استقرار أهل الحضر ، لم يكن ميسوراً لهم غرسه . ثم انهم كانوا يزدرون الزراعة بجميع أنواعها ، وفي ضمنها زراعة النخيل ، وأية زراعة أخرى بلا استثناء .

والنخل ، هو شجر التمر ، وهو (ن خ ل) (نخل) في المسند كذلك[1] . وقد صورت النخلة ونحتت على بعض الصخور وعلى كثير من نصوص المسند ، وجعلت رمزاً للشمس . وكان السومريون يجعلونها رمزاً للشمس كذلك[2] . والظاهر أن تحمل النخلة لحرّ الشمس ، ووجودها في مناطق دافئة ، ومنظر رأسها الذي هو على شكل كرة مكونة من السعف ، الذي يشبه خيوط أشعة الشمس ، حمل الناس على تصور قيام صلة لها بالشمس ، فجعلوها رمزاً لها وعلامة عليها .

وتعني لفظة (انخل) (أنخل) ، (النخيل) وبساتين النخيل ومزارعها[3]. ومن (نخل) أخذت لفظة (منخل) بمعنى مزرع النخيل ، أي الموضع المزروع نخلاً . وقد عني العرب الجنوبيون بزراعة النخيل ، وكونوا بساتين واسعة منها . وكانت (نجران) من أهم المناطق المشهورة بزراعة النخيل[4] .

واذا استقام فسيل النخل وثبت في الأرض ، صبر على العطش ، وتحمل السكوت عن طلب الماء ، أمداً طويلاً ، لاعتماده على رطوبة الأرض ولامتصاص جذوره للمياه الجوفية . ويقال للنخلة التي لا تحتاج الى سقي : (الغامرة)[5] .

وقد ورد عن الرسول قوله : « خير المال سكة مأبورة » ، قيل أراد النخل المصطف ، والسكة أيضاً : السنة وهي الحديدة التي يشق بها الفدان الأرض ، ويقال لها أيضاً المان[6] . وقد اعتبر العرب النخل من الشجر المبارك الذي بورك فيه لما فيه من فوائد .

---

١ RW 155, Bu Jemen 1907, 286, C 1514, Burchard 4, Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 234.

٢ Carl Rathjens, Sabaeica, S. 140.

٣ REP. EPIGR. 4626' VII, II, p. 278.

٤ Wissmann — Höfner, S. 9.

٥ تاج العروس (٣/١٤٨) ، (غمر) .

٦ الروض الانف (٢/٢٠٧) .

والنخيل ، هي مثل الجمال ثروة ورأس مال تدر على صاحبه ربحاً وافراً ، ومن كان له نخل وافر كان غنياً ثرياً . وقد ربح أصحاب النخيل أرباحاً طائلة من اشتغالهم بزراعة النخيل . فالتمر هو مادة ضرورية يعيش عليها أكثر العرب ويتأدمون بها . يأكلونه بدلاً من اللحم . وكان الأعراب يأتون أهل الريف ، بما عندهم من وبر ومن حاصل البوادي ، ليبادلوه بالتمر وبالدقيق وبما يحتاجون اليه في حياتهم البدوية من حاجات ضرورية . فكسب أصحاب النخيل أرباحاً طيبة من بيعهم التمور . ولا يوجد مكان في جزيرة العرب فيه ماء ، إلا والنخلة هي سيدة المزروعات فيه ، بل تكاد تكون النبات المتفرد بالزرع في أكثر الأمكنة ، لا يزاحمها نبات آخر من النبات .

ويقال للنخل المرتفع طولاً مجنون[1] ، وهو نخل يقل تمره ، وتقل فائدته لذلك. واذا غرس النخل سطراً على جدول أو غير جدول ، قيل : (نخل ركيب)[2].

و (الجباب) تلقيح النخل ، وزمن الجباب زمن التلقيح للنخل ، و (الأبر) تلقيح النخل أيضاً[3] . وكانوا يلقحون النخلة بدس شمراخ الفحال في وعاء الطلع[4] .

ويؤكل التمر رطباً ، ويؤكل يابساً جافاً . ويقال لنضيج البسر قبل ان يتمر (رطباً) وواحدته (رطبة)[5] . واذا كان التمر يابساً قيل له (القسب)[6] . ويستعمل (القسب) بعد انتهاء موسم التمر وذهابه ، وهو أكثر تمر الأعراب ، لسهولة المحافظة عليه من التلف ومن الفساد وتغير الطعم .

وقد لجأ الجاهليون الى طريقة كبس التمر ، للمحافظة عليه زمناً طويلاً ، ولسهولة نقله والاتجار به من مكان الى مكان . ومن طرقهم في ذلك ، أنهم كانوا ينزعون نواة التمر ، ثم يكنزونه في قرب وظروف من الخوص ، ويقولون

---

١ تاج العروس (١٦٦/٩) ، (جنن) .
٢ تاج العروس (٢٧٩/١) ، (ركب) .
٣ تاج العروس (١٧١/١) ، (جبّ) .
٤ تاج العروس (٢١٧/٢) ، (لقح) .
٥ تاج العروس (٢٧١/١) ، (رطب) .
٦ تاج العروس (٤٣٨/١) ، (قسب) .

لذلك التقاليف . والقلف التمر الذي نزع نواه وكنز في القرب وظروف الخوص[1]. ولا تزال طريقة التقليف معروفة ، ويقال لما يخصف من التمر في (الخصاف) ، تمر مخصوف[2] ، وللتمر المكبوس في الخصافة مع ظرفه (الخصافة) ، أما القربة التي يكبس في داخلها التمر ، فيقال لها مع تمرها المكبوس بها (الكيشة) في لغة أهل العراق في الوقت الحاضر . و (تمر كيشة) ، هو التمر الذي يستخرج من (الكيشة) .

وقد يحفظ التمر في (القراب) ، وعاء شبه جراب من أدم : « وفي كتابه لوائل بن حجر : لكل عشرة من السرايا ما يحمل القراب من التمر »[3] .

ويكنز التمر في وعـاء من خوص يقال له : (جلة) و (الجلة)[4] ، وهو (القفعة) ، ويسمى بالعراق (القفة) ، و (جلة التمر) في لغة أهل اليمن[5].

وللنخل فوائـد كثيرة جعلها بعضهم نحواً من (٣٦٠) فائدة ، مثل استعمال سعفه وخوصه وجذوعه وليفه في حاجات الإنسان. حيث يصنع منها مختلف الأشياء، ويباع بعضها في الأسواق ، فتكون دخلاً لأصحابها . وصارت منها صناعة تعيّش عليها أناس ، ولا زالت الصناعات المستندة على استغلال النخلة وأجزائها وسعفها باقية ، وان أخذت في الأفول والاندثار ، بسبب منافسة الجديد للقديم ، وانصراف الناس عن الوسائل البدائية القديمة الى الجديد المريح الرخيص .

والنخل في كل موضع من جزيرة العرب فيه ماء . وهو أنواع وفصائل كثيرة. وقد اشتهرت (هجر) بكثرة تمرها ، وبزيادته عن حاجة أهلها ، فكان الأعراب يأتونها للامتيار ، ولشراء التمر منها . وفيها ضرب المثل: كمبضع تمر الى هجر ، و (كجالب التمر الى هجر) . وكانت تصدره الى البوادي والى اليمامة ، حين يقل تمرها . وقد عرفت بكثرة وبائها . قال (عمر) : « عجبت لتاجر هجر وراكب البحر » ، كأنه أراد لكثرة وبائها وخطر البحر ، فتاجرها وراكب البحر في الخطر سواء[6] .

---

١ تاج العروس (٢٢٧/٦) ، (قلف) .
٢ تاج العروس (٨٨/٦) ، (خصف) .
٣ تاج العروس (٤٢٣/١) ، (قرب) .
٤ اللسان (١٥٦/١٣) ، (جلل) ، تاج العروس (٢٦٠/٧) ، (جلل) .
٥ تاج العروس (٤٧٨/٥) ، (قفع) .
٦ تاج العروس (٦١٤/٣) ، (هجر) .

واشتهرت خيبر بكثرة تمورها كذلك ، حتى ضرب بها المثــل في كثرته كما ضرب المثل بكثرة تمر هجر . قال (حسان بن ثابت) :

فأنا ومن يهدي القصائد نحونا   كمستبضع تمراً الى أهل خيبرا

وقال (خارجة بن ضرار المري) :

فإنك واستبضاعك الشعر نحونا   كمستبضع تمراً الى أهل خيبرا [1]

ولا تزال أرض خيبر تحتضن النخيل وتتعهدها بالعناية والرعاية ، وقد وصف (فلبي) موضعها في الوقت الحاضر ، وذكر ان الذي يعتني بالنخيل ، هم قوم من (العبيد) ، يقومون بفلاحة الأرض وبالعناية بالشجر ، مقابل الحصول على نصف الحاصل ، فإذا حل موسم القطاف ، أخذت الحكومة حصتها قبل اقتسام الحاصل، ثم قسّم الباقي بين الأعراب الذين يدعون ملكية الأرض وبين العبيد الذين يسهرون طيلة أيام السنة على رعاية الشجر وعلى الزرع ، والمفروض أن تكون القسمة قسمة عادلة ، قسمة مناصفة ، غير ان الأعراب يشتطون في القسمة فيأخذون لهم أكثر مما يأخذ العبيد [2] . وينطبق هذا الوصف على حالة قسمة الحاصل في المواضع الأخرى من جزيرة العرب في الجاهلية ، ولا سيما في العربية الجنوبية . فقــد كان جباة الحكومة أول من يأخذ حصة الحكومة ، أو حصة الحاكم المهيمن على المكان ، ثم يأتي دور صاحب الأرض ، الذي يحاول الاستئثار بالحاصل حتى لا يترك للفلاح الذي يفلح ويتعب ويكدّ إلا أقل ما يمكن اعطاؤه له .

وبأرض خيبر جملة عيون ومسايل ماء ، لا زال الناس يزرعون عليها . وتوجد آثار نقوش وكتابات تشير الى سكن كان بهذا الموضع يعود الى أيام الجاهليــة . وقد عثر (فلبي) على نقود قديمة ، ومن الممكن استصلاح أرض خيبر وتحويلها الى أرض زراعية منتجة .

و (تيماء) من المناطق الخصبة كذلك . وتشاهد آثارها ظاهرة للعيان . وقــد حصل المنقبون على مجموعات أثرية منها ، في جملتها قطع من النقــود تعود الى

---

١ تاج العروس (٥/٢٧٨) ، (بضع) .
٢ عبد الله فلبي ، أرض الانبياء (ص ٣٨) .

القرن الأخير قبل الميـــلاد [1] . وهناك آثار آبار ومسايل ماء تدل على أن الأرض كانت مخصبة مزروعة ، ومن أشهر آبارها بئر (خداج)[2] . يستقي منها الأعراب ويزرعون عليها في الوقت الحاضر[3] . وقد وجد (فلبي) صوراً وصخوراً منحوتة تمثل رأس الإلـه (صلم) إلـه ثمود وإلـه هذه المنطقة ، وأمامها أرض ممهدة كانت موضع تقديم القرابين لذلك الإلـه[4] .

وقد وجد (فلبي) وغيره من السياح ممن زار هذه الأرضين الواقعــة شمال (يثرب) ، آثار مستوطنات جاهلية كثيرة وآثار قنوات وآبار ومسايل ميـــاه ، تدل على أنها كانت عامرة مزروعة ، وان في الامكان احياءها ، وآن آفة اندثارها هو كثرة الغزو الذي وقع عليها وعدم وجود حكومات تدافع عنها وتحميها مـــن غزو الأعراب ، الذين كانوا وباءً بالنسبة للحضر ، ينهبون ما يجدونه أمـــامهم ويحرقون الزرع ثم يهربون .

وعرفت اليمامة بتمورها أيضاً ، وهو أنواع عديدة ، وكـان الأعراب يأتونها لشراء التمر منها ، وقد عرف الذين يردون اليمامة لامتيار التمر بـ (السواقط) ، و (السقاط) ما يحملونه من تمر[5] .

وعرفت يثرب وما حولها وما وقع أعلاها الى بلاد الشأم بكثرة نخلها ، وهو نخل زرع سككاً في بساتين على طريقة الأنبـــاط في أمصارهم ، لا يخافون عليها كيد كائد . تتخلله السواني والسواقي لتسقيه ، فيثرب حوائط وآطام ، عاش أهلها على الزرع والغرس والجلاد[6] . وقد أشير الى كثرة نخل يثرب في شعر ينسب الى الشاعر (امرىء القيس) ، فنعتها بـ (جنة يثرب) :

علون بأنطاكية فوق عقمة   كجرمة نخل أو كجنة يثرب[7]

---

١ أرض الانبياء (١١١) ·
٢ أرض الانبياء (١١٥) ·
٣ أرض الانبياء (١١٦) ·
٤ المصدر نفسه (ص ١٢١) ·
٥ تاج العروس (١٥٦/٥) ، (سقط) ·
٦ الروض الانف (٢٠٧/٢) ، تاج العروس (١٢٣/٥) ، (حوّط) ، جامع الاصول (١٧٧/١١) ·
٧ تاج العروس (٢٢٤/٨) ، (جرم) ·

وقد افتخر (كعب بن مالك) يوم الخندق على قريش بأن قومه غرسوا النخل حدائق تسقى بالنضح من آبار ثقبت من عهد (عاد) أي من آبار قديمة جداً ، فهي تسقي النخيل المغروسة عليهـا ، ولهم رواكد فيها (الغاب) و (البردى) يزخر فيها نهر (المرار) ، ولهم الزرع الذي يتباهى بسنبله الجميـل ، لا سيما إذا أصابته أشعة الشمس ، لم يجعلوا تجارتهم اشتراء الحمير لأرض دوس أو مراد ، بل أثاروا الأرض وحرثوها وغرسوها عـلى نحو ما تفعل النبط في أمصارها ، لا يخافون عليها كيد كائد ، دلالة على عز أهل يثرب ومنعتهم وأنهم لم يغلبوا على بلادهم من قديم الدهر كما أجليت أكثر الأعاريب عن محالها وأزعجها الخوف عن مواطنها [1] .

ومن أنواع التمور : (الصرفان) [2] ، و (البرني) ، تمر أصفر مدور ، من أجود التمور . وقيل : ضرب من التمر أحمر مشرب بصفرة كثير اللحـاء عذب الحلاوة [3] . و (التعضوض) ضرب من التمر ، والعمر نخل السكر ، وهو معروف عند أهل البحرين [4] . و (البحون) ، ضرب من التمر [5] ، والصفرى ، وقد نعت بأنه سيد التمور ، ثم (السرى) ، ثم (اللصف)، ثم (الفحاحيل) ، ثم (المجتنى) ، ثم (الجعادى) ، ثم (الشماريخ) ، ثم (المشمرخ) ، ثم (البياض) ، ثم (السواد) وهما ألوان كثيرة [6] .

الكرم :

والكرم شجر العنب ، والعنب ، ثم الكرم . وقد زرع في مواضع كثيرة من جزيرة العرب في البساتين وفي الحدائق . وفي الأماكن التي توفرت فيها المياه والجو الطيب المناسب لزراعته ، مثل اليمن ، التي اشتهرت به ، و (الطائف) وهو

---

١ سيرة ابن هشام (٢/٢٠٧ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) الروض الانف (٢/٢٠٧) .
٢ تاج العروس (٦/١٦٤) ، (صرف) .
٣ تاج العروس (٩/١٣٧) ، (برن) .
٤ تاج العروس (٣/٤٢٠) ، (عمر) :
٥ اللسان (١٦/١٩٠ وما بعدها) ، (بحن) ، تاج العروس (٩/١٣٥) ، (البحون) .
٦ الصفة (١٦١) .

أجناس عديدة، بعض أصيل أي من نابت جزيرة العرب ومن تربتها، وبعض مستورد استورد من بلاد الشأم بصورة خاصة ومن أماكن أخرى ، فغرس في بلاد العرب ونبت نباتاً حسناً ، وأجاد اجادة طيبة، جعل زرّاع الكروم يكثرونه من زراعته.

والعنب ، هو (عنبم) ، أي (عنب) في لغة المسند كذلك[1] .

وإذا يبس العنب دعي (زبيباً) . ويعرف الزبيب بـ (فصمم) ، أي (فصم) (فصيم) في اللهجة الحميرية . وقد وردت هذه اللفظة في نص أبرهة ، بمناسبة توزيع أبرهة الزبيب على العمال الذين ساهموا في بناء سد مأرب[2] .

وقد كان أهل اليمن كما يظهر من نصوص المسند يكثرون من زراعة الأعناب ويربحون من زراعتها كثيراً ، بدليل ورود كثير من النصوص الزراعية ، وفيها: أن أصحابها قد غرسوا أعناباً في المناطق الفلانية والفلانية ، أو ورثوا المزرعة الفلانية وفيها أعناب كثيرة . وبدليل حفر صور أغصان العنب وعناقيد العنب في الأحجار وابرازها على الألواح المصنوعة من الجبس ، أو حفرها على الأخشاب للزينة والزخرفة ، وتفننهم في ذلك ، حتى صارت هذه الزخرفة من مميزات الفن اليماني. وما كانوا يفعلون ذلك لو لم يكن للأعناب وجود في اليمن ، ولو لم تكن زراعته منتشرة كثيراً في تلك البلاد .

ومن أنواع العنب : العنب (الجرشي) ، وهو عنب طيب ، يقول علماء اللغة : هو أطيب العنب كله ، وهو أبيض الى الخضرة ، رقيق صغير الحبة ، وهو أسرع العنب إدراكاً ، عناقيده طويلة ، ينسب إلى جرش ، مخلاف باليمن[3]. والعنب (الكلافي) ، وهو نوع من أنواع أعناب أرض العرب ، وهو عنب أبيض فيه خضرة ، وزبيبه أدهم أكلف ، ولذلك سمي : الكلافي . وقيل : هو منسوب الى الكلاف بلد بشق اليمن[4] . والعنب التربي نسبة الى (تربة) ، والعنب التبوكي نسبة الى تبوك . و (الرمادي) ، ضرب من العنب بالطائف أسود

---

١ Halevy 360, 362.

٢ راجع السطر ١٢٨ من نص أبرهة ، جواد علي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الاول من المجلد الرابع (ص ٢١٨) .

٣ تاج العروس (٢٨٧/٤ وما بعدها) ، (جرش) .

٤ تاج العروس (٢٣٨/٦) ، (كلف) .

أغبر[1] . و (الغربيب) ، ضرب من العنب بالطائف شديد السواد ، وهو من أجود العنب وأرقه وأشده سواداً[2] . و (الحمنان) ، عنب طائفي ، أسود الى الحمرة صغير الحب[3] . والدوالي نوع من الكروم[4] .

و (العنجد) ، الزبيب ، أو ضرب منه ، أو الأسود منه ، أو الرديء منه[5]. و (الفرصد) ، عجم العنب ، أو عجم الزبيب[6] .

وقد اشتهرت قرية (ثافت) باليمن بكثرة كرومها ، ويقال لها (أثافت) و (اثافة) أيضاً . وقد عرفت بخمرها المصنوع من هذه الكروم . وكان الأعشى كثيراً ما يتجر فيها ، وكان له معصار للخمر يعصر فيها ما جزل له أهل أثافت من أعنابهم[7] .

ويقال (الأكار) لمن يشتغل في بستان عنب . ويقال للأكار (الجوار)[8] . والأكار الزراع والحرّاث[9] .

والتين هو من الأشجار المعروفة في الحجاز وفي اليمن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد أشير اليه في القرآن الكريم[10] . وهو كثير في أرض العرب، وأجناسه كثيرة ، برية ، وريفية ، وسهلية ، وجبلية . ويكون أخضر اللون ، أو أصفر،وأحمر وأسود . وهو كثير بالسراة مباح،يؤكل رطباً ويزبب ويدخر[11] . وذكر بعض علماء اللغة انه (البلس) ، وقال بعض آخر : البلس : ثمر كالتين يكثر باليمن ، وقيل هو التين نفسه اذا أدرك[12] . ومنه (الطبار) ، قيل هو تين كبير من أكبر أنواع التين ، كميت أنى تشقق ، واذا أكل قشر لغلظ لحائه ،

---

١ المخصص (٢٢/١١) .
٢ تاج العروس (٤١٠/١) ، (غرب) .
٣ تاج العروس (١٨٣/٩) ، (الحمن) .
٤ اللسان (٢٥٤/١١) .
٥ تاج العروس (٤٣٣/٢) ، (عنجد) .
٦ تاج العروس (٤٥١/٢) ، (الفرصد) .
٧ تاج العروس (٥٣٤/١) ، (أثث) .
٨ تاج العروس (١١٣/٣) ، (جار) .
٩ تاج العروس (١٧/٣) ، (أكر) .
١٠ سورة التين .
١١ تاج العروس (١٥٤/٩) ، (تين) .
١٢ تاج العروس (١١١/٤) ، (بلس) .

فيخرج أبيض ، ويزبب . وذكر بعض علماء اللغة ، انـه من شجر الضرف ، وهو على صورة التين ، إلا انـه أدق[1] . و (الضرف) ، شجر التين ، يقال لثمره البلس . أو هو من شجر يشبه الأتأب في عظمه وورقه ، إلا ان سوقه غبر مثل سوق التين ، وله تين . وقيل : له جني أبيض مدوّر مفلطح كتين الحماط الصغار ، مُرّ يضرس يأكله الناس والطير والقرود[2] .

والرمّان من الفواكه المعروفـة في الحجاز وفي اليمن ، وقد ذكر في القرآن الكريم[3] . ومنه أنواع بريّة ، ذكر بعض علماء اللغة منها (المظ) . وهو ينبت في جبال السراة ، وفي بقية الجبال . وذكر بعض آخر ، أنه شجر الرمّـان[4] . و (الجشب) قشور الرمان عند أهل اليمن[5] .

والتفّاح بأرض العرب كثير[6] . والموز معروف عندهم ، ولا سيما في العربية الجنوبية وفي التهائم[7] . و (الخوخ) معروف عند العرب[8] ، ويقال له (الفرسك)[9] .

و (الفرصاد) ، التوت أو حمله أو أحمره . و (التـوت) من الألفاظ المعربة[10] . ويربون على ورقه ديدان الحرير .

و (الزيتون) ، شجر معروف في بلاد العرب ، استخرجوا منه زيت الزيتون . وقد ذكر في القرآن الكريم[11] .

و (السدر) ، من الأشجار المعروفة في كل مكان من جزيرة العرب . ورد ذكره في القرآن . واستعمل ورقه في مقام الصابون ، كما استفيد من ثمره ومن أغصانه وأخشابه . وهو يتحمل الصبر على العطش لعمق جذوره في باطن الأرض. وبذلك لاءم جوّ جزيرة العرب هذا النوع من الشجر ، وما زال الناس يزرعونه في كثير من المواضع . وقد استعمل مظلة يجلسون تحتها في أيام الحرّ الشديد ومجلساً

---

١ تاج العروس (٣/٣٥٥) ، (طبر) .
٢ تاج العروس (٦/١٧١) ، (الضرافة) .
٣ سورة الانعام ، الآية ٩٩ ، ١٤١ .
٤ تاج العروس (٥/٢٦٤) ، (مظظ) .
٥ المخصص (١١/١٤٠) ، تاج العروس (١/١٨٣) ، (جشب) .
٦ تاج العروس (٢/١٢٨) ، (التفاح) .
٧ تاج العروس (٤/٨٣) ، (موز) .
٨ تاج العروس (٢/٢٥٦) ، (الخوخة) .
٩ تاج العروس (٧/١٦٨) ، (الفرسك) .
١٠ تاج العروس (٢/٤٥١) ، (الفرصد) .
١١ سورة التين .

يجلسون فيه لتمضية الوقت والتسلي والترويح عن النفس .

والسدر من العضاه ، هو لونان ، فمنه عبري ومنه ضال . فأما العبري ، فما لا شوك فيه إلا ما لا يضير . وأما الضال ، فذو شوك . وذكر أهل الأخبار : أن أجود نبق يعلم بأرض العرب . نبق هجر . وهو أشد نبق حلاوة وأطيبه رائحة. يفوح فم آكله وثياب ملابسه كما يفوح العطر[1] .

الجوز :

والجوز معروف بأرض العرب ، ويربى باليمن . وبالسروات شجر جوز لا يربى ؛ وخشبه موصوف بالصلابة والقوة،وينبت الجوز في الجبال والمرتفعات. وقد أشير الى صلابة وقوة خشب الجوز في شعر للأعشى . وقد زعم ان سفينة (نوح) كانت من خشب الجوز[2] . والجوز نوعان : جوز يربى ، أي يزرعه الانسان بنفسه ويرعاه ، وجوز وحشي ، نبت على الطبيعة ، دون ان تزرعه يد انسان . وهو أنواع عديدة ، لها أسماء ترد في كتب اللغة .

اللوز :

واللوز ثمر معروف في بلاد العرب ، ومن أسمائه القمروص . وهو على نوعين: حلو ومرّ . وقد استعملا في المعالجة : في معالجة أمراض عديدة ، من باطنية وجلدية . واستعمل الحلو منه في الطعام ، وفي الحشو . والثمر الملوّز ، هو الثمر المحشو به . وذلك ان ينزع منه نواه ، ويحشى فيه اللوز[3] . واللوز ، صنف

---

١ تاج العروس (٣/٢٦١) ، (سدر) .

٢ قال الجعدي :

كأن مقط شرا سيفه | الى طرف القنب فالمنقب
لطحن بترس شديد الصفا | ق من خشب الجوز لم يثقب

وقال في وصف سفينة نوح :

يرفع بالقار والحديد من الجوز طوالا جذوعها عمما

تاج العروس (٤/٢٠) ، (جوز) .

٣ تاج العروس (٤/٧٩) ، (اللوز) .

من المزج ، والمزج ما لم يوصل الى أكله إلا بكسر ،وقيل هو ما دق من المزج. أو المرّ من اللوز[1] .

الثمر :

والثمر ، حمل الشجر[2] . وهو (ثمـــر) في نصوص المسند كذلك ، ويجمع عندهم على (اثمر) ، أي (أثمار) . و (الفاكهة) الثمر كله[3] . وفي القرآن الكريم : « وفاكهة وأباً » . قال العلماء الأب الكلأ ، وما تأكله الأنعام ، والمرعى كله . والفاكهة ما أكله الناس . فالأب من المرعى للدواب كالفاكهة للانسان[4] .

ويحتاج الشجر المثمر الى رعاية وعناية وحماية من أذى الطبيعة ومن أذى الإنسان والحيوان . فعلى صاحبه حمايته من الشمس المحرقة ، ومن البرد الشديد ومن الأهوية والعواصف ، ومن الحشرات التي قد تصيبه فتأتي عليه ، ومن الأمراض والآفات الزراعية ، ومن تطاول إنسان غريب عنه عليه ، بقطعه أو بسرقة ثمره، ثم حمايته من أذى الحيوان ، بأكله أو بأكل ورقـــه أو ثمره ، وكسر أغصانه ، وأمثال ذلك مما يلحقه من أذى بالشجر وبثمره .

ولحماية الشجر ، أحاطوا الأرض المشجرة بحائط مرتفع قدر الإمكان ، ليمنع الانسان أو الحيوان من دخولها ، ومن الاعتداء على شجرها أو ثمرها ، ويقـــال لها (الحائط) . و (الحائط) البستان . وقـــد أطلقت اللفظة على البستان من النخل في الغالب . وكانت (يثرب) ، ذات (حوائط) . وقد أشير اليهـــا في الحديث : ورد : « على أهل الحوائط حفظها بالنهار . يعني البساتين »[5] .

وقد عني أهل الجاهلية بتحسين وبتنويع وبتطعيم أشجارهم المثمرة ، وكان منهم مثل أهل الطائف واليمن من استورد الشجر المثمر الجيد من الخارج . من بـــلاد الشأم ومن افريقية والهند ومن المواضع التي اشتهرت بصنف جيد من أصناف الشجر من جزيرة العرب ، وبذلك نوّعوا ثمرهم وحسنوا أصناف شجرهم ، ويظهر أثر

---

١ تاج العروس (٢/١٠٠) ، (مزج) ، (٤/٧٩) ، (اللوز) .
٢ تاج العروس (٣/٧٧) ، (ثمر) .
٣ تاج العروس (٩/٤٠٢) ، (فكه) .
٤ تاج العروس (١/١٤٢) ، (أب) .
٥ تاج العروس (٥/١٢٣) ، (حوط) .

استيراد الشجر من خارج جزيرة العرب ، من الأسماء الأعجمية التي عرفت بها في الجاهلية ، والتي تتحدث عن المكان الذي استوردت منه .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الأشجار نبتت ونمت نمواً طبيعياً ، منها ما نبت على الجبال والمرتفعات ، ومنها ما نبت في البوادي وفي التهائم . فهي من الأشجار الوحشية التي لم تزرعها يد إنسان . بعض منها مثمر ، يستفاد من ثمره ، وبعض منها مثمر ، غير أنه لا يمكن الاستفادة من ثمره ، ولا ينتفع به إنسان أو حيوان . وبعض منه عقيم ، غير مثمر .

ومن الأشجار المعروفة : التين الوحشي ، أو التين البري . ويكثر وجوده في الجبال والمرتفعات . وقد عرفت جبال السراة بكثرة وجود هذا التين بها ،والزيتون الوحشي (العتم) . ذكر علماء اللغة ان (العتم) شجر الزيتون البري ، وقيل هو ما ينبت منه في الجبال ، ويوجد شجر يشبهه ينبت بالسراة [1] . ويستخرج الأهلون اليوم منه دهناً قاتم السواد يسمى (القطران) ، لطلاء الأبواب والنوافذ في أرض (شمران) المحاذية للسراة في المملكة العربية السعودية [2] . واتخذت منه الأسوكة . ورد : الأسوكة ثلاثة : أراك ، فإن لم يكن فعتم أو بطم [3] .

والحماط ، شجر شبيه بالتين ، خشبه وجناه وريحه ، إلا ان جناه هو أصغر وأشد حمرة من التين ، ومنابته في أجواف الجبال ، وقد يستوقد بحطبه ويتخذ خشبه لما ينتفع به الناس ، ويبنون عليه البيوت والخيام . وقيل هو في مثل نبات التين،غير انه أصغر ورقاً وله تين كثير صغار من كل لون أسود وأملح وأصفر، وهو شديد الحلاوة ، ويحرق الفم اذا كان رطباً ، فإذا جفّ ذهب ذلك عنه ، وهو يدّخر . وله اذا جف متانة وعلوكة ، وهو أحب شجر الى الحيات ، تألفه كثيراً ، ولذلك قيل : شيطان حماط . وهو شجر التين الجبلي ، أو هو الأسود الصغير المستدير منه ، أو هو شجر (الجميز) [4] . و (الجميز) التين الذكر ، يكون بالغور ، وهو حلو ، وهو الأصفر منه والأسود يدمي الفم [5] .

---

١ تاج العروس (٣٨٨/٨) ، (عتم) .
٢ جريدة البلاد السعودية (العدد ١٦٤ ، السنة الاولى ، ١٢ اغسطس ١٩٥٩) ، « الزراعة ومشاكلها في شمران » .
٣ تاج العروس (٣٨٨/٨) ، (عتم) .
٤ تاج العروس (١٢١/٥) ، (حمط) .
٥ تاج العروس (١٨/٤) ، (جمز) ، عرام (٤١٥) .

والتألب ، وينبت بجبال اليمن ، وله عناقيد كعناقيد البطم ، فإذا أدرك وجف اعتصر للمصابيح ، وهو أجود لها من الزيت . وتقع السرفة في التألبة فتعريها من ورقها . ويتخذ من عيدان التألب القسي[1] . و (الألب) شجرة شاكة كالاترج ، ومنابتها ذرى الجبال ، وهي سمّ ، يؤخذ خضبها وأطراف أفنانها فيدق رطباً ويقشب به اللحم ويطرح للسباع كلها ، فلا يلبثها اذا أكلته ، فإن هي شمّته ولم تأكله عميت عنه[2] .

و (الشوحط) ، ضرب من شجر الجبال ، تتخذ منه القسيّ . ويكثر وجوده في جبال السراة ، فإنها هي التي تنبته . وله ثمرة مثل العنبة الطويلة ، إلاّ أن طرفها أدق . وهي لينة تؤكل[3] . و (النبع) ، شجر من أشجار الجبال ، أصفر العود رزينه ثقيله في اليد ، وإذا تقادم احمر . تتخذ منه القسيّ . وكل القسيّ إذا ضمّت الى قوس النبع كرمتها قوس النبع ، لأنها أجمع القسي للارز واللين ، ولا يكون العود كريماً ، حتى يكون كذلك ، أي شديداً ليناً . وتتخذ السهام من أغصانه . وله ذكر في شعر الشعراء الجاهليين[4] .

ومن أشجار الجبال : (الرنف) ، و (الحثيل) ، و (البان) ، و(الظيان). و (الرنف) ، شجر ينضم ورقه الى قضبانه إذا جاء الليل وينتشر بالنهار . وفي مقتل (تأبط شراً) ، أن الذي رماه لاذ منه برنفة ، فلم يزل (تأبط شراً) يجدمها بالسيف حتى وصل اليه فقتله ، ثم مات من رميته[5] . و (الحُثَيْل) ، شجر جبلي يشبه الشوحط ، ينبت مع النبع وأشباهه[6] . و (البان) ، شجر ، ولحبّ ثمره دهن طيب . وتعالج بحبه جملة أمراض جلدية وداخلية . وهو يطول

---

١ المخصص (١١/١٤٢) ، عرام (٤٠٧ ، رقم ١٠) .

٢ تاج العروس (١/١٤٩) ، (ألب) .

٣ قال الاعشى :

وجيادا كأنها قضب الشو حط يحملن شكة الابطال

تاج العروس (٥/١٦٥) ، (شحط) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (ص ٣٩٦) .

٤ تاج العروس (٥/٥١٨) ، (نبع) .

٥ تاج العروس (٦/١٢٢) ، (أرنف) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (ص ٣٩٦) :

٦ قال أوس بن حجر :

تعلمها في غيلها وهي حظوة بواد به نبع طوال وحثيل

تاج العروس (٧/٢٧٣) ، (حثل) .

باستواء مثل نبات الأثل ، وورقه له هدب كهدب الأثل ، وليس لخشبه صلابة. وعدّه بعض العلماء من العضاه ، وله ثمرة تشبه قرون اللوبياء ، إلاّ أن خضرتها شديدة . فهو من النبات الذي تطيب به[1] . و (الظيان) ، ياسمين البرّ ، وهو نبت يشبه النسرين ، وضرب من اللبلاب . وقد دبغ بورقه ، ويلتف بعضه على بعض[2] . وهو على هذا التعريف ، ليس من الأشجار التي تعطي الخشب . وبعض ما ذكرته ينبت في الهضاب والأودية[3] . وذكر أن للظيان ، ساق غليظة ، وهو شاك ، ويحتطب . وله سنفة كسنفة العشرق . والسنفة: ما تدلى من الثمر وخرج عن أغصانه . والعِشرق : ورق يشبه الخندقوقا منتنة الرائحة[4] .

والقرظ ، شجر عظام لها سوق غلاظ ، أمثال شجر الجوز وورقه أصغر من ورق التفاح ، وله حب يوضع في الموازين . وهو ينبت في القيعان ، واحدته قرظة . ويستعمل حبه للتداوي . ويدبغ به ، ويستخرج صبغ منه ، يصبغ به الأديم . والقرظ من أشهر مواد الدباغة وصبغ الجلود عند الجاهليين[5] .

و (الضهياء) ، وهو شجر يشبه العنّاب تأكله الإبل والغنم[6] . و (العرعر) شجر يعمل به القطران ، وهو شجر عظيم جبلي لا يزال أخضر ، يسميه البعض (السرو) ، وقيل : الساسم ، وقيل الشيزى ، وله ثمر أمثال النبق ، يبدو خضر ، ثم يبيض ، ثم يسود حتى يكون كالحمم ، ويحلو فيؤكل واحدته عرعرة[7] . و (البشام) ، شجر عطر الرائحة طيب الطعم ، يدق ورقه ويخلط بالحنّاء يسود الشعر . وقيل : هو شجر ذو ساق وأفنان وورق صغار، أكبر من ورق الصعتر ، ولا ثمر له ، واذا قطعت ورقته أو قصف غصنه هريق منه لبن

---

١ تاج العروس (٩/١٤٧) ، (البون) .
٢ تاج العروس (٩/٢٧٣) ، (ظن) ، (١٠/٢٣٣) ، (ظنى) .
٣ قال أوس بن حجر :
بـواد بـه نبـع طوال وحثيل ... وبان وظيـان ورنـف وشوحط
ألف أثيث ناعم متغيل
(أنف) تاج العروس (٦/١٢٢) ، (أرنف) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٩) .
٥ تاج العروس (٥/٢٥٨) ، (قرظ) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٦) .
٦ عرام (٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤١١) ، تاج العروس (١٠/٢٢٢) ، (ضهي) .
٧ تاج العروس (٣/٢٩٢) ، (عرر) .

أبيض . قيل : ويستاك بقضبه . وفي حديث (عتبة بن غزوان) ، ما لنا طعام إلا ورق البشام[1] .

و (الدلب) ، شجر (الصنّار) ، معرب (جنار) الفارسية ، واحدته (دلبــة) ، شجر عظيم ، ورقه يشبه الخروع إلا أنه أصغر منه ، ومذاقه مرّ عصف ، وله نوّار صغار . يتخذ منه النواقيس . تقول العرب : هو من أهل الدربة بمعالجة الدلبة ، أي هو نصراني[2] . و (التنضب) ، شجر ضخام ليس له ورق ، وهو يسوق ويخرج له خشب ضخام وأفنان كثيرة ، وإنما ورقـه قضبان تأكله الإبل والغنم . وقال بعض العلماء : التنضب شجر له شوك قصار ، وليس من شجر الشواهق ، تألفــه الحرابي . وذكر بعض آخر ، أن التنضبة شجرة ضخمة يقطع منهــا العمد للأخبية ، وتتخذ منها السهام . وذكر بعض آخر : التنضب شجر حجازي ، وليس بنجد منه شيء إلا جزعة واحدة بطرف (ذقان) عند التقيدة ، وهو ينبت ضخماً على هيئة السرح ، وعيدانه بيض ضخمة ، وهو محتظر وورقه منقبض ولا تراه إلا كأنه يابس مغبرّ وان كان نابتاً . وشوكــه كشوك العوسج ، وله جــني مثل العنب الصغار يؤكل . وهو أحيمر . ودخان التنضب أبيض مثل لون الغبار ، ولذلك شبهت الشعراء الغبار به . وقــد قطعت منه العصي الجيــاد[3] . وذكر أن للتنضب ثمراً يقال له (الهمقع) يشبه المشمش يؤكل طيباً[4] .

والأيدع ، شجر يشبه الدلب ، إلا أن أغصانه أشد تقارباً من أغصان الدلب، له وردة حمراء ، وليس له ثمر ، نهى الرسول عن كسر شيء من أغصانه وعن السدر والتنضب والشبهان ، لأن هؤلاء جميعاً ذوات ظلال يسكن الناس فيها من البرد والحر[5] .

---

١ تاج العروس (٢٠٣/٨) ، (بشم) .
٢ تاج (٢٤٧/١) ، (دلب) .
٣ قال عقيل بن علقمة المري :
وهل أشهدن خيــلا كأن غبارها بأسفــل علكــد دواخــن تنضب
وقال النابغة الجعدي :
كــأن الدخـــان الــذي غادرت ضحيــا دواخــن مـــن تنضــب
تاج العروس (٤٨٩/١) ، (نضب) .
٤ عرام (٤٠) ، تاج العروس (٥٦١/٥) ، (همقع) .
٥ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٠) .

والشبهان والشبه ، نبت كالسمر شائك له ورد لطيف أحمر ،وحب كالشهدانج يشرب للدواء ، وترياق لنهش الهوام ، نافع للسعال ، ويفتت الحصى ويعقـل البطن . وذكر انـه شجـر من العضاه[1] . فهو من النباتات التي تطبب بها . و (السرح) شجر كبير عظيم طويل لا يُرعى وانما يستظـل فيه وينبت بنجد في السهل والغائط ، ولا ينبت في السهل والغلظ ، ولا ينبت في رمل ولا جبـل ، ولا يأكله المال إلا قليلاً . له ثمر أصفر ، أو هو كل شجر لا شوك فيه . وقد ورد ذكره في الشعر الجاهلي[2] .

و (السلم) ، شجر من العضاه ، وورقه القرظ الذي يدبغ به الأديم . وهو سلب العيدان طولاً شبه القضبان ، وليس له خشب ، وإن عظـم ، وله شوك دقاق طوال حاد ، وله برمة صفراء فيها حبة خضراء طيبة الريح وفيها شيء من مرارة ، وتجد بها الظباء وجداً شديداً[3] . والسماق في جملة الشجر الذي ينبت في جزيرة العرب ، ذكر بعض العلماء انه يسمى (الظمخ) في الحجاز ، و (العرتن) في نجد . وهو من شجر القفاف والجبال. وله ثمر حامض عناقيد فيها حب صغار. وهو من النبات الذي يداوى به ، في جملة أمراض[4] . وورد ان (الظمخ) ، هو شجر السماق ، ويقال فيه الظنخ ، والزمخ ، والطنخ . وان الظمخ ، شجرة على صورة الدلب ، يقطع منها خشب القصارين التي تدفن ، وهي العرن ، وهي أيضاً شجرة التين في لغة طيء[5] . وذكـر ان (العرنة) عروق (العرنتن) ، و (العرنة) خشب الظمخ ، واحدتها ظمخة . شجرة على صورة الدلب ، يقطع منها خشب القصارين التي تدفن . وقيل هو شجر يشبه العوسج ؛ إلا انه أضخم منه ، وهو أثيث الفرع وليس له سوق طوال . وسقاء معرون دبغ به[6] .

و (الخزم) . شجر كالدوم سواء ، وله أفنان وبسر صغـار يسودّ إذا أينع مرّ عفص لا يأكله الناس . تتخذ من لحائه الحبال . والخزّام بائعـه[7] . وذكر

---

١ تاج العروس (٩/٣٩٣) ، (أشبه) .
٢ تاج العروس (٢/١٦١) ، (سرح) .
٣ تاج العروس (٨/٣٣٧) ، (سلم) .
٤ عرام (٤٠٢ وحاشية رقم ٢) ، تاج العروس (٦/٣٨٥) ، (سحق) .
٥ تاج العروس (٢/٢٧٠) ، (الظمخ) .
٦ تاج العروس (٩/٢٧٧) ، (عرتن) .
٧ تاج العروس (٨/٢٧٤) ، (خزم) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٢) .

أنه شجر يشبه ورقه ورق البردي ، وله ساق كساق النخلة يتخذ منه الأرشية الجياد [1] . وأما (الدوم) ، فشجر ثمره (المقل) . تعبل شجرته وتسمو ولها خوص كخوص النخل ، وتخرج أفناء كأفناء النخلة [2] . وذكر أن (المقل) صمغ شجرة شائكة كشجرة اللبان ، وهو الذي يسمى (الكور) ، أحمر طيب الرائحة. ينبت بعمان، في جبل يدعى (قهوان) مطل على البحر . وهو من الأدوية المعروفة عند العرب . و (المقل المكي) ، ثمر شجر الدوم ، الشبيه بالنخلة في حالاتها ينضج ويؤكل ، ويستعملونه لمعالجة المعدة . ويتدخن اليهود بالمقل ، الذي هو الكندر ، وحبّه يجعل في الدواء [3] .

و (الشقب) ، شجر ينبت كنبتة الرمّان وورقه كورق السدر ، وجناه كالنبق وفيه نوى . وذكر أنه شجر من شجر الجبال ينبت في جبال اليمن على أفواه الأودية ، له أساريع كالشطب التي في السيف ، يتخذ منها القسي [4] . و(الإثرار) وله ورق يشبه ورق الصعتر وشوك نحو شوك الرمان ، ويقدح ناره إذا كان يابساً فيقتدح سريعاً ، وقد يتخذ من (الإثرار) القطران ، كما يتخذ من العرعر [5] .

و (المرخ) من شجر النار عند العرب ، أي من الأشجار التي تورى بسرعة وتعطي ناراً طيبة ، سريع الورى كثيره ، حتى قالوا : في كل شجرة نار ، واستمجد المرخ والعفار . وقيل هو من العضاه ، وهو ينفرش ويطول في السماء حتى يستظل فيه ، وليس له ورق ولا شوك ، وعيدانه سلبة قضبان دقاق ، وينبت في شعب وفي خشب ، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به . ذكروا أنه ليس في الشجر كله أورى ناراً من المرخ ، وربما كان المرخ مجتمعاً ملتفاً وهبت الريح وجاء بعضه إلى بعض فأورى فأحرق الوادي . ولم ير ذلك في سائر الشجر [6] .

---

١ عرام (ص ٤٠٢ وحاشية رقم ٢) .

٢ تاج العروس (٢٩٧/٨) ، (دوم) .

٣ تاج العروس (١١٨/٨) ، (مقل) .

٤ تاج العروس (٣٢٣/١) ، (شقب) ، عرام (٤٠٣) .

٥ عرام (٤٠٢ ، ٤٠٨) .

٦ قال الاعشى :

زنادك خير زناد الملو ... ك خالط فيهن مرخ عفارا
ولو بت تقدح في ظلمة ... حصاة بنبع لاوديت نارا

تاج العروس (٢٧٨/٢) ، (مرخ) .

و (العفار) ، من شجر النار كذلك . وهو شجر يتخذ منه الزناد ، يسوى من أغصانه فيقتدح به . شبيه بشجرة الغبيراء الصغيرة ، وهو شجر خوار . وقيل في قوله تعالى : « أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها » إنها المرخ والعفار . وهما شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما من الشجر[1] .

و (الأراك) من الحمض ، وقيل الحمض نفسه ، له حمل كحمل عناقيد العنب ، يستاك به ، أي بفروعه . وهو أفضل ما استيك بفروعه ، وأطيب ما رعته الماشية رائحة لبن . تتخذ المساويك من الفروع ومن العروق ، وأجوده عند الناس العروق[2] . ويقال للغصن من ثمر الأراك (المرد) ، والنضيج منه (الكباث) ، و (البرير) ثمر الأراك أيضاً[3] . و (الطلح) ، شجر عظيم حجازي جناته كجنات السمرة ؛ وهو شوك أحجن ومنابته بطون الأودية ، وهو أعظم العضاه شوكاً وأجودها صمغاً . وذكر بعض علماء اللغة ، ان الطلح شجرة طويلة لها ظل يستظل بها الناس والإبل وورقها قليل ولها أغصان طوال عظام ، ولها شوك كثير مثل سلاء النخل ، ولها ساق عظيمة لا تلتقي عليها يدا الرجل ، وهي أم غيلان ، تنبت في الجبل ، الواحدة طلحة . وذكر بعض آخر ، ان الطلح أعظم العضاه وأكثره ورقاً ، وأشده خضرة ، وله أشواك ضخام طوال وشوكه من أقل الشوك أذى ، وليس لشوكته حرارة في الرجل ، وله برمة طيبة، وليس في العضاه أكثر صمغاً منه ولا أضخم ولا ينبت إلا في أرض غليظة شديدة خصبة . وقد فسر بعض العلماء قوله تعالى : « وطلح منضود » ، بأنه الطلع ، و (الطلع) لغة في الطلح . وذكروا ان الطلع الموز . وهذا في نظر بعض آخر ، غير معروف ، لأن شجر الموز غير شجر الطلح[4] .

و (النشم) ، شجر جبلي ، تتخذ منه القسي ، وهو من عتق العيدان[5] .

---

١ تاج العروس (٣/٤١٢) ، (عفر) .

٢ تاج (٧/٩٩ وما بعدها) ، (أرك) .

٣ تاج العروس (٢/٥٠٠) ، (مرد) .

٤ تاج العروس (٢/١٩٠) ، ، (طلح) .

٥ تاج العروس (٩/٧٦) ، (نشم) .

و (الغرب) ، شجر ، يسوى منه الأقداح البيض[1] . و (العرفـط)[2] ، شجر من العضاه ، وهو فرش عـلى الأرض لا يذهب في السماء ، وله ورقة عريضة وشوكة حديدة حجنـاء ، وهو مما يلتحى لحاؤه وتصنع منه الأرشية التي يستقى بها ، وتخرج في برمه العلفة كأنها الباقلاء ، تأكله الإبل والغنم . وقيل لبرمتـه الفتلة ، وهي بيضاء كان هيادبها القطن . وهو من خرج العيـدان ، وليس له خشب ينتفع به فيما ينتفع من الخشب وصمغه كثير ، وربما قطر على الأرض حتى يصير تحت العرفط ، مثل الأرحاء العظام . وذكر بعض علماء اللغة : العرفط ، شجرة قصيرة متدانية الأغصان ، ذات شوك كثير طولها في السماء كطول البعـير بأركالها وريقة صغيرة . تنبت في الجبال ، تأكل الإبل بفيها أعراض غصنتهـا . وذكر أن لصمغها رائحة كريهة ، فإذا أكلته النحل حصل في عسلها من ريحه . وقد أشير الى رائحته هذه في كتب الحديث[3] .

و (الغرف) شجر يدبغ به ، ويعمل منه القسيّ ، وذكر انه لا يدبغ به ، وقيل يدبغ بورقه ، وإن كانت القسي تعمل من عيدانه ، وذكـر انه اذا جفّ فمضغ شبهت رائحته رائحة الكافور . وجعله بعضهم ثماماً . فقالوا : الثمام أنواع، منـه : الغرف ، وهو شبيه بالأسل ، وتتخذ منه المكانس ، ويظلل بـه المزاد فيبرد[4] . و (الشث) شجر من أشجار الجبال ، وقيل ضرب من الشجر ونبت طيب الريح مرّ الطعم يدبغ به ، ينبت في جبال الغور وتهامة ونجد . وقيل شجر مثل شجر التفاح القصار في القدر ، ورقه شبيه بورق الخلاف ، ولا شوك له ، وله برمة موردة صغيرة ، فيهـا ثلاث حبات أو أربع سود ، ترعاه الحمام اذا انتثروا[5] .

وذكر ان (الغُرَيْف) شجر خوّار مثل الغرب أو البردي[6] . و (الضرو)

---

١ تاج العروس (٤٠٧/١) ، (غرب) .

٢ بالضـم .

٣ تاج العروس (١٨٢/٥) ، (اعرنفط) .

٤ تاج العروس (٢٠٩/٦) ، (غرف) .

٥ تاج العروس (٦٢٧/١ وما بعدها) ، (شث) .

٦ قال حاتم في صفة نخل :

رواء يسيل المـاء تحت أصـوله … يميـل به غيـل بادنـاه غريف

وقال أحيحة بن الجلاح :

يزخـر في حافـاته مغـدق … بحافتيـه الشـوع والغـريف

شجرة الكمكام ، وهو شجر طيب الريح يستاك به ، ويجعل ورقه في العطر ، وأكثر منابت الضرو باليمن ، وهو من شجر الجبال كالبلوط العظيم له عناقيد كعناقيد البطم ، غير انه أكبر حباً ، ويطبخ ورقه فإذا نضج صفي وردّ ماؤه الى النار فيعقد . يتداوى به[1] . وذكر ان الكمكام قرف شجر الضرو ، وقيل صمغ شجرة تدعى الكمكام تجلب من اليمن ، وقيل هو علك الضرو . وقرف شجرة الضرو أو لحاؤها من أفواه الطيب . وقد يستاك به[2] .

و (المظ) ، شجر الرمان أو بريه ، ينبت في جبال السراة ولا يحمل ثمراً وإنما ينوّر نوراً كثير . ومنابته الجبال . وفي نوره عسل كثير ويمص وتأكله النحل فيجود عسلها ، وله حطب أجود حطب وأثقبه ناراً يستوقد كما يستوقد الشمع . وقيل هو الرمان البري الذي تأكله النحل ، وإنما يعقد الرمان البري ورقاً ولا يكون له رمان . وقيل هو : دم الأخوين ، وهو دم الغزال ، الذي يعرف بالقاطر المكي ، وهو عصارة عروق الأرطي ، وهي حمر ، والإرطاة خضراء ، فإذا أكلتها الابل احمرت مشافرها [3] .

و (السماق) من الأشجار التي تنبت بجبال تهامة ، وأهل الحجاز يسمونه (الضمخ) ، وأهل نجد يسمونه (العرتن)[4] .

و (الشوع) ، شجر البان ، أو ثمره . قيل شجر طوال وقضبانه طوال سمجة ، ويسمى ثمره أيضاً الشوع . وهو يريع ويكثر على الجدب وقلة الأمطار ، والناس يسلفون في ثمره الأموال . وأهل الشوع ، يستعملون دهنه كما يستعمل أهل السمسم دهن السمسم . وهو جبلي ، وقيل ينبت في الجبل والسهل[5] .
و (الضبر) ، شجر جوز البر ، يكون بالسراة في جبالها ينور ولا يعقد . وذكر بعض علماء اللغة ، أن (الضبر) ، (جوز بويا) ، و (جوز بوا) ، كما يسميه البعض . وذكر بعض آخر ، أنه جوز صلب . و(الضُبّار) ، شجر يشبه شجر البلوط ، وحطبه جيد ، مثل حطب المظ . فإذا جمع حطبه رطباً ،

---

١ تاج العروس (٦/ ٢١٠) ، (غرف) .
٢ تاج العروس (١٠/ ٢١٩) ، (ضرى) .
٣ تاج العروس (٥/ ٢٦٤) ، (مظظ) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٢) .
٥ تاج العروس (٥/ ٤٠٤) ، (شوع) .

ثم أشعلت فيه النار ، فرقع فرقعة المخاريق ، ويفعل ذلك بقرب الغيـــاض التي فيها الأسد . فتهرب[1] .

و (الطباق) ، شجر ينبت متجاوراً ، لا تكاد ترى منه واحدة منفردة ، وهو نحو القامة ، وله ورق طوال دقاق خضر تتزلـــج ، إذا غمزت يضمد بها الكسر فيجبر . وله نور أصفر مجتمع ، ولا تأكله الإبل ولكـــن الغنم ، ومنابته الصخر مع العرعر ، والنحل تجرسه والأوعال أيضاً . وينبت بجبال نواحي مكة ، وقد استخدم في معالجة أمراض جلدية وداخلية[2] . و (السرّاء) ضرب من شجر القسي[3] . و (الصوم) ، شجـرة بلغة هذيل ، قيل انها على شكل الانسان ، كريهة المنظر جداً ، يقال لثمرها رؤوس الشياطـــين ، يعني بالشياطين الحيات ، وليس لها ورق . وقيل لها هدب ولا تنتشر أفنانها بنبت نبات الأثل ، ولا تطول طوله ، وأكثر منابتها بلاد (بني شبابة)[4] .

و(القتاد) شجر ضخم ينبت بنجد وتهامة . وهو شجر صلب له شوك كالأبر. وهو من العضاه . وهو ضربان ، فأما القتاد الضخام ، فإنه يخرج له خشب عظام وشوكة حجناء قصيرة ، وأما القتاد الآخر ، فإنه ينبت صعداً لا ينفرش منه شيء وهو قضبان مجتمعة ، كل قضيب منها ملآن ما بين أعـلاه وأسفله شوكاً ، وفي المثل: من دون ذلك خرط القتاد . وإبل قتادية تأكل شوك القتاد[5] .

و (الأشكل) ، السدر الجبلي ، وقيل : شجر مثل شجر العنّاب في شوكه وعقف أغصانه ، غير أنه أصغر ورقاً وأكثر أفناناً ، وهو صلب جداً ، ولـــه نبيقة حامضة شديدة الحموضة ، منابته شواهق الجبال تتخذ منه القسي[6] .

و (الصاب) و (السلع) ضربان من الشجر مرّان ، والمصاب قصب السكر[7]. و (السّرح) من الأشجار ، له ثمر يقال له (الآء) ، يشبه الزيتون على قول

---

١ تاج العروس (٣٤٧/٣) ، (ضبر) .
٢ تاج العروس (٤١٥/٦) ، (طبق) .
٣ تاج العروس (٧٧/١) ، (سرأ) .
٤ تاج العروس (٣٧٢/٨) ، (صام) .
٥ تاج العروس (٤٥٨/٢) ، (قتد) .
٦ تاج العروس (٣٩٣/٧) ، (شكل) .
٧ تاج العروس (٣٤٠/١) ، (صوب) .

أو الموز على قول آخر . يأكله الناس ويرتبون منه الرب[1] . و (الغضور) شجر أغبر ينبت في كل جبال تهامة[2] . وذكر أن (السرح) شجر كبار عظام طوال لا ترعى وإنما يستظل فيه ، وينبت بنجد في السهل والغلظ ، ولا ينبت في رمل ولا في جبل ولا يأكله المال إلا قليلاً له ثمر أصفر . وقيل السرحة ، دوحة محلال واسعة يحل تحتها الناس في الصيف ويبنون تحتها البيوت[3] .

و (الغاف) شجر عظام ينبت في الرمل ويعظم،وورقه أصغر من ورق التفاح، وهو في خلقته ، وله ثمر حلو جداً ، وهو غلف كأنه قرون الباقلى وخشبه أبيض أو هو شجر الينبوت يكون بعمان . وذكر ان الغاف من العضاه ، وهي شجرة نحو القرظ شاكة حجازية تنبت في القفاف[4] .

الأشجار العادية :

ونجد في كتب اللغة والأخبار ألفاظاً تعبر عن قدم الأشجار وضخامتها، فاستعملوا (العادي) ، و (العدمل) ، و (العدملة) ، و (العُدملي) للقديم من الشجر . وقد رأينا انهم استعملوا (العادي) بمعنى الشيء القديم ، ولا شيء قديم لا يعرف أصله[5] . ومنه (العيدانة) ، للشجرة الصلبة القديمة ، التي لها عروق نافذة إلى الماء[6] . و (العُدمل) ، كل مسن قديم . وقيل هو الضخم القديم من الشجر[7] . و (العدولي) ، الشجرة القديمة الطويلة[8] . و (الربوض) ، الشجرة العظيمة الضخمة الغليظة[9] . والدوائح ، العظام من الشجر[10] . و (الهيكل) ،

---

١ تاج العروس (١٦٢/٢) ، (سرح) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (ص ٤٠٠) .

٢ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠١) ، تاج العروس (٤٥٠/٣) ، (غضر) .

٣ تاج العروس (١٦١/٢) ، (سرح) .

٤ تاج العروس (٢١٤/٦) ، (غيف) .

٥ تاج العروس (٤٣٧/٢) ، (عود) .

٦ تاج العروس (٤٣٨/٢) ، (عود) .

٧ تاج العروس (١٢/٨) ، (العدمل) .

٨ تاج العروس (١١/٨) ، (عدل) .

٩ تاج العروس (٣٠/٥) ، (ربض) .

١٠ تاج العروس (١٣٧/٢) ، (الداح) .

النبات الطويل البالغ العبل ، أي العظيم ، وكذلك الشجر[1] . آما الشجرة الطويلة، فيقال لها (سحوق) و (سهوق) . والنخلة السحوق ، الطويلة التي بعد ثمرها على المجتني . وقيل هي الجرداء الطويلة التي لا كرب لها[2] . و (السمق) من الشجر ، هو الشجر الطويل المرتفع[3] . والقراح ، النخل الطويل الذي زال كربه وصار أملس[4] .

جماعة الشجر :

وفي دواوين اللغة ألفاظ كثيرة أطلقت على جماعة الشجر من حيث كثافتها في أرض تنبت بها ، ومن هذه الألفاظ : (الدخل) ، الشجر الملتف ، كالدغل[5] . و (الدغل) ، الشجر الكثير الملتف ، وقيل هو اشتباك النبت وكثرته ، وأعرف ذلك في الحمض ، والجمع أدغال[6] . و (الشجـــراء) ، اسم لجماعة الشجر[7] ، و (الغيضة) ، مجتمع الشجر في مغيض ماء ، والمراد بالشجر ، أي شجر كان ، أو خاص بالغرب لا كل شجـر[8] ، و (الأجمة) ، الشجر الكثيف الملتف[9] . وأما (الغيطلة) ، فهي الشجر الكثيف الملتف ، وجماعـة الشجر والعشب وكل ملتف مختلط ، وقيل جماعة الطرفاء[10] . و (الحرجة) ، اسم لمجتمع الشجر ، وقيل الشجر الملتف . وقيل الحرجة تكون من السمر والطلح والعوسج والسلم والسدر . وقيل هو ما اجتمع من السدر والزيتون وسائر الشجر[11] . و (العيص) ، الشجر الكثير الملتف ، وقيل هو الشجر الملتف النابت بعضه في أصول بعض . وقيل : ما اجتمع بمكان وتدانى والتف من السدر والعوسج والنبع والسلم من العضاه كلها.

---

١ تاج العروس (٨/١٧٠) ، (هيكل) .
٢ تاج العروس (٦/٣٧٧) ، (سحق) .
٣ تاج العروس (٦/٣٨٤) ، (سحق) .
٤ تاج العروس (٢/٢٠٥) ، (قرح) .
٥ تاج العروس (٧/٣٢٠) ، (دخل) .
٦ تاج العروس (٧/٣٢٢) ، (دغل) .
٧ تاج العروس (٣/٢٩١) ، (شجر) .
٨ تاج العروس (٥/٦٥) ، (غيض) .
٩ تاج العروس (٨/١٨٠) ، (أجم) .
١٠ تاج العروس (٨/٤٦) ، (غطل) .
١١ تاج العروس (٢/٢٠) ، (حرج) .

وهو من الطرفاء الغيطلة ، ومن القصب الأجمة . وقيل العيص ما التف من الشجر وكثر مثل السلم ، والطلح ، والسيال ، والسدر ، والعرفط ، والعضاه[1] . وأما (الرمخ) ، فالشجر المجتمع كذلك[2] .

وأما (الغيل) ، فالشجر الكثير الملتف الذي ليس بشوك يستتر به . وقيل جماعة القصب والحلفاء[3] وأما (الغريف) ، فالشجر الكثير الملتف من أي شجر كان ، أو الأجمة من البردي والحلفاء ، وقد يكون من الضال والسلم[4] . وأما (الأباءة) ، فالقصبة ، أو أجمة الحلفاء والقصب خاصة ، وماؤها شر المياه[5] . وأما (الزأرة) ، فالأجمة ذات الحلفاء والماء والقصب . و (الزأرة) قرية كبيرة بالبحرين ، وبها عين معروفة ، يقال لها عين الزأرة ، وقيل (مرزبان الزأرة) كان منها . و (المرزبان) الرئيس ، أي رئيس الأجمة[6] . و (الخيس) و (الخيسة) : فالشجر الكثير الملتف ، والمجتمع من كل الشجر ، أو ما كان حلفاء وقصباً ، وقيل الملتف من القصب والأشاء والنخل . وقيل : منبت الطرفاء وأنواع الشجر ، والخيسة ، الأجمة[7] . و (الربض) ، جماعة الطلح والسمر ، وقيل : جماعة الشجر الملتف[8] . و (الوهط) ، ما كثر من العرفط ، وقيل : وهط من عشر ، كما يقال عيص من سدر . وقيل : الوهط : المكان المطمئن من الأرض المستوى ، تنبت فيه العضاه ، والسمر ، والطلح ، والعرفط[9] . ويقال للغملى من النبات ، وهو ما التف بعضه على بعض (الشربب)[10] .

و (الأيكة) ، الشجر الملتف الكثير ، وقيل : الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما ، أو الجماعة من كل الشجر حتى من النخل ، وخص بعضهم به منبت الأثل ومجتمعه . وقال بعض علماء اللغة : الأيك الجماعة الكثيرة من الأراك تجتمع

---

١ تاج العروس (٤/٤١١) ، (العيص) .
٢ تاج العروس (٢/٢٥٩) ، (رمخ) .
٣ تاج العروس (٨/٥٣) ، (الغيل) .
٤ تاج العروس (٦/٢١٠) ، (غرف) .
٥ تاج العروس (١/٣٩) ، (أباءة) .
٦ تاج العروس (٣/٢٣٠) ، (زأر) .
٧ تاج العروس (٤/١٤٤) ، (الخيس) .
٨ تاج العروس (٥/٣٠) ، (ربض) .
٩ تاج العروس (٥/٢٤٣) ، (وهط) .
١٠ تاج العروس (١/٣١٥) ، (شرب) .

في مكان واحد . وقد ذكرت الأيكة في القرآن الكريم[1] . قيل أن شجر أصحاب الأيكة كان الدوم ، وقيل : أثـــل ورهط من عشر ، وقصيمة من غضى[2] . وأما (العيكة) ، فلغة في الأيكة[3] .

و (الغابة) ، الأجمة ذات الشجر المتكاثف ، لأنها تغيب ما فيها ، وقيل الغابة : الأجمة التي طالت ولها أطراف باسقة . يقال : ليث غابة . وقيل الغابة أجمة القصب . وفي الحديث : كان منبر الرسول من أثـــل الغابة ، وفي رواية من طرفاء الغابة . والغابة غيضة ذات شجر كثير ، وهي على تسعة أميـــال من المدينة . وقيل : موضع قريب من المدينـــة . والعرب تسمي ما لم تصبه الشمس من النبات كله : الغيبان[4] .

و (الصور) ، جماع النخل ، وقيل النخل المجتمع الصغار . قيـــل : ويقال لغير النخل من الشجر صور[5] . و (العقدة) ، المكان الكثير الشجر ، يرعونه من الرمث والعرفج ، وقيل الحائط الكثير النخل[6] .

وتنبت القصباء والحلفاء في الماء الراكد أو الهادىء ، وعلى حواشي الأنهار حيث يظهر الماء في المنخفضات . جاء في شعر للأعشى :

كبردية الغيل وسط الغريف إذا ما أتى الماء منها السديرا[7]

والقصباء جماعة القصب ، وقيل منبتها . وقد أقصب المكان ، وأرض قصبة ومقصبة ، أي ذات قصب[8] . وينبت في المواضع التي يكثر وجود الماء الراكدة أو الهادئة بها ، مثل المستنقعات والبطائح ، مثل بطائح العراق ، حيث تعدّ من أهم منابت القصب والبردي في العراق حتى اليوم .

والقصب مادة مهمة لأهل الريف ، ولمن يعيش على الماء ، مثل أهل البطائح

---

١ القرآن الكريم في سورة الحجر ، والشعراء ، و ص ، و ق .
٢ تاج العروس (٧/ ١٠٤ وما بعدها) ، (الأيك) .
٣ تاج العروس (٧/ ١٦٥) ، (عيكة) .
٤ تاج العروس (١/ ٤١٦ وما بعدها) ، (غبب) .
٥ تاج العروس (٣/ ٣٤٣) ، (صور) .
٦ تاج العروس (٢/ ٤٢٧) ، (عقد) .
٧ تاج العروس (٦/ ٢١٠) ، (غرف) .
٨ تاج العروس (١/ ٤٣٠) ، (قصب) .

والأهوار ، والمستنقعات ، والأجم التي تتخللها المياه . إذ اتخذوا منها بيوتاً صنعوها من القصب ، ولا زال سكان (الأهوار) في العراق يصنعون بيوتهم من القصب . واتخذوا منها فراشاً يجلسون عليه ، هو (البارية) ، ويقال لها (البوري) ، و (البورية) ، و (البورياء) ، و (الباري) ، و (البارياء) . الحصير المنسوج من القصب . وقد أشير إلى (البوري) في الحديث[1] .

والحلفاء نبت من الأغلاس ، قلما تنبت إلاّ قريباً من ماء أو بطن واد، وهي سلبة غليظة المسّ ، وقد يأكل منها الإبل والغنم أكلاً قليلاً ، وهي أحب شجرة الى البقر . وقد كانت الأسود تأوي اليها . ومن مآوي الأسود الآجام ومنابت الحلفاء . وقد تجف ، إذا قلّ الماء[2] .

والبرّدي من النبات الذي يحتاج مثل القصب والحلفاء الى ماء . فهو لا ينبت إلا قريباً من ماء أو في مستنقع أو هور ، أو منخفض فيه ماء . ويؤلف أجمة في وسط ماء[3] .

و (الجليل) ، نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت . وهو (الثمام) في رأي بعض علماء اللغة[4] . و (الثمام)،نبت ضعيف له خوص ، أو شبيه بالخوص، وربما حشي به وسدّ به خصاص البيوت . وهو أنواع . فمنها : الضعة ومنها الجليلة ، ومنها الغرف ، وهو شبيه بالأسل وتتخذ منه المكانس ، ويظلل به المزاد فيبرد الماء . يقال : (بيت مثموم) مغطى به . وقد يستعمل لإزالة البياض من العين[5] .

الفحم وقطع الشجر :

وقد صنع أهل الجاهلية من النباتات البرية والأشجار الجبلية الفحم ، وهم لا يزالون يصنعونه من هذه المواد . وذلك بإشعالها أولاً ثم باطفاء جمرها ،

١ تاج العروس (٣/٦٠ وما بعدها) ، (بار) .
٢ تاج العروس (٦/٧٦) ، (حلف) .
٣ تاج العروس (٢/٢٩٨) ، (برد) .
٤ تاج العروس (٧/٢٦١) ، (جلل) .
٥ تاج العروس (٨/٢١٩) ، (ثمم) .

للاستفادة من الفحم الحاصل من ذلك في أغراض شتى . ويحمله أصحابه الى أهل المدر ، لبيعه لهم ، أو لمقايضته مع الباعة بمواد أخرى يحتاجون اليها . وقد أدى الإسراف في ذلك وفي قلع الأشجار البرية النابتة بالطبيعة دون التعويض عنها بزراعة غيرها في مكانها ، الى تحوّل الأرضين الشجراء الى أرض جرداء ، والى إلحاق ضرر كبير بمصدر ثروة مهمة من الثروات الطبيعية .

وتشاهد في كثير من المناطق الجبلية والنجود بقايا أشجار قديمة وأصول أشجار ممتدة بين الصخور تدل على أن هذه المناطق الجرد كانت ذات أشجار باسقة ، ولكنها أصابها الدمار بفعل جهل الانسان واعتدائه عليها ، وعدم عنايته بها، فتلفت وبادت ، حتى استحالت تلك البقاع الشجراء قفاراً جرداً .

وكان مما ضيق من مساحة الأرضين المشجرة ، التي شجرتها الطبيعة بنفسها ، قطع الإنسان للشجر من عروقه أو من موضع اتصال الساق بالأرض ، للاستفادة من المقطوع الى أقصى حدّ ممكن ، مما أهلك النبت ، فأمات عروقه ، وقطع عنه مادة الحياة ، ولم يحفل بغرس آخر في مكانه ، ليأخذ محله ، لأن الأرض ليست أرضه ، وإنما هو يريد بيع الخشب والحطب ليستفيد من الثمن ، فقلت مساحة الأرض المشجرة بالطبيعة ، بهذا التجاوز الفظيع . ولم تعوض الطبيعة الإنسان عن الضرر الذي ألحقه بنتاجها ، فقد أعطته كثيراً ، وكان من الواجب عليه أن يعينها في الانبات ، لا أن يعمل على إفساد ما زرعته .

آفات زراعية :

ويفهم من بعض النصوص الجاهلية ان الزراعة كانت تتعرض لآفات زراعية خطيرة تقضي على المزروعات في بعض الأحيان . وطالما وجدنا أصحابها يسألون الآلهة وقاية مزروعاتهم وحمايتها وانزال البركة عليها ومنحهم غلات وافرة كثيرة . وقد يكون من بين هذه الآفات: الحشرات والجراد وانحباس المطر . ومن طرق هذه الحماية في نظرهم تسمية الزرع باسم إله ، ليكون في حمايته ورعايته . وقد يخصص نصيب منه لذلك الإله ، في مقابل حمايته له .

وفي كتب اللغة ألفاظ عديدة في معاني الآفات التي تصيب الزروع ، مثل : البثق ، وهو داء يصيب الزرع من ماء السماء[1] ، و (الغمل) ، وهو مرض

---

١ تاج العروس (٦/٢٨٣) ، (بثق) .

يغمل النبات ، فيجعله يركب بعضه بعضاً ويذبل ويعفن[1] . و (الخناس) ، داء يصيب الزرع فيتجعثن منه فلا يطول[2] . و (الشفران) ، و (اليرقان) ، آفة للزرع تصيبه فيصفر منها ، وقيل دود يكون في الزرع فيتلفه[3] ، و (الأرقان)[4] ، والرصع ، والوصم ، وهو العيب في العود ، والقادح ، أكال يقع في الشجر وفي الخشب فيأكله ، والقادح أيضاً العفن ، ويقع القادح في الأسنان ، وهو السواد الذي يظهر فيها[5] . والسوس ، داء يصيب الزرع ، لوقوع السوس فيه ، بسبب حشرة تعبث فيه ، ويقال مثل ذلك بالنسبة إلى الصوف والثياب والطعام ، إذا عبثت العثة فيها[6] . و (العُثة)[7] سوسة ، أو الأرضة التي تلحس الصوف فتؤذيه . وقيل : دويبة تعلق الإهاب فتأكله . والجدجد أيضاً دويبة تعلق الإهاب فتأكله[8] . والأرضة ضربان ، ضرب صغار ، مثل كبار الذر ، وهي آفة الخشب خاصة ، وضرب مثل كبار النمل ، ذوات أجنحة ، وهي آفة كل شيء من خشب ونبات. غير انها لا تعرض للرطب ، وهي ذوات قوائم . وقيل : هي دودة بيضاء شبه النملة تظهر في أيام الربيع . وقيل دودة بيضاء سوداء الرأس ، وليس لها أجنحة، وهي تغوص في الأرض وتبني لها كناً من الطين ، وهي تأكل الخشب وغيره[9] . والنخر ، داء يصيب الأغصان والسيقان ، والخشب ، فيسبب جفافها وتفتتها[10] . و (القادحة) ، دودة تأكل الشجر[11] .

و (القتع) ، دود حمر تأكل الخشب ، أو هي الأرضة ، وقيل الدود مطلقاً . وقيل هي السرفة ، والقتعة ، والهرنصانة ، والحطيطة ، والبطيطة ، واليسروع ، والعوانة ، والطحنة[12] .

---

١ تاج العروس (٨/٥٠) ، (غمل) .
٢ تاج العروس (٤/١٤٣) ، (خنس) .
٣ تاج العروس (٧/٩٧) ، (يرق) .
٤ تاج العروس (٦/٢٧٨) ، (ارق) .
٥ تاج العروس (٢/٢٠٣) ، (قدح) .
٦ تاج العروس (٤/١٦٨) ، (سوس) .
٧ بالضم .
٨ تاج العروس (١/٦٣٢) ، (عث) .
٩ تاج العروس (٥/٤) ، (أرض) .
١٠ المخصص (١١/٥٦) ، تاج العروس (٣/٥٥٩) ، (نخر) .
١١ المخصص (١١/١٢ وما بعدها) .
١٢ تاج العروس (٥/٤٥٨) ، (قتع) .

و (السرفة) ، دويبـــة تؤذي الزرع ، تثقب الشجر ثم تبني فيها بيتاً من عيدان دقـــاق تجمعها بمثل غزل العنكبوت ، وقيل دودة تنسج على بعض الشجر وتأكل ورقه وتهلك ما بقي منه بذلك النسج[1] . وذكر أن (الهرنصانة) السرفة[2] ، وأن (البطيطة) السرفة كذلك[3] . وأن (الحطيطة) السرفة أيضاً[4] .

ومن الأمراض والآفات التي تصيب النخيل ، الدمان ، ويقع عـــلى التمر فيفسد ، وتصيبه العفونة قبل إدراكه حتى يسود[5] . والمُراض ، داء للثمار يقــع فيها فيهلكها[6] ، و (القشام)[7] ، وهو أن ينتفض تمر النخل قبل أن يصـــير بلحاً[8] . وذكر بعض العلماء أن الدمان فساد النخل قبل إدراكه ، وإنما يقع ذلك في الطلع يخرج قلب النخلـــة أسود معفوناً . وذهب آخرون الى أنه فساد الطلع وتعفنه وسواده . وقال بعضهم : الدمان التمر المتعفن ، وأنه فساد التمر وعفنه قبل إدراكه حتى يسود من الدمن . وأما المُراض ، فذكر بعض العلماء أنه اسم لجميع الأمراض . وأما القشام ، فهو أكال يقع في التمر[9] .

ومن الآفات التي كانت تصيب الزرع فتؤذي الناس وتلقي بأصحـــاب الزرع خسائر كبيرة (الجراد) . فقد كان يكتسح الزرع في بعض السنين اكتساحاً ، فيأتي في موجات كثيفة ، ويلتهم كل ما يجده أمامه ، حتى يجرد الأرض جرداً ، ولا يترك من نبتها شيئاً . ونجد في كتابات المسنـــد اشارات اليه . ويقال له : (اربى) في العربيات الجنوبية[10] . وفي العربية : (جراد سد) ، أي كثير سد الأفق . ويقال جاءنا سد من جراد ، إذا سد الأفق من كثرته[11] .

وللجراد أسماء تمثل مراحل نموه ، ذكرها علماء اللغة. مما يدل على مدى اتصاله

---

١ تاج العروس (٦/١٣٧) ، (سرف) .
٢ تاج العروس (٤/٤٤٧) ، (الهرنصانة) .
٣ تاج العروس (٥/١٠٩) ، (بط) .
٤ تاج العروس (٥/١١٩) ، (حطط) .
٥ القاموس (٤/٢٢٣) ، تاج العروس (٩/٢٠٣) ، (دمن) .
٦ تاج العروس (٥/٨٦) ، (مرض) .
٧ بالضم كغراب .
٨ القاموس (٤/١٦٥) ، (قشم) .
٩ عمدة القارىء (١٢/٣) .
١٠ South Arabian Inscriptions, p. 427.
١١ تاج العروس (٢/٣٧٣) ، (سدد) .

بحياة الناس ، وما كان يحدثه من أذى وأثر في زرعهم . وإذا أكل الجراد نبت أرض ، قيل : أرض مجرودة ، وجرد الجراد الأرض جرداً[1]،ومن أسماء الجراد (الجندب) . وقيل انه الصدى يصر بالليل ويقفز ويطير . وقيل هو أصغر من الصدى يكون في البراري ، وقيل هو الصغير من الجراد[2] .

وكان الجراد يغزو المزارعين فيأتي على ما زرعوه ، لا يترك لهم منه شيئاً ، وهم عاجزون عن الاتيان عليه. وهو أنواع عديدة من حيث اللون والجسم . وكان إذا انتقل من مكان إلى مكان ظهر في السماء ، وكأنه سحابة من كثرته . وقد صار طعاماً لهم ، يأكلونه كما يأكل هو زرعهم . ذكر ان (ابن أبي أوفى) قال: غزونا مع النبي سبع غزوات أو ستاً كنا نأكل معه الجراد[3] .

الأسوكة :

السواك سوك الفم بالعود . والعود مسواك . ويتخذ من الأراك ، فإن لم يكن فعتم أو بطم[4] . ويستاك بالبشام كذلك ، وهو شجر ذو ساق وأفنان وورق صغار أكبر من ورق الصعتر ولا ثمر له[5] .

---

١ تاج العروس (٢/٣١٩) ، (جرد) .
٢ تاج العروس (١/١٧٦) ، (جدب) .
٣ ارشاد الساري (٨/٢٧١) ، (باب جواز أكل الجراد) .
٤ تاج العروس (٨/٣٨٨) ، (عتم) .
٥ تاج العروس (٨/٢٠٣) ، (بشم) .

الفصل الثالث والتسعون

المراعي

وفي جزيرة العرب مراعي ، منها الخاص ، ومنها العام . والمراعي الخاصة ما تكون ملكاً لرجل أو أسرة أو قبيلة تفرض سلطانها على المرعى ، مثل الاحماء ، حيث لا يسمح لأحد غير مأذون بالرعي في (الحمى) . أما المراعي العامة، فهي التي لا تدخل في ملك أحد ، وإنما يرعى فيها كل أبناء الحي ، وجميع أبناء القبيلة ، لأن أرض القبيلة ملك للقبيلة ما دامت عزيزة فيها مالكة لرقبتها ، يرعى فيها كل أبنائها ، فإذا ذلت واستخذت طمعت فيها القبائل المجاورة القوية ، فشاركتها في أرضها ، وربما أجلتها عنها . وإذا ارتحلت القبيلة عن أرضها ، وتركتها ، ونزل بها نازل جديد ، صارت الأرض ملكاً له ، ما لم يدفع عنها بالقوة ، أو يتركها هو رضاءً . فإذا ارتحل عنها ، ونزل في مكان جديد ، سقط حقه فيها ، وانتقلت رقبة الأرض الى النازل الجديد . وهكذا تكون المراعي عامة مشاعة بين جميع أبناء القبيلة ، ما خلا الحمى ، ينتفع بها جميع أبنائها ، بما في ذلك سادة القبيلة وأصحاب الاحماء ، الذين ترعى إبلهم في احمائهم ، كما ترعى مع إبل الناس في مراعي القبيلة ، ولا يجوز لأحد من القبيلة أن يأخذ من أرباب المواشي عوضاً عن مراعي القبيلة ، لأنها للجميع . وقد أخذ بهذا الحكم في الإسلام بالنسبة للمراعي الموات ، بقول الرسول : « الناس شركاء في ثلاث: الماء ، والنار ، والكلأ »[1] .

١ الاحكام السلطانية (٢٠٨) .

و (الرِعي) الكلأ ، وهو ما ترعاه الراعية . والراعـي ، هو الذي يتولى أمر الماشية التي ترعى ، ويقال للذي يجيد رعية الإبل (تِرْعاية) و (تِرْعى) ، أو هو الحسن الارتياد للكـــلأ للماشية ، أو صناعته وصناعة آبائه رعاية الإبـــل . و (الرُعاوى) الإبل التي ترعى حوالى القوم وديارهم لأنها الإبل التي يعتمل عليها [1].

ويقال للمرعى في المسند (مرعم) ، (مرعيم) ، (مرعى) [2] . والمرعى موضع الرعي . والرِعي الكلأ . والمرعى والرعـي ما ترعاه الراعية . ورُعيان ، ورُعاء ، رعاة الغنم على الأكثر . ويقال (ترعى) و (ترعاية) و (تراعية) للرجل يجيد رعية الإبل ، أو هو الحسن الارتياد للكلأ للماشية ، أو صناعته وصناعة آبائه رعاية الإبل . و (الرُعاوى) [3] ، الإبل التي ترعى حوالى القوم وديارهم ، لأنها الإبل التي يعتمل عليها [4] . ويقال للمرعى (الأب) ، وهو الكلأ جميعه الذي تعتلفه الماشية ، رطبه ويابسه [5] .

ويعبر عن الإبل إذا رعت بـ (سامت المال) ، و (سامت الإبل) ، يقال سامت الراعية والماشية والغنم تسوم سوماً ، رعت حيث شاءت ، فهي سائمـــة . والسوام والسائمة الإبل الراعية ، وقيل كل ما رعى من المال في الفلوات إذا خلى وسومه يرعى حيث شاء ، والسائم الذاهب على وجهه حيث يشاء . وذكـــر ان السوام والسائمة كل إبل ترسل ترعى ولا تعلف في الأصل . وورد في الحديث : سائمة الغنم [6] . و (السرح) المال السائم . وذكر بعض علماء اللغة ان المال لا يسمى سرحاً إلا ما يغدى به ويراح [7] .

وتؤدي لفظة (مرتع) معنى (مرعى) . ورتع بمعنى أكل وشرب للبهائم . ولا يكون الرتع إلا في خصب وسعة [8] . وتؤدي لفظة (النجعة) ، معنى طلب الكلأ في موضعه . و « والنجعة عند العرب المذهب في طلب الكلأ في موضعه ،

---

١ تاج العروس (١٠/١٥٢) ، (رعى) .
٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 57, Halevy 147.
٣ كسكارى ويضم .
٤ تاج العروس (١٠/١٥٢) ، (رعى) .
٥ تاج العروس (١/١٤٢) ، (أبّ) .
٦ تاج العروس (٨/٣٥٠) ، (سوم) .
٧ تاج العروس (٢/١٦٠) ، (سرح) .
٨ تاج العروس (٥/٣٤٧) ، (رتع) .

والبادية تحضر محاضرها عند هيج العشب ونقص الحرف وفناء ماء السماء في الغدران، فلا يزالون حاضرة يشربون الماء العدّ حتى يقع ربيع بالأرض خرفياً كان أو شتياً، فإذا وقع الربيع توزعتهم النجع وتشبعوا مساقط الغيث يرعون الكلأ والعشب ، إذا أعشبت البلاد ، ويشربون الكرع وهو ماء السماء ، فلا يزالون في النجع الى أن يهيج العشب من عام قابل وتنش الغدران فيرجعون الى محاضرهم على أعداد المياه»[1].

ويقال أرض معرضة ، للأرض التي يستعرضها المال ويعترضها ، أي هي أرض فيها نبات يرعاه المال إذا مرّ فيها[2] .

وإذا أقامت الإبل في المرعى ، قيل : (عدنت الإبل) ، وخص بعضهم به الإقامة في (الحمض) ، وقيل يكون في كل شيء[3] .

وقد تكون المراعي عند مشارف أهل الحضر ، لا تبعد عن القرى وعن مستوطناتهم كثيراً ، وذلك بالنسبة لرعي الغنم . فيؤدي أهل البيوت أغنامهم الى الراعي ، ليأخذها الى الخارج فيرعى بها وتتجمع عند الراعي أغنام لمختلف الناس، في مقابل أجر يدفع له . وقد كان الرسول راعي غنم ، يرعى غنم قريش، وغنم أهله بـ (أجياد) بالقراريط[4] .

وكان بين أصحاب الغنم ، وبين أصحاب الإبل تنازع ، وقد كان يستطيل أصحاب الإبل على أصحاب الغنم[5] .

و (المنقل) النجعة يتنقلون من المرعى إذا احتفوه إلى مرعى آخر ، وذلك إذا رعوا فلم يتركوا فيه شيئاً . والناقلة ضد القاطنين ، والجمع النواقل . والنقل الطريق المختصر[6] . والنُجعة طلب الكلأ في موضعه . والبادية تحضر محاضرها عند هيج العشب ونقص الحرف وفناء ماء السماء في الغدران ، فلا يزالون حاضرة يشربون الماء العدّ حتى يقع ربيع بالأرض خرفياً كان أو شتياً ، فإذا وقع الربيع توزعتهم النجع وتتبعوا مساقط الغيث يرعون الكلأ والعشب إذا أعشبت البلاد

---

١ تاج العروس (٥/٥١٩) ، (نجع) .
٢ تاج العروس (٥/٤٩) ، (عرض) .
٣ تاج العروس (٩/٢٧٤) ، (عدن) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٥ وما بعدها) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٦) .
٦ تاج العروس (٨/١٤٤) .

ويشربون الكرع وهو ماء السماء ، فلا يزالون في النجع إلى ان يهيج العشب من عام قابل ، وتنش الغدران ، فيرجعون إلى محاضرهم على أعداد المياه[1] .

وإذا أمطرت السماء مطراً كافياً ، كان ذلك خيراً للعرب وفرحة عظيمة . إذ تغيث الأرض وتكسوها حلة سندسية جميلة ، وتزول الغبرة عن وجهها ، وتظهر الأرض فرحة مستبشرة بعد عبوس وكآبة . فتهيج الأرض وتنبت نبتاً أخضر ، يكون بهجة للناظرين وطعاماً شهياً للإبل ولبقية حيواناتهم، تقبل عليه إقبالاً شديداً، فتشبع وتصح أجسامها ، ويكثر نسلها . ويقال للخضرة التي تكسو وجه الأرض (الكلأ) ، وهو العشب ، رطبه ويابسه . وأرض كليئة ومكلأة ، كثيرة الكلأ[2]. وذكر ان العشب الكلأ الرطب ، والرطب من البقول البرية ، ينبت في الربيع ، وهو سرعان الكلأ في الربيع يهيج ولا يبقى . ويدخل في العشب ، أحرار البقول وذكورها ، فأحرارها ما رقّ منها وكان ناعماً . وذكورها ما صلب وغلظ منها. وذكر بعضهم ان العشب كل ما أباده الشتاء وكان نباته ثانية من أرومة أو بذر[3].

وفي ذلك يقول الأعشى :

ألم تر أن الأرض أصبح بطنها   نخيلاً وزرعاً نابتاً وفصافصا

والفصافص الرطب من علف الحيوان ، ويسمى (القت) . وقيل هو رطب القت . وفي الحديث : ليس في الفصافص صدقة[4] .

و (البقل) ما نبت في بزره لا في أرومة ثابتة . وذكر أنه كل ما اخضرت به الأرض . والفرق بين البقل ودقّ الشجر ، أن البقل إذا رعي لم يبق له ساق، والشجر تبقى له سوق وإن دقت . وقال بعض علماء اللغة : البقل ما لا يثبت أصله وفرعه في الشتاء . والبُقلة ، بقل الربيع خاصة . وبقلت الأرض إذا أنبتت[5]. وذكر أن من أسماء بقل الربيع : الجشر[6] .

---

١ تاج العروس (٥/٥١٩) ، (نجع) .
٢ تاج العروس (١/١١١) ، (كلأ) .
٣ تاج العروس (١/٣٨٣) ، (عشب) .
٤ تاج العروس (٤/٤١٦) ، (فصص) .
٥ تاج العروس (٧/٢٣١) ، (بقل) .
٦ تاج العروس (٣/١٠١) ، (جشر) .

وترد لفظة (لسسن) ، (لسس) ، الواردة في نصوص المسند في معنى (لساس)[1] في عربيتنا[2] . ويراد بها أول البقل ، وقيل هو من البقل ما استمكنت منه الراعية وهو صغار . وقيل : البقل ما دام صغيراً لا تستمكن منه الراعية ، وذلك لأنها تلسه بألسنتها لساً[3] .

والحشيش الكلأ اليابس ، ولا يقال وهو رطب حشيش . والطاقة منه حشيشة . والعشب يعمّ الرطب واليابس . وقال بعض علماء اللغة : الحشيش أخضر الكلأ ويابسه . وقال بعض آخر العرب إذا اطلقوا اسم الحشيش عنوا به الخليّ خاصة، وهو أجود علف يصلح الخيل عليه . وهو من خير مراعي النعم . وقال بعض آخر : البقل أجمع رطباً ويابساً حشيش وعلف وخلي[4] . والخلي : الرطب من النبات . وقال بعض علماء اللغة : هو النبات الرقيق ما دام رطباً[5] .

وترد في المسند لفظة (جمست) (جمسة) ، بمعنى الحشائش عند جفافها والنبت إذا ما ذهبت غضاضته[6] . وهي بهذا المعنى في عربية القرآن الكريم . فالجامس من النبات ما ذهبت غضوضته ورطوبته فولى وجسا[7] .

وتنبت الأمطار ما دقّ من الشجر ، وبعض أنواع الشجر ، وقد تثمر ثمراً يستفيد منه الانسان . كما يستفيد من عوده ومن حطبه وخشبه . أما ورقه فيكون طعاماً شهياً للإبل . ونجد في كتب اللغة أسماء عدد كبير من هذه النباتات . وقد استعان الأعراب بالنبات وبالشجر في مداواة أنفسهم ، علمتهم تجاربهم الطويلة القديمة ، ما ينفع منها في معالجة ما يصابون به من مرض، فصار لهم طب خاص بهم،يقوم على الفراسة وعلى الملاحظة وعلى التجارب في استخدام النبات في مداواة الانسان وفي معالجة ماله ، ولا زال هذا الطب معمولاً به في البوادي ، عند الأعراب .

---

١ كغراب .

٢ القاموس (٢٤٩/٢) .

٣ تاج العروس (٢٤١/٤) ، (لسس) ، REP. EPIGR., Tome, V, P. 196.

٤ تاج العروس (٢٩٨/٤) ، (حشش) .

٥ تاج العروس (١٢٠/١٠) ، (خلى) .

٦ REP. EPIGR., Tome, V, P. 196.

٧ القاموس (٢٠٥/٢) ، تاج العروس (١٢٢/٤ وما بعدها) ، (جمس) .

ويعد الأراك من أطايب أكل الإبل ، إذا أصابت منه شيئاً ، ظهر طعمه في اللبن ، وهم يستحسنون هذا اللبن . وقد كان الرعاة إذا مروا به اجتنوا ثمرته ، و (الكباث) ، هو أحسن ثمره ، ولونه أسود ، وهو أطيب ثمر الأراك . وقد اجتناه الرسول يوم كان راعياً [1] . وهو النضيج من ثمر الأراك . وما لم ينضج فهو (برير) . وقيل : الكباث هو ما لم ينضج منه ، وقيل حمله إذا كان متفرقاً [2] .

وتكتسي الأرض بعد ظهور الكلأ ثوباً سندسياً جميلاً ، فتظهر خضراء، لكثرة ما عليها من (الخضر) ، وهو الزرع والنبات الذي نبت عليها . و (الخضر) ، المكان الكثير الخضرة . ويراد بالخضرة (البقلة الخضراء) ، وهي بقلة خضراء خشناء ورقها مثل ورق الدخن وكذلك ثمرتها وترتفع ذراعاً،وهي تملأ فم البعير . و (الخضر) ضرب من الجنبة ، والجنبة من الكلأ ما له أصل غامض في الأرض، مثل النصى والصليان . وليس الخضر من أحرار البقول التي تهيج في الصيف . وجيدها الذي ينبته الربيع بتوالي أمطاره فتحسن وتنعم ، ولكنه من البقول التي ترعاها المواشي بعد هيج البقول ويبسها حيث لا تجد سواها،وتسميها العرب الجنبة، فلا ترى الماشية تكثر من أكلها ولا تستمريها [3] .

والجنبة ، عامة الشجر التي تتربل في زمان الصيف . واسم لنبوت كثيرة ، وهي كلها عروق . سميت جنبة ، لأنها صغرت عن الشجر الكبار وارتفعت عن التي لا أرومة لها في الأرض . فمن الجنبة : النصي والصليان والحماط والمكر والحذر والدهماء . صغرت عن الشجر ونبلت عن البقول [4] . والنصي : نبت ما دام رطباً، فإذا ابيض ، فهو الطريفة ، فإذا ضخم ويبس ، فهو الحلي . وهو من أفضل المرعى [5] . وذكر أن (الطريفة) من النصي ، إذا ابيض ويبس ، أو هو منه اذا اعتم وتم وكذلك من الصليان . وذكر أيضاً أن الطريفة من النبات ، أول الشيء ، يستطرفه المال،فيرعاه كائناً ما كان . وسميت طريفة ، لأن المال يطرفه

١ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٦) .
٢ تاج العروس (١/٦٤٠) ، (كبث) .
٣ تاج العروس (٣/١٧٩) ، (خضر) .
٤ تاج العروس (١/١٨٩) ، (جنب) .
٥ تاج العروس (١٠/٣٧٠) ، (أنصى) .

إذا لم يجد بقلاً . وقيل لكرمها وطرافتها واستطراف المال إياه . وقيل: الطريفة خير الكلأ ، إلا ما كان من العشب . ومن الطريفة النصي والصليان والهلتى والشحم والثغام [1] .

و (الحلي) ما ابيض من يبيس النصي والسبط ، وقيل : هو كل نبت يشبه نبات الزرع، أو اسم نبت بعينه. وقيل هو من خير مراتع أهل البادية للنعم والخيل[2].

والحماط ، شجر شبيه بالتين ، خشبه وجناه وريحه ، إلا أن جناه هو أصغر وأشد حمرة من التين ، ومنابته في أجواف الجبال ، وقد يستوقد بحطبه ، ويتخذ خشبه لما ينتفع به الناس ، يبنون عليه البيوت والخيام . وقيل : هو في مثل نبات التين ، غير أنه أصغر ورقاً ، وله تين كثير صغار من كل لون أسود وأملح وأصفر ، وهو شديد الحلاوة يحرق الفم إذا كان رطباً ، فإذا جف ذهب ذلك عنه . وهو يدخر وله إذا جف متانة وعلوكة . وهو أحب شجر الى الحيات ؛ أي انها تألفه كثيراً . يقال : شيطان حماط[3] .

والصليان ، نبت من الطريفة ، ينبت صعداً وأضخمه أعجازه وأصوله على قدر نبت الحلي ، ومنابته السهول والرياض . وقيل الصليان من الجنبة لغلظه وبقائه[4] .

والمكرة نبتة غبراء مليحاء تنبت قصداً ، كأن فيها حمضاً حين تمضغ ، تنبت في السهل والرمل ، لها ورق وليس لها زهر . وقد تقع المكور على ضروب من الشجر كالرغل[5] . و (الدهماء) ، عشبة عريضة ذات ورق وقضب ، كأنها القرنوة ، ولها نورة حمراء يدبغ بها ، ومنبتها قفاف الرمل[6] .

الحمض والخلة :

ويقسم بعض العلماء المرعى كله إلى حمض وخلة . فالحمض ما فيه ملوحة ،

---

١ تاج العروس (١٧٧/٦ وما بعدها) ، (طرف) .
٢ تاج العروس (٩٨/١٠) ، (حلي) .
٣ تاج العروس (١٢١/٥) ، (حمط) .
٤ تاج العروس (٤٠٦/٧) ، (صلل) .
٥ تاج العروس (٥٤٨/٣) ، (مكر) .
٦ تاج العروس (٢٩٩/٨) ، (دهم) .

والخلة ما سواه . وكل أرض لم يكن بها حمض ، فهي خلّة ، وإن لم يكن بها من النبات شيء . وخلل الأرض التي لا حمض بها ، وربما كانت بها عضاه ، وربما لم تكن . ولو أتيت أرضاً ليس بها شيء من الشجر وهي جرز من الأرض ، قلت انها خلة[1] .

والحمض ما ملح وأمر من النبات ، كالرمث والأثل والطرفاء ونحوها . وذكر أن الحمض من النبات كل نبت مالح أو حامض يقوم على سوق ولا أصل له . ومن الحمض النجيل ، والخذراف ، والاخريط ، والقضة ، والقلام ، والهرم ، والحرض ، والدغـــل ، وما أشبهها . وذكر أن الحمض كل نبات لا يهيج في الربيع ويبقى على القيظ وفيه ملوحة ، إذا أكلته الإبل شربت عليه ، واذا لم تجده رقت وضعفت . وهي كفاكهة الإبل ، والخلة ما حلا ، وهي كمخبزها ، تقول العرب : الخلة خبز الإبل ، والحمض فاكهتها ويقال لحمها[2] .

والرِمْث ، مرعى للإبل ، وهو من الحمض ، وشجر يشبه الغضى ، لا يطول ولكنه ينبسط ورقه ، وهو شبيه بالأشنان ، وله هدب طوال دقاق ، وهـو مع ذلك كله كلأ تعيش فيه الابل والغنم وإن لم يكن معها غيره ، وربما خرج فيه عسل أبيض كأنه الجمان ، وهو شديد الحلاوة وله حطب وخشب ووقوده حـــار وينتفع بدخانه من الزكام . ويرتفع دون القامة فيحتطب[3] .

والطرفاء جماعة الطرفة ، شجر . قيل انها أربعة أصناف من الأثـــل ، وقيل الطرفاء شجر من العضاه ، هدبه مثل هدب الأثـــل ، وليس له خشب . وإنما يخرج عصيّاً سمحة في السماء ، وقد تتحمض به الإبل إذا لم تجد حمضاً غيره . وقيل انه من الحمض[4] .

والأثل : شجر ، عدّه بعضهم نوع من الطرفاء ، وقال بعض آخر : الأثلة سمرة أو عضاهة طويلة قويمة يعمل منها الأقداح[5] . والنجيـــل ، ضرب من دق الحمض ، وقيل هو خير الحمض كله وألينه على السائمة . وذكر انه إذا أخرج

---

١ تاج العروس (٣٠٧/٧) ، (خلل) .
٢ تاج العروس (٢٢/٥) ، (حمض) .
٣ تاج العروس (٦٢٥/١) ، (رمث) .
٤ تاج العروس (١٧٧/٦) ، (طرف) .
٥ تاج العروس (٢٠٢/٧) ، (أثل) .

عن الحمض أربع شجرات ، فسائره نجيل . هي الرِمث والغضى والسلج . ومن النجيل : الخذراف ، والرغل ، والغولان ، والهرم ، والفذا ،والقلام والطمحاء[1] . والخِذراف ، نبات ربعي إذا أحس بالصيف يبس ، أو هو ضرب من الحمض له وريقة صغيرة يرتفع قدر الذراع[2] . والرُغل ، نبت ، أو حمضة تنفرش وعيدانها صلاب وورقها نحو من ورق الجماجم إلا انها بيضاء ومنابتها السهول ، والإبل تحمض به[3] .

والغولان ، حمض كالأشنان ، وقيل شبيه بالعنظوان ، إلا انه أدق منه . وهو مرعى[4] . و (الهَرم) ، نبت ضعيف ترعاه الإبل ، وقيل ضرب من الحمض فيه ملوحة . وقيل هو يبيس الشبرق ، وهو أذله وأشده انبساطاً على الأرض واستبطاحاً . وقيل شجر ، وان الهرمة البقلة الحمقاء[5] . و (الغذام) ، نبت من الحمض[6] . و (القلام) من الحمض: هو كالأشنان إلا انه أعظم[7] . و (القِضاض)[8] شجر من الحمض ، وقيل هو دقيق ضعيف أصفر اللون[9] .

والأراك من الحمض ، وقوم مؤركون نازلون بالأراك يرعونها ، ويقال أطيب الألبان ألبان الأوارك . وفي الحديث أتى بلبن الأوارك وهو بعرفة ، فشرب منه[10] .

و (الحرض) ، من النجيل . وذكر أنه الأشنان ، تغسل به الأيدي على أثر الطعام . وشجرته ضخمة ، وربما استظل بها ، ولها حطب ، وهو الذي يغسل به الناس الثياب . وأنقى وأبيض حرض هو حرض ينبت باليمامة ، بواد منها يقال له جوّ الحضارم[11] . و (الحيهل) ، شجرة قصيرة من دق الحمض

---

١ تاج العروس (١٢٨/٨) ، (نجل) .
٢ تاج العروس (٨٠/٦) ، (خذرف) .
٣ تاج العروس (٣٤٨/٧) ، (رغل) .
٤ تاج العروس (٥٢/٨) ، (غال) .
٥ تاج العروس (١٠٢/٩) ، (هرم) .
٦ تاج العروس (٣/٩) ، (غذم) .
٧ تاج العروس (٣١/٩) ، (قلم) .
٨ وورد بالصاد .
٩ تاج العروس (٧٩/٥) .
١٠ تاج العروس (١٠٠/٧) ، (أرك) .
١١ تاج العروس (١٨/٥ وما بعدها) ، (حرض) .

لا ورق لها ، وقيل إنه (الهرم) ، وهو إذا أصابه المطر نبت سريعاً ، وإذا أكلته الإبل ، فلم تبعر ولم تسلح مسرعة ماتت ، وبذلك فسروا تسمية (الهرم) هرماً[1] .

وقد يضطر أصحاب الماشية الى اطعامها ما ينبت في الأرض السبخة ، أي ذات الملح . يقال (ملح الماشية) ، بمعنى أطعمها سبخة الملح[2] . و (السبخة) ، أرض ذات نز وملح ، وهي لا تكاد تنبت إلا بعض الشجر والنبات[3] . وتوجد السباخ في مواضع من جزيرة العرب ، في الأماكن الوطئة ، حيث تنز الأرض ، ويعلوها الملح ، وتكون رخوة .

ولفظة (رعى) من الألفاظ التي كثر ورودها في الكتابات الصفوية ، وهي كتابات أصحابها رعاة ، كانوا يتنقلون مع ماشيتهم من مكان الى آخر في طلب المرعى،فكانوا يكتبون خواطرهم على الحجارة والصخور ، تخليداً لنزولهم هاتيك المواضع . وهم من عشائر مختلفة امتهنت الرعي ، فكانت تتنقل من مكان الى مكان . تتوغل في الربيع في البوادي ، فإذا انتهى الموسم ويبس الكلأ ، عادت الى مواضع قريبة من الحضر ، حيث يتوفر فيها الماء ، فترعى ماشيتها بكلأ هذه الأرضين ، وتبيع الى أهل المدر ، ما يكون عندها من وبر وأصواف ومنتوج ألبان .

وتثبت النصوص الصفوية أن أصحابها كانوا جماعة من الرعاة ، يتنقلون من مكان الى مكان ، بدليل الإشارة الى المرعى (هرعى) (هـ مرعى) ، (ها مرعى) ، أي (المرعى) والى الماء والى البقر والإبل والشياه (شهى) (شاهي) ، والأودية (هنخل) (هـ ــ نخل) (ها نخل) وغير ذلك من الألفاظ التي ترد على ألسنة الرعاة . فكان هؤلاء الصفويون يتنقلون مع الكلأ والماء لرعي ماشيتهم[4] .

---

١ تاج العروس (٧/٢٩٨) ، (الحيهل) .
٢ تاج العروس (٢/٢٢٩) ، (ملح) .
٣ تاج العروس (٢/٢٦١) ، (سبخ) .
٤ ديسو ، العرب في سورية قبل الاسلام (ص ٩٤ وما بعدها) .

أصناف الرعاة :

والرعاة على صنفين : رعاة الإبل ، وهم الممعنون في البوادي ، والذين يبيتون مع الإبل في المرعى لا يأوون إلى بيوتهم ، ولا يرعون غيرها ، وهم : (الجشر) أو هم الذين يرعون الإبل ، ويقيمون معها في المرعى ، ولا يرعون معها غيرها من بقية الحيوانات[1] . وهم جلّ الأعراب ، بل كلهم ، لأن حياة الأعرابي هي حياة رعي إبل ، يرعاها عند بيته أو على مبعدة منه . بات مع الإبل بعيداً عن بيته أو أهله اياماً أو موسم الربيع ، أو أقام عند خيمته مع إبله ، فهو راعي إبل في الحالتين .

وراعي الإبل ، هو الأعرابي الأصيل ، ابن البادية جوّاب بيداء ، لا يأكل البقل والخضر ، هو كما قال الراجز :

جوّاب بيداء بها غروف   لا يأكل البقل ولا يريف
ولا يرى في بيته القليف[2]

ويقال للأعرابي الذي ينشأ في البدو والفلوات لم يزايلها : المقحم[3] .

ويكون هؤلاء الرعاة الأعراب من أبعد الرعاة عن (المصانع) ، أي القرى والحضر ، ومن أهلها ، لا يذهبون اليها ولا يتصلون بها[4] . فهم يعيشون في عالم خاص بهم بعيد عن القيود والتكاليف ، والتنويع في المأكل والمشرب .

ورعاة يرعون إبلاً ويرعون غيرها معها من بقر وخيل وغنم . وهم لعدم استطاعة البقر والغنم من التوغل في البادية والتعمق في طياتها ، لا يستطيعون الابتعاد عن الماء كثيراً ، لعدم استطاعة تلك الحيوانات الصبر على العطش كثيراً . ولهذا فهم على اتصال بالحضر وبالحضارة ، وهم مرحلة وسطى بين الحضارة وبين

---

١ تاج العروس (٣/ ١٠٠ وما بعدها) ، (جشر) ، قال الاخطل :
تسأله الصبر من غسان اذ حضروا   والحزن كيف قراه الغلمة الجشر
« وانما قالوا له ذلك ، لانه كان يقول لهم : أنتم جشر ، أي رعاة ابل » ، تاج العروس (٩/ ١٧٤) ، (حزن) .
٢ تاج العروس (٦/ ١٢٣) ، (تريف) ، (٦/ ٢٢٧) ، (قلف) .
٣ تاج العروس (٩/ ١٧) ، (قحم) .
٤ تاج العروس (٥/ ٤٢٢) ، (صنع) .

الأعرابية ، وهم الجرثومة التي نبتت منها المجتمعات العربية الحضرية في العراق وفي بلاد الشأم وفي جزيرة العرب ، وهم من أهل الخيام السود المنسوجة من شعر الماعز ، أو من صوف الأغنام. وقد أشير اليهم في التوراة ، وقد كانوا يسكنون شرق العبرانيين وفي أرض فلسطين .

وكانوا ينتجعون أيام الكلأ فتجتمع منهم قبائل شتى في مكان واحد ، فتقع بينهم ألفة ، فإذا افترقوا ورجعوا الى أوطانهم ساءهم ذلك ، وقد عرف هؤلاء بـ (الخلطاء) . كما كانوا يتشاركون في الرعي ، وذلك أن يستأجروا راعياً أو رعاة ، ويقدم كل واحد من الشركاء ما يريد تقديمه من الإبل أو الشياه ، ويحتمل كل واحد من المتشاركين أجر الرعي ، حسب عدد إبله أو شياهه [1] .

ولا يشترط في الراعي ، أن يكون أجيراً لغيره يرعى إبل وماشية غيره ، فقد يكون راعياً ، وهو مالك لإبله ولبقية الماشية التي يرعاها ، وهو إنما سُمّي راعياً لأنه اتخذ الرعي وسيلة للحياة يعيش عليها ، ويجوز أن يكون قد ورثها عن آبائه وأجداده ، ويجوز أن يكون قد اختارها هو حرفة له ، كما يجوز أن يكون راعياً لمال غيره من أهل قبيلته أو من الأبعدين ، وقد يكون هؤلاء من أهل الحواضر المستقرين ، يسلمون ما لهم للرعاة ، لترعى في البوادي ، وليكثر نسلها وتصح أجسامها ، فإذا أرادوا بيعها طلبوا من الرعاة اعادتها اليهم .

ويقوم الأبناء في العادة برعي إبل الأب والعائلة ، ونجد في القصص إشارات اليهم ، لطمع الرجال في الإبل ، وازدراءهم شأن الراعي لصغر سنه ، فيستاقون إبله ، مما يتسبب عن ذلك تعقب السراق ، ووقوع حوادث بينهم وبين أرباب الإبل .

ولا يربي الرعاة الدجاج والبط والحمام والأوز والطيور المختلفة والخنازير ، انما يربيها أهل الريف . والريف ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها، وأرض فيها زرع وخصب ، أو حيث تكون الخضر والمياه والزروع [2] . وتربية الدجاج حرفة ينظر العربي اليها نظرة ازدراء واستهجان ؛ فلا يليق برجل حر يحترم نفسه ، ان يخدم طيراً أو حيواناً صغيراً كالدجاجة ، ولذلك كانت من حرف

---

١ تاج العروس (١٣٢/٥) ، (خلط) .

٢ تاج العروس (١٢٣/٦) ، (تريف) .

(النبط) والعرب المتنبطة ، أي أهل الريف ممن خالط النبط ، أي بني إرم ، ومن تأثر بهم . وقد ربى أهل القرى الدجاج والطيور ، لأكلهم ، إذ كانوا يأكلون لحم الدجاج . ذكر ان الرسول والصحابة أكلت لحومها [1] ، ونجد الشعراء يشيرون إلى صياح الديكة عند دنوهم من الأرياف ، لتربيتهم الدجاج واعتنائهم بها ، واعتبارهم لحومها من ألذّ اللحوم .

وترعى الماشية في القرى وفي المزارع بما يظهر من أخضر على وجه الأرض بعد الحصاد ، ويقال لذلك : المحشرة [2] .

الرعاة والحضارة :

وقد حدث في الجاهلية ما يحدث اليوم : يتنقل الأعراب بمواشيهم وبيوتهم وكل ما يملكون من باطن جزيرة العرب في الجفاف ، فيتجهون نحو الشمال ، نحو بلاد الشأم والعراق للرعي والاكتيال . ينزلون هناك جماعات حيث يجدون الماء والكلأ ، في مواضع مختلفة قد تكون بعيدة عن القرى والمدن ممعنة في البادية ، وقد تكون في أطراف القرى وبين الحضر ، وقد يدخلون بين الحضر للاكتيال والامتيار وللري في مواضع العشب والكلأ المحيطة بهم . وهم على هذه الحالة ما دامت بهم حاجة إلى كل أولئك ، فإذا انتهت أو شح ما قصدوه انتقلوا إلى مواضع أخرى ، وهكذا كانت سنّة البدوي في الحياة .

وقد كانوا يفدون دوماً من باطن الجزيرة ، فيتوغلون في بادية الشأم ومنهم من كان يمعن في التوغل في تلك البادية حتّى يصل أقصاها ،أي أعاليها في الشمال ، فيدخل الأرضين الجنوبية من (تركية) في الوقت الحاضر ، وأعالي العراق وبلاد الشأم . ومنهم من كان يجد له طيب العيش والمقام ، في هذه المهابط والمواطن الجديدة ، فيقيم بها ، وقد يتحضر قوم منهم ، ومن هؤلاء تولد حضر العرب في هذه الديار .

ولمّا كان في مجيء الأعراب على هذه الصورة محاذير وأخطار على الحضر وعلى الحكومات ، اضطرت الحكومات المسيطرة على العراق وبلاد الشأم الى اتخاذ وسائل

---

١ تاج العروس (٣٨/٢) ، (دج) .
٢ تاج العروس (١٤٢/٣) ، (حشر) .

الحماية المختلفة لحماية أرضهـا منهم ، فبنت المسالح ووضعت الحرس في المواضع المشرفة على البوادي الممسكة بعنان طرقها ، لمراقبة القادم والخارج ولابلاغ رجال الأمن بدنوّ الخطر ، وحذرت من الأعراب ، فأشرفت على حركاتهم وسكناتهم خشية انتهازها فرص الضعف ، فتعبث على عادتها بالأمن . وقد أنشأ الرومـان واليونان بركاً واتخذوا صهاريج لخزن مياه الأمطار ليستفيد منها الأعراب وليجدوا فيها ما يحتاجون اليه ، فلا يتوغلوا عميقاً في بلاد الشأم ، كما أقامـوا حصوناً في أطراف البادية لمراقبة حركات الأعراب .

وهكذا أمـن حكّام الشأم من خطر الأعراب ، بعد أن اتبعوا معهم سياسة الترضية والتهدئة للاستفادة منهم في حفظ الحدود . وأقـام قسم من الأعراب في المواضع التي تتوافر فيها المياه ، وزرعوا ، واشتغلوا ببعض الحرف مثـل غزل الأصواف ونسجها ، والتوسط في التجارة بين الأعراب وسكان المدن والقرى البعيدة عن البادية من بلاد الشأم ، وزرع الحبوب وأشجار الزيتون والكروم . واستفادوا من هذا الحاصل الزراعي ببيعه للأعراب المحتاجين اليه .

ولا حاجة بي إلى الاشارة إلى أثر المراعي في حياة جزيرة العرب ، وفي حياة الأعراب بصورة خاصة . فعلى المراعي تتوقف حياة الماشية عماد الثروة والمال لأهل البادية ، وهي من أهم المشكلات العويصة بالنسبة اليهم وإلى الحكومات حتى الآن . والأعرابي ومعه ماشيته وراء المراعي يفتش عنها في كل مكان ، وينتقل اليها ليجد فيها الكلأ لماشيته . وسبب هذه المشكلة هو قلة وجود الماء في جزيرة العـرب ، وقلة الأمطار وانحصارها في مواسم ضيقـة لا تمتـد طويلاً ، وانحباسها في بعض السنين ، مما يسبب قصر زمن الرعي ، وجفاف الكلأ والتأثير في حياة الماشية بحيث تتعرض للهلاك والموت . وهذا مما يحمل القبائل على التنقل من مكان إلى مكان ، فتتزاحم وتتطاحن للاستيلاء على المراعي .

الفصل الرابع والتسعون

الثروة الحيوانية

والحيوان ثروة مهمة وخاصة لتلك البلاد الفقيرة التي لا تملك صناعة ، والتي تكون مواردها الطبيعية محدودة . فتعوض عن الصناعة بتربية الحيوان وبالزراعة إن توفر الماء . والإبل مصدر ثروة عظيمة في الجاهليــة ، لاستفادتهم منها في أمور كثيرة عديدة . وبعدد الإبل تقاس الثروات . والإبل المال عند العرب ، وأساس التعامل بينهم . قال بعض العلماء : « المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان . وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل ، لأنها كانت أكثر أموالهم »[1] . وفي الحديث نهي عن اضاعة المال. قيل أراد به الحيوان ، أي يحسن اليه ولا يهمل[2] .

ويطلق العرب على الإبل والبقر والشاء (النعم) ، وزاد بعض علماء اللغة المعز والضأن . وذكر بعض آخر ، ان النعم ، إنما خصت بالإبل ، لكونها عنـدهم أعظم نعمة . وقيل إن العرب إذا أفردت النعم ، لم يريدوا بها إلا الإبل ، فإذا قالوا الأنعام : أرادوا بها الإبل والبقر والغنم[3] .

ويراد بـ (الماشية) ، الإبل والغنم ، وقيل الإبل والبقر والغنم ، وقال بعض العلماء ، وأكثر ما يستعمل في الغنم ، وقيل : كل مال يكون سائمة للنسل والقنية

---

١ تاج العروس (٨/١٢١) ، (مول) .
٢ تاج العروس (٨/١٢١) ، (مول) .
٣ تاج العروس (٩/٧٩ وما بعدها) ، (نعم) .

من إبل وشاء وبقر ، فهي ماشية . وأصل المشاء النماء والكثرة . ومشت الماشية مشاءً كثرت أولادها [1] .

و (الشاة) ، الواحدة من الغنم ، تكون للذكر والأنثى ، أو يكون من الضأن ، والمعز ، والظباء ، والبقر ، والنعام ، وحمر الوحش . وفي الحديث : فأمر لها بشياه غنم ، انما أضافها إلى الغنم ، لأن العرب تسمي البقرة الوحشية شاة ، فميزها بالاضافة لذلك ، وشاء ، وشياه ، وشواه ، وأشاوه ، وشويّ ، وشيه ، في حالة الجمع [2] .

و (السوام) و (السائمة) ، الإبل الراعية ، وقيل كل ما رعى من المال في الفلوات ، إذا خلي وسومه يرعى حيث شاء . والسائم الذاهب إلى وجهه حيث شاء ، يقال سامت السائمة ، وأسامها هو ، أي أرعاها أو أخرجها إلى الرعي . وذكر ان السوام والسائمة كل إبل ترسل ترعى ولا تعلف في الأصل . وسوّم الخيل ، أرسلها إلى المرعى ، ترعى حيث شاءت [3] .

والجمل هو الحيوان الوحيد الذي رضي بمرافقة الأعراب وبمشاطرتهم حياتهم في البوادي . ألفهم وعاشرهم وشاركهم في مسرّاتهم وفي أحزانهم ، صابراً راضياً، يحملهم ويحمل أثقالهم ، لا يسألهم على ذلك أجراً ، وهو مع ذلك طعامهم إذا جاعوا ، أو شعروا انه قد مرض مرضاً لا يرجى شفاؤه،أو انه قد كبر وأسنّ ، فصار لا يصلح للعمل ، ومن وبره صنعوا خيامهم . وهو قنوع يقنع بالقليل ولا يطالب بالكثير . ويصبر على العطش والجوع ، لا يباريه في هذا الصبر أي حيوان من الحيوانات التي ألفت الانسان وقاسمته حياته . إذا اخضرت الأرض ، وجد طعامه هبة ، لا يكلف مالكه شيئاً عن اقتضامه له ، وإذا يبست الأرض ، قنع بالتهام اليابس ، وبتناول العوسج ونباتات البر ، التي يكون عمرها أطول من عمر الكلأ ، وإذا بَعُدَ الماء صبر على العطش حتى يجده،لا يلح على صاحبه بوجوب تقديم الماء له ، كما تفعل الخيل والحمير والبغال .

وتعدّ لحوم الإبل من اللحوم اللذيذة الطيبة عند العرب . وتنحر عند قدوم شخصية كبيرة تقديراً لها ، وتنحر تقرباً الى الأصنام وفي المناسبات الدينية ، وتعقر

---

١ تاج العروس (٣٤٣/١٠) ، (مشى) .
٢ تاج العروس (٣٩٥/٩ وما بعدها) ، (شوه) .
٣ تاج العروس (٣٥٠/٨) ، سوم) .

القبور إكراماً لصاحب القبر ، ويبيع الجزّارون لحومها وسائر اللحوم الأخرى . ونظراً الى أهمية الإبل بالنسبة الى حياة الأعراب ، ولغلاء ثمنها ، ولعدم تمكنهم من شراء عدد كثير منها ، إلا بالنسبة للموسر منهم ، اقتصدوا في ذبحها ، إلا لعلة قاتلة ومرض مهلك ، لأنها أصول أموالهم ، فهم يريدون إكثارها ، وفي اكثارها اكثار لأموالهم ، ولا سيما في إكثار الإبل النجيبة التي لا توازى عندهم بثمن ، والتي تعدّ مقياس الثراء والجاه والغنى عند العرب .

وإذا مات فصيل الناقة أو ذبح ، سلخ برأسه وقوائمه ثم حشي جلده تبناً لترأمه أمه وتشم رائحته ، فتدر عليه ولا ينقطع لبنها ، فتحلب . ويقال للجلد المحشو بالتبن (البو)[1] .

و (الأشراط) الإبل أو الغنم تعزل للبيع . و (الشريطة) ، الجماعة المعزولة منها ، المعدّة للبيع[2] .

والجمل ، هو الحيوان الوحيد الذي لم يجد الأعرابي في تربيته بأساً ولا غضاضة ، ولا حطة لقدر ومنزلة . فاجتناه وتباهى به وافتخر ، وجعله مقياس ثرائه وماله ، وأعز شيء عنده في حياته ، وما الذي يملكه الأعرابي في دنياه غير هذا الجمل ! أما البقر والغنم والحمير والبغال ، فهي دون الجمل في المكانة والمنزلة عنده ، فترفّع لذلك عن تربيتها ، واعتبر تربيتها وخدمتها وبيعها عملاً من أعمال (النبط) والخدم والعبيد والأعاجم . وكيف يقبل أن ينظف تلك الحيوانات وأن يجمع روثها ، ويتحمل سقوط أبوالها عليه ، وأن يشم رائحة أرواثها وبولها ، وهي حوله أو في بيته ، والروث قذارة . وكيف يرضى أن يحشها وأن يقدم لها العلف والقت ، ثم تروّث له . جاء في المثل : أحشك وتروثني[3] ؟ .

والجمل قليل الكلفة ، لا يكلف أكله صاحبه كثيراً ، يعيش على ما تنبته الأرض ، وعلى ما يجده على وجهها من يابس النبات ، ومن عوسج ونبات ذي شوك ، ومن نباتات أخرى تتبطر عليها بقية الماشية . وهو لا يطلب من صاحبه علفاً غالياً ، أو متنوعاً ، كما تفعل بقية الماشية ، مثل البقر والخيل والغنم

---

١ الفاخر (٢٤٩) .
٢ تاج العروس (١٦٧/٥) ، (شرط) .
٣ تاج العروس (٦٢٦/١) ، (راث) .

والحمير ، مع انها ليست في صبر الجمل ولا في قدرته على تحمّل المشقات وحمل الأثقال إلى مسافات طويلة في البوادي ، وفي الرمال التي تفزع منها بقية الماشية ، وتهلك إن اجبرت على السير بها .

والإبل من حيث الأصالة والعرق أجناس وأصناف ، فيها الإبل الأصيلة التي يفتخر أصحابها بها ، ويظنون على غيرهم بها ، ولا يعطون منها لأحد ، وفيها الإبل الرخيصة ، من الصنف الواطيء المعدود للبيع ، لخساسة جنسه ، ولعدم نجابته . وكان الملوك وسادات القبائل يجنون الأصيل من الإبل ، فكان (النعمان ابن المنذر) ، وهو من أصحاب الهوايات في حيازة النادر من الأشياء ، يمتلك الإبل الجيدة ، ومنها إبل عرفت بـ (عصافير النعمان) . وقد أمر للنابغة بمائة ناقة من عصافيره بريشها وحسام وآنية من فضة ، أعطاها بريشها ليعلم أنها من عطايا الملوك . وكانت للملك (المنذر) ملك الحيرة إبل نجائب منهن إبل عرفت بـ (عصافير المنذر »[1] .

ومن الابل الجيدة الشهيرة ، النجائب القطريات . نسبت الى قطر وما والاها من البر[2] . و (المهرية) ، وقد نالت حظاً واسعاً من الشهرة حتى زعم أنها من إبل الجن[3] . وقد اشتهرت (جرش) ، باليمن بإبلها . فقيل (ناقة جرشية) وبعير جرشي[4] . والأرحبيات من نجائب الابل الكريمة ، منسوبة الى بني أرحب من همدان[5] ، والصدفية ، والجرمية ، والداعرية[6] .

وكانوا لا يبيعون الإبل النجيبة ، إلا عن اضطرار . ويسمونها (الحرائز) . ذكر علماء اللغة ان الحرائز من الإبل التي لا تباع نفاسة . ومنه المثل : لا حريز من بيع ، أي ان أعطيتني ثمناً أرضاه لم أمتنع من بيعه . والحرزة خيار المال ، لأن صاحبها يحرزها ويصونها ، ومنه الحديث في الزكاة : لا تأخذوا من حرزات أموال الناس شيئاً ، أي من خيارها[7] .

---

١ تاج العروس (٤٠٨/٣) ، (عصفر) .
٢ تاج العروس (٥٠٠/٣) ، (قطر) .
٣ تاج العروس (٥٥١/٣) ، (مهر) .
٤ تاج العروس (٣٨٧/٤) ، (جرش) .
٥ تاج العروس (٢٦٨/١) ، (رحب) .
٦ الصفة (٢٠١) .
٧ تاج العروس (٢٤/٤) ، (حرز) .

وللعرب مصطلحات يقولونها في الإبل إذا كثر عددها . منها (الهجمة) القطعة الضخمة منها ، قيل : أولها أربعون إلى ما زادت ، و (الهنيدة) ، المائة فقط ، وقيل : هي ما بين الثلاثين والمائة ، أو ما بين السبعين والمائة ، أو ما بين السبعين إلى دوينها ، أو هي ما بين التسعين إلى المائة . وقال بعض علماء اللغة : إذا بلغت الإبل ستين ، فهي (عجرمة) ، ثم هي (هجمة) حتى تبلغ المائة [١] . وتطلق لفظة (الكور) على الجماعة الكثيرة من الإبل[٢] .

والعارض الناقة المريضة أو الكسير ، وهي التي أصابها كسر أو آفة ، وكانوا ينحرون العوارض،ومن عادتهم انهم لا ينحرون الإبل إلا من داء يصيبها ،وتقول العرب للرجل إذا قدم اليهم لحماً أعبيط أم عارضة . فالعبيط الذي ينحر من غير علة . والعرب تعير من يأكل العوارض ، ومن ينحر الإبل المريضة للضيوف[٣] .

ويقال للإبل والبقر (العوامل)[٤] ، ويظهر أن ذلك بسبب تشغيل أهل القرى لها في كثير من الأعمال في مثل الحمل وسحب الماء من الآبار والحراثة وأمثال ذلك من أعمال . وأطلقت اللفظة على بقر الحراثة والدياسة . وفي حديث الزكاة : ليس في العوامل شيء... العوامل من البقر،هي التي يستقى عليها ويحرث وتستعمل في الأشغال[٥] .

وذكر (الهمداني) أن بالعربية الجنوبية من البقر الجندية والحديرية والجبلانية ، وهي قوية[٦] . وقد استخدم أهل العربية الجنوبية البقر في الحراثة ، وكذلك غيرهم في معظم أنحاء جزيرة العرب .

والخيل جماعة الأفراس[٧] . و (الفرس) للذكر والأنثى ، ولا يقال للأنثى فرسة[٨] . و (الحصان) الفرس الذكر ، أو هو الكريم المضنون بمائه ، حتى

١ تاج العروس (٩/٩٩) ، (هجم) ، (٢/٥٤٧) ، (هند) .
٢ تاج العروس (٣/٥٣٠) ، (كور) .
٣ تاج العروس (٥/٤٢) ، (عرض) .
٤ تاج العروس (٨/٣٤) ، (عمل) .
٥ تاج العروس (٨/٣٥) ، (عمل) .
٦ الصفحة (٢٠١) .
٧ تاج العروس (٨/٣١٥) ، (خيل) .
٨ تاج العروس (٤/٢٠٦) ، (فرس) .

سمّوا كل ذكر من الخيل حصاناً[1] . و (الحجر) ، الأنثى من الخيل[2] . و (الطحون) الكتيبة من الخيل[3] .

لم تكن الخيل كثيرة في الحجاز عند ظهور الاسلام . ففي معركة (بدر) لم يكن مع المسلمين سوى فرسين ، فرس للمقداد بن عمرو ، وفرس لمرثد بن أبي مرثد[4] ، ولم يكن مع قريش سوى مائة فرس[5] . فقد كانت غالية الثمن ، وتكاليفها عالية ، فعسر على من لا مال له شراؤها والانفاق عليها . وقد ورد في بعض الروايات أن (المقداد بن عمرو) ، كان فارس يوم بدر ، حتى انه لم يثبت انه كان فيها على فرس غيره . وكان اسم فرسه (سبحة)[6] .

والأخدرية من الخيل منسوبة الى (أخدر) فحل أفلت فتوحش ، ذكر أهل الأخبار انه كان لسليمان ، أو لأزدشير (أردشير) . وهناك حمر عرفت بالأخدرية كذلك ، ذكروا انها منسوبة اليه أيضاً . والخدري ، الحمار الأسود ، والأخدري وحشيه ، ويقال للأخدرية من الحمر بنات الأخدر[7] .

والأغنام عند الحضر وأشباههم ، يربونها للاستفادة من لحومها وألبانها وأصوافها ، ولحاجتها إلى الماء والكلأ والعلف بصورة دائمة ، صارت من ماشية أهل الحضر والمراعي . وهي مصدر ثروة لأصحابها ، تصدَّر إلى أسواق العراق وبلاد الشأم لبيعها هناك . ومن أنواعها المشهورة : الكباش العوسية . والعوس ، ضرب من الكباش البيض[8] ، ويكون صوفها أبيض ، وهو مرغوب مطلوب .

و (المعز) خلاف الضأن من الغنم ، والمعز ذوات الشعور ، والضأن ذوات الصوف ، و (الماعز) واحد المعز[9] . ويستفاد من لحوم المعز ومن ألبانها وشعرها . وكان أعراب بادية الشأم الساكنين على مقربة من فلسطين ، يتخذون بيوتهم من

---

١ تاج العروس (٩/١٨٠) ، (حصن) .
٢ تاج العروس (٣/١٢٥) ، (حجر) .
٣ تاج (٩/٣٦٨) ، (طحن) .
٤ الطبري (٢/٤٧٨) .
٥ الطبري (٢/٤٧٧) .
٦ الاصابة (٣/٤٣٤) ، (رقم ٨١٨٥) .
٧ تاج العروس (٣/١٧١) ، (خدر) .
٨ تاج العروس (٤/١٩٩) ، (العوس) .
٩ تاج العروس (٤/٨٢) ، (معز) .

شعر الماعز ، كما تتخذ البسط والسجاجيد منها . و (العنز) الأنثى من المعز . ويكثر وجود المعز البـري في جبال السراة وفي المناطق الصخرية ، حيث يعيش على الأشجار والأعشاب البرية . ويربـي الرعاة المعز ، حيث يأخذون قطعانها الى المواضع المعشبة القريبة من الماء لترعى هناك ، وتربـى بصورة خاصة في الأرضين الجبلية والمتوجة ، حيث يتسلق المعز المرتفعات ، فيأكل ما يجده أمامه من شجر وحشائش .

الطيور :

وقد عني أهل المدر وأهل الريف ، بتربية الطيور . وعـلى رأسها الدجاج . وقد عدّ أكله من طعام المترفين المتمكنين ، لارتفاع ثمنه بالنسبـة الى الفقراء ، وكانوا يتفننون في طبخه . وقد أكله النبي والصحابة [1] .

والأوز عند العرب البطّ ، صغاره وكباره [2] . ويعدونه من طير الماء،ويذكر علماء اللغة أن (بطة) و (بط) من الالفاظ المعربة [3] . واللفظة إرمية أصلهـا في لغة بني إرم (بطو) [4] .

ويربـي الزرّاع الحيوانات للاستفادة منها في الخدمات الزراعية وفي معاشهم ، كالجمال للنقل والحراثة ومتّـح المـاء من الآبار العميقة ، والبقـر للانتفاع بألبانها ولحومها وللحراثة ومتح الماء ، والضأن والمعـز والدجاج وغير ذلك من الحيوانات الأخرى الأليفة ، مثل البط والأوز ، وغيرها ، مما يربيه الحضر وأهل الريف .

تربية النحل :

والنحل ذباب العسل ، يقع على الذكر والأنثى [5] . و (اليعسوب) أمير النحل

---

١ تاج العروس (٢/٣٨) ، (دجّ) .

٢ تاج العروس (٤/٥) ، (الاوز) .

٣ تاج العروس (٥/١٠٨) ، (بطّ) .

٤ غرائب اللغة (١٧٤) .

٥ تاج العروس (٨/١٢٩) ، (نحل) .

وذكرها والرئيس الكبير[1] . والعسل من الأغذية الثمينة عند أهل الجاهلية ، وقد استعملوه في المعالجة من أمراض عديدة ، نص عليها في كتب الحديث والطب . وقد أطلق العرب لفظة (العسل) على ما يشبه العسل في الحلاوة أو في الشكل ، فقالوا : عسل العرفط ، وهو صمغ العرفط لحلاوته ، وعسل اللبنى ، صمغ ينضح من شجرة ، يشبه العسل لا حلاوة له ، ويتبخر به ، وعسل الرمث، شيء أبيض يخرج منه كالجمان[2] . ويعسل النحل في (الخلى) ، وقد يتخذ النحل خليته بنفسه ، في الجبال وفي البساتين ، فتكون خلايا طبيعية ، وقد يعمل الانسان بيـده خلية النحل ، كما يفعل من يربي النحل ، فيتخذ لها ما يشبه الراقود من طين، ويقال لها (كوارة) ، أو خشبة تنقر ليعسل فيها ، وأشياء أخرى[3] . وهي خلايا أهلية . و (الكور) موضع الزنابير ، و (كوارة النحل) ، شيء يتخذ للنحل من القضبان والطين ، ضيق الرأس تعسل فيه ، وقد يراد باللفظة العسل في الشمع[4] . و (الشمع) الموم كذلك[5] . و (الجزع) خلية النحل[6] .

وتعزل للنحل مواضع منتبذة عن البيوت يقولون لها : (المصانع) ، واحدتها مصنعة[7] .

والنحل من الجوارس في اصطلاح أهل الأخبار ، ويعنون بذلك أنـه يلحس الشجر والنور للتعسيل . فهو من الجوارس[8] .

وقد عدّ (سترابون) العسل من جملة المحصولات التي اشتهرت بها العربية السعيدة ، وذكر أنه كثير جداً فيها[9] . وهو كثير في اليمن ، ولا تزال اليمن على شهرتها به[10] .

وقد كانت الجبال والهضاب المنعزلة ، من مواطن النحل الوحشي ، وهناك

---

١ تاج العروس (١/٣٨١) ، (عسب) .
٢ تاج العروس (٨/١٧) ، (عسل) .
٣ تاج العروس (١٠/١١٨) ، (خلا) .
٤ تاج العروس (٣/٥٣١) ، (كور) .
٥ تاج العروس (٩/٧٠) ، (الموم) .
٦ تاج العروس (٥/٣٠١) ، (جزع) .
٧ تاج العروس (٥/٤٢٣) ، (صنع) .
٨ تاج العروس (٤/١١٨) ، (جرس) ، (٣/٧٨) ، (ثمر) .
٩ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٤٧) .
١٠ أحمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها (٢٣) .

(معيدون)[1] ، حذقوا الرقي والنزول من الجبال ، يذهبون الى الجبال للبحث بين صخورها عن خلايا للنحل لاستخلاص العسل منها . وقد اشتهرت جبال (بني سُليم) ، بكثرة ما بها من عسل ، وبقيت على شهرتها هذه في الإسلام[2] .

وقد عني الحضارمة بتربية النحل ودرّ العسل عليهم ربحاً طيباً . ونجد في كتاب رسول الله لربيعة بن ذي مرحب الحضرمي واخوته وأعمامه « أن لهم أموالهم ونخلهم ورقيقهم وآبارهم وشجرهم ومياههم وسواقيهم ونبتهم وشراجعهم بحضرموت »[3] وفي ذكر النحل بعد الأموال ، اشارة الى أهميته وكونه من مصادر الرزق عندهم في ذلك الوقت .

الأسماك :

وقد أشير في القرآن الكريم الى صيد البحر ، فورد فيه : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيّارة ، وحرم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرماً، واتقوا الله الذي اليه تحشرون »[4] . وصيد البحر ، ما يصطاد من البحار من حيوانات تعيش فيه . وقد كان العرب يعتاشون من البحر ، ولا سيما سكان السواحل حيث يسدّ هذا الصيد جزءاً مهماً من معيشتهم ، فيستعملون ما يحتاجون اليه ، ويبيعون الفائض منه ، أو يتقاضون به . وقد كان سكان السواحل يخرجون بالوسائل المتيسرة لهم لصيد السمك ، ومنهم من يصطاد عند السواحل فيجمع ما يقع تحت يديه ليستفيد منه .

ويقال لصياد السمك (العركي) كذلك . ولهذا قيل للملاحين (عرك) لأنهم يصيدون السمك . وفي الحديث ان النبي كتب إلى قوم من اليهود على ساحل خليج العقبة عليكم ربع ما أخرجت نخلكم ، وربع ما صادت عروككم ، وربع المغزل. والعروك جمع عرك ، وهم الذين يصيدون السمك[5] .

---

١ المخصص (٨/١٨٠) .
٢ ابن المجاور (١/١٤) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٤ المائدة ، الآية ٩٩ .
٥ تاج العروس (٧/١٦١) ، (عرك) ، القاموس (٣/٢١٣) ، المخصص (١٠/٢٨) .

وقد عاش على صيد البحر خلق كثير من سكنة السواحل ، في ذلك الزمن ، حيث كانت سبل العيش عندهم قليلة ضيقة . وقد استفادوا من الحيتان والأسماك الأخرى الكبيرة بصورة خاصة للحمها الغزير ، ولاستعمال عظامها وهي كبيرة في حاجات متعددة ، حتى جلودها استفادوا منها . والحيتان معروفة في البحر الأحمر وفي البحر العربي والخليج . وهي لضخامتهـا يحتاج في صيدها الى آلات والى أيدي متعددة . وقد أشير اليها والى ضخامتها في القرآن الكريم .

والحوت ، في رأي بعض علماء اللغة السمك كله . ولكن الغالب أنه ما عظم منه ، والسمك في العرف أصغر من الحوت .

ويجفف السمك في الشمس ، ويملح أحياناً ، ويجفف في الهـواء ليؤكل وقت الحاجة اليه . وقد يستعمل علفاً للحيوانات . وقد يطحن السمك المجفف ويؤكل طحينه ، ويجعل علفاً للحيوانات . وقد يحفظ السمك في ماء مملح أو في خل ، ويقال للسمك المملح ما دام طرياً (القريب)[1] . وأما السمك المقور في ماء وملح ، فهو (النشوط)[2] ، والمقر السمكة المالحة أو المنقعة في الخل[3] . و (الحساس) ، سمك يجفف ويسمى (قاشعاً) كذلك[4] .

ومن حيوان البحر (التامور)[5] ، و (الاطوم) سلحفاة بحرية غليظة الجلد ، يشبه بها جلد البعير الأملس وتتخذ منها الخفاف للجمالين ، وتتخذ منهـا النعال . وقيل : انها سمكة عظيمة ، يقال لها المصلة والزالخة ، تحذى من جلدها النعال[6] . و (النكيع) دابة من دواب البحر[7] ، و (الزجر) ، سمك عظام[8] ، و (اللخم) سمك بحري ، ضخم لا يمر بشيء إلا قطعه ، وهو يأكل النـاس . وقيـل هو الكوسج ، وقيل القرش[9] . و (الجمل) ، كاللخم من السمك الضخم ، ويقال

---

١ القاموس (١/١١٥) ، (قرب) ، تاج العروس (١/٤٢٥) ، (قرب) .
٢ القاموس (٢/٣٨٨) ، (نشط) ، تاج العروس (٥/٢٣٢) ، (نشط) .
٣ القاموس (٢/١٣٦) ، (مقر) ، تاج العروس (٣/٥٤٨) ، (مقر) .
٤ المخصص (١٠/٢٠) ، القاموس (٢/٢٠٧) .
٥ المخصص (١٠/٢٠ وما بعدها) .
٦ القاموس (٤/٧٥) ، تاج العروس (٨/١٨٧) ، (أطم) .
٧ المخصص (١٠/٢٠ وما بعدها) .
٨ القاموس (٢/٣٨) ، تاج العروس (٣/٢٣٤) ، (زجر) .
٩ تاج العروس (٩/٥٨) ، (لخم) .

له (البال) ، قيل إن طول السمكة منه ثلاثون ذراعاً ، ويقال هي (الكبع)[1] . و (الكبع) ، جمل البحر ، وقيل سمك بحري وحشي الهيئة ، ومنه يقال للمرأة الدميمة : يا وجه الكبع[2] . و (الكنعد) و (الكنعت) ضرب من سمك البحر[3] . و (سابوط) دابة من دواب البحر[4] . و (قضاعة) اسم كلب الماء ، وقيل كلبة الماء[5] . و (قبع) دويبة بحرية[6] ، و (الدوع) ضرب من الحيتان بلهجة أهل اليمن ، وسمكة حمراء صغيرة كأصبع[7] . و (العنز) ، ويقال لها (عنز الماء) أيضاً ، سمكة كبيرة ، لا يكاد يحملها بغل[8] .

و (الجريث) سمك يقال له (الجريّ) . ويظهر أن اليهود كانوا لا يأكلونه، ولما جاء الإسلام ، سألوا عن أكله ، فاختلف الناس فيه ، فمنهم من أباحه ومنهم من نهى عنه . وذكروا اسم نوع آخر من السمك اسمه (الصلور) ، قالوا إنه (الجريث) ، وأما (الانقليس) ، فإنه (مار ماهي) بالفارسية ، أي حية الماء[9] . وقد ذكر أحد الشعراء أن الأزد كانوا يأكلون : (الشيم) ، والجريث ، والكنعد[10] ، و (الشيم) نوع من السمك أيضاً[11] . فقال :

قل لطغام الأزد لا تبطروا   بالشيم والجريث والكنعد[12]

وقد كان أهل البحرين يحملون (الكنعد) المالح في الجلال البحرانية . يستخرجونه من البحر . وذكر الشاعر (جرير) هذا السمك أيضاً ، وذكر أنهم كانوا يشوونه ويأكلونه مع البصل[13] .

---

١ تاج العروس (٧/٢٦٣) ، (جمل) .
٢ تاج العروس (٥/٤٩٠) ، (كبع) .
٣ القاموس (١/١٥٦ ، ٢٣٤) ، تاج العروس (٢/٤٨٧) ، (كنعد) .
٤ القاموس (٢/٢٦٣) ، تاج العروس (٥/١٤٩) ، (سبط) .
٥ القاموس (٣/٦٩) ، تاج العروس (٥/٤٧٠) ، (قضع) .
٦ القاموس (٣/٦٥) ، تاج العروس (٥/٤٥٧) ، (قبع) .
٧ تاج العروس (٥/٣٣٣) ، (داع) .
٨ تاج العروس (٤/٦١) ، (عنز) .
٩ تاج العروس (١/٦٠٩) ، (جريث) .
١٠ قل لطغام الازد لا تبطروا   بالشيم والجريث والكنعد
تاج العروس (٢/٤٨٧) ، (كنعد) .
١١ تاج العروس (٨/٣٦٣) ، (شيم) .
١٢ تاج العروس (٢/٤٨٧) ، (كنعد) .
١٣ تاج العروس (٢/٤٨٧) ، (كنعد) ، (٩/١٣٥) ، (البحون) .

و (القرش) سمك ضخم كبير ، يقال له Shark في الانكليزية ، يستفاد من لحومه ، كما يستفاد من شحومه في الأغراض الطبية ، وقد يستفاد من جلوده الغليظة في صنع الأحذية . وزعم أهل الأخبار ، أن (القرش) ، دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها [1] .

وأشير في الحديث الى دابة من دواب البحر ، يقال لها (العنبر) ، عثر عليها رجال سرية كان الرسول قد أرسلها الى ناحية السيف ، فجاعوا فأكلوها . ويذكر علماء اللغة أنها سمكة بحرية يبلغ طولها خمسين ذراعاً يقال لها بالفارسية (باله) تتخذ من جلدها الترسة ،فعرف الترس المتخذ منها بالعنبر . قال العباس بن مرداس :

لنا عارض كرهاء الصريم فيه الأشلة والعنبر

وذكر أن الناس كانوا يحتذون أحذية من جلد العنبر فيكون أقوى وأبقى ما يتخذ منه وأصلب [2] .

وقد اتخذوا من جلد الأسماك الكبيرة الخشنة مادة تحك بها السياط والقدحان والسهام والصحاف ، ويقال لهذا الجلد : (السفن) . وقيل : السفن جلد الاطوم تسوى قوائم السيوف من جلدها ، أو جلد أخشن غليظ كجلود التماسيح أو الضب يجعل على قوائم السيوف ، أو يسحج بها القدح حتى تذهب عنه آثار المبراة [3] .

وقد ذكر اللؤلؤ والمرجان في القرآن الكريم ، ويستخرج اللؤلؤ من أجواف الصدف . وقد اشتهر به أهل العربية الشرقية بصورة خاصة ، يستخرجه الغواصون من البحر . ولا تزال هذه المنطقة تستخرجه وتربح منه . ويوجد اللؤلؤ في البحر الأحمر ، ولا سيما قرب جدة والى الجنوب [4] ، لكنه لم يشتهر لؤلؤه شهرة لؤلؤ الخليج ، ولم يشتهر غواصو البحر الأحمر بالغوص [5] . ولعل اللؤلؤ الذي ذكر في القرآن الكريم هو من اللؤلؤ المستورد من الخليج . واللؤلؤ الدر في تفسير علماء اللغة [6] .

---

١ تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) ، القاموس (٢/٢٨٣) ، (قرش) .
٢ تاج العروس (٣/٤٢٦) ، (العنبر) .
٣ تاج العروس (٩/٢٣٦) ، (سفن) .
٤ ابن المجاور (١/١٠٥) .
٥ تويتشل ، المملكة العربية السعودية ، (ترجمة شكيب الاموي) ، (ص ٣٧) ، (القاهرة ١٩٥٥ م) .
٦ تاج العروس (١/١١٣) ، (لألا) .

وتعدّ جزيرة (فرسان) من مغاصات الدر ، أي اللؤلؤ[1] .

و (المرجان) مادة كلسية ، يفرزها نوع من الحيوانات البحرية نظير هيكل لوقاية جسمه من الأمواج . وقد تتوسع فتكون صخوراً مرجانية تكون خطراً على السفن . وله ألوان مختلفة ، من أبيض وآخر أحمر ، وبعضه متفرع على هيئة مروحة أو أشكال النبات . وتصنع منه حلي ، ولذلك عُدّ في جملة المواد الثمينة مثل اللآلىء التي تدخل في التجارة . وهو في البحر الأحمر ، ولا سيما في ساحل جزيرة العرب، كثير . ويظهر ان أهل الأخبار وعلماء اللغة ، لم يكونوا على علم واضح بالمرجان ، فذهب بعض منهم الى انه صغار اللؤلؤ ، وقال بعض آخر الى انه (البسذ) ، وهو جوهر أحمر ، وذهب بعض آخر الى انه عظام اللؤلؤ ، وذهب آخرون الى انه خرز أحمر ، الى غير ذلك من آراء[2] . و (البسذ) ، لفظة فارسية[3] . وقد ذكر علماء التفسير ان (كعب الأحبار) قال : المرجان (البسذ)[4] .

والصدف ، وهو المحار ، غشاء اللؤلؤ . ويظهر أن أهل الجاهلية كانوا يرون أن السماء إذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها، فما وقع فيها من مطر فهو لؤلؤ[5]. وقد استفادوا من الصدف ، إذ اتخذوا منه حلياً وزينة . وأكلوا ما في جوفها . وهناك ألفاظ تؤدي معنى الصدف، مثل الجُمّ ، وهو صدف من أصداف البحر[6]. و (القبقب)[7] و (القنقن) ضرب من صدف البحر ، يعلق على الصبيان من العين[8] . و (الدوك) ضرب من صدف البحر[9]، والدلاع ضرب من محار البحر[10] .

وقد استفادوا من السلاحف ، ولا سيما البحرية منها . استفادوا من هيكلها ومن لحمها ، وعالجوا بعض الأمراض بدمها[11] . وذكر أن (الغيلم) السلحفاة ،

---

١ تاج العروس (٤/٢٠٦) ، (فرس) .
٢ تاج العروس (٢/٩٩) ، (مرج) .
٣ تاج العروس (٢/٥٥٤) ، (البسذ) .
٤ تفسير الطبري (٢٧/٧٦) .
٥ تفسير الطبري (٢٧/٧٧) ، تاج العروس (٦/١٦١) ، (صدف) .
٦ القاموس (٤/٩١) ، تاج العروس (٨/٢٣١) ، (جمّ) .
٧ القاموس (١/١١٣) .
٨ المخصص (١٠/٢٠) ، القاموس (٤/٢٦١) .
٩ المخصص (١٠/٢٠) .
١٠ القاموس (٣/٢٢) .
١١ تاج العروس (٦/١٤٥) ، (سلحفية) .

وقيل الذكر منها [1] . واتخذوا من عصب السلحفاة ومن عظامها خرزاً يظنم منهـا القلائد والأسورة [2] .

وفي جزيرة العرب حيوانات وحشية ، منهـــا ما كانت مؤذية وهي السباع . ومنها ما كانت تفيد الانسان ، إذ كان يصطادها ويأكلها : مثل الغزلان والظباء الوحشية ، والبقر الوحشي ، و (الناشط) هو الثور البري [3] ، والحمر الوحشية ، والوعل . وقد تمكن الإنسان من تأليف بعض هذه الحيوانات مثل الغزال والظبي ، فرباها بمقياس صغير في البيوت وفي البساتين .

وتوجد القردة في مواضع من جبال السراة وفي العربية الجنوبية ، وقـد كانت تؤذي النبات والشجر [4] .

وعرفت (النمور) في مواضع من جزيرة العـرب ، فقد ذكر العلماء ان في جبل (أقراح) نمور وأراوي [5] . وان في جبـــل (شواحط) كثير من النمور والأراوي [6] . والأروى أنثى الوعول وهي تيوس الجبل [7] . وعرفت مواضع الأسود بـ (مأسدة) ، ومنها (بيش) (بيشة) باليمامة [8] .

ويظهر ان أهل الجاهلية لم يستذوقوا لحم الخنزير ، ولعل منهم من كان يحرم كله أو يتجنبه . وقد ذكر ان الأحناف كانوا يحرمون أكله على أنفسهم ، وان من سنن ابراهيم ، تجنب أكل لحمُ الخنزير ، غير ان النصارى العرب ، ومنهم (تغلب) كانوا يأكلونه ، وقد عيرهم غيرهم بأكله . ولا نجد في الشعر الجاهلي ولا في القصص اشارات الى أكل أهل الجاهلية لحم الخنزير ، ولا الى تربيتهم له. ويظهر انهم كانوا يكرهونه ، وإلا لما سكتت روايات أهل الأخبار عن ذكره ، ولقام الرعاة بتربيته وبالعناية به ، عنايتهم بالحيوانات الأخرى .

واستعان الجاهليون بالكلاب في الصيد ، وهناك فصائل خاصة منها استخدمت

---

١ تاج العروس (٩/٥) ، (غلم) .
٢ تاج العروس (١/٣٨٣) ، (عصب) .
٣ تاج (٥/٢٣١) ، (نشط) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤١٧) .
٥ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٣) .
٦ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٤) .
٧ تاج العروس (١٠/١٥٩) ، (روى) .
٨ تاج العروس (٤/٢٨٥) ، (بيش) .

في الصيد . كما استخدموها في حراسة الماشية ، وفي الحرث[1] .

وقد كانت الذئاب والسباع تؤذي الرعاة . تغتنم الفرص ، فتهجم على ماشيتهم وتفترس ما تستطيع افتراسه منها . ولهذا كانوا إذا نزلوا أرضاً مسبعة ، أي ذات سباع ، خافوا منها ، وأوقدوا بهـا ناراً في الليل ، لطرد السبـاع عنهم ، إذ كانت تخشى النار . واذا كثرت السباع في الطريق ، قيـل : أسبعت الطريق . والمسبوعة البقرة التي أكل السبع ولدها[2] . ويقال للأرض التي تكثر فيها الذئاب: أرض مذأبة ، كقولك أرض مأسدة من الأسد ، للأرض التي تكثر فيها الأسود . وإذا جاع الذئب ، صار شرساً جريئاً لا يهاب الإنسان ، فيهجم عـلى الغنم ، مع وجود الرعاة معها ، وقد يهاجم البشر . وقد تختفي الذئاب بالغضى ، فيقال ذئاب الغضى[3] .

وفي موضع يقال له (بستان ابن عامر) مأسدة[4] . وهو مجتمع النخلتـين : النخلة اليمانية والشامية[5]. و(عثر) مأسدة أيضاً باليمن ، وقيل جبل بتبالة مأسدة[6] . ومن مواضع الأسد : أسد خفّان ، وأسد الشرى من بلاد لخم ، وأسد حاملة، وأسد الملاحيظ ، وأسد المقيضا ، وأسد الكطاء ، وأسد تعشر ، وأسد ليـة ، وأسد حلية ، وأسد السحول،وأسد عتود وغيرها . وهناك مواضع أخرى اشتهرت بوجود الوحش بها[7] .

العلف :

و (العلف) هو ما تأكله الماشية ، وقوت الحيوان وقضيم الدابة . وبائعـه العلاّف[8] . ومنه (القـتّ) ، الفصفصة ، وقيل الرطب واليابس مـن العلف ،

---

١ ارشاد الساري (٤/١٧٢ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٣٧٥) ، (سبع) .
٣ تاج العروس (١/٢٤٨) ، (ذأب) .
٤ تاج العروس (٢/٣٧٤) ، (سدد) .
٥ تاج العروس (٩/١٤٠) ، (البستان) .
٦ تاج العروس (٣/٣٨٢) ، (عثر) .
٧ الصفة (١٢٧) .
٨ تاج العروس (٦/٢٠٤) ، (علف) .

وخص بعضهم به اليابس منه [1] . و (الفصفصة) رطب القت . وفي الحديث : ليس في الفصافص صدقة . وهي الرطبة من علف الدواب ، أي القت . واللفظة من المعربات ، عربت من أصل فارسي ، هـو (اسبست) و (اسفست) [2] .

والتبن من علف الماشية ، وكذلك (الحشيش) ، وهو الكلأ اليابس . ذكر بعض علماء اللغة ان الحشيش لا يطلق على الكلأ الرطب ، وقال بعض آخـر : الحشيش : أخضر الكـلأ ويابسه . وذكـر بعض : ان العرب اذا أطلقوا اسم الحشيش ، عنوا به الخليّ خاصة ، وهو أجود علف يصلح الخيـل عليه ، وهو من خير مراعي النعم ، وهو عروة في الجدب وعقدة في الأزمات . وقال بعض علماء اللغة : البقل أجمع رطباً ويابساً . حشيش وعلف وخلي [3] . و (الخلي) ، الرطب من النبات . وقيل : هو الحشيش الذي يحتش من بقول الربيع ، وقيل: هو النبات الرقيق ما دام رطباً . وقيل : كل بقلة قلعتها . وأخلت الأرض كثر خلاها [4] .

وقد تعلف بعض الماشية شعيراً ، مثل الخيول الأصيلة والبقرة الحلوب . وقد تعلف نخالة . وقد تمزج النخالة بالملح ، لتقوية عظام الحيوان . وقد تعلف سمكاً مجففاً ، أو طحين السمك المجفف ، أو عظامه ، وذلك كما فعل أهـل العربية الجنوبية ، لكـثرة وجود السمك عندهم ، فتصح أجسام ماشيتهم وتدر عليهم الحليب . ويعتنى بعلف الخيل الكريمة خاصة ، حتى كان الرجل منهم يبيت طاوياً ويشبع فرسه ، ويؤثره على نفسه وأهلـه وولده [5] . وكانوا يعلفون خيولهم ذرة . قال (أبي بن خلف) لرسول الله : « إن عندي فرساً أعلفه فرقاً من ذرة » [6] .

وقـد يكون العلف (سحالة) ، والسحالة قشر البر والشعير ونحوه ، وقد تحات من الدخن والذرة [7] ، وتقدم السحالة الى الدجاج والطيور خاصة .

ومن علف الإبل (الخبط الملجون) ، وهو ورق الشجر يخبط ثم يخلط بدقيق

---

١ تاج العروس (١/٥٧١) ، (قتّ) .
٢ تاج العروس (٤/٤١٦) ، (فصص) .
٣ تاج العروس (٤/٢٩٨) ، (حشش) .
٤ تاج العروس (١٠/١٢٠) ، (خلى) .
٥ بلوغ الارب (٢/٧٧) .
٦ كتاب نسب قريش (٣٨٧) .
٧ تاج العروس (٧/٣٧٢) ، (سحل) .

أو شعير فيعلف الإبل ، وكل ورق أو نحوه ، فهو ملجون أو لجين[1] . والخليط من العلف طين مختلط بتبن ، أو تبن مختلط بقت[2] .

نجابة العرق :

وللعرب عناية خاصة بالأصل والعرق : عرق الإنسان وعرق الحيوان . فهم يضنون بذي العرق الكريم من أن يتصل بما دونه في الإصالة والنجابة، لئلا يتردى نسله ، وينحط عقبه . وكذلك كانوا يفعلون بالخيل والإبل . فهم يحافظون على أنساب الكريم الأصيل النجيب من الجنسين ، ويدوّنون شجرة النسب ، ويحفظونها حفظهم لأنساب الناس . وكانوا يضنون بضراب الجمل وبعسب الحصان الأصيل ، إلا إذا كانت الناقة أو الفرس من الأصائل النجيبات . وقد كان بعضهم من يوافق على ضراب فحل نجيب لديه ، إذا أعطى ثمناً يوافق عليه عن ذلك الضراب ، لحاجته الى المال .

وكان من شدة عنايتهم بالخيل والإبل ، أنهم حفظوا أنسابها ، ودوّنوا أسماء النابه منها ، ووضعوا الكتب فيها ، وقد طبعت بعض منها ، وهي لمشاهير الأخباريين مثل ابن الكلبي . ولا زال العرب يعتنون بنسب فحول الخيل والإبل، ويدوّنون شجرة أنسابها ويحفظونها حفظ أنساب الناس .

ضراب الفحل :

وكان منهم من يأخذ الكراء على ضراب الفحل . فيجعل على الضراب أجراً يتفق عليه . فينزو الفحل على الناقة في مقابل ذلك الأجر . وكانوا يزيدون في ثمن ضراب الجمل اذا كان أصيلاً معروفاً . وقد نهى الاسلام عن ثمن الضراب، وجعله من السحت[3] . كما نهى عن عسب الفحل ، أي ثمنه . و (العسب) ،

---

١ تاج العروس (٣٣٠/٩) ، (لجن) .

٢ تاج العروس (١٣٢/٥) ، (خلط) .

٣ تاج العروس (٣٤٦/١) ، (ضرب) ، زاد المعاد (٢٥٧/٤) .

ضراب الفحل وطرقه ، أو ماء الفحل فرساً كان أو بعيراً . واعطاء الكراء على الضراب ، واسم للكراء الذي يؤخذ على ضرب الفحل[1] . ويقال للضراب (الشبر) كذلك . وهو طرق الجمل وضرابه ، وأخذ الكراء على ضراب الفحل[2] . والعادة عندهم انهم يستأجرون الفحل للضراب ؛ للناتج . وللفقهاء في جواز ذلك وعدمه أقوال .

الأمراض والأوبئة :

ويصاب الحيوان كما يصاب الإنسان بالأمراض والأوبئة . وقد تفتك به فتكاً فتؤذي صاحبه ، وتنزل به خسارة كبيرة ، ولا سيما إذا كان ذلك الحيوان من الإبل . وقد يتأذى الحيوان من حيوان آخر فيهلكه ، فقد تصيب بعض الطيور الإبل فتؤذيها . وكل طائر يتطير منه للإبل، فهو عرقوب ، لأنه يعرقبها . وعرقبه قطع عرقوبه . وطير العراقيب الشقراق ، وتقول العرب : إذا وقع الأخيل على البعير ليكشفن عرقوباه[3] . مما يدل على أنه كان يؤذي الإبل . و (القراد) تعفن الإبل وتؤذيها ، كما تؤذي غير الإبل من الحيوان أيضاً[4] .

وقد تصاب الإبل بـ (الهيام) ، وهو داء يأخذ بها ، فيصيبها مثل الحمى، ولذلك عرف بـ (حمى الإبل) . وقيل انه جنون يصيب الإبل فيهلكها . يصيبها في الموضع المهيم الموبىء ، الذي تكون فيه نقوع ساكرة لا تجري . ولذلك قال أهل الأخبار إن الهيام يحدث من ماء تشربه الإبل مستنقعاً ، وعن شرب النجل اذا كثر طحلبه واكتنفت الذبان به . وبتهامة مياه من هذا النوع[5] .

و (النقبة) قرحة تخرج بالجنب ، وجرب يصيب الإبل[6] . (والنقر) ، مرض

---

١ تاج العروس (١/٣٨٠) ، (عسب) .
٢ تاج العروس (٣/٢٨٨) ، (شبر) .
٣ تاج العروس (١/٣٧٨) ، (عرقب) .
٤ تاج العروس (٢/٤٦٤) ، (قرد) .
٥ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤١٠ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) .
٦ تاج العروس (١/٤٩٠) ، (نقب) .

يصيب الشاة[1] :

وقد كانوا يتوسلون الى الأصنام لتشفي ماشيتهم من أمراض قد تصاب بها . روي عن (ساعدة الهذلي) أنه « قال : كنّا عند صنمنا سواع ، وقد جلبنا اليه غنماً لنا مائتي شاة قد أصابها جرب فأدنيتها منه أطلب بركته »[2] . فالأصنام تشفي من الأمراض وتبارك في الماشية وفي الانسان على رأي الجاهليين .

---

١ تاج العروس (٣/٥٨١) ، (نقد) .

٢ الاصابة (٢/٤) ، (رقم ٣٠٣٨) .

الفصل الخامس والتسعون

الارض

والأرض هي مصدر الثراء والغنى للانسان ، وعلى مقدار ما يملكه الانسان من أرض ، تكون ثروته ويكون غناه ، وعلى قدر ما يبذله صاحب الأرض من جهد في استغلالها وفي تطويرها وفي استنباط ما في باطنها من خيرات يتوقف دخله منها وغلته التي تأتيه من أرضه هذه .

ولا تعرف ملكية الأرض والماء ، إلا بين الحضر . أما الأعراب ، فإن هذه الملكية تكون عندها للقبيلة ولساداتها ، حيث يحمون بعض الأرضين ، أو يستنبطون الماء من أرض موات لا ماء فيها ، فتتحول الأرض بذلك الى أرض نافعة ذات ماء ، يبسط حافرها حمايته عليها ويجعلها ملكاً له ، وقد يزرع عليهـا ، فتصير الأرض التي يزرعها ملكاً له . وبهذه الطريقة تكونت الملكية بين القبائل.ولا يستطيع أن ينال من هذه الملكية بالطبع إلا المتمكن من أبناء القبيلة ومن ساداتهـا ، ممن يتمكن بما لديه من مال وامكانيات من استنباط الماء ومن احياء الأرض واستغلالها بما عنده من موالٍ وعبيد .

ويكتسب هذا التملك صفة شرعية ، إذ يعتبر ملكـاً صرفاً لصاحبه ، ليس لأحد حق منازعته عليه . ولمالكه أن يتصرف به كيف يشاء . له أن يبيعه ، وله أن يهبه ، وان مات انتقلت ملكيته الى ورثته .

فالأرض في معظم جزيرة العرب ، حق عام مشاع لا تعود ملكيته لأحد .

الى ان صار الرعي ، وأخذت القبائل تنتقل من مكان الى مكان ، ففرض سادتها حق الحمى ، وهو نوع من التملك المتولد مَن حق الاستيلاء بسبب الزعامة والقوة والاغتصاب ، فصار الحمى ملكاً لسادات القبائل ، وصارت الأرض المتبقية التي دخلت في حوزة القبيلة بسبب بسطها سلطانها عليها ، ملكاً لها . ملكاً مشاعاً بين جميع أبناء القبيلة ، ليس لأحد صد أحد من أبناء قبيلته عن ارتياد أرضها ، إلا بقانون القوة والعزة والتجبر ، أو بفرض سلطانه على الأرض باستنباط مائها ، وهو حق لا يعمل به إلا القوي المتمكن .

ومن هذا الإحياء للأرض الموات تكونت بعض المستوطنات في البوادي، جلب ظهور الماء فيها الناس اليها ، فسكنوا حولها ، وجاءوا من أطرافها للاستقاء من مائها ، وشجع العثور عليه في هذا الموضع المتمكنين الآخرين على الحفر أيضاً ، فكان اذا ظهر ماء عذب ، جذب الناس اليـه ، وسحرهم بسحره ، وأناخهم حوله ، فتوسعت بذلك تلك المستوطنات ، وتعددت،وظهرت فيها الملكية الفردية، والحياة الحضرية القائمة على الحيازة والتملك الفردي ، بصورة أوسع مما نجدها عند البدوي الاعتيادي الذي لا يملك إلا بيته ، وهو خيمته وأهله ، وما قـد يكون عنده من الإبل .

ظهور القرى :

وصار بعض هذه المستوطنات قرى ، توسع قسم منها حتى صار بمنزلة المدن، منها ما كان يضاهي (يثرب) أو مكة في الحجم ، غير أنه لم يشتهر ولم يذكر، لعدم وجود تماس له وصلة مباشرة بتأريخ الإسلام . وهي مستوطنات سكن وماء وأسواق وتجارة ، ذكرها أهل الأخبار بقولهم : « قرية كانت عظيمة الشأن » وبقولهم : (قرى) . وصار بعض منها (قرى وزروع ونخيل)[1] ، أي قرى غلبت الزراعة على أهلها ، فظهرت الزراعة بها . زراعة نخيل ، إن كانت زراعة النخيل هي الزراعة المتغلبة عليها ، وزراعة نخيـل وزروع أخرى ، إن شاركت

---

١ الصفة (١٤٧) ، (حائط بني غبر : قرية عظيمة بها سوق : وكذلك جماز قريـة عظيمة أيضاً) ، الصفة (١٤٢) .

الزروع الأخرى النخيل في ذلك . وهذا هو سبب نص (الهمداني) وأمثاله ممن كتب عن مواضع جزيرة العرب ، على القرى ، بأنها قرى ، أو قرى سكن ، أو قرى نخيل[1] ، أو قرى زراعة ونخيل ، أو نخل وقرية[2] .

وأما القرى التي غلب التعدين عليها ، فقد نص عليها بأنها (معدن)، لتمييزها عن القرى الأخرى[3] .

وهكذا ظهرت في البوادي مستوطنات زراعية رعوية ، كفت نفسها بنفسها ، توقف حجمها على كمية الماء فيها ، وتوقف انتاجها على مقداره وكميته، وظهرت فيها نتيجة لذلك الملكية الفردية ، تملك المقيم فيها الأرض التي استقر بها وبنى بيته عليها ، وتملك زرعه وحاصله إن كان له زرع ، وتملك ماشيته إن كان صاحب ماشية . وتولد نتيجة لكل ذلك مجتمع مستقر ، تعاون فيما بينه في الدفاع عن نفسه وعن ماله ، وفي جلب السلع التي يحتاج اليها الانسان والميرة ، وتولد فيها تعامل وبيع وشراء ، توقف حجمه بالطبع على حجم ذلك المكان وعلى مقدار وجود الماء به .

فالبحث عن الماء والحصول عليه بالمال وبالخدم والعبيد، كوّن الملكيات الفردية في البوادي بين الأعراب ، وأوجد المستوطنات الحضرية والمستقرات ، وصيّر من بعض البدو حضراً أو أشباه حضر ، وغيّر بعض التغيير من معايرهم ومقاييسهم الاجتماعية ، بجعلهم زراعاً وفلاحين ، بعد كسره واستهجان للمزارع وللزراعة . وهذه المستوطنات هي مستوطنات نشأت وظهرت بجهد الانسان وبعمله وجدّه ، وباستثمار عقله وماله وفي تسخير أتباعه في استنباط الماء ، وتحويل الأرض البكر الى أرض زراعة وسكن ، وفي جزيرة العرب مستوطنات عديدة من هذا القبيل، ومعظم مستوطنات يثرب ، هي من هذا النوع ، مستوطنات قامت على الآبار التي احتفرها المتمكنون من أهلها ، فزرعوها وأقاموا الأطم بها لحماية الزرع والناس من الأخطار . والأطم القصور ، وكل حصن بُني بالحجارة أطم . وقيل هو

---

١ (وفي ثنية الحفير نخل) ، الصفة (١٤٨) ، (روضة الحازمي ، وبها النخيل وحصن منيع) ، الصفة (١٤٢) .

٢ (والعذيب نخل وقرية) ، الصفة (١٤٩) .

٣ (وقرية عظيمة يقال لها : العوسجة . وهي معدن . وكذلك شمام : معدن ..) ، الصفة (١٤٩) .

كل بيت مربع مسطح . وقد اشتهرت يثرب بآطامها . وذكر (الأعشى) آطام جو بقوله :

فلما أتت آطام جوّ وأهله أنيخت فألقت رحلها بفنائكا [1]

وأقيمت الحصون لحماية هذه المستوطنات ، واتخذت وسائل التحصن الأخرى لحماية النفس والزرع من الأعراب الجياع . ولا تزال في اليمامة آثار حصون وآطام عادية ، تعود الى ما قبل الإسلام بأمد . وكانت حماية ومنعة للساكنين حولها ، وتشاهد آثار السكن في أطرافها ، وآثار آبار مندرسة ، وآثار زرع ، هي مزارع القوم . فنجد في الافلاج حصوناً ، ونجد في (ملهم) حصوناً كان يتحصن بها (بنو يشكر) ، ونجد في أرضين أخرى حصوناً بنيت كلها لدرء النفس من الأخطار [2] . واليمامة حصون متفرقة ونخل ورياض ، وفيها بتل ، والبتيل ، هن مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين ، ويرجع أهل الأخبار زمانها الى (طسم) و (جديس) ، وذكروا أن طول بعضها خمسمائة ذراع [3] .

وقد أشار أهل الأخبار الى قرى ومستوطنات قديمة في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، نسبوها الى (عاد) والى (طسم) و (جديس) لبعض منها حصون وآبار . فالقرية ، موضع قديم به ماء عادي ، أي ماء قديم ، الى جنبه آبار عادية وكنيسة منحوتة في الصخر [4] .والقصر العادي بالأثل من عهد طسم وجديس [5] ، و (القرية) : القرية الخضراء ، خضراء حجر ، هي حضور لطسم وجديس ، وفيها حصونهم وبتلهم . والبتيل : هنّ مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين . بناء بعضه مائتا ذراع أو خمسمائة ذراع مرتفعاً سامقاً في السماء [6] . وبقرية بني سدوس ، قصر مبني بصخر منحوت ، نسبه أهل الأخبار الى (سليمان بن

---

١ تاج العروس (١٨٧/٨) ، (أطم) .
٢ العقد الفريد (١٩٠/٥) ، البلدان (٥٣٧/٢) .
٣ الصفة (١٤٠ وما بعدها) .
٤ الصفة (١٥٢) .
٥ الصفة (١٦٠) .
٦ الصفة (١٤١) .

داوود)[1] . و (تر) نخيل وحصون عادية وغير عادية [2] .

الى غير ذلك من قرى وقصور وحصون قديمة ذكرها أهل الأخبار ، أشرت الى بعض منها في مواضع من هــذا الكتاب ، نشأت ونبتت في البوادي ، في المواضع التي أمكن للانسان بفنه البدائي وبعلمه في ذلك الوقت من استنباط المــاء فيها . وبظهور ذلك المــاء نبتت مستوطنات وزروع ونخيــل وملكيات في أرض كانت ميتة ليس لها مالك ، فأحياها استنباط الماء منها ، وجعلها ملكاً لأصحاب الماء .

وقد كانت هذه الآطام والحصون معاقل لأصحاب الأرض ومنازل لهــم ، ومخازن يخزنون بها حاصل أرضهم وماشيتهم عند دنو الخطر ، وقد يحتمي بهــا عبيدهم وأتباعهم ، فهي مثل قلاع الأشراف النبلاء في أوروبــة أيام الاقطاع ، ومثل المحافد والقصور في اليمن . وهي تختلف في الحجم والسعة باختلاف درجة ومنزلة المالك للأرض ، من حيث تملكه للمال وللخدم والعبيد وما عنده من ثراء، وقد صارت سبباً في تحويل أصحابها الى حضر أو شبه حضر ، ولو انهم كانوا وسط بواد وبين أعراب ، فإقامتهم في أبنية مستقرة وحرثهم الأرض وزرعها ، واستخدامهم للعبيد في الفلاحة ، طوّرتهم بعض التطوير ، حتى صاروا على شاكلة الحضر ، يتركون منازلهم لزيارة القرى والأرياف ، ويتصلون بالحضر وقد يقيمون بينهم على نحو ما يفعله كثير من سادات (شيوخ) القبائل في الوقت الحاضر ، وكان جلّ سادات القبائل الكبار من أصحاب الأبنية الثابتة، لهم منازلهم ومزارعهم وأعرابهم الذين لم تمكنهم أحوالهم المادية من تملك الأرض والزرع ، فاشتغلوا برعي الإبل .

وقد تتعرض مزارع هذه المستوطنات الى الأخطار مع وجود الحصون وأبنيــة الحماية الأخرى ، فالمزارع الكبيرة لا يمكن حمايتها إلا إذا حميــت بحصون عديدة من جميع جهاتها،وحمايتها على هذا النحو عمل مكلف باهظ ، لذلك كان المهاجم يهــاجم الزرع ليحرق قلوب أصحابه المتحصنين في الحصن ، فلما هـاجم (بنو يربوع) (بني يشكر) ، تحصن (بنو يشكر) بحصنهم بقريــة (ملهم) ،

١ الصفة (١٤١) .
٢ الصفة (١٤١) .

فأحرق (بنو يربوع) بعض زرعهم ، وعقروا بعض نخلهم ، فلما رأى القوم ذلك نزلوا اليهم فقاتلوهم[1] .

وقد اتخذ المزارعون ملاجىء لهم عند أماكن زرعهم يأوون اليها لحماية أنفسهم من أشعة الشمس ومن المطر والعواصف ، وكانوا يسكنون بها ، كانت هذه سنتهم في الجاهلية وفي الإسلام . وقد ذكر مؤلف (بلاد العرب) أن بروضة السويس قبتين مبنيتين يسكنها الزرّاعون[2] .

وقد أولد هذا المجتمع تبايناً في منازل الناس ، جعل من أصحاب الأرض الكبيرة ملاكاً كباراً لهم أطم وحصون ، يأوون اليها ، ولهم خدم يخدمونهم ويخدمون زرعهم وماشيتهم ، هم العنصر المنتج ، والآلة التي تساعد على الانتاج وعلى تكثيره ، وعلى تزييد أموال الملاّك ، أما هم أنفسهم فمجرد خدم ورقيق ، خلقوا لخدمة سادتهم ووجدوا لرعاية أموالهم والعناية بزرعهم وتكثير رزقهم . والى جانب هؤلاء أناس أحرار ، كان في رزقهم شحّ ، وفي حياتهم عسر ، وقوتهم قليل ، قاموا بمختلف الأعمال والحرف لإعالة أنفسهم وسدّ رمقهم .

وقد تمكنت بعض هذه المستوطنات من انتاج حاصل زراعي سد حاجة أهل المستوطنة ، ومن بيع الفائض منه الى الأعراب. وبينها مستوطنات زرعت الحبوب، مثل الحنطة وصدرتها الى أماكن أخرى . فقد ذكر ان قرى اليمامة كانت تمون مكة بالحبّ ، وتمون الأعراب بالتمور . وما هذه القرى سوى مستوطنات ، ظهرت في البوادي بسبب وجود الماء فيها ، وبسبب استنباطه من الأرض بحفر الآبار ، فنمت وتوسعت ، لاتساع صدر الماء بها ، ولتفضل الأرض على من نزل بها باعطائهم ماءً كافياً . كفاية تساعد على توسع المستوطنة ، فيما لو عمل النازلون بها على استنباطه من باطنها . واستعملوا عقولهم وأيديهم في استغلال التربة للحصول على موارد الرزق منها .

وتحدد الأرض المملوكة بحدود ، وقد توضع على أطرافها علامات ، لتكون حدودها معلومة ، فلا يتجاوز عليها . ويقال للحد بين الدارين، أو بين الأرضين (الجماد) . وقد أشير الى (الجوامد) ، أي الحدود في الحديث . ورد : اذا

---

١ النويري ، نهاية الارب (١٥/٣٨٥) ، (يوم الحائر وهو يوم ملهم) .
٢ بلاد العرب (٣٠٤) .

وقعت الجوامد فلا شفعة في الحدود[1] .

والأرض عامر أو غامر ، والعامر المأهول والمزروع والمستغل ، والغامر خلاف العامر ، وهو الخراب . وقد قسم (عمر) السواد الى عامر وغامر ، أي عامر وخراب . والغامر الأرض ما لم تستخرج حتّى تصلح للزراعة والغرس ، وقيل : هو ما لم يزرع مما يحتمل الزراعة . وانما قيل له غامر ، لأن الماء يبلغه فيغمره[2]. ويقال للأرض العامرة : (السوداء) ، وأرض سوداء ، أرض مغروسة ، والأرض في عرف العرب اذا غرست اسودت واخضرت ، و (البيضاء) الخراب من الأرض ، لأن الموات من الأرض يكون أبيض[3] .

والبور : الأرض قبل أن تصلح للزرع ، وقيل : هي الأرض التي لم تزرع، أو الأرض كلها قبل أن تستخرج حتّى تصلح للزرع أو الغرس . وفي كتاب النبي لأكيدر دومة : ولكم البور والمعامى وأغفال الأرض . فالبور الأرض الخراب التي لم تزرع،أو هي التي تجم سنة لتزرع من قابل[4] . وذكر أن المعامى الأعلام من الأرض ما لا حدّ له . والأغفال ما لا يقال على حده من الأرض[5]. والمعامى على حدّ قول بعض العلماء:أغفال الأرض التي لا عمارة بها ، أو لا أثر للعمارة بها[6] . والغفل : ما لا عمارة فيه من الأرضين ، وقيل الموات ، وأرض غفل لا علم بها ولا أثر عمارة ، وأرض سبسب ميتة لا علامة فيها ، وكل ما لا علامة فيه ولا أثر عمارة من الأرضين والطرق ونحوها غفل ، وبلاد أغفال لا أعلام فيها يهتدى بها[7] . وقد ورد في كتاب الرسول الى الأكيدر : « أن له الضاحية والبور والمعامى وأغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحصن ، ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور »[8] .

---

١ تاج العروس (٣٢٥/٢) ، (جمد) .
٢ تاج العروس (٤٥٤/٣) ، (غمر) .
٣ تاج العروس (١٠/٥) ، (بيض) .
٤ تاج العروس (٦٠/٣) ، (بدر) .
٥ ابن سعد ، طبقات (٢٨٩/١) .
٦ تاج العروس (٢٥٥/١٠) ، (عمى) .
٧ تاج العروس (٤٧/٨) ، (غفل) .
٨ ابن سعد ، طبقات (٢٨٨/١ وما بعدها) .

والضاحية ما كان خارج السور من النخل ، والضاحية البادية ، وضواحي قريش النازلون بظواهر مكة [1] .

والعامر ، إما ملك للحكومة ، وإما ملك للملوك ولذويهم ، وإما ملك للمعبد ، أي أوقاف حبست على المعابد ، وإما ملك لأسر وأفراد ، وذلك بالنسبة للحضر ، وفي العربية الجنوبية بصورة خاصة . وأما بالنسبة الى الأعراب ، سكنة البوادي ، فأرض القبيلة — كما سبق ان قلت — ملك لها ، إلا ما حمى منها ، فهو من حق أصحاب الإحماء . فالأرض اذن مشاعة بين أبناء القبيلة ، ويدخل في ذلك الماء والكلأ .

وقد عبر في أحد النصوص عن الأرض التي آلت الى صاحبها بطريق التملك بـ (مقبلت قنيو)) ، أي الأرض التي أقبلت الى الشخص بطريق الملكية [2] . ومعناها الأرض المقتناة أي الملك . وهي أرض ملكها صاحبها إرثاً من أهله، وذلك تمييزاً لها عن الأرض التي يتملكها صاحبها شراءً ، وقد عبر عنها بـ (شامتهو) ، أي الأرض المشتراة [3] .

وتعد كل الأرضين التي لا تملكها الجهات المذكورة ملكاً للدولة . ورقبتها بيد الحكومة ، وتسجل باسم الشعب الحاكم . فإذا كانت الحكومة حكومة معين ، تسجل الأرض باسم شعب معين ، وإذا كانت الأرض في سبأ ، تسجل باسم شعب سبأ ، وقد توسعت رقعة الأرضين الحكومية بالفتوحات الواسعة التي تمت في عهد الملك (كرب ايل وتر)،وفي عهود الملوك المحاربين مثل (شمر يهرعش) الذين إذا انتصروا على خصومهم جعلوا أرضهم وما يملكونه غنيمة لحكومتهم ، تابعة لبيت المال . وذلك على نحو ما فعله المسلمون في الفتوحات من تسجيلهم الأرضين التي فتحوها باسم (بيت مال المسلمين) .

وقد تؤجر أرض التاج للقبائل والعشائر بعقد يتفق عليه ، تذكر فيه شروطه في الوثائق التي تدوّن لهذه الغاية ، ويتم الدفع بموجبها ، فيكون إما عيناً ، وإما نقداً . وقد يقوم سادات القبائل باستغلال الأرضين المؤجرة على حسابهم ، وقد

---

١ تاج العروس (١٠/٢١٨) ، (ضحو) .

٢ REP. EPIGR. 2876, Tome, V, p. 209.

٣ الفقرة الثالثة من النص المذكور .

يؤجرونها أو يؤجرون أجزاءً منها الى حاشيتهم أو أتباعهم في مقابل جعل يدفع لهم . فيكون دخلهم من هذه الأرض المؤجرة من العوائد التي اتفقوا على استحصالها من المستأجرين الثانويين ومن صغار الفلاحين .

وقد كان الفلاح مغبوناً في الأكثر ، لأنه بحكم فقره واضطراره الى استئجار الأرض بشروط صعبة في الغالب ، مضطر الى الاستدانة في أغلب الأحيان ، لضمان معيشته في مقابل تعهده بدفع ما استدانه في آخر موسم الحصاد وقطف الثمر فإذا حلّ الأجل ، اضطر الى دفع ديونه وما ترتب عليها من ربا فاحش ، وما عليه من حق للحكومة ولصاحب الأرض ، فلا يتبقى لديه ما يكفيه في عامه الجديد ، فيضطر الى تجديد الاستدانة ، والغالب أن أصحاب الأرض هم الذين يقومون بتقديم الديون الى الفلاحين ، لربطهم طول حياتهم بالأرض ، فلا يتمكن الفلاح من الهروب منها بسبب ثقل ما عليه من الديون ، ووجوب دفعها مع فائضها كاملة إن أراد تركها ، وهو حلّ لا يتمكن من تنفيذه ، فيظل لذلك مرتبطاً مع عائلته بأرض المالك صاحب الديون .

وكانت حكومة سبأ تستغل أرضها الخاضعة للخزينة العامة ، أي (أرض السلطان) ، إما بادارتها نفسها وباستغلالها بتشغيل المزارعين بها على حساب الدولة ، وإما ببيعها ، وإما بتأجيرها في مقابل (أجر) يقال له (اثوبت) في لغتهم[1] .

وامتلكت المعابد أرضين واسعة شاسعة ، استغلتها باسم الآلهة ، ودرّت عليهم أرباحاً كثيرة . وهي أرضين سجلت باسمها منذ نشأت المعابد وظهرت ، فارتبطت بها ، وصارت وقفاً عليها . منها ما سجل في عهد (المكربين) أي حكومات رجال الدين في العربية الجنوبية ، يوم كان (المكرب) هو رجل الدين والحاكم الدنيوي ، فكانت نظرتهم ان الأرض وما عليها ملك الآلهة . ورجال الدين الحكام هم خلفاء الآلهة على الأرض ، وهم وحدهم لهم حق الحكم والفصل بين البشر ، وما يقرونه حق ، وما يخالفونه ويحرمونه فهو باطل . وهم الذين يفصلون بين الحرام وبين الحلال ، ويقررون ما يوافق حكم الآلهة وما يخالفه. فهم حكام الشرع والقانون .

---

١ Glaser 904, Halevy 51, 1571, Handbuch, I, S. 137, Rhodokanakis, Katab. Texte, I, S. 70.

وكانت للمعابد الأخرى أحباس خصصت بها ، وحميت للمعبد ولما ينذر له ويحبس عليه من حيوان يرعى فيه ، فلا يتطاول عليه أحد . وقد سبق ان تحدثت عن حرم (العزى) ، وهو شعب حمته قريش للصنم ، يقال له (سقام) في وادي حراض ، وقد كان حرماً آمناً ، لا يجوز قطع شجره ولا الاعتداء على ما يكون فيه من انسان وحيوان[1] . وهو قرب مكة بين (المشاش) و (الغمير) فوق ذات عرق ، الى البستان ، وقيل بالنخلة الشامية[2] . كما كان للبيت الحرام ، حرم واسع به شجر وزرع ، سبق ان تحدثت عنه .

وقد وجدت في بعض المناطق ، مثل أرض قبيلة (بكل) (بكيل) ، أملاك واسعة حبست على (المقه) ، كانت تديرها وتتصرف بها عشيرة (مرثد) ، ووجدت أرضون واسعة في مناطق أخرى ، جعلت المعبد من أكبر ملاك الأرض. وقد استغل المعبد بنفسه بعض أملاكه ، وأجر بعضاً آخر للأسر المتنفذة ولسادات القبائل ، بموجب اتفاقات دوّنت وحفظت في خزائن المعابد . وقد كان المتنفذون قد استولوا على بعض حبوس المعابد ، واستغلوها ، ولما كانوا أقوياء ،والأوقاف في مناطق نفوذهم ، ولا يمكن للمعبد أن ينتزعها منهم ، اضطر إلى تأجيرها لهم ببدل ايجار رمزي ، ليحافظ بذلك على اسم وقفه ، فلا يستبد أولئك السادة به ، ويسجلونه ملكاً باسمه . فصارت هذه الأملاك من أملاك المعبد بالإسم ، ومن أملاك الملاك الأقوياء بالفعل .

ولا نجد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد بوجود حبوس كبيرة وكثيرة على المعابد في العربية الغربية أو العربية الوسطى أو العربية الشرقية ، على نحو ما وجدناه في اليمن ، ويعود سبب ذلك في رأيي الى صغر مساحات الأرضين الخصبة المزروعة في هذه الأقسام ، والى قلة الماء فيها ، مما جعل من الصعب على الناس التخلي عن أرضين كبيرة للمعبد . بل ترينا أخبارهم ان أهل هذه المناطق كانوا لا يتأثمون أحياناً من التطاول على (حرم) المعابد ، فكانوا يقطعون شجره ويستقطعون قطعاً من أرضه لاتخاذها منازل لهم كالذي حدث لـ (حرم) بيت الله .

وقد كان الملوك وكبّار الملاك يقطعون أرضهم اقطاعات لاستغلالها . ويعبر عن

---

١ البلدان (٥/٩١) ، (٦/١٦٦) .
٢ تاج العروس (٥/١٩) ، (حرض) .

ذلك بلفظة (بضع) في المسند ، أي القطعة . وقد يراد بها الأرض المعطاة لجماعة لاستغلالها في الزراعة [1] .

وفي أواخر عصور الملكية في سبأ ، نجد طبقة الأشراف وسادات (الأعراب) (اعرب) والقبائل وقد ازداد نفوذها وقوي سلطانها ، فنازعت الملك على صلاحياته في بعض الأحيان . وصار لرؤساء القبائل نفوذ قوي في المملكة ، حتى قلصت حكم الـ (مزود) واستأثرت بالأرض ، واحتكرتها ، فاضطر الملوك الى النزول عن حقهم في الأرضين الى أولئك الرؤساء في مقابل اتفاقيات تحدد الواجبات والمبالغ التي يجب على رئيس القبيلة أن يقدمها الى الملك في مقابل استغلاله للأرض ، ويقوم الرئيس بإيجار أرضه لأتباعه المتنفذين في القبيلة أو لأفراد قبيلته الاعتياديين، يتقاضى على ذلك أجراً يتفق عليه ، باهظاً مرهقاً للفلاح المسكين الذي لا يملك في العادة أرضاً ، فتحولت العربية الجنوبية بذلك الى دولة اقطاعية ، أرباحها وحاصلها وناتجها وقف وإقطاع لطبقات معينة متنفذة .

وفي جملة تلك الواجبات تقديم عدد يتفق عليه من أتباع من حصل على أرض حكومية للقيام بالخدمات العسكرية ، ووجوب الدفاع عن الحكومة عند ظهور خطر عليها . فيقوم المقتطع للأرض بإرسال رجاله على حسابه للدفاع عن الملك . وبذلك صارت جيوش الملك مؤلفة من جنود مرتزقة وجنود أرسلوا الى القتال إرسالاً بأمر سادتهم تنفيذاً لالتزاماتهم التي ألزموا أنفسهم بها مع الملوك .

ويمكن حصر الأشخاص الذين تمتعوا بنعم الاقطاع وامتيازاته بالملوك وبذويهم ، والملك هو الراعي الشرعي للحق العام ، وهو الناظر والوصي لأرض الدولة ، وهو بهذه الصفة يصطفي لنفسه ولأولاده ولأهله خيرة الأرضين ، ثم يليه من بعده رجال الدين الناطقون باسم الآلهة ، وهم في نظر الشرع ، أي الدين أصحاب الأرض ، لأن الأرض ملك للآلهة . ثم يليهم قادة الجيش وصفوة الملوك وكبار الحكام ، والسادات . سادات الحضر وسادات القبائل . أما السواد ، وهم غالبية الناس ، فليس منهم من يملك إلا المساحات الصغيرة من الأرض ، وإلا البيوت، وأغلب الباقين عالة على غيرهم ، يتعيشون باستعمال أيديهم في كسب قوتهم .

---

[1] راجع الفقرة الثانية من النص :
Glaser 1000 A, B, 1693, Rhodokanakis, Kataba. Texte, II, S. 41.

وقد يؤجر سيد القبيلة أو سادات الأرض ما استحوذوا عليه من الحكومة من أرضين الى أناس غرباء أجراء أم الى قبائل أخرى ، في مقابل شروط يعينها ، فيستغلون الأرض بموجبها ، ويكونون عندئذ في حمايته وفي رحمته ورعايته، فيعاملون عندئذ وكأنهم فرع من فروع قبيلة صاحب الأرض . واذا استمر العقد ، فقد يدمجهم الزمن في قبيلة سيد الأرض فيعدّون منها ، وينسبون اليها ، مع انهم غرباء عنها . ومن هنا نرى ان القبائل في العربية الجنوبية ، لم تكن على نحو ما نفهمه من معنى القبيلة ، من انها بنو أب واحد ، وأصحاب نسب واحد يصعد حتى يتصل بجد ، بل قد تكون من قبائل وعشائر مختلفة ومن جماعات عمل ، تمثل مختلف الحرف ، انضمت الى قبيلة كبيرة [1] ، أو الى ملاّك كبير ، للعمل في أرضه أو لأداء خدمات له ، فلما طال بها المقام اندمجت في القبيلة الكبيرة ، أو في قبيلة الملاّك الكبير ، فعدّت منها ، أو في آل وأتباع صاحب الأرض ، فعدّوا من أتباعه ، ونسبوا اليه ، حتى اذا طال الزمن وتقادم العهد، صار ذلك الرئيس جداً لهم ، وعدّ نسبهم منه .

ولما ظهر الإسلام ، كان الأقيال وسادات القبائل قد استبدوا بالأمر وتحكموا في رقاب الأرض ، واقطعوها فيما بينهم ، ولقب بعضهم كما سبق أن تحدثت عن ذلك أنفسهم بألقاب الملوك . ومن هؤلاء (بنو وليعة) ملوك حضرموت : (حمدة) ، و (مخوس) ، و (مشرح) ، و (أبضعة) [2] . و (الحارث ابن عبد كلال) ، و (نعيم بن عبد كلال) ، و (النعمان) قيل ذي دعين (ذي يزن) ومعافر وهمدان [3] وشريح بن عبد كلال ، وزرعة ذي رعين [4] . و (جيفر بن الجلندي) و (عبد بن الجلندي) وهما من الأزد . وكان(جيفر)، يلقب نفسه بلقب ملك عمان [5] . و (ذو الكُلاع بن ناكور بن حبيب بن مالك ابن حسان بن تبع) ، و (ذو عمرو) [6] ، و (معدي كرب بن أبرهة) صاحب

---

١ J. Rychmans, L'Institution Monarchique, p. 178.

٢ ابن سعد ، طبقات (٣٤٩/١) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٣٥٦/١) .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٦٤/١ وما بعدها) .

٥ ابن سعد ، طبقات (٢٦٢/١) .

٦ ابن سعد ، طبقات (٢٦٦/١) .

خولان[1] . و (ربيعة بن ذي مرحب) الحضرمي ، وآل ذي مرحب ، وكانوا يملكون الأموال والنحل والرقيق والآبار والمياه والسواقي والشراجع بحضرموت[2] ، و (وائل بن حجر) ، من كندة حضرموت ، وكان يملك الأرضين والحصون والأودية ، وكان (الأشعث) وغيره من كندة ينازعونه في واد[3] .

ويقال لتقديم الفلاح أو المستأجر لأرض ما،ما عليه من حقوق تجاه الحكومة ، التي استأجر الأرض منها ، أو صاحب الملك ، الذي استأجر أرضه لزراعتها ، (دعتم) (دعت)[4] ، أي (غلة) ، تسلم الى وكلاء الحكومة أو صاحب الأرض عن حقهم المتفق عليه .

وتعرف الأرضون الحكومية التي تعطى باللزمة والإجارة لمن لا يملكها بـ (مقبلت) و (قبلت) ، و (مقبل) ، من أصل (قبل)[5] . تعطى في مقابل تعهد يتعهد الملتزم والمؤجر بدفع مبلغ معين أو حصة معينة الى الملك أو ممثليه من الموظفين أو أصحاب الأرض ، وذلك في مقابل استغلاله للأرض . وقد تدون شروط الاتفاق وتثبت ليرجع اليها اذا حدث اختلاف .

وقد صالح الرسول أهل خيبر ، على حقن دمائهم ، وعلى ان يقوموا على النخل والزرع ، لأن لهم علماً باصلاح الأرض وخدمة الزرع ، ولم يكن لرسول الله وأصحابه غلمان يقومون بذلك ، فأعطاهم خيبر على ان لهم الشطر من كل زرع ونخل وشيء ما[6] . فبقوا يستغلونها على نصف ما خرج منها ، فكان (الخارص) يأتي اليهم عند الموسم يخرص ما يخرج منها ، فيأخذ النصف ، ويترك النصف الآخر لليهود[7] . وصالح الرسول أهل (فدك) على نصف الأرض بتربتها ، وعلى نصف النخل[8] .

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٧) .
٤ Handbuch, I, S. 137.
٥ REP. EPIGR. 2876, Tome, V, p. 209.
٦ البلاذري ، فتوح (٣٧) .
٧ البلاذري ، فتوح (٣٩ وما بعدها) .
٨ البلاذري ، فتوح (٤٢ وما بعدها) .

عقود الوتف :

وقد وصلت الينا وثائق مهمة تتضمن عقوداً في استغلال الأرضين ، عرفت باسم (وتفم) (وتف) . وهي عقود تبين ان الحكومة كانت تؤجر الأرض لمن يريدها في مقابل حقوق يقدمها اليها . وتشمل عقود الوتف ، العقود التي عقدت بين المعبد والوجهاء وسادات القبائل أيضاً ، والعقود التي عقدها كبار أصحاب الأملاك الذين فاضت أملاكهم عن حاجتهم الى المحتاجين اليها في مقابل شروط اتفق عليها دونت في (الوتف) .

وقد عثر على نصوص (وتف) ورد فيها اسم (مرثد) . مما يدل على أن (بني مرثد) هؤلاء كانوا يستأجرون الأرضين لاستغلالها ، في مقابل تعهدات خاصة يقدمونها الى أصحاب الأرض . وتتناول معظم هذه العقود (الوتف) استئجار أرضين خاضعة للحكومة وأرضين هي من أوقاف المعابد . وجدت المعابد أن من الصعب عليها ادارتها فأجرتها الى (بني مرثد) لاستغلالها ، وقد قام (بنو مرثد) بتأجير قسم منها الى غيرهم من العشائر التابعة لهم في مقابل جعل يقدمونه لهم، يزيد على مقدار بدل الإجارة المتفق عليه مع المعبد ، وبذلك استفادوا من الفرق بين بدل الإجارتين .

ولدينا جملة نصوص (وتف) يفهم منها أن بعض المتعاقدين من مستأجري أملاك المعبد قد قدموا نذوراً وذبائح الى الآلهة التي أوقفت عليها الأرض المستأجرة لأنها أعطتهم غلة طيبة وحاصلاً وافراً طيباً بعد فقر وجوع . ويظهر من بعضها أن أولئك المستأجرين المتعاقدين كانوا قد تهاونوا في تنفيذ ما ورد في العقد ، أو أنهم أخلوا بها عمداً ، فلم ينفذوا ما جاء فيها ، واتفق أن نزلت آفات طبيعية بزروعهم ، مثل جفاف أتلف معظم حاصلهم ، ففشا الجوع بينهم ، ففسروا ذلك على أنه غضب حل بهم من آلهتهم ، وانتقام نزل بهم منها . ولهذا كفروا عن ذنوبهم وتابوا عما ارتكبوه من آثام ، بعدم تنفيذهم تلك الاتفاقيات، وعاهدوا آلهتهم على ترضيتها وتقديم الذبائح اليها في كل عام بانتظام ، ان هي غفرت لهم قبح أعمالهم ، وباركت في زروعهم ، وهم في مقابل ذلك سيوفون بالعهد ، ويؤدون ما فرض عليهم من (الوتف) كاملاً غير منقوص[١] .

---

١ Oslander 10, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 158.

وقد استغلت الأرض في العربية الجنوبية ، ولا سيما في اليمن استغلالاً حسناً بالنسبة الى باقي أنحاء جزيرة العرب ، وذلك لسقوط المطـــر الموسمي بها بكميات مناسبة للزراعة ، ولوجود موارد طبيعية للمياه بكثرة فيهـــا بالقياس الى المواضع الأخرى من جزيرة العرب ، ثم لوجود فجوات ومنخفضات بين الجبال والهضاب ساعدت على خزن مياه الأمطار بها ، كما ساعدت عـــلى اقامة السدود في أفواه الأودية لحصر المياه في المنخفضات ومنعها من السيلان الى البحر . وبسبب هـــذه الميزات ظهر في اليمن اقتصاد زراعي وحاصل زراعي،أمكن استغلاله في الداخل، وتصدير الفائض منه الى الخارج .

الاقطاع :

الاقطاع في الاسلام يكون تمليكاً ويكون غير تمليك . والقطائع انما تجوز في عفو البـــلاد التي لا ملك لأحد فيها ولا عمارة فيها لأحـــد ، وفيا ليس بمملوك كبطون الأودية والجبال والموات ، فيقطـــع الإمام المستقطع منها قدر ما يتهيأ له عمارته باجراء الماء اليه أو باستخراج عين منه ، أو بتحجر عليه للبناء فيه . ومن الاقطاع اقطاع ارفاق لا تمليك كالمقاعدة بالأسواق التي هي طرق المسلمين ، فمن قعد في موضع منها كان له بقدر ما يصلح له ما كان مقيماً فيه ، فإذا فارقه لم يكن له منع غيره منه ، كأبنية العرب وفساطيطهم ، فإذا انتجعوا لم يملكوا بها حيث نزلوا منها ، ومنها اقطاع السكنى . وفي الحديث : لما قدم النبي المدينـــة أقطع الناس الدور ، معناه أنزلهم في دور الأنصار يسكنونها معهم ، ثم يتحولون عنها . ومنه الحديث ، انه أقطع الزبير نخلاً ،يشبه انه انما أعطاه ذلك من الخمس الذي هو سهمه ، لأن النخل مال ظاهر العين حاضر النفع ، فلا يجوز اقطاعه . وأما اقطاع الموات ، فهو تمليك[1] .

وهو ضربان : إقطاع تمليك ، وإقطاع استغلال . فأما اقطاع التمليك فتنقسم فيه الأرض المقطعة ثلاثـــة أقسام : موات وعامر ومعادن . فأما الموات ، فعلى ضربين : أحدهما ما لم يزل مواتاً على قديم الدهر فلم تجر فيه عمـــارة ولا يثبت

---

١ تاج العروس (٥/٤٧٤) ، (قطع) ، ارشاد الساري (٤/٢٠٦) ، صبح الاعشـــى (١٣/١١٣ وما بعدها) .

عليه ملك ، فهذا الذي يجوز للسلطان أن يقطعه من يحييه ومن يعمره ، والضرب الثاني من الموات ما كان عامراً ، فصار مواتاً عاطلاً . وذلك ضربان : أحدهما ما كان جاهلياً،فهو كالموات الذي لم يثبت فيه عمارة ، ويجوز اقطاعه . والضرب الثاني ما كان إسلامياً جرى عليه ملك المسلمين ثم خرب حتى صار مواتاً عاطلاً وقد اختلف فيه الفقهاء .

وأما العامر فضربان : أحدهما ما تعين مالكه فلا نظر للسلطان فيه ، والضرب الثاني من العامر ما لم يتعين مالكوه ولم يتميز مستحقوه ، وهو على ثلاثة أقسام : تكلم فيها الفقهاء .

وأما اقطاع الاستغلال فعلى ضربين : عُشر وخراج . فأما العشر : فإقطاعه لا يجوز . وأما الخراج ، فيختلف حكم اقطاعه باختلاف حال مقطعه ، وله ثلاثة أحوال ، ذكرت في كتب الفقه .

وأما اقطاع المعادن ، فهو ضربان ، ظاهرة وباطنة ، فأما الظاهرة ، كمعادن الكحل والملح والقار والنفط ، وهو كالماء الذي لا يجوز اقطاعه والناس فيه سواء يأخذه من ورد اليه . وأما المعادن الباطنية ، ففي جواز اقطاعها قولان : أحدهما لا يجوز كالمعادن الظاهرة ، وكل الناس فيها شَرَع . والقول الثاني : يجوز اقطاعها . وفي حكمه قولان : أحدهما أنه إقطاع تمليك يصير به المقطع مالكاً لرقبة المعدن كسائر أمواله في حال عمله وبعد قطعه يجوز له بيعه في حياته وينتقل الى ورثته بعد موته . والقول الثاني أنه اقطاع ارفاق لا يملك فيه رقبة المعدن ويملك به الارتفاق بالعمل فيه مدة مقامه عليه ، وليس لأحد أن ينازعه فيه ما أقام على العمل ؟ فإذا تركه زال حكم الاقطاع عنه وعاد الى حال الإباحة . فإذا أحيا مواتاً بالإقطاع أو غير اقطاع فظهر فيه بالإحياء معدن ظاهر أو باطن ملكه المحيي على التأبيد كما يملك ما استنبطه من العيون واحتفره من الآبار [١] .

وأما الاقطاع عند أهل الجاهلية ، فكان معروفاً عندهم ، وقد أشير اليه في نصوص المسند . وقد كان اقطاع تمليك ، واقطاع استغلال .

فأما اقطاع التمليك ، فيشمل الموات والعامر والمعادن . وقد أقطع الحكام في كل هذه الأقسام الثلاثة . فكان الملوك ، يهبون الموات أو العامر الى من يريدون

---

١ الاحكام السلطانية ، للماوردي (١٩٠ وما بعدها) .

من أقربائهم أو قواد جيوشهم أو سادات القبائل ، أو كبار الموظفين ومن يرضون عنه . يعطونهم أرضاً مواتاً لا أصحاب لها ، أو أرضاً عامرة لها أصحاب وملاّك. فقد كانوا يحاربون ، فإذا انتصروا اصطفوا لأنفسهم ما أحبوا من أرض مملوكة للدولة أو للاشخاص ، فسجلوه ملكاً باسمهم ، وأعطوا ما شاءوا الى خاصتهم وذوي رحمهم وقواد جيشهم ، ملكاً لهم ، يملكون رقبته وكل ما عليه من شجر ونبات وماء ومعادن ورقيق وأناس ، لا ينازعهم في ذلك منازع،لهم حق بيعه إن شاءوا ، أو حق ايجاره ، أو اعطائه لأي شخص آخر لاستغلاله ، وإن وجدت فيه معادن ، فهي لهم أيضاً .

وقد يغضب ملك أو أي حاكم متفرد بأمره على من هو من تبعته ، فينتزع منه ملكه ، ويستولي عليه وعلى كل ما عليه ، وقد يقطعه كله أو جزءاً منه أحد خاصته ، أو يقطعه اقطاعاً ، لجملة أشخاص . هبة أي تمليكاً ، أو غير تمليك، أي عارية ، رقبته للحاكم ، ومنفعته لمن أقطع له الى أجل معين أو الى أجل غير محدود ، يكون له ولورثته حق الانتفاع منه . والحاكم الذي يقطع الإقطاع لمن يشاء ويهب الأرض لمن يحب ، لا يعجز عن استعادة ما أقطعه تمليكاً أو استغلالاً متى أحب ، فهو الآمر بأمره والناهي ، لا يعارضه معارض ، متى أراد الاستيلاء على أرض أو على اقطاع اقطعه أحداً ، أمر بالاستيلاء عليه ، فيطاع أمره وينفذ ما دام قوياً له الحول والطول .

ولا يعني الاقطاع عند الجاهليين وجوب وجود العبيد أو الأقنان في الأرض لاستغلالها ولإعمارها ، فقد يتعامل الاقطاعي ، مع أجراء أو أجرار يتفقون معه على استثمارها في مقابل حقوق يدفعونها له . أما إذا كان متمكناً غنياً له خدم ورقيق وأتباع ، فقد يستخدمهم في خدمة ملكه بأجر او بغير اجر ، حسب مبلغ هيمنته عليهم ومقدار نفوذه بين قومه واهله .

وقد عرف اقطاع المعادن عند الجاهليين : ما ظهر من المعادن ، وما بطن . ويظهر ان أهل اليمن لم يكونوا يفرقون في الاقطاع بين النوعين من المعدن . فكانوا يقطعون المعادن الظاهرة ، مثل الذهب والملح ، كما كانوا يقطعون المعادن الباطنة : أي المعادن التي يكون جوهرها مستكناً فيها : لا يوصل اليه إلا بالعمل، كمعادن الذهب والفضة والصفر والحديد ، فهذه معادن باطنة سواء احتاج المأخوذ

منها الى سبك وتخليص أو لم يحتج ، في حين أن المعادن الظاهرة ، ظاهرة على سطح الأرض ، ولا يبذل لاخراجها ما يبذل في اخراج المعادن الباطنة . أما الإسلام ، فقد جعل حكم المعادن الظاهرة حكم الماء العدّ من ورده أخذه، لا يجوز اقطاعه والناس فيه سواء يأخذه من ورد اليه[1] .

وفي كتب السير والتأريخ أن الرسول أقطع بعض سادات القبائل ورؤساء الوفود اقطاعاً ، وأمر فكتبت لهم كتب التملك . فأعطى (الزبير بن العوّام) « ركض فرسه من موات النقيع (البقيع) ، فأجراه ، ثم رمى بسوطه رغبة في الزيادة . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أعطوه منتهى سوطه »[2] . وفي حديث (أسماء) بنت (أبي بكر) ، أنه أقطع الزبير أرضاً من أموال بني النضير ذات نخل وشجر[3] .

وقد سأل (الأبيض بن حمّال) رسول الله ، ان يستقطعه ملح مأرب ، فأقطعه . « فقال الأقرع بن حابس التميمي : يا رسول الله إني وردت هذا الملح في الجاهلية ، وهو بأرض ليس فيها غيره ، من ورده أخذه ، وهو مثل الماء العدّ بالأرض . فاستقال الأبيض في قطيعة الملح . فقد أقلتك على ان تجعله مني صدقة . فقال النبي عليه الصلاة والسلام : هو منك صدقة ، وهو مثل الماء العدّ من ورده أخذه »[4] . و (الأبيض بن حمال) ، سبأي من أهل مأرب ، وكان من سادة قومه . وفد على أبي بكر ، لما انتقض عليه عُمال اليمن ، فأقره أبو بكر على ما صالح عليه النبي ، من الصدقة ، ثم انتقض ذلك بعد أبي بكر وصار الى الصدقة . وكان مصاباً بـ (حزازة) في وجهه ، وهي القوباء ، فالتقمت أنفه[5] .

وأقطع الرسول « بلالَ بن الحارثَ ، المعادن القبلية جلسيّها وغوريها . وحيث

---

١ الاحكام السلطانية ، للماوردي (١٩٧) .

٢ الاحكام السلطانية (١٩٠) ، (في أحكام الاقطاع) .

٣ ارشاد الساري (٤/ ٢١٠) ، البلاذري ، فتوح (٢٤ ، ٤٢) ، (موات البقيع) ، صبح الاعشى (١٣/ ١٠٥) .

٤ الاحكام السلطانية (١٩٧) ، (في أحكام الاقطاع) ، صبح الاعشى (١٣/ ١٠٥) .

٥ الاصابة (١/ ٢٩) ، (رقم ١٩) .

يصلح الزرع من قَدَس ، ولم يقطعه حق مسلم »[1] . وذكر ان المراد من الجلسي والغوري : أعلاها وأسفلها ، وذكر ان الجلسي بلاد نجد والغوري بلاد تهامة[2] . وذكر ان (القبلية) ، ناحية من ساحل البحر ، بينها وبين المدينة خمسة ايام ، وقيل : ناحية من نواحي الفرع بين نخلة والمدينة ، وهي التي أقطعها الرسول ، بلال بن الحارث . وورد أيضاً : (معادن القلبة)[3] . ولم يذكر العلماء أسماء المعادن التي كانت في هذه الأرض . وقد باع بنو (بلال) (عمر بن عبد العزيز) أرضاً منها ، فظهر فيها معدن أو معدنان ، فجاءوا اليه ، وقالوا : انما بعناك أرض حرث ولم نبعك المعادن . فقال (عمر) لقيمه : أنظر ما خرج منها وما أنفقت وقاصهم بالنفقة وردّ عليهم الفضل[4] .

وأقطع الرسول (وائل بن حجر) ارضاً بحضرموت[5] . وكان أبوه من أقيال اليمن ، وفد على النبي واستقطعه أرضاً فأقطعه إياها وكتب له عهداً[6] . وأقطع (زيد الخيل) الشاعر الفارس لما وفد عليه في سنة تسع من الهجرة أرضين . هي (فيد) وكتب له بذلك[7] ، فلما وصل موضع (قردة) ، توفي بها فدفن هناك ، وأقام عليه (قبيصة بن الأسود بن عامر) المناحة سنة[8] .

واقطع الرسول (حمزة بن النعمان بن هوذة) (جمرة) العذري ، أرضاً من وادي القرى ، وكان سيد (بني عذرة)[9] . وكان (جمرة) أول من قدم بصدقة (بني عذرة) الى النبي ، وقدم في وفد قومه . وقد نزل أرضه التي اقطعها الرسول له الى أن مات[10] . واقطع الرسول (ساعدة التميمي العنبري)

---

١ الاحكام السلطانية (١٩٨) ، (في أحكام الاقطاع) ، تاج العروس (٩/٢٧٥) ، (عدن) ٠

٢ الاحكام السلطانية (١٩٨) ٠

٣ تاج العروس (٨/٧٣) ، (قبل) ٠

٤ البلاذري ، فتوح (٢٧) ٠

٥ ارشاد الساري (٤/٢١٠) ٠

٦ الاصابة (٣/٥٩٢) ، (رقم ٩١٠٢) ٠

٧ تاج العروس (٧/٣١٥) ، (خيل) ٠

٨ الاصابة (١/٥٥٥) ، (رقم ٢٩٤١) ٠

٩ البلاذري ، فتوح (٤٨) ، (حمزة) ٠ وضبطه الاخرون « جمرة » ، الاصابة (١/٢٤٤) ، (رقم ١١٨٤) ، (١/٣٩٦) ، (رقم ٢١١٠) ٠

١٠ الاصابة (١/٢٤٤) ، (رقم ١١٨٤) ٠

بئراً في الملاة [1] . وأقطع (مجاعة بن مرارة) الحنفي اليمامي ، وكان من رؤساء (بني حنيفة) أرضاً باليمامة يقال لها (العورة) ، وكتب له بذلك كتاباً [2] . وكانت خصبة منتجة ذات ماء .

واقطع الخلفاء القطائع كذلك ، فأقطع (أبو بكر) (الزبير) ما بين (الجرف) الى (قناة) . واقطع (عمر) (الزبير) (العقيق) ، واقطع (خوات بن جبير) الأنصاري أرضاً تتصل بالعقيق ، فعرفت بقطيعة خوات ، فباعها ، واقطع (عليا) (ينبع) [3] .

الحمى :

وتفرد العزيز من أهل الجاهلية بالحمى لنفسه ، كالذي كان يفعله (كليب بن وائل) ، فإنه كان يوافي بكلب على نشاز من الأرض ، ثم يستعديه ويحمي ما انتهى اليه عواؤه من كل الجهات ، وتشارك الناس فيما عداه حتى كان ذلك سبب قتله [4] . والحمى ، موضع فيه كلأ يحمى من الناس ان يرعى . وذكر ان الشريف من العرب في الجاهلية اذا نزل بلداً في عشيرته استعوى كلباً فحمى لخاصته مدى عواء الكلب ، لا يشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد ، وكان شريك القوم في سائر المراتع حوله [5] .

وقد نهى النبي ان يحمى على الناس حمى كما كانوا في الجاهلية يفعلون إلا ما يحمى لخيل المسلمين وركابهم التي ترصد للجهاد ويحمل عليها في سبيل الله ، وابل الزكاة كما حمى عمر (النقيع) لنعم الصدقة والخيل المعدة في سبيل الله [6] . وكان الرسول قد حماه ، وهو موضع على عشرين فرسخاً من المدينة ، وقدره

---

١ الاصابة (٢/٤) ، (رقم ٣٠٢٧) .
٢ الاصابة (٣/٣٤٢) ، (٧٧٢٤) .
٣ البلاذري ، فتوح (٣٦) .
٤ قال العباس بن مرداس :

كما كان يبغيها كليب بظلمه ... من العز حتى طاح وهو قتيلها
على وائل اذ يترك الكلب نابحا ... واذ يمنع الاقناء منها حلولها

الاحكام السلطانية (١٨٦) .
٥ تاج العروس (١٠/٩٩) ، (حمى) ، ارشاد الساري (٤/٢٠٦) .
٦ تاج العروس (١٠/٩٩) ، (حمى) .

ميل في ثمانية أميال[1] . وقد جعل بعض العلماء هذا النقيع : نقيع الخضمات ، وجعله بعضهم غرز النقيع . وذهب بعضهم مذهباً آخر في تعيين موضع المكان[2] .

وقد حمى عمر (السرف) (الشرف) أيضاً[3] . وفي الشرف حمى (ضرية) ، وضرية بئر وفي الشرف الربذة ، وهي الحمى الأيمن . وفي الحديث ان عمر حمى الشرف والربذة[4] . ويقال لحمى الربذة (حمى الحناكية) في الوقت الحاضر . وهناك حمى آخر ، يسمى (حمى النير)[5] . وذكر ان بالنير قبر (كليب وائل) ، الذي تنسب اليه بدعة الاحماء ، وهو قريب من (ضرية)[6] .

ومن أشهر الأحماء وأكبرها في جزيرة العرب ، حمى (ضرية) . يذكر أهل الأخبار أنه سمي بـ (ضرية بنت ربيعة بن نزار) . وقد حماه (عمر) لإبل الصدقة وظهر الغزاة ، وكان ستة أميال من كل ناحية من نواحي ضرية، وضرية في وسطها[7] . وحمى (فيد) ، ذكر أنه فلاة في الأرض بين (أسد) ، و(طيء) ، في الجاهلية . فلما قدم (زيد الخيل) على رسول الله أقطعه (فيد)[8] . وقد أشير الى هذا الحمى في الشعر[9] . و (فيد) قلعة وبليدة بطريق مكة ، في نصفها من الكوفة في وسطها حصن عليه باب حديد وعليها سور دائر ، كان الناس يودعون فيها فواضل أزوادهم الى حين رجوعهم ، وما ثقل من أمتعتهم ، وهي قر أجأ وسلمى جبلي طيء . وقد ذكرت في شعر ازهير[10] ، وفي شعر للبيد بن

---

١ ارشاد الساري (٢٠٦/٤) .

٢ تاج العروس (٥٣٠/٥) ، (نقع) ، (٢٨٠/٨) ، (خضم) .

٣ بين العلماء اختلاف في ضبط الاسم ، فمنهم من ضبطه « السرف » ، ومنهم من ضبطه بحرف الشين ، أي « الشرف » ، والصحيح أنه « الشرف » ارشاد الساري (٢٠٦/٤) .

٤ تاج العروس (١٥٢/٦) ، ارشاد الساري (٢٠٦/٤) .

٥ الصفة (٤٠٨) .

٦ تاج العروس (٥٩٣/٣) ، (نير) .

٧ تاج العروس (٢١٩/١٠) ، (ضرى) .

٨ تاج العروس (٤٥٧/٢) ، (فاد) .

٩ سقى الله حيا بين صارة والحمى ... حمى الفيد صوب المدجنات المواطر
تاج العروس (٤٥٧/٢) ، (فاد) .

١٠ ثم استمروا وقالوا ان مشربكم ... ماء بشرقي سلمى فيد أو ركك
تاج العروس (٤٥٧/٢) ، (فاد) ، و « رك ماء شرقي سلمى ، أحد جبلي طيء . له ذكر في سرية علي ، رضي الله عنه ، الى الفلس » تاج العروس (١٣٦/٧) ، (رك) .

ربيعة[1] ، وفي شعر لآخرين[2] . وقد زعم بعض أهل الأخبار أنها سميت بـ (فيد ابن حام) أول من نزلها[3] . وقد يشير هذا الزعم الى وجود جالية من العبيد في هذا المكان ، عهد اليها زراعة الأرض . وذكر أنها عرفت بكعكها حتى ضرب به المثل :

وتلك فيد قرية والمثل في كعك فيد سائر لا يجهل[4]

وقد أعطى الرسول (بني قرة بن عبدالله بن أبي نجيح) النبهانيين المظلة كلها أرضها وماءها وسهلها وجبلها حمى يرعون فيه مواشيهم[5] .

ولا تزال عادة الاحماء متبعة حتى الآن . فـ (سجا) مثلاً وهو ماء يعد في حمى الأمير (فيصل آل سعود) خص به إبله وخيله[6] .

وقد عرف الاحماء عند العرب الجنوبيين ، وقد ذكر (الحمى) بلفظة (محمت) و (محميم) في نصوص المسند . أي (المحماة) و (المحمى) ، ومعناها الأرض المحماة ، أي (الحمى)[7] .

وذكر علماء اللغة ان (الحمى) (المحجر) . والمحجر : (الحديقة) ، والمرعى المنخفض والموضع فيه رعي كثير وماء ، وما حول القرية ، ومنه محاجر أقيال اليمن ، أي ملوكها ، وهي الاحماء . كان لكل واحد منهم حمى لا يرعاه غيره . وذكر ان محجر القيل من أقيال اليمن حوزته وناحيته التي لا يدخل عليه فيها غيره[8] . وورد ان (بني عمرو بن معاوية) لما امتنعوا عن دفع الصدقات خرجوا الى (المحاجر) ، وهي أحماء حموها ، فنزلوا بها وتحصنوا ، وقاوموا منها

---

١ مرية حلت بفيد وجاورت أرض الحجاز فأين منك مرامها
تاج العروس (٤٥٧/٢) ، (فاد) .

٢ لقد أشمتت بي أهل فيد وغادرت بجسمي صبرا بنت مصان باديا

٣ تاج العروس (٤٥٧/٢) ، (فاد) .

٤ تاج العروس (٤٥٧/٢) ، (فاد) .

٥ ابن سعد ، الطبقات (٢٦٧/١) .

٦ محمد بن عبدالله بن بليهد النجدي ، صحيح الاخبار عما في بلاد العرب من الآثار (١٨/١) .

٧ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 120, Mordtmann, Himj. Inschri., S. 42.

٨ تاج العروس (١٢٦/٣) ، (حجر) .

جيش المسلمين[1] . ويظهر ان المحاجر ، هي أبنية حصينة من حجارة ، اتخذت في أملاك أهل المحاجر ، للدفاع عنها ايام الخطر .

ولم يستعمل الحمى كما يظهر من كتب الحديث والفقه في غير الرعي ، رعي الكلأ الذي ينبت فيه . ولم أعثر حتى الآن على نص يفيد انهم استعملوه لأغراض زراعية . ويظهر ان لفظة (الحمى) قد خصصت بهذا النوع من المراعي ، لتمييزها عن المراعي العامة التي يتساوى فيها الجميع في حقوق الرعي ، فهي مراعي مشاعة لا يجوز منع إبل أحد من الرعي فيها ، وتساهم في الرعي فيها إبل السادة أصحاب الاحماء .

الموات :

والأرض الموات التي لا مالك لها ولا ينتفع بها ولا ماء بها ، والموتان من الأرض ما لم يستخرج ولا اعتمر ، وأرض ميتة وموات من ذلك[2] . وقد يستصلح الموات ويعمر ، ويكون من خيرة الأرضين المثمرة ، فتكون رقبته بيد مصلحه ، لأنه أحياه بعد أن كان مواتاً ، وصرف عليه مالاً وجهداً ، فيكون له .

ويكون إحياء الموات ، بجمع التراب المحيط به حتى يصير حاجزاً بينه وبين غيره ، أو سوق الماء اليه إن كان يبساً وحبسه عنه إن كان بطائح أو مغموراً بماء ، أو بحرثه لزرعه أو لتعديله وتسويته لاعداده للزراعة أو للسكن أو لأي انتفاع آخر ، أو بحفر آبار فيه لاسقائه أو لزرعه،أو للاستفادة من البئر ، ببيع مائها ، فتكون البئر ملكاً لصاحبها ، ليس لأحد محاججته فيها ، فقد صرف عليها وانفق جهداً في استنباط الماء منها . وفي التأريخ الجاهلي أمثلة عديدة لآبار حفرها أصحابها في أرض موات ، فصارت ملكاً لهم ، وصارت الأرض المحيطة بها ملكاً له قدر وصول الماء اليها .

احياء الموات :

وقد أثبت اقدام سادات القبائل وأعزة أهل القرى على إحياء الموات، باستنباط

---

١ الطبري (٣/٣٣٤) ، « ذكر خبر حضرموت في ردتهم » .
٢ تاج العروس (١/٥٨٧) ، (موت) ، اللسان (٢/٩٣) .

الماء من جوف التربة وبالاستفادة من ماء السماء المنهمر قرباً ، على ان من السهل تحويل الغامر من الأرض الى أرض عامرة حية منتجة، والى تكوين قرى ومستوطنات في المفاوز والبوادي ، كما وقع ذلك في اليمامة وفي الحجاز وفي مواضع أخرى ، حيث حفر رجال آباراً واستنبطوا عيوناً ، أحيت الأرض بعد موت ، وأولدت قرى عليها . غير ان عقلية البداوة ، وأعني بها الروح الفردية ونزعة الغزو بسبب الجهل والفقر ، وعدم وجود حكومة تحمي الأمن وتدافع عن هذه المستوطنات وعن مشاريع الأفراد ، تشعر ان من واجبها البحث عن الماء في كل مكان ، قد كانت من أهم العوائق في عدم إحياء الأرض وإنباتها ، وفي تأخر سكان جزيرة العرب وفي تفقيرهم . فكان على من يحيي أرضاً حماية ما أحياه بنفسه والدفاع عنه بأهله وبماله وبنفوذه وقوته ، وإلا عرّض نفسه وما أحياه للخطر ، وهذا عمل مجهد شاق ، جعل أكثر المتمكنين يحجمون عنه ، ولا يقبلون عليه ، ولم يقبل عليه إلا المجازف القوي المتمكن من القيام به بما له من جاه ونفوذ .

وأهم ما تعرض له إحياء الموات من خطر، هو خطر الغزو ومحاولات الاستيلاء عليه . وحماقة البحث عن العامر لأخذه أو لأخذ ما يوجد فيه بدلاً من إحياء موات وتعميره . وذلك لما قلته من وجود الفقر وفقدان الأمن والحماية ، فتحول قسم كبير من العامر بسبب هذا المرض الى غامر ، إذ خربت مصادر الحياة فيه وهو المياه وطمرت ، فماتت ، وماتت المستوطنات التي كانت عليها بسبب ذلك .

الماء والكلأ والنار :

الماء إذا كان عاماً ، فإنه لا يمتلك . والماء العام مثل عيون الماء التي لا تكون في حيازة مالك ، بل تكون مشاعة بين الجميع ، لا يملكها أحد من أهل الحي ، وليس لرقبتها مالك ، فماؤها للجميع . مثل أن تكون العين في قرية أو في مدينة أو في أرض قبيلة ، فلكل إنسان حق الانتفاع منها ، لا يمنعه أحد منها ، ولا يستوفى بدل عن ذلك الماء . وقد ورد أن الناس شركاء في الماء ، ماء الأرض وماء السماء ، إذا كانا في أرض عامة ، أي مشاعة، ينتفع منها كل إنسان[1] .

---

١ تاج العروس (٩٩/١٠) ، (حمى) .

واذا كان الكلأ في أرض عامة ، فإنه يكون أيضاً ملكاً للجميع ، أي مشاعاً بينهم . فلا يجوز لأي أحد منع آخر من الاستفادة منه ، لأنه مشترك بين الجميع ، فلا يكون أحد أخص به من أحد ، ولو أقام عليه وبنى عليه . وباستثناء الأحماء فإن الكلأ النابت في موطن قبيلة هو لكل أبناء القبيلة ، ليس لأحد صد أحد عنه إلا اذا كان غريباً عن القبيلة دخل أرضها بغير اذن من أبنائها وهو ليس في حماية أحد منها . فالكلأ في البادية لا يعود لمالك فرد ، وانما هو ملك القبيلة ، أبناء القبيلة فيه شركاء ، يرعون فيه سواء[1] .

وقد ورد في الحديث ، انه قال : الناس شركاء في ثلاث : الكلأ والماء والنار . ومعنى النار الحطب الذي يستوقد به ، فيقلع من عفو البلاد . وكذلك الماء الذي ينبع ، والكلأ الذي منبته غير مملوك والناس فيه مستوون . وذهب بعضهم الى ان الماء ماء السماء والعيون والأنهار التي لا مالك لها . وأراد بالكلأ المباح الذي لا يخص به أحد ، وأراد بالنار الشجر الذي يحتطبه الناس من المباح فيوقدونه[2] . فكل هذه الموارد الثلاثة ، موارد مشاعة للجميع ، يشترك في الانتفاع بها كل الناس . وهو مذهب أهل الجاهلية أيضاً ، ما لم يبسط أحد من الملوك أو سادة القبائل سلطانه عليها ، ويعلن انها في حمايته ، إذ تكون حينئذ ملكاً له .

الأرض ملك الآلهة :

الأرض كما سبق ان بينت ملك للآلهة . وكل شيء على هذه الأرض هو ملك لها كذلك . والناس أنفسهم عبيد لها (ادم)[3] . ورأيهم هذا يطابق رأي الإسلام بالنسبة الى الملك . فالله في الإسلام مالك الملك ، وهو مالك كل شيء . والمال مال الله والناس عبيد له . وعندهم أن ممثلي السلطة الإلهية على هذه الأرض هم الذين ينظمون الملك ويقيمون العدل بين الناس ويحققون الحق كما تأمرهم الآلهة به . وكما شرعته لهم وأوصت به . فهم في ذلك مثل الإسلام أيضاً في أن أولي الأمر

---

١ تاج العروس (١٠/٩٩) ، (حمى) .
٢ اللسان (١٠/٤٤٩) ، (شرك) .
٣ (ادم) ، (ادوم) (ادومت) ، (آوادم) ، (عبيد) ، (عبدات) ، Grohmann, S. 126.

أي (السلطان) يحكمون بين الناس بالقسط والعدل وبما أنزله الله على رسوله من أحكام وأوامر ونواه . فهم ظل الله وخلفاء رسول الله على العباد .

هذا هو المبدأ العام بالنسبة الى الملكية والتملك عند العرب الجنوبيين . ويتمثل هذا الرأي في عقود التملك (شامت) (شمت) بالشراء المدوّنة باللهجات العربية الجنوبية ، حيث يذكر المتعاقدون أنهم باعوا أو تملكوا ملكاً مثل أرض أو دار أو بستان أو غير ذلك ، بموافقة (الإلـه الفـلاني) ، وبرضاه . وانهم أجروا ذلك وفقاً لأوامره ونواهيه يكتبون ذلك على حجر يضعونه على حدّ الملك أو باب الدار ، ليكون بمثابة شهادة تمليك . أو صك بيع أو شراء وسند (طابو) ، أي سند تملك كما يعبر عن ذلك في لغة أهل العراق في الوقت الحاضر .

وحكم ان الملك ملك الآلهة ، لا يعني ان الملكية هي مجرد انتفاع الى أجـل محدد أو لا محدد . أو ان من حق السلطـان انتزاع الملك من صاحبه والاستيلاء عليه أو اعطائه لآخر باعتباره ممثل سلطة الآلهـة على الأرض . بل الملكية تملك دائم ، لا يجوز لأحد منازعة صاحب الملك عـلى ملكه ، لأن انتزاع الملك من صاحبه ومن دون رضاه تعسف وظلم . ولا ترضى الآلهة بظلم أحد ، حتى وإن صدر ذلك الظلم من (السلطان) أي الملك أو من خوّله الملك الحكم نيابة عنه . وقد خولت القوانين المالك الذي يغتصب ملكه حق مقاضاة المغتصب عـند ذوي الرأي و (أولي الأمر) وعند المعابد وإن كان ذلك المغتصب ملكاً . صحيح ان بعض الملوك ظلموا الناس ، بمصادرة أملاكهم وأموالهم ، وبالاستيلاء على كـل ما مَلَكه أفراد رعيتهم من دون دفع تعويض عنه . غير ان هذا عمـل شاذ ، وقد وقع لظروف شاذة . كأن يكون الشخص الذي صودر ملكه من أعداء الملك أو قد قام بعمل معاد للحكومة ، أو قاوم (أولي الأمر) بطريقة من الطرق ، أو خالف أوامر المعبد وأحكام دينه إلى غير ذلك من أمور . فهـذه أمور شاذة لا تكون قاعدة حكمية عامة ، لأن الأصل القانوني هو : ان الملكية حق مقدس لا يجوز مسه ولا الاعتداء عليه ، لأن الآلهة لا ترضى بذلك ، وهـي تنتقم من المعتدين مهما كانوا .

والملك هو كل ما تملكه يمينك ويكون في حوزتك احتواءً قادراً على الاستبداد به . وكل ما صار في ملكك إما شراءً واما إرثاً أو لقطة لم يظهر مالكهـا ولم ينازعه عليها منازع ولم يعارض في تملكه لها قانونٌ ، واما هبة أو ما شاكل ذلك.

وذلك بالنسبة الى الملك الدائم الذي لا يمكن انتزاعه من صاحبه ، لأن الآلهة أمرت به وأقرته . خلاف الملكية المؤقتة ، التي تمنح الإنسان حق التصرف بالملك ولكن لأجل وبشروط تعين وتثبّت لا يجوز تخطيها والعمل بخلافها . مثل التملك بعقد ، أي بشروط ويعبر عن ذلك بـ (شامت) (شمت) . ويكون ذلك شراءً ، أو بعقد خاص أو بإيجار[1] .

ولا نجد في الحجاز أو نجد أو العربية الشرقية ملاكاً مزارعين كباراً على نحو ما نجده في اليمن أو في بقية العربية الجنوبية ، وذلك لصغر مساحة الأرضين المسقاة بالمطر أو بالمياه الأرضية في هذه البلاد . نتيجة شح الأرض وبخلها على الناس بالماء . ولهذا لم يظهر في الحجان أو في نجد أو أرض العروض مزارعون كبار ، لهم عدد كبير من الفلاحين والرقيق يستغلونهم في استغلال الأرض . ومع ذلك فاننا لا نجد حتى في اليمن أو في العربية الجنوبية أناساً أصحاب أرضين واسعة أي من نسميهم اليوم بـ (اقطاعيين) على نحو ما نجده في أرض السواد ، أي العراق ، حيث كان الإقطاعيون يملكون مساحات واسعة من الارض ، تسقيها الانهار دون كبير عناء ، ويعمل فيها الفلاحون بأجور بخسة ورقيق الارض والحول فتأتي لاصحابها بالمال والثراء .

الخليط :

ويعرف المشارك في حقوق الملك كالشرب والطريق ونحو ذلك بـ (الخليط) . والخليط الشريك المشارك في الشيوع . وقد حدثت خصومات في موضوع هذه الشركة . وقد بحث فيها الاسلام . جاء في الحديث : « ما كان من خليطين فانهما يتراجعان بينهما بالسوية » . وورد أيضاً : « الشريك أولى من الخليط . والخليط أولى من الجار » . وأراد بالشريك المشارك في الشيوع[2] .

---

١ Grohmann, Arabien, S. 126.

٢ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) .

الفصل السادس والتسعون

الارواء

تعطي الديانات السامية الماء أهمية كبيرة . وقد أثابت الأشخاص الذين يتقربون الى آلهتهم بتقديم الماء الى العطاشى ، وفرضت عليهم تقديم الماء الى العطشان لاغاثته وانقاذه من الهلاك . وفي الأسفار القديمة أمثلة عديدة على ذلك ، كما أشادت تلك الأديان بقيمة الماء في الحياة .

ولا بد ان تكون للوثنية العربية النظرة ذاتها التي نراها في الأديان الأخرى بالنسبة الى الماء ، بأن أعطته شيئاً من التقديس والأهمية ، وجعلت له مكانة في عقائدها ، وذلك قياساً على ما قلته من تقديس الأديان الأخرى له . وإن كنا نجهل ذلك لعدم ورود شيء عن ذلك في المسند . ولكن عدم ورود شيء من ذلك في المسند لا يكون دليلاً على عدم تقديس العرب الجاهليين له،لأن نصوص المسند لم تختتم بعد ، وما وصل الينا ليس إلا شيئاً قليلاً بالنسبة الى ما قد يعثر عليه في المستقبل ولا شك .

وفي الأخبار المروية عن الجاهليين وغيرهم من تقديس بعض الآبار والعيون، والتبرك بشرب الماء منها ، دليل على نظرة التقديس التي نظرتها الشعوب السامية وغيرها الى الماء . فالماء هو الحياة . وفي القرآن الكريم : « وجعلنا من الماء كل شيء حي »[1] . ولا بد أن تكون هذه النظرة التقديسية هي التي حملت الجاهليين

---

١ الانبياء ، الرقم ٢١ ، الآية ٣٠ .

على تقديس بئر زمزم . ولا يقدر أهمية البئر حق قدرها إلا قطّان هـذا البلد الكائن في وادٍ غير ذي زرع وماء ، ولولا زمزم والآبار الأخرى التي احتفرها أهله ، والآبارَ والعيون الواقعة في أطرافه ، يحملون منها الماء الى بلدهم حملاً ، لهلك أهله ، أو هجروه . ولا يـدرك المرء قيمة الماء إلا اذا كان في صحراء قفرة لا ماء فيها ثم نفد ماؤه . ولهذا كان الغيث رحمة عظمى للأعراب ، يغيثهم بعد أن يتعرضوا للجدب والهلاك .

ولا غرابة بعد ذلك ، اذا رأينا العرب تقول في دعائها على الإنسان : ما له أحرّ الله صدره ، أي أعطشه . وفي الدعاء : سلط الله عليه الحِرّة تحت القِرّة ! يريد العطش مع البرد ؛ ورماه الله بالحرة والقرة ، أي بالعطش والبرد . وقالوا: أحرّ الرجل ، فهو محرّ : عطشت ابله[1] . وأي شيء أعظم مصيبة وخطراً على الانسان من العطش في أرض حارة !

وتعدّ بقاع جزيرة العرب من الأرضين الجافة ، فالأمطـار فيها ، ولا سيما أقسامها البعيدة عن البحر شحيحة ، والأنهار الكبيرة معدومة فيها ، والعيون قليلة أيضاً ، وجوّها جاف لا نكاد نستثني منهـا إلا سواحلها ، وهذا الجفاف صيّر القسم الأكبر من أرضها صحاري قاحلة تكسوها طبقة غليظة من الرمال في بعض الأماكن مثل الربع الخالي ، كما جعلها غير قابلة للزرع . على ان من الممكن ان تبعث الحياة في مناطق واسعة شاسعة من هذه الأرضين ، فتجعل أرضين منتجـة مخصبة نافعة ، اذا اتبعت الأساليب العلمية في معالجة الأرض ، وفي استنباط الماء، وفي السيطرة على الأمطار والسيول التي تنشأ منها في بعض الاحيان وتغور في الرمال دون ان يستفاد منها ، بإقامة السدود والحياض الصناعية التي تخزن فيها الى وقت الحاجة ، وذلك كما فعل الجاهليون في بعض الاماكن،وخاصة في العربية الجنوبية ، من اقامة سدود تحجز السيول وتحبسها ، فإذا انقطعت الامطار وحل الجفاف استفيد منها في الإرواء .

ونجد في بطون الكتب أسماء مواضع عديدة كبيرة كانت ذات عيون وميـاه وآبار ونخيل وأناس عند ظهور الاسلام[2] ، وهي اليوم صحاري خالية أو مواضع صغيرة لا أهمية لهـا ، وذلك بسبب اهمال الانسان لها واعتدائه عليها ، وتحول

---

١ اللسان (٤/١٧٨ وما بعدها) ، (حرر) .
٢ ابن المجاور (١/٩ ، ١٦ وما بعدها ، ١٣٢) .

الطرق التجارية عنها . ويظهر أن لاشتراك القبائل في الفتوح ، ونزولها في العراق وفي بلاد الشأم والأماكن الغنية الأخرى بعد دخول هذه الأماكن في الإسلام أثراً في هجرة الناس عن مواضع العيون والآبار في الحجاز وفي بقية جزيرة العرب ، لقلة خيراتها وحاصلاتها وعــدم تعلق الفلاح بالأرض في تلك الأماكن . أما في الوطن الجديد الذي حمله الفتح اليه ، فقد وجد فيه خيراً كثيراً وأرضاً وماءً وجواً ألطف وأرق من الجو الذي كان يعيش فيه ، وبذلك خسرت جزيرة العرب عدداً كبيراً من سكّانها ، ممن فضل الهجرة على القعود .

ومن يقرأ كتاب (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز) وكتباً أخرى من هذا القبيــل ، يعجب من التدهور الذي أصاب الزراعــة في جزيرة العرب بعد الاسلام ، إذ يجد أسماء مواضع عديدة كانت تكفـي نفسها ، أو تصدر الحاصل الزراعي الى الأسواق المجاورة ، ثم قلّ حاصلها كثيراً بإهمال الزراعة . وإعراض الناس عنها ، حتى بعض النواحي القريبة من مكة والمجاورة لها ، كانت مشهورة بالخضر والفواكه والأزهار والرياحين ، ثم فقدت شهرتها من بعد . وذكر (ابن المجاور) ان موضع (الزهــران) كان معروفاً بزراعة (الزعفران) ، وكان الموظفون يجبون جباية لا بأس بهــا منه ومن الزرع والضرع وسقـي الأنهار . «فلما دار الدهر ، نقص جميع ما ذكرناه ، لاختلاف النيات مع قلة الأمانات»[1]. وفي هذا الكتاب أمثلة عديدة على هذا التدهور المؤسف الذي حل بالزرع وبالماء وبالأيدي العاملة المشتغلة باصلاح الأرض ، والذي كان من جملة أسبابه ما قلته من هجرة المتمولين والمثرين والسادة الكبار من الحجاز وبقيــة جزيرة العرب الى العراق وبلاد الشأم ، لوجود مجال واسع للإثراء ، لا مثيل له في جزيرة العرب .

وللعرب مصطلحات كثيرة في الإرواء وفي سقيهم وسقي إبلهم ، لارتباط حياتهم بالماء ، ولأثر الحر والعطش والجفاف فيهم وفي أموالهم . وفي جملة هذه المصطلحات (الشريعة) ، « مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون . وربما شرعوها دوابهم ، فشرعت تشرب منها . والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عدّاً لا انقطاع له ، ويكون ظاهراً معيناً لا يستقى بالرشاء . واذا كان من السماء والأمطار ، فهو الكرع . وقد أكرعوه إبلهم فكرعت فيه وسقوها بالكرع. وهو مذكور في موضعه كالمشرعة »[2] . وتقابل هذه اللفظة لفظة (مشرّعن) في

---

١ ابن المجاور (١/٩) .

٢ تاج العروس (٥/٣٩٥) ، (شرع) .

لغة المسند ، أي (المشترع) ، والمشرعة [1] .

وقد تخصص أناس باستنباط المياه وتقدير حفر الآبـار ، كما تخصص آخرون بالسيطرة عليها وحصرها بالسدود . وسمى علماء اللغة المقدر لمجاري المياه (القنّاقِن) وهو مثل المهندس في هذا الفن[2] . وذكر بعضهم أن (القُناقن) البصـير بحفر المياه واستخراجها ، والمهندس الذي يعرف موضع المـاء تحت الأرض ، أو هو الذي يسمع فيعرف مقدار الماء في البئر قريباً أو بعيداً [3] .

وقد قسم بعض العلماء المياه المستخرجة الى ثلاثة أقسام : مياه أنهار ، ومياه آبار ، ومياه عيون .

وقسّموا مياه الأنهار الى ثلاثة أقسام : أنهار كبار لم يحفرها الآدميون، وأنهار صغار ، لم يحتقرها إنسان ، وأنهار احتفرها الناس . فتكون ملكاً لمن احتفرها ، لا حق لغيرهم في الانتفاع منها .

وأما الآبار ، فآبار تحفر للسابلة،فيكون ماؤها مشتركاً ، وآبار تحفر للإرتفاق بمائها . كالبادية إذا انتجعوا أرضاً وحفروا فيها بئراً لشربهم وشرب مواشيهم . كانوا أحق بمائها ما أقاموا عليها في نجعهم،فإذا ارتحلوا عنها صارت البئر سابلة . وآبار مملوكة . وتكون ملكاً لمالكها لا ينازعه عليها منازع .

وقسموا العيون الى ثلاثة أقسام : عيون لم يستنبطها الآدميون . وعيون استنبطها إنسان ، فتكون ملكاً لمن استنبطها ، ويملك معها حريمها . وعيون يستنبطها الرجل في ملكه ، فتكون ملكاً له [4] .

واليمن مثل سائر أقسام جزيرة العرب ، خالية من الأنهـار الكبيرة كدجلة والفرات والنيل ، وخلوّها من أمثال هذه الأنهـار أثّرت كثيراً — ولا شك — في وضع الزراعة فيها . ولكن الطبيعة عوّضتها بعض التعويض عن هذه الخسارة ، فصار حالها أحسن كثيراً من حال الأقسام الشرقية أو الوسطى من جزيرة العرب . فجعلت لها رياحاً تحمل اليها الأمطار في مواسم معروفة ، وجعلت لها أمكنة ملائمة لخزن هذه الأمطار الهاطلة ، استبدت بها أيدي الانسان ، وتحكمت فيها بأن جعلت

---

١ Rhodokanakis, Stud., Lexi., I, S. 113.

٢ المعاني الكبير (المجلد الثاني) ، (ص ٦٤٠) .

٣ تاج العروس (٩/٣١٥) ، (قنن) ، المخصص (١٠/٣٣) .

٤ الاحكام السلطانية (١٩٧ وما بعدها) .

لها أبواباً ومنافذ ، وسدوداً في بعض المواضع ، وتمكنت بذلك من خزن هذه الأمطار للاستفادة منها في أيام الحاجة . ثم جعلت لها تربة حسنة طيبة أريضة تنبت كل ما يبذر فيها ، وتنبت ما يتساقط عليها من بذور متطايرة مع الهواء ، حتى شاع صيتها وانتشر خبرها بين الناس ، فعرفت باليمن الخضراء .

وقد ساعدت هذه الأمطار أهل اليمن كثيراً في تطوير أحوالهم من النواحي الاجتماعية ، فمال كثير منهم الى الاستقرار والى الاشتغال بالزراعة والتعيش منها . وساعد ذلك على سكناهم في المدر وفي القرى والمدن ، على عكس ما يحدث في الأرضين التي غلبت عليها الطبيعة الصحراوية لانحباس المطر عنها ، وهي حالة اضطرت أصحابها الى التنقل فيها من مكان الى مكان طلباً للكلأ والماء ، وجعلت من أصحابها أناساً فقراء ، يعيشون عيشة شظف وضنك وفقر ، مع ما وهبتهم الطبيعة من ذكاء مفرط واستعداد للتطور إن تهيأت لهم الظروف الملائمة وساعدتهم الأحوال .

والأمطار قليلة بصورة عامة في جزيرة العرب ، فلم تعتمد الزراعة فيها على الأمطار كما تعتمد في البلاد الأوروبية ، وإنما تعتمد على الجعافر والحسي والعيون والآبار . ولهذا السبب انحصرت الزراعة في الأماكن التي توجد فيها هذه الموارد المائية . ويختلف عمق الآبار باختلاف المواقع ، وباختلاف سطوح المياه الجوفية عن سطح الأرض . ولما كانت بعض الآبار عميقة جداً بسبب بعد سطح مائها عن سطح الأرض ، لم يستفد منها في الزراعة كثيراً ، وإنما استفيد منها في شرب الانسان والحيوان فقط .

وفي العربية الغربية مواضع عديدة كانت ذات ماء ، ورد اسمها في كتب اللغة وفي كتب (الجغرافيا) والبلدان والرحلات . تكونت من سقوط الأمطار على الجبال والمرتفعات . وبعضها ماء عذب ، وبعض منها ماء مج أو مالح ، وقد استفيد منها في السقي وفي الزرع . ويظهر من دراسة ما ذكره العلماء عنها ، انه قد كان في الامكان الاستفادة منها واستغلالها لأغراض زراعية ، لو كان لأهل هذه الأرضين علم بكيفية السيطرة على الماء ، وكيفية استنباطه من باطن الأرض ، وكيفية الهيمنة عليه بحفر مجار له . فقد كانت لبني الحارث بن بُهثة بن سُليم : عيون ماء في صخور ، لم يتمكنوا من الانتفاع بها ، لأنهم لم يتمكنوا ان يجروها

الى حيث ينتفعون بها [1]. وكان في (يَلَمْلَم) عين كبيرة تخرج من جوف
من أعذب ما يكون من العيون وأكثرها ماءً ، لم يزرعوا عليها إلا في
يسيرة ، لأنها تجري في رمل [2] ، ولم يكن علم على ما يظهر في كيفية است
هذا الماء من ذلك الرمل . وكان في امكانهم مسك مسايل الماء من الجري
البحر ، وحبسها في أحباس ، بصنع سدود لها ، لو كان لهم علم ومال و
كبيرة تكون عندها المؤهلات والامكانيات لعمل السدود ، للاستفادة من مياه
المنابع التي كانت تجري طيلة ايام السنة ، فتحول بينها وبين الذهاب عبثاً
البحر . فتحيي بذلك أرضين مواتاً وعدم وجود حكومات كبيرة تقوم بمثل
الأعمال وبضبط الأمن . واشاعة الاستقرار ، هو من أهم العوامل التي
سبباً في عدم الاستفادة من المياه وفي تأخر الزراعة في جزيرة العرب ، فلو
هنالك حكومات كبيرة ، لكان في وسعها الاستفادة من المياه الظاهرة والباطنة
مياه السماء ، فتحيي بذلك أرضين كثيرة خصبة ، وتحمي الزرع من عبث ال
وتشيع الأمن والطمأنينة في النفوس فيقبل الناس على الزرع والعناية بالضرع .

وقد ذكر (عرام) اسم موضع دعاه (ذا مجر) ، ذكر أنه غدير كبير
بطن وادي قوران ، وبأعلاه ماء يقال له (لقف)، وهو آبار كثيرة ، عذبة ا
ليس عليها مزارع ولا نخل ، لغلظ موضعها وخشونته ، وفوق ذلك ماء يقا
(شسي) ماء آبار عذاب [3] . وذكر اسم جبل يقال له (مغار) في جوفه آ
منها حسي يقال له (الهدّار) يفور بماء كثير ، لم يستفد منها فائدة تذكر
فكانت المياه تذهب عبثاً إلى سباخ لعدم وجود من يتغلب عليها بعقله وبعلمه
ويستروضها لتخدمه في إحياء الأرض وفي اعاشته وإعاشة ماشيته .

أما العربية الشرقية والعربية الوسطى ، فانهما أقل مياهاً من العربية الغربية
لقلة ما يسقط عليها من الأمطار . ولذلك صارت مواضع الماء فيها متباعدة
والمسافات التي يجب أن يقطعها المسافرون من موضع الى موضع أطول من المس
التي تقطع بين منازل العربية الغربية ، لتباعد مواضع المياه . ومن أهم موارد

---

١ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٧) .
٢ عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٨) .
٣ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٣) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٣ وما بعدها) .

في العربية الشرقية نهر (مُحلم) بهجر البحرين . ذكر بعض أهل الأخبار أنه في أرض العرب بمنزلة نهر بلخ في أرض العجم ، وأن (تبعاً) نزل عليه فهساله . وان مياهه الجوفية متصلة بسيح الأطلس الذي يكون مخرج مائه من عين الناقة [1] .

إن قلة الأمطار أو شحتها وانحباسها في بعض السنين وعدم وجود الماء في أكثر أنحاء جزيرة العرب ، أثر أثراً كبيراً في حياة أهلها الاجتماعية ، فحوّل قسماً كبيراً منهم الى بدو رحل ، يتنقلون من مكان الى مكان طلباً للكلأ والماء ، هدفهم في هذه الحياة الحصول على الكلأ والماء . والكلأ والماء هما العزّ والجاه والثراء وأغلى شيء في هذه الدنيا ، فقاتل بعضهم بعضاً من أجل الحصول عليها، وقطعوا مسافات شاسعة بحثاً عنها . ولم يتمكن الروم والرومان من منعها من دخول بلاد الشأم بحثاً عن الكلأ والماء ، ولم يتمكن الساسانيون من منعهم من الوصول الى هذه الثروة العظيمة كذلك . هذه الثروة التي سببت اقتتال القبائل فيما بينها من أجل الحصول عليها .

ولحماية الماء ولا سيما مياه الآبار من اعتداء الطبيعة أو الإنسان عليه أقاموا أبنية فوقه ، في أيام الجاهلية وفي الاسلام . وقد أشار العلماء الى قباب بنيت فوق المياه، فقد اتخذ أهل بطن (السيدان) قباباً على كل ماء به ، ومياهه تسمى الجرور والجراير ، لبعد قعرها ، ولأنها لا تخرج إلا بالغروب والسواني لبعد الماء فيها عن سطح الأرض [2] .

انحباس المطر :

يؤدي انحباس المطر الى كوارث ومصائب تترك أثراً كبيراً في أحوال السكان. تهلك أموالهم وهي كل ما عندهم في هذه الحياة ، وقد يموت الكثير منهم من العطش والجوع . ولهذا عمد الناس في جزيرة العرب، كما عمد غيرهم الى استرضاء آلهتهم بالتقرب اليها بتقديم الهدايا والقرابين ، وبالتوسل اليها لانزال المطر، وبالصلاة لها صلاة خاصة يقال لها صلاة الاستسقاء، هي صلاة أقرتها الأديان السماوية أيضاً ،

---

١ الصفة (١٦٠) .

٢ بلاد العرب (٣١٨) .

لم يرد في نصوص المسند ويا للأسف شيئاً عنها ، غير اننا نملك نصاً جاء فيه ان شخصاً قدّم قرابين الى الإلـه (عثتر) والى معابده كلها ، لأنـه منّ على سبأ وأتباعهم ، فأرسل عليهم (سقي خرف ودثا)[1] ، أي (مطـر الخريف ومطر الربيع) . ومعنى ذلك ان القوم كانوا قد توسلوا الى هذا الإلـــه ليرسل عليهم الغيث الذي انحبس عنهـــم في موسميه المعروفين في اليمن ، ونذروا له نذراً إن استجاب لهم ، وقد استجاب لدعوتهم فأرسله عليهم ، فقدمت اليه تلك الذبائح والقرابين .

وقد تحدثت في أثنـــاء كلامي على الحياة الدينية عن عادة أهـــل الجاهلية في الاستمطار ، وعن هذه النار التي كانوا يولعونها والتي يسمونها (نار الاستمطار). وهي عادة قد تكون مألوفة بين أهل مكة وأهل الحجاز . وهي من العادات التي أبطلها الاسلام ، إذ أحل محلها صلاة الاستسقاء[2] .

وقد تهطل الأمطار أحياناً هطولاً شديداً مؤذياً ، فتكوّن سيولاً عارمة تجرف الزروع والبيوت والمواشي وتنكب الناس بعيشهم الضيق الذي هم فيـه . ونجد في كتب أهل الأخبار إشارات الى سيول عديدة حدثت في الجاهليـة والإسلام ، في الحجاز واليمن وفي أمكنة أخرى ، فأصابت الناس بأضرار كبيرة ، حيث تنحدر بشكل سريع وشديـــد وبقوة كبيرة من الجبال والهضاب والمرتفعات الى الأوديـة والسهول فتغمرها بالمياه ، وفي كتب الأخبار أن السيول قد أصابت مكـــة مراراً في الجاهلية وفي الاسلام . وهي في جملة المصائب والكوارث التي تنزل بالناس ، فلا عجب إذا ما رأينا المثل العربي يقول : « سال بهم السيل،وجاش بنا البحر . أي وقعوا في أمر شديد ، ووقعنا نحن في أشد منه ، لأن الذي يجيش به البحر أسوأ حالاً ممن يسيل به السيل »[3] .

ولفظة (سقى) من الألفاظ الواردة في المسند ، بمعنى (مطر) و (ارواء)

---

١ Rhodokanakis, Katab. Texte, II, S. 53, Glaser 1752.

٢ ألا در رجـــال خاب سعيهـــم   يستمطرون لـدى الازمات بالعشر
أجاعـل أنت بيقـورا مسلعة   ذريعـة لـــك بين الله والمطـــر
تاج العروس (٣/٥٤) ، (٥/٣٨٥) ، بلوغ الارب (٢/١٦٤ ، ٣٠٢) .

٣ تاج العروس (٧/٣٨٦) ، (سال) .

و (سقي)[1] . ولفظة (مسقت) و (مسقيت) بمعنى (مسقى) و (مسقية). ووردت لفظة الإرواء في النصوص العربية الجنوبية كذلك : وردت في نص معيني على هذه الصورة (رويم) (روي) بمعنى (ارواء)[2] ، وذلك كما في هذه الجملة : « رويم لا نخلهمى » ، أي « لارواء نخيلهم »[3] ، وفي هذا المعنى جملة : (رويم وسقيتم لنخلهمو)[4] ، أي « ارواء وإسقاء نخيلهم » .

و (المكر) سقي الأرض ، وأرض ممكورة ، مسقاة ، ومكر أرضه، سقاها[5].

أنواع السقي :

ويسقى الزرع في جزيرة العرب ، إما بالسيح ، والسيح الماء الجاري الظاهر على وجه الأرض[6] ، ويقال له : (المسقوي)[7] ، وإما بماء المطر ، أى بما تسقيه السماء ، ويقال له : (المظمّى)[8] ، وإما من الآبار ، أي بالدلاء. وقد تستخدم النواعير في رفع الماء من الأنهار الى السواقي لتجري الى المزارع ، أي بالطرق الفنية التي يستخدمها الانسان في تسخير الماء في خدمته .

ويقال لما سقته السماء من النخل (العثري) . وقيل (العثّرى) هو من الزرع ما سقي بماء السماء والمطر وأجري اليه الماء من المسايل ، وقيل النخيل التي تشرب بعروقها من ماء المطر[9] . وفي هذا المعنى (العذي) ، والعذي أيضاً الموضع الذي ينبت في الشتاء والصيف من غير نبع ماء ، وقيل العذي : الزرع الذي لا يسقيه إلا المطر[10] . وقد اتخذت المرتفعات وذرى الجبال قرى ومزارع ، صارت زراعها

---

١ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 115, 119.

٢ Halevy 174.

٣ Rhodokanakis, II, S. 129.

٤ Glaser 423, Rep. Epigr. 852.

٥ تاج العروس (٣/٥٤٨) ، (مكر) .

٦ تاج العروس (٢/١٦٨) ، (السيح) .

٧ تاج العروس (١٠/١٧٩) ، (سقى) .

٨ تاج العروس (١٠/١٧٩ ، ٢٣٢) ، (سقى) ، (الظمياء) .

٩ تاج العروس (٣/٣٨٢) ، (عثر) ، اللسان (٣/٣٨٢) ، (عثر) .

١٠ تاج العروس (١٠/٢٣٩) ، (عذى) .

أعذاء ، لا تسقى[1] . و (عمد) الأرض التي تسقى بماء السماء في لغة المسند[2] . ونقرأ لفظة (أعذاء) في كتب من وصف جزيرة العرب ومواضعها وزروعها[3] ، وقد قصدوا بها زروع نبتت على ماء السماء .

المطر :

ويقال للمطر في المسند (ذ ن م م) (ذنمم) . وقد وردت هذه اللفظة في عدد من النصوص[4] . ويقال له (دثن) أيضاً[5] . وهي (الدث) في عربية القرآن الكريم، يقال دثت السماء اذا نزل منها الدث ، والدث هو المطر الضعيف[6] . ويراد بـ (دثن) (الدث) في المسند ، المطر الذي يتساقط بعد الحرّ الشديد وفي نهاية القيظ .

ويقال للمطر الغيث كذلك . وذكر بعض علماء اللغة أن الغيث هو المطر الخاص بالخير الكثير النافع ، ومن المجاز : الغيث بمعنى الكلأ ينبت بماء السماء ، وكذا السحـــاب . ورأى بعض العلماء أن الغيث اسم المطر كله . وأما السبل ، فالمطر أيضاً ، أو المطر بـــين السحاب والأرض حين يخرج من السحاب ولم يصل الى الأرض ومثله العثانين . وأما الودق ، فالمطر أيضاً . ومنه النزل والرجع في كلام هُذيل . وكذلك الخرج والقطر والخدر . وقيل : النصر ، الغيث . والـذهاب اسم المطر كله ضعيفه وشديده[7] . و (الدِّيمة) ، مطر يدوم أي يطول زمانــه أياماً . وأرض مديمـــة ، أصابتها الديم ، والمدام المطر الدائم[8] . و (الـديمن) و (الديم) ، هو الزرع الذي يسقى بماء المطر ، في اصطلاح أهل العراق اليوم . واذا بكر الغيث في أول الوسمي ، قيل له (باكور)[9] . أما آخر أمطار السنة

---

١ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٧) .

٢ Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 445.

٣ بلاد العرب (٣٠٥) .

٤ Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 101, Num. 76, S. 238, Num. 171.

٥ CIH 540.

٦ تاج العروس (٦٢١/١) ، القاموس (١٦٦/١) .

٧ تاج العروس (٦٣٢/١) ، (١٢٠/٩ وما بعدها) ، المخصص (٥/١١) .

٨ تاج العروس (٢٩٦/٨) ، (دوم) .

٩ تاج العروس (٥٧/٣) ، المخصص (٨/١١) .

الذي يأتي في وقت الخراف ، أي أواخر الخريف[1] ، فإنه (خرفن) في نصوص المسند ، أي (الخراف) .

ويقال للمطر الـذي ينزل في فصل الخريف : (الخريف) ، ويقال له : (الخرفي) كذلك ، أو هو أول المطر في أول الشتاء ، وهو الذي يأتي عند صرام النخل ، ثم الذي يليه الوسمي . وهو عند دخول الشتاء ، ثم يليه الربيـع ، ثم يليه الصيف ، ثم الحميم . وقال بعض علـماء اللغـة : أول المطر الوسمي ، ثم الشتوي ، ثم الدفىء ، ثم الصيف ، ثم الحميم ، ثم الخريف ، ولذلك جعلت السنة ستة أزمنة . وقال أبو حنيفة : ليس الخريف في الأصل باسم للفصل، وانما هو اسم مطر القيظ ، ثم سمي الزمن به . والحجاز كله يمطر بالخريف ، ونجد لا تمطر به[2] .

والمزن السحاب . وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم . ويقول علماء اللغة ان المزن جمع مزنة ، وهي السحاب الأبيض[3]. وقد كان جل اعتماد أهـل جزيرة العرب في الشرب ، وفي الإرواء على ماء المطر . كما نجد ذلك في الآية : «أفرأيتم الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن ، أم نحن المنزلون »[3] .

ولارتباط حياة العرب بالمطر،كثرت الألفاظ المتعلقة به في لغتهم . ففي معاجم اللغة ألفاظ كثيرة في معنى المطر وفي أمور تتعلق به ، في مثل السحاب ، وأنواعه وأسماء قطعه ، وما شاكل ذلك من ألفاظ وأسماء ، تمثل لك مدى عنايـة العرب بالمطر ، لشدة حاجتهم اليه .

وللعرب علامات إذا ظهرت دلت عندهم على أنها أمارات الغيث وعلاماته ، منها الهالة التي تكون حول القمر ، إن كانت كثيفة مظلمة ، كانت من دلائل المطر ، ولا سيما إن كانت مضاعفة . ومنها (الندأة) ، وهي الحمرة التي تكون عند مغرب الشمس أيام الغيوث . والمبشرات ، وهي عدة علامات تتوالى ، تدل عندهم على نزول الغيث . ومنها الرعد والبرق،ومنها أن ترى القمر أو الكواكب في الصحو يحيط بها لون يخـالف لون السماء ، وكذلك إن رأيت القمر في الغيم

---

١ المخصص (١١/٥) .
٢ تاج العروس (٦/٨٢) .
٣ تاج العروس (٩/٣٤٥) ، (مزن) .

وإن كان قزعاً كأنه تحيط به خطوط كخطوط قوس المزن ، وهي القسطانية . وبعض الرواة يجعل قوس الغيم أيضاً بدأة [1] .

وهم يعتبرون الغيث نعمة ورحمة ، ولهذا كانوا يفرحون بنزوله ويستبشرون ، لا سيما إذا كان نزوله بعد قحط وجدب . ويهنأ أحدهم الآخر بانصبابه لما سيصيبهم جميعاً من خير عميم . ولكنه قد يصير نقمة إذا نزل سيلاً مدراراً ، يكتسح كل شيء يجده أمامه ، وقد تمتلىء به بطون الأودية ، فتغرق سيولها القرى والمستوطنات . مثل ما كانت تصاب به مكة من السيول . فمكة في وادٍ على طرفيه جبال ، إذا نزلت عليها الأمطار سالت الى بساطن الوادي ، فتؤذي البلدة والحرم ، وقد أقيمت الردم لمنع السيول من اغراق الحرم ؛ والبيوت ، غير أن السيول تكون قاهرة جبارة في بعض الأحيان ، فلا يقف أمامها ردم ولا سكر. وقد أشار أهل الأخبار الى المهم من هذه السيول[2] .

وقد هددت السيول يثرب بالغرق أيضاً ، مع انها ليست في وادٍ ، وذلك من سيل (مهزور) . وقد أقام (عثمان) ردماً لمنع سيل هذا الوادي من اغراق المدينة [3] .

الاستفادة من مياه الأمطار :

وقد اضطر سكان جزيرة العرب ان يلجأوا الى الوسائل الصناعية للاستفادة من المياه ، وذلك لقلتها وشحها ، سواء أكانت مياه أمطار أم مياه أرض ، متدفقة من أجواف الأرض على هيأة عيون أو جعافر . وفي جملة ما اتخذوه اقامة السدود في الأرضين التي تساعد طبيعتها على اقامة السدود ، وحفر الآبار للاستفادة منها في السقي وفي الزراعة بمقياس يتناسب بالطبع مع كميات مياه الآبار .

وقد اتخذ أهل المواضع المرتفعة مثل الأماكن الجبلية التي يصعب نقل الماء اليها كل الوسائل الممكنة للمحافظة على ماء المطر والسيطرة عليه وجمعه لئلا يذهب

---

١ « قوس المزن » ، تاج العروس (٥/٢٠٦) ، القاموس (٢/٢٧٩) .
٢ البلاذري ، فتوح (٦٥) .
٣ البلاذري ، فتوح (٢٤) .

سدى ، فحفروا الصهاريج العميقة في البيوت وفي أماكن أخرى ليسيل اليهـا ، وسلطوا مياه الميازيب على أماكن تسيل منها الى هذه الصهاريج . ولا يزال بعض الميازيب الجاهلية في حالة جيدة يستعمل في الأغراض التي صنع من أجلها . وهي مصنوعة من الصخور ، وبعضها من المرمر الأبيض الجميل . وفي مسجد (حصن غيمان) ، صهريج جاهلي قديم ، يستعمل لخزن المياه . وهناك صهاريج عديدة في هذا الموضع ، كلها من ايام الجاهلية . وبعضها مفتوح على هيـأة حوض ، وأكثره من النوع المغطى والمنقور في الصخر . وقد تساقطت سقوف بعض هـذه الصهاريج أو أصيبت بتلف في بعض أقسامها وظهرت هيآتهـا للعيان ، فعرفت أشكالها وأعماقها ، ولبعضها ممرات توصل بعضها ببعض ، فتجعلها كأنها شبكـة تربط مساحة واحدة تملأ بالماء تحت سطح الأرض. ولهذه الصهاريج فتحات تستخرج منها المياه للارواء[1] .

ولهذه الصهاريج أهمية خاصة في ايام الحروب ، إذ تمنع العدو من قطع المـاء عن المحاصرين ، وبذلك يستطيعون البقاء مدة طويلة يدافعون عن أماكنهم خلف الأسوار .

وقد استخدمت الصهاريج لخزن الماء ، حتى البيوت استخدمتها لذلك ، فكان إذا وقع الغيث سال الى هـذه الصهاريج فخزنته . وقد اتخذ أهل المدن الصهاريج الكبيرة لتموين النـاس بالماء ، وبنوا الصهاريج في المعابد ليستفيد منها المتعبدون القادمون اليها ورجال الدين .

وقد عثر على صهاريج عديدة في حضرموت وفي اليمن ،عرفت عند الحضرميين بـ (نقب) . وهي عبارة عن حفر نقرت في الصخور وفي المواضع الحجرية وفي مواضع أخرى ، يبلغ قطر أفواهها وفتحاتها زهاء المتر في الغالب . أما أعماقهـا فهي مختلفة وكذلك أقطارها السفلى أي من جهة قواعدها . فقد عثر على بعضها، وأعماقها تتراوح من ثلاثة أمتار الى أربعة ، وأقطارها السفـلى تتراوح من خمسة أمتار الى ستة . ويقال لعملية الحفر (نقب) كما في هذه الجملة : (نقبو نقب)[2] أي (نقبوا نقباً) ، ومعناها (حفروا نقباً) و (حفروا صهريجاً) .

---

١ Sabaeica, I, S. 76.

٢ Ry 63, Wissmann und Höfner, Beiträge, S. 56.

وتوصل هذه الصهاريج بمجاري تحت الأرض قد يبلغ أطوالها جملة كيلومترات لايصال الماء منهـا الى مواضع السكن أو الزرع . وتكون الصهاريج مرتفعة عن مسايل المياه الأرضية ، ليسيل منها الماء الى الجهات التي تريدها . ويكون معينها هو ماء المطر[1] . ويظهر أن طريقة توزيع الماء من النقاب بمسايل للمياه أرضيـة كانت شائعة قبل الإسلام في المدن والقرى المرتفعة البعيدة عن الغيـول والنهيرات والآبار والتي تتساقط فيها الأمطار ، فلجأت الى هذه الطريقة الفنية لحبس ميـاه الأمطار للاستفادة منها في الشرب والاستعمال وفي الزراعة أيضاً .

الذُّهب :

ويقال لموضع تجمع مياه الأمطار ومسيلها (ذهبن) ، أي (الذُّهب) . ويستخدم هذا الماء المتجمع لاسقاء الحيوان وللشرب ولإسقاء الزرع ، قـال (الهمداني) : « والذُّهب ... يمتلىء من السيل ، فإذا امتلأ نف فيه الطهف والدخن ، فنضب الماء ، ثار نبته »[2] . وقد كانوا يستفيدون من أمثال هذه (الذُّهب) بتسويرهـا وحصر الماء فيها ثم توجيهها الى الأحواض الكبرى للاستفادة منها عند انحباس الأمطار .

وكانت أشراج الحرة بيثرب من مسايل الماء ، فإذا هطلت الأمطـار انحدرت اليها وامتلأت بها فتسيل الى الأرضين المزروعة ترويها بالماء[3] . وقد تحبس الشراج فتكون أحواضاً يستفاد منها في السقي والزرع .

وهناك حفر تتجمع فيها المياه فيستفاد منهـا في الشرب . وقد ذكر علماء اللغة ألفاظاً عديدة تتعلق بالحفر على اختلاف أنواعها ، وفي جملتها الحفر التي تتجمع فيها المياه . وذلك لكثرتها ولأهميتها في حياتهـم العملية ، إذ كانت على ضآلـة بعضها ووسخ مائها ، غوثاً للمسافرين العطاشى الذين هم ودوابهم في آخـر رمق من الحياة . فهي تكون في مثل هذه الظروف هبة ولقطة لا تقدر بثمن .

ومن مواضع تجمع الماء في الحفر الأوقة ، وهي حفرة يجتمع فيها الماء،وجمعها

---

١ Beiträge, S. 54. ff.

٢ الهمداني ، صفة (١٩٩) . Rhodokanakis, Stud. Lexl., II, S. 113.

٣ البلاذري ، فتوح (٢٥ وما بعدها) .

أوق[1] . والوجيل والمَوْجل ، حفرة يستنقع فيها الماء يمانية[2] . والمرهة ، حفيرة يجتمع فيها ماء السماء[3] . والهَوْقة ، وهي حفرة كبيرة يجتمع فيها الماء ، وتألفها الطير[4] . و (الركية) البئر . وقد كانوا يتبردون بها في ايام الحر[5] . و (المركو) ، الحوض الكبير وقيل الحويض الصغير يسويه الرجل بيديه على رأس البئر اذا أعوزه إناء يسقي فيه بعيراً أو بعيرين[6] .

والنقر ، الغـــائر من الأرضين ، وهي موارد الماء في جزيرة العرب . اذا احتفرت ، ظهر الماء بسهولة في آبارها ،وقد تظهر البرك فيها . ومن هذه النقر ، موضع (معدن النقرة) ، منزل لحاج العراق بين أضاخ وماوان . فيه بركة ، وثلاث آبار ، بئر تعرف بالمهدي ، وبئران تعرفان بالرشيد ، يظهر أنها حفرت في أيام الخليفتين: المهدي والرشيد، وآبار صغار للأعراب . وعندها تفترق الطرق، فمن أراد مكة نزل المغيثة ، ومن أراد المدينة أخذ نحو العسيلة . ذكر أن هـــذا الموضع إنما سُمّي نقرة ، لأن النقرة كل أرض متصوبة في هبطة فهي نقرة[7] .

الحياض :

وقد ترك الجاهليون حياضاً واسعة كانوا أنشأوها في مواضع كثيرة من اليمن وبقية العربية الجنوبية لخزن الماء فيها للاستفادة منها أيام الجفاف . فإذا ما تساقطت الأمطار ، سالت الى هذه الحياض ، وبعضها عميق واسع لا تنضب منها مياههـا طوال السنة . وقد أحيطت هذه الحياض بجدران متينة من الصخور صفت ورتبت على هيـــأة مدرجات ، حتى إذا انخفض الماء أمكن لمن يريد الاستسقاء منها أن

---

١ « الاوقة بالضم : الركية مثل البالوعة في الارض ، خليقة في بطون الاودية ، وتكون في الرياض أحيانا . تسمى اذا كانت قامتين أوقة . فما زاد وما كان أقـــل من قامتين ، فليست بأوقة . وفمها مثل الركية وأوسع أحيانا . وهي الهوة » ، تـــاج العروس (٦/٢٨٢) .
٢ تاج العروس (٨/١٥٣) .
٣ تاج العروس (٩/٤١١) .
٤ المخصص (١٠/٤٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٧/٩٧) .
٥ تاج العروس (١٠/١٥٥) ، (ركا) ، جامع الاصول (٩/٣٢١) ٤
٦ تاج العروس (١٠/١٥٥) ، (ركا) .
٧ تاج العروس (٣/٥٨٢) ، (نقر) .

ينزل على هـذه الدرجات حتى يبلغ الماء ولا يزال بعض هذه الحياض موجوداً يستعمله الناس . وقد وصف السوّاح الذين زاروا اليمن بعضها وتحدثوا عنها وعن أبعادها وعن طرق بنائها وهندستها [1] .

ولمنع تسرب المـاء من الحوض ، يسدّ ما بين الحجـارة من منافذ بالمدرة المعجونة ، وتطلى أوجه الجدر بمادة تغطيها مثل الصهريج لمنع تسرب الماء وخروجه الى الخارج ، كما يبلط قاع الحوض ويطلى كذلك . وتوضع حجارة تنصب حول الحوض ، ويسد ما بينها بالمدرة ، ويقال لذلك النصيبة . ويمدر الحوض اذا طين وسُدّ خصاص ما بين حجارته ، كما يعبر عن ذلك بلفظة اللوط . ويوضع الإباد حول الحوض ، أي التراب ، لدعمه وتقويته . وقد ترفـع جدر الحوض فوق الأرض ، وتعمل فيه صنابير لخروج الماء فيها ، وقد تنشأ فيها حنفيات لأخذ الماء منها . تعمل من المعدن أو الحجارة [2] .

وقد عثر على ميازيب ومثاعب حجر نحتت نحتاً جميلاً ، وضعت في جدران الأحواض ، ليسيل منها الماء[3]. وقد صنعت مواضع مسايل بعضها على هيأة رؤوس حيوانات فتحت أفواهها ، ومن هذه الأفواه المفتوحة يتساقط المـاء . ولا يزال بعضها في هيأة حسنة ومستعملة حتى الآن . واستعملت بعضها في السطوح لسيلان الأمطار منها ، كما عثر على صخور منحوتة نحتاً جميلاً جداً كانت تكوّن الواجهة الظاهرة من جدران الحياض . وقد نحت بعضها على شكل صور حيوانات بارزة أو أوجه حيوانات ، ونحت بعضها على صور أوراق نبـات وأغصان أعناب أو عناقيد أعناب وما شابه ذلك من أجزاء النبات .

وثعب الماءُ سالَ ، ومنه اشتق مثعب المطر . والثعب مسيل الوادي ، ومنه مثاعب المدينة ، أي مسايل مائها . والمثعب المرزاب[4] .

وتعمل الأحواض لشرب الإبل وغيرها . وقد يوضع في وسطها حجر ، يكون مقياساً للماء ، يقال له (القداس) إذا غمره الماء رويت الإبل ، أو هـو حجر يطرح في حوض الإبل ، يقدّر عليه الماء ، يقتسمونه بينهم . وقيل هو حصاة ،

---

١ Carl Rathjens, Sabaeica, I, Teil, Hamburg, 1953, 113.

٢ المخصص (١٠/٤٩ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (١/١٤٧) ، (أزب) .

٤ تاج العروس (١/١٦٣) ، (ثعب) .

توضع في الماء قدر الري للابل ، أو يقسم بها الماء في المفاوز[1] .

وفي كتب اللغة ألفاظ عديدة أطلقت على الحوض ، بحسب شكله واتساعه وعمقه منها الحوض المركو . أما المقراة ، فالحوض العظيم . وأما الجرموز ، فالحوض الصغير ، وقيل هو حوض مرتفع الأعضاد . والنضيج الحوض ، وخصه بعضهم بالحوض الصغير . والجابية الحوض كذلك . وأما الشَّرَبة فالحوض يجعل حول النخلة يملأ ماء ، فيكون ري النخلة . والحضج الحوض[2] .

ويقال لموضع تجمع الماء ، والمكان الذي يخزن فيه فيكون على هيأة بحيرة صغيرة أو حوض (بحرت) ، (البحرة)[3] . ولا يزال أهل الشأم يطلقون لفظة (بحرة) على حوض الماء الذي يقيمونه في أفناء دورهم ، للتمتع بمنظره وبمنظر الماء الذي يتدفق منه . وقد يضعون الأسماك فيه . وقد وردت اللفظة في هذه الجملة : « وصرح ثبرن وبحرت بموثب احلين »[4] ، ومعناها : « وأعلى حصن ثبر ، والبحرة الكائنة في أسفل السلالم » . ويظهر ان أصحاب الحصن كانوا قد أقاموا (بحرة) عند قاعدة السلالم التي ترتقي الى الحصن،وذلك من أجل نقل الماء منها الى أعلى للاستفادة منه ، ولاحمائه وسكبه على المحاصرين في أثناء الحصار[5] .

والمقرى والمقراة كل ما اجتمع فيه الماء من حوض وغيره ، وخصه بعضهم بالحوض . وذكر بعضهم ، ان المقراة المسيل ، وهو الموضع الذي يجتمع فيه ماء المطر من كل جانب . وقيل المقراة شبه حوض ضخم يقرى فيه من البئر ، ثم يفرغ في المقراة . وقريّ الماء مسيله من التلاع ، أو مجرى الماء في الروض[6] .

ويقال للموضع الذي يستنقع فيه الماء ، أي يجتمع : (النقيع) ، فإذا نضب الماء نبت فيه الكلأ[7] . و (المنقع) الموضع الذي يستنقع فيه الماء ، أي

---

١ تاج العروس (٤/٢١٣) .
٢ المخصص (١٠/٤٩) .
٣ « والبحرة مستنقع الماء » ، تاج العروس (٣/٢٨ وما بعدها) ،
Glaser 1144, Halevy 353, Rep. Epigr. 647, II, p. 75.
٤ راجع نهاية الفقرة الثالثة من النص : Glaser 1144, Halevy 353.
٥ Rhodokanakis, Stud. Lexl., II, S. 73.
٦ تاج العروس (١٠/٢٩٠) ، (قرى) .
٧ ارشاد الساري (٤/٢٠٦) .

يجتمع[١] . و (الحيل) الماء المتنقع في بطن وادٍ[٢] .

ويقال لموضع تجمع المياه في خزانات صغيرة لخزنها فيها وتوزيعها على السواقي (مزف) . تأتي المياه اليها من خزانات أخرى أكبر منها . فتخزن فيها لإعادة توزيعها . والفعل هو (زف) من (زفف) . وتطلق لفظة (زف) على مواد عمل ما . وأما العمل نفسه فيقال له (فعل)[٣] .

وقد أشير في نصٍ الى وجود (هور) أمـام (محفد) ، اي حصن : (بقنو هور محفدهمو ذ معينن)[٤] ، ومعناها : (أمام هور محفدهم « حصنهم » ذي المعين) . و (هور) في هذه الجملة هو (الهور) في عربيتنا . وهو (بحيرة تغيض فيها مياه . فتتسع ويكثر ماؤها) ، ويجمع على أهوار[٥] . أما في النص ، فلا يراد به هذا المتسع الواسع من الماء ، بل يراد به حوض أو متجمع من الماء أوسع من البحرة ، كان أمام الحصن[٦] .

وقد وردت لفظة (بركتن) أي البركة في اللهجات العربية الجنوبية كذلك ، ووردت لفظة أخرى هي (عسن) يظهر أنها تعني بركة كبيرة أو صهريج ماء تحت الأرض ، أو جملة برك تتصل بمأخذ أو مآخذ ، تتجمع فيها المياه[٧] . وقد ذكر علماء اللغة أن البركة مثل الحوض يحفر في الأرض لا يجعل له أعضاد فوق صعيد الأرض . ويسمي العرب الصهاريج التي سويت بالآجر وصرجت بالنورة في طريق مكة ومناهلها بركاً . وربّ بركة تكون ألف ذراع وأقل وأكثر . وأما الحياض التي تسوى لماء السماء ، ولا تطوى بالآجر ، فهي الأصناع واحدها صنع[٨].

وقد طليت جدران البرك الجاهلية بمادة متماسكة قوية ، ترى اليوم وكأنها قد فرغ منها من عهد قريب . فلم تتشقق ولم تصب بتلف إلا قليلاً . فيهـا فتحات عملت لمرور الماء منها الى السواقي . وقد استعمل مثل هذه البرك لخزن الماء وللارواء

---

١ تاج العروس (٥/٥٣٠) ، (نقع) .
٢ تاج العروس (٧/٢٩٨) ، (حيل) .
٣ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 100.
٤ Langer I, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 37.
٥ تاج العروس (٣/٦٢٤) ، (هور) .
٦ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 37.
٧ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 114.
٨ تاج العروس (٧/١٠٦) ، (برك) .

في الوقت نفسه.وتمكن الاستفادة منها إذا ما نظفت من المواد الزائدة التي تراكمت فيها وأدخلت عليها بعض الإصلاحات[1] .

و (الأضاة) الغدير ، والماء المستنقع من سيل أو غيره[2] . والغدير مستنقع الماء ، ماء المطر صغيراً كان أو كبيراً ، غير أنه لا يبقى الى القيظ إلا ما يتخذه الناس من عد ووجد أو وقط أو صهريج أو حائر . والعدّ الماء الدائم الذي لا انقطاع له . ولا يسمى الماء الذي يجمع في غدير أو صهريج أو صنع عداً ، لأن العدّ ما يدوم مثل ماء العين والركية[3] . ويعبر عن (الغدير) بـ (النهي) ، وقيل النهي الغدير حيث يتحير السيل فيوسع ، وكل موضع يجتمع فيه الماء أو الذي له حاجز ينهى الماء أن يفيض منه[4] .

وفي كتب اللغة ألفاظ عديدة أطلقت على النهيرات والسواقي المتفرعة منها . ومنها الشراج ، جمع شرج،وهي مسايل الماء من الحَزْن الى السهل . والأربعاء، وهي مسايل ومساقي يسقى منها النخيل والبساتين ، ويزرع على جانبيها[5] . وأما (الجعافر) ، فقيل : (الجعفر) النهر ، وقيل هو النهر الصغير ، وقيل هو النهر الكبير الواسع : وقيل النهر الملآن ، أو فوق الجدول[6] .

ويقال للجدول الربيع في عربية القرآن الكريم ، ويجمع على (أربعاء)[7].وأهل المدينة يغرسون الشجر على جانبيه . ويقال له أيضاً (السعيد) . ويراد به النهير الذي يسقي المزرعة . وقد ورد في الحديث : « كنا نزارع على السعيد »[8] . و (الجدول) النهر الصغير[9] . ويقال لأوائل الجداول (أقبال الجداول)[10] . وأما السواقي بين الزروع ، فتسمى (دبار)[11] .

---

١ Sabaeica, I, S. 84.
٢ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٦) .
٣ تاج العروس (٣/٤٤١) ، (غدر) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٨١) ، (نهى) .
٥ عمدة القارىء (١١/٢٠٠ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٣/١٠٤) ، (جعفر) .
٧ تاج العروس (٥/٣٤٢) ، (ربع) ، جامع الاصول (١١/٣٧٠ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (٢/٣٧٨) ، « سعد » .
٩ تاج العروس (٧/٢٥٤) ، (جدل) .
١٠ جامع الاصول (١١/٤٧٨) .
١١ تاج العروس (٣/٢٠٠) ، « دبر » .

ويطلق أهل اليمن على ساقية الماء والجدول الصغير (الغيـلّ) ، وهي من الألفاظ القديمة المستعملة في الري . وفي اليمن جملة أغيال ، يقل ماؤها عنـد انحباس المطر ، ويزداد عند هطوله في مواسمه . ويشرب أهل صنعاء من مياه الغيل المسمى (الغيل الأسود) ، ويزرعون عليه[1] . وذكر علماء اللغة ان الغيل المـاء الجاري على وجه الأرض ، وقال بعضهم ما جري من المياه في الأنهار والسواقي . وأما الذي يجري بين الشجر ، فهو (الغلل) . « وفي الحديث ما سقي بالغيل ففيه العشر ، وما سقي بالدلو ، ففيه نصف العشر »[2] .

الأودية :

والأودية هي من أهم مناطق الماء والخصب في جزيرة العرب ، وذلك لوجود الماء بها قريباً من سطح الأرض في الغالب ، وقد يخرج الى وجه الأرض . ولهذا نجد فيها مواضع عديدة خصبة ذات مزارع ونخيل منتشرة كأنها الجزر في البحار. وهي في الأصل مسايل ماء ، حفرتها الأمطار والسيول المنهمرة على الجبال والهضاب والتلال ، في سيرها نحو الأماكن المنخفضة ، وعملت لها منافذ سارت مياهها منها. و (الوادي) ، هو (سر) (س ر) في العربية الجنوبية[3] . وذكر علـماء اللغة أن (السرّ) بطن الوادي وأطيبه وأفضل موضع فيه ، وكذلك سرارة الوادي، أي بالمعنى الوارد من اللفظة في المسند ، أو قريب منه[4] .

ومن أودية جزيرة العرب : وادي الحمض ، ووادي الدواسر ، ووادي الرمة، ووادي حنيفة ، ووادي تبالة ، ووادي رنية ، ووادي تربـة ، وغيرها مما يرد في كتب (الجغرافيا) وما ألّف في وصف جزيرة العرب ، أو وصف بقاعها، وفي كتب البلدان .

ولهذه الأودية فضل لا ينكر في ظهور مواطن الحضارة في جزيرة العـرب ، ففي بواطنها وعلى جانبيها قامت مواطن استيطان منها نبتت الحضارة الأعرابيـة

---

١ تاج العروس (٨/٥٣) ، العظم (١/٨٥ ، ١٠٣) .
٢ تاج العروس (٨/٥٣) ، (غيل) .
٣ Mordtmann und Mittwoch, Alt. Sab. Inschr., S. 9.
٤ تاج العروس (٣/٢٦٣) ، (سرر) .

في جزيرة العرب ، حضارة تمثل مرحلة متقدمة بالنسبة الى الحياة الأعرابية، عمادها الزراعة وتربية الحيوان . وهي تثبت للمرء بجلاء ان سبب انتشار الأعرابيــة في جزيرة العرب ؛ هو الجفاف الذي غلب عليها وندرة وجود الماء بها ، وان الماء لو توفر بها ، لكان نصيبها في الحضارة مثل نصيب غيرها من البلاد التي تقدمت في ايامها وازدهرت ، فلما ظهر الماء في هذه المواضع ، ظهر السكن والاستقرار ، ولو رزق العرب سكان جزيرة العرب ما رزق غيرهم من جو طيب، ومن أرض خصبة ذات أنهار وماء ، كان شأنهم غير هذا الشأن ولا شك .

ويقال للوادي (العقيق) . وذكر أن العقيق كل مسيل شقه ماء السيل فأنهره ووسعه [1] . أي في معنى وادي . والأعقة من مواضع الخصب والزرع في جزيرة العرب ، إذ تكون المياه فيها قريبة من سطح الأرض . منها عقيق اليمامة ، وهو وادٍ واسع مما يلي العرمة ، تتدفق فيه شعاب (العارض) ، وفيه عيــون عذبة الماء ، وموضع بتهامة ، وموضع بنجد ، يقال له عقيق القنان ، تجري اليه مياه قلل نجد وجباله ، والعقيق ، ستة مواضع أخر ، وهي أودية شقتها السيل عادية منها عقيقان في بلاد بني عامر من ناحية اليمن . ومن الأودية المشهورة : وادي العتيق بالحجاز [2] . و (العرمة) أرض صلبة تتاخم الدهناء ويقابلها عارض اليمامة [3] .

والأودية هي من أخصب المواضع في جزيرة العرب ، حتى إن كانت جافة في معظم أيام السنة ، وذلك لخصب تربتها ، ولقرب الماء فيها من سطح الأرض، ولوجود العيون والبرك في بعض منها . وهي قبلة أنظار الأعراب والرعاة بعد نزول الغيث وامتلائها بالسيول ، إذ يظهر فيها الكلأ : وتبقى في حفرها المياه ، فتكون بركاً للشرب .

وقد زرع أهل وادي (مهزور) على مياهه ، ويستمد هذا الوادي ماءه من السيل ، وكذلك وادي (مذينيب) . ومن (مهزور) الى (مذينيب) شعبة يصب فيها [4] . ويسيلان بماء المطر خاصة ، و (مهزور) هو وادي (بني قريظة) ، وقد كان يحدث اختلاف فيما بين المزارعين في حقوقهم في المــاء ؛ ولا سيما في

---

١ تاج العروس (٧/١٥) ، (عق) .
٢ تاج العروس (٧/١٥) ، (عق) .
٣ تاج العروس (٨/٣٩٥) ، (عرم) .
٤ البلاذري ، فتوح (٢٣ وما بعدها) .

ايام انحباس المطر أو أيام نزوله بشح ، واستغلال أهل الأرضين العالية للسماء ، مما يسبب انقطاعه عن الأرضين الواطئة الواقعة على مسايله . وقد كان (مهزور) يهدد المدينة بالغرق عند سقوط الأمطار بشدة وتكوينها سيولاً طاغية ، ولما هدد المدينة بالغرق في خلافة (عثمان) اتخذ له ردماً[1] . وقد هدد المدينة مراراً بالغرق، ولما كاد ان يغرقها سنة (١٥٦ هـ) حفرت الحكومة له منسوباً ، غاص منه الماء الى وادي بطحان[2] . وقد قضى الرسول في سيل (مهزور) ان لأهل النخل الى العقبين ، ولأهل الزرع الى الشراكين ، ثم يرسلون الماء الى من هو أسفل منهم[3].

و (بطحان) هو أحد أودية المدينة الثلاثة ، وهي العقيق وبطحان وقناة[4] .

الأنهار :

وليس في جزيرة العرب أنهار كبيرة بالمعنى المعروف من لفظة نهر ، مثل نهر دجلة أو الفرات أو النيل ، بل فيها أنهار صغيرة أو جعافر . وهي لذلك لم تستفد من نعم الأنهار الكبيرة التي نعمت بها البلاد الأخرى ، ولم تسعد بسبب ذلك بظهور المجتمعات الكبيرة بها ، ولا بظهور الحضارة فيها ، لأن الحضارة الراقية لا تكون ولا تنمو إلا في المجتمعات الكبيرة ، حيث تتوفر بها بذور الحضارة والثقافة ، ولا تظهر هذه البذور مع وجود الجفاف وفقدان الماء أو قلته .

ومن الأنهار الصغيرة التي نجدها في اليمن نهر الخارد . وكان السهل الذي عاش فيه المعينيون،وبنوا فيه عاصمتهم يسقى بهذا النهر ، وتنبت فيه مختلف النباتات والزروع ، وكان يصل الى مقربة من العاصمة وربما تجاوزها الى مواضع أخرى ؛ ولا تزال هذة المنطقة تعدّ من المناطق الزراعية الجيدة ؛ وقد تحول قسم منها بسبب الجفاف الذي حلّ بها الى مناطق تعلوها كثبان رملية ، ومناطق قاحلة ، بعد ما كانت من أجود الأرضين لأهل معين[5] .

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٤) .
٢ البلاذري ، فتوح (٢٤) .
٣ تاج العروس (٣/٦٢٠) ، (هزر) ، البلاذري ، فتوح (٢٤) .
٤ تاج العروس (٢/١٢٥) ، (بطح) .
٥ محمد توفيق ، آثار معين في جوف اليمن (ص ٤ وما بعدها) ، من منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، سنة ١٩٥١ م .

ومن أنهار اليمن الأخرى ، مَوْر ، وهو من أغزر أنهار اليمن ماءً وأكبرها، وهو بالقرب من وادي (صبيا) . ينبع من جبال الهضبة الى جنوبي صعدة ، وتصب فيه أودية من (عمران) و (حجة) ، ويمر من جبال (حجة) وجبال (حجور) في اتجاه البحر الأحمر حيث يصب به شمال (اللحية) . وتجري الأقسام الشرقية من هذا النهر في أكثر أيام السنة [1] .

وسُردد ، واد متسع بتهامة اليمن ، مشتمل على قرى ومدن وضياع [2] . ويتألف من فروع تنبع من جبال (كوكبان) ومن جبال حضور وحراز ، ويصب في البحر الأحمر شمال (الحديدة) [3] . ووادي سهام واد ينبع من جبال خولان وآنس ، ماراً بجنوبي جبال حراز ، ثم يصب في البحر الأحمر جنوبي الحديدة [4]. وبه مياه حارة [5] . ووادي (أذنة) من أودية سبأ ، وهو الذي كان يموّن سد مأرب بالماء . ومن أودية اليمن الأخرى : رزان ، و (رمع) (رماع) ، وهو متصل بوادي سهام ووادي مور ، مشتمل على عدة قرى [6] ، وشرس ، و (ريمة) و (زبيد) . وتعرف هذه الأنهار بـ (وادي) في اصطلاح أهل اليمن [7] .

و (الدبل) الجدول من جداول الأنهار . وانما سميت الجداول دبولاً لأنها تدبل ، أي تصلح وتجهز وتنقى . ومنه الحديث انه غدا الى النطاة ، وهي من حصون خيبر ، وقد دل على مشارب كانوا يسقون منها دبول . كانوا ينزلون اليها بالليل فيتروون من الماء ، فقطعها ، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى أعطوا بأيديهم [8].

وتكرى الأنهار وموارد المياه الأخرى ، لاستخراج الطمي منها ولتعميقها حتى

---

١ تاج العروس (٣/٥٥٠) ، (مار) ، زيد بن علي عنان ، تاريخ اليمن القديم (ص ١٠) ، (المطبعة السلفية) ، (القاهرة) .

٢ تاج العروس (٢/٣٧٥) ، (سرد) .

٣ تاريخ اليمن القديم (١١) .

٤ تاريخ اليمن القديم (١١) .

٥ الصفة (١٠٥) .

٦ تاج العروس (٥/٣٦٢) ، (رمع) .

٧ الدكتور احمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها (ص ٥) .

٨ تاج العروس (٧/٣١٧) ، (دبل) .

لا يسيل الماء على حافات مورد الماء[1] . وكانوا يكرونها بالمساحي، ويرمون الطمي على الجانبين .

وإذا جرى الماء على وجه الأرض قيل له (السيح) . وباليمامة ثلاثة أودية بأقصى العرض ، عرف كل واحد منها بسيح ، ونسب الى أهله أو مكانه[2] . وقد أشار (الهمداني) الى « السيح يجري تحت النخل والآبار »[3] ، وقصد به الماء الجوفي . وأشار الى (سيح الغمر)[4] والى سيح دعاه سيح ابن مربع ، ذكر أنه كان غزيراً ثم انقطع بضعف أهله[5] . وذكر اسم سيح آخر دعاه سيح قشير ، ويسمى أيضاً بسيح اسحاق[6] .

الحسي :

وينتفع من الأحساء والرحاب في الزراعة، وذلك باستنباط مياهها الجوفية المنحسرة عن قشرة الأرض بمسافة غير بعيدة ، والتي قد تظهر على سطح الأرض وتسيل . والحسي سهل من الأرض يستنقع فيه الماء أو غلظ فوقه رمل يجمع ماء المطر . وفي جزيرة العرب أحساء كثيرة ، منها أحساء بني سعد بحذاء هجر بالبحرين ، وأحساء خرشاف ، بسيف البحرين ، وأحساء بني وهب ، على خمسة أميال من المرتمى فيه بركة ، وتسعة آبار كبار وصغار بين القرعاء وواقصة على طريق الحاج ، والأحساء ماء لغني ، والأحساء ماء باليمامة ، وأيضاً ماءة لجديلة طيء بأجأ[7] . والأحساء التي على الخليج ، هي من أهم هذه الحسي في الوقت الحاضر. وهي وحدة ادارية في المملكة العربية السعودية ، بها عيون تفيض ماء ، تروي بساتين النخيل والأشجار الأخرى .

و (البثر) يشبه الأحساء ، يجري تحت الحصى على مقدار ذراع أو ذراعين

---

١ تاج العروس (١٠/٣١٢) ، (كرى) .
٢ تاج العروس (٢/١٦٨) ، (السيح) .
٣ الصفحة (١٥٩) .
٤ الصفحة (١٥٠) .
٥ الصفحة (١٤٨) .
٦ الصفحة (١٦٠) .
٧ تاج العروس (١٠/٨٩) ، (حسى) .

ودون الذراع ، وربما أثارته الدواب بحوافرها [١] . والباثر من الماء البادي من غير حفر . والبثر أرض سهلة رخوة . وذكر بعض علماء اللغة ان البثور الأحساء وهي الكرار [٢] . وذكر بعضهم ان (الكرار) البئر ، أو الحسي ، أو موضع يجمع فيه الماء الآجن [٣] .

وقد تنبع العيون في مواضع رملية ، فلا تمكن الناس من الاستفادة من المـاء فائدة كبيرة تخرج من جوف رمل من أعذب ما يكون من العيون وأكثرها ماءً ، تجري في رمل فلا تمكن الزرّاعين عليها إلا في مواضع يسيرة من أحناء الرمل ، فيها نخيل ، وتتخذ البقول والبطيخ ، وتسمى هذه العين (البحير) [٤] .

وتكون تربة الرحبة خصبة ، ولهذا صارت مواطن صالحة للزراعة لو استنبطت مياهها التي في جوف الأرض القريبة من السطح ، لأفادت في توطين الأعراب . والرحبة في تعريف علماء اللغة « من الوادي مسيل مائـه من جانبيه فيه . جمعه رحاب . وهي مواضع متواطئة يستنقـع الماء فيها ، وهي أسرع الأرض نباتاً ، تكون عند منتهى الوادي وفي وسطه ، وقد تكون في المكان المشرف يستنقع فيها الماء وما حولها مشرف عليها ، ولا تكون الرحاب في الرمل ، وتكون في بطون الأرض وفي ظواهرها » [٥]. والرحبة الأرض الواسعة المنبات. ومن الرحاب المشهورة: (الرحبة) حذاء القادسية ، وواد قرب صنعاء ، وناحية بين المدينة وبلاد الشأم قرب وادي القرى ، ورحبة باليمامة ، تعرف برحبة الهدّار ، وصحراء بها أيضاً فيها ماء وقرى [٦] . وقد وجدت كتابات جاهلية في بعض هذه الرحاب ، تشير الى سكن أناس فيها ونزولهم هناك قبل الاسلام .

والنُقرة الوهدة المستديرة في الأرض ليست بكبيرة يستنقع فيها الماء [٧] .

و (الحفر) الموضع فيه ركايا محفورة ، يستقى منها الماء . منها (حفر ضبّة) ، وهي ركايا بناحية (الشواجن) بعيدة القعر عذبة المـاء [٨] . والشواجن ، واد

---

١ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤١٠ ، ٤٢١) ، تاج العروس (٢٥/٣) ، (بثر) .
٢ تاج العروس (٢٥/٣) ، (بثر) .
٣ تاج العروس (٥١٩/٣) ، (كرّ) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٨) .
٥ تاج العروس (٢٦٨/١) ، (رحب) .
٦ تاج العروس (٢٦٨/١) ، (رحب) .
٧ تاج العروس (٥٨١/٣) ، (نقر) .
٨ تاج العروس (١٥٢/٣) ، (حفر) .

كبير بديار ضبة في بطنه أطواء كثيرة ، منها الصاف واللهابة وثبرة ، ومياهها عذبة[1] . ومنها (حفر سعد بن زيد مناة بن تميم) ، بحذاء (العرمة) وراء الدهناء يستقي منها بالسانية[2] .

و (القلت) النقرة في الجبل تمسك الماء ، وقيل كل نقرة في أرض يستنقع فيها الماء . وإذا سالت السيول ملأت القلات . وفي الحديث ذكر لقلات السيل[3]. ومثلها (الوقب) . وهي نقرة في الجبل أو في الصخر يجتمع فيها الماء كالوقبة، أو هي نحو البئر في الصفا تكون قامة أو قامتين يستنقع فيها ماء السماء[4] .

الآبار :

وفي الأماكن التي تكون المياه الجوفية فيها غير بعيدة عن سطح الأرض،ويكون من السهولة حفر الآبار فيها ، يحفر الناس آباراً في بيوتهم وفي أملاكهم للشرب والزرع إن كانت عذبة وللتنظيف والاستعمال . ويستعان بالخدم وبالسقائين في جلب مياه الشرب من الآبار العذبة والعيون والنهيرات . كما حفروا الآبار في الحصون. وقد كانت في حصن الهجوم بئر عظيمة عميقة ، عذبة الماء . وقد بني الحصن من حجارة ضخمة ذكر أن طول الحجر منها سبع أذرع في عرض ثلاثة أذرع ، وأقام أصحابه عليه الأسوار والأبراج . وقد فتح في أيام الرسول[5] .

و (البئر) هي (بار) في كتابات المسند . والجمع (ابار) أي (آبار) . وقد وصلت الينا نصوص عديدة في حفر آبار أو في شرائها وبيعها ، وفي تعميرها وإصلاحها . وهي ثروة ورأس مال كبير في جزيرة العرب،تحيي الأرض وتميتها. وتفني الناس وتميتهم ، ولذلك كانوا اذا حفروا بئراً أو اذا ظهرت لهم مياه عذبة غزيرة ، يقدمون الى آلهتهم الشكر والحمد والنذور. وقد أقامت الآبار الكبيرة العميقة العذبة مدناً . وأماتت مدناً بسبب نضوب مياهها وجفافها ، وهي على هذه الأهمية الخطيرة الى الآن .

---

١ تاج العروس (٩/٢٥١) ، (شجن) .
٢ تاج العروس (٣/١٥٢) ، (حفر) .
٣ تاج العروس (١/٥٧٢) ، (قلت) .
٤ تاج العروس (١/٥٠٥) ، (وقب) .
٥ ابن المجاور (١/٢١) .

وللأهمية المذكورة للآبار في حياة العرب ، كثرت في لغتهم المصطلحات الخاصة بها ، من أسماء لأنواع الآبار ومن مصطلحات للحفر ولوسائل الحفر ، ومن ألفاظ للمواد التي تستعمل في بناء البئر وفي استخراج الماء منها ، ومن كلمات تشير الى أبعاد البئر ، ومقدار ما فيها من ماء ، وأبعاد أفواهها . ومن أسماء البئر (الطوى) و (الطوية) ، اذا بنيت بالحجارة [1] . و (الجب) ، البئر ، وقيل البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر ، ولا تكون جباً حتى تكون مما وجد ، لا مما حفره الناس [2] . و (القليب) البئر ما كانت . وقيل : البئر قبل ان تطوى ، فإن طويت فهي الطوي ، أو العادية القديمة منها التي لا يعلم لها رب ولا حافر يكون في البراري [3]. وقد عرفت بـ (الرس) كذلك [4] .

ومن أنواع الآبار التي ذكرها علماء اللغة : الشبكة ، ويراد بالشبكـــة الآبار المتقاربة والأرض الكثيرة الآبار . وأما (الفُقُـــر) ، فهي ركايا تحفر ثم ينفذ بعضها الى بعض حتى يجتمع ماؤها في ركي . واذا اجتمعت ركايا ثلاث فما زاد الى ما بلغ من العدة قيل له (فقير) ، ولا يقال ذلك لأقل من ثلاث . وورد ان الفقير فم القناة ، والمكان السهل تحفر فيه ركايا متناسقة ، وفم القناة التي تجري تحت الارض ، ومخرج الماء منها [5] . وأما (الكظامة) ، فإنها بئر الى جنبها بئر بينهما مجرى في بطن الارض . وقيل : كل ما سددت من مجرى ماء أو باب أو طريق ، فهو كظم ، والذي يسدّ به الكظامة . وقيل : هي آبار متناسقة تحفر ويباعد ما بينها ، ثم يخرق ما بين كل بئرين بقناة تؤدي الماء من الأولى الى التي تليها تحت الأرض فتجتمع مياهها جارية ثم تخرج عند منتهاها فتسيـــح على وجه الأرض [6] .

و (الجفر) البئر التي ليست بمطوية ، وتجمع على جفار . وأما (الجدّ) ، فالبئر الجيدة الموضع من الكلأ ، والجمع أجداد ، والملك البئر ينفرد بها الرجل ،

---

١ تاج العروس (٢٢٩/١٠) ، (طوي) .
٢ تاج العروس (١٧٢/١) ، (جبب) .
٣ تاج العروس (٤٣٧/١ وما بعدها) ، (قلب) .
٤ المخصص (٢٤/١٠) .
٥ تاج العروس (٤٧٤/٣) ، (فقر) .
٦ تاج العروس (٤٧/٩) ، (كظم) ، المخصص (٣٤/١٠ وما بعدها) .

والبود البئر كذلك[1] . والسهبرة من أسماء الركايا[2] . و (القليب) البئر ما كانت ، والبئر قبل ان تطوى ، فإذا طويت فهي (الطوي) ، أو العادية منها التي لا يعلم لها رب ولا حافر يكون في البراري[3] . و (الطوي) البئر المطوية بالحجارة[4] .

ومن المواضع التي عرفت بأطوائها موضع (الأطواء) باليمامة ، قرب (قر قرى) ، ذو نخل وزرع كثير[5] .

وقد تكون الآبار ذات مياه غزيرة كبيرة ، تخص المدينة بأسرها ، أو القبيلة بأسرها ، وقد تكون ملك أسرة تستغلها الأسرة لحسابها ، أو ملك فرد يستفيد منها مباشرة أو يبيع مياهها للناس،لاسقاء الأرضين أو الماشية . وقد تباع لأشخاص آخرين ، وقد تؤجر . وطالما كانت الآبار مصدر نزاع خطير بين القبائل وسبباً في إثارة الحروب .

و (العِدّ) البئر لها مادة من الأرض ، فهي كثيرة الماء دوماً ولا تنزح . وأما (المفهاق) فإنها البئر الكثيرة الماء ، و (الغروب) الدلاء ، واحدها (غرب) وهي التي تجرها الإبل ، و (الاسجل) الواسع من الدلاء بمائها ، والغَلَل الماء الجاري يجري تحت النخيل،و (اليعبوب) النهر الجاري وتسلسله مضيه في جريته. و (الخسف) البئر ذات الماء الكثير[6] .

وقد اشتهرت بعض الآبار بغزارة مياهها ، ذكر (الهمداني) أن (بئر النقير) بناحية البحرين « على عشر قِيَم لا تنكش ، ويجتمع عليها كثير من ورّاد العرب وربما سقى عليها عشرة آلاف بعير »[7] . وهناك آبار أخرى عرفت بغزارة مياهها .

وقد يحفرون سلسلة آبار يخرق أسافلها ، ليفرغ بعضهـا في بعض من موضع الماء . مثل (الهباءة) . وكانوا يزرعون عليها الحنطة والشعير وما أشبه[8] .

---

١ تاج العروس (٢/٣٠٧) ، (البود) .
٢ تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـواد علي (٨/٣٢٣ وما بعدها) ، تـاج العروس (٣/٢٨٥) ، السهبرة) .
٣ تاج العروس (١/٤٣٧ وما بعدها) ، (قلب) .
٤ تاج العروس (١٠/٢٢٩) ، (طوى) .
٥ تاج العروس (١٠/٢٢٩) ، (طوى) .
٦ العمـدة (٩٤) .
٧ الصفـة (١٦٣) .
٨ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٥) .

ولم يكن من السهل في ذلك الزمن حفر الآبار ، لعدم توفر الآلات والأدوات الفنية . فإن حفر البئر الى عمق بعيد الغور كما تتطلبه الأماكن المرتفعة يحتاج الى آلات كثيرة والى علم وتدبير وفن وذكاء في محافظة جدران البئر من الانهيار على الحفّارين ، وعلى الماء بعد الانتهاء من الحفر ، فتندثر ويذهب المجهود في حفرها عبثاً . هـــذا ولا بد لمهندس الآبار من معرفة بطبيعة الأرض ومظنة وجود الماء فيها أو عدمه ومدى عمقه ، فلا يعقل اقدام شخص على حفر بئر في أرض لا يعرف من أمرها شيئــاً . وحفر البئر في النجاد عمل مكلف باهظ ، فلا بد إذن من تخصص أناس بهندسة الآبار ، ليقوموا بهذا العمل الذي لا يمكن القيام به ما لم يسنده علم وفهم .

وقد تخصص أناس بحفر الآبار وباختيار المواضع التي يحتمل وجود المياه العذبة بها . ولهم في ذلك علم ودراية وخبرة . وكانوا إذا قربوا من المـاء احتفروا بئراً صغيرة في وسط البئر بقدر ما يجدون طعم الماء ، فإن كان عذباً حفروا بقيتهـا ، ولذلك يقال (التعاقب) و (الاعتقام)[1] . فالاعتقام إذن عملية تجريبية لاختبار طعم ماء البئر وتجربته من حيث العذوبة والملوحة وعليها تتوقف عملية الحفر .

ومتى حفرت البئر ووصل الى الماء ، قيل : أمهت البئر ، وأموهت ، وأمهيت . ويقال ابتأرت بئراً ، أي حفرتها . ويقال أيضاً : حفــرت البئر حتى نهرت ، أي بلغت الماء . واذا بلغ الحفارون الأرض الغليظة قيـل : بلغت الكدية . واذا وصلوا موضعاً صعباً فصعب الحفر ، قيل : بلغ مسكة البئر . ويقال أجبلت ، أي انتهيت الى جبل . ويقال الصلود ، وهي الارض التي تحفــر فيغلب جبلها الحافر . فيصلد الحفر على الحافر لصعوبة الأرض . واذا حفر الحفارون حتى يبلغوا الطين ، فيقال عندئذ : أثلجت ، فإذا بلغ الماء ، قيل : أنبط ونبط . والنبط أول ما يظهر من ماء البئر حين تحفر . وإن بلغ الرمل ، قيل : أسهب ، وإن انتهى الى سبخة ، قيل : أسبخت . ويقال : تأثل البئر اذا حفرت البئر ، وهزمت البئر حفرتها[2] .

ويتحايل الحفارون في الحفر اذا فوجئوا بصخرة أو أرض صلدة ، تمنعهم من

---

١ تاج العروس (٨/٤٠٣) ، المخصص (١٠/٤١) .
٢ المخصص (١٠/٤٠ وما بعدها) .

الاستمرار في الحفر . خاصة اذا كانوا قد بلغوا عمقاً بعيداً في باطن الارض . وقد كلفهم الحفر صرف مال كثير ، فإذا تركوه أصيب صاحب البئر بخسارة ، لذلك يتحايل الحفارون على الأرض بالتعريج في الحفر ، يمنة ويسرة ، للعثور على موضع ينزلون منه الى موضع وجود الماء ، ويقولون لذلك : (التلجيف) . ويراد به الحفر في جوانب البئر[1] .

وقد تنقر آبار صغيرة ضيقة الرؤوس في نجفة صلبة ، لئلا تهشم ، ويقال لمثل هذه الآبار المناقر . وأما المنقر ، فيراد بها البئر التي يكثر فيها الماء[2] . وفي بعض المناطق الصخرية والجبلية آبار منقورة تتجمع فيها مياه جوفية تنحدر اليها من المواضع المرتفعة أو من مياه الامطار التي تتساقط على المواضع المرتفعة فتسيل الى أفواه تلك الآبار وتدخل اليها وتتجمع فيها ، فيستفيد منها الناس .

وفي جملة الألفاظ الواردة في الكتابات العربية الجنوبية والمستعملة في حفر الآبار وتوسيعها وتعميقها ، لفظة (حفر) ، وهي بالمعنى المفهوم منها في عربيتنا . ولفظة (سنبط) ، ويقصد بها معنى (استنبط) ، من (نبط) ويراد بها ظهور الماء واستخراجه من باطن الارض . وأما لفظة (سبحر)، فتعني (استبحر)، من أصل بحر ، بمعنى التعميق . ولا يزال حَفَرَةُ الآبار في العراق يستعملون لفظة تبحير البئر بمعنى تعميقها[3] . وفسرت لفظة (ضفر) ، بمعنى الدعم بالحجارة ، أي كسوة جدار البئر بالحجارة[4] .

وللمحافظة على البئر من الانهيار بسبب رخاوة جدرانها وتساقط المياه الممتوحة منها ، عمدوا الى زبرها من قعرها الى أعلاها بالحجارة . ويعبر عن هذا الجدار بلفظة (كولم) (كول) في المسند . وبـ (جول) في عربيتنا . ورد في كتب اللغة : « الجول : جدار البئر »[5] . ويقال لمثل هذه البئر (المزبورة) أي المطوية

---

١ تاج العروس (٦/٢٤٣) ، (لجف) ، المخصص (١٠/٤١) .

٢ المخصص (١٠/٤٦) ، تاج العروس (٣/٥٨١) ، (نقر) .

٣ « يوم حفر وسنبط وسبحر » ، بمعنى « يوم حفر واستنبط وعمق » ، أو « حين حفر واستنبط وعمق » ، النقش رقم ١٦ المنشور في (ص ٢٣) من كتاب « نقوش خربة معين » .

٤ نقوش خربة معين (ص ٢٣) .

٥ تاج العروس (٧/٢٦٧) . Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 28.

بالزبر . وأما (المعروشة) ، فالتي تطوى قدر قامة من أسفلها بالحجارة ، ثم يطوى سائرها بالخشب وحـــده ، وذلك الخشب هو العرش . فإن كانت كلها بالحجارة ، فهي مطوية ، وليست معروشة . وهناك تعابير أخرى تشير الى تبطين البئر وكساء جدرانها بمواد مقوية تمنعها ان تنهار . فإذا بنيت البئر بالحجـارة ، قيل بئر مضروسة وضريس ، وهو ان يسدّ ما بين خصاص طيّها بحجر ، وكذلك سائر البناء . ويقال الأعقاب للخزف الذي يُدخّل بين الآجر في الطي لكي يشتد. والوَسْب خشب يُطوى به أسفل البئر اذا خافوا ان تنهال ، والجمع الوسوب[1] . والحامية الحجارة تطوى بها البئر[2] .

وهناك ألفاظ عديدة ذكرها علماء اللغة للآبار التي تكثر مياهها أو تقل . فورد: بئر غزيرة بمعنى كثيرة الماء ، وورد بئر ميهة وماهة إذا كثر ماؤها ، والعيلم البئر الكثيرة الماء . والخَسيف التي تحفر في حجارة فلا ينقطع ماؤها كـــثرة ، وهي التي خسفت الى المـــاء الواتن تحت الارض ، ويقال بئر سجر ومسجورة بمعنى مملوءة ، وبئر ذات غيث أي مادة . والقيلذم ، البئر الكثيرة الماء ، وبئر مقيضة كثيرة الماء قد قيضت عن الجبل . والبئر الماكدة التي يثبت ماؤها على قرن واحد لا يتغير ، وإن كثر منها ، وان وضع عليهـــا قرنان أو أكثر ، غير أن ذلك إنما يكون على قدر ما يوضع عليها من القرون بقدر مائها ، وبئر مكود وماكدة لا تنقطع مادتها ، والهزائم الآبار الكثيرة الماء ، وبئر زغربة كثيرة الماء ، وبئر ذمة وذميم وذميمة كثيرة الماء كذلك ، والنقيع البئر الكثيرة الماء[3] .

ويقال حبض ماء البئر ، وذلك إذا انحدر ونقص ، ونكزت البئر أي قـــلّ ماؤها ، وبئر نزح ماء فيها ، وبئر مكول وهي التي يقلّ ماؤهـا فيستجم حتى يجتمع الماء في أسفلها ، واسم ذلك الماء المكْلَةُ ، وبئر قطعة وبئر ذمة قليلة الماء، وبئر ضهول قليلة الماء ، والخليقة البئر التي لا ماء فيها ، وقيل هي الحفـيرة في الارض المخلوقة ، والضّغيط بئر تحفر الى جنبها بئر أخرى فيقلّ ماؤها ، وبئر قَرُوع قليلة الماء وهي كالضنون سميت بذلك لانها تقرع قرعاً كلما فني ماؤها ،

---

١ تاج العروس (٥٠٣/١) ، (وسب) .
٢ المخصص (٤٢/١٠ وما بعدها) .
٣ المخصص (٢٧/١٠ وما بعدها) .

وبئر رشوح وبروض وبضوض قليلة الماء[١] .

وتستخرج المياه من الآبار بالدلاء ، تربط بالحبال الى الأعمدة المثبتة فوق البئر. ويقال للعمود (عمد) (عامود) والجمع (عُمُد) و (أعمد)[٢] . وأما (الدلو) وهو الوعاء أو القربة المصنوعة من الجلد في الغالب ، فيقال له (علبت) و (علبم) في المسند[٣] ، تمتلىء بالماء حين دخولها في ماء البئر ، فتسحب وهي مملوءة بـه . فإذا بلغت موضع سكب الماء سحبت الى ذلك المكان لتفريغ مائها فيه ، فينساب الى (مسقيت) أي (مسقية) ، بمعنى الساقية لإرواء المزرعة ، أو لايصاله الى المدينة أو البيوت .

وأما الآلة التي تعلق عليها الدلاء والمتصلة بالأعمـــدة فتعرف بـ (اعرز) في المسند[٤] . ويقال للدولاب الذي يستقى عليه : المنجنون ، وذلك في عربيتنا [٥] .

ويقال لتفريغ الركية وأخذ ما فيها من ماء (حبض) في لغة المسند . وهي بهذا المعنى أيضاً في عربية القـرآن الكريم . والاحباض ان يذهب ماء الركية فلا يعود ، و (أحبض الركية) احباضاً ، فلم يترك فيها ماء[٦] .

ولا بد للدلاء من حبال قوية متينة تتحمل الاحتكاك بينها وبين البكرة وتساعدها في حمل الدلو . وهذه الحبال تتخذ من مواد مختلفة ، تفتل وتبرم ، والعادة ان يقوى الحبل بجملة حبال تبرم بعضها فوق بعض وتشد شداً قوياً لئلا تتهرأ بسرعة فينقطع . وقد يتكون الحبل الواحد من مجموع عشرة حبـال . أما مادة الحبـــل فالليف والخوص والجلود ولا سيما جلود الإبل والابق والمصاص ، وهو نبات ، ولحاء الشجر والقنب ، ومشاقة (السلْب) ، وهو ضرب من الشجر ينبت متسلقاً فيطول . ويؤخذ فيحل ثم يشقق فتخرج منه مشاقة بيضاء كالليف يتخذ منها أجود ما يكون من الحبال . وقد تصنع من القطن ومن ليف جوز الهند[٧] .

---

١ المخصص (١٠/٣٩ وما بعدها) .
٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 115, 152.
٣ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 132.
٤ CIH 303, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 131.
٥ تاج العروس (٩/١٦٦) ، (جنن) .
٦ تاج العروس (٥/١٨) ، (حبض) .
٧ المخصص (٩/١٧٠ وما بعدها) .

ولفتل الحبال تستعمل المغـــازل والمبارم ، لغزل الالياف وبرمها بعضها فوق بعض ، كما تستعمل بعض المواد المقوية للألياف مثل الزيوت لتحافظ عـــلى قوة الحبل وعلى تماسكه فتبقيه طرياً، فلا ينقطع بسهولة . وقد تخصص أشخاص بصناعة الحبال وعاشوا عليها ، وقد كانت ذات أهمية بالنسبة لذلك الزمن .

ويقال للدلو العظيمة : (الغرب) . ويتخذ من مسك ثور ، والغرب الراوية[١]. و (السانية) الغرب وأداته ، والناقة إذا سقت الارض ، وسنيت الدابة ، إذا استقى عليها ، والقوم يسنون لانفسهم إذا استقوا[٢] . والسنايـة والسناوة السقي ، وهو سان . والساني ، يقع على الرجل والجمل والبقر ، كما أن السانية على الجمل والناقة . والمسنوية ، البئر التي يسنى منها ، وركية مسنوية ، إذا كانت بعيـــدة الرشاء لا يستقى منها إلا بالسانية من الإبل[٣] .

وتستخدم الثيران والجمال والحمير والبغال في متْح الماء بالدلاء من الآبار الكبيرة الواسعة لسقي المزارع والبساتين والناس ، ويشرف على ذلك العبيـد أو الفلاحون أو أصحاب البئر . أما الآبار الصغيرة الخاصة بشرب الناس ، فيستخرج الماء منها الإنسان ، وتصب الدلاء المياه في أحواض أعدت لذلك ، لها منفذ يسيل منه الماء الى السواقي .

وقد تحمى البئر من الأدران ومن الأتربة ومن أخذ الماء منها ، بإقامة بنـــاء فوقها على هيأة غرفة ، فإذا أقيم ذلك على البئر عرف بـ (منشا) في المسند . وقد تؤدي هذه اللفظة معنى أخذ الماء وتوجيهه الى الجهة المراد ارسال الماء اليها بمجرى يأخذ ماءه من (فنوت)[٤] . وفسرت لفظة (ثقول) بمعنى تعليق . وتعليق شيء فوق بئر ، أو انشاء سقف فوقها لحماية البئر ولتعليق الأدوات التي يمتح بها الماء من البئر عليهـــا ، وذلك كما في هـــذه الجملة : (ابارسم وثقولسم) ، ومعناها : (وكل آبارهم وسقوفها) أو (وكل آبارهم والأعمدة المقامـة فوقها للاستقاء بها)[٥] .

---

١ تاج العروس (٤٠٥/١) ، (غرب) ، الخراج (٩٦) ، المبرد ، الكامل (٧٣٢/٢) .
٢ تاج العروس (١٨٥/١٠) ، (سنى) .
٣ تاج العروس (١٨٦/١٠) ، (سنى) .
٤ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 113.
٥ Kat. Texte, II, S. 28.

وتتعرض الآبار لسقوط الأتربة والرمال فيها ، وقد تنهـار جدرانها فينضب ماؤها ، ولا تمكن الاستفادة منها إلا بنزحها . ويقـال لنزح البئر جهرت البئر واجتهرت ، أي نزحت . وقيل المجهورة المعمورة منها عذبة كانت أو ملحة [1] . ولا بد من نزح هذه الآبار دائماً ، اذا أريد بقاء الماء فيها ، وإلا ذهب ماؤها وانتفت فائدتها ، فتترك وتهمل .

وتنظف الآبار بنزول الرجال فيها فيشد الرجل وسطه بالحبل ، ويترك طرفه في يد رجل ، أو مشدوداً بشيء ثابت قوي . ويقال لهذا الحبل (الجعار)[2] . وذكر ان (الجعار) حبل يشد به المستقي وسطه اذا نزل في البئر لئلا يقع فيها ، وطرفه في يد رجل ، فإن سقط مدّه به . وقيل هو حبل يشده الساقي الى وتد ثم يشده في حقوه[3] . وتعمل في جدر الآبار في العادة مواضع للأقدام متقابلة يضع النازل في البئر رجليه عليها ، تمكنه من النزول لمتح البئر ، واستخراج ما قد يتساقط فيها من أتربة ورمال ، أو لحفر قاعها لزيادة الماء فيها .

ويعبر عن انهيار البئر وسقوطها بألفاظ ، مثل : (صقعت) ، وانقاصت ، وانقاضت ، وانهارت ، وتنقضت ، وتجوخت ، وانقارت . والهدم ما تهدم من نواحي البئر في جوفها ، وانخسفت البئر ، تهدمت[4] .

وتنظف الآبار بالجُبْجبة ، تملأ بالأتربة وبالطين وبالأوساخ المتراكمة في قاع البئر وترفع ، وتصنع من جلود وأدم ، وهي نوع من الزبيل . ويستعمـل في التنظيف (الثوج) كذلك ، وهو زبيل ، يعمل من خوص ، يحمل فيـه التراب وغير ذلك . ويستعمل القفير كذلك ، وهو الزبيل بلغة أهل اليمن . ومن أسماء الزبيل أيضاً (الصن) وهو زبيل كبير ، والحفص زبيل صغير من أدم ، والعرق نوع من أنواع الزبيل . ويقال للخشبتين اللتين تدخلان في عروتي الزبيل اذا أخرج به التراب من البئر (المِسْمعان). وقيل المسمع العروة التي تكون في وسط المزادة[5].

---

١ المخصص (٣٩/١٠ وما بعدها) .
٢ المخصص (١٧١/٩) .
٣ قال أحدهم :
ليس الجعار مانعـي من القـدر ولـو تجعـرت بمحبـوك ممر
تاج العروس (١٠٢/٣) ، (جعر) .
٤ المخصص (٤٤/١٠) .
٥ المخصص (٤٥/١٠ وما بعدها) .

وتسحب الزبيل بحبال أعلى لاستخلاص ما فيها من تراب وطين ووسخ حتى تنظف.

ومن الالفاظ المعبرة عن تنقية البئر ونزولها وتنظيفها من الاوساخ والاتربة قولهم: نُثِلَتْ البئر ، أي أخرج ترابها ، واسم ذلك التراب النثيلة والنثالة والثلة والنبيثة. ويقال نبيثة النهر كذلك . وأما خمامة البئر ، فيراد بها ما كنس منهـا . ويقال جَهَرْتُ البئر ، بمعنى أخرجت ما فيها من الحمأة . وأما الشأو ، فما يخرج من ترابها ، وقد شأوت البئر نقيتها ، ويقال للذي يُخرج به المشآة ، ويقال أخرجت من البئر شأواً أو شأوين ، وهو ملء الزبيل من التراب . وجششت البئر أجشها جشاً ، أي كنستها . ونكشتُ البئر،أخرجت ما فيها من الحمأة والجيئة والطين[1].

وقد يتغير طعم مياه الآبار وألوانها لعوامل عديدة . وهناك مصطلحات عديدة ذكرها علماء اللغة للدلالة على فساد ماء البئر ونتنـه . مثل : المسيط والضّغيط ، والحمأة الطين الاسود المنتن ، وقد يحمىء ماء البئر فيكدر وتخالطه الحمأة فتتغير رائحته . وتنزع حمأة الآبار وتنظف ليمكن الاستفادة منها[2] . والجيئة والجيأة : البئر المنتنة[3] .

وقد كان أهل المدن والقرى يشربون من العيون ومن موارد المياه الطبيعيـة الاخرى إن كانت في قراهم عندها أو على مقربة منها ، كما كانوا يحتفرون الآبار في بيوتهم أو في خارجها للاستفـادة من مياهها ، فإن كانت عذبة فرحوا بهـا وشربوا منها . وكانت قريش قبل جمع قصيّ إياها وقبل دخولها مكة تشرب من حياض ومصانع على رؤوس الجبال ، ومن بئر حفرها (لؤي بن غالب) خارج الحرم تدعى (اليسيرة) ، ومن بئر حفرها (مرة بن كعب) تدعى (الروي)، وهي ما يلي (عوفة) ثم حفر (كلاب بن مرة) خم ورم ، و(الجفر) بظاهر مكة[4] ، وورد أن الذي حفر بئر (خم) هو (عبد شمس بن عبد مناف) ، حفرها بمكة[5] . وأن الذي حفر بئر (رم) هو (مرة بن كعب) أو (كلاب ابن مرة) حفرها بمكة[6] . وذكر أن (الجفر) بئر بمكة كانت لبني تميم بن

---

١ المخصص (١٠/٤٥) ، تاج العروس (٤/٣٥٩) ، (نكش) .
٢ تاج العروس (١/٥٨) ، (حمىء) .
٣ المخصص (١٠/٤٧) .
٤ البلاذري ، فتوح (٦٠) .
٥ تاج العروس (٨/٢٨٣) ، (خم) .
٦ تاج العروس (٨/٣١٨) ، (رمم) .

مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي[١] .

ثم إن (قصي بن كلاب) حفر بئراً سماها (العجول) واتخذ سقاية ، ثم إنه سقط في العجول بعد ممات (قصي) رجل فعطلت[٢] . وورد أن الذي احتفرها (قصي) أو (عبد شمس)[٣] . وحفر (هاشم بن عبد مناف) (بذر)،وهي البئر التي عند حطم الخندمة على فم شعب أبي طالب ، وهي لبني عبد الدار[٤]. وحفر (هاشم) أيضاً (سجلة) ، وقد دخلت في المسجد[٥] . وحفر (عبد شمس ابن عبد مناف) (الطوى) وهي بأعلى مكة ، و (الجفر) ، وحفر (ميمون ابن الحضرمي) (بئرة) ، وهي آخر بئر حفرت في الجاهلية بمكة . وعندها قبر (المنصور) . وورد أن (عبد شمس) حفر أيضاً بئرين وسماهما (خم) و (رم) ، على ما سمى (كلاب بن مرة) بئريه[٦] . فأما (خم) فهي عند (الردم) . وأما (رم) ، فعند دار (خديجة بنت خويلد)[٧] .

وحفرت بنو أسد بئر (شُفَيّة)[٨] . وحفر (بنو عبد الدار) (أم أحراد)، وقد أشير اليها في الحديث[٩] . وحفر (بنو جمح) (السنبلة) . وذكر ان الذي حفرها (بنو جمح) و (بنو عامر)[١٠] . وحفر (بنو سهم) (الغمر) ، وهي بئر (العاص بن وائل) . وحفرت (بنو عدي) (الحفير) . وحفرت (بنو مخزوم) (السقيا) ، و (بنو تيم) (الثريا) ، وهي بئر (عبدالله بن جدعان) . وحفرت (بنو عامر بن لؤي) (النقيع) ، وكانت لجبير بن مطعم بئر ، وهي بئر بني نوفل ، وكان عقيل بن أبي طالب ، حفر في الجاهلية بئراً،

---

١ تاج العروس (١٠٥/٣) ، (جفر) .
٢ البلاذري ، فتوح (٦٠) .
٣ تاج العروس (٨/٨) ، (عجل) .
٤ تاج العروس (٣٦/٣) ، (بذر) ، البلاذري ، فتوح (٦١) .
٥ البلاذري ، فتوح (٦١) .
٦ البلاذري ، فتوح (٦١) .
٧ وقال عبد شمس :
حفرت خمـا وحفـرت دمـا ... حتى أرى المجد لنا قـد تمـا
البلاذري ، فتوح (٦١) .
٨ البلاذري ، فتوح (٦١) ، تاج العروس (٢٠١/١٠) ، (شفى) .
٩ البلاذري ، فتوح (٦١) ، تاج العروس (٣٣٥/٢) ، (حرد) .
١٠ البلاذري ، فتوح (٦٢) ، تاج العروس (٣٨٣/٧) ، (سنبل) .

وهناك آبار أخرى غيرها ، ذكرها (البلاذري) في كتابه (فتوح البلدان)[1] .

وقد اشتهرت بعض الآبار وعرفت ، ، ولا تـزال معروفة نقـرأ أسماءها في الكتب . ومن أشهرها (بئر زمزم) ، ذات الشهرة البعيدة ، بسبب مكانتها من الكعبـة ، وبئر (طوى) . وهي بئر حفرها عبد شمس بن مناف[2] . وبئر (ذروان) ، وهي لبني زريق ، جاء ذكرها في حديث سحر النبي[3] . و (بئر رومة) ، وهي ليهودي كان يبيع الماء منها للناس ، وقد حصل على مال كثير منها ، وكان اذا غاب ، قفل عليها بقفل ، فلا يستطيع أحد أخـذ الماء منها . فشكا المسلمون ذلك الى الرسول ، فقـال : « ومن يشتريهـا ويمنحها للمسلمين ويكون نصيبه كنصيب أحدهم ، فله الجنة » . فاشتراها (عثمان) بخمسة وثلاثين ألف درهم ، فوقفها[4] .

وبيثرب وأطرافها آبار عديدة ، كان يستقي منها أهلهـا للشرب ، منها بئر (غرس) . ويظهر انها كانت من أجود وأحسن آبار يثرب . وقد ورد ذكرها في الحديث ، حيث ورد : نعم البئر بئر غرس ، هي من عيون الجنـة . وغُسّل رسول الله منها[5] . وذكر انها كانت بقباء ، وانه برك فيها[6]. ويستقى منها على حمار[7] . ومنها بئر (مالك بن النضر بن ضمضم) ، وهي التي يقال لهـا بئر (أبي أنس)[8] . ولمـا نزل الرسول منزل (أبي أيوب) ، كان أبو أيوب يخدمه ويستعذب له هذه البئر[9] . ولما صار الرسول الى منزله ، كان خدمه يحملون قدور الماء الى بيوت نسائه من بئر السقيا ، ومن بئر غرس[10] .

وبئر (بضاعـة) بئر معروفة بالمدينة ، قطر رأسها ستة أذرع ، وهي في بستان ، وكان أهل يثرب يطرحون فيها خرق الحيض ولحوم الكلاب والمنتن[11] .

---

١ (من ص ٢٦ فما بعدها) .
٢ تاج العروس (١٠/٢٢٩) ، (طوى) .
٣ تاج العروس (١٠/١٢٦) ، (ذرو) .
٤ المعارف (ص ٨٣) .
٥ تاج العروس (٤/٢٠١) ، (غرس) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣) .
٩ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٤) .
١٠ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٤) .
١١ تاج العروس (٥/٢٧٨) ، (بضع) .

وكان أهل العربية الغربية يحفرون حفراً ، يجعلونها كالبئر ، يلقون بها الجيف وما شاكلها . وذكر أن (الجباجب) ، حفر بمنى كان يلقى بها الكروش ، كروش الأضاحي في أيام الحج ، أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا ، والعرب تعظمها وتفخر بها [1] . وقد ورد أن الرسول كان يشرب من بئر (بضاعة) وأنه بصق فيها وبرك [2] . وأن خيل رسول الله كانت تسقى منها ، وأن أهل المدينة كانوا يغسلون مرضاهم بمائهــا ، لاعتقادهم أنه يشفي من المرض [3] . ولعل قصة رمي الجيف والمنتن بها من القصص الموضوع المصنوع ، أو أن ذلك حدث فيما بعد ، حين أهمل شأنها ، فلم يعد الناس يستقون منها ، فاتخذت موضعاً يرمى فيه الجيف .

ومن بقية الآبار (البُقْع) وقيــل هي السقيا التي بنقب بني دينار ، وبئر (جنب) ، وبئر (جاسم) ، بئر أبـي الهيثم بن التيهان براتج [4] ، وبئر (العبيرة) ، بئر (بني أمية بن زيد) ، وقد شرب منها الرسول وسماها (اليسيرة) [5] . وبئر (رومة) بالعقيق ، وكانت لرجل من مزينة يسقى عليها بأجر ، فقـال رسول الله : نعْمَ صدقة المسلم هذه من رجل يبتاعها من المزني فيتصدق بها [6] . وكان المزني ، قد ضرب خيمة الى جنب البئر ، يأخذ أجور الدلاء ، وله جرار بهـا ماء بارد ، مرّ الرسول به مرة فشرب منها ماءً بارداً ، فقال : هــذا العذب الزلال [7] .

ويرد في كتب السير مصطلح (بئر السقيا) و (بيوت السقيا) ، و (السقيا) ورد أن الرسول كان يشرب من بيوت السقيا [8] ، وورد أن خدمه كانوا يحملون قدور الماء الى نسائه من (بئر السقيا) ، وأنه شرب حين خرج الى (بـدر) من (بئر السقيا) [9] . وقد ذكر بعض العلماء ، أن (بيوت السقيا) موضع في

---

١ تاج العروس (١/ ١٧٤) ، (جبب) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/ ٥٠٣) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/ ٥٠٥) .
٤ تاج العروس (٥/ ٢٨٠) ، (بقع) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/ ٥٠٣ وما بعدها) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/ ٥٠٦) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/ ٥٠٦) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/ ٥٠٣) .
٩ ابن سعد ، طبقات (١/ ٥٠٤ ، ٥٠٦) .

بلاد (عذرة) ، يقال له (سقيا الجزل) ، قريب من وادي القرى[1] . وهناك بئر قيل لها (السقيا) بنقب بني ديار ، ورد ذكرها في الحديث[2] . وهناك مواضع أخرى عرفت بـ (السقيا) ، و (سقيا) ، منها سُقيا غفار ، و (السقيا الجزل) ، (سقيا يزيد) ، والسقيا للعنبر[3] .

وقد ذكر ان الرسول قد شرب من الآبار المذكورة ، وبصق فيها وبرك[4] ، ليبارك في مائها .

ولأبي عبيدة ، معمر بن المثنى كتاب في الآبار ، جمع فيه ما ورد ذكره من الآبار[5] .

وقد اتخذ النبط وغيرهم من القبائل آباراً لشربهم ولشرب مواشيهم، لها فتحات تسدّ بالحجارة ، فلا يمكن لأحد غريب الوقوف عليها ، فإذا داهمهم عدو ، أو أرادوا النقلة الى أماكن أخرى ، سدوا بها فتحاتها ، ووضعوا فوقها من التراب ما يخفي معالمها . وقد أشار اليها الكتبة اليونان واللاتين .

ولا تزال بعض الآبار القديمة مستعملة ينتفع بمائها وهناك آبار طمرت ، أو جفت مياهها ، وقد عثر عند أفواهها على كتابات تشير اليها والى أسماء أصحابها. وهناك آبار أخرى عديدة عثر عليها في مواضع متعددة من جزيرة العرب، وبعضها عميقة جداً ، وهي كلها (عادية) من أيام الجاهلية . والبئر العادية البئر القديمة التي لا يعرف لها مالك .

وقد استغلت بعض الآبار الجاهلية المندثرة ، بتنظيفها وتطهيرها واستغلالها . ذكر (فؤاد حمزة) ان آباراً عديدة جاهلية نظفت وأصلحت ، فعادت اليها الحياة، واستغلت مياهها في إحياء الأرضين التي كانت خصبة مثمرة ثم تحولت الى موات[6]. ولا يزال الناس يستغلون في اليمن وفي غير اليمن بعض الآبار القديمة للشرب ، وذلك لصعوبة استخراج مياهها للزراعة لعمقها ، واقتصار الناس هناك في استخراج

---

١ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) .
٢ تاج العروس (٥/٢٨٠) ، (بقع) .
٣ بلاد العرب (٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٩٦) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣ وما بعدها) .
٥ « كتاب الآبار » تاج العروس (٣/٣٦) ، (بذر) .
٦ فؤاد حمزة (ص ١٩٠) .

الماء على الدلاء[1] . ويظهر من وجود بعض الآبار (العادية) في البراري ان تلك المواضع كانت في محلات مأهولة ، ثم تركها أهلها فعميت،وبقيت آثارها تتحدث عن وجود سكن قديم في هذه المواضع . وفي اليمامة آبار عديدة عادية ، لا تزال على وضعها ، وهي من آبار ما قبل الاسلام . وأشار العلماء الى مياه عادية ، فقد ذكروا ان (لبينة) ماءة عادية ، أي من المياه القديمة التي يعود عهدها الى الجاهلية[٢] .

وقد عثر المنقبون على نصوص جاهلية مدوّنة بالمسند ، تتعلق بتملك الآبار وبحفرها وبإصلاحها . وقد أرخ بعض منها بأيام ملك ، أو برجل عظيم كان معروفاً مشهوراً في زمانه،أو بحادث وقع لهم ذي بال . وقد أمدتنا هذه النصوص ببعض المعلومات عن الآبار وعن أصحابها وأسماء المواضع التي حفرت بها .

ويكون نضوب الماء من البئر ، أو تحول مائها العذب الى ماء ملح ، نكبة بالنسبة لأهل البئر ، ففي تبدل طعم الماء هذا خسارة كبيرة لأهل الماء ، وعليهم البحث عن مورد آخر لسدّ رمقهم ، واطفاء ظمأ أموالهم ، وحفر بئر أخرى في مكان آخر . ونقرأ في كتب أهل الأخبار واللغة أمثلة كثيرة عن هذا التبدل الذي حدث في طعم الماء ، وسببه ، هو انحباس المطر ، وتحول مجاري المياه العذبة الجوفية من مكان الى مكان ، مما يسبب نضوب ماء الآبار والعيون التي كانت على المجاري القديمة ، أو تقليل كمياته ، فتظهر عندئذ ملوحة التربة ، وقد تتغلب على طعم الماء العذب ، فتحوله الى ماء ملح[٣] .

وقد هجرت مستوطنات عديدة بسبب وقوع هذه الظواهر المحزنة في موارد مياهها كانت تستمد مياهها من حوض ماء جوفي ، فلما قلت المياه فيها ، أو تحولت الى موضع آخر ، لعوامل (جيولوجية) ، تأثرت المنطقة التي فيها الماء، بهذا التحول ، واضطر سكانها إلى تركها ، نتيجة انقطاع موارد المياه عنها ، أو تبدل طعمها ، تبدلاً لا يطاق .

---

١ نزيه مؤيد العظم ، رحلة في بلاد العرب السعيدة (ص ٤٥) .

٢ بلاد العرب (٢١١) .

٣ تاج العروس (٢٢٨/٢ وما بعدها) ، (ملح) .

العيون :

ويقال لينبوع الماء (العين) . وعيون الماء معروفة مشهورة في مواضع كثيرة من جزيرة العرب ، وهي مواضع الخصب والنماء والزرع . ويستفاد منها في سقي المزارع وإرواء الأشجـار المغروزة في هذه الأماكن ، على أن كثرة مياه بعض العيون قد صار سبباً في انتشار الأوبئة مثل (الملاريا) كما في واحة خيبر ذات العيون العديدة . ويقال لمجاري الماء من العيون القصّب ، وقيل قصبة كل مخرج ماء . ويقال للعين التي لا ينقطع ماؤها عين حشد . أما إذا كانت العـين كثيرة الماء فيقال لها عين غزيرة ، وعين زغربة ، وعين غدقة ، وعين ثرة ، وكذلك ثرثارة[1] . وقد ذكر العلماء أسماء عيون عديدة كانت ذات مياه عذبة ، هي رحمة للناس تنقذ حياتهم وحياة ماشيتهم من العطش والحرّ الشديد ، وقد أقيمت حولها قرى ، مثل (ينبع) ، قرية وحصن ، ذكر أنها كانت ذات عيون كثيرة ، زرعت عليها نخيل وزروع[2] .

وبعض العيون عيون معدنية ، بعضها بارد ، وبعضها حار يستشفى فيه. ويقال للعين الحارة : الحمّة[3] . وذكر علماء اللغة ان الحمة كل عين فيها ماء حار ينبع يستشفى بالغسل منه . وقد أشير اليها في الحديث[4] . وكان أهل الجاهلية يستشفون بالاغتسال في العيون الحارة ، وخاصة عند اصابتهم بأمراض الجلد .

والعيون : هي مما استنبطته الطبيعة في الغالب ، فلا يد للانسان في وجودها ، وهي تكون عامة لأهل المنطقة التي تقع فيها ، يشربون منها سواء ، وقد تكون مما استنبطه الآدميون ، فتكون ملكاً لمستنبطها ولورثته من بعده ، لهم تملكها ولهم حق بيعها ، تسقي ملكهم لا ينازعهم عليها منازع ، واذا سال ماء العين فيعبر عن ذلك بلفظة (ثج) ، أي سال[5] .

ونقرأ في كتب الأخبار واللغة لفظة (الغمر) علماً لمواضع فيها مياه غزيرة ، قد تكون آباراً وقد تكون عيوناً . ومنها (الغمـــر) ، بئر قديمة بمكة حفرها

---

١ المخصص (١٠/٣٣) .
٢ تاج العروس (٥/٥١٧) ، (نبع) .
٣ المخصص (١٠/٣٣) .
٤ تاج العروس (٨/٢٦٠) ، (حمم) .
٥ تاج العروس (٢/١٣) ، (ثجّ) .

بنو سهم ، و (غمر ذي كندة) بينه وبين مكة يومان ، و (الغمر) باليمامة، موضع ماء[1] . وأما لفظة (الركايا) ، فتعني الآبار[2] .

الكراف :

وترد لفظـة (كرفن) ، أي (الكرف) و (الكريف) ، في النصوص المتعلقة بالإرواء والإسقاء والزراعة . وقد فسرها بعض العلماء بـ (صهريج) . وفسر (الهمداني) لفظة (كريف) بقوله : « كريف جوبـة عظيمة في صفا يكون فيها الماء السنة وأكثر »[3] . والكرف صهاريج ، نقرت في الصخر ، ومنها كريف (درداع) ، وهو كريف (وحاظة) واسمها (سباع) ، ذكـر ان مساحته (٦٠٠) ذراع في مثلها ، وكريف (الوفيت) ، منقور في الصخر الأسود، عمقه في الأرض خمسون ذراعاً ، وعرضه عشرون ، وطوله خمسون . محجوز على جوانبه جدار يمنع السقوط فيه[4] .

ويقال للموضع الذي يجتمع فيه ماء كثير،أو للماء الجاري الدائم الذي له مادة لا تنقطع كماء العين والبئر (العِدُّ) . وقد وردت اللفظة في كتب الحديث . وقد نهى الرسول عن اقطاع (الأعداد)[5] . وقد ذكر علماء اللغة ان من معاني العِدّ : الماء القديم الذي لا ينتزح ، وانه الماء الكثير بلغة تميم، والماء القليل بلغة بكر بن وائـل ، والركيّ في لهجة بني كلاب . ومن الماء العدّ : كاظمة ، جاهـلي اسلامي ، لم ينزح قط . وفي الحديث نزلوا أعداد مياه الحديبية ، أي ذوات المادة كالعيون والآبار[6] .

القُنِيّ :

والقناة كظيمـة تحفر في الأرض تجري بها الميـاه ، وهي الآبار التي تحفر في

---

١ تاج العروس (٤٥٣/٣ وما بعدها) ، (غمر) .
٢ تاج العروس (١٥٥/١٠) ، (ركا) .
٣ الهمداني (ص ٨٠) ، Rhodokanakis, II, S. 95, Hartmann, Arab. Frage, S. 400.
٤ زيدان ، العرب قبل الاسلام (١٦٨) .
٥ جامع الاصول (٢٢٨/١١) .
٦ تاج العروس (٤١٦/٢) ، (عدّ) .

الأرض متتابعة ليستخرج ماؤها ويسيح على وجه الأرض[1] . ويكثر وجودهـا في العربية الجنوبيـة ، ولا تزال آثارها باقية ، وقد استفيد من بعضها في الشرب والسقي . والقنا والفقر ، واحد[2] ، و (الفقرة) الحفرة في الأوض[3] .

التلاع :

وقد تنحدر المياه من عيون في الاسناد والنجاف والجبال حتّى تنصب في الأودية وفي الأماكن المنحدرة ، مكونة تلاعاً . و (التلعة) مسيل الماء من أعلى الوادي الى أسفله . والتلاع مجاري أعلى الأرض الى بطون الأودية . وتلعة الجبل أن الماء يجيء فيخدّ فيه ويحفره حتّى يخلص منه . وربما جاءت التلعة من أبعـد من خمسة فراسخ الى الوادي ، فإذا جرت من الجبال فوقعت في الصحارى حفرت فيهـا كهيأة الخندق ، وإذا عظمت التلعة حتّى تكون مثل نصف الوادي أو ثلثيـه ، فهي ميثاء . وقد تجري التلاع عند سقوط المطر وتكوين السيول ، فيجري المـاء بسرعة جارفة ، تجرف ما قد يقف أمامها من مانع . ولذلك كانوا يخافون نزول التلعة ، خشية خطر مجيء السيل فيجرف من قد يكون فيها . وللعرب أمثلـة في التلاع ، منها : (لا يمنع ذنب تلعة) ، يضرب للذليل الحقـير ، و (لا أثق بسيل تلعتك) ، يقال لمن لا يوثق به ، (ما أخاف إلا من سيـل تلعتي) ، أي من بني عمي وأقاربي ، لأن من نزل التلاعة ، وهي مسيل الماء ، فهـو على خطر ان جاء السيل جرف به[4] . مما يدل على غرق أناس في هذه التلاع .

ويقال لمسيل ما بين التلعتين (المذنب) ، وذنب التلعة . والمذنب مسيل في الحضيض ليس بخدّ واسع . وأذناب الأودية ومذانبها أسافلها . وقال بعض علماء اللغة : المذنب : مسيل ما في الحضيض والتلعة في السند ، والجدول يسيـل عن الروضة بمائهـا الى غيرها ، فيتفرق ماؤها فيها ، والتي يسيل عليها الماء مذنب أيضاً . قال امرؤ القيس :

---

١ تاج العروس (٣٠٤/١٠) ، (قنو) .
٢ عرام ، أسماء جبال مكة وتهامة (ص ٤١٣) .
٣ تاج العروس (٤٧٥/٣) ، (فقر) .
٤ تاج العروس (٣٩١/٥) ، (تلع) ، (٦٤٨/١) ، (ميث) .

وقد اغتدي والطير في وكناتها وماء الندى يجري على كل مذنب[1]

واذا انحدر المطر الى موضع واطيء ، قيل إنشل ، وانشل السيل وانسل ابتدأ في الاندفاع قبل أن يشتد[2] .

و (الوشل) : ماء يخرج من شاهقة ، فيسقط الى منحدر[3] . وتوجد الأوشال في الجبال ، وفي الشواهق . وذكر علماء اللغة ان الوشل المـاء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ، يقطر منه قليلاً قليلاً ، أو الماء الكثير ، فهو من الأضداد . وفي تهامة جبل يقال له الوشل فيه مياه كثيرة . وقد يقال للقطرات التي تنزل من سقف كهف أو لحف جبل فتجتمع في أسفله الوشل[4] .

التحكم في الماء :

وللسيطرة على المياه ، ولا سيما مياه الأمطار ، عمد أهل الجاهلية الى اتخاذ مختلف الوسائل في التحكم فيها . بعضها بدائية وبعضها راقية تدلّ على براعة وعلم وفن . منها اتخاذ السدود للهيمنة على الماء ، وخزنه للاستفادة منه عند الحاجة ، وتوجيهه الجهة التي يريدونها . وقد أظهر العرب الجنوبيون مقدرة كبيرة في الاستفـادة من الأمطار ومن مياه الينابيع والأنهار لاستعمالها في الإرواء والشرب والسقي . وتحـكم مهندس الإرواء عنـدهم في الماء وسيطر عليه ، لكيلا يذهب هباء ، فاستخدم لضبطه الأبواب والفتحات والحواجز والرحاب ، ونوّع في المجاري وفي مسايـل المياه ، ليستفيد من الماء قدر إمكانه فلا يفلت منه شيء .

ولم يكن من السهل على حكومات ذلك الزمن السيطرة على مياه السيول والاستفادة منها ، فكانت تذهب سدى ، بعد أن كانت تصيب الأرض والنـاس بالأضرار وحين تنحدر هذه السيول من النجاد والجبال والأمكنة المرتفعة ، تتحول الأودية فجأة وبسرعة أنهاراً عريضة كبيرة ، تسيل مياهها مندفعة هدارة ، لكنها لا تلبث

---

١ تاج العروس (١/٢٥٥) ، (ذنب) .
٢ تاج العروس (٧/٣٩٥) ، (شلل) .
٣ عرام ، أسماء جبال تهامة وسكانها (ص ٣٩٧) ، (نوادر المخطوطات) .
٤ تاج العروس (٨/١٥٤) ، (وشل) .

طويلاً ، بل تزول وتذهب وتجف الأودية ولا يبقى فيها من الماء شيء ، إذ يسيل الى البحر أو يغور في التربة . وقد اجتهد الجاهليون أن يستفيدوا من هذه السيول فأقاموا السدود على قدر إمكانهم كما فعلوا في سدّ مأرب وفي سدود أخرى كما يظهر من الآثار ، ولكن قدرتهم الفنية والمالية لم تكن من الاتساع والقوة بحيث تساعدهم على السيطرة على السيول .

وقد عثر على آثار سدود في مختلف أنحاء جزيرة العرب . وقد أنشئت في المواضع التي يزورها الغيث وتنهمل عليها الأمطار . وقد تقام لضبط مياه النهيرات والينابيع ، لجمعها ، ثم إعادة توزيعها . وبعض هذه السدود المندثرة هو اليوم في مناطق صحراوية لا ماء فيها ولا بشر ، مما يشير الى أنها كانت مأهولة ، ثم عفى على أهلها الدهر ، فأهملت وتهدمت .

وبعض هذه السدود ، سدود بسيطة ، صنعت من تراب أو من تراب وحجارة لمنع ماء المطر من الذهاب عبثاً ، فيسدّ طريقه ويحبس في منخفض أو حوض ليستفاد منه . وقد أمر الرسول بسدّ ماء السماء في موضع ليستفاد من الماء ، فعرف بـ (سد) . ويطل جبل (شوران) على السد[1] . وأمر (معاوية) بسد الوادي الذي يمر بحرة المدينة ، فحبس سيله بسد ، عرف بسد معاوية فهو يحتبس فيه الماء ، يرده الناس بمواشيهم يسقونها[2] . ويمر على طرف (قدوم) ويصب في (أحد)[3] . و (قدوم) جبل على ستة أميال من المدينة[4] .

وتتخذ (المُسُك) لمسك الماء وحبسه ، تمنعه من الذهاب عبثاً . كأن تمنعه من ان ينصب في البحر[5] .

ويقال للسد (عرمن) في العربيات الجنوبية ، أي (العرم) . فلفظة (العرم) تعني السد عند اليمانين القدماء ، ولم تكن علماً على سد معين . أعني سد مأرب . وقد وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى : « فأرسلنا عليهم سيل العرم »[6] .

---

١ عرام ، أسماء جبال تهامة (ص ٤٢٥) .
٢ بلاد العرب (٤٠١) .
٣ البلاذري ، فتوح (٢٦) .
٤ تاج العروس (٩/٢٠) ، (قدم) .
٥ تاج العروس (٧/١٧٧ وما بعدها) ، (مسك) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٧) .
٦ سورة سبأ ، الآية ١٦ .

وفي هذه الآية اشارة الى حادث انفجار سد مأرب كما يذهب الى ذلك المفسرون.

وتولت الحكومات في اليمن إنشاء السدود وحفر القنوات والسواقي ، وأنفقت على الأعمال من أموالها ، وقدّمت المواد الغذائية وبعض الأجور الى العمال . وكانت تطالب الى سادات القبائل والقرى تقديم الرجال للعمل وتقوم هي بإعاشتهم طوال أيام عملهم ، كالذي ورد في نص (أبرهة) عامل الحبشة على اليمن ، فقد كان يقدم الطعام الى العمال لقاء اشتغالهم ببناء السدّ . وقد ذكر مقدار ما قدّمه وما صرفه عليهم من طحين وبرّ وتمر ولحم وقد يشغل العمال سخرة ، فلا تدفع الحكومة أو سيد القبيلة أو الموضع اليهم شيئاً . وقد كانت السخرة شائعة في ذلك العهد ، لا في اليمن حسب ، بل في العالم القديم كله ، فيسخر العمال بتكسير الحجارة واقتلاعها من المحاجر ونقلها الى الأماكن التي يراد إقامة السدود أو منشآت البناء فيها أو غير ذلك ، ثم بإصلاحها وببقية أعمال البناء اللازمة ، الى أن تنجز ، وعندئذ يسمح لهم بالانصراف الى حيث يشاؤون .

وفي الحالات الاضطرارية يحشر الناس حشراً ، كما في الفيضانات المفاجئة التي تنشأ عن السيول . فتحشر الحكومة ورؤساء المدن والعشائر كل من يجدونه أمامهم للعمل على إنشاء الحواجز والسدود وفتح المجاري لمرور المياه لانقاذ الأرواح والأموال من الكوارث والأضرار .

وقد تتولى المعابد هذه الأعمال ، فتصرف عليها من واردها ، تعدّ ذلك هبة أو ديناً تتقاضاه من أصحاب الأرض ومن المستأجرين في المدن والقرى، كما يتولاها أيضاً رؤساء القبائل ، بأن يكلفوا القبيلة القيام بذلك العمل ، مقابل تعهدهم بتقديم الطعام للمشتغلين به ، وقد يكلفونهم ذلك سخرة مستخدمين حق القوة التي يتمتعون بها إن كانوا رؤساء أقوياء .

وفي كتب أهل اللغة والأخبار تعابير عديدة عن سيل السيول ، وأثرها في الأرض وجرفها التربة وما عليها ، وتفتيتها أشفار الأودية والأماكن التي تنحدر منها وكيفية قلعها الأشجار والصخور[1] . يظهر منها كلها ان أثر السيول كان شديداً مؤذياً ، وهو ما زال على أذاه الى هذا اليوم .

---

١ المخصص (١٢٦/٩ وما بعدها) .

المسايل :

وللسيطرة على المياه ، ولا سيما مياه الأمطار ، عمد العرب الجنوبيون الى الوسائل الصناعية الفنية في التحكم فيها ، فأنشأوا المجاري الصناعية لتجري فيها المياه وتسيل فلا تذهب عبثاً ولا تجري في القنوات إلا بقدر . ومن هذه المجاري ما يقال له (ماخذ) و (ماخذت) في لغة المسند . أي (مأخذ) و (مأخذة) . ويراد بالمأخذ المجرى المحفور المعمق لمرور المياه الى الحقول والبساتين أو المعابد[1] .

ويقال للقناة أي الممر الذي تمرّ منه المياه (عبرن) في اللهجات العربية الجنوبية ، أي المعبر . ذلك لأن المياه تعبرها وتجري فيها وتسيل منها الى الأماكن التي كان يقصد وصولها اليها[2] . وترد بكثرة في النصوص المتعلقة بتنظيم الإرواء وفي النصوص المتعلقة بشؤون الزراعة . وأما لفظة (امررن) فتعني (المرور) ، والامرار و (الممرات) ، وقد وردت في النصوص الزراعية بمعنى الممرات المائية التي تجري فيها المياه ، فهي بمعنى سواقٍ لإسقاء الأرض[3] . وأما الممر الواحد أو الوادي ، فيقال له (سرن)[4] .

وترد كثيراً في النصوص المتعلقة بشؤون الإرواء لفظة (حرت) . وورودها فيها يدل على وجود علاقة لها بالإسقاء والإرواء . ويظهر أن لهذه اللفظة صلة بلفظة (خر) العربية التي تعني ما خدّه السيل من الأرض ، والشق ، فيقال خر الماء الأرض خراً اذا شقها ، والهوى من علو الى أسفل ، واذا تدهدى الشيء من علو[5] . وهي بهذا المعنى وبمعنى ثقب وفتحة في لغة بني إرم وفي العبرانية المتأخرة ، وتؤدي لفظة (خرو) Harru معنى قناة في الأشورية . وهذا يدل على ان للفظة (حرت) معنى قناة أو فتحة تفتح في السد ، أو في مجرى ماء ، لإسالة الماء من الفتحة الى القناة أو المجرى المخصص بجري الماء[6] .

وقد عثر السيّاح الذين زاروا اليمن ودرسوا آثار السدود على (حرّات)

---

١ RW 59, Bu. San'a 1909, Jemen, II, 341, Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 17.

٢ REP. EPIGR. 4351, VII, II, p. 210.

٣ REP. EPIGR. 4351, VII, II, p. 209.

٤ REP. EPIGR. 4351.

٥ تاج العروس (٣/١٧٢) ، (خرّ) .

٦ Rhodokanakis, Stud. Lexl., II, S. 81, 85, 115.

كثيرة تتخلل جـانبي السدّ . وهي عبارة عن فتحات مستديرة ، تختلف أقطار فتحاتها بحسب كميات المياه المراد إمرارها منها الى (القنوات) . وهذه الفتحات هي الحرات (حررتن) . والفتحة الواحدة هي (حرت) (حرة)[1] .

ويعبر عن احداث فتحة أو ثغرة في جدار أو جبل أو في صخرة لإسالة الماء منها أو فتح شيء ما ، بلفظة (بلق) . وتؤدي لفظة (مخض) معنى (بلق) أيضاً ، فهي أيضاً بمعنى احداث ثغرة أو فتحة ، غير أنهـا تستعمل للتعبير عن معانٍ أخرى مثل فتح الطرق وشقها في الجبال في الغالب ، أو احداث طريق فوق (منقّلن) . ويراد بالمنقل معنى (نقيل) أي ممر .

ولما كانت العربية الجنوبية ذات جبال ومرتفعات ، تصطدم بها الرياح المتشبعة بالأبخرة ، فتتساقط مطراً ، عمل المهندسون على الاستفادة من هذه الأمطار بالتحكم فيها وبتوجيهها الجهة التي يريدونها ، وذلك بإحداث فتحات في الصخور وعمـل قنوات وأنفاق لإكراه الماء على المرور منها الى المواضع التي يريدون خزنها فيهـا للاستفادة منهـا عند الحاجة ، ولتكوين مسايل كبيرة تتجمع فيها المياه فتجري كالأنهار .

وتؤدي لفظة (قلح) معنى سال وجرى وصب ، ولها معان أخرى ذات صلة بالحركة . وبهـذا المعنى ترد لفظة (سفح) كذلك[2] . ولسفح في عربيتنا معنى قريب من معناها في المسند ، فمن معاني السفح ، عرض الجبل حيث يسفح فيه الماء ، وسفح بمعنى سال وأراق وصبّ[3] . وهي معان لها صلة بجريان الماء .

وأما لفظة (منفخت) (منفخة) و (منفخ) ، من أصل (نفـخ) ، فإنها تعني فتح الماء واسالته ، وذلك بفتـح الفتحات الماسكة له ليسيل منها الى المجاري المخصصة بمسيله . وهي في معنى لفظـة (منفس) التي هي من أصل (نفس) . ويراد بها خروج المـاء وجريانه من الفتحات الحابسة له وارتفاعه نتيجة لفتح الماء . وهي من ألفاظ الإرواء الواردة في الكتابات العربية الجنوبية[4] . ويستعمل العراقيون جملة (تنفس الشط) ، بمعنى ارتفع ماء النهر وزاد ، وذلك

---

١ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 118.

٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 62.

٣ تاج العروس (١٦٤/٢) ، (سفح) .

٤ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 82.

في ايام الفيضان . و (تنفس الموج) و (تنفس دجلة) . فالمنفخ والمنفس اذن في معنى واحد ، ويطلقان على عملية رفع مستوى الماء بزيادة كمياته من الفتحات التي تضبطه وتسيطر عليه ، لأجل رفع مستواه في الأنهار أو في المجاري والسواقي لإرواء الأرضين في يسر وسهولة ، ولا سيما الأرضين المرتفعة بعض الارتفاع .

ويقال لمجرى الماء الصغير المتفرع من مجرى أوسع منه (مسبا) . وذهب بعض الباحثين الى أن المراد بهذه اللفظة الصهريج . وقد عرف علماء اللغة (المسبا) بأنه الطريق في الجبل[1] .

أما السواقي ومجاري الماء الصغيرة التي تستعمل في اسقاء المزارع والحدائق ، فيقال لها (مسقيت) ، أي (مسقية) و (ساقية)[2] . وذهب (رودوكناكس) الى أن لفظة (مسفحة) (المسفحة) ، تعني الساقية أيضاً[3] .

ويعبر عن خروج الماء وسيلانه ونزوله بلفظة (فجر)[4] . و (الفجر) في عربيتنا تفجير الماء ، يقال انفجر الماء وتفجر : سال وانبعث . والمفجر والمفجرة منفجر الماء من الحوض وغيره . وفجرة الوادي ، متسعه الذي ينفجر اليه الماء[5] . و (الشرج) مسيل ماء من الحرة الى الوادي ، ومنفسح الوادي[6] ، فلها علاقة بمسير الماء وسيلانه . وبهذا المعنى وردت لفظة (سفح) في المسند[7] .

المصانع :

وللاستفادة من ماء المطر استعملوا المصانع ، جمع مصنعة . مساكات لماء السماء ، يحتفرها الناس فيملؤونها ماء السماء يشربونها . والمصنعة كالحوض أو شبه

---

١ « والمسبأ كمقعد الطريق في الجبل » ، تاج العروس (١/٧٦) ، (سبأ) ، Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 112, Hommel, Aufs. und Abbädlungen, S. 126.

٢ Glaser 1150, Halevy 193, 199.

٣ Müller, WZKK, II, S. 189, Rhodokanakis, Stud. Lexi, II, S. 89.

٤ Halevy 149, Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 59.

٥ تاج العروس (٣/٤٦٤) ، (فجر) .

٦ تاج العروس (٢/٦٣) ، (شرج) .

٧ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 59, Alt. Sab. Inschr., S. 77.

الصهريج ، وذكر ان الحبس مثل المصنعة[1] . وذكر ان المصانع مساكات لماء المطر يحتفرها الناس ، وأن العرب تسمي القرى مصانع ، تقول هو من أهل المصانع ، أي القرى والحضر ، والمصانع أيضاً المباني من القصور والآبار وغيرها والحصون . والصنع ، مصنعة الماء ، وهي خشبة يحبس بها الماء وتمسكه حيناً ، وسمت العرب أحباس الماء الأصناع ، وبهذا المعنى : الصناع والصناعة[2]. و(الرصف) السد المبني للماء[3] . ويكون من حجارة مرصوف بعضها الى بعض في مسيل فيجتمع فيها المطر[4] .

السكر :

ويعبر في لهجة أهل الحجاز بلفظة (سِكْر) و (سكر الأنهار) عن سدّ الماء وحبسه ، وذلك لضبط الماء ، فلا يتسرب الى المزرعة أو الى مكان فيغرقه ، أو لحبس الماء للاستفادة منه في الإسقاء[5] . وقد يكون السكر ثابتاً دائماً ، مبنياً له فتحات تغلق وتفتح وقت الحاجة اليه ، وقد تكون مؤقتة تزال وتسدّ بحسب الحاجة ، وتكون هذه في السواقي والنهيرات . وتؤدي لفظة (حبس الماء) معنى سدّه ومنعه من السيلان والجري ، وذلك بواسطة السكر والحاجز المقام . وتؤدي لفظة (السكر) ، أيضاً معنى سدّ النهر و (العرم) أي السدّ، والمسناة[6] .

الأحباس :

و (الحِبس) خشبة أو حجارة تبنى في مجرى الماء لتحبسه ، كي يشرب القوم ويسقوا أموالهم . والجمع أحباس . وقيل ما سدّ به مجرى الوادي في أي

---

١ تاج العروس (٥/٤٢٢) . (صنع) ، المخصص (١٠/٥٢ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٤٢٢) ، (صنع) .
٣ المخصص (٩/١٥٣) .
٤ تاج العروس (٦/١١٧) ، (رصف) .
٥ عمدة القارىء (١١/٢٠٠ وما بعدها) ، (باب سكر الانهار) ، تاج العروس (٣/٢٧٤) ، (سكر) .
٦ تاج العروس (٣/٢٧٤) ، (سكر) .

موضع حبس . وقيل الحبس كالمصنعة تجعل للماء[1] . و (العرمة) سدّ يعترض به الوادي ليحتبس به الماء ، والأحباس تبنى في أوساط الأودية[2] . و (الرجيع) محبس الماء ، و (الخرنق) مصنعة الماء ، والسرج والقرى والحافشة . وهذه مسايل الماء[3] . و (الخربق) مصنعة الماء واسم حوض[4] . و(الردم) السدّ[5] . و (الحواجر) و (الحاجر) ما يمسك الماء من شفة الوادي ويحيط به[6]. ومن الأحباس : حبس ضعاضع . جبيل عنده حبس كبير يجتمع عنده الماء . وهو حجارة مجتمعة وضعت بعضها على بعض[7] .

وتكون على السواقي ومسايل الماء والسدود ، مسايل جانبية ، تفتح عند الحاجة لمرور الماء منها الى المزارع ، تخرج من المسيل الأعظم يمنة ويسرة ، يقال لها : (النواشط) . وطريق ناشط ، اذا كان ينشط من الطريق الأعظم يمنة ويسرة[8] .

وقد كان نضوب الماء من الآبار والغدران ومواضع الماء الأخرى من المشكلات التي جابهت الجاهليين . ومن المشكلات التي ما برح سكان جزيرة العرب يواجهونها اليوم أن بعض الآبار يغور ماؤها ، فيضطر الناس الى ترك أماكنهم ، أو قد يتبدل طعم الماء ، فلا يكون مستساغاً للشرب ولا مجدياً في الزراعة . وحفر الآبار في مواضع متقاربة يؤدي الى انخفاض مستوى الماء أو نضوبه في كثير من الأحيان. وقد أدى إهمال الناس للآبار الى تراكم الأتربة فيها ، وانهيار جدرانها ، ونضوب الماء منها ، وارتحال الناس عنها .

السدود :

السد في اللغة الحاجز ، والوادي فيه حجارة وصخور يبقى الماء فيه زماناً .

---

١ تاج العروس (٤/١٢٤) ، (حبس) ، اللسان (٦/٤٥) ، (حبس) .
٢ تاج العروس (٨/٣٩٥) ، (عرم) .
٣ تاج العروس (٦/٣٣١) ، (خرنق) .
٤ تاج العروس (٦/٣٢٧) ، (خربق) .
٥ تاج العروس (٨/٣٠٩) ، (ردم) .
٦ تاج العروس (٣/١٢٥) ، (حجر) .
٧ قال الشاعر :
وان التفاتي نحو حبس ضعاضع ... واقبال عيني في الظبا لطويل
عرام ، أسماء جبال تهامة (٤١٠) .
٨ تاج العروس (٥/٢٣٢) ، (نشط) .

وقد كان الجاهليون يقيمون حواجز عند مخارج السيول ، لحبس الماء في المنخفضات لتكوين أحواض لحفظ الماء فيها ، للاستفادة من مائها عند انقطاع السيول وظهور الجفاف . ولما كان بناء سد ضخم بحجارة وبجدر مرتفعة طويلة ، عمل يحتاج الى مهارة وخبرة والى مال ، والى وجود حكومة كبيرة متمكنة من الناحية المادية ، وهي شروط لم تكن متوفرة في معظم أنحـاء جزيرة العرب ، ما خلا اليمن ، صارت السدود في معظم أنحـاء جزيرة العرب سدوداً صغيرة بدائيـة في أغلب الأحيان ، هي مجرد حواجز من تراب أو من صخور كدّست بعضها فوق بعض لحبس الماء في المنخفض ومنعه من الجريان . وقد شاهد السياح آثار سدود جاهلية في أنحاء جزيرة العرب ، ووصفوها ، وذكروا أن من الممكن الاستفادة من بعض تلك السدود ومن مواقعها ، وأشادوا بمقدرة من شيدها وأقامها وبقابلياته الهندسية وبفطنته في حسن اختيار المواقع ، بالرغم من ضعف القدرة الفنية وبدائية الأساليب التي استعملت في ذلك الزمن[1] .

ومن السدود : (السد) ماء سماء في (حزم بني عوال) ، جبيل لغطفان أمر الرسول بسدّه . وسد (أبي جراب) أسفل من عقبـة منى دون القبور عن يمين الذاهب الى منى ، منسوب الى (أبي جراب عبدالله بن محمـد بن عبد الحارث بن أمية الأصغر) ، وسد قناة[2] ، وسد (العياد) ، وقد أقيم في موضع يبعد عن الطائف زهاء ستة أميال ، كتب عليه بالخط الكوفي المحفور على الحجر : « هذا سد عبدالله بن معاوية أمير المؤمنين . بناه عبدالله بن ابراهيم » . وكان ذلك سنة (٥٨) للهجرة . وقد أقيم بالحجارة وحدها ، فلم يضع مهندسه ، عبدالله ابن ابراهيم ، مادةً من مواد البناء مثل الملاط أو الطين وما شابه ذلك بين الحجارة لتثبيتها وضمها بعضها الى بعض حتى تتماسك ، فتكون كأنها قطعة واحدة . وهي طريقة معروفة في اليمن ، استعملها المهندسون الجاهليون كما يظهر ذلك من فحص الخرائب العتيقة الباقية من الأبنية والسدود الجاهلية . ولا يزال هذا السدّ في حالة ممتازة يتحدث عن نفسه وعن قدرة المهندس الذي أقامه في هذا المكان .

---

١ تويتشل ، المملكة العربية السعودية (ص ٥٠) .

٢ تاج العروس (٢/٣٧٣) ، (سدد) .

سد مأرب :

واستبد سدّ مأرب من بين سائر سدود جزيرة العرب بالإسم والذكر ، ونال مكانة كبيرة في كتب التفسير والسير والأخبار . ولذكر القرآن لـ (سيل العرم)، نصيب كبير في توجيه أنظار علماء التفسير واللغة والأخبار اليه ، وفي خلود اسمه الى الآن . وقد روى أهل الأخبار قصصاً عنه وعن كيفية خرابه ، وتشتت شمل سبأ بسببه ، ونزوحهم الى مواضع بعيدة عن ديارهم القديمة .

ويعدّ سدّ (مأرب) من أهم السدود التي أقيمت في اليمن وفي جزيرة العرب. وقد بني من أجل السيطرة على مياه الأمطار والسيول التي تتدفق منها لوقاية المزارع والقرى منها ، وللاحتفاظ بهذه السيول للاستفادة منها إذا انقطعت الأمطار . ولإرواء مناطق واسعة من الأرضين ، جيدة التربة ، خصبة مثمرة . لكن بها حاجة شديدة الى الماء ، وما كان في الامكان إنباتها لولا السيطرة على السيول وإنشاء هذا السدّ .

وتأتي السيول الى السد من أماكن عديدة ، من (ذمار) ، و (جهران) ، و (الحدي) ، و (حولان) ، وبلاد مراد ، وقيفة ، وعروش ، وجوانب ردمان ، وشرعة ، وكومان وغيرها ، وذلك اذا أمطرت السماء وتجمعت فيها السيول وانحدرت . حتى تنتهي إلى وادي (أذنة) ، فتسير فيه المياه حتى تنتهي إلى مضيق بين جبلين ، يقال لكل منهما (بلق) ، ويسميهما (الهمداني) مأزمي مأرب ، تسير المياه فيه حتى تدخل منخفضاً من الأرض واسعاً ، هو حوض هذا السد . تدخر مياه الأمطار فيه . وله سدود وأبواب لحجز المياه وحبسها ، أو لتصريفها حسب الحاجة . فتمر من أبواب تفتح وتغلق ،لتمر المياه منها في قنوات توزع إلى الأماكن التي يراد توجيه الماء اليها [1] .

ولا توجد لدينا نصوص عن أول رجل أقام هذا السد ، وعن العهد الذي تم فيه البناء . وكل ما لدينا اليوم عن وقت بنائه لأول مرة هو لذلك حدس وتخمين .

---

١ زيدان ، العرب قبل الاسلام (١٧٠ وما بعدها) ، العظم (٢/٨٨ وما بعدها) ، البلدان (٤/٣٨٣) ، حمزة (١٢٦) ، الاغاني (١٦/٧٢) ، الصفة (٨٠) ، **Müller, Burgen, II, S. 83. f.**

ويرى (كلاسر) أن عهده يعود الى السنة السبعمئة قبل الميلاد[1] . وقد بقي قائماً يؤدي واجبه الى حوالى السنة (٥٧٥) بعد الميلاد[2] . ويظهر من بعض الكتابات المحفورة على جدرانه بالمسند أن جملة تحسينات وتعميرات أدخلت عليه في أوقات مختلفة قبل الميلاد وبعدها ، وآخرها هو اصلاح أبرهة له الذي تمّ على أثر تصدعه سنة ٥٤٢ للميلاد . ويظهر أن تصدعاً آخر وقع للسدّ في أيام طفولة الرسول ، وذلك في حوالى السنة (٥٧٥) للميلاد ، لم يكن من الممكن التغلب عليه، بسبب التدهور الاقتصادي الذي حدث في هذا العهد في اليمن وارتباك الأوضاع السياسية واضطراب الأمن وانتشار الثورات في كل مكان وتدخل الأجانب في شؤون البلاد، فتصدع قسم كبير منه ، ولم يهتم أحد من الحاكمين في اعادته الى أصله بإصلاحه وترميمه ، وتحولت بذلك الأرضين الخصبة التي كانت تروى بمائــه والتي كانت واسعة إلى أرضين موات ، غطتها الطبيعة بطبقة من الرمال والأتربة وألبستها أكسية الصحراء الحزينة ، حداداً على فراقها لذلك السدّ العتيد .

وتعود أقدم الكتابات الباقية إلى أيام (المكربين) . وتأتي كتابة (سمه على ينف) (سمهعلي ينوف) مكرب سبأ على الرأس . ويظهر منها ان هذا المكرّب قد أقام سد (رحاب) ، وقد اشتغل بـه ابنه (يثع أمر بين) وقوّاه ، كما بنى سداً آخر عند (حبابض) ، ويقع في المنطقة الشمالية من سد مأرب[3] .

وقام المكرب (كرب ال بين بن يثع امر) ، ببناء جزء من السد وتقويـة أجزائه الأخرى . كما قام الملوك بإضافة أجزاء جديدة اليه ، وتقوية الأجزاء القديمة منه . ومن هؤلاء الملك (ذمر على ذرح) ملك سبأ ، والملك (يدع ال وتر) (يدع ايل وتر)[4] .

كذلك أصلح الملك (شمر يهرعش) هذا السد ، ورممه الملك (شرحبيل يعفر) في سنة (٤٤٩) للميلاد . ولكن المياه جرفت أقساماً منه سنة (٤٥٠) للميلاد ، أي

١ Ency., III, p. 290.

٢ A Grohmann, Südarabien als wirtschaftsgebiet, II, 23-28, A. Grohmann, S. 151.

٣ Ency., III, p. 290, Müller, Burgen, II, S. 13. f.

٤ Müller, Burgen, II, S. 15.

بعد سنة من الترميات ، فاضطر إلى إعادة إصلاحه وتقويته[1] .

وقد أقام المهندسون في الجهة الضيقة التي تسيل منها السيول الى المجـاري ثم الى حوض واسع سـداً قوياً طوله نحو من (٥٧٧) متراً ونصف المتر ، عرف بـ (رحاب) في المسند . أقيم في المنطقة التي تضيق فيها الشقة بين جزءي جبل (بلق) ، حيث يمر بينهما واد يفصل بين الجزءين المعروفين بـ (بلق القبلي) و (بلق الأوسط) . فسدّ الوادي بذلك وتحكم السد بمسير ماء السيول . وصار يجري من خلال فتحة ، هي باب يتحكم الإنسان فيهـا كيف يشاء الى (وادي أذنة) (وادي ذنـة) ، حيث يملأ الحوض[2] . وينتهي الحوض بسدين آخرين أقيما لتنظيم تصريف الماء المخزون عند الحاجة وتوجيهه الى الأرضين المحتاجة اليه ، بهما منافذ هي أبواب تفتح وتغلق للتحكم في توزيع الماء .

وقد استخدمت في بناء السد والحواجز حجارة اقتطعت من الصخور، وعولجت بمهارة وحذق حتى توضع بعضها فوق بعض ، وتثبت وتتماسك وتكون وكأنهـا قطعة صلدة واحدة . ونحتت الصخور ، بحيث صارت تتداخل بعض في بعض ، بأن يدخل رأس من صخرة في فتحة مقابلة لها ، فتكون كالمفتاح في القفـل ، وبذلك تتماسك هذه الصخور وترتبط ارتباطاً وثيقاً ، وتكون كأنها صخرة واحدة . وقد وجد ان بعض الأحجار قد ربطت بعضها ببعض بقطع من قضبان اسطوانية من المعدن المكون من الرصاص والنحاس يبلغ طول الواحد منها حوالى (١٦) سنتمتراً ، وقطرها حوالى الثلاثة سنتمترات ونصف . وذلك بصب المعدن في ثقب الحجر ، فإذا جمد وصار على شكـل (مسمار) ، يوضع الحجر المطابق الذي صمم ليكون فوقه في موضعه بإدخال (المسمار) في الثقب المعمول في الجهة السفلى من ذلك الحجر ، وبذلك يرتبط الحجران بعضهما ببعض برباط قوي محكم . وقد اتخذت هذه الطريقة لشد أزر السد ، وليكون في امكانه الوقوف أمام ضغط الماء وخطر وقوع الزلازل[3] . أما المادة التي استعملت في البناء لربط الأحجار بعضها ببعض فهي من أحسن أنواع الجبس Gips ، وقد تصلب هذا الجبس الذي طليت

---

١ Glaser 554, Ency., III, p. 290.

٢ « وادي أذنة » ، الصفة (٨٠ ، ٩٤) .

٣ العظـم (٢/٩٢) . A. Grohmann, S. 152.

به واجهات السد أيضاً حتى صار كأصلب أنواع السمنت[1] .

وقد أقام المهندسون أبواباً لدخول المياه منها وخروجهـا ، كما أنشأوا فتحات لتقسيم المياه وتوزيعها عـلى المجاري والسواقي تفتح وتقفل بحسب حاجـة المزارع والأماكن الى المياه . ولا يزال بعض جدر السد قائماً ، وآثار السواقي والمجـاري التي كانت تجري فيها المياه من الحوض باقية ، وهي تدل على مهـارة مهندسي الري في ذلك العهد وعلى براعتهم في كيفية الاستفادة من الأرض ومن الطبيعـة لخدمة الإنسان .

وبنيت في اليمن سدود أخرى ، منها (قصعان) ، و (ربوان) ، وهو سدّ قتاب ، وشحران ، وطمحان ، وسد عباد ، وسد لحج ، وهو سد عرايس ، وسد سحر ، وسد ذي شهال ، وسد ذي رعين ، وسد نقاطـة ، وسد نضار وهران ، وسد الشعباني ، وسد النواسي ، وسد الخانق بصعدة ، وسد ريعان ، وسد سيان ، وسد شبام ، وسد دعان وغيرها[2] . وذكر (الهمـداني) أن في مخلاف (يحضب العلو) ثمانين سداً[3] .

وسد (الخانق) سد ينسب الى (نوال بن عتيك) مولى سيف بن ذي يزن ، ومظهره في (الخنفرين) من رحبان . وقد خرّبه (ابراهيم بن موسى العلوي) بعد هدم صعدة[4] .

وهناك آثار سدود جاهلية أخرى أقيمت في مواضع متعددة من العربية الجنوبية . منها آثار سد قتباني أقيم عند موضع (هجر بن حميد) بوادي بيحان . وقـد درسه ووصفه (بوون)[5] . كان يسقي بمائه منطقة واسعة من أرض مملكة قتبان .

---

١ A. Grohmann, S. 152.

٢ زيدان ، العرب قبل الاسلام (١٦٩) ، Müller, & Südarabische, S. 88.

٣ الصفة (١٠١) ، زيدان (١٦٩) .

٤ زيدان ، (١٦٩) .

٥ A. Grohmann, S. 153, Hamilton, Archaeological Sites in the Western Aden Protectorate, in G.J., 101, (1943), 116.
Philby, The Land of Sheba, G. J., 92 (1938), 113, 119.

وآثار سد (مرخة)[1] ، وآثار سد آخر أقيم عند (شبوة) ، وسد آخر عند (الحريضة) ، تفرعت منه شبكة من القنوات والمجاري لايصال الماء إلى المزارع والأرضين الخصبة التي تعيش عليها .

وقد ظهرت من الصور (الفوتغرافية) ، الذي أخذت من الجو لبعض مواضع من جزيرة العرب آثار شبكات للإرواء تتصل بأحواض مياه وسدود أقيمت لخزن مياه الأمطار فيها للاستفادة منها وقت الحاجة . ففي (وادي عديم) آثار جدر سدود وقنوات ومجاري مياه متصلة بعضها ببعض تمتد إلى مسافات بعيدة كانت تمدها بإكسير الحياة . وكذلك تشاهد آثار الإرواء عند (حصن العر) و (ثوبة) في القسم الجنوبي من (وادي حضرموت) . وقد نحتت الصخور عند (نجران) لعمل ممر منها للماء ليذهب إلى حوض واسع أحيط بسد وجدار حيث يمكن خزن مئة مليون (غالون) من الماء فيه[2] .

توزيع الماء :

وقد يوزع الماء الجاري من العيون والأنهار ، بالنصيب . بأن تعين أوقات تفتح فيها المياه على مزرعة ما ، فإذا انتهى الوقت سد الماء ، وحوّل الى مزرعة أخرى ، وذلك لقلة الماء وعدم كفايته في اسقاء المزارع كلها دفعة واحدة،فيوزع بالحصص ، في أوقات تثبت وتعين . وقد تقع الخصومات من جراء التجاوز وعدم التقيد بضبط الأوقات ، كما يحدث في أيامنا في كثير من الأماكن الزراعية . ونجد في كتب الأخبار أمثلة عديدة من أمثلة هذا النزاع . ويقال للنصيب من السقي (سِقي)[3] . أي الحظ من الشرب[4] .

---

١ G. Gaton Thompson — E.W. Gardner, Climate, Irrigation and Early man in the Hadhramaut, G.J., 93 (1939), 34. f, A. Grohmann, S. 153.

٢ A. Grohmann, S. 153, Philby, The Land of Sheba, G.J., 92 (1938), 16.

٣ المفردات ، للاصفهاني (٢٣٥) .

٤ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) .

حقوق الري :

وللجاهليين أعراف محلية قامت مقام القوانين في الاستفادة من الماء . والمياه عندهم ، اما مياه طبيعية لا دخل ليد الإنسان في استنباطها ، مثل مياه الأمطار والعيون والأنهار . واما مياه وجدت باستنباط الانسان لها ، باستخدام ماله ويده في تذليلها، كمياه الآبار والعيون التي يفجرها الانسان ومياه الصهاريج والكهاريس والمياه التي تتجمع من إقامة السدود وما شاكل ذلك مما للإنسان يد وعمل في الاستفادة منها .

وطبيعي ان تختلف هذه الأعراف باختلاف مواضع جزيرة العرب . فالمياه في العربية الجنوبية من أمطار ومن مياه مستخرجة أو نابعة هي أكثر بكثير من مياه أي منطقة أخرى من جزيرة العرب . ولهذا نجد لها ذكراً في الكتابات العربية الجنوبية ، حيث نجد فيها إشارات إلى أحكام وإلى كيفية السقي وحقوق أصحاب الأرض في الماء وحقوق المستأجرين للأرض في الماء وإلى خصومات وقعت بينهم في موضوع حقوق التصرف بالماء .

ولدينا في الوقت الحاضر كتابات ، هي قوانين صدرت من حكومات العربية الجنوبية في تنظيم حقوق السقي والاستفادة من الماء ومن حق الانتفاع من الآبار . كما تعرضت لموضوع حقوق شراء الأرض ، وكيفية بيعها وما إلى ذلك مما يتعلق بالري والزراعة .

وأما في الحجاز ، فقد استخدمت الآبار المحفورة ، يحفرها أهلها ليستفيدوا من مياهها في الشرب وفي اسقاء الزرع والمواشي ، وقد يكرونها لغيرهم مقابل كراء يعين . لهذا وضعوا أعرافاً خاصة بالنسبة إلى الاستفادة من حقوق ملكية الآبار .

الخصومات بسبب الماء :

وطالما وقعت مشاحنات وخصومات بين أصحاب المزارع بسبب اشتراكهم في الماء ، في مثل الشراج والجعافر والأنهار وأمثالها ، إذ كان يستأثر بعضهم به ، ولا يدع الماء يسيل الى غيره إلا بعد أن يسقي زرعه سقياً كاملاً ،وكان أصحاب

المزارع الذين تقع مزارعهم في أعالي منابع الماء يستأثرون به ، بتوجيهه الى مزارعهم ، أو بوضع سكر يحبس الماء عن البساتين الواقعة خلف السكر ، فيذهب الماء الى مزارعهم ولا ينال المزارع الأخرى الا القليل منه. ونجد مثل هذه الخصومات في العربية الجنوبية وفي منطقة يثرب وفي مواضع الحسي وعيون الماء . وقد خاصم أنصاريٌ (الزبيرَ بن العوّام) عند النبي في شراج الحرة ، وهي مسايل الماء التي يسقون بها النخل ، فقضى النبي ، أن يسقى الأعلى ثم الأسفل[1] .

---

١ ارشاد الساري (٤/١٩٧ وما بعدها) ٠

الفصل السابع والتسعون

معاملات زراعية

وقد تطرقت كتب الحديث والفقه الى ذكر معاملات زراعية، كان المزارعون في الجاهلية يمارسونها. وهي عبارة عن عقود ومواثيق كانوا يأخذونها على أنفسهم بالقيام بأعمال زراعية معينة، مثل: المحاقلة، والمخابرة، والمزارعة، والمساقاة.

المحاقلة:

ولم ترد في نصوص المسند معلومات مسهبة عن المحاقلة عند العرب الجنوبيين. ولكن في استطاعتنا أن نقول انها لم تكن تختلف في أسلوبها عن المحاقلة عند أهل الحجاز قبيل الاسلام. والمحاقلة عندهم اكتراء الأرض بالحنطة أو الذهب أو شيء آخر، والمزارعة على نصيب معلوم يتفق عليه بالثلث أو الربع أو أقل من ذلك أو أكثر، أو على الأوسق من التمر والشعير، أو على الدينار والدرهم[1]. ويقال للمحاقلة (نحقل) في المسند[2].

١ القاموس (٣٥٩/٣)، جامع الاصول (٤٧٨/١١)، تاج العروس (٢٨١/٧)، (حقل)، عمدة القارىء (١٨٠/١٢ وما بعدها)، ارشاد الساري (١٨٧/٤)، صحيح مسلم (٢٦/٥).

٢ Rhodokanakis, Katab. Texte, I, S. 84.

والمخابرة هي المؤاكرة،وهي المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع في الأرض[1]. وقيل : المخابرة المزارعة على النصف ونحوه ، أي الثلث ، والمزارعة على نصيب معين كالثلث والربع وغيرهما وقيل المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض[2]. والمؤاكرة المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع . وهي المخابرة[3] . وفي الحديث كنا نخابر ولا نرى بذلك بأساً حتى أخبر رافع ان رسول الله نهى عنها . وقد اختلف علماء اللغة في أصل اللفظة ، فقال بعضهم : هي من خبرت الأرض خبراً كثر خبارها ، وقال بعض آخر من خيبر ، لأن النبي أقرها في أيدي أهلها على النصف من محصولها ، فقيل خابرهم ، أي عاملهم في خيبر[4] . و (الخبر) في قول علماء اللغة الزرع ، ومن هذه اللفظة يجب أن يكون أصل المخابرة . ويظهر من اختلاف العلماء في تعريف المراد من لفظة المخابرة ، التي تعني المزارعة أنهم لما أرادوا وضع حد لمعناها ، وجدوا المخابرين أي المزارعين أنماطاً وأشتاتاً في تثبيت حصص المخابرة ونصيبها ، فحفظ كل ما سمعه ، وظن أن ما وعاه وسمعه هو المخابرة ، فجاءت تعاريفهم من ثمّ على هذا النحو . ولو أخذناها ودققناها، وجدنا أنها كلها شيء واحد . هو : المخابرة المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع في الأرض . أما تثبيت الأنصبة ، فلا دخل له بالتعريف ، لأنه مجرد تعامل أشخاص واتفاق أفراد ، منهم من كان يزيد في النصيب ومنهم من كان ينقص منه : حسب الحاجة ، على نحو ما يقع في كل تعامل مثل البيع والشراء .

والمزارعة ، المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها ويكون البذر من مالكها[5] ، فإن كان من العامل ، فهي مخابرة[6] .

وقد كانوا يتعاملون مع المزارعين أو الأجراء على (القصارة) . وهي ما يبقى في المنخل بعد الانتخال، أو ما بقي في السنبل من الحب ، مما لا يتخلص بعدما

---

١ جامع الاصول (١١/٤٧٢) ، شرح النووي (٦/٤٠٦ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٣/١٦٧) ، (خبر) .

٣ تاج العروس (٣/١٧) ، (أكر) .

٤ تاج العروس (٣/١٦٧) ، (خبر) .

٥ تاج العروس (٥/٣٦٨) ، (زرع) .

٦ ارشاد الساري (٤/١٧٠) ، (ما جاء في الحرث) .

يداس ، أو ما يبقى عـلى الأرض من حب بعد التذرية [1] . فيشترط بعضهم ان تكون القصارة للمذري ، وقد لا يوافق على ذلك صاحب الزرع ، فتكون له . وقد يحدث الاختلاف بين صاحب الزرع وبين المذري ، بسبب اتهامه للمذري ، باستغلال الشرط ، والإفراط في إسقاط الحب على الأرض للاستفادة منه .

وذكر ان أحدهم كان يشترط في المزارعة ثلاثة جداول والقصارة، أي ما سقى الربيع . وقد نهى النبي عن ذلك[2] . والجدول النهر الصغير ، ونهر الحوض ونحو ذلك من الأنهار الصغار[3] .

ولما جاء المهاجرون إلى يثرب ، وكان بينهم قوم يحسنون الزراعة ، وكانوا يريدون عملاً يعتاشون منه ، حاقلوا أصحاب الأرض على زرع أرضهم في مقابل نصيب معلوم ، كانوا يتفقون عليه . وقد نجح بعض منهم في استغلال الأرض ، وكسبوا منها . غير ان قسماً منهم اختصموا مع الملاّك ، بسبب توزيع الحاصل أو الماء ، فكان الرسول يتداخل بنفسه لحسم الخلاف . وقد صار الصحابة من من أهل مكة بين تاجر وبين زراع ، ورد في حديث (أبي هريرة) : « لم يشغلني عن النبي غرس الوديّ ، أي صغار النخل » [4] . وورد ان الأنصار قالوا للمهاجرين : تكفونا المؤونة في النخل بتعهده بالسقي والتربية ونشرككم في الثمرة، واتفقوا على ذلك[5] .

وقد نهى الإسلام عن المحاقلة والمزارعة والمؤاكرة . وذلك لما كان يقع بسببها من خلاف بين المالك والفلاح ، وما كان يقع من ظـلم في القسمة أو اختلاف على توزيع الحاصل . فلما جاء الرسول الى (يثرب) ، ورأى هذه الخصومات ، نهى عن إيجـار الأرض وكرائها بقوله : « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحهـا ، فإن لم يفعل فليمسك أرضه »[6] . وفي رواية أخرى أنه لم « يحرم المزارعة ، ولكن قال أن يمنح أحدكم أخاه خير له من أن يأخذ شيئاً معلوماً ،

١ اللسان (٥/١٠٠ وما بعدها) ، (قصر) .
٢ اللسان (٥/١٠١) ، (قصر) .
٣ اللسان (١١/١٠٦) ، (جدل) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٨٧) ، (ودى) .
٥ ارشاد الساري (٤/١٧٥) .
٦ عمدة القارىء (١٢/١٨٠ وما بعدها) ، تاج العروس (٥/٣٦٨) ، (زرع) .

لأنهم كانوا يتنازعون في كراء الأرض حتى أفضى بهم الى التقاتل بسبب كون الخراج واحداً لأحدهما على صاحبه ، فرأى أن المنحة خير لهم من المزارعة التي توقع بينهم مثل ذلك »[1] .

وقد ذكر العلماء أن هذا النهي إنما وقع بسبب المنازعات التي كانت تقع فيما بين الطرفين المتعاقدين ، لاتفاقهما على شيء مجهول ، وذكروا مثلاً آخر على ذلك هو كري المزارع على الأربعاء وبشيء من التبن . والربيع هو النهر الصغير. فتقع المنازعة ويبقى المزارع أو رب الأرض بلا شيء[2] . وقد كانوا يتعاقدون على ما ينبت على ربيع الساقي ، أي النهر الذي يسقي الزرع . فيقع اختلاف بين المزارع والمالك ، أو بين صاحب الماء والمزارع[3] . أما إذا كان الاتفاق على شيء واضح معلوم ، في مثل استئجار الأرض البيضاء من السنة الى السنة ، أو في آجال يتفق عليها بالذهب والفضة ، أي بالدنانير والدراهم ، فقد جاز كذلك كما ورد في كتب الحديث[4] .

المساقاة :

وكما مارس أصحاب الأملاك والمزارعون الجاهليون طريقة المحاقلة والمزارعة ، مارسوا (المساقاة) كذلك . وتكون بالاتفاق بين طرفين على قيام أحدهم بتوجيه الماء إلى صاحب أرض أو ملتزم لها أو غير ذلك ، وهو محتاج إلى ماء مقابل تعهد يقدمه الطرف الثاني إلى صاحب الماء بعوض ، مثل جزء من حاصل أو عين وما شابه ذلك ، مقابل ذلك الماء . وذكر ان المساقاة ، أن يستعمل رجلاً في نخيل أو كرم ليقوم باصلاحها مقابل أن يكون له سهم معلوم مما تغله.وأهل العراق يسمونها معاملة[5] . وذكر العلماء ان أهل المدينة كانوا يقولون للمساقاة المعاملة ،

---

١ ارشاد الساري (٤/١٨٧ وما بعدها) .

٢ عمدة القارىء (١٢/١٨٣) ، شرح النووي ، (٦/٤٠٠) ، (حاشية على ارشاد الساري) .

٣ تاج العروس (٥/٣٤٢) ، (ربع) .

٤ تاج العروس (١٢/١٨٤) .

٥ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) ، (٨/٣٦) ، (عمل) ، اللسان (١١/٤٧٦) .

وللمزارعة المخابرة ، وللإجارة بيع ، وللمضاربة مقارضة ، وان لهم لغات اختصوا بها [1] .

وقد يخصص الماء كله بالزرع ، أي يكرى كله لمؤجره ، وقد يكرى لما يسد حاجة الزرع ، أي لإرواء الزرع الذي اتفق على إسقائه بالماء ، في كل وقت ، في النهار أو في الليل ، وفي أي لحظة يشاء المستأجر لذلك الماء . وقد يكون على حظ من الماء ، مثل ربع يوم أو ليلة ، أو يوم معين ، أو وقت يثبت . ويقال لهذا الماء (ربيع) ، أي حظ [2] .

وطالما وقعت الخصومات بين المزارعين بسبب اختلافهم على الماء . فالماء هو رأس مال المزارع ، فإذا انقطع عن زرعه ، تأثر زرعه ، وتعرض للهلاك ، وزرعه هو رأس ماله وحياته . ومن هذا القبيل الخصومات التي تقع بسبب اشتراك جملة مزارعين في مورد ماء واحد ، ومحاولة كل واحد منهم الحصول على أكبر مقدار من الماء ، أو أخذه قبل غيره . والخصومات التي تقع من سيل المساء في الشرائج . والجداول التي تمر في عدة مزارع والينابيع والعيون التي تروي جملة أحواط ومحاقل . وقد أشير إلى جملة أنواع من هذه الخصومات في كتب الحديث [3] .

ومن عادة أهل (يثرب) أنهم كانوا يكرون الأرض ، لأجل قصير أو لأجل طويل . فإذا كان الأجل طويلاً فربما غرسوا شجراً ، على نصيب معلوم من الثمر ، وذلك لأن أكثرهم لم يكونوا يملكون كثيراً من الذهب والفضة ، فكانوا يتعاملون على الشطر مما تغله الأرض . ولما جاء المهاجرون زارعوا الأنصار بالشكر على الثلث والربع ، حتى ما كان بالمدينة بيت هجرة ، إلا وزرع على الشطر [4] ، أو على التبن أو على أوسق من تمر أو برّ أو غير ذلك.وكرى بعضهم أرضه بالدراهم والدنانير وبالفضة وبالذهب . وقد أشير الى ذلك في كتب الحديث [5].

---

١ جامع الاصول (١١/١٧٢) ، شرح النووي (٦/٤٠٦ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٥/٣٤٢) ، (ربع) .

٣ عمدة القاريء (١٢/١٨٨ وما بعدها) ، (كتاب المساقاة) .

٤ ارشاد الساري (٤/١٧٦ وما بعدها) .

٥ ارشاد الساري (٤/١٨٨ وما بعدها) .

اكراء الأرض :

واكراء الأرض ، بمعنى إيجار أرض ما لمدة معينة محدودة ، أو بدون حد بشروط وفي مقابل بدل . ويقال لهذا البدل الذي يدفع عن ثمرة استغلال الأرض أو أي كراء (اثوبت) ، أي (الثواب) (ثواب) . ثواب أجر الانتفاع من الشيء الذي أجر . وقد يكون هذا الشيء أرضاً وقد يكون داراً وقد يكون حيواناً . فورد في بعض النصوص العربية الجنوبية ان اختين استأجرتا أرضاً على ساحل نهر (عبرت) ، وبقراً لتقوما بإيجارها الى الفلاحين لاستغلالها بزرعها ، وبتنمية البقر بشروط معينة، تنتهي بأجل نص عليه ، في مقابل بدل ايجار (اثوبت) يدفع الى أصحاب المال . وقد أشير في الكتابة الى أن الإله (المقه) ، قد وافق على العقد وباركه [1] . ومعنى ذلك أن العقد عقد شرعي وقد سجل رسمياً وصار عقداً معترفاً به قانوناً من الحكومة ومن المعبد .

ويراد بلفظة (عبرت) ، لفظة (عبرة) و (العبرة) في لغتنا . والعبرة شاطىء النهر وناحيته ، قال النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر :

وما الفرات إذا جاشت غواربه ترمي أواذيه العبرين بالزبد
يوماً بأطيب منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد [2]

وورد في أحد النصوص ، ان ناساً (ادم) ، استأجروا أرضاً من الآلهة ، على أن يدفعوا أجرها سنة بعد سنة ، وحسبما اتفقوا عليه مع الآلهة [3] ، مما يدل على ان هذه الأرض المؤجرة هي من أوقاف المعبد . وقد أجرها أولئك الناس ، من رجال الدين الذين بيدهم أمر حبوس الآلهة .

ومن حق المؤجر ، أي المالك إبطال العقد ، إذا أخل المستأجر بشرط العقد أو أظهر كسلاً وتباطؤاً أو عدم مبالاة في استغلال الشيء المؤجر [4] . ويعني هذا ان

---

١ Glaser 862 = CIH 290, 1064, 1572, Halevy 49, SD 13, Glaser 131, CIH, 99, Grohman, 126, Handbuch, I, S. 124.

٢ تاج العروس (٣/٣٧٦) ، (عبر) .

٣ Halevy 49, SD 13, Glaser 131, CIH 99, Grohmann, S. 126.

٤ Grohmann, S. 126, SD 21.

الاتفاق كان على دفع نصيب معين من الغلة أو من ثمرة العمل . وبما ان هذا النصيب متوقف على مقدار الجهد الذي يبذل في استغلال الملك المؤجر ، بحيث اذا زاد ، زاد نصيب المؤجر عن ايجار ملكه ، وإذا قلّ ، قلّ نصيبه أيضاً ، ومن حيث ان من مصلحة المؤجر ان يزداد وارد (اثوبت) ملكه ، لذلك صار من حقه إبطال العقد ، إذا رأى تهاوناً في تطبيق ما جاء فيه .

وقد كان أهل الحجاز ، يكرون أرضهم ، يكرونها بالثلث والربع والطعام المسمى وبالذهب وبالورِق . وكانوا يدفعون الأرض إلى من يزرعها ببذر من عنده على أن يكون لمالك الأرض ما ينبت على مسايل الماء ورؤوس الجداول أو هذه القطعة والباقي للعامل . وقد نهى رسول الله عن أكثر أنواع هذه الكراء ، ذكر انه قال : « من كانت له أرض فليزرعها ، فإن لم يزرعها فليمنحها أخاه ، فإن لم يمنحها أخاه فليمسكها »[1] .

بيوع زراعية :

وتضطر الظروف الاقتصادية المزارعين الى بيع الثمار وخضر البقول قبل بدو صلاحها ،وقد يفعلون ذلك تخلصاً من معاملات جني الثمر وحراسته من اللصوص، وحمله الى الأسواق ، وأمثال ذلك من معاملات تحتاج الى مال وجهد . ويقال لذلك (المخاضرة) . وقد عرفت بأنها بيع الثمار قبل بدو صلاحها ، سميت بذلك لأن المتبايعين تبايعا شيئاً أخضر بينهما ، مأخوذ من الخضرة ، ويدخل في ذلك بيع الرطاب والبقول وأشباهها[2] . فكان صاحب الأشجار والمزرعة يبيع ثمار زرعه لغيره ، فيبيع الثمار قبل أن تطعم ، ويبيع الزرع قبل أن يشتد ويفرك منه . وقد نشأت عن هذا البيع خصومات ومنازعات بسبب وقوع عاهات في الحاصل ، تفسد على المبتاع ربحه ، فيطلب عندئذ من البائع استرجاع ما دفعه له كله أو بعضه ، وتقع عندئذ الخصومات . وقد بقيت سنتهم على ذلك حتى مجيء الرسول الى المدينة ، فكانوا يأتونه للمقاضاة ، فوقع النهي منه على هذا النوع من البيوع،

---

١ صحيح مسلم (٥/ ١٨ وما بعدها) ، « باب كراء الارض » .

٢ تاج العروس (٣/ ١٨٠) ، (خضر) .

ولم يسمح به إلا أن يبدو صلاح الثمر ، فيتبين صلاحه ونوعه . وعندئذ لا يحق لمبتاع التذمر من شرائه ، لأنه شاهد ما ينوي شراءه ورآه ، فلا غبن فيه [1] .

ومن بيع المخاضرة شراؤها مغيبة في الأرض ، كالفجل ، والبصل،واللفت ، والثوم وشبهه ، وللفقهاء في ذلك جملة آراء [2] .

وورد ان (المحاقلة) نوع من البيوع . وهي بيع الطعام في سنبله بالبر ، وقيل اشتراء الزرع بالحنطة . وقد نهي عنها في الاسلام[3] .

ومن أنواع البيوع التي تعرض لها الفقهاء (المزابنة) . وهي بيع الثمر في رؤوس النخل بالتمر كيلاً ، وبيع الزبيب بالكرم كيلاً . وذكر بعض العلماء ان المراد بذلك بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر ، وبيع العنب بالزبيب ، وبيع التمر في رؤوس النخل بالتمر . وذكر أيضاً ان من المزابنة بيع التمر بكيل جُزاف ، وكل تمر بيع على شجره بتمر كيلاً ، وقد نهي عنه في الحديث لأنه بيع مجازفة من غير كيل ولا وزن . وقد نهي عنه لما يقع فيه من الغبن والجهالة. وذكر ان المزابنة كل جزاف لا يعرف كيله ولا عدده ولا وزنه بيع بمسمى من مكيل وموزون ومعدود . أو هو بيع معلوم بمجهول من جنسه ، أو هو بيع مجهول بمجهول من جنسه ، أو هو بيع المغابنة في الجنس الذي لا يجوز فيه الغبن، لأن البيِّعَين إذا وقفا فيه على الغبن ، أراد المغبون أن يفسخ البيع وأراد الغابن أن يمضيه فتزابنا فتدافعا فاختصما [4] .

جمعيات زراعية :

ويظهر من بعض الكتابات ان بعض المقاطعات الزراعية كانت في ادارة مجلس يتألف من ثمانية أشخاص عرفوا بـ (ثمنيتن) ، أي (الثمانية) ، أداروا شؤون المقاطعة من إشراف على العمل ، ومن ادارة لأمور الزروع ، ومن تهيئة للبذور وما يحتاج اليه الزرع ، ومن دفع حصص الحكومة والمعبد ، ومن خزن وبيع

---

١ عمدة القاري (١٢/ ٢ وما بعدها) .
٢ عمدة القاري (١٢/ ١٤) .
٣ ارشاد الساري (٤/ ١٨٠) .
٤ عمدة القاري (١١/ ٢٩٠ وما بعدها) ، (١٢/ ١٣ وما بعدها) ، القاموس (٤/ ٢٣٠) ، تاج العروس (٩/ ٢٢٤) ، (زبن) .

وتصريف[1] . فهم هيأة مجلس زراعي لمشروع تعاوني يضم أهـل تلك المقاطعة ، واجبهم تمشية أمور هذه المؤسسة الزراعية والاشراف عليها ، واعطاء كـل ذي حق حقه ونصيبه في هذه الجمعية الزراعية التعاونية .

ويظهر ان شيئاً من التخصص ، كان قد وجد في هذه الجمعيات ، فعهدت أمر الادارة إلى رجل عرف بـ (سمخض) ، كان بمثابة مدير للجمعية ، واجبه الاشراف على الأرض التي أوكل أمر ادارتها اليه. أما وظيفته، فعرفت بـ (سمخضت) أي ادارة أرض أو ادارة مقاطعة ، أو (ادارة) بتعبير أصح .

وعرف من تولى أمر جبايـة الضرائب والاشراف على الموظفين الذين يوكل أعمال الجباية اليهم ، بـ (نحل) ، ويقال لوظيفته (نحلت)[2] . ولا استبعـد أن تكون (نحلت) ، جماعة جمعت بين أعضائهـا روابط فكرية واقتصادية . فتعاونت فيما بينهـا على العمـل معاً والاشتراك في استغلال حاصل هذا العمل . ودليل ذلك أننا نجد معاجم اللغة تفسر (النحلة) بالديانة[3] ، ولهذا التفسير صلة بما ذهبت اليه من معنى للفظة (نحلت) ، وعلى ذلك يكون الـ (نحل) رئيساً للنحلة ، يشرف عليها ويدفع بالنيابة عنها حق الحكومة والمعبد .

وقد ورد في أحـد النصوص أن جمعية من هذه الجمعيات الثماني ، كانت تدير أرضين في ضواحي مدينة (هرم) . وقد نعت أعضاؤها بـ (ابعل) ، أي سادة ورؤساء[4] . فهم سادة هذه الجمعية وأصحاب الارادة فيها .

الهروب من الأرض :

وقد جابهت حكومات العربية الجنوبية المشكلة التي تجابه كل حكومة . مشكلة هرب المزارعين من الأرض والالتجاء الى المدن . ففي بعض نصوص المسند الخاصة بالزراعة نجد تهديداً للمزارعين الذين يفرون من المزارع ويجلون عنهـا ، فيلحقون بذلك الأذى بالزراعة وبالحاصل . والواقع أن حياة الفلاح في المزرعة كانت صعبة

---

١ النص الموسوم بـ Halevy 147

٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 56, Hartmann, Arab. Frage, S. 208, 401, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II,S. 67.

٣ تاج العروس (٨/١٣٠) ، (نحل) .

٤ راجع السطر الاول من النص الموسوم بـ : Halevy 147.

قاسية ؛ فلا يكاد دخل الفلاح يكفيه مؤونته ومؤونة عياله ، ولا سيما أيام الشدة حين يقل الزرع أو يتعرض للتلف لعوامل عديدة ليس في طاقة الفلاح مكافحتها، فضلاً عن الضرائب الباهظة التي عليه أن يدفعها الى صاحب الأرض والحكومة والمعبد . فلاذ بأذيال الهرب من الأرض الى المدن للاشتغال فيها ، بالرغم من تشديد الحكومة في منع الهجرة وترك المزارع من غير موافقة أصحاب الأرض . وقد عرف الهارب من الأرض والمجلي عنها بـ (مهسجلت) في نصوص المسند [1] .

ويقال للأرض التي يهاجر المهاجر اليها ، وللمكان الذي يفر اليه المزارع من الحضر ليجد فيه رزقاً يبحث عنه (مهجرت) في لغة المسند . أي (المهجرة) ، بمعنى : (المهجر)[2] .

العمري والرقبى :

ومن عقود أهل الجاهلية : (العمري) و (الرقبى) . والعمري ما يجعل لك طول عمرك أو عمره ، أو هو أن يدفع الرجل الى أخيه داراً ، فيقول له : هذه لك عمرك أو عمري أينا مات دفعت الدار الى أهله . وقد عمرته اياه وأعمرته جعلته له عمرة أو عمري ، أي يسكنها مدة عمره ، فإذا مات عادت الي[3] . و(الرُقبى)[4] أن يعطي الانسان انساناً ملكاً كالدار والأرض ونحوهما ، فأيهما مات رجع الملك لورثته . أو ان يجعله لفلان يسكنه ، فإن مات ففلان يسكنه ، فكل واحد منهما يرقب موت صاحبه . وقد أرقبه الرقبى ، وأرقبه الدار جعلها له رقبى[5] . وللفقهاء كلام في الاثنين[6] .

ويكون (العمري) و (الرقبى) في الأرض كذلك ، كأن يعطي الرجل رجلاً أرضاً يستغلها طول حياة أحدهما ، فأيهما مات طبقت بحق الأرض ما اتفق عليها من شروط . وقد كانوا يفعلون ذلك بالنسبة للأقرباء والأصدقاء والمقربين لمساعدتهم .

---

١ السطر التاسع والعاشر من النص : REP. EPIGR. 4646

٢ Halevy 147, Rhodokanakis, Stud. Luxl., I, S. 57.

٣ ارشاد الساري (٤/٣٦٤) ، تاج العروس (٣/٤٢١) ، (عمر) .

٤ كبشرى

٥ تاج العروس (١/٢٧٥) ، (رقب) .

٦ ارشاد الساري (٤/٣٦٤ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٤٢١) ، (عمر) .

العرية :

العرية النخلة المعراة . وأعراه النخلة وهب له ثمر عامها[1] . والعرية أيضاً التي تعزل عن المساومة عند بيع النخل ، والتي يعريها صاحبها رجلاً محتاجاً ، وأن يشتري الرجل النخل ثم يستثني نخلة أو نخلتين ، يقال أعرى فلان فلاناً ثمر نخلة ، إذا أعطاه إياها يأكل رطبها ، وليس في هذا بيع ، وإنما هو فضل ومعروف . فالعرية اذن النخلة عزلتها من المساومة ، والإعراء أن تجعل ثمرتها لمحتاج أو لغير محتاج عامها ذلك ، وقد رخص الرسول في العرايا ، وللفقهاء كلام في ذلك[2] .

---

١ قال سويد بن الصامت الانصاري :

ليست بسنهاء ولا رجبية ولكن عرايا في السنين الجوائح

اللسان (١٥/٤٩) ، (عرا) .

٢ اللسان (١٥/٥٠) ، (عرا) .

الفصل الثامن والتسعون

الحياة الاقتصادية

وأقصد بالحياة الاقتصادية كل ما يتعلق بمفهوم الاقتصاد من معنى ، ما يتعلق منه بالحكومة أو ما يتعلق منه بالشعب . وما يتعلق منه بالتجارة والمال ، أو ما يتعلق منه بالزراعة أو بالصناعة والحرف .

واقتصاد أية أمة ، حاصل أمور عديدة : الجو ، من حر وبرد ، ومن مطر وجفاف ، ومن ثروات طبيعية ، تستنبط من الماء أو التربة ، ومن نشاط وجهد وظروف اجتماعية ، هي من حاصل تأثير المحيط في أهله .

وأدخل هنا في الحياة الاقتصادية ما يشمل التجارة بنوعيها تجارة البر وتجارة البحر ، وما يشمل الزراعة ، ثم ما يشمل الحرف والصناعات .

وتشمل التجارة : الاتجار داخل جزيرة العرب ، أي تعامل أبناء بلاد العرب بعضهم مع بعض ، والاتجار مع الخارج ، أي مع الحكومات الغريبة مثل الهند وحكومات افريقيا والفرس والروم .

لقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب السامية نشطون في عالم التجارة . والتجارة تكاد تكون الحرفة الوحيدة عند العرب التي لم ينظر العربي اليها والى المشتغل بها نظرة استهجان وازدراء وانتقاص . بل اعتبرت عندهم من أشرف الحرف قدراً ومنزلة . ونظر الى التاجر نظرة تقدير وتجلة ، مع أنها حرفة مثل سائر الحرف ، فيها من الحيل والخداع واللعب على الناس ما في أية حرفة أخرى

وفيها عمل وجهد على نحو ما نجد في الزراعة أو في الصناعة. ولكنها نظرة واجتهاد الى الحياة ، وظروف طبيعية ، جعلت العرب تجاراً في الغالب ، فشرفوا التجارة على غيرها من الحرف ، وقدموها عليها في المنازل والدرجات . وقد بقيت على هذه المنزلة والدرجة في الإسلام كذلك . وأشير الى شرفها وسمو منزلتها في كتب الحديث ، مما يدل على ما كان للتجارة من منزلة في نفوس الناس .

والتاجر الذي يبيع ويشتري . ومن المجاز التاجر الحاذق بالأمر ، لما تحتاجه التجارة من ذكاء وحذق في مساومات البيع والشراء . وذكر علماء اللغة ان العرب تسمي بائع الخمر تاجراً ، وان أصل التاجر عندهم الخمّار ، يخصونه من بين التجار[1] . والتجارة صناعة التاجر ، وهو الذي يبيع ويشتري للربح[2] . و (التاجر) هو (مكر) في لغة المسند ، و (تمكرو) في الآشورية [3] .

كان الملوك تجاراً يبيعون ويشترون ، وكان رؤساء المعبد تجاراً يتاجرون باسم معابدهم ، ويكسبون من الضرائب التي تقدم للمعابد كسباً فاحشاً ، وكان أصحاب الأملاك ورؤساء العشائر تجاراً كذلك ، يتاجرون بما يقدمه اليهم من هو دونهم في المنزلة من حاصل وغلة ، ويتاجرون بما يستوردونه من الخارج ، من افريقية أو من الهند ، من حاصلات ثمينة غالية في نظر تجار ذلك اليوم ، لبيعه في الداخل أو نقله الى بلاد الشأم أو العراق لتصريفه في أسواق تلك الجهات .

وفي اللهجات العربية ألفاظ ومصطلحات كثيرة لها صلة بالتجارة وبالتعامل ، وهي من اللغات العالمية الغنية في هذه المادة . ويلاحظ بصورة عامة ان اللهجات السامية غنية كلها تقريباً بالألفاظ المستعملة في البيع والشراء والتعامل والتجارة ، وفيها مترادفات كثيرة في هذا الباب. وكثرة هذه الألفاظ دليل على حذق الساميين عموماً بالتجارة وافتتانهم بها ، وعلى وجود عقلية تجارية لديهم . والتأريخ يؤيد ذلك ، فترى الساميين عموماً ، وهم أنشط من غيرهم ، يتنقلون من مكان الى مكان طمعاً في ربح ، وركضاً وراء تجارة ، وهم من أحذق الناس يومئذ في التحكم في الأسعار وفي التعامل وفي البيع والشراء .

---

١ تاج العروس (٣/٦٦) ، (تجر) .
٢ ارشاد الساري (٤/١٣) .
٣ Grohmann, S. 124.

وفي القرآن الكريم لفظة (تجارة) و (تجارتهم) ومصطلحات أخرى عديدة ذات صلة بالاتجار والتجارة والمعيشة والكسب . كما أن فيه اشارات كثيرة الى تجارة قريش والى أثر التجارة في حياة الناس في ذلك الوقت . وفيه تحريم للربا وتوبيخ وتقريع و « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »[1] . وفيه أمور أخرى توحي الينا بما كان للتجارة من أثر كبير في حياة أولئك الجاهليين . بل نجد القرآن الكريم يحاججهم ويناقشهم ويخاطبهم بلغتهم التي يفهمونها لغة الربح والخسارة والكسب والثواب والعقاب ، والتأجيل والتعجيل ، وما أشبه ذلك من كلام له أبلغ الوقع والادراك في نفس التاجر ، الذي يعي الناحية المادية من ربح وخسارة وكسب وتوفير ، أكثر من وعيه وادراكه للأمور الروحية التي لا يفهمها كثيراً ، لأنها ليست من صميم حياته ومحيطه العملي .

والتجارة أنواع كثيرة ، تشمل كل أنواع البيع والشراء . والتاجر ، هو الذي يتاجر في الأسواق . غير أن منهم من تخصص في نوع خاص من أنواع التجارة مثل بيع الحبوب ، وقد يتخصص ببيع نوع خاص من الحبوب ، مثل الحنطة ، فيقال له : (حنّاط) وحرفته (الحناطة)[2] . وقد يتخصص ببيع وشراء (البز) ، فيقال له (البزاز) وحرفته (البزازة)[3] . وقد يتخصص ببيع (الزيت) ، فيقال لبائعه (الزيات) وللذي يعتصره (الزيات) كذلك[4] .

وتكون التجارة بالمقايضة ، وهي المعاوضة ، اذا عارض التاجر أو أي شخص متاعاً بمتاع آخر ، وبادل سلعة بسلعة أخرى[5] . وهي الطريقة القديمة في الاتجار ، قبل ان يتعامل بالذهب والفضة وزناً ، في تقييم قيم الأشياء ، وقبل ان تعرف النقود ، التي ولدت من التعامل بالذهب والفضة . وطريقة المقايضة أو المبادلة أو المعاوضة ، لا تزال طريقة قائمة معروفة ، تتبعها الدول ، في تصريف منتجاتها بمنتوجات أخرى عوضاً عن النقد ، لحاجتها الى النقد والى تصريف حاصلاتها

---

١ سورة المطففين ، الآية ١ وما بعدها .
٢ تاج العروس (٢/١٢١) ، (حنط) .
٣ ارشاد الساري (٤/١٣) ، تاج العروس (٤/٨) ، (بزز) .
٤ تاج العروس (١/٥٤٧) ، ، (زيت) .
٥ تاج العروس (٥/٨١) ، (قيض) .

الفائضة عليها . وقد اتبع الجاهليون هذه الطريقة ، فكانوا يبادلون الجلود بسلع أخرى ، ويبادلون التمر بالحنطة [1] . وقد اتبع الجاهليون طريقة التعامل بالذهب والفضة وزناً كذلك ، كما تعاملوا بالنقود .

ويتبين لنا من دراسة كتب التفسير والحديث وكتب الأدب والأخبار والسير انه كان لأهل مكة عرف وضعوه في أصول التجارة يمكن ان نسميه (قانون التجارة) بالنسبة لأهل تلك المدينة ، تكوّن من تجاربهم في الاتجار ومن تعاملهم بعضهم مع بعض ، ومن تجاربهم وتعاملهم مع الخارج ، مثل تعاملهم مع الفرس والروم والحبش ، حيث أخذوا من هؤلاء الأعاجم النظم والقواعد التجارية التي كانوا يسيرون عليها والتي لم تكن معروفة عند أهل مكة ، بسبب اختلاف المحيط وطريقة التعامل التجاري بين الدول . فتجار مكة وأصحاب المال ، هم الذين وضعوا أصول التعامل في التجارة فيما بينهم ،وهم الذين كوّنوا بأنفسهم قوانينهم ، إذ لا حكومة منظمة لهم تضع التشريع وتقوم بالتنفيذ على نحو ما كان في العربية الجنوبية أو عند الفرس أو الروم .

ويتبين لنا من دراسة الموارد المذكورة كذلك ، أن أهل مكة كانوا خبراء في أصول تنمية الأموال وفي كيفية استثمارها واستغلالها . فكانت لهم مرابحات وكانت لهم شراكات وتعامل ومراسلات مع غيرهم من أصحاب المال في مختلف أنحاء جزيرة العرب ، وكان لهم ربا ، للحاجة ، أي للشدة والعسر والضيق . أو للتعامل بالمال المقترض بالربا لانمائه في مشاريع اقتصادية تعود بالفائدة على المقترض أكثر من فائدة الربا التي يدفعها للمرابي ،حتى ظهر في مكة أناس كانوا يعدّون من كبار الأغنياء بالنسبة لأهل تلك المدينة وبالنسبة لجزيرة العرب في ذلك الوقت.

وفي المسند ألفاظ كثيرة ذات معاني تجارية تتعلق بالبيع والشراء والامتلاك والعقود وهي دليل على أن العرب الجنوبيين كانوا قوماً تجاراً يجنون من التجارة أرباحاً طائلة ، ويعيش الكثير منهم عليها . فكانوا يبيعون ويشترون ويصدرون ويستوردون في الداخل والخارج ،يقصدون الأسواق الشهيرة القريبة منهم ، كما يقيمون الأسواق في بلادهم في المواسم أو في أيام معينة من الاسبوع للبيع والشراء ، ولسد حاجاتهم

---

١ تقويم البلدان (٩٩) .

بما يفيض عليهم من حاصل زراعة أو منتوج حيوان يبدلونه مقايضة بما يعوزهم من ضرورات وحاجات .

والتجارة هي (ش ت ي ط) (شتيط) في لغة قتبان . وقد وردت هذه اللفظة في عدد من النصوص القتبانية ، في أوامر أصدرها ملوك قتبان لتنظيم التجارة وتنظيم الجباية ، وفي كيفية جباية (المكس) عن البضائع التي تباع في الأسواق، وفي العقوبات التي تفرض على المخالفين وعلى المتهربين من دفع جباية السوق . وقد حددت القواعد التي يسمح بموجبها للغرباء في الاتجار بأسواق مملكة قتبان ، وفي كيفية اتجار القتبانيين في الأسواق الخارجية .

وفي جملة هذه النصوص نص أصدره الملك (شهر هلال بن يدع اب) (شهر هلل بن يدع اب) في تنظيم التجارة وفي كيفية الاتجار . وقد نشر على شكل اعلان أو مرسوم ملكي موجه من الملك الى التجار من أهل قتبان ، والى الغرباء الوافدين عليها للاتجار ، وقد كتب ونشر ليطلع عليه الناس كما تفعل الدول في الوقت الحاضر .

وقد وردت في النص جملة مصطلحات وألفاظ ، لها معان تجارية ، مثل (يشط) أي يتاجر ، و (يعرب) من (عرب) بمعنى يقدم عربوناً ويضع عربوناً [1] . ومن أصل (عرب) العرابة والعربون في العربية الشمالية [2] . و (خدر) بمعنى أقام ومقيم ومقيمين ونازلين . وقد ورد في المعجمات اللغوية ان من معاني هذه اللفظة الاقامة بالمكان[3] . ويُقصد بذلك النازلون في مكان ما . ولما كان هذا النص أمراً وقانوناً في تنظيم التجارة ، فقد حدد ما جاء فيه من أوامر ، بالنسبة الى سكان المدينة (تمنع) وخارجها ، وكذلك مملكة قتبان ، والمقيمين بها ، والوافدين من خارج قتبان للعمل بالأسواق والاتجار . ولذلك وردت هذه الجملة: « ومن يتجر تجارة بتمنع وبخارج تمنع ، فعليه ان يقدم عربوناً الى تمنع ، وان يكون مقيماً بشمر ، وإن آثر قتبان محلاً لاتجاره ، وأراد ان يتجول ليشتري ، فعليه أن يشتري من شمر ... » . فحدد بذلك كيفية الاتجار وحق الاتجار والموضع

١ راجع السطر الثامن من النص : REP. EPIGR. 4337.
٢ القاموس (١/١٠٢) ، تاج العروس (٣/٣٣٣ وما بعدها) ، « الكويت » ، (٣/١٧٠ وما بعدها) ، (خدر) .
٣ القاموس (٢/١٨) .

الذي يجب ان يشترى منه بالنسبة الى تجار قتبان والى التجار الغرباء عن تمنع .

وقد حدد هذا القانون حقوق الـ (خدر) ، أي التاجر النـازل والمقيم في إمارة (شمر) ، والذي يتجول فيذهب الى قتبان للاتجار فيها والتسوق من أسواقها، ويذهب الى قبائلها لبيع ما عنده اليها أو لشراء ما يحتاج اليه من تجارة منهـا ، وعليه أن يفعل ذلك ، ولكنه ملزم بأخبار (عهر شمر) ، بذلك ، وذلك لتسوية المشكلات والحسابات التي تتـولد من المعاملات التجارية . وقد تطرق النص الى الأضرار التي قد تصيب الأجانب أو القتبانيين ، والى احقاق الحقوق ، ولهـذا وضع الملك هذا الأمر . وجاءت في آخر النص هذة الجملة : « وخمسي ورقم » أي « خمسين ورق » . وقـد سقطت كلمات قبلها ، فلم يعرف المراد من ذكر هذا الرقم ، أقصد وضع تأمينات بهذا القدر المذكور ، أم قصـد جزاءً يفرض على المخالفين ، أو غير ذلك .

وهذه القوانين القتبانية،هي من أقدم وأشهر القوانين التي وصلت الينا باللهجات العربية القديمة في كيفية تنظيم الاتجار والتعامل في السوق وفي تعيين حقوق الحكومة ونصيبها من الأرباح المتأتية من التجارة.وهي دليل ناطق على مقدار عناية القتبانيين بأمور التجارة بالنسبة لذلك الوقت .

التجارة البرية :

والتجارة البرية ، هي عمـاد تجارة الجاهليين ، ولا سيما الجاهليين القريبين من الاسلام وسندهم الأول في رخائهـم وفي كسب ثرواتهم . وعمـاد هذه التجارة وسندها القوافل . فقـد كان الملوك وسادات القبائـل والأشراف يرسلون تجاراتهم بقوافل الى مواضع اتجارهم ، فتبيع ما تحمل وتشتري ما تحتاج اليه من تجارة ، لتبيعها في مكان آخر بثمن غال ، ويكسب أصحاب هذه القوافل كسباً حسناً من هذا الاتجار .

والتجارة البرية : إما تجارة داخلية ، أي داخل قطر من أقطار جزيرة العرب وبين أقطارها ، وإما تجارة خارجية ، كانت تتم مـع بلاد الشأم والعراق ، أي خارج حدود جزيرة العرب في اصطلاح الجغرافيين المسلمين .

وقد أشير في التوراة وفي الكتابات الآشوريـة والمؤلفات اليونانية واللاتينية إلى

اتجار العرب مع الخارج ، كما أشير إلى اتجار الآشوريين والفرس والرومان والروم مع العرب ، وإلى طمع الدول الكبرى لعالم ذلك الوقت في جزيرة العرب ، نظراً لما كانوا يسمعونه عن ثرائها وغناها ، ولموقعها الجغرافي المهم الذي يقع بين افريقية وآسية ، ويهيمن على المياه الدافئة ذات المنافع الكبيرة بالنسبة للتجارة العالمية في كل وقت وزمان .

والعربية الجنوبية في كتب اليونان والرومان وفي التوراة، بلاد غنية ذات خيرات وثروات وتجارات وأموال ، قوافلها تخترق جزيرة العرب الى بلاد الشأم والعراق، وفي بلادها الذهب والفضة والحجارة الكريمة ، تتاجر مع الخارج فتربح بتجارتها هذه كثيراً ، وبذلك اكتنزت المعادن الثمينة المذكورة والأموال النفيسة حتى صارت من أغنى شعوب جزيرة العرب .

وفي (المزامير) أن (شبا) ستعطي (الذهب) لملك العبرانيين في جملة الشعوب التي ستخضع له ، تقدم له الجزية[1] . وورد في (أرميا) أن (شبا) كانت ترسل (اللبان) الى اسرائيل[2] . وقد ذكروا في سفر (حزقيال) في جملة كبار التجار . كانوا يتاجرون بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم وبالذهب[3] . وأشير في (أيوب) الى قوافل (شبا) التي كانت تسير نحو الشمال حتى تبلغ اسرائيل[4] .

وفي هـذه الاشارات دلالة على الصلات المستمرة التي كانت بين العبرانيين والسبئيين ، وعلى أن السبئيين كانوا هم الذين يذهبون الى العبرانيين ، يحملون اليهم الذهب والأحجار الكريمة والطيب واللبان . فتبيع قوافلهم ما عندها في أسواق فلسطين ، ثم تعود حاملة ما تحتاج اليه من حاصلات بلاد الشأم ومصر وفلسطين .

ويظهر من سفر (يوئيل) ان السبئيين كانوا يشترون السبي من فلسطين ، من (بني يهوذا) ، حيث جاء فيه تهديد لأهل صور وصيدا بأن رب اسرائيل سينتقم منهم جزاء اعتدائهم على الاسرائيليين ونهبهم ذهبهم وفضتهم . وسيجعلهم عبيداً يباعون في الأسواق إلى السبئيين : « وأبيع بنيكم وبناتكم بيد بني يهوذا

---

١ المزامير ، المزمور التاني والسبعون ، الآية ١٥ .
٢ أرمياء ، الاصحاح السادس ، الآية ٢٠ .
٣ حزقيال ، الاصحاح السابع والعشرون ، الآية ٢٢ وما بعدها .
٤ أيوب ، الاصحاح السادس ، الآية ١٩ .

تبيعونهم للسبئيين ، لأمة بعيدة ، لأن الرب قد تكلم » . مما يدل على انهم كانوا من المشترين للرقيق ، ينقلونه الى بلادهم للاستفادة منهم في مختلف نواحي الحياة، يتخذون النساء الجميلات زوجات لهم ، ويتخذون البشعات والقويات للخدمة ، ويعهدون للرجال بالأعمال المختلفة التي تحتاج إلى ذكاء ومهارة وفن واتقان، وبأعمال أخرى صناعية وزراعية ، وأمثال ذلك .

وقد أشير الى ثراء السبئيين وامتلاكهم للذهب والفضة في بعض الكتابات الآشورية ، فذكر (تغلاتبليزر) الثالث مثلاً أنه أخذ الجزية من السبئيين، أخذها ذهباً وفضة وإبلاً : جمالاً ونوقاً ولباناً وبخوراً من جميع الأنواع ، كما ذكر (سرجون) أنه أخذ الجزية من (يثع أمر) ملك سبأ ، أخذها ذهباً وخيلاً وجمالاً ومن مصنوعات الجبال[1] .

وقد سبق لي أن تحدثت عن هذا الموضوع في أثناء حديثي عن صلات الآشوريين مع العرب ، وعندي أن هذه الجزية التي دفعت الى الآشوريين ، قد تكون جزية بالمعنى المفهوم من اللفظة ، أي نتيجة قهر وإكراه وخضوع لحكم الآشوريين وهزيمة لحقت بالسبئيين في حرب أو حروب وقعت مع الآشوريين ، وقد تكون بمعنى ضريبة دفعها السبئيون الى الآشوريين في مقابل السماح لهم بالاتجار في أسواق الحكومة الآشورية، فهي ضرائب يدفعها التجار أو تدفعها الحكومات الى الحكومات الأخرى في مقابل السماح لها بالاتجار معها ، وفتح أبواب أسواقها لرعاياها ، للبيع والشراء .

وفي كتب اليونان واللاتين تأييد واتفاق تام مع ما جاء في التوراة عن ثراء السبئيين ، وعن امتلاكهم الذهب والفضة والأحجار الكريمة . وقد بالغت في ذلك مبالغة أخرجتها من حدود الواقع الى الخيال . فنسبوا لهم استعمال الأثاث المصنوع من الذهب والأواني المستعملة من الذهب والفضة ، وغير ذلك مما أخرج وصفهم من حدود المعقول وأدخله في عالم القصص والأساطير .

وقد بالغ (سترابو) في وصف ثراء السبئيين بسبب اتجارهم بنوع من العطور الزكية ، دعاها باسم (اللاريم) Larimum وبالمواد الأخرى النفيسة ، وذكر انه كانت « لديهم كميات كبيرة من مصوغات الذهب والفضة ، كالأسرة والموائد

---

١ Hastings, p. 842.

الصغيرة ، والآنية والكؤوس ، أضف اليها فخامة منازلهم الرائعة ، فإن الأبواب والجدران والسقوف مختلفة الألوان بما يرصع فيها من العاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة »[1] .

وقد كانت هذه الشهرة من أهم العوامل التي دفعت بالقيصر (أغسطس) إلى ارسال حملته المشهورة المخفقة على اليمن . وهاك ما كتبه المؤرخ (بلينيوس) Pliny عن ثروة العرب وعن تجارتهم ، لترى ما كان ماثلاً في مخيلة الرومان واليونان عن العرب . قال : « ومن الغرابة ان نقول : إن نصف هذه القبائل التي تفوق الحصر ، يشتغل بالتجارة ، أو يعيش على النهب وقطع الطرق . والعرب أغنى أمم العالم طراً ، لتدفق الثروة من روما وبارثيا اليهم ، وتكدسها بين أيديهم . فهم يبيعون ما يحصلون عليه من البحر ومن غاباتهم . ولا يشترون شيئاً مقابل ذلك »[2] .

وقد أشار (بلينيوس) إلى ان المعينيين كانوا يملكون أرضاً غنية خصبة ، يكثر فيها النخيل والأشجار ، وكان لهم قطعان كثيرة من الماشية ، وان السبئيين كانوا أعظم القبائل ثروة بما تنتجه غاباتهم الغنية بالأشجار من عطور وبما يملكونه من مناجم الذهب والأرضين المزروعة المرواة ، وما ينتجونه من العسل وشمع العسل . كما كانوا ينتجون العطور[3] .

وقد عدّ (سترابو) العسل في جملة المحصولات التي اشتهرت بها العربية الجنوبية ، وذكر انه كثير جداً فيها[4] .

وقد كان العرب الجنوبيون يتاجرون مع بلاد الشأم ، فيرسلون اليها قوافلهم مارة بالحجاز الى أسواق بلاد الشأم بالطرق البرية التي لا يزال الناس يسلكونها حتى اليوم مع شيء من التحوير والتغيير . وقد عثر على كتابة دوّنها كبيران شكرا فيها الإله (عثتر) ، لأنه نجاهما مع قافلتهما من الحرب التي كانت قد وقعت بين (مصر) وبين (مذي) ، فوصلا معها سالمين الى مدينة (قرنو) ، أي

---

١ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٦٢) ، (١٩٥٢) .
٢ مجلة المجمع العلمي العراقي (ج ١ م ٣ ص ١٢٩) .
٣ مجلة المجمع العلمي العراقي (الجزء الاول : المجلد الثالث) ، (١٩٥٤ م) (ص ١٣٩) .
٤ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٤٧) .

عاصمة (معين) . وقد ورد أنهما كانا يتاجران مع (مصر) و (االشر)، أي (آشور) ، و (عـــبر نهرن) (عبر نهران)[1] . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن هذه الكتابة تشير الى حرب وقعت فيما بين السنة (٢٢٠) والسنة (٢٠٥) قبل الميلاد . أي في عهد (البطالمة) ، وأن تلك الحرب كانت بين (الميديين) الذين أشير اليهم بـ (مذى) وبين (البطالمة) الذين أشير اليهم بـ (مصر)، لأنهم حكام مصر ، أو الحرب التي وقعت فيما بين (السلوقيين) وبين (البطالمة)، والتي أدت الى الاستيلاء على (غزة) سنة (٢١٧) قبل الميلاد . وقد كان العرب الجنوبيون يتاجرون مع هذه المدينة التي تعتبر الميناء الذي يؤدي بالتجار الى موانىء مصر[2] .

وقد كانت (البتراء) أي (سلع) Sela ، أهم عقدة طرق يمر بها المعينيون والسبئيون . ومنها يتجه طريق نحو البحر الميت ، لمن يريد الاتجار مع بلاد الشأم وطريق آخر ينتهي بغزة ، لمن يريد الاتجار مع هذا الميناء المهم ، الذي بقي العرب يتاجرون معه الى أيام الرسول . وقد كان (هاشم بن عبد مناف) ممن يتــاجر معه ، وبه توفي كما تذكر الأخبار .

وقد كان الذهب في رأس السلع التي حملها تجار العرب إلى الآشوريين وحكومات العراق وبلاد الشأم،وفي التوراة ذكر للذهب الذي كان يجلبه العرب إلى العبرانيين، وقد أشرت إلى ما ذكره الكتبة اليونان عن الذهب عند العـرب ، ولعلهم كانوا يحملون الفضة اليهم كذلك . فقد كانت للفضة مناجم في جزيرة العرب. وقد ورد في أخبار أهل الأخبار ان (أبا سفيان) كان قد حمل فضة كثيرة معه لبيعها في أسواق بلاد الشأم ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد ؛ فلا يستبعد تصدير العرب للفضة لبيعها في تلك الأسواق في ذلك العهد .

أما منتوجات الحديد أو مصنوعات معادن أخرى ؛ فلا نجد لها ذكراً في قائمة السلع التي كان يحملها التجار العرب إلى الخارج ، بل يظهـر ان أهـــل جزيرة العرب ، كانوا هم الذين يستوردون مصنوعات المعادن من الخارج إلى جزيرتهم ،

---

١ REP. EPIGR. 3022, J. Pirenne, Paléographie des Inscriptions Sud-Arabes, I, (1956), p. 211.

٢ Die Araber, I, S. 74. f.

فنجد في الأخبار انهم كانوا يفتخرون بالسيوف الهندوانية ، أي المصنوعة بالهند ، أو المعمولة من حديد هندي ، أو المعمولة على طراز سيوف الهند . وقد عثر المنقبون على مصنوعات معدنية ، تبين لديهم انها من مصنوعات الرومان والروم ، مما يدل على انها قد استوردت من الخارج ، أو ان العمال والمشتغلين في الصناعات المعدنية ، كانوا قد رأوا تلك النماذج فعملوا على محاكاتها وصنع أمثالها . ونظراً لتأخر الصناعة عند الجاهليين ، وإلى نظرتهم الازدرائية اليها واحتقارهم لمن كان يشتغل بها ؛ فلا يعقل ان تجد مصنوعاتهم المعدنية مكانة لها بين المنتوجات المماثلة لها في الأسواق الخارجية . لهذا اقتصرت صادرات جزيرة العرب إلى الخارج على المواد الخام ، المتيسرة في بلاد العرب ، أو المستوردة من افريقية أو من الهند ومن وراء بلاد الهند ، وأهمها العطور والطيب والجلود .

وكان (الطيب) ، من أهم المواد التي تاجر بها العرب الجنوبيون . تاجروا بتصديره الى خارج العربية الجنوبية الى بلاد الشأم ومصر والعراق وتاجروا به في الداخل أي في العربية الجنوبية ، وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد عرف (الطيب) بـ (طب) (طيب) في لغة المسند[1] . ويستخرج الطيب من أنواع متعددة من الأشجار ، ويجلب بعضه من الخارج من الهند وافريقية ، ويصدر الى مصر وأسواق بلاد الشأم والعراق .

والبخور من المواد الثمينة ذات السعر العالي بالنسبة لتجارة ذلك الوقت . والبخور ما يتبخر به ، وثياب مبخرة مطيبة[2] . وقد كانوا يحرقون البخور في المباخر ، ويبخرون به المعابد والأصنام ، كما كانوا يبخرون الضيوف ، ويطيبون ثيابهم به . ومنه (القسط) ، وهو عود هندي يتبخر به ، يجاء به من الهند ، يجعل في البخور والدواء . ويوجد قسط عربي . وورد (قسط اظفار) ، قيل هو ضرب من الطيب ، وقيل من العود[3] . وعندي أنه (قسط ظفار) ، نسبة الى (ظفار) قرب مرباط بالعربية الجنوبية ، وتعرف بـ (ظفار الساحل) ، نسب اليها العود الذي يتبخر به لأنه يجلب اليها من الهند ، ومنها الى اليمن ، كنسبة الرماح الى (الخط) ، فإنه لا ينبت به ، وإنما تجلب من الهند[4] . وقد أشير

---

١ Müller, Biblische Studien, III, S. 85.

٢ تاج العروس (٣/٣٢) ، (بخر) .

٣ تاج العروس (٥/٢٠٥) ، (قسط) .

٤ تاج العروس (٣/٣٧٠) ، (ظفر) .

الى (العود) في الحديث . ورد : عليكم بالعود الهندي . وقيل هو القسط البحري[1].

و (المسك) من أنواع الطيب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم[2] ، ويحفظ عادة في قوارير ، وهو من الطيب الثمين الذي يباع بأثمان غالية . وكانت العرب تسميه (المشموم) . ويذكر علماء اللغة أن اللفظة معربة،عربت من أصل فارسي هو (مشك)[3] . ورد في الحديث أطيب الطيب المسك . واستعملوه في الطب ، عالجوا به جملة أمراض[4] .

والعنبر من المواد التي تذكر بعد المسك في العربية ، وللأخباريين آراء في أصل العنبر ، وأجوده ما يجلب من شحر عمان[5] .

و (المرّ) ، وهو (امرر) في المسند ، من المـواد الثمينة الغالية في قائمة المنتجات العربية التي تباع داخل البلاد العربية وخارجها ، وقد أقبـل العبرانيون والمصريون على استيراده وشرائه لاستعماله في الأغراض الدينية ، فاستعمل في المعابد وفي التحنيط ، واستعمل في جملة الأجزاء التي تدخل في الدهن المقدس[6] . وذكر علماء اللغة ان (المـر) كالصبر ، دواء سمي به لمرارته . وقد عالجوا به جملة أمراض[7] .

و (الصبر) عصارة شجر مرّ ، وأجوده (السقطرى) ، ويعرف أيضاً بالصبارة [8] .

وأما (القرفة) ، فإنها من المواد الثمينة كذلك ، وتنبت في جزيرة (سيلان) بصورة خاصة . وتقشر ويستعمل قشرها ، أو يستعمل دهنها الحاصل من ثمرها في بعض الأحيان[9] . ويرى علماء اللغة ان (القرفة) ضرب من (الدار الصيني)، وهو أنواع ، منه (الدار صيني) الحقيقي ، ومنه المعروف بـ (قرفة القرنفل)[10] .

---

١ تاج العروس (٢/٤٣٧) ، (عود) .

٢ سورة المطففين ، الآية ٢٦ .

٣ تاج العروس (٧/١٧٦) ، (مسك) .

٤ تاج العروس (٧/١٧٦ وما بعدها) ، (مسك) .

٥ تاج العروس (٣/١٢٦) ، (العنبر) ، الاشارة الى محاسن التجارة . (ص ١٩ وما بعدهـا) .

٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٢٦) ، Hastings, p. 639. –

٧ تاج العروس (٣/٥٣٧) ، (مرر) .

٨ تاج العروس (٣/٣٢٥) ، (صبر) .

٩ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢١٢) ، Hastings, p. 786.

١٠ تاج العروس (٦/٢١٩) ، (قرف) .

و (القرنفل) من المواد المستوردة من الهند وما وراءها . وقد استعملوه طيباً، كما عالجوا به ، وطيبوا به الأكل . وقد أشير اليه في شعر لأمرىء القيس، حيث أشار الى رائحته الطيبة ، وأشير اليه في شعر لعمرو بن كلثوم[1] .

وقد ذكر (الكافور) في القرآن الكريم : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً »[2] . وفي ذلك دلالة على معرفة العرب به ووقوف قريش عليه واستعمالها له . وذكر أن الكافور ، طيب ، أو أخلاط من الطيب تركب من كافور الطلع ، وقيل يكون من شجر بجبال بحر الهند والصين[3] .

وأما (قصب (الذريرة) ، فهو (قليمتن) ، أي (القليمة) في المسند، وهو (قصب الطيب)[4] . و (الذرور) عطر يجاء به من الهند ، كالذريرة ، وهو ما انتحت من قصب الطيب ، وقيل هو نوع من الطيب مجموع من أخلاط. وبه فسر حديث عائشة : طيبت رسول الله لاحرامه بذريرة[5] .

و (السليخة) نوع من الـ Cassia ، أي قشرة تؤخذ من شجرة القرفة ، أو من أشجارها[6] . وذكر علماء اللغة أن السليخة عطر ، وكأنه قشر منسلخ ، ودهن ثمر البان قبل أن يربب بأفاويه الطيب ، فإذا ربب بالمسك والطيب ثم اعتصر ، فهو منشوش . أي اختلط الدهن بروائح الطيب[7] .

و (الكندر) ضرب من العلك ، وقيل هو اللبان ، وقد عولج به[8] . و (اللبان) ، مشهور في العربية الجنوبية ، وهو من حاصل الهند والعربية الجنوبية وافريقية ، وهو ضرب من الصمغ ، وذكر انه الكندر . وانه يصنع من عصير جملة أنواع من الشجيرات ، ويستخرج من عصير يستنبط بشق قشر الشجيرة ،

---

١ قال عمرو بن كلثوم :

كأن المسك نكهته بفيها ... وريح قرنفل والياسمينا

تاج العروس (٨/٧٩) ، (القرنفل) .

٢ سورة الدهر ، الآية ٥ .

٣ تاج العروس (٣/٥٢٧) ، (كفر) .

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢١٦) ، Hastings, p. 786.

٥ تاج العروس (٣/٢٢٣) ، (ذر) .

٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٦٢) ، Hastings, p. 119.

٧ تاج العروس (٢/٢٦٢) ، (سلخ) .

٨ تاج العروس (٣/٥٢٩) ، (الكندر) .

وتجفيف العصير . وقد استخدم في المعابد . وأشير في سفري (أشعياء)[1] ، و (أرمياء)[2] ، إلى ان العبرانيين كانوا يستوردونه من (شبا) ، أي من أرض (سبأ) ، وأشهره من شحر عمان . وأحسنه ما يجمع من موضع تجمعه قبل سقوطه على الأرض ، أو تلوثه بمادة غريبة قد تتساقط عليه[3] .

ولفظة (الكندر) من أصل أعجمي هو Cunduru ، وهو من الألفاظ (السنسكريتية) . فيظهر ان الكلمة دخلت العربية من الهند[4] .

وقد كانت في المعابد مخازن تجمع فيها أصناف الطيب والمر والبخور ، وذلك للتصدير والبيع . وقد كانت تقوم بمهمة وسيط في البيع والشراء ، تبيع ما تخزنه وتحصل بذلك على عمولة تستفيد منها وتدر عليها أرباحاً طائلة جداً ، تثري منها. وهكذا نجد المعابد وهي تكاد تحتكر تلك المواد وتنفرد ببيعها إلى التجار[5] .

ويقسم الطيب إلى ذكور الطيب وإلى إناثه . وذكور الطيب ما يصلح للرجال دون النساء نحو المسك والعنبر والعود والكافور والغالية والذريرة . وعرف هذا النوع بـ (ذكارة الطيب) . والمؤنث طيب النساء ، كالخلوق والزعفران[6] . وورد ان (الغالية) ، طيب عرف في زمن (معاوية) ، وذلك ان (عبدالله ابن جعفر) دخل عليه ورائحة الطيب تفوح منه ، فقال له ما طيبك يا عبدالله ؟ فقال : مسك وعنبر جمع بينهما دهن بان . فقال معاوية : غالية أي ذات ثمن غال . وقيل أول من سمّاها بذلك (سليمان بن عبد الملك) ، وانما سميت لأنها أخلاط تغلي على النار مع بعضها[7] . والخلوق من طيب النساء، يتخذ من الزعفران وغيره ، وتغلب عليه الحمرة والصفرة . وقد نهي عنه ، لأنه من طيب النساء[8].

---

١ أشعياء ، الاصحاح ٦٠ ، الآية ٦ .
٢ أرمياء ، الاصحاح ٦ ، الآية ٢ .
٣ تاج العروس (٩/٣٢٩) ، (لبن) ، الاشارة الى محاسن التجارة (ص ٢٢) .
٤ W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 633.
٥ Rhodokanakis, Stud. Lexd., I, S. 6.
٦ اللسان (٤/٣١٠) ، (ذكر) .
٧ تاج العروس (١٠/٢٧٠) ، (غلى) .
٨ تاج العروس (٦/٣٣٧) ، (خلق) .

قوافل سبأ :

وقد أشير في التوراة الى قوافل سبأ ، وهي قوافل كانت تسير من العربية الجنوبية مخترقة العربية الغربية الى فلسطين ، فتبيع ما تحمله من سلع هناك . وقد كان السبئيون يسيطرون على العربية الغربية ، حتى بلغت حدود مملكتهم أرض فلسطين . ولم تشر التوراة الى وجود قوافل بحرية وسفن للسبئيين في البحر الأحمر ، تتاجر مع فلسطين ومصر ، ولم نعثر على كتابات بالمسند تشير اليها ، لذلك ، فليس في استطاعتنا التحدث عن التجارة البحرية للسبئيين مع بلاد الشأم .

سارت حكومة سبأ على سياسة التوسع التجاري ، وهذا التوسع يقتضي السيطرة على الطرق،فبذلت جهدها لبسط سلطانها على الطرق والمسالك وجعلها تحت نفوذها وحكمها . وبعد استيلائها على بقية الحكومات العربية الجنوبية الأخرى وضعت الطرق الجنوبية المؤدية الى أرض اللبان والمواد الأخرى التي اشتهرت بها العربية الجنوبية ، والى الموانىء والمرافىء التي تتاجر مع إفريقية والهند وتستورد منها السلع النفيسة الثمينة تحت نفوذها وحكمها ، وحسنتها وشقت طرقاً جديدة لأغراض حربية واقتصادية ، وبلطت بعض مواضع منها لتقاوم السيول والأمطار ، وأحكمت جوانبها وحصنتها بالحجارة الصلدة حتى تقاوم السيول التي تنحدر من المرتفعات على هذه الطرق فلا تلحق الأذى بها . ولا تزال آثار تلك الطرق باقية ، وقد كتب عنها السياح .

واتجهت نحو السيطرة على الطرق البرية المؤدية الى بلاد الشأم . ولهذه الطرق أهمية كبيرة بالنسبة الى اليمن والعربية الجنوبية . وهي طرق موازية للطريق البحرية الممتدة في البحر الأحمر ، ولها شأن خطير في التجارة العالمية . وقد أسست مواضع حراسة ، لحراسة القوافل من قطاع الطرق ومن تحرش القبائل بها ، ولعل أهل يثرب الذين يرجعون نسبهم الى اليمن ، هم من الرجال الذين غرسهم السبئيون في هذا المكان لحماية قوافلهم التي تذهب الى بلاد الشأم .

ووجه السبئيون أنظارهم نحو العراق وموانىء الخليج العربي كذلك،فاستخدموا الطريق الممتدة من نجران الى (السليل) ومن هناك الى الخليج والعراق[1] .

---

١ Rhodokanakis, Altsab. Texte., S. 9, W. H. Irvine Shakespear, in the Geogr. Journal, LIX., No. 5, (1922), p. 321.

وتوجد آثار طرق جاهلية مبلطة تبليطاً حسناً وأخرى ممهدة تمهيداً فنياً . وقد أنشىء بعضها في أرض جبلية وفي أرضين وعرة ، وذلك باستعمال الآلات بمهارة فائقة في قطع الصخور لانشاء هذه الممرات . وقد زفّت بعض هذه الطرق وغطي بطبقة من الاسفلت ، ووضعت عليها صُوى ترشد المارة ، ولما كانت الطرق الطويلة المبلطة تبليطاً فنياً تحتاج إلى نفقات طائلة وإلى أيدٍ عاملة كثيرة وإلى حكومة كبيرة غنية ، لم يكن من الممكن يومئذ فتح طرق طويلة ممهدة تخترق جزيرة العرب ، على شكل الطرق التي أنشأها الرومان في انبراطوريتهم ، لسير القوات العسكرية عليها والتجارات فاقتصر على إقامة الطرق الضرورية القصيرة التي توصل المدن والقرى بالمواضع المهمة [1] .

وقد كان اعتماد التجار على الحيوانات ولا سيما الجمل في نقل تجاراتهم . أما العربات فلم تكن مستخدمة في أغراض تجارية في جزيرة العرب . ولم ترد إشارات اليها في نصوص المسند ، ولا في النصوص الجاهلية الأخرى ، ولا في أخبار أهل الأخبار . وقد ظل اعتماد التجار وأصحاب القوافل على الحيوانات طوال العهود الإسلامية الى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد ، ففيه أخذ في تمهيد الطرق لسير وسائل النقل الحديثة عليها ، فأخذت تنافس تلك الوسائل القديمة ، وستقضي عليها في المستقبل بالبداهة .

والتجارة هي التي نقلت بعض الكتابات الشمالية إلى العربية الجنوبية ، وأدخلت الكتابة الثمودية والكتابة النبطية إلى اليمن . وأصحاب الكتابتين من الشعوب المقيمة في العربية الشمالية كما هو معروف. فكتاباتهم لم تأت إلى هنا قافزة متخطية المسافة ، بل جاءت مع أصحابها التجار الذين قصدوا هذه الأماكن للاتجار ، ومن بينهم من سكن فيها واختلط بأهلها ومات فيها . وقد كتبوا فيها الكتابات التي عثر عليها بعض العلماء في أماكن متعددة من خرائب اليمن ، وقد يعثر على عدد منها وعلى كتابات أخرى ، قد يكون من بينها كتابات بلغات أعجمية في المستقبل بعد قيام بعثات الحفر بالتنقيب هناك .

---

١ Sabaeica, I, p. 78.

الفصل التاسع والتسعون

ركوب البحر

والبحر في رأي علماء العربية الماء الكثير ، ملحاً كان أو عذباً ، وقد غلب على الملح فقط ، حتى قلّ في العذب . وهو خلاف البر[١] . وأطلق أهل العربية الجنوبية على البحر اللفظة نفسها التي نطلقها عليه ، فيقولون (بحرم) أي بحر . وقد ذكر البحر في معاهدة التآخي والأخوة (تاخين) التي عقدت في القرن الرابع للميلاد بين ملك الحبشة (جدرت) والملك (يدع اب غيلان) ملك حضرموت ، لمقاومة ملك سبأ وذي ريدان[٢] . وذكر في النص المعروف بنص (أبنة) ، حيث ورد : « وكل الت ذ بحرم ويبسم ومشرقم ومعربم » : ومعناه الحرفي : «وكل آلهة البحر واليابسة والمشرق والمغرب » . وقد ذهب (رودوكناكس) الى أن لفظة البحر تعني الجنوب ، وأن لفظة (يبسم) (يابس) (يَبْس) (يابسة) تعني الشمال ، وأن معنى الجملة المذكورة: «وكل آلهة الجنوب والشمال والمغرب»[٣]. وقد وردت اللفظة بمعنى (بحر) في نص « Glaser 830 » ، حيث جاء : «ببحرم ويبسم وكل تشعث وزبد »[٤] ، أي « ببحر ويابسة وكل العطايا والهدايا » .

---

١ تاج العروس (٣/٢٧) ، (بحر) .

٢ السطر الخامس عشر والسادس عشر من النص : Glaser 850.

٣ Rhodokanakis, Studi. Lexi., II, S. 10, 166.

٤ السطر الخامس عشر من النص ، Rhodokanakis, II, S. 10, Mordtmann, Himj. Inschri., S. 21.

ووردت لفظة (اليم) في القرآن الكريم[1] ، ويراد بها البحر . وقد ذكر بعض علماء اللغة انها لغة سريانية[2] . وفي اللغة العربية ألفاظ أخرى مرادفة للبحر أيضاً ، منها (القَلَمَّس) ، و (الدأماء) ، و (الكافر) ، و (الخنبسل) ، و (الخضم) ، و (العَيْلم) ، وغير ذلك من ألفاظ ترد في كتب اللغة[3] .

ولجزيرة العرب سواحل طويلة تحيط بها من جميع جهاتها الثلاث ، أما حدها الشمالي فهو أرض تتصل بالعراق وببلاد الشأم . وقد عرف أهل السواحل البحر وعركوه ، وعملوا على استغلال ثرواته قدر طاقتهم ، وتعاملوا مع أهل السفن الذين كانوا يقصدونها من مسافات بعيدة ، وركب جمع منهم السفن ، للاتجار مع السواحل المقابلة لهم . فباعوا في أسواقها واشتروا ، وقد أظهر أهل السواحل العربية الجنوبية والشرقية نشاطاً في ركوب البحر ، لا نجده عند أهل السواحل الغربية ، على ما يتبين من روايات أهل الأخبار .

ولتكوين رأي عن مدى وقوف الجاهليين على البحار وعلى مدى توغلهم فيها، وركوبهم أمواجها للتجارة أو للاستيطان في مواطن جديدة غريبة ، لا بد لنا من الرجوع إلى مراجع لتستحلب منها مادة نكوّن منها علمنا عن هذا الموضوع . والآثار هي أول ما يجب الرجوع اليه لاستخلاص هذه المادة ، ولكنها ويا للأسف شحيحة ، ليس فيها شيء كاف منها . وأما الموارد الأعجمية ، مثل الموارد المدونة باليونانية واللاتينية والسريانية،فلم تتحرش بموضوع العرب والبحار وبتجارتهم في البحر . وأما الموارد الاسلامية ، فهي بخيلة ، ليس فيها ما يفيدنا عن العرب والبحر غير نزر يسير يفيد ، ان أهل الجاهلية ، كانوا يكرهون ركوب البحر ، ويتهيبون منه ، وانهم لم يكونوا يملكون سفناً لعبوره،حتى ان المهاجرين الأولين من المسلمين ، لمّا هربوا من مكة إلى الحبشة ، ركبوا سفناً بدائية حبشية ، أوصلتهم إلى الحبشة ، وان الخليفة (عمر) كان يتهيب ركوب البحر ، وكان يوصي قوّاده بتجنيب جيوشهم مخاطره ، والابتعاد عنه قدر الامكان ، وبضرورة وضع أرض آمنة وراء الجيش ليكون في وسعهم الرجوع اليها عند المهالك والمآزق[4].

---

١ طه ، الآية ٣٩ ، ٧٨ ، ٩٢ ، القصص ، الآية ٧ ، الاعراف ، الآية ١٣٥ .

٢ المخصص (١٦٣/١٠) ، تاج العروس (١١٤/٩) ، (يمم) ، اللسان (٤٢/٤) ، (بحر) .

٣ راجع الالفاظ المذكورة في كتب اللغة والمعجمات .

٤ ارشاد الساري (١٤/٤ وما بعدها) .

وانه لمّا كتب إلى (عمرو بن العاص) ، يسأله عن البحر ، فقال : خلق عظيم يركبه خلق ضعيف ، دود على عود . كتب اليه (عمر) أن لا يركبه أحد طول حياته ، فلما كان بعد (عمر) لم يزل يركب حتى كان زمن (عمر بن عبد العزيز) ، فاتبع فيه رأي (عمر) . وكان منع عمر شفقة على المسلمين[1] .

وقد عرف العربي عند الأعاجم ببغضه للبحر وبخوفه منه وبابتعاده عنه . ورد في حكم (أحيقار) : « لا تُرِ العربي البحر ، ولا تُرِ الصيدوني (الصيداني) الصحراء »[2] . وذلك لاشتهار العربي عندهم بسكنه في البوادي وبابتعاده عن البحر ولاشتهار أهل (صيدا) بركوبه وبقهر أمواجه .

وإذا كنا قد فشلنا في الحصول على صورة مفصلة واضحة عن العرب والبحر من الموارد التي أشرت اليها ، وهي مادة المؤرخ في حصوله على مادته التأريخية ، فليس لنا من سبيل لتكوين صورة ولو باهتة عن الموضوع ، سوى الرجوع الى اللغة نستلهم من ألفاظها المتعلقة بالبحر وبوسائل ركوبه ، ما فات وروده في تلك المصادر . فاللغة كما نعلم مظهر من مظاهر الحياة العقلية والعملية لكل أمة ، وهي لم تخلق دفعة واحدة ،ولم يأخذها الخلف عن السلف كاملة ، وإنما خلقت بالتدريج وعلى قدر الحاجة ، فإذا ظهرت أشياء جديدة خلق المتكلمون بها لها ألفاظاً جديدة وإذا اندثرت أشياء ، فقد تندثر ألفاظها . واللغة مثل الناطقين بها في حياة وموت مستمرين . وإذا حصرنا الألفاظ التي أطلقها الجاهليون على البحر وعلى وسائل ركوبه وعلى ما فيه ، نستطيع اذن أن نعرف ماذا كانوا يعرفونه عنه وماذا كانوا يجهلون من أمره .

فلنأخذ الألفاظ المتعلقة بالبحر اذن سنداً لنا ، من لغتنا العربية نستنبط منها علم الجاهليين به ، مع العلم بأن هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لا يمكن أن تؤدي المهمة على أحسن وجه ، لأنها لغة أهل برّ ، وليس لأهل البر علم أهل الساحل به . والأحرى بنا الاستعانة بلغات أهل السواحل في مثل هذه الدراسة ، لكننا لا نملك نصوصاً جاهلية مدوّنة بها ، حتى نستنبط منها ما نريد ، وليس في لهجات المسند عن البحر سوى نزر يسير ،ولكننا ما دمنا لا نملك وسيلة للإحاطة

---

١ ارشاد الساري (١٥/٤) .

٢ . A. T. Olmstead, History of the Persian Empire, p. 326.

بعلم الجاهليين بالبحر سوى دراسة هذه اللغة ، فما علينا إلا أن نتتبع ما جاء فيها عنه ، وفي هذا الذي سنقف عليه تصوير لرأي المتكلمين بها بالبحر،وهو تصوير يمثل رأي أهل البرّ عنه .

يقال لشاطىء البحر (الساحل) في عربية القرآن الكريم ، وهو بمعنى ريف البحر وشاطئه[1] . وقد وردت اللفظة في كتاب الله[2] . وقد خصصت هذه اللفظة بالبحر ، أما شط النهر ، فقد عرف بـ (الشاطىء)[3] . ويقال للساحل أيضاً (السيف) و (سيف البحر)[4] . وذكر علماء اللغة ان (العيقة) ساحل البحر وناحيته[5] ، وان (العَدان) ، موضع كل ساحل . وقيل هو الساحل نفسه[6] . وذكر ان « السيف ساحل الوادي ، أو لكل ساحل سيف ، وانمايقال ذلك لسيف عمان »[7] . وورد ان (الطف) و (الطفطاف) ساحل البحر[8] .

و (القاموس) ، بمعنى معظم ماء البحر ، أو البحر ، أو أبعد موضع فيه غوراً ، ووسط البحر[9] ، ولجة البحر ، معظم البحر ، ومنه بحر لجيّ[10] ، و (الشرم) ، لجة البحر ، وقيل موضع ، وقيل هو أبعد قعره ، أو الخليج منه . وقد ذكر (أمية بن أبي الصلت (الشروم) في وصفه جهنم :

فتسمو لا يغيبها ضراء ولا تخبو فتبردها الشروم

والشرم ، مرسى من مراسي خليج السويس ، بينها ستة مراحل[11] .

و (العوطب) ، لجة البحر ، أو المطمئن بين الموجتين ، أو أعمق موضع

---

١ القاموس (٣/٢٩٤) ، (سحل) ، تاج العروس (٧/٣٧١) ، (سحل) .
٢ سورة طه ، الآية ٣٩ .
٣ المخصص (١٠/٢٠) ، القاموس (٣/٣٦٨) ، تاج العروس (١/٨٠) ، (شطأ) .
٤ القاموس (٣/١٥٦) ، المخصص (١٠/٢٠) .
٥ القاموس (٣/٢٧٥) ، تاج العروس (٧/٢٧٥) ، تاج العروس (٧/٣١) ، (عيق) .
٦ القاموس (٤/٢٤٧) ، تاج العروس (٩/٢٧٥) ، (عدن) .
٧ تاج العروس (٦/١٤٩) ، (سيف) .
٨ تاج العروس (٦/١٨٢) ، (طفف) .
٩ القاموس (٢/٢٤٣) ، تاج العروس (٤/٢٢٣) ، (قمس) .
١٠ القاموس (١/٢٠٥) ، تاج العروس (٢/٩٢) ، (لج) .
١١ تاج العروس (٨/٣٥٧) ، (شرم) .

في البحر[1] ، و (الدردور) موضع في البحر يجيش ماؤه ، قلما تسلم منه السفينة ، ويخاف منه الغرق[2] . و (الخليج) ، وهو من البحر ، سمي بذلك لأنـه يجذب من معظم البحر[3] ، والخور الخليج من البحر ، وقيل مصب المـاء في البحر ، وقيل مصب المياه الجارية في البحر إذا اتسع وعرض ، وقيل : عنق من البحر يدخل في الأرض[4] ، والغبُ الضارب من البحر حتى يمعن في البر[5] .

وذكر علماء اللغة أن الجزيرة إنما سُمّيت جزيرة لانقطاعها عن معظم الأرض أو لما جزر عنه[6] . و (البضيع) ، الجزيرة في البحر ، والبحر نفسه[7] . وأمـا (الدبر) ، فقطعة تغلظ في البحر كالجزيرة يعلوها الماء وينضب عنها[8] .

والسفينة هي واسطة النقل على وجه الماء في الأنهار وفي البحـار . وهي من الكلمات المعروفة في عربيتنا ، وقد أشير اليها في شعر عمرو بن كلثوم :

ملأنا البرّ حتى ضاق عنّا وموج البحر نملؤه سفينا[9]

وقد وردت لفظة (سفينة) و (السفينة) في القرآن الكريم[10] ، ويدل ذلك على انهـا من الألفاظ التي كانت معروفة ومستعملة بهذا المعنى في أيام ظهور الاسلام .

وعبر عن السفينة بلفظة أخرى هي (الفُلك) ، وتقـع على الواحـد والاثنين والجمع . وقد وردت في مواضع متعددة من القرآن الكريم[11] . كما يعبر عنهـا

---

١ القاموس (١/١٠٦) ، تاج العروس (١/٣٨٧) ، (عطب) .
٢ تاج العروس (٣/٢٠٥) ، (در) .
٣ القاموس (١/١٨٦) ، تاج العروس (٢/٣٤) ، (خلج) .
٤ تاج العروس (٣/١٩٢) ، (خار) .
٥ القاموس (١/١٠٩) ، تاج العروس (١/٤٠٣) ، (غب) .
٦ المخصص (١٠/١١) ، القاموس (١/٣٨٩) ، تاج العروس (٣/٩٨) ، (جزر) .
٧ القاموس (٢/٦) ، تاج العروس (٥/٢٧٨) ، (بضع) .
٨ القاموس (٢/٢٦) ، تاج العروس (٣/١٩٨) ، (دبر) .
٩ اللسان (١٣/٢٠٩ وما بعدها) ، (سفن) ، تاج العروس (٩/٢٣٦) ، (سفن) .
١٠ الكهف ، الآية ٧٢ ، ٨٠ ، العنكبوت ، الآية ١٥ .
١١ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم (٥٢٦) ، اللسان (١٠/٤٧٩) .

بـ (مركب) ، والجمع مراكب[1] . ولو ان المركب كلمة عامة تطلق على كل ما يركب عليه ، فالدواب هي مركب أيضاً لمن يركبها ، غير ان (المركب) السفينة على سبيل التغليب والاصطلاح. وقد عبر القرآن الكريم عن السفن والمراكب بلفظة (الجاريات) و (الجوار) ، و(الجارية) كما في هذه الآية : « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام » ، وكما في هذه الآية : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » ، وفي مواضع أخرى[2] . و (الجارية) المركب أيضاً ، صفة غالبة لأنها تجري على الماء[3] .

وقد وردت لفظة (الفُلك) بصورة خاصة تعبيراً عن سفينة نوح الواردة في الطوفان . ويذكر بعض المفسرين أن السفينة ، أي (الفُلك) ، كانت مصنوعة من خشب الساج ، وكانت (ذات ألواح ودُسُر) ، أي أن ألواحها قد التصقت بعضها ببعض بـ (دسر) وهي المسامير[4] .

وورد في القرآن الكريم : « والفلك التي تجري في البحر »[5] . وورد في الشعر :

جَوافِلَ في السراب كما استقلت فلوك البحر زال بها الشرير

والفلوك هنا جمع (الفلك) ، وأما الشرير ، فشجر البحر[6] . ويظهر من هنا أن (الفلك) هي سفينة من سفن البحر . وهي من السفن الكبيرة . وقد ورد في القرآن أيضاً (في الفلك المشحون) أي السفينة المشحونة المملوءة كما ورد : « حتى إذا كنتم في الفُلك وجرين بهم بريح طيبة » . وفي هذه الآية معنى مهم ، يدل على إحاطة الجاهليين بالبحر وركوبهم فيه ، وتسييرهم لها بفعل الرياح . وقد وردت في القرآن الكريم إشارات الى صنع الفلك والى سيرها مواخر في البحر .

---

١ اللسان (٨/٢٩٢) .

٢ سورة الشورى ، الآية ٣٢ ، والرحمن ، الآية ٢٤ ، والحاقة ، الآية ١١ ، اللسان (٨/٢٩٢) ، شمس العلوم (حـ ١ ق ٧ ص ٣١٨) ، القاموس (٤/٣١٢) .

٣ تاج العروس (١٠/٧٢) ، (جرى) .

٤ قصص الانبياء (ص ٣٤) ، تاج العروس (٣/٣١٦) ، (دسر) ، Ency., II, p. 117.

٥ البقرة ، الآية ١٦٤ .

٦ المخصص (١٠/٢٣) ، القاموس (٢/٥٧) .

ويقال للسفينة : (البارجة) أيضاً ، والجمع (البوارج) . وذكر انها السفن الكبار ، وانها سفينة من سفن البحر تتخذ للقتال[1] .

و (القرقور) : ضرب من السفن ، وقيل : هي السفينة العظيمة أو الطويلة . والقرقور من أطول السفن . وجمعه قراقير . وفي الحديث : « فاذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ ركب شهداء البحر في قراقير من درّ »[2] .

و (الخليّة) العظيمة من السفن ، والجمع خلايا . قال طرفة :

كأنّ حدوج المالكية ، غدوة خلايا سفين بالنواصف من دَدِ

وقال الأعشى :

يَكُبُّ الخليّة ذات القلاع وقد كاد جؤجؤها ينحطم[3]

وقيل هي التي يتبعها زورق صغير[4] .

وذكر ان من أسماء السفن الكبيرة (الخلج) . وقيل انها دون العدولية . وأما (الصلفة) فسفينة كبيرة ، و (الزنبرية) نوع من أنواع السفن الكبيرة[5] . و (القادس) : السفينة العظيمة ، وقيل صنف من أصناف المراكب ، أو لوح من ألواحها[6] .

وقد ضرب (لبيد بن ربيعة العامري) مثلاً بسفينة (الهندي) في طولها وعرضها وفي إحكام عملها ، عملها صانعها من صفائح مشبوحة ودهنها وسدّ المسافات التي تكون بين صفائح الخشب حتى لا ينفذ منها ماء البحر[7] . مما يدل بالطبع على وقوفه عليها وعلى شهرة تلك السفن في تلك الأيام .

---

١ اللسان (٢/٢١٣) ، القاموس (١/١٧٨) ، تاج العروس (٢/٧) ، (برج) ، المخصص (١٠/٢٦) .
٢ اللسان (٥/٩١) .
٣ اللسان (١٤/٢٤١) ، تاج العروس (١٠/١١٩) ، (خلا) .
٤ تاج العروس (١٠/١١٩) ، (خلا) ، القاموس (٤/٣٢٥) .
٥ المخصص (١٠/٢٥ وما بعدها) .
٦ القاموس (٢/٢٣٩) ، تاج العروس (٤/٢١٣) ، (قدس) .
٧ شرح ديوان لبيد (ص ١٤٢) .

وقد أشار بعض الكتبة من اليونان واللاتين[1] الى نوع من السفن دعوه « Madarata » ، ذكروا أن ميناء (عمانه) « Omana » كان قد اشتهر ببنائه . وقد صنعت هذه السفن من الألواح المشدودة بالليف . وقد رأى بعض الباحثين أن هذه اللفظة من أصل عربي ، هو (مدرّعات) ، ويراد بها السفن المشدودة بدروع النخل . ورأى آخرون أنها من أصل « Mabarata » جمع (معبر) من أسماء السفن في لغة بني (إرم)[1].

وذكر علماء اللغة أن (المِعْبَر) ما عبر به النهر من فلك أو قنطرة أو غيره ، والمعبرة سفينة يعبر بها النهر[2] . فالمعابر إذن من الوسائل المستعملة في عبور النهر على ما يظهر من شرح أولئك العلماء .

وقريب من هذا الوصف وصف نوع من السفن عرف بـ (العمائم) . ذكر علماء العربية أنـه : عيدان مشدودة تركب في البحر ويعبر عليها[3] . وهو نوع بدائي بالطبع لا يمكن أن يقارن بالسفن التي كانت عند الرومان واليونان . و (الطوف) قرب ينفخ فيها ويشد بعضها الى بعض ، فتجعل كهيئة السطح يركب عليها في الماء ويحمل عليها الميرة والناس ، ويعبر عليها ، وهو الرمث . وربمـا كان من خشب والجمع أطواف . وذكر بعض العلماء أن الطوف التي يعـبر عليها الأنهار الكبـار تسوى من القصب والعيدان يشدّ بعضها فوق بعض ، ثم يقمط بالقمط حتى يؤمن انحلالها ثم تركب ويعبر عليها ، وربما حمل عليها الحمل على قدر قوته وثخانته ، ويسمى : (العامة)[4] .

والرمث خشب يضم بعضه إلى بعض كالطوف ويركب عليه في البحر . وفي الحديث ان رجلاً أتى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقـال : إنا نركب أرماثاً لنا في البحر ولا ماء معنا ، أفنتوضأ بماء البحر . فقال : هو الطهور ماؤه الحل ميتته . قال أبو صخر الهذلي :

---

١ العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، تأليف جورج فضلو حوراني ، وترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر (ص ٦٠ ومـا بعدها) .

٢ اللسان (٤/٥٣٠) ، (عبر) .

٣ اللسان (١٢/٤٢٥) ، القاموس (٤/١٥٤) ، تاج العروس (٦/١٨٤) ، المخصص (١٠/٧٩) .

٤ تاج العروس (٦/١٨٤) ، (طوف) ، القاموس (٣/١٧٠) .

تمنيت من حبّي عُليّةَ أننا على رمثٍ في الشرم ليس لنا وفر[1]

وذكر علماء العربية اسم نوع من السفن قالوا له : (البوصي) . وقالوا انه فارسي معرب ، وان الكلمة وردت في شعرٍ للأعشى[2] . وذُكر ان (البوصي) الملاح ، وقيل الزورق ، وان الكلمة معربة (بوزي)[3] .

وذهب بعض علماء اللغة إلى ان (العدولية) الواردة في قول طرقة بن العبد :

عدوليّة أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاّح طوراً ويهتدي

سفناً منسوبة إلى قرية بالبحرين يقـال لها (عدولي) ، أو إلى قوم كانوا ينزلون هجر ، أو إلى عدول ، رجل كان يتخذ السفن[4] . ولا يستبعد ان يكون مراد الشاعر من السفن (العدولية) ، السفن القادمة من ميناء (أدولس) (عدولي) ميناء تجاري على ساحل الحبشة اشتهر بالتجارة قبل الاسلام .

ويظهر من شعر طرفة المذكور ، ان رجلاً اسمه (ابن يامين) كان تاجراً يملك سفناً ، وأن سفنه كانت تمخر العباب . وذكر أيضاً أنه كان بحاراً ، وورد (ابن نبتل) بدلاً من (ابن يامين)[5] .

وذكر علماء اللغة أن من أسمـاء المراكب المائية الصغيرة : الزورق والقارب والركوة . والزورق ، السفينة الصغيرة ، وقيل هو القارب الصغير[6] . و(الركوة) زورق صغير[7] .

وقد عرفت السفن المستعملة في القتال بأسماء خاصة ، منها البارجـة ، وهي سفينة من سفن البحر تتخذ للقتال[8] .

---

١ تاج العروس (١/٦٢٥) ، (رمث) ، القاموس (١/١٦٢) ، (رمث) .
٢ مثـل الفراتي ، اذا مـا طمـا يقـذف بالبوصـي والماهـر
تاج العروس (٤/٣٧٦) ، القاموس (٢/٢٩٦) ، المخصص (١٠/٢٣) ، بلوغ الارب (٢/٣٦٧) .
٣ تاج العروس (٤/٣٧٦) ، اللسان (٧/٩) .
٤ القاموس (٤/١٤) ، تاج العروس (٨/١١) ، (عدل) ، بلوغ الارب (٣/٣٦٥) .
٥ بلوغ الارب (٣/٢٦٥ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٦/٣٦٩) ، (زرق) .
٧ تاج العروس (١٠/١٥٥) ، (ركا) .
٨ المخصص (١٠/٢٦) ، القاموس (١/١٧٨) ، تاج العروس (٢/٧) .

والشراع هو (ماكنة) السفينة وقوتها المحركة الدافعة لها . ويقال له (القِلع) أيضاً[١] ، وجلّ كذلك[٢] . وقد ذكر علماء اللغة ، أن الشراع كالملاءة الواسعة فوق خشبة من ثوب أو حصير مربوع وتر على أربع قوى ، تصفقه الريح فيمضي بالسفينة[٣] . ويظهر من هذا الوصف أن أشرعة أهل الجاهلية كانت بسيطة ، ولم تكن متداخلة كأشرعة الروم . والشراع البسيط على النحو المذكور ، يكون ضعيفاً فاتر الهمة لا يتمكن من دفع السفن الكبيرة ، بل وقد لا يتمكن حتى من دفع السفن الصغيرة بسرعة ، بسبب صغر حجمه ، ثم إنه لا يتمكن من الاستفادة من قوة الريح ، ومن استخدام هذه القوة في توجيه السفينة بسرعة نحو هدفها،والسير بها في عرض البحر ، بينما يتمكن الشراع المكون من عدة أقلعة ، من الاستفادة من الريح ، ومن دفع السفينة دفعاً سريعاً ، ومن حملها الى عرض البحر، فيقلص من المسافات ويبعدها عن أخطار لصوص البحر ، ولذلك لم تتمكن سفن أهل الجاهلية من مواجهة سفن الروم ومن تحديها ، حين دخلت سفنهم البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط .

والدقل : سهم السفينة ، وهو خشبة طويلة تشد في وسط السفينة ، يمد عليها الشراع[٤] . والجؤجؤ : صدر السفينة[٥] ، و (المرنحة) : صدر السفينة كذلك[٦] ، وعرف (الدقل) بـ (الدوقل) كذلك ، وتسميه البحرية (الصاري)[٧] . و (الصاري) الملاّح أيضاً ، لحفظه السفينة[٨] . و (القب) ، رأس الدقل ، و (القرية) ، خشبة مربعة على رأس القب[٩] .

وأما الذي يعدل اتجاه السفن ويغير من اتجاهها ، فهو (السُكّان) ، وهو (الكوثل) أيضاً . وذكر أيضاً ان (السُكّان) ما تُسكّن به السفينة تمنع به

---

١ بالكسر ، اللسان (٨/٢٩٢) ، القاموس (٣/٧٤) .
٢ اللسان (١١/١٢١) ، (والجل بالفتح : الشراع) ، تـاج العروس (٧/٢٦٠) ، (جلـل) .
٣ تاج العروس (٥/٣٩٥) ، (شرع) .
٤ تاج العروس (٧/٣٢٣) ، (دقل) .
٥ تاج العروس (١/٤٩) ، (جأجأ) .
٦ تاج العروس (٢/١٤٧) ، (رنح) .
٧ اللسان (١١/٢٤٦) ، تاج العروس (٧/٣٢٣) ، (دقل) .
٨ تاج العروس (١٠/٢٠٩) ، (صرى) .
٩ اللسان (٢/٤٥٥) ، تاج العروس (٢/١٤٧) ، (رنح) .

من الحركة والاضطراب[1] . وذكر بعض علماء العربية ان (الكوثل) مؤخر السفينة، وفيــه يكون الملاحون ومتاعهم[2] . والأغلب انــه (السُكّان) ، ويعبر عنـه بـ (الخيزرانة) كذلك[3] . وبلفظة أخرى هي (الدويطرة) . وقد عرفت بأنها كوثل السفينة [4] .

ويعرف سكان السفينة بـ (الخيزرانة) وبـ (الخيزران) . قال النابغة يصف الفرات وقت مدّه :

يظل من خوفه الملاّح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد[5]

ويستعمــل الملاحون (المجاديف) (المجاذيف) في تجديف السفينــة [6] . و (المجداف) خشبـة رأسها لوح عريض تدفع بها [7] . ويقال له (المقذف) و (المقذاف) أيضاً [8] . ولم يتطرق علماء اللغة ولا أهل الأخبار إلى عدد (مجاديف) السفينة الواحدة ، أي إلى عدد رجالها الذين كانوا يجدفون بالمجاديف . فالسفن الكبيرة الضخمة تحتاج إلى عدد من المجدفين ، قد يبلغون العشرات . وقد كانت سفن الروم ، ذات طابقين بالنسبــة للمجدفين ، فيجلس عــدد منهم في الطابق الأسفل ، ويجلس فوقهم عدد آخر من المجدفين ، لتسير السفينـة بسرعة ، وقد استخدموا هذه الطريقة في سفنهم الحربية بصورة خاصة ، لأنها سفن ، يجب ان تعتمد على السرعة وعلى خفة الحركة لتتمكن من التغلب على سفن الأعداء .

وأما (المُردي) ، فخشبة يدفع بها الملاّح السفينة . وذلك كي يحركها عند

---

١ اللسان (١٣/٢١١) ، قال طرفة :
كسكان بوصي بدجلة مصعد .
٢ اللسان (١١/٥٨٣ وما بعدها) .
٣ قال الاعشى :
من الخوف كوثلها يلتزم
اللسان (١١/٥٨٤) .
٤ اللسان (١١/٥٨٤) ، (٢/٤٥٥) .
٥ اللسان (٤/٢٣٨) .
٦ بالدال والذال جميعا ، لغتان فصيحتان .
٧ اللسان (٩/٢٣) .
٨ اللسان (٩/٢٧٧) ، القاموس (٣/١٢٢) ، تاج العروس (٦/٥٤) ، (جدف) ، (٦/٢١٨) ، (قذف) .

الشواطىء والسواحل حيث تكون المياه ضحلة [1] . والقيقلان خشبة يدفع بها السفينة أيضاً [2] .

ويقال للذي يشتغل في السفينة ويعمل على تسييرها (الملاّح) ، ويقال لـه (صار) و (الصاري) أيضاً [3] . وحرفته (الملاحة) . ويقال للملاّح : (السفّان) كذلك ، وهو الـذي يشتغل في السفن ، ويعبر عنه بـ (النوتي) [4] . والجمع (نوتية) و (نَوّاتين) . « وفي حديث علي ، كرم الله وجهه : كأنـه قلع داريّ عنجه نوتية » . وورد أن (النوتي) البحار ، وهو من كلام أهل الشأم [5] ، واللفظة من أصل يوناني [6] .

و (الربّان) ، أو (ربان السفينـة) ، هو قائدها الذي يجريها . ويرى علماء اللغة أنها دخيلة معربة [7] .

ويقال للموضع الذي ترفأ اليه السفن (المرفأ) . من أصل (رفـأ) بمعنى أدنى . وورد في حديث (تميم الداري) : « أنهم ركبـوا البحر ثم أرفأوا الى جزيرة » [8] . ويعبر عن (المرفأ) بلفظة (الكلاّء) و (المُكلا) أيضاً . لأنه يكلأ السفن من الريح ، وذلك بحبس السفن فيه لحمايتها من الريح ولإنزال مـا فيها ، وأخذ ما فيه من تجـارة وناس [9] . ويقال للمرفـأ (الميناء) كذلك ، وعرفوه بأنه الموضع الذي ترفأ فيه السفن [10] . كما يقال له : (فرضة)

---

١ اللسان (٣/٤٠٢) ، القاموس (٤/٣٣٤) ، تاج العروس (١٠/١٤٨) .
٢ بلوغ الارب (٣/٣٦٦) .
٣ اللسان (١١/١٢١) ، (١٤/٤٦٠) .
٤ اللسان (٢/٦٠٠ وما بعدها) .
٥ اللسان (٢/١٠١) .
٦ غرائب اللغة (٢٧١) .
٧ اللسان (١٣/١٧٥) .
٨ اللسان (١/٨٧) ، « وفي حديث أبي هريرة في القيامة ، فتكون الارض كالسفينة المرفأة في البحر تضربها الامواج » ، تاج العروس (١/٧١) ، (رفأ) .
٩ اللسان (١/١٤٦) ، تاج العروس (١/١١٢) ، (كلأ) ، « سوق الكلأ » بالبصرة ، موضع يكلئون سفنهم به ، أي يحبسونها .
١٠ اللسان (١٣/٤٢٦) ، (ميني) ، كل مرسى السفن ، تاج العروس (٩/٣٥٥) ، (مـان) .

و (فرضة البحر)[1] و (المَرْساة) ، البقعة التي ترسو فيها السفينة[2] .

ومن مصطلحات السفن في العربية ، الشحن ، فيقال شُحنت السفينة شحناً بمعنى ملئت ، ومخرت السفينة ، أي جرت[3] . وحبت السفينة ، أي جرت[4] ، وجنحت السفينة جنوحاً إذا انتهت إلى الماء القليل فلزقت بالأرض فلم تمض ، وجمحت جموحاً إذا تركت قصدها فلم يضبطها الملاحون ، ويقال ماهت السفينة إذا دخل فيها الماء ، ورست وأرست ، إذا بلغ أسفلها القعر فثبتت، وإذا أرسيت وسخرت أطاعت وطاب لها السير ، وحدرت السفينة أحدرها، وتقاذفت في البحر جرت ، وشجّت البحر قطعته[5] . وهناك مصطلحات عديدة أخرى يشير ورودها في اللغة إلى معرفة في البحر وفي استخدام السفن في البحار .

وعند دنوّ السفينة من الأماكن التي تريدها ، ترسو في مرفأ لتفرغ حمولتها أو لتحميلها أو لتزود بما تحتاج اليه من زاد وطعام ، فتلقي بمراسيها في المرفأ تثبيتاً لها فلا تتحرك ولا تأخذها الأمواج ولا الرياح . ويسمي الملاحون المِرساة (الأنجر) ، ويكون من الخشب الصلب الثقيل أو حديداً أو حجراً كبيراً ، وقد يكون على شكل كرة ، وقد يكون على شكل مربع أو مستطيل ، أو على شكل (خطّاف) ، أو حديد محجن[6] . فإذا أرادت السفينة الرسو أنزل إلى الماء ليستقر على القاع فتثبت السفينة[7] . وقد وصف (الأنجر) ، انه خشبات يخالف بينها وبين رؤوسها وتشدّ أوساطها في موضع واحد ، ثم يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة ، ورؤوس الخشب ناتئة تشد بها الحبال وترسل في الماء إذا رست السفينة ، تعريب لنكر من أصل فارسي[8] .

وقد ذكر علماء اللغة أن (السبابجة) ، هم قوم من السند يستأجرون ليقاتلوا ، وكانوا قوماً جلاوزة وحرّاس السجن في البصرة أيام الإسلام . وكان رئيس السفينة

---

١ اللسان (٧/٢٠٦) .
٢ القاموس (٤/٣٣٤) ، تاج العروس (١٠/١٤٩) ، (رسا) .
٣ القاموس (٢/١٣١) ، (نحر) .
٤ تاج العروس (١٠/٨١) ، (حبو) .
٥ المخصص (١٠/٢٣ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٣/٥٥٧) ، (نجر) .
٧ تاج العروس (١٠/١٤٩) ، (رسا) .
٨ تاج العروس (٣/٥٥٧) ، (نجر) .

البحرية يستأجرهم ليكونوا معه يبذرقونها ، أي يخفرونها ويقاتلون من يتصدى لها بسوء [1] . وقد كانت بالأبلة التي عاشت قبل البصرة جاليات جاءت اليها من الهند، فقد كان الاتجار بين الهند وجنوبي العراق وسواحل جزيرة العرب اتجاراً قديماً ، وقد أقامت جاليات أخرى منها في مواضع من هذه السواحل ، وقد أشرت الى عثور العلماء على هياكل بشرية بأرض عمان ، تمثل (الدرافيديين) ، أي سكان الهند القدامى ، والى وجود أثر لملامح هندية في سكان ساحل عمان تظهر عليهم حتى اليوم .

وصناعة السفن الكبيرة تحتاج الى أخشاب صلدة قوية والى مسامير من حديد تستعمل في ربط الألواح والأخشاب بعضها ببعض ، والى أيدي فنية عاملة ، وعلم بهندسة بناء السفن . ولم تتيسر هذه الأشياء في جزيرة العرب . فالخشب الصالح لبناء السفن غير موجود في أكثر أنحائها ، ولهذا اقتصرت صناعة السفن على السفن الصغيرة في الغالب ، وهي سفن ليس في مقدورها اختراق آفاق البحار الكبيرة والمحيطات ، والتجول بحرية في أية ناحية كانت من نواحي البحر الواسعة. ولم يكن لها إلاّ السير في محاذاة السواحل ، وهو سير يكلفها كثيراً ، فعلى السفن أن تقطع مسافات طويلة معرضة نفسها لمخاطر الاصطدام بالصخور الكامنة في المياه ولهجمات لصوص البحر الجائعين وللجوء الى مراسي كثيرة طلباً للماء العذب والزاد، ولتمضية وقت طويل ، على حين لا تحتاج السفن الكبيرة الى كل ذلك ، فهي قادرة بفضل متانتها وقوة صنعها من اختصار المسافات وتقصير الوقت وحماية نفسها من هجمات لصوص البحر باستخدام الرياح البحرية ، وقطع البحر باستقامة وبحُرية الى أي ميناء يريده الربان .

وكان على أصحاب معامل السفن العرب استيراد الخشب القوي الصالح لبناء السفن من الخارج ، أو شراء السفن جاهزة من الأسواق الخارجية ، وفي كلتا الحالتين يتكلف المشتغلون بالتجارة البحرية تكلفاً باهظاً ، ويكونون عالة في قوتهم وفي أعمالهم على الخارج . وهذا ما سهّل للرومان واليونان والفرس مزاحمة الدول العربية الجنوبية في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي ، ومن إنزال خسائر فادحة في ثروة العرب ، أثرت أثراً كبيراً في الأوضاع السياسية والاقتصادية لجزيرة العرب،

---

١ اللسان (٢/٢٩٤) ، (١٠/١٤) .

كما أثرت عليها من الناحية العسكرية إذ جعلت السواحل مكشوفة مفتوحة من الوجهة الحربية فأنزلت الدول الكبرى في مواضع منها قواتاً لحماية مصالحها التجارية وقوافلها البحرية وذلك قبل الميلاد وبعد الميلاد إلى ظهور الاسلام .

والساج من أثمن الأخشاب وأنفسها في صناعة السفن ،فهو خشب مقاوم صلب، وقد استورد من الهند[1] . ويظهر انه هو الخشب الذي ذكر (ثيوفراستسوس) « Theophrastus » ،انه كان بجزيرة (تيلوس) « Tylus » ،ويقصد بها البحرين، والخشب الذي كان في ميناء (عمانة) عمان الذي أشار اليه صاحب مؤلف (الطواف حول البحر الأريتري) ، والذي ذكر انه خشب مستورد من ميناء (بريجازا) بالهند[2] .

وقد صنع الجاهليون سفنهم وقواربهم بأيديهم ، مستعينين بالخشب المستورد وبالخشب المحلي . صنعوها في مواضع متعددة من سواحل جزيرة العرب، ولا سيما على سواحل الخليج ، حيث تيسر لسكانها استيراد الخشب الصالح لبناء السفن من الهند . وهي صناعة لا تزال حية ، إلا ان الهرم بدأ يظهر عليها ، وأخذت تتقلص ، وأوشكت على توديع الدنيا ، لتراكم الأمراض عليها ، ولعجزها عن مد نفسها بمقومات الحياة الملائمة لعصر السرعة .

وتتكون السفن الكبيرة الجيدة من سقائف ، وهي ألواح السفينة . وكل لوح سقيفة[3] . وقيل إن اللوح من ألواح السفينة ، هو القادس[4] . وأما ما بين كل خشبتين من السفينة ، فيقال له الطائق[5] . وتخرز السفن بالليف ، ويجعل في خللها القار[6] . والجلفاظ الذي يجلفظ السفن ، وهو أن يدخل بين مسامير الألواح ، وخروزها مُشاقة الكتان ، ويمسحه بالزفت والقار[7] . وقد تطلى السفن بالقار ، وتدسر . ويراد بالدسر المسامير لغاية التسمير والتدسير[8] . ويقال للموضع الذي يجتمع

---

١ القاموس (١٩٥/١) ، تاج العروس (٦١/٢) .
٢ حوراني (ص ٢٤٤ وما بعدها) .
٣ القاموس (١٥٢/٣) .
٤ القاموس (٢٣٩/٢) ، تاج العروس (٢١٣/٤) .
٥ القاموس (٢٦٠/٣) ، « طوق » .
٦ المخصص (٢٥/١٠ وما بعدها) ، القاموس (١٢٤/٢) ، تاج العروس (٥١٢/٣) .
٧ القاموس (٣٩٤/٢) ، القاموس (٣٥٣/٢) .
٨ القاموس (٢٩/٢) ، تاج العروس (٢٠٦/٣) .

فيه الماء الراشح جمّة المركب[1] .

ولم ترد في نصوص المسند المصورة صورة سفينة نهتدي بها الى معرفة أشكال السفن عند العرب الجاهليين . كذلك لم يعثر المنقبون حتى الآن على صورة لها في النصوص التي ظُفر بها في أماكن أخرى من جزيرة العرب . ولا يستبعد أن تكون سفن العرب أنواعاً متعددة ، بحسب أغراضها ووفرة الخشب الصالح لبناء السفن، وعلى قدر اختلاط سكان سواحل الجزيرة بغيرهم من أصحاب السفن . ولا أستبعد أن يكون أهل العربية الجنوبية والعربية الشرقية قد تأثروا بصناعة السفن اليونانية والساسانية والهندية والافريقية لاختلاطهم بهم ، ومجيء سفن هؤلاء الى مراسي السواحل العربية ، ولتمكنهم من شراء الخشب الصلد الصالح لبناء السفن من افريقية والهند .

ولم تتمكن سفن ذلك اليوم ، وحتى أعظمها وأكبرها من مناطحة عواصف البحار ومقاومة أمواجها ، فكثرت أمراضها وعللها ، وفي جملتها الحروق التي كانت تصيب مواضع اتصال ألواحها ، فتفكك أوصالها فتهلك، ويتعرض أصحابها إلى خسائر كبيرة . أضف إلى ذلك تعرضها إلى تحرش لصوص البحر بها ، الذين كانوا يترصدون السفن ، فإذا وجدوا فرصة مناسبة ، هاجموها لأخذ ما قد يقع في أيديهم من حمولتها النفيسة . ولهذا كانت أجور نقل التجارة بالسفن عالية ، لتعوض عن خسائر السرقة والغرق ، ثم إن أجواف تلك السفن كانت صغيرة ، لا تتحمل حملاً كثيراً ، فصار أصحابها لا يحمّلونها إلا السلع الغالية التي لا تحتاج الى مكان كبير والتي تتحمل أرباحها دفع الأجور الغالية عن نقلها الى المواضع التي يراد ايصالها اليها .

ولا يتسع هذا المكان لذكر كل الألفاظ والمصطلحات التي لها علاقة بالبحر ، فهناك أسماء لمختلف أنواع السفن ، وأسماء أدوات كثيرة استعملت في السفن ، وأسماء للساحل وللجزر وللنباتات البحرية وغير ذلك وردت في كتب اللغة ، واليها يجب ان يرجع من يريد المزيد من هذه الألفاظ والمصطلحات ، غير ان علينا ان ننتبه الى ان في هذه المصطلحات ، مصطلحات عديدة دخلت العربية في الاسلام .

وتفيدنا هذه الألفاظ والمصطلحات فائدة كبيرة في الوقوف على مدى تأثر البحرية

---

١ القاموس (٤/٩١) .

العربية الجاهلية بالبحرية الأجنبية ، وذلك بدراسة أصول هذه الألفاظ والمصطلحات لمعرفة المكان الذي جاءت منه والشعب الذي موّن البحّارة العرب بها .

ونجد في مصطلحات البحر ألفاظاً يونانية ، وألفاظاً لاتينية ، وألفاظاً فارسية ، وألفاظاً حبشية،ودخول هذه الألفاظ اللهجات العربية دليل على تأثر البحرية العربية ببحرية تلك الأمم واتصالها بها وأخذها منها . وقد أشار علماء اللغة الى أصول بعض هذه الألفاظ ، فذكروا انها أعجمية . ولمّا كان علمهم باللغات الأعجمية غير الفارسية محدوداً ، لم يتمكنوا من تشخيص أصول بعض المصطلحات المعربة عن اليونانية أو اللاتينية أو الحبشية أو الهندية ، فرجعوها الى أصل فارسي في الغالب، وهي ليست من الفارسية في شيء .

ولم يرد في الكتابات الجاهلية ما يفيد بدخول أهل العربية الغربية البحار ، والأخبار الإسلامية لا تشير الى ذلك أيضاً ، بل الذي يفهم منها أن أهل الحجاز لم يكن لهم نصيب في البحر ، وأنهم كانوا يركبون البحر في سفن حبشية توصلهم الى السواحل الافريقية للاتجار هناك . ولما خرج المسلمون الأولون مهاجرين الى الحبشة ، انتهوا الى (الشعيبة) ، فوجدوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما الى أرض الحبشة بنصف دينار[1] . و (الشعيبة) ، مرسى السفن من ساحل بحر الحجاز ، وكان مرسى مكة قبل جدة[2] .

ونجد في خبر عودة المهاجرين من الحبشة ، أنهم حملوا في سفينتين ، حملهم عليهما النجاشي . أي أن السفينتين كانتا من سفن الحبش[3] . ولم يرد في الخبر ، اسم الموضع الذي أبحروا فيه منه الى الحجاز،ولا اسم المرسى الذي رست السفينتان فيه ، واتجه المسلمون منه الى يثرب .

ويظهر أن تلك السفن كانت صغيرة مكشوفة الجوانب ولم تكن تتسع لعدد كبير من المسافرين ، حتى أن حركات المسافرين كانت تؤثر فيها . روي أن (جعفر بن أبي طالب) ، سأل رسول الله كيف نصلي في السفينة إذا ركبنا في البحر ، فقال : صلّ قائماً إلا أن تخاف الغرق ، أو يصلي قائماً إلاّ أن يضر بأهلها . وصلى أنس في السفينة جالساً[4] .

---

١ الطبري (٢/٣٢٩) .
٢ تاج العروس (١/٣٢١) ، (شعب) .
٣ الروض الانف (٢/٢٥٠ وما بعدها) .
٤ الروض الانف (١/٢١٥) .

ومما يؤسف له أن أهل الأخبار لم يذكروا أسماء المواضع التي كان يتاجر معها العرب على السواحل الافريقية المقابلة ، ولم يذكروا حتى أسماء المرافىء التي نزل بها المهاجرون المسلمون الأولون من مكة عـلى ساحل الحبشة ، ولا اسم الموضع الذي نزل به وفد (قريش) الى الحبشة ، الذي جاء لتحريض الحبش على من هاجر اليهم من المسلمين ، ولم يذكروا كذلك اسم الموضع الذي أبحر منه المسلمون للعودة الى الحجاز ، يوم أرسل الرسول (عمرو بن أمية الضمري) ليعود بهم الى يثرب ، ولا اسم الموضع الذي نزلوا به من ساحل الحجاز[1] .

---

١ الروض الانف (٢/ ٢٥٠ وما بعدها) .

الفصل المئة

التجارة البحرية

وليس في كتابات المسند التي وصلت الينا شيء عن التجارة البحرية . ولا يعقل بالطبع ألا يكون لسكان سواحل جزيرة العرب علم بالبحر ، والا تكون لهم سفن مهما كان حجمها ، كانوا يركبونها في اتجارهم مع افريقية ومع بلاد الهند وايران . فقد علمنا أن العرب الجنوبيين كانوا قد أقاموا دولة (اكسوم) في الحبشة . وقد رأينا أن من المستشرقين من يرى أن أصل كلمة (حبشت) (حبشة) ، من أصل عربي ، وأن (الحبشة) أرض في العربية الجنوبية في الأصل ، منها هاجر الحبش ، سكان تلك الأرض ، وهم من العرب فنزلوا بالأرض التي سميت باسمهم في إفريقية ، وقد رأينا أيضاً أن العرب امتلكوا السواحل الافريقية المقابلة للعربية الجنوبية أمداً طويلاً ، كما امتلكوا بعضاً منها في الاسلام الى عهد غير بعيد ، ولا يعقل بالطبع ذهابهم الى تلك السواحل ونزلوهم بها بغير ركوب سفن ، ولا يعقل أن يكونوا قد ذهبوا اليها بسفن أجنبية ، بل لا بد وأن يكونوا قد عبروا الى تلك السواحل بسفن كانت تعود لهم ، ولا بد وأن لهم أسطول تجاري كانوا يمخرون به عباب البحار للاتجار .

وقد رأينا من كتب بعض الكتبة اليونان واللاتين ان الصومال كان يحكمه حكام عرب ، وان التجار العرب كانوا يشاهدون بكثرة في (رهابتا) « Rahapta » على مقربة من (زنجبار) . وان مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) ،

كان قد ذكر ان رئيس (معافر) كان يحكمها بموجب حق قديم . وان أهل مدينة « Muza » يحكمونها باسمه،ويبعثون اليها بسفن تجارية يديرها ربابنة ووكلاء عرب ألفوا أهل البلاد ، واختلطوا بهم ، وصاهروهم، وخبروا الساحل ، واطلعوا على لغتهم[1] .

إن خلوّ كتابات المسند من كل إشارة الى البحر والى السفن والى الاتجار مع الأقطار الواقعة على السواحل ، لأمر يؤسفنا كثيراً،فقد حرمنا الكلامَ على البحرية العربية وعلى علم العرب الجنوبيين بالبحار ، وبات علمنا بالتجارة علماً ضئيلاً محدوداً ، وليس لنا إلا التطلع الى المستقبل ، فهو وحده الكفيل بزيادة علمنا في هذا الموضوع .

وقد كان أكثر ثراء العربية الجنوبية من التجارة ، التجارة البرية والتجارة البحرية ، والاتجار بالمواد الناتجة في جزيرة العرب ذاتها ، والاتجار بالمواد المستوردة من الخارج ولا سيما السواحل الافريقية أو الهند .

وقد كان الاتجار مع افريقية سهلاً يسيراً بالنسبة الى تجار العربية الجنوبية ، ولا سيما تجار اليمن . فإن الشقة بين سواحل افريقية وسواحل اليمن ليست واسعة كبيرة ، ولهذا كان في استطاعة السفن الشراعية ان تقطعها بدون مشقات وصعوبة كبيرة . تذهب الى افريقية تحمل اليها حاصلات اليمن ، ثم تعود اليها وهي محملة بالبضائع الافريقية الثمينة ، مثل الأخشاب والعاج ، وببضاعة ثمينة أخرى: بضاعة حية تتحرك وتنطق ، هي الزنوج . يستوردونهم شراءً من أسواق النخاسة ، أو اقتناصاً من السواحل ، لحاجة البلاد الى استخدامهم في الانتاج وفي أداء الخدمات التي يأنف العربي عادة من القيام بها . وقد كان هذا الوارد عصباً حساساً في الانتاج في ذلك العهد .

ولم ترد في كتابات المسند التي عثر عليها في جزيرة العرب وياللأسف معلومات عن أسفار العرب البحرية ، لا الى سواحل افريقية ولا الى سواحل الهند وجنوب ايران . ولكن وجود السبئيين في الساحل الافريقي وتكوينهم حكومة هناك ، ثم احتلال الحبش للعربية الجنوبية الغربية مراراً ، وذهاب المسلمين الأوائل مهاجرين الى الحبشة ، وحث الرسول لهم على الذهاب الى أرض الحبشة ، لأن بها ملكاً

[1] Periplus, 7, 10, 14, 17.

لا يظلم عنده أحد . وهي أرض صدق[1] . وذهاب المسلمين الى مرسى(الشعيبة) للسفر منه بسفن التجار اليها ، كل ذلك دليل على وجود اتصال بحري بين افريقية واليمن .

وقد أشرت في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، الى عثور العلماء على كتابات معينة في جزيرة (ديلوس) Delos من جزر اليونان ، وهي نصوص ذات أهمية كبيرة بالنسبة الى بحثنا هذا ، فإنها ترينا وصول المعينيين الى هذه الجزيرة وإقامتهم فيها ، واتجارهم مع اليونان ، ومن يدري ، فلعلّهم كانوا قد توغلوا شمالاً أيضاً ، ونزلوا بلاد اليونان،وتاجروا هناك ، ومع شعوب أوروبة في ذلك العهد . وقد ورد في نص من هذه النصوص : (هنا) أي (هانيء)،و(زيد ايل) من (ذي خذب) ، نصبا مذبح ودّ وآلهة معين بـ (دلث) ، أي بـ (ديلوس). وقد كتب بالمسند ، وباليونانية ، وقد جاء في النص اليوناني : « يا ودّ إلـه معين يا ودّ » . وفي هذا النص والنصوص الأخرى دلالة على وجود جالية معينية في هذه الجزيرة وسكناها فيها ، وعلى تعلقها بدينها وبآلهتها وعدم تركها لها حتى في هذه الأرض البعيدة عن وطنها . ومن يدري ؟ فلعلّها كانت على اتصال ببلادها ، وكانت تتجر معها ، فترسل اليها حاصلات اليونان ومنتوجات أوروبة، وتستورد منها حاصلات اليمن والعربية الجنوبية وافريقية والهند .

وقد أشرت في ذلك الجزء أيضاً الى عثور العلماء على كتابة معينية بمصر ، كتبت حوالى سنة (٢٦٣) قبل الميلاد ، وذلك بالجيزة . وهي كتابة قصيرة ، ولكنها ذات أهمية كبيرة : لأنها تشير الى وجود المعينيين بمصر في ذلك العهد . وعن وجود صلات تجارية ربطت بين مصر وجزيرة العرب من البرّ والبحر . وهي تتحدث عن رجل اسمه (زيد بن زيد ايل) من (آل ظبرن) ، اعترف بوجود دين عليه وواجب هو توريد وتزويد (ابيتت الالت مصر) ، أي (بيوت آلهة مصر) ، أو (معابد آلهة مصر) بـ (امررن وقلمتن) (قليمتن) ، أي بـ (المرّ والقليمة) . ويقصد بلفظة (قليمتن) (قلمتن) ، ما يقال له « Calamus » في الانكليزية و « Kalamus » في الألمانية،ويرادبه ما يقال له قصب الذريرة أو قصب الطيب . و (امررن) ، بمعنى (المرّ) ، وهو معروف مشهور

---

[1] الروض الانف (١/٢٠٤) .

عند العرب ، ودواء كالصبر مرّ ، استعمل في معالجة أمراض عديدة [1] . وقد كان ذلك في شهر (كيحلك) من السنة الثانية والعشرين من حكم الملك (بطلميوس)[2].

وقد ذهب(رودوكناكس) « Rhodokanakis » ناشر النص المذكور ومترجمه الى احتمال كون (زيد ايل) كان كاهناً في معابد مصر ، ولو كان من أصل غير مصري ، فقد كان المصريون قد تساهلوا في هذا العهد — كما يرى — فسمحوا للغرباء بالانخراط في سلك الكهان وخدمة المعابد ، وتساهلوا مع (زيد ايل) هذا فأدخلوه في طبقة(اويب) « Ueeb » وانتخبوه كاهناً ليضمن لهم الحصول على المرّ والقليمة بأسعار رخيصة لاستيراده اياها باسمه ومن موطنه مباشرة من غير وساطة وسيط[3] .

وقد ذهب (رودوكناكس) أيضاً الى ان (زيد ايل) ، كان يستورد المرّ والقليمة لا لحسابه الخاص ومن ماله ، بل لحساب المعابد المصرية ومن أموالها . فلم يكن هو إلا وسيطاً وشخصاً ثالثاً يتوسط بين البائع والمشتري ، يشتري تلك المادة ويستوردها باسمه ، ولكنه يستوردها للمعابد ولفائدتها . وهو لا يستبعد مع ذلك احتمال اشتغاله هو لنفسه وعلى حسابه في التجارة ، يستوردها لنفسه ويبيعها في الأسواق ، ويتصرف بالأرباح التي تدرها كما يريد . وهو لا يستبعد أيضاً احتمال مساعدة المعابد له بتجهيزه بالمال لتقوية رأس ماله ، أو انتشاله من خسارة قد تصيبه .

وقد أصيب هذا التاجر كما يظهر من هذا النص بخسارة كبيرة في شهر (حتحر) ربما أتت على كل ما كان يملكه ، فهبت المعابد المصرية لإنقاذه ، واعادة اعتباره المالي اليه ، بإسناده بتقديم أقمشة الـ (بص) (بوص) اليه . وقد أخذها وصدرها في سفينته التي يستورد بها المرّ والقليمة الى الأسواق ، فربح منها . واستورد المرّ والقليمة وأعاد الى المعابد ثمن ما أخذه منها من تلك السلعة ، وأدى ديونه في شهر (كيحلك) . وقد عاد اليه اعتباره وأنقذ من تلك الضائقة المالية التي حلت

---

١ تاج العروس (٣/٥٣٧) ، (مرر) .

٢ REP. EPIGR. 3427, Tome, V, p. 151, Rhodokanakis, Die Sarkophaginschrift Von Gizeh, S. 113, in Zeitschrift für semitistik, Bd., II, 1924, Conti Rossini, Chrest. Ar. Merid., 1931, p. 86.

٣ Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, Bd., 2, 1924, S. 116. ff.

به بمدة قصيرة لا تتجاوز شهراً كما يرى ذلك (رودوكناكس)[1] .

ولم يذكر النص اسم الجهة التي ذهبت السفينة اليها ، ولا اسم الموضع الذي أرسل (البوص) اليه ، ولا اسم المكان الذي استوردت القليمة وكميات المرّ منه.

و (البص) (البوص) ، هو (البز) في عربيتنا . والبز : الثياب ، وقيل ضرب من الثياب ، وبائعه البزاز[2] . ويظهر انه كان من الأصناف الجيدة ، التي امتازت مصر به ، فاشتهر في الخارج ، فكان يُصدَّر إلى الأسواق الخارجية . وهي لفظة معربة ، عربت من أصل يوناني هو « Vissas » ، ومعناه نسيج كتان ، ونسيج من كتان هندي رقيق جداً[3] .

لقد كانت حكومة البطالمة قد احتكرت صناعة نسيج الكتان وتجارة البزّ (بوص) ، وبيع المرّ والبخور والعطور والصبر وغير ذلك . وكانت تنتهج في خطتها الاقتصادية نهج احتكار الدولة بيع السلع الرائجة المهمة . نعم ، سمحت للتجار المستوردين باستيراد ما يشاءون من المر والبخور واللبان والصمغ والصبر وما شاكل ذلك من الخارج ، ولكنها لم تسمح لهم ببيعها أو تحويلها أو تغيير شكلها من غير استئذان الحكومة وموافقتها، ذلك لأنها تعدها من المواد الداخلة في دائرة الانحصار والاحتكار (Statesmonopol) ، والتابعة لمراقبة الحكومة .

أما نسج (البوص) (البص) البز ، فقد أودع أمره إلى المعابد ، تشرف عليه وتدير صناعته ، ورثت ذلك من عهود سبقت أيام البطالمة،وذلك في مقابل السماح لها بأخذ ما يحتاج الى استعماله في المعابد أو لحاجات رجال الدين الخاصة ، وتسليم بقية ما ينسج الى دوائر الحكومة المختصة لبيعه للناس[4] .

ويظهر من المؤلفات اليونانية واللاتينية أن العرب كانوا يملكون سفناً في البحر الأحمر وفي البحر العربي وفي الخليج ، إلا أن سفنهم لم تكن ضخمة ، ولهذا لم تتمكن من مجابهة السفن الرومانية والسفن اليونانية حين نزلت تلك البحار . لأنها كانت أضخم منها ، وكانت ذات أربعة صفوف من المجاذيف ، كما أنها كانت سريعة الحركة وذات مرونة في الاستدارة وفي الالتفاف وفي الرجوع والانتقال ،

---

١ Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, Bd. 2, 1924, S. 117.

٢ تاج العروس (٤/٧) ، (بزّ) .

٣ غرائب (٢٥٦) .

٤ المصدر نفسه (ص ١١٥ وما بعدها) .

وذلك بفضل أشرعتها التي طوّرت تطويراً كبيراً ليناسب تطورها هذا فعل الرياح بها ، ولتتمكن من السير مع الأهوية أو ضدها ، وبسبب آخر هو تطوير هندستها بصورة مستمرة ، لتجاري التيار ولتقطعه بكل سهولة ، دون أن يعيقها أو يلحق أذى بها . وبفضل هذا التطوير تمكنت تلك السفن من التغلب على السفن العربية، ومن ملاحقة لصوص البحر (القرصان) الذين كانوا يتحرشون بالسفن ليأخذوا ما فيها ، بسفنهم الصغيرة البدائية،وبذلك صار في مستطاع السفن اليونانية والرومانية دخول الموانيء العربية والموانيء الافريقية ومن الوصول الى الهند .

وقد أشار (أغاثرشيدس) الى هذا التفوق ، كما أشار اليه (سترابو) في أثناء كلامه على حملة (أوليوس غالوس) وعن خطأه في تقدير موقفه من البحرية العربية . فقد ذكر (سترابو) أن (أوليوس غالوس) ظن أن للعرب سفناً كبيرة في البحر وأنها ستظهر أمام سفنه وستقاومه ، لهذا أمر ببناء سفن طويلة لمجابهة تلك السفن ، مع أن العرب قوم تجارة وبيع وشراء ، ولم يكونوا أمة حرب ، لا في البحر وحده ، بل في البرّ أيضاً . ومع ذلك بنى ما لا يقل عن ثمانين سفينة حربية ، منها سفن ذوات صفّين من المجاذيف ومنها ذوات ثلاثة ، ومنها ذوات صف واحد ... ولما أدرك خطأه ابتنى مئة وثلاثين سفينة للحمل ، ركب فيها نحو من عشرة آلاف من المشاة .. وبعد أن خسر كثيراً من سفنه ، غرق عدد منها وغرق من فيها من بحارة ، وذلك بسبب صعوبة الملاحة لا بمقاومة من عدوّ[1] .

ولا نجد في كتب أهل الأخبار ما يشير الى وجود قوى بحرية عربية ، بل نجد فيها أن سفن الروم كانت هي التي تمخر عباب البحر الأحمر وكانت هي المهيمنة عليه وأنها كانت تصل الى سواحل افريقية وتذهب الى الهند . ونجد فيها أن سفن الحبشة كانت تأتي (الجار) و (الشعيبة) ، وموانيء عربية أخرى لتتاجر معها ، وأن سفن الساسانيين كانت تهيمن على مياه الخليج العربي والبحر العربي،ثم نجد في روايات أهل الأخبار عن كيفية احتلال الحبش لليمن واحتلال الفرس لها وعن هجرة المهاجرين الأولين من مكة الى الحبشة ووصفهم لكيفية بناء الكعبة وأخذهم لخشب سفينة رومية ما يؤيد أن الجاهليين لم يكونوا يملكون سفناً

---

١ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٦٤) لسنة ١٩٥٢ م .

كثيرة كبيرة قوية في ذلك العهد ، وأنهم كانوا قد تركوا البحر الى غيرهم منذ عهد قبل الاسلام .

ويعود تفوق سفن اليونان والرومان على السفن العربية في البحار الى ما قبل الميلاد . لا بل نستطيع أن نرجع هذا التفوق الى ما قبل أيام اليونان والرومان ، نستطيع أن نرجعه الى أيام المصريين . فقد ورد في أخبارهم انهم أرسلوا سفنهم الى البحر الأحمر فوصلت الى السواحل الافريقية ، وانهم كانوا قد حفروا قناة لتصل بين نهر النيل والبحر الأحمر ، فيكون في وسع السفن القادمة من البحر الأبيض من اليونان أو من ايطاليا أو من أي مكان آخر دخول نهر النيل والمرور من القناة الى البحر الأحمر ثم الى المحيط للاتجار مع أسواق البلاد الحارة، والعودة من تلك الأسواق بحاصلات آسيا وافريقية الى اوروبة . وهو مشروع يدل على ذكاء وحنكة في السياسة ، مهّد الدرب لمشروع قناة السويس الحديث .

ولما استولى (دارا) (داريوس) على مصر ، قرر اعادة ذلك المشروع المصري القديم ، الذي كان قد اندثر وأكلته الرمال . بأن أمر بشق قناة تصل النيل بالبحر الأحمر عن طريق الفرع البلوزي أحد فروع النيل القديمة ، بالقرب من الزقازيق ، مخترقة وادي الطميلات ثم البحيرات الى السويس . وهو مشروع يدل على ذكاء ذلك الملك وادراكه لأهمية ربط البحرين بطريق مائي ، والى ما فيه من فوائد في السياسة وفي الاقتصاد وفي الناحية العسكرية .

ووضع (الاسكندر) الأكبر مشروعاً خطيراً آخر يفوق كل ما وضع من قبله من مشاريع . فقد وضع خطة السيطرة على المياه الدافئة بالسيطرة على سواحل جزيرة العرب ، وذلك بالاستيلاء عليها ، ويكون بذلك ملك أكبر انبراطورية عرفت حتى ذلك اليوم تمتد من الهند الى مصر وما وراء مصر من أرضين[1] . وقد كلف قوّاده بالالتفاف حول جزيرة العرب ، وباشروا بتنفيذ الأمر بالفعل ، وقد رأينا قائده (نيرخوس) « Nearchus » على رأس أسطول ضخم ، لعله أعظم أسطول شاهده الخليج والبحر العربي حتى ذلك العهد . وقد رأينا كيف قرر الإحاطة بجزيرة العرب من الجنوب والغرب بالسيطرة على سواحلها وانشاء أسطول يمخر المياه المحيطة بها ، بعد أن هيمن على السواحل الشرقية . وقد استعان

١ Arrianus, Anabasis, VII, 19, 20.

نفسه بخبرة الفينيقيين وعلمهم بالبحر . نقلهم الى هذه المياه وكلفهم بناء السفن له ، وبإدارتها له . ولو قدر للاسكندر أن يعيش طويلاً لتحقق مشروعه الضخم، ولكن القدر قضى عليه مبكراً ، فمات مشروعه معه ؛ ولم يكن لخلفائه ما كان لسيدهم من عزم ، فتركوا المشروع ، ولم يتحمسوا له[1] .

وقد أدرك البطالمة قيمة القناة القديمة التي كانت تربط النيل فالبحر المتوسط بالبحر الأحمر ، فأمر (بطلميوس الثاني) (١٨٥ – ١٤٦ ق. م.) بإعادتها ، ومكن بذلك تجاره من دخول البحر الأحمر ومن نقل التجارة من أسواقها الأصلية الى مصر ، ومنها الى أسواق اليونان والرومان وسائر بلاد أوروبة بالطرق المائية ، وضبط بذلك الممر المائي العالمي القديم ، هذا الممر الذي فتح ذهن (دلسبس) فيما بعد فجعله يفكر في موضع أصلح رآه في المكان الحالي المعروف بـ (قناة السويس) القناة العالمية التي تلعب اليوم دوراً خطيراً في الاقتصاد العالمي وفي السياسة الدولية والموقف الحربي للدول .

وعيّن البطالمة موظفين خاصين مهمتهم الإشراف على إدارة التجارة البحرية وسير السفن . فنجد في كتابة تعود الى سنة (١٣٠) قبل الميلاد إشارة الى موظف كان مسؤولاً عن سير السفن وعن الطريق الصحراوية الممتدة الى قفط ، ونجد أخباراً تعود الى ما بين سنتي ١٢٠ و ١١٠ قبل الميلاد تتحدث عن سفن كانت تسير بين مصر والهند ، كما نجد فيها وفي نصوص تعود الى عهود متأخرة عن هذه اشارات الى وجود موظفين مسؤولين عن البحرين الأحمر والهندي[2] .

وقد كان لوقوف (هيبالس) « Hippalus » ، وهو أحد اليونان أو الرومان على سرّ الاستفادة من الرياح الموسمية في تسيير السفن وفي تقصير الوقت في قطع المسافات ، وفي تمكينها من الابتعاد عن أخطار السير في محاذاة السواحل أهمية كبيرة في تطوير فن الملاحة الأوروبية بالنسبة لذلك العهد[3] . ويمكن اعتبار وقوف هذا الملاح على هذا السرّ من أهم الأحداث البارزة التي حدثت في ذلك العهد والتي مكنت الغربيين من التوفق في البحر بالنسبة لتلك الأيام . أضف الى

---

١ Arrianus, Anabasis, VII, 19, 20.

٢ حوراني (ص ٦٦) .

٣ Pliny, VI, 26, Tarn, The Greeks in Bactria and India, p. 366.

ذلك أن الذين خبروا البحر وعركوه من بعده أضافوا ما استفادوه من فنسه ومن علم من تقدم عليه علماً آخر مكن البحارة البطالسة ثم الرومان الذين جاؤوا من بعدهم فحكموا مصر ، ثم اليونان من السيادة على البحار ومن انتزاع المغانم من التجار العرب ومن غيرهم ومن إلحاق ضرر بالغ بهم ، وبذلك وضعوا لمن جاء بعدهم من دول أوروبة خطط السيطرة على البحار وعلى العالم القديم .

ويعدّ القيصر الروماني (أغسطس قيصر) من أهم القياصرة الذين وجهوا أنظارهم نحو الشرق ، ونستطيع ان نقول انه خليفة (الاسكندر الأول) في هذا الباب ، ومن أساتذة (نابليون) في خططه العسكرية الرامية الى السيطرة على الشرق . لقد نوى الاستيلاء على بلاد العرب ، وربما على ما وراء بلاد العرب من أرضين ، وكانت غايته من هذه النية – كما قال سترابو – « إما ان يسترضي العرب ، وإما ان يخضعهم ، كما انه فعلت في نفسه الروايات الشائعة منذ القدم ان العرب قوم واسعو الثراء ، وانهم يستبدلون الفضة والذهب بعطرهم وحجارتهم الكريمة ، دون ان ينفقوا مع الغرباء ما يحصلون عليه في مقايضاتهم التجارية . فأمل أحد أمرين : إما ان يحصل على أصدقاء موسرين ، وإما ان يتغلب على أعداء موسرين »[1] .

واذا كان (أغسطس) قد أخفق في تحقيق مشروعه في احتلال جزيرة العرب ، فإنه لم يهمل ناحية الاستفادة من البحار ، فشجع الملاحين ، وزاد عدد السفن الذاهبة الى الهند ، وقد كان عددها لا يزيد على عشرين سفينة في السنة الواحدة قبل أيامه ، فارتفع عدد ما يصل الى الهند منها الى ما لا يقل عن (١٢٠) سفينة في السنة الواحدة[2] . وقد أقام اليونان والرومان معبداً في موضع « Mauziris » على ساحل الـ (مالابار) في أيام (أغسطس) ، ووجود هذا المعبد في هذا الموضع دليل على المدى الذي وصل اليه التجار اليونان والرومان في بلاد آسية ، وعلى مقدار تشجيع القيصر لأولئك التجار[3] .

وبدلاً من أن ينتظر التاجر الروماني أو اليوناني البضائع الثمينة ، تأتي اليه الى أسواق مصر أو بلاد الشأم محملة بسفن عربية أو على ظهور جمال القوافل كما كان

---

١ الصفحة (٢٦٤) من المجلد الثاني من مجلة المجمع العلمي العراقي لسنة « ١٩٥٢ م »
٢ حوراني (ص ٧٥) . Strabo, 17, I, 13.
٣ حوراني (ص ٧٥) .

ذلك في الغالب ، وهي بأسعار عالية ، إرتاد هو البحر الأحمر ، ومنـــه المحيط الهندي الى سواحل افريقية أو سواحل العربية الجنوبية أو الهند فما وراءها، يشتري من موانئها وأسواقها ما يريـــد ، بأسعار رخيصة جداً بالقياس الى تلك الأسعار التي كان يدفعها للتجار الموردين في أسواق مصر أو أسواق بلاد الشأم ، فاستفاد هو ، واستفادت حكومته منه ، وخسر التجار العرب بوصول هـؤلاء التجار الى تلك الأسواق ومنافستهم لهم خسائر فادحة ، أوجدت خللاً في الحيـاة الاقتصادية للدول العربية ، وضرراً عاماً في جميع نواحي الحياة الأخرى .

وطالما تشكى الرومان واليونان من فداحة الأرباح والضرائب التي كان يفرضها التجار العرب عـــلى البضائع المرسلة اليهم ، والتي كانوا يحتاجون اليها ويشترونها بأي ثمن كان . وقد ذكر (سترابون) الجغرافي الشهير في جملة الأسبـاب التي حملت القيصر (أغسطس) على إرسال حملته الشهيرة ، هو ثراء أهل تلك البلاد، وحصولهم على أرباح مفرطة من الغرباء وفي ضمنهم الرومان واليونان من اتجارهم معهم ، ومن تحكمهم في وضع الأسعار ، دون أن يعطوا أولئك التجـار والبلاد التي يحملون تجارتهم اليها شيئاً[1] .

وقد كان للأحداث السياسية ، في الانبراطوريتين الرومانية واليونانية أثراً كبيراً في حالة الملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي . ففي أيام الفتن والاضطرابات وحدوث القلاقل ، لم يكن في وسع أصحاب السفن الرومان أو اليونان التوغل في البحار البعيدة عن مناطق نفوذ الانبراطوريتين ، لضعف وسائل حماية السفن التجارية وحماية التجار والمستعمرات العديدة المقامة على السواحل . ولهذا نجـد (سترابو) يذكر أنه قبل أيامه لم تكن هنالك سفن كثيرة تجتاز البحر الأحمر ، فقد كان كل ما يرسله الرومان من السفن لا يزيد على العشرين سفينة ، تجتاز هذا البحر ،فتصل الى ما وراءه في المحيط[2] .

وأخذ التجار اليونان والرومان يقصدون سواحل افريقية وبلاد العرب والهند ، ويقيمون في موانئها للاتجار . وقد عثر على نقود يونانية ورومانية في مواضع متعددة من هذه السواحل ، كما عثر فيها على آثار معابد ومبانـــي تشير الى أصل يوناني

١ راجع الترجمة المنشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٧٦٣) ، (١٩٥٢ م) .
٢ Strabo, 17, I, 13.

وروماني ، كذلك نجد أخباراً لأشخاص يونانيين ورومانيين ذهبوا الى أرض سبأ للاتجار .

ولم يجد الرومان ولا اليونان مقاومة تذكر حينما ولجوا البحر الأحمر والمحيط الهندي . لقد كانت سفنهم أكبر وأقوى من سفن العرب ، وأحدث منها،وأقدر على الحركة والمقاومة . تتحمل صعاب البحر ، وتقاوم الأعاصير والظروف القاسية الشديدة ، وتتسع لاستيعاب أعداد كبيرة من الرجال ، وتحمل حملاً كبيراً بالقياس الى السفن العربية . وهذا مما يقلل بالطبع من أجور النقل ، ومن أخطار الغرق والاصطدام بصخور السواحل ، ومن التعرض للصوص البحر ، ويخفض من أثمان البضائع في الأسواق ، ويزيد في عدد المستهلكين .

وقد رأى البحر الأحمر سفناً أقوى وأضخم من السفن العربية الصغيرة ومن سفن سكان سواحل افريقية : رأى سفناً تسير بقوة أربعة صفوف من المجاذيف « Quadriremes » [1] أخذت تتعقب لصوص البحر،وتحمي سفن اليونان والرومان ، وتحمي المستعمرات التي أنشئت على سواحل البحر الأحمر لإيواء تلك السفن،وتقديم المساعدات الى أصحابها ، وشراء السلع من القبائل الساكنة على مقربة منها ، وسرعان ما صارت أسواقاً للبيع وللشراء ، يبيع فيها هؤلاء التجار الأجانب ما يأتون به من تجارة من حوض البحر المتوسط ، ويشترون منهم ما عندهم من مواد أولية ، يقبل عليها أهل مصر واليونان والرومان وسكان البحر المتوسط . وقد أثرت هذه الأسواق بالطبع في مصالح التجار العرب الذين كانوا يقومون بمثل هذه الأعمال ، وألحقت بهم ضرراً ولا شك .

ولوعورة الساحل العربي على البحر الأحمر ولكثرة صخوره المؤذية للسفن ، ولكثرة لصوص البحر فيه ، ولأسباب أخرى تجنبت السفن الرومانية واليونانية هذا الساحل قدر إمكانها ، فلم ترسُ به إلا في المواضع الآمنة التي أمنت النزول بها ، وسيطرت عليها بوضع حاميات عسكرية بها ، أو بعقد محالفات وعهود ومواثيق مع سكانها . وقد كان ميناء (مخا) « Muza » الميناء المفضل لها . قصدته للاتجار

---

١ حوراني (ص ٥٩) ، Agatarchides, I, 83, 85, 88.

ولتموين نفسها بالماء والغذاء [1] . وقد كان في استطاعة سفن تلك الأيام السير على مبعدة من ذلك الساحل ودون توقف حتى تصل الى الميناء المذكور ، أو الى ميناء عدن « Arabia Eudaemon » ، وبذلك تجنبت السفن المخاطر والمهالك التي كانت ستتعرض لها فيما لو سارت في محاذاة الساحل العربي .

ويظهر أن موضع (لويكه كومه) ، أي (القريـة البيضاء) كان ميناء معروفاً في القرن الأخير قبل الميلاد ، ففيه هبط (أوليوس غالوس) سنة (٢٥ أو ٢٤) قبل الميلاد في حملته التي أمر القيصر (أغسطس) بإرسالها على اليمن . ولو لم يكن من المرافىء الحسنة الصالحة لرسو السفن لما نزل به الجيش الروماني . ويكتنف تأريخه الغموض ، فلم يرد اسمه كثيراً في كتب اليونان والرومان ولا في كتب الإسلاميين . ويقال إنه ظل قائماً حتى نهاية القرن الثالث بعـد الميلاد[2] . ولعلّه (الحوراء) ، مرفأ سفن مصر قديماً ، وقد ذكره أصحاب الرحل[3] .

و (الجار) ، فرضة أهل المدينة ، ترفأ اليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين والبحرين ، وبحذائها جزيرة في البحر ميل في ميل يسكنها التجار[4]. فهي من الموانىء التي كان يقصدها التجار من السواحل المقابلة ومن سواحل افريقية الشرقيـة والمحيط الهندي . وذكر ان النـاس كانوا لا يعبرون الى الجزيرة إلا بالسفن ، وهي مرسى الحبشة خاصة . وان بينها وبين المدينة يوم وليلة ، وبين أيلة نحو من عشر مراحل ، والى ساحل (الجحفة) نحو ثلاث مراحل[5] . وقد عرفت تلك الجزيرة بـ (قراف) ، وسكانها تجار كنحو أهل الجار[6] .

و (الشعيبة) من المراسي القديمة في الحجاز ، وهي أقدم من جدة . وهي خور أمين تقصده السفن لتتزود بما تحتاج اليه من زاد وماء ، ولتفرغ فيه ما تأتي

---

١ « المخا : موضع باليمن بين زبيد وعدن ، بساحل البحر ٠ وهو مقصبود » ، البلدان (٢٠٢/٧) ، « ومخا : مقصورة ، بساحل بحر اليمن تجاه باب المندب ٠٠٠ قـال الصاغاني : ترفأ بمكلئها السفن » ، تاج العروس (٣٢٨/١٠) ٠

٢ Handbuch, I, S. 114.

٣ تاج العروس (١٦١/٣) ، (حور) ٠

٤ تاج العروس (١١٢/٣) ، (جار) ٠

٥ البلدان (٣٥/٣) ٠

٦ عرام ، أسماء جبال تهامة وسكانها (ص ٣٩٨ وما بعدها) ، (نوادر المخطوطات) ، تاج العروس (٢٢٠/٦) ، (قرف) ٠

به من شحن من افريقية الى الحجاز . وهو مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة . واليه جنحت سفينة (باقوم) ، التي تحطمت بدفع الريح لها ، فاستعانت قريش في تجديد عمارة الكعبة بخشب تلك السفينة على نحو ما تحدثت عنه في أثناء كلامي على تجديد بناء الكعبة قبل المبعث بقليل[1] . ومنه هاجر المسلمون الى الحبشة في السنة الخامسة من المبعث،حيث وجدوا سفينتين للتجار حملوهم فيها الى الحبشة[2]. ومنه كان يذهب تجار مكة الى افريقية للتجارة قبل الاسلام .

وميناء « Muza » = « MUZA » من موانىء اليمن المهمة على البحر الأحمر[3]، وكان مقصوداً ، وتصل اليه السفن البيزنطية والسفن الواردة من مصر ، ومن هنا كانت تتزود تلك السفن بضائع البلاد العربية ، أو تبيع فيه ما استوردته من مصر أو من سواحل حوض البحر المتوسط . وقد تتزود ما تحتاج اليه من ماء وزاد ، ثم تتجه الى افريقية أو إلى سواحل الهند . وقد كانت به جاليات من اليونان أو من غيرهم مقيمة هناك للاتجار والتعامل مع الوطنيين . وهو ميناء (مخا) المشهور[4]. ويذكر أهل الأخبار ، ان بين (مخا) وبين (باب المندب) ، أي الساحل الافريقي المقابل للساحل العربي يومين أو أكثر ، وان باب المندب ، مرسى ببحر اليمن ، وهو اسم ساحل مقابل لزبيد اليمن ، وهو جبل مشرف ندب بعض الملوك اليه الرجال حتى قدّوه بالمعاول ، لأنه كان حاجزاً ومانعاً للبحر عن ان ينبسط بأرض اليمن ، فأراد بعض الملوك أن يغرق عدوّه ، فقدّ هذا الجبل وأنفذه الى أرض اليمن ، فغلب على بلدان كثيرة وقرى أهلك أهلها وصار منه بحر اليمن الحائل بين أرض اليمن والحبشة والآخذ الى عيذاب وقصير الى مقابل (قوص) ، والملك هو (الاسكندر)[5] . وبهذه الطريقة أوجد أهل الأخبار لهم تأريخاً لباب المندب ، وحلّوا مشكلة كيفية انفصال افريقية عن اليمن !

وميناء « Arabia Eudaemon » ، هو ميناء (عدن) ، وهو ميناء مهم في ذلك الوقت أيضاً ، ولا يزال يحافظ على مركزه وأهميته من الوجهة العسكرية

---

١ البلدان (٥/٢٧٦) ، ابن المجاور ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، (القسم الاول ص ٤٢ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/٣٢٩) .
٣ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٨/٩٧) .
٤ البلدان (٧/٢٠٢) ، تاج العروس (١٠/٣٣٨) ، (مخى) .
٥ تاج العروس (١/٤٨٢) ، (ندب) .

والاقتصادية [1] . وقد ذكره (بطلميوس) باسم « Arabia Emporion » . وقد كان مركزاً لتبادل السلع الافريقية والهندية والمصرية ، ومكاناً تبحر منه السفن الى الهند ، كما تلتجىء اليه السفن الواردة من تلك البلاد . وقد استولى عليه الرومان في فترات .

ويذكر أنه في حوالى سنة (٣٤٥) ، أسس أحد المبشرين واسمه (ثيوفيلوس) « Theophilus » المعروف بالهندي ، كنيسة في (عدن) « Adane » [2].

وجزائر (فرسان) ، من الجزر التي كان يتاجر أهلها مع الحبشة ، ويذكر (الهمداني) أن سكانها كانوا يعملون في التجارة الى بلاد الحبش ، ولهم في السنة سفرة [3] .

وميناء « Cana » (قنا) ، هو موضع (حصن غراب) (حصن الغراب). وهو سوق اللبان الذي يزرع داخل البلاد ، يؤتى به الى ذلك الميناء على ظهور الجمال ، أو في الأرماث المصنوعة من الجلد ، وفي القوارب . وهو ميناء تجارة كذلك مع مدن الساحل البعيد، مع بعض مدن الهند ، وميناء (عمانه) « Umana » (عمان) والموانىء التي على الخليج [4] . وتقع (قنا) على مرتفع ، قريب من (ميفع) [5] ، و (ميفع) ، قرية على الساحل ، و (ميفعة) ، بلدة بين (ميفع) و (أحور) ، إلا أنها ليست على الساحل ، بل بينها مرحلة [6] .

وأما ميناء « Moscha » ، فهو (ظفار) من أعمال الشحر ، قريب من صحار . وبجبال ظفار (اللبان) ، واليه يحمل ، وبه يقسم ويوزع ، ولا يسمح بحمله الى غيره [7] . وقد ذكر عدد من المؤلفين اليونان واللاتين . وقد ذهب بعض الباحثين الى أنه (مسقط) وأنه « Mosca Portus » [8] . ويذكر أهل الأخبار ،

---

١ البلدان (١٢٧/٦) ، ابن المجاور (١٠٦/١ وما بعدها) .
٢ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٩٨/٨ وما بعدها) .
٣ الصفة (٥٣) .
٤ Periplus, 20. f., 27.
٥ تاج العروس (٣٠٥/١٠) ، (قنا) .
٦ تاج العروس (٥٦٦/٥) ، (يفع) .
٧ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٣٤٢/٣) ، Glaser, Skizze, II, S. 180, Ptolemy, VI, 7, 10.
٨ Pauly-Wissowa, 31 ter Halbband, 1933, S. 343, Forbiger, Handbuch der Alter Geography, II, S. 757.

أن (ظفار) قرب مرباط ، وتعرف بـ (ظفار) الساحل ، واليها ينسب القسط، وهو العود الذي يتبخر به ، لأنه يجلب اليها من الهند ، ومنها الى اليمن، كنسبة الرماح الى (الخط) ، فإنه لا ينبت به ، وهي قريبة من (الشحر)[1] .

وكان أهل (جرها) « Gerrha » على ساحل الأحساء من أنشط الناس في في التجارة ، يتاجرون في البر والبحر ،ويتاجرون مع الهند وسواحل ايران الجنوبية، كما كانوا يتاجرون مع العربية الجنوبيـــة وأرض العراق . وكانوا قوماً مسالمـين لا يرغبون في الحروب . فلما أراد (أنطيوخس) « Antiochus » الثالث الاستيلاء على المدينة وذلك في حوالي سنة (٢٠٥) قبل الميلاد ، سألوه الصلح والمهادنة ، « وألا يقضى على ما أعطتهم الآلهة من سلام وحرية أزليين »[2] .

وأما مدينة (أبولوكس) « Apologus » ، فهي الأبلة في الكتب الاسلامية و « Uubulum » في الكتابات الأكادية. وقد كانت من أهم موانىء أعالي الخليج في أيام فتح المسلمين للعراق . تصدر الى الهند حاصلات العراق وبلاد الشأم وآسية الصغـــرى وأوروبة ، وتستورد منها أخشاب الصندل والآبنوس ومنتجات الهنـد وسيلان والصين[3] . وقد عرفها أهل الأخبار،فذكروا انها كانت أقدم من البصرة، لأن البصرة ، مصرت في أيام (عمر) ، وكانت الأبلة حينئذ مسالح من قبـل كسرى ، وقد كان تجارها يربحون ربحاً عظيماً ، وهي أرض واسعة . قال (خالد ابن صفوان) : « ما رأينا أرضاً مثل الأبلة مسافة ، ولا أغذى نطفة، ولا أوطأ مطيّة ، ولا أربح لتاجر ، ولا أحفى بعابد »[4] .

وهناك مواني عديدة أخرى ، ذكر المؤلفون اليونان واللاتين أسماءها ، وقـد تحدثت عنها في الجزء الثالث من كتابي : (تاريخ العرب في الاسلام) ، وشخصت مواقعها قدر الامكان . وقد كان لا بد من ان يكثر عدد الموانيء في تلك الأيام، فسفن ذلك العهد لم تكن ضخمة كسفن هذا اليوم ، ولم يكن في استطاعتها لهـذا الابتعاد عن السواحل كثيراً ، ولا السير الى مسافات شاسعة ، إذ كان لا بد لها

---

١ تاج العروس (٣/ ٣٧٠) ، (ظفر) .
٢ Polybius, Historia, Book, 13, Chapter 9.
٣ Pliny, VI, 31, 32, Dio Casius, Roman History, 68, 28, 29.
جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٨/ ١٠٠) .
٤ تاج العروس (٧/ ٢٠٠) ، (ابل) .

من التزود دوماً بالماء والغذاء ، ولا سيما بالنسبة الى السفن الصغيرة ، فأخذت ترسو في مراسي كثيرة لتموين نفسها ولإراحة أصحابها ، من عناء البحر ، ولم تتخلص السفن من تعدد الرسو في الموانىء إلا بعد تحسن صناعة بناء السفن ، وظهور السفن البخارية ، فانتفت حاجتها اليها ، وقد قضى هذا التحسن على أكثر الموانىء ، فماتت وذهبت مع العصور التي ولدت فيها .

وقد تتجه السفن من ميناء (مخا) الى السواحل الافريقية مخترقة مضيق المندب ، وقد تتجه الى (عدن) ، ثم تواصل سيرها نحو السواحل الافريقية ، بعد أن تتمون بما تحتاج اليه من ماء وزاد ، أو تتجه الى ميناء (أكيلا) « Acilla » ، الواقع على مقربة من (رأس الخيمة) « Massandum » ، للإقلاع منه الى الهند[1] . وهو أقرب طريق يوصل العرب الجنوبيين وعرب سواحل عمان الى تلك البلاد .

ولما تحسنت هندسة بناء السفن صار في امكانها قطع مسافات أبعد من دون حاجة الى الرسو في موانىء عديدة ، وصارت السفن القادمة من مصر ترسو في ميناء (عدن) رأساً ، وبعد أن يستريح أصحابها يتجهون الى سواحل افريقية أبعد مما كانوا يصلون اليها في السابق ، أو يتجهون نحو الهند . وبذلك قصر الوقت وقلت كلفة الأسفار ، وصار في وسع اليونان والرومان دخول الأسواق الأصلية رأساً ، يأخذون منها ما يريدون ويبيعون فيها ما عندهم دون حاجة الى وسيط . وكانت السفن اليونانية والرومانية تتحمل من صعاب البحر ، وتقاوم الأعاصير والظروف القاسية الشديدة ، وتتسع لاستيعاب أعداد كبيرة من الرجال ، وتحمل حملاً كبيراً بالقياس الى السفن العربية . وهذا ما قلل بالطبع من أجور النقل ، وخفض من أثمان البضائع في الأسواق ، وزاد في عدد المستهلكين .

ولكن السفن اليونانية والرومانية جوبهت مع ذلك بلصوص البحر الذين كانوا يتعقبون السفن ، ويغيرون عليها عند تقربها من السواحل . كان هؤلاء اللصوص قد ابتنوا سفناً لهم ، فإذا رأوا سفناً يونانية أو رومانية أو غيرها وقد وقعت في قبضة الأعاصير ، أو اصطدمت بالصخور البحرية أو كانت على مقربة منهم وفي مناطق يمكن وصولهم اليها ، أغاروا عليها وأخذوا منها كل ما تقع أيديهم عليه .

---

١ Pliny, VI, 32, Glaser, Skizze, II, S. 186.

ولا ينجو منها أحد ، حتى أصحابهـــا يؤخذون أسرى ، فيباعون في الأسواق خولاً .

ولحماية السفن والتجار ، أنشأ الرومان واليونان قوة بحرية حربية ، تولت حراسة السفن التجارية وحماية المستعمرات التي أقاموها على سواحل هذه الطرق المائية العالمية المهمة . ولم تكن المسافات بين المستعمرات الساحلية قصيرة ، ليكون في الامكان الدفاع عنها والتعاون فيما بينها . وللتغلب على هذا الضعف ولحمايتها حمايـة قويـة زوّدوها بما تحتاج اليه من مياه عذبة ومن أطعمة ومن جنود لصد غارات المعتدين. وبذلك هيمنوا على البحار : وضبطوا البحر الأحمر بصورة خاصة، ولم يبق للعرب من مجال في التجارة العالميـة إلا بسلوك الطرق البرية الموصلة الى بـلاد الشأم والعراق .

وقد تكون في إشارة (بليني) « Plinus » الى وجود جاليـات يونانية على سواحل بلاد العرب في مواضع غير بعيدة عن موضع « Attevae » الـذي هو (عدن) ، ايماءة الى وجود مستعمرات يونانية على سواحل جزيرة العرب أنشئت قبل أيامه لضبط الأمن في البحار وللاتجار مع العرب وبسط نفوذ الروم عليهم . وفي جملة تلك الأماكن التي ذكرها : « Arethusa » و « Larisa » و « Chalcis » . ذكر انها كلها كانت قد خربت بسبب الحروب ، مما يدل على انها كانت قـد أقيمت قبل أيامه بزمان[1] .

وقد ضمنت تلك القوة البحرية الضخمة للرومان السيطرة على البحر الأحمر وعلى البحر العربـي،واستطاعت احتلال (عدن) . ففي أيام (كلوديوس) « Claudius » (٤١ — ٥٤ م) كان هذا الميناء في قبضة الرومان[2] . وكانت به حامية رومانية. وتمكن هذا القيصر الذي كانت عدن خاضعة له في أيام مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) ، أو أي قيصر آخر ، قد يكون « Coligula » وقـد يكون (طبريوس) « Tiberius » ، من عقد معاهدة مع الملك (كرب ايل) « Charibael » (ملك سبأ وذو ريدان) في ذلك الـوقت . ولم يشر مؤلف

---

١ Pliny, 6, 159, Die Araber, I, S. 120.

٢ Wissmann, Geogr. Grundlagen, 107, Grohmann, Arabien, S. 28, Periplus Maris Erythraei., 26.

الكتاب المذكور الذي لا نعرف اسمـــه اليوم الى اسم القيصر ، بل اكتفى بذكر اللقب فقط ، وهو (قيصر) ، وهو كما نرى لقب عام ، يطلق على كل من يحكم انبراطورية الرومان . وقد ذهب بعض الباحثين الى عدم امكان التفكـــير في القيصر (أغسطس) ، والى احتمال كونه قيصراً آخر ، وقد يكون بالاضافة الى من ذكرته .(نيرو) أو (تراجان) ، أو (سبتيموس سويرس) (سبتيميوس سفيروس) « Septimius Severus »[1] .

واهتم (تراجان) بأمر التجارة البرية والبحرية ، جعل أرض النبط ولايـــة خاصة دعاها : (الكورة العربية) أو (المقاطعة العربية) « Arabia Provincia » وذلك سنة (١٠٦) للميلاد . واهتم بالطرق البرية ، فأصلح طريقاً مهمـــة تمر من دمشق الى أيلة فبصرى والبتراء ، وهي طرق قديمة ومعروفة ، بالنسبة للاتجار مع بلاد العرب ، وكانت في حاجة الى عناية واصلاح ووضع معالم . واعتنى بميناء (أيلة) فعمره ووضع ادارة (كمركية) فيه ، وجعله من الفرض المهمـــة في خليج العقبة ، بل والبحر الأحمر . وأصلح القناة القديمة بعد أن تراكمت فيهـــا الأتربة حتى سدّت مجراها ، وحفر قسماً جديداً من طرفها الغربي ، أوصلهـــا بالنيل عند (بابلون) « Babylon » ، موضع مصر القديمة . وبذلك سهل الاتصال بالفرع الغربي للنيل المؤدي الى الاسكندرية ، وبرز ميناء (القلزم) « Clysma » حيث التقت قناة تراجان بالبحر الأحمر[2] .

وعثر على كتابة دوّنها قوم من أهل تدمر ، اشتغلوا بالملاحة في البحر الأحمر ، أشادوا بفضل القيصر (هدريان) (هدريانوس) (١١٧ — ١٣٨ م) عليهم[3] . وتدل هذه الكتابة على اشتراك التدمريين في الملاحة ، مع انهم من أهـــل مدينة صحراوية ، عماد حياتها التجارة بالبضائع الواردة اليها بالطرق البرية .

وقد توغل الملاحون في أيام أسرة (انطونينوس) « Antonines » (٩٨—١٩٢م) حتى أدركوا موضع (رهابتا) على مقربة من (زنجبار) في السواحل الافريقية ، ووصلوا الى سواحل الصين في آسية. وهذا هو سر وجود أسماء مواضع في جغرافيا

---

١ Die Araber, I, S. 43.

٢ حوراني (٨٦) .

٣ Dio Casius, 68, 14, Ptolemy, IV, 5, 14.

(بطلميوس) (في حوالي ١٥٠ – ١٦٠ للميـلاد) لم ترد في كتب المؤلفين السابقين الذين عاشوا قبل هذا الجغرافي اليوناني الشهير . وفي جملة ما ذكره هذا الجغرافي أسماء مواضع عديدة في جزيرة العرب ، لم يشر اليهـا المؤلفون اليونان والرومـان السابقون ، وأوصاف أدق وأصدق من الأوصاف التي ذكروها ، وفي ذلك دلالة على زيادة علم اليونانيين والرومان في هذه الأيام بأحوال الشرق نتيجة زيادة اختلاطهم واتصالهم بالشرقيين .

ومعارفنا بأخبار الملاحة في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي في العهد البيزنطي، أي العهد الذي أصبحت فيه القسطنطينية فيه عاصمة بدلاً من رومـا (٣٣٠ م) ، قليلة ضحلة ، لأن أكثر المؤرخين الذين عاشوا في هذه الحقبة ثم ما بعدهـا الى ظهور الإسلام إنمـا اهتموا بالأمور الدينية ، وكانوا إذا ما تطرقوا الى النواحي الجغرافية أو التاريخية المعاصرة للبلاد الخارجة عن نطاق الانبراطوريـة البيزنطية أو نفوذها السياسي ، أوجزوا القول إيجازاً لا يعطى القارىء رأياً في الأحوال العامة وفي ضمنها التجارة والملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي .

لقد أثرت الأوضاع السياسية القلقة التي حدثت في الدولة البيزنطية ، والحروب المتوالية بين الساسانيين والبيزنطيين ، أثراً خطيراً عـلى البحرية البيزنطية في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي ، إذ حدّت من توسعها ، وقلصت من عدد سفنها ، ولم تجد بسبب انشغال الحكومـة في تلك الحروب عناية ورعاية ، ولهذا اقتصر نشاطها على البحر الأحمر وعلى السواحل الافريقية التي كانت عـلى صلات حسنة بالبيزنطيين . فكانت تصل الى ميناء (أدولس) ، ومنه يصل التجار الى أسواق الحبشة الداخلية ، أو الى موانى (سقطرى) ، وقد كان بها مستوطنون يونانيون، أقاموا فيها منذ أمد طويل ، وبنوا بها كنائس ومستوطنات للاقامة فيهـا ، وظل بعضهم بها الى أيام الإسلام .

وكانت السفن اليونانية تموّن نفسها بما تجده في (ادولس) وفي (سقطرى) من تجارات ، بعضها من نفائس تجارة الهند جاءت بها السفن الساسانية الى هـذه المواضع ، فيشتريها التجار اليونان ويأخذونها الى بلادهم .

ويذكر أهل الأخبار ان (سقطرى) كانت مركزاً هاماً من مراكز التجارة في البحر ، وكان بها قوم من اليونان يحفظون أنسابهم محافظة شديدة . وقد كانوا بها

من أيام ما قبل الميلاد ، وربما كانوا بها قبل أيام (الاسكندر) . ولما ظهرت النصرانية تنصر من كان بها من اليونانيين . ويذكرون ان قوماً منهم طرحهم (كسرى) في هذه الجزيرة . وكانت بوارج الهند تأوي اليها . وقد اشتهرت بالصبر الجيد الذي لا يوجد مثله في غيرها ، وبدم الأخوين ، وهو صمغ شجر يسمونه (القاطر) ، وهو (الأيدع) ، وقد ساكن العربُ اليونانَ[1] . ويذكر أهل الأخبار ان (أرسطو) ، هو الذي أشار على (الاسكندر) ، بإجلاء أهل (سقطرى) ، وإسكان طائفة من اليونان بها ، لحفظ (الصبر) لعظيم منفعته . وذكروا ان بينها وبين (المخا) ثلاثة أيام مع لياليها ، وان من مدنها : (بروه) و (ملتده) ، و (منيسة) ، وهي مسكن ملك الزنج[2] .

أما البحرية والتجارة البحرية الساسانية ، فإننا لا نعرف عنها في هذا العهد معرفة واسعة ، ولا نستطيع أن نتحدث عن وجود قوة بحرية ساسانية ، أو نشاط بحري في البحر الأحمر في كل العهود ، وإنما كان أقصى ما وصل اليه نفوذ الساسانيين في البحر ، هو باب المندب ، أي مدخل البحر الأحمر ، حيث وقفوا عنده . وقد صار البحر الأحمر ، منذ استيلاء اليونان والرومان على مصر ، بحراً يونانياً رومانياً بيزنطياً ، حرسوه بأساطيل قوية ، ضمنت لهم التفوق فيه ، فلم يكن في وسع الفرس ولوجه أو التوغل فيه .

وقد ذكر أن (أردشير) الأول (٢٢٥ – ٢٤١ م) بنى جملة موانى بحرية وأن (نرسي) (٢٩٢ – ٣٠٢ م) عقد صلات وديّة مع ملك الزنوج في شرق الصومال ، وأن (سابور) الثاني حوالى سنة (٣١٠ م) هاجم البحرين ، وأقام حامية بها ، وفتك بقبائل عديدة ، وذلك رداً على هجوم تلك القبائل على سواحل فارس .

وصار للفرس نشاط ملحوظ في الخليج وفي المحيط الهندي . وقد أنشأ الفرس جملة كنائس في سواحل الهند وسقطرى ، أنشأها الفرس النساطرة ، وكانوا تجاراً ، نزلوا في هذه المواضع للاتجار : كما كانت هنالك سفن فارسية في (أدولس) . وكان الساسانيون يستغلون الظروف الحرجة ، والأوضاع القلقة التي

---

١ البلدان (٩٣/٥ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٢٧٣/٣) ، (السقطري) .

تقع في انبراطورية الروم ، فيزيدون من نشاطهم في البحر ، ويمعنون في مطاردة التجـار البيزنطيين في البحر العربي وفي الخليج وفي الهند ، حتى قلّ عدد سفن الروم ، في المحيط ، واكتفت بالوصول الى باب المندب والسواحل الافريقية في بعض الأحيان ، عند اشتداد الأزمات ، ووقوع قلاقل داخليـة ، أو نزول كوارث بالروم في الحروب .

وقد وجد الساسانيون أن من الأصلح لهم نقل التجارة الآتية الى تجـارهم من الصين والهند وسيلان الى الخليج حيث لا يزاحمهم أحد ، ومنه الى العراق ، أو من الهنـد والصين الى فارس ، ثم العراق ومنه الى (نصيبين) ، أو الى بلاد الشأم ، لبيعها الى البيزنطيين . وفي جملة مواد هذه التجارة (الحرير) الذي كان مطلوباً عند البيزنطيين ، لأنه من الألبسة الفاخرة بالنسبة للطبقة الحاكمة ولرجـال الكنيسة وللطبقة المترفة المرفهة ، فكان يباع بأغلى الأثمان[١] .

وقد دخل الأحباش البحر ، فكانوا يسيرون سفنهم بـين السواحل الافريقية والسواحل العربية الغربية والجنوبية . ولو لم تكن لهم قوة بحريـة ما تمكنوا من الاستيلاء على اليمن وعلى مواضع من العربية الجنوبية جملة مرات . آخرها فتحهم اليمن سنة (٥٢٥) للميلاد . وقد تولت سفنهم نقل حاصلات الحبشة والسواحل الافريقية إلى بلاد العرب ، وكان التجار العرب ينقلون هذه السلع الى بلاد الشأم أو العراق . وقد ذكر أهل الأخبار ان (الجار) ، وهي مدينة على ساحل بحر القلزم بينها وبين المدينة يوم وليلة وبينها وبين أيلة نحو من عشر مراحل ، والى ساحل الجحفة نحو ثلاث مراحل ، كانت فرضة ، ترفأ اليها السفـن من الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند ، وبحذاء الجار جزيرة في البحـر تكون ميلاً في ميل لا يعبر اليها إلا بالسفن ، وهي مرسى الحبشة خاصة[٢] .

ولكن قوة الحبشة البحرية لم تكن قوة قوية ضخمة ، ولم تكـن مكونة من سفن كبيرة ذات مرونة وقابلية على الحركة ، بل كانت سفناً صغيرة لا تضاهي السفن اليونانية في الضخامة وفي الفن ، ولم تكن كثيرة العدد، ولا سيما في الجاهلية القريبة من الاسلام ، بدليل ما ورد في بعض الروايات من ان السفن التي حملت

١ Runciman, Byzantine Civilization, p. 164.

٢ البلدان (٣/٣٥) .

جيش ملك الحبشة إلى اليمن لاحتلالها سنة (٥٢٥) للميلاد ، وذلك في عهد (ذي نواس) كانت سفناً يونانية أمر القيصر بارسالها إلى الحبشة لحمل الجيش الى اليمن[١] . وبدليل ما ورد في روايات إخراج الحبش وطردهم من اليمن ، من ان السفن التي حملت الفرس إلى اليمن كانت ثماني سفن ، غرق منها سفينتان ، وبقيت ست سفن فقط ، وقد تغلب من كان بها مع ذلك على الحبش . فلو كان للحبش أسطول بحري قوي ، ولو كانت لهم هيمنة على البحر، لما كان في إمكان هذه السفن الفارسية الست الوصول الى مياه اليمن ، وإنزال ما فيها من جنود ، ومن التغلب على الحبش والقضاء على حكمهم هناك .

وضعف بحرية الحبشة ، هو الذي جعلها لا تستطيع الوفاء بوعدها للقيصر (جستنيان) « Justinian » في شراء الحرير من الهند ومن وراء الهند ، وبيعه للروم . فقد كان هذا القيصر قد أرسل في عام (٥٣١ م) وفداً الى (أكسوم)، ليفاوض الحبش في هذا الموضوع لحرمان الساسانيين من ربح كبير كانوا يجنونه من الاتجار بالحرير المستورد من الهند ومن وراء الهند ، فوافقوا على ذلك، لكنهم لم يتمكنوا في النهاية من الوفاء بالوعد ، لعدم تمكن سفنهم البحرية من الوصول الى الهند ومن منافسة التجار الفرس الذين كانوا قد استقروا في سيلان وفي الهند وفي مواضع أخرى منذ عهد طويل[٢] .

ولم يتمكن الأحباش أن يُفيدوا فائدة تجارية كبيرة من فتحهم لليمن . ولم يحصل البيزنطيون على ما كانوا يتوقعون الحصول عليه من الاتصال بالحبش من البرّ ، وذلك عن طريق (المقاطعة العربية) في جنوب بلاد الشأم فالحجاز الى اليمن . فلم يتمكن الحبش من احتلال الحجاز ، للاتصال بالروم . وأخفق (أبرهه) في الاستيلاء على مكة على نحو ما تحدثت عنه في موضعه . وتمكن الفرس من طردهم من اليمن بكل سهولة ، دون أن يقوم الحبش ولا حلفاؤهم البيزنطيون بإرسال قوات بحرية لمقاتلة السفن الساسانية القليلة التي جاءت بمقاتلين من المساجين المجرمين ، لا بجيش نظامي مدرب ، وقد تمكنوا مع ذلك من التغلب على الحبش ، بمساعدة كبيرة بالطبع من اليمانيين أنفسهم الذين كانوا قد أعلنوا

---

١ الطبري (١٢٧/٢) .

٢ Procopius, Persian Wars, I, 29, 9-13, Malalas, 18, 456-459.

ثورة عامة على الحبش . ولو كان للحبش أو لحلفائهم البيزنطيين أساطيل من السفن المحاربة القوية ، لما تمكن الفرس من الاستيلاء على اليمن بتلك القوة الضعيفة !

ولم يكن الساسانيون أقوياء في البحر عند ظهور الاسلام ، وآية ذلك هو ان عاملهم على اليمن ، كان يرسل ألطاف اليمن وما يجمعه منها إلى (كسرى) عن طريق البر ، وقد تحدثت عن تعرض (بني تميم) بقافلة كسرى التي كانت قادمة من اليمن في طريقها الى (المدائن) . ولو كان للفرس أسطول قوي من سفن ضخمة على نمط سفن البيزنطيين ، لاستخدموه واسطة للنقل بين اليمن والعراق ، ولسمعنا بوجوده في البحر . وقد يقال إن الفرس استخدموا البر ،لأنه أسهل عليهم من البحر ، وأقصر مسافة وأسرع من حيث الوقت ، ثم هو يمر بأرضين صديقة للفرس أو موالية لهم ، أو تابعة لأمراء موالين لهم ، خاضعين لسيادتهم ، وليس في ذلك دليل على عدم وجود أسطول قوي لهم في البحر ، ولكننا مع موافقتنا على هذا التعليل ، فإننا لا نسمع في أخبار أهل الأخبار المنقولة من روايات فارسية أصلية ، ما يفيد بوجود فعل وأثر لأسطول ساساني ما وراء عمان إلى السواحل الافريقية ، ثم إن الفرس كانوا قد تحكموا في السواحل العربية الجنوبية قبل فتحهم لليمن ،ولكننا لا نجد في هذا العهد أثراً لحكم فارسي على السواحل العربية الجنوبية، مما يدل على زوال حكمهم عنها وعدم وجود أسطول ساساني في مياه هذه السواحل، فتخلصت منهم ، واستقلت بأمرها وادارتها .

وقد استفاد أهل مكة ، من الأحداث التي وقعت في اليمن ، ولا سيما بعد موت أبرهة وموت مشروعه في الاستيلاء على مكة قبل وفاته . وإني أرى أن حملة (أبرهة) على مكة ، لم تكن حملة غايتها هدم الكعبة ، ونقض قواعدها ، كما يذكر ذلك أهل الأخبار ، وإنما كانت لدوافع اقتصادية وسياسية ، فقد كانت مكة قد برزت وظهرت الى الوجود،قبل أبرهة : واستغل أهلها مواهبهم وذكاءهم في كيفية جمع المال ، حتى صاروا تجاراً ووسطاء في التجارة ، يتاجرون بين بلاد الشأم واليمن ، وبين الحبش والعراق ، وصاروا أصحاب مال ، لهم نقود : دنانير ، ودراهم ، وذهب ، وفضة ، وغير ذلك مما يسيل له لعاب التاجر وصاحب المال ، أضف الى ذلك وقوع مكة في موقع مهم ، والاستيلاء عليه يمهد للسير نحو بلاد الشأم ، للاتصال بالروم ، أصحاب مشروع الحملة الأصليون ،

كما تحدثت عن ذلك . فالعوامل إذن اقتصادية سياسية ، وليست العوامل التي ذكرها أهل الأخبار .

وقد ساهم أهل الهند في تسخير البحر كذلك ، فكانت سفنهم تمخره ما بين الهند وساحل الخليج الى (الابلة) . كما كانت تتجه نحو (سقطرى) وسواحل افريقية الشرقية . فقد ذكر أهل الأخبار أن (بوارج الهند) كانت تتاجر مع هذه الجزيرة[1] . وقد مونت الهند جزيرة العرب بالحديد الجيد ، الذي صنعت منه السيوف الهندوانية ، نسبة الى الهند . و (التهنيد) ، عمل الهند . كما مونتهم بالعود الطيب ، وبالخشب الصلد[2] .

وبظهور الاسلام ، وباستيلاء المسلمين على مصر وعلى شمالي افريقية ، وبفتح بلاد الشأم والعراق وايران وما وراء ايران تغير الحال بالطبع ، فماتت الانبراطورية الساسانية ، ومات أسطولها معها ، وانقطعت صلة البحرية البيزنطية بالبحر الأحمر وبالمحيط الهندي ، وأبعد الأوروبيون من البحار الدافئة الى أن تبدلت الدنيا مرة أخرى ، فظهر المكتشفون الأوروبيون وفي مقدمتهم البرتغال ، فعاد التفوق البحري للغرب ، وانتزع البحر من البحرية الاسلامية ، لأنها ظلت جامدة محافظة لم تحدث تغييراً في هندسة السفن ، ولا في أسلوب القوى المحركة لها وفي قابليتها على الحركة ، فصارت عاجزة عن مقاومة العقل الحديث ، وغلبت على أمرها نتيجة جمود العقلية وعدم التطور مع عقلية الزمن .

هذا ولا بد لي هنا من لفت نظر القارىء الى ورود شيء في كتب أهل الأخبار عن حملات الروم على بلاد العرب وعلى البحر الأحمر ، ولو ان هذا المذكور المدون في كتبهم ، هو من نوع القصص المعروف المألوف الذي ألفنا قراءته في كتب أهل الأخبار ، فيه مبالغة وغرابة وخيال ، وفيه سذاجة تنم عن عقلية سطحية تروي كل ما يقال لها من غير نقد ومناقشة . وقد أخذ من أهل الكتاب وفي الاسلام في الغالب . ولكنه قصص يستند — على كل حال — الى أصل وسبب وإن كان بعيداً . ثم انه قصص طريف يريك مبلغ علم القوم بأحوال الماضين ، وكيف يروون قصص الحوادث المتقدمة وينقلونه على انه تأريخ للماضين . وبكاد يكون أكثر تأريخ من تقدم زمن الاسلام من هذا النوع .

---

١ البلدان (٥/٩٣) .

٢ تاج العروس (٢/٥٤٧) ، (هند) .

الفصل الواحد بعد المئة

تجارة مكة

وكان أهل مكة من أبرع التجار ومن أنشطهم في العربية الغربية عند ظهور الإسلام . وقد أشير الى تجارتهم في القرآن الكريم[1] . وسبق أن تحدثت عن تجارتهم في أثناء كلامي على مجمل الحالة السياسية لجزيرة العرب عند ظهور الإسلام .

وقد استفاد أهل مكة ؛ ولا شك ، من الوضع السيء الذي طرأ على اليمن بدخول الحبش اليها ، ومن تردي الأوضاع السياسية فيها والاضطرابات المستمرة التي وقعت بتصادم الوطنيين والغزاة الأحباش. فانحسر كل نفوذ سياسي أو عسكري كان لحكومات اليمن في الحجاز أو على بعض القبائل ، ووجدت قريش نفسها حرّة مستقلة وفي وضع يمكّنها من استغلال مواهبها في التجارة ، فقامت بمهمة الوسيط ، تنقل تجارة أهل اليمن والعربية الجنوبية الى أسواق فلسطين ، وتنقل تجارة بلاد الشأم وحوض البحر المتوسط الى الحجاز ونجد واليمن، وبذلك حصلت على أرباح طائلة عظيمة ، جعلتها من أغنى العرب عند ظهور الإسلام، وصيّرت مكة مركزاً خطيراً من مراكز الثروة والمال في جزيرة العرب في ذلك الحين .

وقد وصف أهل الأخبار أهل مكة بترفعهم عن البخل والشح،فقال (الجاحظ) وهو يصفهم : « ومن العجب ان كسبهم لما قلّ من قبل تركهم الغزو ، ومالوا الى الإيلاف والجهاد ، لم يعترهم من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل خلقة

---

١ سورة قريش .

في الطبـاع ، فأعطوا الشعراء كما يعطى الملوك ، وقروا الأضياف ، ووصلوا الأرحام ، وقاموا بنوائب زوار البيت . فكان أحدهم يحيس الحيسة في الأنطاع فيأكل منها القائم والقاعد والداخل والراكب ، واطعموا بدل الحيس الفالوذج »[1].

فمورد الكسب الأول عند العرب في الجاهلية هو الغزو على رأي أهل الأخبار ، وقد ترفعت قريش عنه ، وصرفت نفسها الى التجارة . ومن طبع التجار البخل ومسك اليد ، أما قريش ، فخالفتهم في البخل ، ووصلت الشعراء وقرت الأضياف.

ونسب (الجاحظ) سبب تركهم الغزو الى كونهم أهل حمس ديانين ، فقال : « وكانوا ديانين ، ولذلك تركوا الغزو ، لما فيه من الغصب والغشم واستحلال الأموال والفروج من العرب »[2] . ويعتقد (الجاحظ) ، بأن للدين أثراً كبيراً على سلوك الانسان وعلى كره الحرب ، إذ تراه يقول : « ثم جاء ما هو أعجب من هذا وأهم ، وذلك أنا قد علمنا ان الروم قبل التدين بالنصرانية كانت تنتصف من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سجالاً فلما صارت لا تدين بالقتل والقتال والقود والقصاص ، اعتراهم مثل ما يعتري الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفاً ، ولما خامرت طباعهم تلك الديانة وسرت في لحومهم ودمائهم ، فصارت تلك الديانة تعترض عليهم ، خرجوا من حدود الغالبين الى أن صاروا مغلوبين »[3] . فالنصرانية قد أثرت على الروم حتى جعلتهم يكرهون الحروب ، وصاروا مغلوبين بعدما كانوا غالبين . ثم جاء بدليل آخر على إثبات رأيه في ان الدين ينقص من شهوة الحرب ، هو ان (التغزغز) من الترك ، نقصت عندهم الشجاعة وذهبت عنهم الشهامة بعد ان دانوا بالزندقة[4] . فالدين اذن مخفف من شهوة الحرب مبرد من التعطش الى القتال ، لكنه على رأيه أيضاً ، يحول المتدينين الى أسود في المعارك ، فقريش التي تركت الغزو بتة ، كانوا مع طول ترك الغزو ، إذا غزوا ، غزوا كالأسود مع الرأي الأصيل والبصيرة النافذة، والخوارج

---

١ كتاب البلدان (ص ٤٦٨) ، (نشر الدكتور صالح أحمد العلي) ، (مستلة من مجلة كلية الآداب سنة ١٩٧٠) .

٢ كتاب البلدان (٤٦٨) ، (وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشديد في الدين ، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الاموال واستحسان الغصوب) ، كتاب البلدان (٤٧٢) .

٣ كتاب البلدان (٤٧١) .

٤ كتاب البلدان (٤٧١) .

على اختلافهم من أحرار وعبيد وموالي يقاتلون قتال الباسل المستميت مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم ، و « في هذا دليل على ان الذي سوّى بينهم التدين بالقتال» ، وان استبسال قريش والخوارج وغيرهم من المتدينين « انما هو بسبب الديانة »[1] ووحدة العقيدة وعامل الدفاع عنها والجهاد في سبيلها .

وقد نسب (الجاحظ) ميل قريش الى التجارة واشتغالهم بها الى تحمسهم في دينهم وتشددهم في الدين ، فقال: « وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشديد في الدين فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال واستحسان الغصوب ، فلما تركوا الغزو لم تبق مكسبة سوى التجارة فضربوا في البلاد الى قيصر بالروم والى النجاشي بالحبشة والى المقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء »[2] .

فتحمس قريش في دينهم ، حملهم على ترك الغزو ، وترك الغزو حملهم على التكسب بالتجارة ، فاتجار قريش في مكة وضربهم في الآفاق ، هو بسبب البحث عن رزق يعوضهم عن رزق الغزو ، الذي أبعده الدين عن قلوبهم ، فكان ما كان من أمر تجارتهم . هذا هو رأي الجاحظ في السبب الذي حمل قريشاً على الانصراف الى التجارة .

وفي القرآن : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »[3] . فمكة بلد بوادٍ قفر غير ذي زرع ولا ماء ، ليس لأهلها ما لسكان الأرياف والقرى التي تملك المياه والأنهار من ثمرات النبات والأشجار ، فصارت الطائف مصيفاً لهم ، ومورداً يمدهم بثمر النبات والأشجار[4] ، واستغل أهلها فقر واديهم ، وموقع مدينتهم الذي تمر به القوافل ، وشجعوا من كان يسكن حولهم على الحج الى معبدهم وعلى قصده أيام السنة وموسم الحج، فاستفادوا من الحجاج . وجعلوا الموسم سوقاً يتعاطون فيه البيع والشراء ، فربحوا وصار لهم مال استثمروه وشغلوه ، في سوق مكة وفي الأسواق الأخرى ، وتعاملوا مع الأعراب ، وعقدوا الإيلاف مع ساداتهم ومع الفرس والروم والحبش ، فصاروا

---

١ كتاب البلدان (٤٧٢) .

٢ كتاب البلدان (٤٧٢) .

٣ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبري (١٣/١٥٢) . —

٤ تفسير الطبري (١٣/١٥٥) .

يخرجون الى خارج مكة بأمان بفضل العقود والعهود التي عقدوها مع سادات الأعراب ، وهي أهم في نظري من أي عقد آخر عقدوه مع حكام العراق وبلاد الشأم أو اليمن ، إذ كان في استطاعة الأعراب نهب قوافل مكة وسلب أموالها ، وهي ذاهبة أو آيبة محملة ، فلا يستطيع أهل مكة فعل شيء ، ولا تبقى أية فائدة عندئذ لعقود الإيلاف المعقودة مع الحكّام المذكورين . وقد علم سادة مكة ذلك ، فتعاقدوا مع سادات الأعراب ، وأدو لهم نصيباً من الربح ، وبذلك أمنوا جانب أعرابهم ، فكانوا إذا تحرش بهم متحرش ، أدّبه سادة قبيلته ، واستعادوا منه ما أخذه من نهب وسلب .

وقوم هم أهل قرار ، لهم بيت مقدس ، ولهم تجارة ، لا يفكرون في غزو ، ولا يرتاحون من وجود أهل شغب وفتن بينهم . فالغزو سواء أكان منهم أو كان عليهم مضرّ بهم ؛ ولا يعود عليهم بفائدة ، بل هو يبعد القاصدين لهم عنهم ، وفي ابتعادهم عنهم خسارة ، ثم هو يعرقل تجارتهم ويحول دون اتجارهم ، والتجارة مورد رزقهم وعليها معاشهم . وقريش من المستقرين ، ومن التجار ، ولهم معبد ، فكان من صالحهم اشاعة الأمن والابتعاد عن التشاحن وفض كل خلاف يقع فيما بينهم ، أو فيما بينهم وبين غيرهم بالتي هي أحسن ، وجرّ الناس اليهم ، والعمل على اكتساب صداقة أهل الحضر وأهل الوبر أيضاً ، وعلى إنصاف الغريب الذي قد لا يجد له مجيراً من بين أهل مكة فيظلم ، وعلى تقديم الرفادة للحجاج الضعفاء ، وإسقائهم الزبيب المنبوذ بالماء في أيام الحج ، وعلى شراء الألسنة ، ألسنة الشعراء خاصة ؛ لما كان لها من أثر في النفوس .

وللمنافع المادية التي كانوا يحصلون عليها من تآلفهم مع القبائل ، حرصوا على ألا يؤذي أحد منهم أحداً من الغرباء ، فيثير قوم الغريب عليهم ، لا سيما إذا كان ذلك الغريب من قبيلة تمر تجارة قريش بها . فلما عذب أهل (مكة) (أبا ذر الغفاري) ، أقبل (العباس) عليهم ، وقال : « ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنه من طريق تجارتكم الى الشام ؟. فأنقذه منهم »[1] . فزهد قريش وعدم ميلهم الى الاعتداء على الغرباء ، لم يكن كما رأى (الجاحظ) عن (تحمس) وعن دين ، وإنما كان عن طمع في المال وفي الكسب وفي الحصول على كسب

---

١ الاصابة (٤/٦٤) ، (رقم ٣٨٢) .

من تجارة تمر بطرق يجب أن تكون آمنة بالنسبة لها أمينة ، ولا يكون ذلك الأمان ممكناً، إلا بتأليف قلوب سادات القبائل ، والحرص على منع أهل مكة من الاعتداء على الغرباء .

بل نجد أهل مكة يجيرون كل غريب حتى إن كان صعلوكاً أو خليعاً أو مستهتراً بالعرف والأخلاق ، أو قاتلاً غادراً ، أملاً في الاستفادة منهم ، وفي عدم التحرش برجالهم إن خرجوا متاجرين يحملون أموالهم لبيعها في الأسواق البعيدة ، ولاستخدامهم في حمايتهم ممن قد يتحرش بهم من الأعداء والأعراب، ونجد في كتب أهل الأخبار أسماء عدد من أمثال هؤلاء ، كانوا قد لجأوا الى مكة وأقاموا بها واستقروا وعاشوا بها مجاورين لسادتها ، آمنين على حياتهم لأنهم في جوار سيد من قريش .

وفي القرآن الكريم آيات تدل على وجود مستوى راق في مكة ، وفي أماكن أخرى للتجارة والاقتصاد ، وتدل على تنسيق وعمل منظم بين التجار . وقد وردت فيه إشارات الى (رؤوس الأموال) ، وهي الأموال الخالصة التي تشغل في التجارة والتي تعطي أيضاً المحتاجين اليها لتربو ولتعطي صاحبها الربا ، كما وردت فيه إشارات الى البيع والشراء والقروض والرهون والشركات والتكاتب والتعامل التجاري وأمثال ذلك . وكل ذلك قد نظم وهذب وفقاً لقواعد الاسلام وصار أساساً لنظم التجارة والمال في الاسلام . ولهذا تستدعي دراسة النظم الاقتصادية والتجارة في الاسلام الرجوعَ الى السناد ، وسنادها هو نظمها وقواعدها قبل الاسلام .

ويظهر من كتب التفسير والسير ان أهل مكة كانوا يسهمون في رؤوس أموال قوافلهم التي يبعثون بها الى بلاد الشأم واليمن ، وفي الأعمال التجارية الأخرى . يسهم أفراد أسرة تجارية واحدة أو جملة أسر ، بل معظم أفراد مكة الأحرار في تلك القوافل ، كل بحسب نصيبه لينعموا بالأرباح . وقد ساعدت هذه الشركة على إعانة أصحاب السهام وعلى مساعدة أهل مكة في رفع مستواهم المعاشي . وإذا كنا لا نملك موارد تتحدث عن أنظمة تلك الشركة أو الشركات وقوانينها، وعن كيفية توزيع الأرباح بين المساهمين ، وعن أنواع تلك الشركات وأصول حساباتها ووكلائها في الخارج ، فمن الميسور ان نظفر بقدر كبير من جذورها وأصولها في

فصول الشركات والقضايا المتعلقة بتنظيم التجارة في الاسلام في كتب التفسير والحديث والفقه خاصة ، ففي هذه الفصول إشارات كثيرة إلى شؤون التجارة والاقتصاد عند الجاهليين .

ويظهر مما ذكره أهل الأخبار وأوردوه عن قوافل مكة ، أن مال القافلة ، لم يكن مال رجل واحد ، أو أسرة معينة ، بل كان يخص تجاراً من أسر مختلفة ، وأفراداً وجد عندهم المال ، أو اقترضوه من غيرهم فرموه في رأس مال القافلة أملاً في ربح كبير. فقد ذكروا أن قافلة قريش التي كانت في خفارة (أبي سفيان) والتي أثارت معركة (بدر) ، كان رأس مالها مختلطاً ، ساهم فيه كل متمكن من أهل مكة . حتى « لم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في العير »[1] .

ويظهر من سورة (قريش) أن قريشاً كانت ترحل رحلتين في السنة : رحلة في الشتاء الى اليمن ، ورحلة في الصيف الى بلاد الشأم . وهما رحلتان تجاريتان، تشتري فيها وتبيع ، وتربح منها ربحاً صيرها في وضع مالي حسن . وقد صارت مكة لذلك العهد مركزاً مالياً خطيراً في الحجاز ، وسوقاً لتبادل السلع . ولم تكن قريش تستورد التجارة لتخزنها في مكة ، أو لتصرفها في أسواق مكة وحدها . فمكة وحدها بلدة صغيرة لا تستوعب أسواقها هذه التجاراة ، بل كانت تستوردها من الشمال والجنوب ، لتصرف ما يمكن بيعه في أسواق مكة وهو القليل، ولتصدر وهو الغالب ما استوردته من الجنوب الى الشمال أعني بلاد الشأم ، ولتصدر ما استوردته من بلاد الشأم ، الى اليمن ومنها الى بقية العربية الجنوبية والسواحل الافريقية المقابلة ، فتربح من هذه الصفقات ربحاً حسناً .

وتروي كتب أهل الأخبار أن قريشاً كانوا لا يخرجون عيراً فيرحلون إلا من (دار الندوة)[2] . فكأنها كانت منطلق التجار والتجارة . ولعلهم كانوا يفعلون ذلك لكونها ندوة مكة ودار الرأي والحكم في هذه المدينة ومجلس أهل المال فيها . وكذلك كان يفعل أهل المدن المتاجرة، تتحرك قوافلهم من ساحة مجالسها ليشاهدوا الناس ، وإذا عادت أناخت في هذه الساحات أيضاً ، ليراها أهل البلد ، فتكون

---

١ امتاع الاسماع (١/٦٦) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٧٠) ، (ذكر قصي بن كلاب) .

لهم فرحة تشبه أفراح العيد .

والرحلتان المذكورتان ، هما من قوافل قريش الكبيرة التي كانت القافلة الواحدة منها تتألف من أكثر من ألف بعير ، والتي يساهم فيها كل من شاء ممن له مال من أهل مكة ، ويريد الاتجار به ، تشترك فيها الأسر المعروفة بالغنى والتجارة من قريش ويساهم معها من له مال في ذلك الوقت ، رجـاء الربح والكسب . وقد كانت قافلة (أبو سفيان) التي أهاجت وقعة بدر من قبائل قريش كلها ، وأخصها (بطون كعب بن لؤي) . ليس فيها من (بني عامر) ، إلا مـا كان من (بني مالك بن حِسْل) ، ولذلك عرفت نفرة قريش الى (بـدر) بـ (نفرة بني كعب بن لؤي)[1] .

وكانت قافلة (أبو سفيان) المذكورة ، قد تاجرت ببلاد الشأم وهمّت بالعودة إلى مكة ، فلما سمع رسول الله بأبي سفيان مقبلاً من الشأم ، بألف بعير ، محملة بأموال عظيمة ، ندب المسلمين اليه ، وقال : هـذه عير قريش فيها أموالهـم فأخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها ، فانتدب الناس ، وكان أبو سفيـان يتحسس الأخبار ، فبلغه خبر استنفار الرسول أصحابه ، فأرسل (ضمضم بن عمـرو) الغفاري إلى مكة ، وأمره ان يأتي قريشاً فيستنفرهم الى أموالهم ويخبرهم ان محمداً قد عرض لها في أصحابه . فخرج اليها ، فلما بلغها ، وقف عـلى بعيره ببطن الوادي ، وقد جدع بعيره وحول رحله ، وشق قميصه ، ثم صرخ : يا معشر قريش ، اللطيمة ، اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لهـا محمد في أصحابه ، لا أرى ان تدركوها ، الغوث ، الغوث . فتجهز النـاس سراعاً ، وساروا حتى بلغوا (بدراً) ، وكان (أبو سفيان) ، قد غير طريقه حين سمع خبر خروج رسول الله بأصحابه ، فساحل بقافلته وترك بدراً يساراً ، وانطلق حتى أسرع فبلغ مكة ، وكانت قريش قد نزلت (الجحفة) ، فكتب اليها : انكم انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجّاها الله فارجعوا . وأصر بعض رؤساء قريش على ورود (بدر) ، وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام . وفيه ماء ، وعلى الإقامة ثلاثاً ، ينحرون الجزور ، ويطعمون الطعام ، ويسقون الخمر ، وتعزف عليهم القيان حتى تسمع بهم العرب

---

١ الطبري (٢/٤٢٢) .

وبمسيرهم وبجمعهم ، فلا يزالون يهابونهم أبداً بعدها . ومضوا الى بدر ، فوقعت معركة بدر[1] .

وما كان إصرار رؤساء قريش على المسير الى المسلمين لملاقاتهم في الطريق ، اسلوباً من أسلوب التجار في الحفاظ على السمعة وفي الظهور بمظهر القوي المتمكن حتى لا يطمع بهم الطامعون ويتجاسرون عليهم . فكان خروجهم هذا نوعاً من التحدي ومظهراً من مظاهر اظهار القوة ، لتخويف الغير ، لعلمهم بقوتهم ، فكأنهم أرادوا انزال ضربة بمن خرج مع الرسول لملاقاة القافلة ، معتمدين على عددهم وقوتهم ، حتى يتهيب المسلمون في المستقبل من التحرش بقوافلهم ،وليكون ذلك درساً لهم . ولعلهم كانوا لا يريدون في الواقع الاشتباك مع المسلمين في قتال،وانما كانوا أرادوا مجرد تخويفهم واظهار أنفسهم مظهر القوي العزيز المهاب، كما يظهر ذلك من قول أهل الأخبار من أنهم كانوا أرادوا الاقامة ببدر ثلاثة ايام ، ينحرون الجزور ، ويطعمون الطعام ، ويسقون الخمر ، وتعزف عليهم القيان حتى تسمع بهم العرب وبمسيرهم وبجمعهم ، فلا يزالون يهابونهم أبداً بعدها. ولكن أبت الأقدار إلا ان يقع الاصطدام فوقع على نحو ما هو مذكور .

وكانت (بصرى) سوق قريش في رحلتهم الى بلاد الشأم ، عندما تقف قوافلهم وتحط رواحلهم ، فيشترون ويبيعون ويمكثون حتى ينتهوا من تجارتهم ثم يعودون الى مكة . وكان منهم من يصل الى (غزة) ويتاجر في أسواقها، حيث تبيع أسواقها منتوجات حوض البحر المتوسط وما يرد اليها من (أوروبة) من تجارة . ويبيع التجار العرب فيها ما يحملونه من بلاد العرب من سلع مستطرفة مطلوبة في أسواق البحر المتوسط . وبها مات (هاشم بن عبد مناف) جد النبي، حين كان توجه للشأم بالتجارة ، فأدركته منيته فمات بغزة وبها قبره ، فقيل غزة هاشم[2] .

---

١ ابن هشام (٢/٦١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (٢/٦١ وما بعدها) ، الطبري (٢/٤٢١ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٩٨) ، القاموس (٤/١٧٦) ، تفسير ابن كثير (٤/٥٥٣ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣٠/١٩٧ وما بعدها) .

٢ وقد رثاه « مطرود بن كعب » الخزاعي بقوله :

وهاشم في ضريح عند بلقعة   تسفى الرياح عليه وسط غزات

وقيل « بين غزات » ، وورد :

ميت بردمان ، وميت بسلمان ، وميت عند غزات

تاج العروس (٤/٦٥) .

والأدم ، هي في رأس قائمة السلع التي كان يحملها أهل مكة الى بلاد الشأم، كانوا يجمعونه من اليمن ومن الطائف ويحملونه الى بلاد الشأم والعراق . ومنه ما كان معمولاً مصقولاً معتنى به ، زخرف بالذهب ، لذلك عرف بـ (المذاهب). و (المذاهب) الجلود المذهبة [1] . وهي من أرقى الجلود وأغلاها،يشتريها الأغنياء لاستعمالها في الأشياء الغالية الثمينة .

وتعدّ اليمن من أهم الأماكن المصدرة لجلود البقر في جزيرة العرب ، وقد كانت تحمل الى مكة والى مواضع أخرى لبيعها في أسواقها منها البصرة في الإسلام، حيث كان التجار يحملون جلود البقر من اليمن اليها [2] . واشتهرت أيضاً بعطورها لجودتها . روي أن (عبدالله بن أبي ربيعة) كان يبعث بعطر اليمن من اليمن الى أمه (أسماء بنت مخرّبة) ، أم (أبي جهل) ، فكانت تبيعه الى الأعطية، وكانت تضع العطور في قوارير ، وتزنها ، فتبيع نقداً ، أو ديناً . فإذا باعت ديناً كتبت مقدار الدين في كتاب[3] . ولعل شهرة مكة بعطورها ، إنما جاءتها من العطور المستوردة التي تأتي اليها من اليمن ومن أماكن أخرى .

وكان الزيت على رأس السلع التي كان يشتريها أهل مكة وتجار يثرب من بلاد الشأم ، لصفائه ولنقاوته وجودته ، وكان (دحية بن خليفة الكلبي) يتجر مع بلاد الشأم بالزيت والطعام ، وصادف رجوعه من الشأم وقت صلاة الجمعة ، والرسول يخطب ، فلما سمع المصلون خلف الرسول صوت أجراس القافلة جعلوا يتسللون اليها ، خشية ان يسبقوا اليها ، فتباع ، حتى بقيت منهم عصابة اثني عشر رجلاً وامرأة . فوبخهم الله بالآية : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة،والله خير الرازقين » [4].

---

١ تاج العروس (٢٥٨/١) ، (ذهب) .

٢ قال الشاعر :

والله للنوم بجرعاء الحفر   أهون من عكم الجلود بالسحر

بلا العرب (ص ٣٠٨) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٢٠/٨) ، الواقدي ، مغازي (٦٥) .

٤ الجمعة ، الآية ٩ ، تفسير الطبري (٦٦/٢٨ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦٦ وما بعدها) ، الواحدي أسباب النزول (٣٢٠) ، مسند الامام أبي حنيفة (٧٣ وما بعدها) .

وقد عرف الزيت المستورد من الشأم بالزيت الركابي ، لأنه كان يحمل على الإبل من الشأم[1] .

ولم يشر أهل الأخبار إلى رحلة على شاكلة رحلتي الشتاء والصيف الى العراق . وإنما أشاروا الى تجار منهم كانوا يتاجرون مع الحيرة . ومعنى هذا ذهاب قوافل صغيرة الى العراق ، لم تكن بحجم قوافل قريش الى بلاد الشأم أو اليمن . ولم يشر القرآن الكريم أيضاً الى رحلة جماعية الى العراق أو الى موضع آخر . مما يدل على أن قريشاً كانت ترحل رحلتين جماعيتين كبيرتين في السنة الى بلاد الشأم في الصيف ، والى اليمن في الشتاء فقط . أما رحلاتهم الأخرى ، فلم تكن كبيرة ضخمة وجماعية ، بل كانت قوافل دون القافلتين في الحجم ، وكانت خاصة أصحابها أغنياء ، لهم رؤوس أموالهم ، يبعثون بقوافلهم على حسابهم ، في كل وقت شاؤوا ، وتكون أرباحها لهم : لا يشاركهم فيها مشارك ، وقد يرأسون بأنفسهم قوافلهم ، فيذهبون بها الى العراق ، ولهم فيه تجار وأصحاب ، فإذا باعوا عادوا ببضاعة جديدة وبما كسبوه الى مكة .

فقد رووا ان (أبا سفيان) كان يذهب بنفسه إلى العراق للاتجار ، يحمل معه حاصلات اليمن والحجاز ، ويعود بحاصلات العراق وبما يحتاج اليه أهل الحجاز واليمن من بضاعة . بل ذكروا انه كان يفد على (كسرى) ، يحمل اليه الهدايا تقرباً اليه . ذهب اليه مرة ، ومعه خيل وأدم ، فقبل (كسرى بن هرمز) الخيل وردّ الأدم وأعطاه هدايا وألطافاً[2] . وكان من مصلحة كسرى التقرب الى أهل مكة ، فقد كانوا تجاراً ، وكانوا على طريق مهم وفي مركز خطير من الناحية السياسية والتجارية ، كما كان نفسه يتاجر مع العرب ويتبايع معهم ، لذلك كان من مصلحته مجاملة أهل مكة والاتصال بهم .

وذكر انه قد كانت له صلات برؤساء وتجار الحيرة ، وبملوكها أيضاً ، يحمل اليهم الهدايا ، ويأخذ منهم ألطافهم ، ثم يعود بما يجده في أسواق الحيرة من تجارات . قدم مرة على عمرو بن هند ، أو النعمان بن المنذر ، فوجد عنده (مسافر بن عمرو بن أمية القرشي) ، وكان قد ترك مكة ونزل الحيرة ، وهو

---

١ تاج العروس (١/٢٧٧) ، (ركب) ، كتاب البلدان (٤٨٨) .
٢ الاغاني (١٢/٤٦) ، العقد الفريد (٢/٣١) ، « اللجنة » .

في قبة من أدم حمراء ، أمر الملك بضربها له ، إكراماً له ، وكان الملك اذا فعل ذلك برجل ، عرف قدره ومكانته ، فالتقى بـ (مسافر)[1] .

وكان أبو سفيان – كما يقول أهل الأخبار – تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش الى الشأم وغيرها من أرض العجم ، وكان يخرج أحياناً بنفسه ، وكانت اليه رايـة الرؤساء المعروفة بالعقاب ، وكان لا يحبسها إلا رئيس ، فإذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعت تلك الراية بيد الرئيس . وكان صديقاً للعباس ونديمه في الجاهلية[2] .

وكان (مسافر بن أبي عمرو بن أميّة) ، وهو من رجـال قريش جمالاً وجوداً وشعراً ، ومن فتيانها ، ممن يتاجرون مع العراق ، ويربح من تجارته هذه ربحاً طيباً ، وكان هلاكه بالعراق . فقد كان قد خرج في تجارة الى الحيرة ، فهلك بها عند (النعمان بن المنذر) ، ورثاه (أبو طالب)[3] .

وكان (عبدالله بن جدعان) من أثرياء مكة ومن تجارهـا . ذكر أنه تاجر مع الحيرة . ويظهر مما ذكره أهل الأخبار عنه ، أنه كان ثرياً جداً ، وربما عدّ أثرى قريش في أيامه ، واليه تنسب قصة ادخال (الفالوذج) الى أهل مكة ، حيث يذكرون أنه تعلمها من أهل العراق ، وجاء ومعه طبّاخ خاص ليطبخ له طبيخ الحيرة وأهل فارس .

وكان (العاص بن وائل بن هاشم) السهمي من تجار مكة ، الذين رحلوا بتجارتهم إلى خارج مكة . وكان من أشراف قريش . وقد مات بالأبواء[4] . ولعله كان خارجاً في تجارة له فمات هناك . ومن ولده (عمرو بن العاص) . وقد أسلم هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة معاً[5] . وكان تاجراً كذلك . ويذكر (ابن كثير) ان (عمرو بن العاص) وفد على (مسيلمة) ، وذلك بعد ما بعث رسول الله وقبل أن يسلم عمرو ، فقال له مسيلمة ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ فقال : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة ، فقال :

---

١ الاغاني (٤٦/٨ وما بعدها) .
٢ الاستيعاب (٨٦/٤) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ كتاب نسب قريش (١٣٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٠٣) .
٤ كتاب نسب قريش (٤٠٨) .
٥ كتاب نسب قريش (٤٠٩) .

وما هي ؟ فقال : « والعصر إن الانسان لفي خسر . إلا الذيــن آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال : وقد أنزل علي مثلها ، فقال له عمرو : وما هو ؟ فقال : يا وبر يا وبر ، وانما أنت أذنان وصدر وسائرك حفر نقر ، ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو ، والله انك لتعلم أني أعلم انك تكذب[1] . والروايــة موضوعة ، فسورة (العصر) من السور المكية ورقمها (٢٧) حسب ترتيب نزول السور بمكة على رأي العلماء ، أي قبل الهجرة ، وقبل إسلام (عمرو) بزمن ، وقبل مجيء (مسيلمة) إلى المدينة مع وفد حنيفة ، وبعد مجيئه اليها بدأت دعوته بمعارضة الرسول . ثم ان جملة : « ماذا أنزل على صاحبــكم في هذه المدة ؟ » ، جملة تشعر ان (عمرو بن العاص) كان مسلماً إذ ذاك ، بينما كان هو من المشركين في ذلك العهــد . ثم إن ما نسب الى (مسيلمة) من آيات ، وضع على وزن آيات القرآن ومحاكاة لها ، وليس في : (يا وبر يا وبر الــخ) أي شيء يضاهي : (والعصر) في النسق أو في المعنى ، وعندي أن الخبر من الأخبار الموضوعة . وقد يكون (عمرو بن العاص) قد زار اليمامة ، فهذا شيء غير مستبعد . فقد كان تاجراً وكان تجار مكة يسافرون الى اليمامة والى غيرها للاتجار ، أما أنه ذهب خاصة لزيارة (مسيلمة) ومكالمته عــلى نحو ما يرد في الخبر ، فأسلوب يدل على وجود الصنعة فيه أكثر مما يدل على الصحة وصدق الرواية .

وقد عرف أهل الحيرة بنشاطهم في الأسواق وباتجارهم مع أسواق جزيرة العرب وغيرها ، حتى قيل : « إنك لا ترى بلداً في الأرض ليس فيه حيري »[2] . وقد كانت الحيرة نفسها سوقاً مقصودة ، تشتري وتبيع ، يأتيها التجــار من مختلف الأمكنة ، وموضع تجاري على هذه الشاكلة لا بد أن يذهب أهلــه الى الأسواق الأخرى للبيع والشراء.وقد عرف أهل الحيرة بحذقهم في الصيرفة وفي بيع الفلوس . قيل لأحد أهل الحيرة ممن يتعاطى الطب : « ما لأهل الحــيرة والطب . عليك ببيع الفلوس في الطريق »[3] .

---

١ تفسير ابن كثير (٥٤٧/٤) ، البداية والنهاية (٣٢٦/٦) .

٢ مختصر كتاب البلدان (ص ٥١) .

٣ ابن العبري : تأريخ مختصر الدول (ص ٢٥٠) .

وكان تجار الحيرة يزورون مكة للاتجار بها ، ولهم مع تجارها عقود وجوار وتجارة ، فإذا ذهب أحدهم الى مكة نزل على حليفه وجاره ، ثم باع ما عنده من تجارة ، واشترى ما يجده بمكة من سلع مطلوبة مرغوبة ثم يعود الى الحيرة . وكان منهم من كوّن مع حلفائه من أهل مكة تجارة مشتركة تتعامل بالحيرة وبمكة وبمواضع أخرى ، وتسوي أشغالها بالمراسلة ، يدير الحيريون منهم أعمال الشركة بالحيرة ، ويدير المكيون منهم أعمالها بمكة ، ثم يتراجعون في الحساب ، ويقتسمون الأرباح والخسائر على وفق ما اتفقوا عليه .

وقد كانت تجارة قريش تجارة واسعة ، وقد أقام تجارهم وكالات ومتاجر في مواضع متعددة ، لتتولى أمر البيع والشراء . ولعلهم كانوا يمثلون مصالح مكة السياسية في الحبشة كذلك ، كأن يتولى هؤلاء التفاوض مع الحكومة هناك في عقد عهود سياسية واقتصادية وما شابه ذلك . وقد كان اتصال أهل مكة بالحبشة وثيقاً ودائماً ، ويظهر انهم كسبوا منافع مهمة من أعمالهم واشتغالهم في تلك البلاد[1] .

وقد عهدت قريش الى أناس آخرين من رجالها بقيادة قوافلها ، الى بلاد الشأم أو الى اليمن . كما قام رجال منها بتجهيز قوافل لهم لتتاجر بأموالهم . ولما هاجر الرسول الى (يثرب) استاؤوا من خبر هجرته استياءً كبيراً ، لعلمهم بأهمية موقع (يثرب) ، وبما سيقوم به المسلمون من التعرض بقوافلهم ومن تحرشهم بتجارهم وفي هذا العمل نكبة عظيمة تصيب تجارتهم وأرباحهم ومنافعهم المادية . فتشاوروا في أمرهم وتناقشوا ، وقالوا : « قد عوّر علينا محمد متجرنا وهو طريقنا » وقال (أبو سفيان) و (صفوان بن أميّة) : « إن أقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا »[2] ، وقال أيضاً : « كنّا قوماً تجاراً ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا »[3] ، وقال غيره مثل ذلك من كلام ، يشعر بمقدار الأضرار والخسائر التي منيت بها تجارة قريش بسبب هجرة الرسول الى يثرب واعتراضه طرق القوافل . لا سيما بعد أن تبين لها أن جميع السبل التي فكرت في سلوكها لتسيير قوافلها عليها ، هي غير أمينة ولا سالمة ، وأن المسلمين

---

١ الاغاني (٨/٥٠) .

٢ الطبري (٢/٤٩٢ وما بعدها) .

٣ الطبري (٢/٦٤٦) .

قد أخذوا يباغتون قوافلهم حتى في الطرق الجنوبية المؤدية الى اليمن والطرق البعيدة الى تؤدي الى العراق .

وقد وقف المسلمون لقريش بالمرصاد ، وأخذوا باعتراض قوافلهم ، فما كادت تمضي سبعة أشهر من مقـدم الرسول المدينة ، حتى أمر (حمزة) بالتوجه الى ساحل البحر من ناحية العيص ، للتحرش بعير لقريش كانت قد جاءت من الشأم تريد مكة ، فيهـا أبو جهل في ثلاثمائة راكب[1] ، فكان خبر هذه السرية أول خبر سيء يبلغ مسامع قريش ؛ وقـد نجت القافلة ، إلا أن الخبر جعل قريشاً تشعر أنه سيكون مقدمة لأخبار سيئة ستصيب مصالحها التجارية وحياتها الاقتصادية ، ولن يكون لها من نجاة ، إلا بالتهيؤ للقضاء على الرسول والإسلام . كما فكرت في وضع خطط لتغيير طرقها التي تسلكها في ذهابها الى الشأم باتباع طرق بعيـدة سالمة ، تكون بعيدة عن المسلمين ، وقد سلكتها فيما بعد ، حين ضيق المسلمون على قوافلها التي كانت تسير على الطرق المألوفة ، فتبين أنها لم تكن سالمة أيضاً وأن المسلمين أخذوا يهاجمونها على كل طريق ، مهما كان .

وكان من غيظهم على الرسول ، ومن تأثرهم بما أصاب تجارتهم من خسارة وضرر ، ان لقبوا الرسول بـ (القاطع) . ولما ذهب (الحجاج بن علاط) ، الى مكة ، وكان تاجراً له مال بمكة أودعه زوجته ، ومالاً متفرقاً في تجار أهل مكة ، وكان مسلماً يكتم إسلامه ، قالوا له : أخبرنا بأمر محمد ، فإنه قد بلغنا ان القاطع قد سار الى خيبر ، وهي بلدة يهود وريف الحجاز[2] . فنعتوا الرسول بـ (القاطع) لأنه قطع عليهم تجارتهم وهدد طرقهم التي يسلكونها للوصول الى أسواق الشأم وبلاد العراق .

ولما كان الشهر الثامن من مقدم الرسول المدينة ، أرسل سرية الى بطن (رابغ) بلغت (ثنية المرة) ، وهي بناحية الجحفة ، لتقابل عيراً لقريش ، اختلف في أميرها ، فقيل : كان (أبو سفيان) ، وقيل بل (مكرز بن حفص) ، وقيل (عكرمة بن أبـي جهل) . فكان بين المسلمين والمشركين رمي ، ونجت القافلة .

---

١ الطبري (٢/٤٠٢) ، امتاع الاسماع (١/٥١) .

٢ الطبري (٣/١٨) .

وكانت كبيرة على ما يظهر ، إذ كان عدد رجالها ، أي حراسها مائتين[1] . ورجع المسلمون دون ان يغنموا شيئاً ، وقد كانت السرية انذاراً آخر لقريش بالخطر الذي سيحيق بتجارتها وبمصالحها المادية وبأن ما كانت تربحه من أرباح لن يدوم لها فيما بعد .

وقد تمكن (أبو بصير) من إنزال ضربات موجعة بتجارة قريش ، اختار (العيص) ، وهو ناحية على ساحل البحر على طريق عير قريش الى الشأم موضعاً ينقض منه على قوافل قريش ، فيسلب ما فيها من مال ويقتل من يقتل من المارة ، حتى ضيق عليها ، وهرب اليه من كان بمكة محبوساً من المسلمين ، حتى تجمع عنده قريب من سبعين مسلماً ، أغار بهم مرة على ركب كان يريد الشأم ، معهم ثمانون بعيراً ، فأخذوا ذلك وأصاب كل رجل منهم قيمة ثلاثين ديناراً . فغاظ قريش تضييق (أبو بصير) عليهم ، حتى كتبوا الى رسول الله يسأله بأرحامهم إلا أدخل أبا بصير اليه ومن معه . فكتب اليه ان يعود ومن معه[2] .

ولما عقد صلح (الحديبية) وكانت الهدنة بين قريش والرسول ، استراحت (قريش) ، وإن بقيت خائفة من أن لا تجد أمناً لها ، فأرسلت قافلة في نفر من قريش فيها (أبو سفيان) ، الى (غزة) متجرها في بلاد الشأم ، فوصلت سالمة الى هناك ، وتاجرت ثم عادت[3] .

وذكرت كتب التأريخ والأخبار أسماء عدد من رجال مكة كانوا يخرجون الى التجارة بأموالهم وأموال غيرهم من أمثال أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله ، وكان يخرج تاجراً الى الشأم . وكان رجلاً مأموناً ، يخرج بماله وأموال رجال من قريش أبضعوها معه[4] . وقد عرف (بالأمين) ، وكان من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة ، يخرج بماله وبمال غيره تاجراً ، يأتمنون به ، ثم يعود فيؤدي الى كل ذي مال من قريش ماله الذي كان أبضع معه . وكان آخر خروجه تاجراً بأمواله وبأموال قريش قبل الفتح ، خرج الى الشأم فلما انصرف قافلاً لقيته سرية لرسول الله ، أميرهم (زيد بن حارثة) ، وكان أبو العاص

---

١ الطبري (٢/٤٠٢) ، امتاع الاسماع (١/٥٢) .
٢ امتاع الاسماع (١/٣٠٥) .
٣ الطبري (٢/٦٤٦) ، (ذكر خروج رسل رسول الله الى الملوك) .
٤ الطبري (٢/٢٩٢) .

في جماعة عير ، وكان زيد في نحو سبعين ومائة راكب ، فأخذوا مـا في تلك العير من الأثقال وأسروا منهم ناساً ، فاستجار (أبو العاص) بزينب، فأجارته ، وردّ الرسول الأموال والأسرى اليه ، وعاد مع القافلة الى مكة ، فأدى الى كل ذي مال من قريش مـاله الذي كان أبضع معه ، ثم أعلن أمام قريش شهادة الاسلام ، وتركهم فقدم يثرب مسلماً ، ورد رسول الله ابنته عليه [1] .

ومن تجار قريش (صفوان بن أمية بن خلف) ، ذكر انه كان أحد العشرة الذين اليهم شرف الجاهلية ووصله لهم الاسلام من عشرة بطون . وكان أحد المطعمين في الجاهلية والفصحاء ، وأحد أشراف قريش ، واليه كانت الأيسار ، وهي الأزلام ، فكان لا يسبق بأمر حتى يكون هو الذي يجري يسره على يديه . وكان يقال له : (سداد البطحاء) . وهو أحد المؤلفة قلوبهم . وكان غنياً ،وكذلك كان أولاده[2]. ورد في الحديث : ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية ، وقنطر أبوه ، أي صار لهما مال كبير ، كأنه يوزن بالقنطار[3] ، فهما من أسرة ثرية ثقيلة الثراء .

وتعدّ أيام مغادرة القوافل وأيام عودتها سالمة ، من الأيام المشهودة في مكة ، يخرج فيها أهل البلدة لتوديع القافلة متمنين لها النجاح والفلاح والعودة سالمة بربح وافر كثير ، داعين آلهتهم ان تبارك في رجالها وتمنحهم العون والفلاح في البيع وفي وقايتها من شر السفر ومن أذى الأشرار قطّاع الطريق . ويخرج فيها أهل مكة فرحين مستبشرين ، لاستقبال القافلة قادمةً من سفرتها البعيدة وهي محملة بسلع جديدة وبثمن ما باعته من سلع وما ربحته من فروق الأسعار : سعر الشراء وسعر البيع ، حتى اذا ما بلغت القافلة مكة ، كان أول واجبها زيارة رئيسها وأصحابها (البيت الحرام) لرفع الحمد والشكر الى رب البيت على ما أنعمه عليها من الأمن والسلامة وما رزقها من ربح . ثم يعود مع أصحابه الى بيوتهم ليستريحوا وليقوموا بتصفية حسابهم ، واعطاء كل واحد من المساهمين في رأس مال القافلة نصيبه من الربح .

وقد ذكر أن قريشاً كـانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً . وأن قافلة

---

١ الاصابة (١٢١/٤) ، (رقم ٦٩٢) ، الاستيعاب (١٢٥/٤) ، (حاشية على الاصابة)

٢ الاصابة (١٨١/٢ وما بعدها) ، الاستيعاب (١٧٩/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ تاج العروس (٥٠٩/٣) ، (قنطر) .

(أبي سفيان) التي كانت سبب وقعة بدر، كانت ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار، فسلّم أبو سفيان الى أهل العير رؤوس أموالهم، وأخرجوا أرباحهم، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً [1] .

وقد اشتهرت بعض الأسر من قريش بالتجارة مع الأقطار البعيده عن مكة . وقد ذكر أهل الأخبار أن بني (عبد مناف) المعروفين بـ (أصحاب الإيلاف) كانوا أسرة ثرية غنيّة اختصت بالاتجار مع الخارج . وكانوا أربعة أخوة ، هم: هـاشم ، وكان يؤالف الروم ، فأمن في تجارته الى الشأم . أما الأخ الثاني ، فعبد شمس، وكانت تجارته مع الحبشة . وأما الثالث فكان المطلب ، وكان يرحل الى اليمن . وأمـا الرابع ، فهو نوفل ، وكان يرحل الى فارس . وقد عرف هؤلاء بـ (المتجرين)[2] وبـ (المجبرين) وبـ (المجيرين)[3] .

ولم يكن الإيلاف إيلافاً مع الروم أو الفرس أو الحبشة ، وإنما كان إيلافاً مع سادات القبائل . فبفضل العقود والعهود التي عقدها (هاشم) واخوته مع سادات العرب أمكن مرور قوافل مكة بأمن وسلام نحو العراق وبلاد الشأم واليمن والحبشة. ولولا هذه العقود التي جبرت قلوب سادات القبائل بتقديم حقـوق مرور لهم ، أو بإشراكهم في مال القافلة ، بحمل تجار مكة ما عندهم من سلع لبيعها عـلى حسابهم ، وتقديم ثمنها مع الربح الذي جاؤوا به على سعر البيع المقدر ، لما كان في إمكان قريش ضبط أولئك الأعراب ومنعهم من التحرش بقوافلهم ومرورهـا الى الأسواق بأمن وسلام .

ويرجع أهل الأخبار مبدأ (الإيلاف) وخروج قريش من مكة بالقوافل الى بلاد الله الأخرى الى (هاشم بن عبد مناف) ، فهم يذكرون ان قريشاً كانوا تجاراً « وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، انما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف الى الشأم فنزل بقيصر ، فكان يذبح كـل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون، وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم،

---

١ نهاية الارب (١٧/٨١) ، (ذكر غزوة أحد) .
٢ بلوغ الارب (٣/٢٨٥) .
٣ تاج العروس (٦/٤٤) ، (الف) .

فذكر ذلك لقيصر فقيل له : ها هنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم ، وانما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز ، فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجب به ، فكان يبعث اليه في كل يوم فيدخل عليه ويحادثه ، فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له : أيها الملك ، إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت ان تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو أرخص عليكم ! فكتب له كتابَ أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مرّ بحيّ من العرب بطريق الشأم أخذ من أشرافهم إيلافاً — والإيلاف : أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف انما هو أمان الطريق — وعلى ان قريشاً تحمل اليهم بضائع فيكفونهم حملانها ويؤدون اليهم رؤوس أموالهم وربحهم. فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشأم حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يُجوّزهم يوفيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب حتى أوردهم الشأم وأحلهم قراها ، ومات في ذلك السفر بغزة . وخرج المطلب ابن عبد مناف الى اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تجر اليهم من قريش، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم ، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف، وكان يسمى (الفيض) وهلك بردمان من اليمن . وخرج عبد شمس بن عبد مناف الى الحبشة ، فأخذ إيلافاً كفعل هاشم والمطلب ، وهلك عبد شمس بمكة فقبره بالحجون. وخرج نوفل ابن عبد مناف وكان أصغر ولد أبيه فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش وإيلافاً ممن مر به من العرب ، ثم قدم مكة ورجع الى العراق فمات بسلمان . واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها ، فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة في الجاهلية والاسلام »[1] . وبهذا القصص . أوجد أهل الأخبار مبدأ الإيلاف ، ومبدأ خروج قريش بالتجارة الى الأقطار المذكورة . ويكون عمل (آل عبد مناف) وفق هذه القصة ، عملين : أخذهم أماناً من الملوك المذكورين بمعاملة قريش معاملة حسنة وحمايتهم لهم في أرضهم من كل تعدّ قد يقع عليهم، ومراعاتهم مراعاة خاصة حين مجيئهم اليهم للاتجار ، معاملة الأحسن حظوة بين التجار الذين يتاجرون في أسواقهم ، والعمل الثاني ، هو عقدهم الإيلاف مع

---

١ . ذيل الامالي (١٩٩ وما بعدها) .

سادات القبائل الذين يمرون بهم في ذهابهم وإيابهم الى الشأم والعراق واليمن والحبشة، بأن يأمنوا عندهم في أرضهم ، ولا يعتدى على أحد منهم .

وموضوع ذهاب هاشم واخوته الى الشأم أو العراق أو اليمن أو الحبشة،موضوع طبيعي لا داعي إلى اثارة الشك حوله ، فقد وجدنا أن غيرهم من تجار مكة كانوا يتاجرون مع الأماكن المذكورة ، تاجروا معها قبلهم وتاجروا معها بعدهم، أما أنهم التقوا بقيصر وبكسرى وبالنجاشي وبتبابعة اليمن ، وتعاقدوا وتعاهدوا معهم ، فقضية أخرى فيها نظر ، وقد عوّدنا أهل الأخبار على سماع مثل هذا القصص . وكل ما نستطيع أن نتصوره فيما لو صدقنا بالخبر ، هو أن أولئك الأخوة قد قابلوا بعض موظفي الحدود وتصادقوا معهم وقدّموا لهم بعض الهدايا، فصاروا يتساهلون معهم في جباية الأعشار وفي أخذ حقوق المرور ، فشاع بين قومهم أنهم تعاقدوا مع أولئك الملوك .

والإيلاف ، العهد والذمام وشبه الإجازة بالخفارة ، من ألف بينهما تأليفاً ، أوقع الألفة وجمع بينهما بعد تفرق ووصلهما ، ومن ذلك المؤلفة قلوبهم ، أمر النبي بتألفهم ، أي بمقاربتهم وإعطائهم من الصدقات ليرغبوا من وراءهم في الإسلام ، ولئلا تحملهم الحميّة مع ضعف نياتهم على أن يكونوا مع الكفار على المسلمين[1] . وصار أهل مكة ، بفضل الإيلاف ، آمنين امتيارهم وتنقلاتهم شتاءً وصيفاً والناس يتخطفون من حولهم ، فإذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد . فالإيلاف العهود التي أخذتها قريش من سادات القبائل إذا خرجت في التجارات فتأمن بها[2] .

وقد عرف أصحاب الايلاف،وهم الاخوة الأربعة أبناء عبد مناف بـ(المجبرين)، إذ كانوا يؤلفون الجوار يتبعون بعضه بعضاً ، يجيرون قريشاً بميرهم ويجبرون فقيرهم ، ولذلك قيل لهم (المجبرين) .

وذكر أن كل واحد من الأخوة المذكورين أخذ حبلاً من ملك . فأما هاشم فإنه أخذ حبلاً من ملك الروم ، وأما عبد شمس ، فإنه أخذ حبلاً من النجاشي. وأما المطلب ، فإنه أخذ حبلاً من أقيال حمير . وأما نوفل ، فإنه أخذ حبلاً من

---

١ تاج العروس (٦/٤٤) ، (ألف) .
٢ تاج العروس (٦/٤٤) ، (ألف) .

كسرى ، فكان تجار قريش يختلفون الى هذه الأمصار بحبال هؤلاء[1] .

و (الحبل) العهد والذمة والايمان ، يقال كانت بينهم حبال فقطعوها ، أي عهود وذمم . وذلك أن العرب كانت تخيف بعضها بعضاً فكان الرجل إذا أراد سفراً أخذ عهداً من سيد قبيلة فيأمن بذلك ما دام في حدودها حتى ينتهي الى أخرى فيأمن بذلك[2] . والحبل الحلف أيضاً والعصم[3] . فالحلف بمعنى العهد بين القوم والمعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . وقد كانت الأحلاف كما سبق أن تحدثت عنها من أهم سمات الجاهلية ، وقد نهي عنها في الاسلام ، لما كانت توقعه من أضرار في المجتمع بسبب التكتلات والتحزبات والعصبية التي تؤدي الى القتال . فورد : لا حلف في الاسلام وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه ، فذلك الذي قال فيه الرسول:وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة . يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق . وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الإسلام والممنوع منه ما خالف حكم الإسلام[4] .

وكانت للعرب تعابير ومصطلحات في اعطاء العهد والأمان ، ومنها مصطلح : (لا بأس) . والبأس العذاب والشدة والخوف ، وإن قال الرجل لعدوه لا بأس عليك ، فقد أمنه ، لأنه نفى البأس عنه . وهو في لغة (حمير) (لبات)[5] .

وبفضل اتباع سياسة تأليف قلوب القبائل ، باشراك ساداتها في تجارة قريش ، أو اعطاء سادتها جعالة مرور ، أو هدايا ، أو بالتصاهر معها ، أو باكراء إبلها لنقل تجارة قريش ، تمكنت قريش من تأليف قلوب سادات القبائل ، فأمنت على نفسها ، وصارت قوافلها تخرج في أي وقت شاءت من أوقات السنة في الشهور

---

١ تاج العروس (٤٤/٦) ، (ألف) .
٢ تاج العروس (٢٦٩/١ وما بعدها) ، (حبل) .
٣ ابن سعد ، الطبقات (٧٥/١ وما بعدها) ، المحبر (١٦٢) ، الطبري (١٢/٢) ، Kister, p. 126.
٤ تاج العروس (٧٥/٦) ، (حلف) .
٥ قال شاعرهم :
تنادوا عند غدرهم لبات ... وقد بردت معاذر ذي رعين
تاج العروس (١٠٤/٤) ، (بؤس) ، (٥٨٠/١) ، (لبت) ، اللسان (٢٠/٦ وما بعدها) ، (بؤس) .

الحل أو في الشهور الحرم . لا تخشى بأساً ، حتى انها صارت تعطي أمانها لغيرها ، وبذلك ألفت القبائل الأخرى التي لم تكن لها عقود وإيلاف وحبال مع القبائل المحالفة لقريش ، فصارت تحمل كتاب أمان قريش وشعارها ، وهو ما عضد من شجر الحرم ، يوضع حول العنق ، على ما يزعمه أهل الأخبار ، فيكون جواز سفر وكتاب مرور .

والإيلاف ، أي عقد (الحبال) مع سادات القبائل ، عمل مهم جداً بالنسبة لكل صاحب عمل وتاجر . إذ يتمكن التاجر به من حماية نفسه وماله ومن المرور بأمن وسلام ، دون أن يتعرض لخطر النهب والسلب . وهو حتى اذا تعرض للخطر ، فإن سيد القبيلة بنفوذه وبسيادته على قبيلته كفيل بأن يعيد اليه ما انتهب منه . ولهذه الأهمية ، عقدت قريش الحبال مع سادات القبائل الذين تمر تجارة تجارها بأرضهم . عقدتها قريش ، أو أمضاها تجار من تجارها، بما لهم من صداقة وصلات زواج وروابط بسادات القبائل ، ولا سيما بسادات قبائل المناطق التي تمر الطرق التجارية بأرضها ، فلهذه القبائل بالذات أهمية كبيرة بالنسبة الى كل تاجر، وللحكومات بصورة خاصة بالطبع ، ولهذا تنافست على الاستحواذ عليها حكومات اليمن وحكومة الحيرة ، والساسانيون . وقد رأينا (امرأ القيس) المتوفى سنة (٣٢٨) للميلاد يصل بجيشه الى (نجران) مدينة (شمر) ، ورأينا في خبر سجّل بالمسند وصول جيوش اليمن الى أرض الخليج . فلهذه الأرضين ، كاليمامة ونجد والبحرين أهمية كبيرة بالنسبة للتجارة في جزيرة العرب لمرور الطرق البرية التي تربط العربية الجنوبية بالعربية الشمالية وبالعراق وسواحل الخليج بها ، ولمرور الطرق التي تربط العربية الغربية بالعربية الشرقية وبالعراق بأرضها. وقد رأينا كيف تعرضت قافلة (كسرى) التي قدمت من اليمن ، قاصدة المدائن الى السلب والنهب، وكيف تعرضت (لطيمة) النعمان الى النهب في هذه الطرق .

ويذكر أهل الأخبار ، ان تجار اليمن والحجاز ، كانوا يتحفزون بقريش ، اذا كانوا بأرض مضر . وان قريشاً استفادوا من عقدهم الإيلاف مع تميم وأسد ، و (بني عمرو بن مرثد) من (بني قيس بن ثعلبة) ، ومع قبائل (ربيعة) عامة . و (مضر) و (ربيعة) ، هي من قبائل نزار ، و (قريش) نفسها من ولد (مضر بن نزار) في عرف النسابين ، فإذا أخذنا بذلك علماً، استطعنا القول إن هذا النسب ، انما هو مصالح تجارية وروابط سياسية مصلحية ، جمعت

هذه القبائل في (بوتقة) مصالح مشتركة ، فأوجدت منها هذا النسب الذي أفاد أهل مكة كما أفاد القبائل الأخرى المشتركة فيه ، والتي كانت تتاجر في أسواق مشتركة فتبيع وتشتري وتنتفع بفضل هذا النسب السياسي .

وللنسب أهمية كبيرة في تأليف القبائل وفي المحافظة على الأمن في البوادي . والتصاهر هو من أهم الروابط التي كانت تربط بين القبائل وبين الأفراد . ومن هذه الأهمية ظهر التصاهر السياسي والتصاهر الاقتصادي ، عند الملوك وعند سادات القبائل والأشراف ، فصاهر رجال من قريش قوماً من (تميم) ومن (بني عامر ابن صعصعة) ومن يثرب واليمن ، وصاهر ملوك الحيرة سادات القبائل المعروفة، للاستفادة من المصاهرة لمآرب سياسية واقتصادية ، بالحصول على تأييد قبائل أولئك السادة : ولمرور تجاراتهم من أرضهم بأمن وسلام . وقد كانوا يعرفون كيف يختارون من يصاهرونه بالطبع ، يختارونه لكثرة عدد أبناء قبيلته ولمنزلتها ولمكانتها بين القبائل ، ليتخذوا منه قوة في تأديب القبائل الأخرى . وهو عمل لم يكن سادات القبائل في جهل من أسبابه ، وفي غفلة عن ادراك كنهه ، لذا كانوا يتاجرون به ، كما تاجر به الملوك ، أو سادات القبائل ، فيشترطون فيه شروطاً فيها مكاسب ومنافع لهم . كأن يطعمهم الملوك (الطعم) ويعطونهم الآكال ، ويجعلون لهم جباية الطرق ، وبعض الامتيازات على القبائل الأخرى ، ويجعلونهم على مقربة منهم في مجالسهم ، ويقربونهم بذلك على غيرهم من السادات .

وقد كان لهذا التقديم الحضري أهمية كبيرة في نفوس القبائل ، فهو عندهم أمارة من أمارات التشريف والتقدير . والأعرابي وإن ازدرى الحضر والحضارة، يقر مع ذلك في نفسه بتفوق الحضري عليه : ان لم يكن بالسلاح وبالقتال ، فبالحيل والغش والخداع كما يرى الأعرابي ذلك ، أي باستعمال الحضري ذكاءه المبني على التجارب والتقدم في مستوى الحياة في التغلب على الأعراب البسطاء الذين وإن كانوا أذكياء بالبديهة ، لكن ذكاءهم لا يكافيء ذكاء الحضر في التخلص من المتاعب والورط المعقدة التي تحتاج الى خداع .

وقد افتخر سادات القبائل الذين كان مستواهم العقلي فوق مستوى قبائلهم بكثير — بفضل اتصالهم بالحضر ، وزياراتهم (الأرياف) وبيوت الملوك ، بل البلاد الأعجمية المتقدمة أيضاً — بهذا التقديم ، واعتبروه شرفاً وتعظيماً ، فأكثروا من زيارة الملوك ، وانتهزوا المناسبات للاتصال بهم ، وافتخروا بما كانوا ينالونه منهم

من عطايا وصلات وخلع ، وهو تكريم كان يؤدي أحياناً الى نتائج محزنة، بسبب مبالغة بعض الملوك في تكريم سيد قبيلة ، وتقديمه على غيره من السادات ، ممـا كان يثير حقد بقية السادات ، الذين قد تتهيج عواطفهم عندئذ لهذا التقديم، وقد يعتبرونه إهانة خاصة قصد توجيهها اليهم ، فينتقمون ممن قدم عليهم ، أو ينتقمون من الملك ، بالإغارة على أرضه وأمواله . ونجد تأريخ الحيرة مليئاً بحوادث سببها إسراف بعض الملوك في الانصياع لعاطفتهم بتقديم سيد قبيلة،وتأخير آخر بإجلاسه في مكان هو دون المكان الذي كان من اللازم اجلاسه فيه من مجلس الملك. ولقرب المكان وبعده من الملك ومن صدر المجلس أهمية كبيرة عند سادات القبـائل وفي عرف المجتمع آنذاك ، حتى صار ذلك سنة لهم ، اتبعوها في مجالسهم أيضـاً ، فإذا دخل الناس مجلس سيد القبيلة جلسوا حسب منازلهم وأقدارهم في مجتمعهم ، على الرغم من مظـاهر (الدمقراطية) والمساواة التي تظهر عليهم ، والتي تبدو عندهم في مخاطبة بعضهم بعضاً .

السلع :

والأدم والزبيب والصمغ والطيب والتبر والبرد اليمانية والثياب العدنية والأسلحة ومصنوعات الحديد والمعادن الأخرى ، هي من أهم السلع الرئيسية التي تتكون منها تجارة قريش . وبعض هذه السلع مهم وغال ومطلوب . فكان تجار مكة يشترونه من معادنه ومواضعه ، ويبيعونه في الأماكن التي تبحث عنهـا ، وتربح من ذلك ربحاً كبيراً . وقد كانت (الأدم) على رأس الأموال التي تاجرت بها ، حتى ان قريشاً كانت قد جعلتها على رأس الهدايا والألطاف التي كانت تهديها الى الملوك والرؤساء وأكابر الناس. فلما ذهب (أبو سفيان) الى العراق،ووصل الى (كسرى) كما يزعم أهل الأخبار ، أهدى اليه أدماً وخيلاً ، فقبل (كسرى بن هرمز) الخيل ورد الأدم[1] . ولما أرسلت (قريش) (عبدالله بن أبي ربيعة) و (عمرو ابن العاص بن وائل) الى النجاشي ومعها هدايا مما يستطرف من متـاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم ، جمعت له أدمـاً كثيراً . ولم تترك من

---

١ الاغاني (١٢/٤٦) ، العقد الفريد (٢/٢١) ، (لجنة) .

بطارقته بطريقـاً إلا وله هدية ، فكانت الأدم عـلى رأس ألطاف مكـة وهداياها [1] .

ومن العطور التي كانت معروفة بمكة : (الذرور) ، عطر يجاء به من الهند كالذريرة ، وهو ما انتحت من قصب الطيب ، وقيل هو نوع من الطيب مجموع من أخلاط ، وبه فسر حديث عائشة : طيبت رسول الله لإحرامه بذريرة [2] .

وأغلى سلع قريش التي كانت تحملها لبيعها في أسواق بلاد الشأم ، هي (الفضة). ولما أرسل الرسول (زيد بن حارثة) على عير لقريش كان فيها (أبو سفيان)، وكانت قد غيرت طريقها الذي يسلك الى الشأم ، وسلكت طريق العراق ، كانت مع (أبي سفيان) فضة كثيرة ، وهي أعظم تجارتهم ، فالتقى بها (زيد بن حارثة) فأصاب العير ، وبلغ خمس الرسول من الغنيمة عشرون ألفـاً ، ومعنى هذا ان قيمة الغنائم ، كانت مائة ألف[3]. وقد ذكر في خبر هذه السرية ان الفضة كانت آنية كثيرة ، وسكت خبر آخر عن نوع الفضة ، وانما ذكر ان (أبا سفيان) كان يحمل معه فضة كثيرة [4] .

والأسلحة من أهم مواد التجارة التي كان يتاجر بهـا التجار . فالسلاح أداة ضرورية جـداً بالنسبة الى الأعرابي ، فبه يدافع عن نفسه ، وهو لا ينام إلا وسلاحه الى جانبه ؛ حتى إذا ما شعر بأقل حركة ، نهض وهو بيده ليدافع به عن نفسه . والتاجر نفسه مع انه انسان مسالم لا يميل بطبيعة عمله الى حمل السلاح والتقاتل كان مضطراً مع ذلك الى حمله معه والى استخدام العبيد والأعوان للدفاع عن نفسه وعن أمواله . ولهذا كان يحرص على شرائه من أي مكان يجده فيـه ليدافع به عن نفسه ، كما كان يتـاجر به لأن الاتجار به من أربح الأعمال في السوق ، لإقبال الناس عليه ، فكان يشتريه من صناعه ومن أسواقه ، ليبيعه لمن يطلبه بسعر أعلى ، فيربح بذلك كثيراً من الفرق بين السعرين .

وكان لأهل مكة خاصة حس مرهف نحو التجارة . كانوا إذا سمعوا أجراس

---

١ الروض الانف (١/٢١١ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٣/٢٢٣) ، (ذرّ) .

٣ الطبري (٢/٤٩٢ وما بعدها) .

٤ الطبري (٢/٤٩٢ وما بعدها) .

عير ، هرعوا نحوها يلتمسون خبرها . فلما أقبلت من الشأم عير لدحية بن خليفة الكلبي ، أو لعبد الرحمن بن عوف ، تحمل زيتاً أو طعاماً ، وكان رسول الله يخطب يوم الجمعة ، والناس خلفه صفوفاً ، فلما سمعوا بها ، جعلوا يتسللون ويقومون اليها ، خشية أن يسبقوا اليها ، فتباع ، حتى بقيت منهم عصابة اثني عشر رجلاً وامرأة . وكانوا إذا أقبلت العير ، استقبلوها بالطبل والمزامير والكبر والتصفيق. فلما نظر رسول الله الى المصلّين وقد انفضوا من حوله ، عنفهم ووبخهم ، ونزل في حقهم ما نزل في الآية من ترك البيع حالة صلاة الجمعة [1] .

ويتبين من كتب الحديث ان الصحابة كانوا يتعاطون التجارة ، ويتكسبون في الأسواق ، وقد كانوا نشطين جداً في ذلك ، وكان أهل مكة أكثر نشاطاً من أهل المدينة في هذا الباب ، فلا يكاد بعضهم يصل المدينة مهاجراً من مكة حتى يسأل عن السوق ، ويبحث عن رزق ، فذهب بعضهم الى سوق بني قينقاع ، وهي من أسواق يهود ، فنجحوا فيها وحصلوا على ربح ومال أعالوا به أنفسهم . وقد كان في جملة ما أجاب به أبو هريرة ، وقد قيل فيه : إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ، وان المهاجرين والأنصار لا يحدثون عنه بمثل حديث أبي هريرة : « إن اخوتي من المهاجرين كان يشغلهم صفق الأسواق ، وكنت ألزم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على ملء بطني ، فأشهد اذا غابوا ، واحفظ اذا نسوا ، وكان يشغل اخوتي من الأنصار عمل أموالهم ، وكنت امرءاً مسكيناً من مساكين الصُّفّة أعي حين ينسون [2] » . فالأنصار كانوا أصحاب زرع وأموال ، والمهاجرون كانوا أصحاب تجارات .

وكانوا اذا التهوا في السوق وانصرفوا في التجارة ونسوا أمورهم الأخرى ، قالوا ألهانا الصفق بالأسواق ، يعني الخروج الى تجارة وبيع وشراء . وقد أدى

---

١ سورة الجمعة ، الآية ٩ وما بعدها ، تفسير الطبري (٦٦/٢٨ وما بعدها) . تفسير النيسابوري (٦٨/٢٨ وما بعدها) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، تفسير ابن كثير (٣٦٦/٤ وما بعدها) ، الواحدي ، أسباب النزول (٣٢٠) ، مسند الامام أبي حنيفة (٧٣ وما بعدها) ، ارشاد الساري (١٢/٤ وما بعدها) ، اثار السنن (٨٨/٢) ، تيسير الوصول (١٨٢/١) .

٢ صحيح البخاري (٥٢/٣ وما بعدها) ، (كتاب البيوع) ، عمدة القارىء (١٦١/١١ وما بعدها) ، ارشاد الساري (١٥/٤ وما بعدها) .

انصراف بعض الصحابة الى السوق وتعلقهم بالتجارة الى انفضاضهم أحياناً عن الرسول وهم حوله ، فورد في الحديث : « بينما نحن نصلي مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبلت من الشأم عير تحمل طعاماً فالتفتوا اليها حتى ما بقي مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إلا اثنا عشر رجلاً ، فنزلت : واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً »[1] .

وكان (العباس بن عبد المطلب) من أغنياء قريش ، ومن المقرضين للمال بفضل يأخذه من المدين يضعه على رأس ماله . وقد بقي على ماله وثرائه في الاسلام كذلك . وكان الرسول قد أبطل ربا العباس في أول ما أبطل من ربا في الاسلام . وكان العباس يتاجر كذلك ، له محل يتاجر فيه ، ويستقبل التجار الغرباء . وقد ذكر أن (عفيف الكندي) كان في جملة من تاجر معه في الجاهلية، وقد جاء اليه ليبتاع منه بعض التجارة[2] .

ولما آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين،آخى بين (عبد الرحمن بن عوف)، وهو من المهاجرين ، وبين (سعد بن الربيع) ، وهو من أكثر الأنصار مالاً ، فقال (سعد بن الربيع) : « أقاسمك مالي نصفين وأزوجك » . قال (عبد الرحمن) : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلّوني على السوق . فدلوه على سوق قينقاع ، فغدا اليه ، ثم تابع الغدوّ ، فما لبث أن جمع مالاً من تعامله بالسوق وصار من المثرين[3] .

وقد كان (عبد الرحمن) تاجراً بمكة قبل هجرته الى يثرب ، وصاحب مال. فلعل الرسول أراد من مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ، أن يساعد المهاجرون الأنصار وأن يتعاونوا معاً ، كما كان شأن عبد الرحمن وسعد بن الربيع ، وهما من أصحاب الخبرة والتجربة في العمل ، فيفيدوا بذلك الإسلام بما يحصلون عليه من مال .

وقد ذكر أهل الأخبار ، أن عبد الرحمن ، تصدق على عهد رسول الله ، بشطر ماله ، ثم تصدق بعد بأربعين ألف دينار ، ثم حمل خمسمائة فرس في سبيل

---

١ البخاري (٣/٥٥) ، ارشاد الساري (٤/١٤ وما بعدها ، ٥٥) .
٢ الاصابة (٢/٤٨٠) ، (رقم ٥٥٨٨) .
٣ ارشاد الساري (٤/٤ وما بعدها) .

الله وخمسمائة راحلة ، وكان أكثر ماله من التجارة . وذكروا أنه أعتق ثلاثين ألف نسمة وأنه أوصى لكل من شهد بدراً بأربعمائة دينار ، فكانوا مائة رجل[1] . وذكروا أنه كان تاجراً مجدوداً في التجارة ، وكسب مالاً كثيراً ، وخلف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ، ومائة فرس ترعى بالبقيع ، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً فكان يدخل منه قوت أهله سنة . وذكروا أنه صالح امرأته التي طلقها في مرضه من ثلث الثمن بثلاثة وثمانين ألفاً ، وقيل عن ربع الثمن من ميراثه . ورووا أنه أعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً . وأنه كان يقول : « قد خشيت أن يهلكني كثرة مالي . أنا أكثر قريش كلهم مالاً »[2] .

وكان (أبو بكر) تاجراً معروفاً بالتجارة بمكة قبل الاسلام. ولقد بعث النبي وعنده أربعون ألف درهم ، ولما أسلم كان يعتق منها ويعول المسلمين ، حتى قدم المدينة بخمسة آلاف[3] .

وكان (طلحة بن عبيد الله بن عثمان) القرشي التيمي ، من تجار مكة ، ولما قدم المدينة مهاجراً ، أخذ يتاجر مع (الشأم) ، وذكر انه اشترى مالاً بـ (بيسان) ، وان غلته تبلغ ألفاً وافياً كل يوم . والوافي في وزنه وزن الدينار ، وعلى ذلك وزن دراهم الفرس التي تعرف بالبغلية . وقد ساهم في حرب الجمل ، التي وقعت سنة ست وثلاثين[4] .

والزبير من رعيل التجار كذلك ، وكان تاجراً مجدوداً في التجارة ، كان له ألف مملوك يؤدون اليه الخراج[5] ، وله أرضون واسعة وأموال طائلة .

تجار يثرب :

ولم يشتهر أهل (يثرب) في كتب أهل الأخبار بالتجارة ، وانما اشتهروا فيها بالزراعة ، ولا سيما بزراعة النخيل . ولكننا نجد ان من بينهم من كان يتاجر مع

---

١ الاصابة (٢/٤٠٨) ، (رقم ٥١٨١) .
٢ الاستيعاب (٢/٣٨٥ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ الاصابة (٢/٣٣٣) ، (رقم ٤٨١٧) .
٤ الاستيعاب (٢/٢١٠ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ الاستيعاب (١/٥٦٣) ، (حاشية على الاصابة) .

بلاد الشأم واليمن ، وله أموال شغلها في التجارة ، كما ان من بينهم من كان يعطي فضل ماله بالربا للمحتاج الى المال ، وكان منهم من حصل على مال كثير فابتنى له (الأطم) و (الحصون) ليحصن نفسه وماله بها . ولما هاجر المهاجرون اليها ، تعاظم شأن التجارة بها ، إذ أخذ المهاجرون والأنصار يتاجرون مع الشأم، فيبيعون ويشترون ويستوردون التجارة الى المدينة ، بقوافل تأتي محملة بالزيوت وبتجارة الشأم اليها . حتى أمر الرسول باتخاذ سوق بها ، يتاجر فيه التاجر دون ان يدفع خراجاً ، بقوله : هذا سوقكم لا خراج عليكم فيه[1] . فرفع عن تجار يثرب ما كان يدفعه تجار الأسواق الأخرى من خراج الأعشار .

ويظهر من دراسة وتشريح كتب التفسير والحديث والسير والأخبار . أنه قد كان بين أهل (يثرب) وأهل مكة فروق في أصول التعامل التجاري ، فوزن أهل يثرب يختلف عن وزن أهل مكة ، وكيلهم يختلف عن كيلهم أيضاً ، وتعاملهم في السوق يختلف بعض الاختلاف عن تعامل أهل مكة . ثم هم فوق ذلك يختلفون عن أهل مكة في أنهم أصحاب زرع ، وأهل مكة أصحاب تجارة، ولما جاء الرسول الى المدينة ، وجد لهم معاملات تخص أكثرها الزراعة لم تكن معروفة بمكة ، فسألهم عنها ، وحدد لهم موقف الإسلام منها .

وسبب هذا الاختلاف ، هو اختلاف طبيعة المكانين . فمكة بلد غير ذي زرع فقلّ عندهم التعامل الزراعي ، لعدم احتياجهم اليه . أما (يثرب) ، فبلد زراعة عيشة أهله على الزراعة واستغلال الأرض ، لذلك صار أكثر تعاملهم بأعمال تتعلق بالزراعة وباستغلال الأرض ، وبالاشتراك والتعاون في استغلال الملك الفائض على حاجات صاحبه ، فظهرت عندهم أعراف زراعية ، لم تعرف بمكة . وكانت عندهم بعض حرف ، لم تشتهر بمكة . ومن هنا راعى التشريع الإسلامي في التجارة أعراف أهل مكة فيها ، وراعى في التشريع الزراعي وفي الحرف أعراف أهل يثرب في الاثنين .

واقتصاد يثرب اقتصاد زراعي ، الانتاج فيه انتاج زراعي ، ثم حيواني، عماد الانتاج فيه التمور والخضر ، أما اقتصاد مكة ، فهو اقتصاد تجاري عماده التجارة القائمة على أساس شراء السلع من الأسواق ونقلها الى مكة ، وتصريفها من هناك

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٨) .

على أهل مكة ومن حولهم ، ونقل الفائض الى الأسواق الموسمية وأسواق العراق وبلاد الشأم والعربية الجنوبية . فهو اقتصاد لا يعتمد على الانتاج المحلي ولا على حرف محلية ، إنما يقوم على أساس شراء المنتجات الأجنبية من مصادرها بأسعار أعلى ، للحصول على الأرباح عن طريق الفرق بين السعرين : سعر الشراء وسعر البيع ، أو عن ثمن التوسط في معاملات البيع والشراء .

ويظهر ان أهل يثرب لم يكونوا قد أقبلوا على الزراعة اقبالاً كافياً ، وان الأرض لم تكن قد استغلت استغلالاً جيداً، لهذا نجد الرسول بعد هجرته الى هذه المدينة يحث المسلمين على الاقبال على الزراعة وعلى العمل بها ، وعلى استغلال الأرض ، لأن فيها قوت المسلمين ، فأراد بذلك سد النقص الذي كان يجابه أهل المدينة وغيرها في الحبوب وفي أقواتهم الأخرى ، وهذا مما أدى الى احياء بعض أرضها في أيامه ، أحياها أهل يثرب وأحياها بعض المهاجرين .

وكان بعض تجار مكة يمرون بيثرب في طريقهم من مكة الى بلاد الشأم ، وفي عودتهم منها الى مكة . ولما خرج (هاشم) في عير لقريش فيها تجارات ، كان طريقه على المدينة ، ثم نزل بسوق النبط ، وهي سوق تقوم بها في السنة يحشدون لها ، يبيعون ويشترون[1] . وهي سوق يظهر انها كانت تقام في موسم معين من السنة ، فيتجمع فيها التجار للبيع والشراء . ولما خرج (عبدالله) والد الرسول الى الشأم الى غزة في عير من عيرات قريش يحملون تجارات ، ففرغوا من تجارتهم ثم انصرفوا ، مرّوا بالمدينة ، وبها توفي فدفن هناك ، في دار النابغة ، وهو رجل من بني عدي بن النجار[2] .

وقد كان الأنباط يتاجرون مع المدينة ، يأتون اليها بـ (الدرمك) ، وهو الدقيق الحواري ، وهو دقيق أبيض،وبالزيت . وكانوا يأتون اليهم بأخبار الروم[3]. ولعلهم كانوا يتاجرون في موضع معين من أسواق يثرب،فعرف لذلك بسوق النبط.

وقد نافست (يثرب) مكة في التجارة بعد هجرة الرسول اليها ، إذ أخذ المهاجرون يتاجرون منها مع بلاد الشأم والعراق ، وصارت القوافل ترد اليها محملة

---

١ ابن سعد ، طبقات (٧٨/١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٩٩/١) .
٣ امتاع الاسماع (٤٤٥/١ وما بعدها) .

ببضائع بلاد الشأم ، وأخذ الأنصار والمهاجرون يتاجرون معاً في الأسواق ، وقد تضخمت هذه التجارة بعد فتح مكة،ودخول القبائل في الإسلام ووصول الصدقات الى بيت المال في المدينة ، فتحسن حال أهل المدينة وصار لهم رأس مال مكنهم من تشغيله في التجارة وفي الزراعة ، فاستغلوا أرض يثرب بزرعها زروعاً مختلفة، ثم استغلوا أموالهم هذه في الخارج بعد الفتوح .

وقد نشأت يثرب وتوسعت لوجود المـــاء بها ، وهذا الماء هو الذي صيرها مستوطنة زراعية ، كما صير غيرها من المستوطنات العديدة التي تقع في شمالها وتمتد حتى تتصل في فلسطين مستوطنات زراعية منتجة ذات بساتين ومزارع يعتمد في زرعها على العيون والآبار . وكان عماد حاصلها التمر . وقد أحاطت بيثرب هالة من (الحوائط) المغروسة بالنخيل ، غرسهـا سادات يثرب ، فصارت من أهم موارد رزقهم ، وقد زرعوا بعض الخضر والبقول تحت النخيل ، لسد حاجتهم وبيع الفائض منه في الأسواق . ولكبار الملاكين فيها (أطم) يعيشون فيها ويخزنون بها ميراتهم وحاصلهم ، ويحتمون بها عند الخطر . وأما سواد الناس،فلهم بيوتهم، وبعضها بيوت ذات طابقين . ولم تكن المدينـــة مسورة ولا محاطة بخندق على ما يظهر من روايات أهـــل الأخبار ، بل كانت مدينة مكشوفة ، اذا داهمها خطر ، قام أهلها بسد منافذ طرقها ، وبالدفاع عنها من السطوح ، وبمقاومته في الأزقة .

وأرض يثرب أرض خصبة كان من الممكن زرعها لو أقبل أهلها على الزراعة، ولكنهم لم يقبلوا عليها اقبالاً تاماً ، بل قام المتمكنون منهم بغرس الأرضين الغنية بالماء ، والأرضين التي كان الماء فيها قريباً من سطح الأرض بحفر الآبار بها ، وتركوا الأرضين الأخرى مواتاً لم تزرع . وشغلوا الموالي والرقيق في الزراعـة ، ولو أجهدوا أنفسهم في استصلاح التربة وفي استنباط الماء ، وحبس مياه السيول ، لأحيوا بذلك أرضين واسعة . بدليل ان بعض المهاجرين ممن كانت عندهم رغبة في الزراعة وأموالاً ، عملوا في استصلاح أرضين مواتاً حتى أحيوها ، وصارت تأتي اليهم بغلات وافرة .

ومن أثرياء يثرب (أحيحة بن الجلاّح) ، وهو من سادة الأوس[1] . وهو

---

١ تاج العروس (١١٩/٢) ، (أحّ) .

من أصحاب الأرض ، وكان شريفاً في قومه ، مات قبل الاسلام . وكانت تحته (سلمى بنت عمرو الخزرجية) ، وتزوج (سلمى) بعده (هاشم بن عبد مناف) فولدت له (عبد المطلب) جد النبي[1] .

وسعد بن عبادة بن دليم ، سيد الخزرج ، هو من أغنياء يثرب ومن أصحاب الأطم فيها . وكان سيداً كريماً مضيافاً ، جفنته تدور مع النبي في بيوت أزواجه وكان يأخذ كل ليلة جماعة من أهل الصفة يعيشهم ، وكان أهل الحاجة يذهبون الى أطمه ينالون الشحم واللحم[2] .

والطائف مصيف أهل مكة ومتمونها من الفواكـــه والزبيب والعسل والخضر . وقد اشترى أغنياء قريش بها الأملاك والبساتين وشاركوا أهل الطائف في التجارة . وهي بلاد (ثقيف) . وثقيف من المتحضرين النشطين الأذكياء . وللطائف قرى، أولها (لقيم) ، وآخرها (الوهط) . وكان اسمهـــا القديم (وج) . ويذكر أهل الأخبار ، أن (الطائف) ، كانت في الأصل قرية بالشأم ، أو قطعة من الجنة التي كانت لأصحاب الصريم ، أو باليمن بنواحي صنعـــاء ، فنقلت بدعوة (ابراهيم) الى الحجاز ، لتكون مصيفاً وجنة لأهل مكة . وكانت بغير سور ، فلما جاء (الصدف بن الدمون) من حضرموت الى (وج) ، وكان قد أصاب دماً في قومه ، لحق بثقيف وأقام بها ، وأقام لهم طوفاً أطـــاف بوج ، فسميت بالطائف منذ ذلك الوقت . ومنهم من يزعم ، أنها إنما سميت بذلك لأن (جبريل) لما نقلها من موضعها ، طاف بها بالبيت سبعاً ، ثم وضعها بموضعها ، فعرفت بالطائف[3] .

وكان أهل الطائف مزارعين ، عاشوا على الزراعة ، واتخذوها تجارة لهم . زراعة الكروم والفواكـــه والحبوب . وكسبوا من ذلك مالاً ، وكان منهم من اشتغل بدبغ الجلود ، وبيع (الأدم) أي الجلود المدبوغة أو تصديرها الى الخارج، ومنهم من تاجر ، وساهم مع تجار مكة في تجارتهم . فتجمع من كل ذلك رأس مال شغله أصحابه في الربا ، فكانوا يقرضون المال لمن يحتاج اليه من أهل الطائف ومن غيرهم ، لوجود مال فائض عندهم .

---

١ الاصابة (٣٧/١ وما بعدها) ، (رقم ٥٥) ، المحبر (٤٥٦) .
٢ الاصابة (٢٧/٢ وما بعدها) ، (رقم ٣١٧٣) .
٣ تاج العروس (١٨٤/٦) ، (طوف) .

ووجد التجار في كل مكان وجدت فيه أسواق وسلع وتجارة من بلاد العرب في الجاهلية وفي الاسلام ، لم تكن تخلو منهم مدينة من المـــدن أو قرية كبيرة . فسوق الفلج كان سوقاً لبني نزار واليمن[1] . وبـ (العوسجة) وهي معدن ، تجار[2] ، من الجائز ان يكونوا قد تجمعوا في هذا المكان للاتجار بالمعدن الذي يستخرج منه، فكانوا يتعاطون الاتجار بالمعادن .

١ الصفة (١٦٠) .

٢ بلاد العرب (٣٦٨) .

الفصل الثاني بعد المئة

القوافل

وتنقل التجارة البرية بطرق القوافل ، وذلك لضمان حماية الأموال والتجارة والأرواح . و (القافلة) ، الرفقة القفال والمبتدأة في السفر[1] . وذكر علماء اللغة أن (القافلة) العير كذلك . وذكر بعض منهم أن (العير) الإبل التي تحمل الميرة ، أو كل ما امتير عليه إبلاً كانت أو حميراً أو بغالاً[2] . وقد أطلق أهل السير والتأريخ ومن تحدث عن وقعة بدر : لفظة (العير) على قافلة قريش التي كان يرأسها (أبو سفيان) ، كما أطلق بعضهم (ركبان قريش) على من كان مع (أبي سفيان) من تجار قريش ، معهم أموالهم وتجارتهم من بلاد الشأم[3] . ونجد كتب السير والتواريخ تطلق لفظة العير على قوافل قريش بغير حصر ، مهما كان حملها . فلما تحدثوا عن سرية (حمزة) الى العيص استعملوا لفظة (عير) لقريش ، واستعملوا هذه اللفظة في مناسبات أخرى ، مما يدل على أنهم أرادوا بها قافلة ، أي جماعة من جماعات السفر ، مهما كان حملها .

والركبان والركب : ركاب الإبل . وقال بعض علماء اللغة : الركب : ركبان

---

١ تاج العروس (٨/٨٣) ، (قفل) .

٢ تاج العروس (٣/٤٣٣) ، (عير) ، تفسير الطبري (١٣/١١ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٩/٢٣٠ وما بعدها) ، اللسان (٤/٦٢٤) ، (عير) .

٣ الطبري (٢/٤٢١) ، (ذكر وقعة بدر الكبرى) .

الإبل في السفر دون الدواب ، وهم العشرة فصاعداً ، وذكر ان من الجائز استعمال (الركب) للخيل وللجيش[1] .

و (القيروان) الجماعة من الخيل. والقفل ، جمع قافلة . وهو معرب (كاروان). وقد تكلمت به العرب . قال امرؤ القيس :

وغارة ذات قيروان   كأن أسرابها الرعال[2]

وورد في الحديث انهم كانوا يترصدون عيرات قريش ، أي إبلهم ودوابهم التي كانوا يتاجرون عليها[3] .

ويقال للعير التي تحمل الطيب : (اللطيمة) . وذكر ان اللطيمة العير التي تحمل الطيب وبز التجارة[4] . فاللطيمة ، قافلة تحمل تجارة نفيسة الى الأسواق. وقد كان ملوك الحيرة يرسلون لطائمهم الى الأسواق ، لتتاجر بالطيب ، ومنهم (النعمان بن المنذر) ، وكان يبعث الى (سوق عكاظ) في وقتها بلطيمة يجيزها له سيد مضر ، فتبتاع وتشتري له بثمنها الأدم والحرير والوكاء والمغراء والبرود من العصب والوشي والمسير والعدني[5] .

ويقال لقافلة الإبل التي تخرج ليجاء عليها بالطعام ، (ركابا) حين تخرج ، وبعد ما تجيء . وتسمى عيراً على هاتين المنزلتين . والتي يسافر عليها الى مكة أيضاً ركاب تحمل عليها المحامل ، والتي يكترون ويحملون عليها متاع التجار وطعامهم كلها ركاب ، ولا تسمى عيراً ، وإن كان عليها طعام ، اذا كانت مؤاجرة بكرى . وليس العير التي تأتي أهلها بالطعام ، ولكنها ركاب . يقال : هذه ركاب بني فلان . ويقال زيت ركابي ،لأنه يحمل من الشأم على ظهور الإبل[6] .

وذكر ان العسجدية : ركاب الملوك التي تحمل الدق من المتاع[7] . فهي عير

---

١ تاج العروس (٢٧٦/١) ، (ركب) .
٢ تاج العروس (٣٠٩/٩) ، (قرن) .
٣ اللسان (٦٢٤/٤) ، (عير) .
٤ تاج العروس (٦٠/٩) ، (لطم) ، اللسان (٥٤٣/١٢) ، (لطم) .
٥ الاغاني (٧٥/١٩) ، شرح ديوان لبيد (٤٨) ، الامثال للميداني (٣٤/٢) ، الكامل ، لابن الاثير (٣٥٩/١ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٢٧٧/١) ، (ركب) ، ارشاد الساري (٧٤/٤) .
٧ تاج العروس (٦٠/١) ، (لطم) .

اذن تحمل متاعاً ثميناً،كالذهب والجوهر . وذكر ان العسجدية الإبل تحمل الذهب، وهي ركاب الملوك التي تحمل الدق الكثير الثمن ، والسوق يكون فيها العسجد ، وهو الذهب ، وركاب الملوك ، وهي إبل ، كانت تزين للنعمان بن المنذر[1] .

و (السابلة) (الواطئة) ، وهم المارة . سموا بذلك لوطئهم الطريق[2] . وهم الذين يسلكون الطرق . والسابلة من الطرق المسبولة ، المسلوكة ، وابن السبيل ، هو ابن الطريق ، والذي قطع عليه الطريق ، والمنقطع[3] .

ويسمى كل طريق يكثر الاختلاف عليه محجة ، ويسمى الطريق المدروس (الأيتار المليكي) ، ويسمى الطريق الضيق الحبل شركاً ، وحبال الطريق ايتاره. وطريق جادة ، أي مجدودة بالوطء ، وقارعة الطريق ، في معنى مقروعة ، والريع الطريق[4] .

وكلما كانت الأموال ثمينة وكثيرة ، كانت القافلة كبيرة . يحرسها عدد كبير من الحراس لحمايتها من لصوص الطرق وقطاع السبل الذين كانوا يعيشون على السلب والنهب . ونقل التجارة بالقوافل طريقة عالمية قديمة،أشير اليها في الكتابات، وفي الكتب المقدسة .

ولم يكن من السهل على التجار في ذلك الزمن التوسع في تجارتهم والمجازفة بالمتاجرة مع أماكن أخرى بعيدة . فالتاجر محتاج الى حماية حياته وأمواله ، ولم تكن الحماية ممكنة إلاّ في ظل حكومة مدنية قوية ، تحمي أبناءها وكل من يفد على أرضها وعلى الأرض الخاضعة لها من اعتداء المعتدين .

لهذا صار لزاماً على التجار الالتجاء الى نظام القوافل ، ولا سيما القوافل القوية الكبيرة معتمدة على حماية نفسها بنفسها أولاً ، ثم على حماية الحكومة ثانياً . وقد عمدت في الدرجة الأولى الى استرضاء سادات القبائل ، وذلك لتأمين حمايتهم في المناطق التي تمرّ بها القافلة ولبذل العون والمساعدة لها بتقديم حق مرور للرؤساء وهدايا وعطايا مناسبة وعقد عقود ومواثيق ، وإلا تعرضت أموال القافلة للأخطار.

---

١ تاج العروس (٤٢٢/٢) ، (العسجد) .
٢ تاج العروس (١٣٥/١) ، (وطأ) .
٣ تاج العروس (٣٩٦/٧) ، (سبل) .
٤ الصفة (١٨٣) .

ولطول الطرق وبُعد المسافات ، كان على القوافل استرضاء كبار سادات القبائل للحصول على حمايتهم.ومعنى هذا دفع اتاوات لهم ، وتحميل المشترين تلك الاتاوات. وهذا مما زاد في الأسعار وجعل الأثمان عالية ، وقد أضر ذلك بالتجارة العربية ولا شك ، كما أضر بالمنتجين الذين كانوا يبيعون انتاجهم اليسير وأكثره مواد خام يتعيشون عليها بأسعار بخسة لسدّ رمقهم في هذه الحياة .

وقد عمد تجار مكة — كما ذكرت ذلك في مواضع من هذا الكتاب — الى أساليب مختلفة في استرضاء سادة القبائل الذين تمر بأرضهم قوافلهم،منها استرضاؤهم بالمال ، وإشراكهم معهم في رأس المال ، بتقديم ما عندهم من سلع يتوسطون لهم ببيعها في الأسواق ، أو بشراء ما يريدون شراءه من تلك الأسواق وتقديمه لهم ، ومنها التصاهر معهم ، ودعوتهم لزيارة مكة وتقديم الهدايا لهم ، ثم ضبط كل ذلك بعقود (الإيلاف) ، التي وضعت قواعد وأصول وحقوق مرور قوافل مكة وقوافل تجارها الخاصة في كل الأيام والمواسم بأمن وسلام ، في مقابل تعهدات وعقود عينت بعقود الإيلاف .

وكان كل تاجر يخرج من اليمن والحجاز يتخفر بقريش ما داموا في بلاد مضر . « لأن مضر لم تكن تعرض لتجار مضر ، ولا يهيجهم حليف لمضري . كان ذلك بينهم . فكانت كلب لا تهيجهم لحلفهم بني تميم،وطيء أيضاً لا تهيجهم لحلفهم بني أسد . وكانت مضر تقول : قضت عنا قريش مذمة ما أورثنا اسماعيل من الدين . فإذا أخذوا طريق العراق ، تخفروا ببني عمرو بن مرثد ، من بني قيس بن ثعلبة ، فتجيز ذلك لهم ربيعة كلها »[1]. وهكذا تمكنت قريش من تأمين مصالحها التجارية بعقد الأحلاف مع سادات القبائل،وصار تجارها يتنقلون في مختلف أنحاء جزيرة العرب بحرية وأمان .

والجمال هي واسطة النقل في جزيرة العرب ، هي قطار القوم وسياراتهم في ذلك العهد. وليس في استطاعة حيوان آخر القيام بمثل تلك المشاق من قطع المسافات البعيدة في أماكن لا ماء فيها إلا في مواضع متباعدة وفي أماكن يتغلب عليها الجدب والشظف . كان على ذلك الحيوان ان يتحمل ثقل ما يوضع على ظهره،وان يسير به مسافات طويلة ، ثم عليه ان يتحمل العطش والجوع . ولولا الخواص الجسمية

---

(1) المحبر (ص ٢٦٤) .

التي امتاز بها عما عداه من الحيوانات ، لما كان في امكانه احتمال هذه المشقات ولعجز عنها حتماً . وقد أشير في التوراة الى قوافل الإبل الضخمة التي كانت تأتي من جزيرة العرب الى بلاد الشأم ، وهي محملة بالبضائع الثمينة النفيسة لتبيعها هناك[1] .

ولا تحتاج الإبل الى شرب الماء كل يوم ، لذلك غدت الحيوان المثالي الملائم لحياة الأعرابي وللبادية . والجمل صبور على الجوع وفي استطاعته مكافحة جوعه بأكل العوسج والنباتات التي تنبتها البادية . وللعرب أسماء في اظماء الإبل . ومنها (الخمس) أن ترد الإبل الماء يوماً فتشربه ، ثم ترعى ثلاثة أيام ، ثم ترد الماء اليوم الخامس ، فيحسبون اليوم الأول والآخر اليومين اللذين شربت فيهما . وقيل أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع[2] . ومن الأظماء (الغبّ) ، وذلك أن ترد الإبل يوماً وتصدر ، فتكون في المرعى يوماً ، وترد اليوم الثالث . وما بين شربتيها ظمأ طال أو قصر[3] . وعرف (الغب) أنه ورد يوم وظمىء آخر . وقيل : هو ليوم وليلتين ، وقيل هو أن ترعى يوماً وترد من الغد[4] . ومن أمثال العرب المتعلقة بهذا الموضوع : يضرب أخماساً لأسداس ، أي يسعى في المكر والخديعة . وأصله من اظماء الإبل ، فقد كان الرجل إذا أراد سفراً بعيداً عوّد إبله أن تشرب خمساً سدساً ، حتى إذا دفعت في السير صبرت ، ثم ضرب مثلاً للذي يراوغ صاحبه ويريه أنه يطيعه ، وقيل يضرب لمن يظهر شيئاً ويريد غيره ، أو الذي يقدم الأمر يريد به غيره ، فيأتيه من أوله ، فيعمل رويداً رويداً[5] .

وإذ كانت هذه القوافل في حياة القوم على جانب من الخطورة ، كما كانت المصدر المهم من مصادر الثروة ، وضعها أصحابها في حماية آلهتهم ، واتخذ بعضهم إلهاً خاصاً واجبه حماية القافلة وايصالها سالمة الى المحل المقصود . وقد عرف الإلـه (شيع هـ — قوم) (شيع القوم) ، بأنه إلـه القوافل ، الساهر على حمايتها

---

١ الملوك ، الاول ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢ ، اشعياء ، الاصحاح ٦٠ ، الآية ٦ ، Hastings, p. 946.

٢ تاج العروس (٤/١٤٠) ، (خمس) .

٣ تاج العروس (١/٩٣) ، (ظمىء) .

٤ تاج العروس (١/٤٠٣) ، (غب) .

٥ تاج العروس (٤/١٤٠) ، (خمس) .

وحماية أصحابها التجار . وعرف الإلـه (أبو إيلاف) (ايلف) (ايلاف) ، بأنه إلـه القوافل والتجار وأرباب القوافل كذلك . وكان أصحاب القوافل يقدمون الى آلهتهم النذور والقرابين بعد انتهاء رحلة القافلة ، براً بنذرهم لهـا ، وتقرباً اليها ، كي تستمر في بذل حمايتها لهذه القوافل ورعايتها لها ، كما كانوا يأتون الى المعابد والمحجات فيطوفون بها ، ويقصدون أصنامهم فينحرون عندها شكراً وتقرباً اليها لما أنعمت عليهم من نعم الحماية والربح الوافر الذي كسبوه في رحلاتهم هذه . وفي الذي يذكره أهل الأخبار عن طواف رؤساء قوافل مكة بالكعبة قبل بدئهم الرحلة وبعد انتهائهم منها ، الكفاية للدلالة على أهمية هذه الرحلات التجاريـة في نفوس القوم .

والغالب ان تعهد حراسة القوافل منذ يوم مغادرتها مكانهـا الى حراس أشداء أقوياء يحملون سلاحهم معهم ، لمقاومة المعتدين . أما رئاسة القافلة، فلا تعطى إلا للمعروفين بشجاعتهم وبقوتهم وببأسهم وبالحيل وبمعرفتهم للطرق ، ولأهل البيوتات والجاه العريض والسمعة بين القبائل . فرئيس القافلة وكبيرها ، هو دماغها المفكر وقلبها النابض ، وعلى حركاته وأعماله يتوقف مصير القافلة ومصير الأموال الثمينة التي توضع تحت يديه ، فإذا أظهر الرئيس جبناً أو عدم مقدرة في قيـادة القافلة وفي الدفاع عنها ، حين تعرضها للخطر ، فقد تقع فريسة سهلة بأيدي لصوص الطرق ، وتنتهب أموالها ، فتكون هذه النتيجة طامـة كبرى للمساهمين في أموال القافلة .

ولأهمية قادة القوافل المذكورة ، عملت لهم تماثيل لتخليد ذكراهم ، وكرموا في الكتابات . وقد عثر على عدد من هذه التماثيل والكتابات في مدينة (تدمر) . وحمل الكثير منهم ألقاب الشرف التي كانت لا تمنح إلا لمن يؤدي خدمات ممتازة للمدينة في ذلك العهد ، ووصل بعضهم الى درجة عضو في مجلس المدينة الحاكم . وقد نال بقية قادة القوافل مثل هذا الاحترام من أصحابهم . ولقب قائد القافلـة في الكتابات الجاهلية بـ (زعيم القافلة) وبـ (زعيم السوق)[1] .

حتى رؤساء الحكومات مثل كسرى وملوك الحيرة ، كانوا لا يسلمون زمـام قوافلهم إلا للأشداء المعروفين من الرجال . كانوا يتـاجرون في الأسواق يشترون

---

١ . Cooke, North — Semitic, pp. 274-279.

ويبيعون ، فإذا أقبل الموسم أرسلوا قافلتهم الى السوق برئاسة رجل مشهور معروف بالشجاعة لا يهاب الموت ليوصلها الى السوق المقصود أو المكان المراد وصول البضاعة اليه ، ذلك لأن مجال حكمهم أو نفوذهم ، لا يصل الى الأنحاء البعيدة، فاضطروا الى استئجار الشجعان المعروفين بقيادتهم للقوافل ، لحماية تجارتهم وأموالهم من اعتداءات المعتدين .

وتعتمد القوافل على الأدلاء الخبراء بطرق البوادي لإيصالها الى أهدافها بأمن وسلام وبأقصر الطرق،ولتجنيبها أخطار الأعداء وشر قطاع الطرق ، عند شعورها بوجود خطر عليها إذا ما سلكت الطريق العام ، أو طريقها الذي قررت السير به نحو المكان الذي تريده . فلما أبلغ جواسيس (أبو سفيان) أن النبي قد خرج يترصده نحو (بدر) ، أسرع فاستعان بالأدلاء فانحاز عن بدر ، وساحل ، وتخلص بعلم أدلائه وعلمه بالطرق من وقوعه ووقوع قافلته بأيدي المسلمين . والى الدليل والأدلاء أشير في قول الشاعر :

شدوا المطيّ على دليل دائب　　من أهل كاظمة بسيف الأبحر[1]

وقد استعان قادة الجيش وأمراء السرايا والغارات بالأدلاء أيضاً ، لإرشادهم الى المواضع التي كانوا يقصدونها، وكان الرسول يستعين بالأدلاء ، ويسأل الخبراء أصحاب العلم بطرق البادية حين يغزو ، أو حين يرسل سراياه على قوم . وفي غزوة (بئر معونة) كان (المطلب السلمي) دليلها على الطريق[2] .

ويذكر أهل الأخبار ، ان (قريش بن بدر بن يخلد بن النضر) ، كان دليل (بني كنانة) في تجارتهم ، فكان يقال : (قدمت عير قريش) ، فسميت قريش بذلك . وأبوه (بدر) صاحب (بدر) الموضع الذي لقي فيه رسول الله قريشاً[3] . فقريش بن بدر ، اذن هو على هذه الرواية ، هو أول دليل يصل الينا خبره من أدلاء قوافل قريش، وهو مؤسس تجارتها .

ولا بد للقوافل من منازل تنزل بها لتستريح ولتريح دوابها من التعب ولتتمون

١　تاج العروس (٣٢٥/٧) ، (دلل) .
٢　الاصابة (٤٠٥/٣) ، (رقم ٨٠٣٢) .
٣　كتاب نسب قريش (١٢) .

بالماء وبالزاد إن احتاجت اليه . ونظراً الى بطء الحيوان في سيره وعدم تمكنه من السير مسافات طويلة دون توقف وراحة ، كانت (منـــازل) ذلك الوقت غير متباعدة . ويقال للمكان الذي تنزل به القوافل : (المنزل) . والمنزل : المنهل والدار[1] ، وهو في معنى (الخان) ، و (الخان) لفظـــة معربة معناها المنزل والحانوت[2] . وقد اشتهرت اللفظة في الاسلام ، وأطلقت على منازل المسافرين في الطرق وفي القرى والمدن ، وتعني المنـــزل المخصص لنزول المسافر ، وهو منزل يكون كبيراً في الغالب ، يستريح فيه المسافر ، تاجر كان ، أو غير تاجر ، ويضع فيه مطاياه .

وأما (الفندق) ، فبمعنى المنزل الذي ينزل به التجار والمسافرون ، وهي من الألفاظ المعربة عن اليونانية من أصل Pandhokiyon[3] . وقد استعملها عرب بلاد الشأم . ويظهر انها من الألفاظ التي شاع استعمالها في الاسلام . وقد ذكر بعض علماء العربية ، ان الفندق بلغة أهل الشأم الخان والسبيل من هذه الخانات التي ينزلها الناس مما يكون في الطرق والمدائن ، وهو فارسي[4] .

ولم تكن منازل أهل الجاهلية منازل مبنية بالضرورة . فقد كان المسافرون يضربون لهم خياماً يأوون اليها ، أو يلجأون الى ظل مثل شجرة ، يحتمون به من أشعة الشمس ، وقد يفترشون الأرض وينامون جنب إبلهم ، وكل ما يلزم في المنزل أن يوجد به ماء . فالماء هو اكسير الحياة بالنسبة للمسافر ، وهـــو أهم لهم من الطعام ، فطعامهم في ذلك الوقت طعام قليل بسيط ، تمرات مع لبن ، أو سويق ، وما شاكل ذلك ، ثم هم لا يأكلون كثيراً ولا يقيمون لوجبات الطعـــام وزناً ، وقد يكتفي أحـــدهم بأكلة واحدة من هذه الأكلات الجافة التي يحملها ، وقد يقتاتون بما يجدونه من نابت في طريقهم من ثمر شجر بري أو بقل أو أعشاب ، ولهذا ، صارت المنازل على مواضع الماء .

ولم تكن الأبعاد بين هذه المنازل متساوية ، بل كانت مختلفة ، تتوقف أبعادها على الماء . فإذا وجد الماء في مواضع متقاربة ، قامت عليها مستوطنات متقاربة ،

---

١ تاج العروس (٨/١٣٤) ، (نزل) .
٢ تاج العروس (٩/١٩٤) ، (خان) .
٣ غرائب اللغة (٢٦٣) .
٤ تاج العروس (٧/٥١) ، (الفندق) .

وصارت المسافات فيما بينها غير بعيدة ، وإذا كان الماء بعيداً ، صارت المنازل متباعدة ، وقد لا يهم الماء القوافل إذا كانت مزودة به ، وكل ما تلاحظه في سفرها هو تعب الانسان ومقدار تحمل دابته مشقة السفر والبعد ، ولهذا كانوا يقطعون طرقهم بمراحل ، و (المرحلة) المنزل بين المنزلين ، يقال بيني وبين كذا مرحلة أو مرحلتان[1] . فهم يقطعون طرقهم على قدر طاقتهم ومقدار تحمل إبلهم على السير . وقد علمتهم تجاربهم مقدار ما يقطعون ، فإذا شعروا بالتعب وبتعب دوابهم ، نزلوا منزلاً ، قد يكون مأهولاً به ماء ، وقد يكون خالياً في عراء ، للاستراحة به ، فإذا ارتاحوا استمروا في سيرهم نحو جهتهم المقصودة .

و (الفرسخ) في تفسير علماء العربية الراحة ، و (فرسخ) الطريق هو ثلاثة أميال هاشمية ، أو ستة ، أو اثنا عشر آلف ذراع ، أو عشرة آلاف ذراع ، سمي بذلك لأن صاحبه اذا مشى قعد واستراح من ذلك ، كأنه سكن . واللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية . وقيل : الفرسخ الساعة من النهار[2] .

و (الميل) مقياس تقاس به الأبعاد ، يقال قطع كذا ميلاً . وهو منار يبنى للمسافر في أنشاز الأرض ، ومنه الأميال التي في طريق مكة ، وهي الأعلام المبنية لهداية المسافرين[3] .

ونظراً الى وجود إمارات وعشائر وقبائل عديدة تمرّ بأرضها القوافل ، فقد كان على أصحاب القوافل وأرباب المال إرضاء هؤلاء المتنفذين بإعطاء إتاوات مرور لهم ، وهدايا لحمايتهم وللسماح لهم بالمرور ، على نحو ما تفعله حكومات هذا اليوم من استيفاء حق المرور (ترانزيت) (ترانست) عن التجارة والسيارات . فإذا تحرش بهم متحرش ، وحاول قطّاع الطرق الاعتداء عليهم ، كان من واجب سيد القبيلة والرئيس المتنفذ في تلك الأرض تعقب المعتدين وتأديبهم وإعادة ما استولوا عليه الى أصحابه . وبهذه الطريقة أمنت القوافل على أموالها ،وأخذت تقطع البوادي والطرق البعيدة الطويلة ، وهي في حمى هؤلاء المتنفذين .

---

١ تاج العروس (٣٤١/٧ وما بعدها) ، (رحل) .
٢ تاج العروس (٢٧٢/٢) ، (الفرسخ) .
٣ تاج العروس (١٢٣/٨) ، (ميل) .

وقد كان الملوك وسادات القبائل والمتنفذون الذين تمر قوافل التجارة بمناطق نفوذهم ، أو الـذين تقع الأسواق في أرضهم أو في مناطق نفوذهم ، يشتطون في الإتاوة ، ويشتدون في جباية المكس ، ويبالغون في رفع حق المرور والحقوق الأخرى المكتسبة بالعرف والعادة أو بقانون القوة والكيف ، فيؤذون بذلك التجار والتجارة ويضطرون التجار الى رفع أسعار البيع ، للحصول على أرباح لهم ، فتضررت التجارة بذلك ضرراً كبيراً ، وقلّ الاقبال على شراء السلع المستوردة من جزيرة العرب إلا ما كان ضرورياً ، ولا مناص من شرائها ، وارتفع على المشتري سعر المواد المستوردة ، واضطر التجار الى التحكم في أسعار الشراء من الأسواق المحلية في جزيرة العرب ، بشرائها بأسعار متهاودة لضمان تصريفها في الأسواق الخارجية وفي كل هذه الأحوال ضرر عام للبائع وللمشتري وللمستهلك وللاقتصاد العربي بوجه عام .

وقد كانت القوافل تقصد الأماكن التي تريد البيع والشراء فيها في مواسم معينة في الغالب ، وذلك لاجتماع التجار فيها ، وهذا مما يهيء للتاجر أكبر عدد ممكن من التجار ، كما كان التجار يقصدون الأسواق المؤقتة التي تقام في الأعياد وفي المناسبات الدينية لبيع ما عندهم من بضاعة ولشراء ما يأتي به الناس من أموال ، ولم يكن ذلك خاصاً بجزيرة العرب ، فقد كان العبرانيون وغيرهم من بقية الشعوب السامية يفعلونه أيضاً . ونرى ان الأسواق التي كانت تقام في جزيرة العرب ، كانت تقام في مواسم معينة تقع في الأشهر الحرم ، وذلك لضمان مرور التجار بأمان ، فلا يتحرش بهم إلا مستهتر طريد، والغالب ان سادات القبائل التي تحرش المستهترون بالقافلة التي مرّت بأرضهم ينتقمون بأنفسهم منهم .

وقد كان الجاهليون يضعون أعلاماً على الطريق ليهتدي بها، يقال لها (الصُّوى) و (الثوة) . ويقول علماء اللغة إن الصُّوى : الأعلام المنصوبة من الحجارة في المفازة المجهولة يستدل بها على الطرق . والثوة كالصُّوة ، وربما نصبت فوقها الحجارة ليهتدى بها ، وإن العوة كالصوة التي هي العلم . وفي الحديث : « ان للاسلام صُوى ومناراً كمنار الطريق »[1] وذكر أنَ (الصُوة) ، حجر يكون علامة في الطريق[2] .

---

١ المخصص (١٠/٨١) ، اللسان (١٤/١٢٧) ، « صادر » .
٢ تاج العروس (١٠/٢١٥) ، (الصوة) .

وذكر أن (الثوة) حجارة ترفع فتكون علماً بالليل للراعي اذا رجع ، وأخفض علم يكون بقدر قعدتك ، وارتفاع وغلظ وربما نصبت فوقها الحجارة ليهتدى بها[1].

والمنار : العلم يجعل للطريق أو الحدّ للأرضين والعلامة التي توضع على الحدود لتوضح معالمها [2] . وقد كان أهل العربية الجنوبية يضعون علامات على الطرق لتشير الى معالمها ، فلا يضل عنها من يسلكها من الرجال والقوافل . وقيل في الإسلام للأعلام المبنية في طريق مكة أميال لأنها بنيت على مقادير مدى البصر من الميل الى الميل ، وكل ثلاثة أميال منها فرسخ[3] . والمنار محجة الطريق ، قال الشاعر :

لعلك في مناسمها منار الى عدنان واضحة السبيل[4]

والعلامة ، شيء منصوب في الطريق يهتدى به . ويقال لما يبنى في جوادّ الطريق من المنازل يستدل بها على الأرض أعلام . والأعلام الحدود . والمعلم ، ما يستدل به على الطريق من الأثر[5] . فقد كان من الصعب حتى على خبراء البادية الاهتداء الى الطرق بدون وضع علامات تشير اليها .

والنعامة المفازة ، وقيل علم من أعلام المفاوز يهتدى به[6] . و (المنقل) ، الثنية في الجبل وكل طريق في الجبل نقيل ، في لغة أهل اليمن[7] .

والآجام علامات وأبنية يهتدى بها في الصحاري . و (الوجم) ، حجارة مركومة بعضها فوق بعض على رؤوس القور والآكام ، وهي أغلظ وأطول في السماء من الأروم . وحجارتها عظام ، لا يحركها الانسان ولو اجتمع جمع منهم بصعوبة ، ينسبها الناس الى صنعة عاد[8] . و (الآرام) الأعلام تنصب في المفاوز

---

١ تاج العروس (١٠/٦٤) ، (ثوى) .
٢ اللسان (٥/٢٤٠ وما بعدها) .
٣ اللسان (١١/٦٣٩) .
٤ تاج العروس (٣/٥٨٨) ، (نور) .
٥ تاج العروس (٨/٤٠٦) ، (علم) .
٦ تاج العروس (٩/٧٩) ، (نعم) .
٧ تاج العروس (٨/١٤٥) ، (نقل) .
٨ قال رؤبة :

وهامة كالصمد بين الاصماد أو وجم العادي بين الاجماد

تاج العروس (٩/٨٩) ، (وجم) .

يهتدى بها ، أو خاص بعاد ، أي بأعلامهم ، و (الأروم) الأعلام في المفاوز. وكان من عادة الجاهلية ، انهم اذا وجدوا شيئاً في طريقهم لا يمكنهم استصحابه تركوا عليه حجارة يعرفونه بها حتى اذا عادوا أخذوه . وقيل قبور عاد[1] .

وقد كان الجاهليون قد مهدوا الطرق وكسوا بعضها بمادة قوية مثل (الاسمنت) ووضعوا عليها العلامات . وقد أطلق العرب لفظة (العود) على الطريق القديم العادي[2] .

وسن الطريق سناً اذا ساره ، ويقال ترك سنن الطريق ، أي جهته[3] . وقد كان القادة يتنكبون عن سنن الطريق ، ليباغتوا العدو ، أو ليتجنبوا تعقبهم لهم.

وقد كان لرؤساء القوافل علم بالأبعاد والمسافات وبالأماكن التي يجب النزول بها والتمون منها بالماء والطعام . ونجد في كتب أهل الأخبار أخباراً بأسماء منازل القوافل وبأبعادها وقد استقيت من أفواه رجال القوافل في الجاهلية . كما نجد ان للأعراب دراية مدهشة بمواضع الماء وبالطرق مع مرورها في بوادي يصعب السير فيها ، وقد ورثوا علمهم هذا عن أسلافهم ومن تجاربهم الخاصة التي تعلموها من كثرة أسفارهم وتنقلاتهم .

وقد كان التجار وأصحاب القوافل يقطعون أسفارهم بمراحل ، ينزلون في كل مرحلة بمنزل يستريحون فيه ويموّنون أنفسهم بما يحتاجون اليه من ماء وزاد. ويعبرون عن المسافات التي تقطعها القافلة بين منزل ومنزل آخر بـ (مسيرة) ، فيقولون (مسيرة يوم) أو (مسيرة نهار) وما شابه ذلك . كما عرفوا الأبعاد بالفرسخ والميل[4]. و (النزل) المنزل ، وما هيء للضيف ان ينزل عليه . ومنه منازل الطريق[5] .

وتراعى القوافل في سيرها الى أهدافها الأخذ بأقصر الطرق الآمنة المطمئنة التي تتوفر فيها المياه ، وقد تعدل من سيرها فتسلك طرقاً بعيدة أو وعرة إذا أحست بعدو يتربص لها في الطريق المسلوك ، أو بلصوص ظهروا فيها ، أو بقوم يريدون الاستيلاء على قافلتهم ، كالذي فعله (أبو سفيان) مقفله من الشأم يريد مكة ،

---

١ تاج العروس (١٨٤/٨) ، (ارم) .
٢ تاج العروس (٤٣٧/٢) ، (عود) .
٣ تاج العروس (٢٤٢/٩ وما بعدها) ، (سن) .
٤ اللسان (٦٣٩/١١) ، « صادر » .
٥ تاج العروس (١٢٣/٨) ، (نزل) .

حيث بدل طريقه ، فحوّله عن (بدر) ، وساحـــل ، فأضاع بذلك الفرصة على المسلمين ووصل سالماً بقافلته الى مكة .

قوافل الميرة :

وقد يجتمع نفر للذهاب الى سوق للامتيار منه ، وقد يذهب أصحاب البيوت الى الأسواق ليمير أهله بما يحتاجون اليه من طعام ولباس ، وكان (الأعشى) المازني الشاعر في جملة من يمتار من سوق (هجر) . وقـــد خرج مرة يمتار في شهر (رجب) ، من (هجر) فهربت امرأته بعده ناشزة عليه ، فعاذت برجل منهم يقال له (مطرف بن نهصل) ، فلما قدم الأعشى أخبر أنها نشزت، وأنها عاذت بـ (مطرف) فأتاه ، فقال له : يا ابن عم عندك امرأتي معـــاذة فادفعها اليّ فامتنع مطرف ، وكان أعزّ منه ، فخرج حتى أتى النبي فعـــاذ به وأنشده شعراً ، فكتب الرسول الى (مطرف) أن يدفع زوجة الأعشى اليه ، فدفعها اليه[1] .

وقد استغل بعض الناس هذه الطرق للتعيش منها ، فعمل على حفر آبار بها ، وعلى تهيئة ما يمكن تهيئته من وسائل الراحة للمسافرين،لينزلوا بها وليخففوا بذلك عنهم عناء السفر . وليتزودوا بالماء الطيب العذب . فنشأت عشرات المنازل ، التي أراحت المسافرين وأصحاب القوافل،وجعلتهم في مأمن من الجوع والعطش وإمكانية التيه في البوادي والقفار . كما حفظت لهم حياتهم وأموالهم بضمان أصحاب تلك المنازل للمسافرين حياتهم وأموالهم من تحرش أحد بهم ما داموا في جوارهم وفي حماهم ، وضمان قبائلهم لهم حق الحماية والجوار ، والقيام معهم بمعاقبة من يتطاول على المسافرين وينتهك حرمة الجوار .

وقد صارت الطـــرق مورداً من موارد العيش لمن لا عيش له ولا رزق من الصعاليك والذؤبان . فتجمعوا ، وكوّنوا عصابات أخذت تتربص بالقوافل ، حتى اذا جاءت قافلة انقضت عليها وسلبتها ، ثم فرت بما غنمته الى مواضع نائية قصية

---

١ الاصابة (٢/٢٦٧) ، (رقم ٤٥٣٥) ، الاستيعاب (٢/٢٥٦) ، (حاشية عـــلى الاصابة) .

بعيدة عن أي حكم ، لتعيش على ما غنمته . وقـد عرف هؤلاء بـ (لصوص الطرق) . وكان المطرود من قبيلته ومن غضب أهله عليـه فنفوه عنهم وتبرأوا منه ، والعبيـد الآبقون ، يتجمعون في المواضع الحصينة ، وفي المراقي الصعبة التي تشرف على الطرق ، ويهاجمون منها المارة والسابلة والقوافل . ولما ظهر الاسلام، كان قوم من هؤلاء جماعهم من كنانة ، ومزينة ، والحكم ، والقارة ، ومن اتبعهم من العبيد ، قد اعتصموا في (جبل تهامة) ، وآذوا الناس ، فكتب لهم رسول الله ، انهم إن آمنوا وأسلموا ، فعبدهم حر ، ومن كان منهم من قبيلة لم يرد اليها ، وما كان فيهم من دم أصابوه ، أو مال أخذوه ، فهو لهم ، وما كان لهم من دين في الناس رد اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان[1] .

---

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٨/١) .

الفصل الثالث بعد المئة

طرق الجاهليين

لا أملك نصاً جاهلياً فيه أخبار عن الطرق التي كان يسلكها الجاهليون في تنقلاتهم من مكان الى مكان ، لأغراض خاصة ، أو للرعي أو للاتجار ، وما سأذكره عن الطرق مأخوذ من الموارد الإسلامية فقط . وهي موارد تعرضت لموضوع (المسالك) والطرق التي كان يسلكها الحجاج والمسافرون والتجار في أيام الخلافة ، داخل أرض الخلافة وخارجها . وعلى رأس هذه الموارد كتب (المسالك والممالك) ، وبقية كتب (الجغرافيا) والسياحات ووصف جزيرة العرب ففي هذه الموارد وصف للمسالك والطرق ولسكك البريد التي كانت في بلاد العرب وهي وإن كانت طرقاً إسلامية ، إلا أنها بنيت على الطرق الجاهلية القديمة في الأغلب،وما فعله المسلمون ، هو أنهم اختصروا بعضاً منها ، أو أقاموا مستوطنات جديدة عليها ، أو حفروا آباراً بين منازلها التي كانت متباعدة ، بدليل أن المنازل والمواضع الجاهلية التي ترد أسماؤها في الشعر الجاهلي ترد كذلك في وصف الإسلاميين لطرق جزيرة العرب على النحو الوارد في ذلك الشعر ، أو في أخبار أيام العرب أو في كتب السير والتواريخ .

ولهذا فسيكون اعتمادي في وصف طرق القوافل عند أهل الجاهلية ، على هذه الموارد الاسلامية ، مع العلم بأن بعض المسالك الجاهلية ، قد ماتت وذهب أثرها، وان بعضاً منها بقي على حاله ، وان بعضاً من الطرق المسلوكة في الوقت الحاضر، والتي مهدت وعمرت تعميراً حديثاً بالوسائل الفنية المعروفة في هذا اليوم،هي طرق

جاهلية قديمة ، كانت مسلوكة قبل الاسلام . وهي طرق طبيعية كانت مسلوكة لوجود الماء فيها في مواضع متقاربة ، وقد أقيمت عندها مستوطنات ، وبقيت على حالها ، لم تذهب فائدتها ، ولم تتغير مواضع الاستيطان فيها ، لذلك صارت السبل التي تسلك بين أجزاء جزيرة العرب الى هذا اليوم .

ومما يؤسف له كثيراً ، هو ان الموارد الاسلاميـة التي تحدثت عن غزوات الرسول وسراياه وعن الوفود التي قصدته من مختلف أنحاء جزيرة العرب ، والعمال والرسل الذين أرسلهم الرسول الى سادات القبائل أو لجمع الصدقات ، ثم عن حروب الردة وعن عمال الخلفاء على أقاليم جزيرة العرب،سكتت عن ذكر الطرق التي سلكت والمنازل التي نزلت ، ولم تفصل في ذكر المنازل والمراحل، فأضاعت علينا بذلك معرفة الطرق الجاهليـة التي كان يسلكهـا الجاهليون في تجاراتهم وفي أسفارهم ، ثم ان الذين بحثوا في الاسلام عن المسالك والطرق ، وذكروا المنازل مع أبعادها بالأميال أو بالفراسخ ، أو بالمراحـل ، لم يهتموا بالاشارة الى ذكر تواريخ هذه الطرق أو المنازل والى أصلها ، هل هي جاهلية أم هي اسلامية ، أم معدلة ، ولمثل هذه الملاحظات التي أهملوها أهمية كبيرة بالنسبة للبحث بالطبع.

وسأبدأ بالطرق التي سلكها أهل الجاهلية فيما بين العراق وبـلاد الشأم . وقد كان منهم من يحاذي الفرات ، حتى لا يبتعد عن الماء والغذاء وأهل الحضر ، ثم يسلك الطرق الشمالية التي مهدها الروم ، لدخول بلاد الشأم ، وهي في أيدي الروم في الغالب ، غير ان الفرس استولوا عليها في بعض الأحايين ، ونظراً الى ما لهذه الطرق من الأهمية من الناحية الاقتصادية والعسكرية ، فقد تشدد الروم في مراقبة القوافل التي تقصد بلاد الشأم ، أو تخرج منها للذهاب الى العراق،وتصعبوا في السماح لها وللتجار بالمرور .

ومن التجار من كان يخرج من الحيرة الى بلاد الشأم،فيسلك طريق (القطقطانة) ، وهو موضع سبق أن تحدثت عنـه في أثناء كلامي على نهاية الملك (النعمان بن المنذر) ، إذ جاء في رواية أن (كسرى) أمر به فسجن بـه . وهو موضع غير بعيد عن الكوفة من جهة البرية بالطف[1] . ثم يسلك الطريق الى (البقعة) ،

---

١ البلدان (١٢٥/٧) ، الاغاني (٢٨/٢) ، تـاج العروس (٢٠٩/٥) ، (قطط) ، المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام (٢٦٨/٣) .

ثم الى (الأبيض) ، ثم الى (الحوشي) ، ثم الى (الجمع) ، ثم الى (الخطى) ، ثم الى (الجبة) ، ثم الى (القلوفي) ، ثم الى (الأعناك) ، ثم الى (أذرعات) ، ثم الى (دمشق)[1] .

وطريق آخر سلكه الناس من العراق الى بلاد الشأم يبدأ من (عين التمر) ، وهو موضع تحدثت عنه في مواضع من هذا الكتاب ، ويتجه نحو (الأخدمية) ، ثم الى (الخفية) ، ثم الى (الخلط) ، ثم الى (سوى) ، ثم الى (الأجيفر) ، ثم الى (الغربة) ، ثم الى (بصرى)[2] .

وقد سبق لي أن تحدثت عن بصرى في مواضع من هذا الكتاب . وهي المدينة التي وصل اليها الرسول مع عمه (أبي طالب) ، وبها كان (بحيرا) الراهب على ما جاء في كتب السير ،واليها كان يقصد تجار مكة ، حيث يتاجرون بأسواقها. وبها قبر (بحيرا) ، وهو يزار[3] .

وأما طرق العربية الشرقية مع العراق ، فقد كان من الجاهليين من يسلك الطرق المائية فيتجه نحو سواحل الخليج عن طريق الأبلة ، فيحاذي الساحل ، ومنهم من كان يتجه الى الشرق نحو جزر الخليج ، ثم يتجه منها الى ساحل (عمان) ، ومنهم من كان يسلك طرق البر . وقد ذكر (ابن خرداذبه) ، ان الطريق من البصرة الى عمان على الساحل ، يمر الى (عبادان) ، ثم الى (الحدوثة) ، ثم الى (عرفجا) ، ثم الى (الزابوقة) ، ثم الى (المقر) ، ثم الى (عصى) ، ثم الى (المعرس) ، ثم الى (خليجة) ، ثم الى (حسان) ، ثم الى (القرى) (القرنتين) ، ثم الى (مسيلحة) (مسلحة) ، ثم الى (حمض) ، ثم الى ساحل (هجر) ، ثم الى (العقير) ، ثم الى (قطر) ، ثم الى (السبخة) ، ثم الى (عمان)[4] .

ومن الطرق المهمة التي تربط اليمامة بجنوب العراق ، طريق يأخذ من الأبلة (البصرة) ، ثم يتجه نحو (كاظمة) ، ثم الى منازل ثلاثة لم يذكر أسماءها (ابن خرداذبه) ، ثم الى (القرعاء) ، ثم الى (طخفة) ، ثم الى (الصمّان) ،

---

١ ابن خرداذبه ، المسالك والممالك (٩٩) ، (وسيكون رمزه : المسالك) .
٢ المسالك (٩٧) .
٣ صبح الأعشى (١٠٨/٤) .
٤ المسالك (٦٠) ، قرامة (١٩٣) ، صبح الاعشى (٥٧/٥) .

ثم منازل ثلاثة لم يشر الى اسمها (ابن خرداذبه) ، ومنها الى (جب التراب) ، ثم الى منزلين آخرين ، ومنها الى (سليمـة) ، ثم الى (النباك) ، ومنه الى (اليمامة)[1] . ويتفق وصف هذا الطريق ، وأسماء المواضع مع ما ذكره (قدامة بن جعفر) في كتابه (الخراج) سوى ان (ابن خرداذبه) ، يبدأ بالبصرة ، ثم ينتهي باليمامة ، أما (قدامة) ، فيبدأ باليمامة وينتهي بالبصرة .

ونجد في كتاب بلاد العرب ، للحسن بن عبدالله الاصفهاني وصفاً لطريق آخر يتجه من (حجر) اليمامة حتى ينتهي بالبصرة ، ذكر فيه أسماء المواضع ووصف الأرض والمياه ، وينتهي طريقه بـ (سفوان) ، (صفوان) ، المعروف اليوم في العراق . وقد ذكر (كاظمة) ، وذكر أنها على ساحل البحر ، وبها حصن وتجار ودور مبنية ، ثم ذكر أسماء مواضع تقع بينها وبين (سفوان)[2] . ولما كانت البصرة اسلامية ، بنيت في زمن (عمر) ، فإن الجاهليين ، كانوا يسافرون من (الأبلة) التي حلت البصرة محلها الى جزيرة العرب .

ويبدأ هذا الطريق بالحرمليّة ، وهو ماءة في قف في شُعبة عليه نخلات ، ثم تركب القف ، فتأخذ على وادٍ يقال له (ذو جراف) ، فتجزعه عرضاً ، ثم تنتهي الى (المديدان) ، ثم تجّزع (الحرملية) ثم وادي (بنبان) حتى تصل (سويس) ، ثم (البديع) ، ثم (الطنب) ، ثم (الجرداء) ، وهي روضة تشرب من وادي جراف . ثم (الراح) . فإذا جزته وقعت في العرمـة ، ثم تخترق وادي حرج حتى تنتهي الى (الجرباء) وعلى يسار الجرباء في العرمة ماء يقال له (الرداع) ، فإذا فصلت من العرمة من حبال الجرباء صرت الى وادٍ يقال له (مجمع الأودية) ثم تصير الى (ذات الرّتال) ، ثم تنتهي الى (الحفر) ، حفر سعد ، ثم تفوز الى (الدهناء) ، فتصل (خشاخِش) فتقع في معبر ، فتعبر جبال الدهناء ، فتصل الى أبرق يقال له (القنفذ) ، ثم تستقبل(الصمان) ، فتمضي فيه حتى تنتهي الى (المعا) ، ثم ترد (طويلعا) ، وهو وسط الطريق بين حجر وبين البصرة . وهو موضع فيه ماء وفيه تجار ، وحصن يتحصنون به من اللصوص[3] .

---

١ المسالك (١٥١) ، كتاب الخراج ، لقدامة (١٩٣) ، (نبذ طبعت مع المسالك) .
٢ بلاد العرب (٣٠١ـ٣٢٤) .
٣ بلاد العرب (٣٠١ـ٣١٤) .

ثم تجوز (طويلعاً) الى وادٍ يقال له (الشيط) ، فإذا انحدرت من عقبة الشيط تأتي (الوريعة) ، فإذا جزته ، تأتي (الدوّ) . فإذا فصلت في (الدو) صرت الى (كفة العرفج) ، وفي منقطع (الدو) حين تجوزه وادٍ يقال له (وادي السيّدان) ، وعلى الطريق ماء (النحيحة) ، تخرج منه الى (تياس)، وقريب منه ثمد يقال له (الفارسي) ، ثم تجوز ثماد أخرى حتى تصل (المخارم)، فتهبط (كاظمة) . ثم تخرج من (كاظمة) الى (النجفة) ، ثم تمضي الى (الصليف) (الصليب) ، ثم تهبط الى (أيرمى) (أيرمى الركبان)، وهو علم مبني من حجارة للطريق ، وهو شبه شخص إنسان . ثم تصل (الحزيز) ، ثم تهبط (سفوان) ، ثم تخرج حتى تهبط (الأحواض) ، وهو ماء للسانية، ثم تصل البصرة[1] .

وهناك طريق يوصل (حجراً) بالكوفة ، يبدأ بالحبل ، وهو ماء في ناحية القف ، لراعية اليمامة ، ثم تخرج منه فترد القف ، ثم تمضي حتى ترد (البالدية)، فإذا خرجت منها وردت ماءً يقال له (الغميم) ، ثم ترد وادياً يقال له (العتك)، ثم (مبايض) ، ثم تجوزه الى (تعشار) ، ف (موبهة) ، ثم (تلعة) ، ثم (السقيا) ، ثم تجوز الدهناء ، فتعلو قفاً يوصلك الى (المجازة) وهي من طريق مكة الذي يأخذ عليه البصريون ، عليه المنار من بطن فلج . وهي منهل ، ثم تجوزها فتقع في (اللوى) ثم تصير الى (لينة) ، وهي ماءة كبيرة ، ثم تسير فترد (زبالة) ، وهي سوق من أسواق طريق الكوفة المؤدي الى مكة . فإذا خرجت من (زبالة) وردت (القاع) ، ثم تخرج منه الى (العقبة) ثم ترد (الشقوق) ، ثم (واقصة) ، ثم (العذيب)[2] .

ويذكر علماء اللغة ان العرب أطلقت (القعقاع) على الطريق من اليمامة الى الكوفة ، وذكر بعضهم الى مكة[3] .

وكان بين أهل (الحيرة) وبين أهل مكة اتصال تجاري وثيق ، بل واتصال ثقافي أيضاً ، فمنها حمل الخط العربي الى مكة على رواية أهل الأخبار . وكان

---

١ بلاد العرب (٣٠١-٣٢٤) .
٢ بلاد العرب (٣٢٧-٣٣٥) .
٣ تاج العروس (٤٧٧/٥) ، (قع) .

التجار يرحلون منها الى (القادسية) ، وهو موضع معروف سبق ان تحدثت عنه ، وبه كانت وقعة القادسية [1] . ومنه الى (العذيب) ، وهو مسلحة بين العرب وفارس في حد البرية ، وبها حائطان متصلان من القادسية الى العذيب ومن الجانبين كليهما نخل [2] ، وبالعذيب أحساء ، غزير الماء ، يخرج الماء خريراً من قوة اندفاعه على ما يفهم من شعر ورد على لسان بعض الضبيين [3] . ويخرج الانسان من العذيب فيدخل المفازة ، ويكون بنجد حتى يبلغ موضع (ذات عرق) [4] . والعذيب بين القادسية ومغيثة ، وفي الحديث ذكر العذيب . وهو ماء لبني تميم . وهو طرف أرض العرب [5] .

ويتجه الطريق من (العذيب) الى المغيثة ، وفيها برك [6] . وماؤها ماء السماء ، ثم يتجه الى (وادي السباع) ، ثم الى (القرعاء) [7] ، وفيه آبار ، ثم الى (واقصة) [8] ، ثم الى (العقبة) ، وبها آبار [9] ، ثم الى (القاع) ، ومن (القاع) الى (زبالة) ، ومن (زبالة) الى (الشقوق) ، ومن (الشقوق) الى (البطان) ، وهو قبر العبادي [10] : ثم الى (الثعلبية) ، وهو ثلث الطريق

---

١ المحبر (١٤ ، ٢٦١ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢) ٠

٢ المسالك (١٨٥) ، بلاد العرب (٣٣٤ ، ٣٣٧) ، تاج العروس (١/ ٣٧٠) ، (عذب) ، المفصل (٤/٢٢٥ وما بعدها) ٠

٣ المحبر (٢٤٨) ٠

٤ المسالك (١٢٥) ٠

٥ تاج العروس (١/ ٣٧٠) ، (عذب) ٠

٦ المسالك (١٢٥ـ١٢٨) ، قدامة (١٨٦) ، بلاد العرب (٣٣٥) ٠

٧ المسالك (١٢٦) ، قدامة (١٨٦) ، بلاد العرب (٢٩٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥) ، تاج العروس (٥/٤٦٣) ، (قرع) ٠

٨ المسالك (١٢٦) ، قدامة (١٨٦) ، بلاد العرب (٣٣٤،٣٣٥) ، تاج العروس (٤/٤٤٥) ، (وقص) ٠

٩ المسالك (١٢٦) ، قدامة (١٨٦) بلاد العرب (٣٣٤،٣٣٥) ٠

١٠ « البطان » ، « البطانية » ، ابن رسته ، الاعلاق (١٧٥) ، المسالك (١٢٦) ، قدامة (١٨٦) ، وبطان بين الشقوق والثعلبية في طريق الكوفة ٠ وأنشد نصر :

أقول لصاحبي من التآسي ... وقد بلغت نفوسهم الحلوقا
اذا بلغ المطي بنا بطانا ... وجزنا الثعلبية والشقوقا
وخلفنا زبالة ثم رحنا ... فقد وأبيك خلفنا الطريقا

تاج العروس (٩/١٤٢) ، (بطن) ٠

فيها برك[1] ، ثم الى (الخزيمية) ، وهي مدينة سميت (خزيمة) لأن خزيمة صيّر فيها سواني ، وكانت تسمى (زرود)[2] ، ثم الى (الأجفر)[3] ، ثم الى (فيد) ، وهي نصف الطريق ، وبها منزل العامل في الاسلام . وبها أسواق وقناة وزروع ، وبرك وآبار وعيون جارية ، وقد عظم شأنها في الاسلام ، ذكر أن بها حصناً ، عليه باب حديد وعليها سور دائر ، وكان الحجاج يودعون فيها فواضل أزوادهم الى حين رجوعهم وما ثقل من أمتعتهم ، وهي قرب (أجأ) و (سلمى) جبلي طيء . وقد ذكرت في شعر (زهير بن أبي سلمى) ، إذ قال :

ثم استمروا وقالوا إن مشربكم ماء بشرقيّ سلمى فيد أو ركك[4]

وتقع في فلاة في الأرض بين أسد وطيء ، اقطعها الرسول الى (زيد الخيل)[5].

ثم الى (توز) ، فيها برك وآبار وحصن بناه (أبو دلف)[6] . ثم الى (سميراء)[7] ، ثم الحاجر[8] . فمعدن القرشي ، وهو (معدن النقرة)[9] . وعنده تفترق الطريق ، فمن أراد مكة نزل (المغيثة) ، ومن أراد (المدينة) أخذ نحو العسيلة فهبطها . وهو منزل حاج العراق بين (اضاخ) و (ماوان) . وفيه بركة وثلاثة آبار ، بئر تعرف بالمهدي ، وبئران تعرفان بالرشيد وآبار صغار للأعراب تنزح عند كثرة الناس وماؤهن عذب[10] .

فمن أخذ على المدينة ، فمن المعدن الى العسيلة ، ثم الى بطن نخل ، ثم الى

---

١ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) ، « الثعلبية بطريق بكة حرسها الله تعالى على جادتها من الكوفة حتى منازل أسد بن خزيمة » ، تاج (١/١٦٥) ، (ثعلب) .

٢ قدامة (١٨٦) ، المسالك (١٢٧) ، (والخزيمية ، منزلة للحاج بين الاجفر والثعلبية) تاج العروس (٨/٢٧٥) ، (خزم) .

٣ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) ، تاج العروس (٣/١٠٦) ، (جفر) .

٤ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) .

٥ تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فيد) .

٦ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) ، تاج العروس (٤/١٢) ، (توز) .

٧ يا رب جار لك بالحزيز بين سميراء وبين توز
تاج العروس (٣/٢٧٨) ، (سمر) .

٨ تاج العروس (٣/١٢٦) ، (حجر) .

٩ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) .

١٠ تاج العروس (٣/٥٨٢) ، (نقر) .

الطرق ، ثم الى المدينة [١] . وهي (يثرب) . وذكر بعض أهل الأخبار ان (مرزبان البادية) كان قد عيّن على المدينة في الجاهلية عاملاً يجبي خراجها ، وكانت قريظة والنضير ملوكاً ملكوها على المدينة على الأوس والخزرج ، وفي ذلك يقول شاعر الأنصار :

تؤدي الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والنضير [٢]

ومن المدينة الى (السيالة) ، ومنها الى (الروحاء) ، ثم الى (الرويثة) ، ومنها الى (العرج) ، ثم الى (السقيا) ، ثم الى (الأبواء) ، ثم (الجحفة) ، ثم الى (قديد) ، ثم الى (عسفان) ، ثم الى (مر الظهران) ، ثم الى مكة [٣] .

ومن أراد (مكة) قصد (مغيثة الماوان) [٤] ، ومن (مغيثة) الى (الربذة) وماؤها كثير . واليها هاجر (أبو ذر) الغفاري ، وبها مدفنه . وقد خربت سنة (٣١٩) للهجرة بالقرامطة [٥] . ومن الربذة الى معدن بني سليم ، ومن معدن بني سليم الى العمق ، ومنه الى (أفاعية) [٦] (الأفيعية) الى (المسلح) ، ثم الى (الغمرة) ، ومنه يعدل الى اليمن ، ومن الغمرة الى (ذات عرق) ، ومنه يقع الاحرام [٧] ، ثم الى (أوطاس) ، ثم الى بستان بني عامر (بستان ابن عامر) ، ثم غمر ذي كندة ، ثم مشاش ، ثم مكة [٨] .

ويلاحظ أن هذا الطريق هو من أقصر الطرق المؤدية من (الحيرة) الى (المدينة) ، وهو يمر بجبلي (طيء) ، أي (جبل شمر) في الوقت الحاضر . ويمر على (حائل) بجبلي طيء ، وهو مدينة في الوقت الحاضر ورد ذكرها في شعر (امرىء القيس) إذ يقول :

---

١ المسالك (١٢٨) ، قدامة (١٨٧) .
٢ المسالك (١٢٨) .
٣ الصفة (١٨٤ وما بعدها) .
٤ قدامة (١٨٦) ، (بين معدن النقرة والعمق عند ماوان) ، تاج العروس (١/٦٣٧) ، (غوث) .
٥ تاج العروس (٢/٥٦٢) ، (ربذ) .
٦ تاج العروس (١٠/٢٨٢) ، (فعا) .
٧ قدامة (١٨٦) .
٨ المسالك (١٣٢) .

يا دار ماوية بالحائــل فالفرد فالجبتين من عاقل[1]

وبجبل (سلمى) مدينة اسمها (أُرك) ، عرفت بمدينة (سلمى) ، وأصحابها من (طيء) : وقد انحاز اليها (خالد بن الوليد) ، لما أرسله (أبـو بكر) من (ذي القصـــة) لمحاربة المرتدين[2] . وقد نزل (خالد) بأجأ ، ثم تعبأ لملاقاة (طليحة الأسدي) ، فالتقى به على (بزاخة)[3] .

ويسلك هذا الطريق في الوقت الحاضر الحجاج الذين يقصدون الحج عن طريق النجف بالسيارات .

و (الربذة) من القرى القديمة في الجاهلية ، وهي عن المدينة من جهة الشرق على طريق حاج العراق على نحو ثلاثة أيام سميت بـ (خرقة الصائغ) ، بها مدفن (أبـي ذر)[4] .

ومعدن بني سليم ، هو لبني سلـــيم ، الذين غزاهم الرسول غـزوة (قرارة الكدر) ، ويقال : « قرقرة بني سليم وغطفان » ، لمـا بلغه ان بقرارة الكدر جمعاً من غطفان وسليم يريد الكيد للمسلمين[5] . و (الكدر) ماءة لبني سليم في ديار غطفان ناحية المعدن[6]. والى هذا الموضع أيضاً وصل الرسول في غزوته المعروفة بغزوة السويق ، وسببها ان (أبا سفيان) نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ، انتقاماً لبدر ، فسلك النجدية حتى نزل بصدور قناة الى جبل يقال له (تيت) ، من المدينة على بريد أو نحوه ، ثم خرج الى (بني النضير) ، ثم خرج فأرسل رجالاً من قريش الى ناحية من المدينة يقال لها (العُريض) ، فحرقوا في أصوار من نخل لها ، وقتلوا رجلين ، ثم انصرفوا راجعين ، فخرج رسول الله في طلبهم حتى بلغ (قرقرة الكدر) ، فوجد ان (أبا سفيان) قد فاته وأصحابه ، وكان أبو سفيان وأصحابه يلقون جرب الدقيق ويتخفون ، وكان

---

١ تاج العروس (٧/٢٩٥) ، (حول) .
٢ الطبري (٣/٢٥٤ وما بعدها) ، تاج العروس (٧/١٠٦) ، (أرك) .
٣ الطبري (٣/٢٥٥) ، تاج العروس (٢/٢٥٣) ، (بزخ) .
٤ ابن رستة (١٧٩) ، تاج العروس (٢/٥٦٢) ، (ربن) .
٥ امتاع الاسماع (١/١٠٧) .
٦ تاج العروس (٣/٥١٨) ، (كدر) ، (٣/٤٩٠ وما بعدها ، (قرر) ، الطبري (٢/٤٨٢) .

ذلك عامة زادهم ، فلذلك سميت غزوة السويق[1] .

وقد غزا الرسول (بني سليم) مرة أخرى فسار عليهم حتى بلغ موضع (بحران) معدناً بالحجاز من ناحية الفرع ، فلما لم يجد أحداً منهم ، وكانوا قد تفرقوا رجع عنهم . ويظهر ان قريشاً كانوا قد جاءوا اليهم ، واتفقوا معهم على مهاجمة المدينة ، بدليل ما ورد في خبر هذه الحملة من انه « غزا يريد قريشاً وبني سليم »[2] .

و (بحران) موضع بناحية الفرع من الحجاز ، به معدن للحجاج بن علاط البهري[3] . و (الفرع) بالحجاز ، من أضخم أعراض المدينة[4] .

وهذا الطريق هو الطريق الذي كان أهل مكة في الجاهلية يسلكونه الى العراق . ولما خافت قريش طريقها الذي كانت تسلك الى الشأم حين كان من وقعة (بدر) ما كان ، قررت سلوك طريق العراق ، أي هذا الطريق ، واستأجرت لها دليلاً خريتاً بالطرق عالماً بها ، هو (فرات بن حيان) ، وخرجت القافلة تحمل مالاً كثيراً ، فيه فضة كثيرة ، وهي عظم تجارتهم ، سلكت طريق (ذات عرق)، ثم خرج الدليل بهم على (غمرة) ، وانتهى الى النبي خبر العير وفيها المال الكثير، فأرسل (زيد بن حارثة) على سرية ، التقت بالقافلة بموضع (القردة)،فظفر بالعير ، وأفلت أعيان القوم . وأتى بدليلها أسيراً ، وخمست الغنائم ، فبلغ الخمس عشرين ألف درهم[5] .

وقد ذكر (الهمداني)، أسماء منازل طريق الكوفة — يثرب ، والكوفة — مكة على هذا النحو . الكوفة ، فالقادسية ، فالمغيثة ، ثم القرعاء ، ثم واقصة ، ثم العقبة ، ثم القاع ، ثم زبالة ، ثم الشقوق ، ثم البطان ، ثم الخزيمية ، ثم الأجفر ، ثم فيد ، ثم توز ، ثم سميراء ، ثم الحاجر ، ثم معدن النقرة ، ثم العسيلة ، ثم بطن نخل ، ثم الطرف ، ومنه الى المدينة .

---

١ الطبري (٤٨٣/٢ وما بعدها) ، ابن هشام (١١٩/٢) ، (حاشية على الروض) ، امتاع الاسماع (١٠٦/١) .

٢ الطبري (٤٨٧/٢) ، ابن هشام (١٢٠/٢) ، امتاع الاسماع (١١١/١ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٣١/٣) ، (بحر) .

٤ تاج العروس (٤٤٩/٥) ، (فرع) .

٥ الطبري (٤٩٢/٢) ، امتاع الاسماع (١١٢/١) ، ابن هشام (١٢١/٢ وما بعدها)، (حاشية على الروض) .

ومن الطرف يؤدي الطريق الى مكة، فيمر بالسيالة ، ثم الروحاء ، ثم الرويثة، ثم العرج ، ثم السقيا ، ثم الأبواء ، ثم الجحفة ، ثم قديد ، ثم عسفان ، ثم مرّ الظهران ، ثم مكة [1] .

ومن أخذ الجادة من مكة الى معدن النقرة ، فمن مكة الى البستان ، ثم ذات عرق ، ثم الغمرة ، ثم المسلح ، ثم الأفيعية ، ثم حرة بني سليم ، ثم العمق ، ثم السّليلة ، ثم الربذة ، ثم ماوان ، ثم معدن النقرة . وهو ملتقى الطريقين [2] .

وقد عرف طريق العراق من الكوفة الى مكة بـ (المثقب) . يقال : سلكوا المثقب ، أي مضوا الى مكة . وقيل انه طريق ما بين اليمامة والكوفة . وذكر بعض العلماء انه طريق كان بين الشأم والكوفة وكان يسلك في أيام بني أمية . ويظهر ان الاسم من الأسماء القديمة ، بدليل اختلاف العلماء في تعليل التسمية ، فقال بعضهم سمي لمرور رجل به يقال له مثقب ، وقال بعض آخر سمي بذلك لأن بعض ملوك حمير بعث رجلاً يقال له مثقب على جيش كثير الى الصين فأخذ ذلك الطريق فسمي به [3] .

وكان حاج البصرة اذا أرادوا الحج ، اتجهوا الى (المنجشانية) على ستة أميال من البصرة ، تنسب الى (منجش) مولى (قيس بن مسعود) [4] ، ثم الى (الحفير)، وهو ركايا ما بين (ماوية) و (المنجشانيات) [5] ، ثم الى (الشجى) ، ثم الى (الخرجاء) ، وهو ماءة احتفرها (جعفر بن سليمان) على طريق حاج البصرة [6] ، ثم الى (الحفر) [7] ، ثم الى (ماوية) ، ثم الى ذات العشر ، ثم الى (الينسوعة) ، ينسوعة القف ، منهل من مناهل طريق مكة على جادة البصرة، بها ركايا كثيرة عذبة الماء عند منقطع رمال الدهناء بين ماوية النباج [8] . ثم الى

---

١ الصفة (١٨٣ وما بعدها) .
٢ الصفة (١٨٥) .
٣ تاج العروس (١/١٦٦) ، (ثقب) ، ابن دريد ، جمهرة اللغة (١/٢٠٣) ، الصفة (١٧٦،١٧٣) ، البلدان (٤/٤١٤) .
٤ تاج العروس (٤/٢٥٤،٣٤٨) ، (م/ج/ش) ، (نجش) .
٥ تاج العروس (٣/١٥٢) ، (حفر) .
٦ تاج العروس (٢/٣٢) ، (خرج) .
٧ تاج العروس (٣/١٥٢) ، (حفر) .
٨ تاج العروس (٥/٥٢٣) ، (نسع) .

(السُمَيْنة) ، أول منزل من النباج لقاصد البصرة[1] ، ثم الى (النباج) ، ويقال له نباج بني عامر بن كريز ، وهو بحـذاء (فيد) ، وبه يوم من أيام العرب ، مشهور لتميم على بكر بن وائل . وقد استنبط ماءه (عبدالله بن عامر ابن كريز) ، شقق فيه عيوناً وغرس نخلاً ، وسكن به رهطـه بنو كريز[2] . و (عامر بن كريز بن ربيعة) القرشي العبشمي ، والد (عبدالله) ، وهو من المحمقين في قريش ، ذكر انه أسلم يوم الفتح ، وكان ابنه (عبدالله) أميراً على البصرة زمن عثمان[3] ، كما كان صهراً لمعاوية ، ومن أغنياء المسلمين[4] .

ومن النباج الى (العوسجة) ، ثم الى (القريتين) ، ثم الى (رامـة) ، ثم الى (امرة) ، ثم الى (طخفة) ، ثم الى (ضرية) ، ثم الى (جديلة) ثم الى (فلجة) ، ثم الى (الدثينة) (الدفينة) . ثم الى (قبا) ، ثم الى (مران) ، ثم الى (وجرة) ، ثم الى (أوطاس) ، ثم الى (ذات عرق) ثم الى بستان ابن عامر ، ثم الى مكة[5] .

ويلاحظ أن مبدأ هذا الطريق ، قـد عمر في الاسلام ، وذلك بسبب تأسيس البصرة ، ولكنه يسلك أيضاً الطريق الجاهلي القديم في مواضع كثيرة منه .

و (بستان ابن عامر) عند مكة ، ويرى بعض العلماء أن هذه التسمية مغلوطة وأنها من أقوال سواد الناس وأن الصحيح بستان ابن معمر ، وهو مجتمع النخلتين اليمانية والشامية[6] . بينما يرى بعضهم العكس ، إذ قـال : « وبستان ابن عامر بنخلة . هو عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة . ولا تقل بستان ابن معمر ، فإنه قول العامة »[7] . وورد أيضاً « بستان ابن عامر لعمر بن عبـدالله بن معمر ابن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن كعب بن لـؤي ، ولكن الناس غلطوا فيها ، فقالوا : بستان ابن عامر ، وبستان بني عامر ، وإنما

---

١ تاج العروس (٩/٢٤٢) ، (سمن) .
٢ تاج العروس (٢/١٠٣) ، (نبج) .
٣ الاصابة (٢/٢٤٨) ، (رقم ٤٤١٨) .
٤ المحبر (٤٧، ٥٧، ١٥٠، ٣٤٦، ٣٦٣، ٣٨٧، ٤٤٠، ٤٥٠) .
٥ المسالك (١٤٦ وما بعدها) ، قدامة (١٩٠) ، بلاد العرب (٣٧١) .
٦ بلاد العرب (٣٧٤) ، تاج العروس (٣/٤٢٤) ، (عمر) .
٧ تاج العروس (٣/٤٢٤) ، (عمر) .

هو بستان ابن معمر ، وقوم يقولون نسب الى ابن عـــامر الحضرمي ، وآخرون يقولون نسب الى ابن عامر بن كريز »[1] . وذكر أنه على مقربة من هذه البستان موضع يقال له (المسدّ) ، وهو مأسدة[2] .

ويقع موضع (السّي ّ) ، وهو ماء من ذات عرق الى (وجرة) على ثلاث مراحل من مكة الى البصرة وخمس من المدينة . فهو من منازل طريق البصرة — مكة . واليه أرسل الرسول (شجاع بن وهب) الأسدي ، على (بني عامر) بناحية (ركبة)[3] . ووجرة في طريق البصرة . وأما (ذات عرق) فحد يفصل في عرف علماء جزيرة العرب بين الحجاز ونجد. فمن ذات عرق الى الغرب الحجاز، ومن ذات عرق مشرقاً ، فهو نجد[4] . واذا جزت (وغرة) ووجرة فأنت في نجد الى أن تبلغ (العذيب) ، و (غمرة) في طريق الكوفة[5] . وهي فصل ما بين تهامة ونجد[6] .

وعلى مقربة من (ذات عرق) ، يقع قبر أبو رغال في موضع يقـــال له (الغُمَيْر)[7] ، بين ذات عرق وبين البستان[8] .

وقد ذكر (القلقشندي) طريقاً يبدأ بالبصرة ويتجه نحو (اليمامة) ، على هذا النحو : (البصرة) ، ثم (المنجشانية) ، ثم الى (الكفير؟) (الحُفير) ، ثم الى (الرحيل) ، ثم الى (الشجى) ، ثم الى (الحفر) ، ثم الى (ماوية) ، ثم الى (ذات العشر) ، ثم الى (الينسوعة) ، ثم الى (السمنية) ، ثم الى (النباج) ، ثم الى (العمومية ؟) (العوسجة) ، ثم الى (القريتين) ، ثم الى (سويقة) ، ثم الى (صداة) ، ثم الى (السدّ) ، ثم الى (السقي) ،

---

١ البلاذري ، فتوح (٦٣) .
٢ تاج العروس (٢/٣٧٤) ، (سدد) .
٣ امتاع الاسماع (١/٣٤٤) .
٤ بلاد العرب (١٥،١٧٨،٣٣٦) .
٥ بلاد العرب (٣٣٦) .
٦ تاج العروس (٣/٤٥٥) ، (غمر) .
٧ كزبير :
٨ قال امرؤ القيس :

كأثل من الاعراض من دون بيشة ودون الغمـــير عامدات لغفــورا

تاج العروس (٣/٤٥٥) ، (غمر) .

ثم الى (المنبية) ، ثم الى (السفح) ، ثم الى (المريقة) ، ثم الى (اليمامة)[1] .

وذكر (الهمداني) أسماء بعض المواضع التي كان يسكنها المسافرون من الكوفة الى العراق ، وهي الطرق السالكة التي عرفت بـ (المحجة) ،لأنها طرق الحج[2] .

وقد ذكر (الهمداني) أسماء مواضع يمر بها الطريق من (نجران) الى البصرة . وهي : نجران ، ثم كوكب ، ثم الحفر ، ثم العقيق ، وهو معدن ذهب ، ثم (الفلج) ، ثم (الخرج) ، ثم (الخضرمة) ، ثم (الفقى) ، ثم البصرة[3].

وإذا أراد أهل اليمامة السفر الى مكة،سافروا الى العرض ، وهو بطن العرض، عرض بني حنيفة ، الوادي المعروف اليوم باسم الباطن ، وفيه مياه وقرى[4] ، ثم (الحديقة) ، ثم الى (السيح) ، وهو سيح (آل ابراهيم بن عربي) والى اليمامة في عهد (عبد الملك) و (هشام)[5] ، ثم الى (الثنية) ، ثم الى (سقبراء)، ثم الى (السد) ، ثم الى صداة ، ثم الى (شريفة) ، ثم الى (القريتين) من طريق البصرة ، فيتصل الطريق بطريق البصرة ، ويسلكها على نحو ما مر[6] . وقد ذكر (قدامة) منازل هذا الطريق على هذا النحو : (العرض) ، ثم (حديقة) ، ثم (السيح) ، ثم (الثنية العقاء) ، ثم (سقبراء) ، ثم (السد) ، ثم (مراره) ، ثم (سويقة) ، ثم (القريتين) ، ثم طريق البصرة[7] .

ونجد في (بلاد العرب) وصف طريق يبدأ بـ (حجر) اليمامة وينتهي بمكة . ويبدأ بـ (بطن العرض) ، ثم (السيح) ، ثم (ثنية الأحيسى) ، ثم ناحية من (قرقرى) اليمامة ، ثم (المنفطرة) ، ثم (الغُزيز) ، ثم (الوركة) ، ثم (أهوى) و (أضيمر) ، ثم (العفافة) ، ثم (عكاش) ، ثم (المروت)، ومنه الى (السحامة) وعليها طريق المنار . واذا جزت أهوى ، فمن ورائها موبهة

---

١ صبح الاعشى (٥/٦١) .
٢ الصفة (١٣١) .
٣ الصفة (١٦٦) .
٤ بلاد العرب (٣٦١) .
٥ بلاد العرب (٣٦١) .
٦ المسالك (١٤٦ وما بعدها) .
٧ قدامـة (١٩١) .

يقال لها (الأسودة) ، ثم تعبر رملة يقال لها (جراد) ، ثم تصل (الهلباء) بحايل ، فإذا جزت (الهلباء) وقعت في واد ، تجوزه فترد (عكاشا) ، ثم ترد (العيصان) ، وهو معدن ، ثم ترد معدن الأحسن ، وهو من أول عمل المدينة ، ثم تجوزه الى (العلكومة) ، ثم ترد (الدثينة) (الدفينة) ، قرية على طريق البصرة الى مكة [1] . ثم يسلك هذا الطريق المواضع التي ذكرتها عند حديثي على طريق البصرة — مكة .

وكان لأهل اليمامة طرق توصلهم الى اليمن ، منها طريق يؤدي الى (الخرج)[2] ، ثم الى (نبعة) ، ثم الى (المجسازة) ، و (المعدن) ، و (الشفق) ، (الشقق ؟) ، ثم (الثور) ، ثم (الفلج) ، وهو قرية كبيرة بها نخيل ومزارع وعين يقال لها (الذّبا) يخرج منها سبعة عشر نهراً ، وهي من الأفلاج[3] . ثم (الصفا) ، وبئر الآبار ونجران ، ثم الحمى وبرانس ، ومريع ، والمهجرة[4] . ثم يسلك طريق المهجرة المؤدي الى صنعاء[5] .

وذكر (الهمداني) طريقاً يصل نجران باليمامة ثم ينتهي بالبصرة . ومعنى ذلك طريق يوصل البصرة باليمن ، فنجران من أهم عقد الطرق المؤدية الى اليمن . ويبدأ الطريق بنجران،ومنها الى (كوكب) ، ثم الى (الحفر) ، ثم (العقيق) ، وهو معدن يعق عن الذهب ، وهو لجرم وكندة ، ثم (المقترب) ، ثم (الفلج) ، ثم (الخرج) ، ثم (الخضرمة) ، ثم (الفقى) ، وهو طرف اليمامة ، ثم البصرة[6] .

وذكر (الهمداني) أن من يريد التوجه من (الفلج) الى اليمامة ، سلك طريق (العقيمة) ، أو (مخمسة) . ومن أخذ (الثفن) من الفلج الى اليمامة أخذ أسافل أودية جعدة ، فيأخذ الغادي على أسفل الغيل من الثفن ، ثم يقطع (غلغل) و (الثجة) و (النضخ) ، فإن أحب شرب بدلاميس ، ثم نسلة

---

١ بلاد العرب (٣٦١ — ٣٧١) .
٢ تاج العروس (٢/٢٩) ، (خرج) ، بلاد العرب (٢٣٣،٣) .
٣ بلاد العرب (٢٢١ وما بعدها) ، الصفة (١٥٩ وما بعدها) ، تاج العروس (٢/٨٦ وما بعدها) .
٤ قدامة (١٩٣) .
٥ المسالك (١٥٢ وما بعدها) ، الخراج (١٩٣) .
٦ الصفة (١٦٦) .

الى الخرج ، وإن أحب شرب بالمرّاء ، ثم برك ثم بريك[1] .

وإذا أراد أهل البحرين التوجه إلى اليمامة ، صعدوا الطريق، فيكون عن يمينهم (خرشيم) ، وهي هضاب وصحراء مطرّحة إلى (الحفرين) وإلى (السلحين) ، ثم (الحابسية) ، ثم (مُزَلَّقَة) ، ثم (الموارد) ثم الفروق الأدنى ثم الفروق الثاني ، ثم الحوار ، خوّار الثلع ، ثم الصليب ، وعن يمينك الصلب ، صلب المِعتّى والبرقة برقة الثور . ثم الصّمان ، ثم ترجع إلى طريق (زَرّى) ، فعن يسارك (الدُبيب) ، وعن يمينك (الدحرض) ، ثم تقطع بطن (قو) ، ثم السمراء ، ثم تأخذ في الدهناء وتأخذ على الشجرة ، ثم الى (الحل) خل الرمل ، ثم قَلَمْت هبل ، ثم (النظيم) نظيم الجفنة ، ثم شباك العرمة والغرابات ، ثم تقطع العرمة و (شيعاً) ، ثم تسير في (السّهباء) ، ثم تقطع جبيلاً يقال له (أنقد) ، ثم الروضة ، ثم ترد (الخضرمة) جو الخضارم . وهي أول اليمامة قبل البحرين[2] .

وكان لأهل نجد جملة طرق يسلكونها في اتجاههم نحو (مكة) أو المدينة أو اليمن . وقد عرف طريق نجد الى مكة بـ (الجلال) وبـ (مثقب) وبـ (القعقاع)[3] . وذكر أن (المثقب) طريق العراق من الكوفة الى (مكة) ، وكان فيما مضى طريقاً بين اليمامة والكوفة يسمى (مثقباً) ، وذكر أنه طريق العراق الى مكة . وقد أوجدوا لذلك جملة تعاليل لحلّ مشكلة التسمية . فقالوا : إنـه سُمّي مثقباً لمرور رجل به يقال له مثقب . وقالوا : بل لأن بعض ملوك حمير بعث رجلاً يقال له مثقب على جيش كثير الى الصين ، فأخذ ذلك الطريق فسمي به . وذكر بعض آخر . أنه طريق كان بين الشأم والكوفة ، وكان يسلك في أيام بني أمية[4] .

وذكر ان (القعقاع) الطريق لا يسلك إلا بمشقة ؛ وهو طريق من اليمامة إلى الكوفة ؛ وقيل إلى مكة[5] .

---

١ الصفة (١٥٠) .

٢ الصفة (١٣٨ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٧/٢٦٠) ، (جلل) .

٤ تاج العروس (١/١٦٦) ، (ثقب) .

٥ تاج العروس (٥/٤٧٧) ، (قعقع) .

ويكون طريق نجد الى المدينة ومكة جزءاً من طريق العراق إلى المدينتين، وقد ذكرت أسماء بعض المواضع التي يسلكها القادمون من الكوفة أو الحيرة ثم من البصرة إلى المدينة أو مكة ، وهي تمرّ بعد اجتيازها حد العراق بنجد . ومن هذه المواضع : (القَرْدة) (الفَرَدة) ، الذي كانت اليه سرية (زيد بن حارثة) للتعرض بقافلة لقريش تنكبت طريق الشأم خوفاً من تحرش المسلمين بها وسلكت طريق العراق في الشتاء ، فالتقى بها (زيد بن حارثة) بهذا الموضع فظفر بالعير[1].

ومن مواضع طرق نجد (قطن) ، وهو جبل بناحية (فيد) ، به ماء لبني أسد ابن خزيمة بنجد . واليه أرسل الرسول ، (أبا سلمة بن عبد الأسد) ، لما بلغه ان (طليحة) و (سلمة) ابن خويلد ، قد استعدا لحرب رسول الله . وقد نكب بالسرية عن الطريق وسار بها ليلاً ونهاراً حتى يعجل بها إلى ملاقاتهما ، فنذر بهم القوم وتفرقوا ، ثم عاد بعد أن وجد سرحاً ومعه ثلاثة رعاء مماليك[2] . و (قطن) جبل في غرب (القصيم) من نجد لا زال معروفاً بقرب بلدة (الفوارة)[3] .

و"نجد" في اصطلاح بعض العلماء ، ما بين (العذيب) الى (ذات عرق) والى اليمامة والى اليمن والى جبلي طيء ، ومن المربد الى (وجرة) . وذات عرق أول تهامة الى البحر . وذكر ان الأعراب يقولون : إذا خلفت (عجلز) مصعداً ، فقد انجدت . و (عجلز) فوق (القريتين) ، فإذا أنجدت عن ثنايا ذات عرق ، فقد اتهمت ، فإذا عرضت لك الحرار بنجد قيل ذلك الحجاز . وذكر أن نجداً الأريضة التي تقع جنوب العراق والشأم ، وشمال تهامة واليمن . وذكر أن كل ما وراء الخندق على سواد العراق ، فهو نجد . والغور كل ما انحدر سيله مغربياً وما أسفل منها مشرقياً فهو نجد . وتهامة ما بين ذات عرق الى مرحلتين من وراء مكة ، وما وراء ذلك من المغرب فهو غور ، وما وراء ذلك من مهب الجنوب فهو السراة الى تخوم اليمن[4] .

وأما طرق العربية الغربية ، فأهمها الطرق الممتدة من بلاد الشأم الى اليمن ، وتتصل بها الطرق الآتية من مصر . وقد كان الجاهليون يقصدون دمشق للاتجار

---

١ امتاع الاسماع (١/١١٢) ، تاج العروس (٢/٤٥٠) ، (فرد) .
٢ امتاع الاسماع (١/١٧٠) ، تاج العروس (٩/٣١٢) ، (قطن) .
٣ العرب (١٩٦٨) ، (ج ١١ ص ٩٧٧) .
٤ تاج العروس (٢/٥٠٩) ، (نجد) .

بها وللاصطياف ، ولزيارة أمراء الغساسنة الذين كانوا قد امتلكوا قصوراً بها ، غير أن بعضاً منهم كان يقف عند (بصرى) ، يتاجر في أسواقها ثم يعود . ومنهم من كان يتوجه الى (غزة) ، للاتجار بها لوجود تجار بها قصدوها من سواحل البحر الأبيض ، معهم تجارة ساحل البحر . وقد كان (هاشم) ممن قصد هذه المدينة .

ويبدأ طريق دمشق بـ (الكسوة) ومن (الكسوة) الى (جاسم) ، وهو موضع ورد ذكره في شعر لحسان بن ثابت ، إذ قال :

قد عفا جاسم الى بيت رأس فالجوابي فحارث الجولان[1]

ومن (جاسم) الى أفيق ، وأفيق من أعمال حوران ، وهو عقبة طويلة ، وأفيق في أول العقبة ينحدر منها الى غور الأردن ومنها يشرف على طبرية[2] . ومن (أفيق) الى (طبرية) . وتعد (سرغ) ، في آخر الشأم وأول الحجاز ، بين (المغيثة) و (تبوك) ، وفيها لقي (عمر) أمراء الأجناد[3] ، ثم (تبوك) وهي قرية مهمة يرد خبرها في أخبار غزوات الرسول ، إذ عرفت بغزوة (تبوك). وبها صالح رسول الله (يحنة بن رُؤبة) ، صاحب أيلة ، وأهل جرباء وأذرح[4].

ومن (تبوك) يتجه الطريق إلى (المحدثة) ثم إلى (الأقرع) ، ثم إلى (الجنينة)[5] ، ثم إلى (الحجر) ، وهي في نظر أهل الأخبار ديار ثمود وبلادهم ، وقد أشير اليها في القرآن : « كذب أصحاب الحجر المرسلين »[6] ، وقد مر بها رسول الله في غزوته لتبوك ، ونهى عن دخول مساكنها وعن الشرب من مائها ، واستحث راحلته ، وأسرع حتى خلفها[7] . وذكر « ان بيوتها منحوتة في الجبال مثل المغاور ، كل جبل منقطع عن الآخر ، يطاف حولها ، وقد نقر فيها بيوت

---

١ المسالك (٧٨) ، تاج العروس (٢٢٨/٨) ، (جسم) .
٢ تاج العروس (٥٤/٧) ، (فوق) .
٣ تاج العروس (١٦/٦) ، (سرغ) .
٤ الطبري (١٠٠/٣ وما بعدها) ، تاج العروس (١١٣/٧) ، (باك) ، ابن سيد الناس (٢١٥/٢ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (١٦٦/٩) ، (جنن) .
٦ الحجر ، الرقم ١٥ ، الآية ٨٠ .
٧ تفسير الطبري (٣٤/١٤) . ابن سيد الناس (٢١٨/٢) .

تقلّ وتكثر على قدر الجبال التي تنقر فيها . وهي بيوت في غاية الحسن فيها بيوت وطبقات محكمة الصنعة وفي وسطها البئر التي كانت تردها الناقة [1] . وهي قريـــة لا تزال معروفة مسكونة [2] .

ثم إلى (وادي القرى) ، فتمر القوافل في قرى عديدة ، ثم إلى (الرحيبة) ، ثم إلى (ذي المروة) ، وهو قرية بين (ذي خشب) ، و (وادي القرى) [3] ، ثم إلى (المر) ، ثم إلى (السويداء) [4] ، ثم إلى (ذي خشب) [5] ، وهو وادٍ على مسيرة ليلة من المدينة ، ذكر في الأحاديث والمغـــازي ، ويقال له (وادي خشب) ، فيه عيون [6] ، ثم إلى المدينة [7] .

ولما سار الرسول الى (تبوك) نزل (ذا خشب) ، ثم (ثنية الوداع) ، ثم مرّ بوادي القرى ، ثم بالحجر ، ثم تبوك [8] .

وهناك طريق يمتد من (أيلـــة) إلى (حقل) ، ثم (مدين) ، ثم إلى الأغواء ، ثم إلى (الكلابة) ، ثم إلى (شغب) ، ثم إلى (بدا) . وشغب موضع ذكر في حديث الزهري ، انه كان له مال بشغب وبدا ، وهما موضعان كانا في الشأم ، وبه كان مقـــام (علي بن عبدالله بن عباس) وأولاده الى أن وصلت اليهم الخلافة . وبشغب مات الزهري ، وهو (أبو بكـر محمد بن مسلم ابن عبيد الله بن عبدالله بن شهاب الزهري) ، المدني ، مات سنة (١٢٤ ه) في أمواله بها . وذكر انه قبر بأداما ، وهي خلف شغب وبدا ، وهي أول عمل فلسطين وآخر عمل الحجاز ، وبها ضيعة (الزهري) التي كان فيها [9] .

ومن (بدا) يتجه الطريق الى (السرحتين) ، ثم الى (البيضاء) ، ثم الى (وادي القرى) ، ثم الى (الرحيبـــة) ، ثم الى (ذي المروة) ، ثم الى (المر) ، ثم الى (السويداء) ، ثم الى (ذي خشب) ، ثم الى المدينـــة ،

---

١ تاج العروس (٣/١٢٤ وما بعدها) ، (حجر) .
٢ بلاد العرب (٣٩٧ وما بعدها) .
٣ بلاد العرب (٣٩٥،٣٩٦،٤١٣،٤١٤) .
٤ تاج العروس (٢/٣٨٥) ، (سود) .
٥ بلاد العرب (٤٠٦،٤١٤) .
٦ تاج العروس (١/٢٣٥) ، (خشب) .
٧ المسالك (١٥٠) ، قدامة (١٩١) .
٨ الطبري (٢/١٠٠ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (١/٤٤٥ وما بعدها) .
٩ تاج العروس (١/٣٢٢) ، (شغب) ، (١٠/٣٣) ، (بدى) .

ومنها الى مكة . وقد كان حجاج مصر يسلكون هذا الطريق،إذا جاؤوا من البر[1].

وهناك طريق ساحلي سلكه حجاج مصر أيضاً ، يبدأ بشرف البعل ، ثم الى (الصلا) ، ثم الى (النبك)[2] ، ثم الى (ظبة) ، ثم الى (عونيد) ، ثم الى (الوجه) ، ثم الى (منخوس) ، ثم الى (الجرة) ، ثم الى (الأحساء) ثم الى (ينبع) ، ثم الى (مسثولان) ، ثم الى (الجار) ، ثم الى المدينة[3] . و (الجار) على ساحل البحر ، وهو فرضة المدينة ، ترفأ اليه السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن ، وبحذائه جزيرة في البحر ميل في ميل يسكنها التجار[4] . و (ينبع) حصن له عيون فوّارة ، ذكر بعضهم أنها مائة وسبعون عيناً، ونخيل وزروع ، بطريق حاج مصر عن يمين الجائي من المدينة الى (وادي الصفراء) ، وقد جفت عيونه فيما بعد ، كما ذكر من زارها من الباحثين[5] .

وأما طريق المدينة المؤدي الى مكة ، فيمر بـ (الشجرة) ، وهو ميقات أهل المدينة ، ثم الى (ملل) ، ثم الى (السيالة) . وقد ذكر أنها أول مرحلة لأهل المدينة ، إذا أرادوا مكة ، وأنها بين (ملل) والروحاء[6] . ثم الى (الرويثة) ثم الى (السقيا) ، فيهـا نهر جار ، بين المدينـة ووادي الصفراء[7] . ثم الى (الأبواء) ، وهي قرية من أعمال (الفرع) بين المدينة والجحفـة[8] ، ثم الى (الجحفة) ، وهي من تهامة ، وفيها آبار ، وهي ميقات أهل الشأم ، وكانت تسمى (مهيعة) ، فنزل بها (بنو عبيل) ، وهم اخوة عـاد وكان أخرجهم العماليق من يثرب فجاءهم سيل جحاف فاجتحفهم فسميت الجحفة . وهكذا فسر

---

١ المسالك (١٤٩ وما بعدها) ، قدامة (١٩٠) .

٢ (موضع بين ضجوة ومضيق جبة من منازل حاج مصر) ، تاج العروس (١٨٦/٧) ، (بنك) .

٣ قدامة (١٩١) .

٤ تاج العروس (١١٢/٣) ، (جار) .

٥ تاج العروس (٥١٧/٥) ، (نبع) .

٦ تاج العروس (٣٨٥/٧ وما بعدها) ، (ملل)

٧ تاج العروس (١٨٠/١٠) ، (سقى) .

٨ تاج العروس (٦/١٠) ، (أبى) .

(ابن الكلبي) ، سبب تسمية هذه القرية القريبة من البحر بهذه التسمية [1] .

والأبواء من المنازل التي كان يطرقها المسافرون إلى بلاد الشأم ، فهي على طريق التجارة القديم . وللرسول غزوة عرفت بغزوة الأبواء وبغزاوة ودّان،وصل فيها إلى موضع (ودّان) ، وكان يريد اعتراض عير لقريش ، مرت بهذا المكان، وهي أول غزوة غزاها الرسول . وقد وادع فيها (بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة) على ألا يكثروا عليه ولا يعينوا أحداً عليه[2] ، مما يدل على ان هذا الموضع كان لبني ضمرة في ذلك العهد . وورد انه كان لبني ضمرة ولغفار وكنانة [3] .

وودّان قرب الأبواء والجحفة من نواحي (الفرع) ، بينها وبين (هرشى) ستة أميال ، وبينها وبين (الأبواء) نحو من ثمانية أميال ، وكانت قرية سكنها (الصعب بن جثامة) الليثي من أصحاب الرسول ، فنسب اليها [4] .

و (هَرْشى) ثنية قرب (الجحفة) في طريق مكة يرى منها البحر ، ولها طريقان فكل من سلكها كان مصيباً ، وهي على طريق الشأم وطريق المدينة الى مكة في أرض مستوية ، وأسفل منها (ودّان) على ميلين مما يلي المغرب . ويتصل بها من الغرب خبت رمل في وسط هذا الخبت جبل أسود شديد السواد صغير يقال له طفيل[5] .

ومن الجحفة يتجه المسافر إلى (قُديد)[6] ، ثم الى (عسفان) ، ثم الى بطن مر ، ثم الى مكة [7] . و (بطن مر) ، قرية كبيرة ، وعلى أربعة أميال منها قبر (ميمونة) زوجة النبي ، وعلى مسافة منها مسجد عائشة ، ومنها يحرم أهل مكة ، وهو حد الحرم[8] .

والجحفة من منازل طريق تجارة مكة الى الشأم ، ولذلك صارت هي والمواضع التي تقع على هذا الطريق من الأهداف التي قصدها المسلمون للتحرش بقوافل

---

١ تاج العروس (٦/٥٣) ، (جحف) .
٢ امتاع الاسماع (١/٥٣) ، الطبري (٢/٤٠٣) .
٣ تاج العروس (٢/٥٣٠) ، (ودد) .
٤ تاج العروس (٢/٥٣٠) ، (ودد) .
٥ تاج العروس (٤/٣٦٧) ، (هرش) .
٦ تاج العروس (٢/٤٦١) ، (قدد) .
٧ المسالك (١٣١) .
٨ قدامة (١٨٧) .

قريش . ومن نواحي الجحفة (ثنية المرة) ، ومنها سار (عبيدة بن الحارث ابن المطلب) على عير لقريش يحرسها مائتان من المشركين بقيادة (أبو سفيان)، أو غيره وذلك في السنة الأولى من الهجرة ، فالتقى بها على ماء يقال له (أحياء) من بطن (رابغ) على عشرة أميال من الجحفة ، وأنت تريد قديداً عن يسار الطريق [1] .

و (رابغ) وادٍ عند الجحفة قرب البحر بين (البزواء) و (الجحفة) دون (عزور) ، وقرية لا تزال معروفة . بينها وبين (بدر) خمس مراحل . الأول (قاع البزواء) ، ثم عقبة وادي السويق ، ثم آخر ودان ، ثم شقراء ، ثم رابغ [2] . وهي اليوم قرية ، مياهها عذبة ذات مزارع ونخيل .

وأرسل الرسول سرية أخرى إلى (الخرّار) للتعرض لعير قريش التي كانت تسلك الجحفة ، فلما وصلت (الخرّار) من الجحفة قريباً من (خم) ، وجدت عير قريش قد سبقتها ، ونجت [3] . و (خم) غدير دون الجحفة وقيل بالجحفة [4] .

وعلى مسيرة يوم من (ينبع) ، يقع جبل (رضوى) الذي يبعد سبع مراحل عن المدينة [5] ، ومن نواحي هذا الجبل ناحية (بواط) ، واليها خرج الرسول غازياً معترضاً عير قريش ، التي كانت مارة بهذا المكان . وكانت قافلة كبيرة تتألف من ألفين وخمسمائة بعير ، يحرسها مائة رجل من قريش ، فيها (أمية بن خلف) ، وقد أفلتت القافلة ونجت ، دون أن يقع أي قتال [6] .

وببطن ينبع موضع يقال له : (ذو العشيرة) ، (ذات العشيرة) ، اليه كانت غزوة (العشيرة) (غزوة ذات العشيرة) ، حين بلغ الرسول خبر خروج عير لقريش الى بلاد الشأم ، وقد جمعت قريش أموالها في تلك العير ، ولكن القافلة نجت ، فوصلت سالمة الى بلاد للشأم ، وهي التي خرج الرسول في طلبها

---

١ الطبري (٢/٤٠٢) ، امتاع الاسماع (١/٥٢) .
٢ تاج العروس (٦/١٠) ، (ربغ) .
٣ الطبري (٢/٤٠٣) ، امتاع الاسماع (١/٥٣) ، تاج العروس (٣/١١٣) ، (خرر) .
٤ تاج العروس (٨/٢٨٣) ، (خم) .
٥ تاج العروس (١٠/١٥١) ، (رضو) ، عرام (٣٩٦) .
٦ الطبري (٢/٤٠٥،٤٠٧) ، امتاع الاسماع (١/٥٤) ، تاج العروس (٥/١١٢) ، (باط) .

لما عـــادت ، وكانت وقعة بدر . فرجع الرسول الى المدينة ، بعــد أن صالح (بني مدلج) وحلفاءهم (بني ضمرة)[1] .

ولما هاجر الرسول من مكة الى المدينة سلك به الدليل طريقاً لا تسلكه القوافل، أي طريقاً لا يسلكه المسافرون عادة الى المدينة ، ليتجنب من ملاحقة قريش له . سلك به وبصاحبه (أبي بكر) أسفل مكـــة ، ثم مضى بهما حتى حاذى بهما الساحل ، وعارض الطريق أسفــل من (عسفان) ، ثم سلك بهما على أسفل (أمج) ، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعدما جاوز (قديداً) ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما (الخرّار) ، ثم سلك بهما (ثنية المرة) (ثنية المرأة) ، ثم أجاز بهما (مدلجة لقف) (لقف) ، ثم استبطن بهما (مدلجة مجاج) (مجاج) ، طريق يقال له (المدلجة) بين طريق (عمق) وطريق الروحاء[2] . ثم سلك مرجح من مجاج ، ثم بطن (مرجح ذي العضوين) ثم (بطن ذي كشد) (بطن ذات كشد) (ذي كشد) ، ثم أخذ بهما على (الجداجد) ، ثم على (الأجرد) ، ثم سلك بهما (ذا سلم)[3] (ذا سمر)[4] من بطن أعداء (مدلجة تعهن) ، ثم على (العبابيد)،ويقال (العبايب) ويقال (الغيثانة)[5] (العتبانة)[6] ، ثم أجاز بهما (الفاجة) ، ويقال (القاحـــة)[7] . ثم هبط بهما (العرج) ، ثم خرج بهما دليلهما من العرج ، فسلك بهما ثنيـــة (العاثر)[8] (الغابر)[9] (الأعيار)[10] ، ويقال (ثنية الغاثر)[11] ، عـــن يمين

---

١ الطبري (٢/٤٠٨ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (١/ ٥٤ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٤٠٣) ، (عشر) ، (ويقال فيه العشير بغير هاء أيضا) .
٢ الطبري (٢/٣٧٧) ، « لقف » ، نهاية الارب (١٦/٣٣٨) .
٣ سيرة ابن هشام (١/٩) ، (حاشية على الروض) .
٤ المسالك (١٢٩ وما بعدها) .
٥ ابن هشام (١/٩) ، (حاشية على الروض) .
٦ المسالك (١٢٩ وما بعدها) .
٧ ابن هشام (١/٩) ، (حاشية على الروض) ، المسالك (١٢٩) .
٨ ابن هشام (١/١٠) ، (حاشية على الروض) .
٩ الطبري (٢/٣٧٧) .
١٠ المسالك (١٢٩) .
١١ ابن هشام (١/١٠) ، حاشية على الروض) .

(ركوبة) ، ثم هبط (بطن رئم)[1] (بطن ريم)[2] ، ثم قدم بهما (قباء)، ثم (يثرب)[3] .

ولما سمع الرسول بقدوم (أبو سفيان) مقبلاً من الشأم في عير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم ، خرج لملاقاتها في موضع (بدر) . وكان بدر طريق ركبان قريش من أخذ منهم طريق الساحل الى الشأم[4] . فخرج من المدينة على نقب المدينة ، فنزل بالبقع ، ويقال بئر أبي عتبة ، وهي على ميل من المدينة ، ثم اتجه نحو (بيوت السقيا) ، فضرب عسكره هناك . ثم أمر أصحابه ان يستقوا من (بئر السقيا) ، وصلى عند بيوت السقيا ، وسلك من السقيا بطن العقيق حتى نزل تحت شجرة بالبطحاء ، ثم سلك (ذي الحليفة) ، ثم على (أولات الجيش) (ذات الجيش) ، ثم على (تربان) ، ثم على (ملل) ، ثم على (غميس الحمام) من (مريين) ، ثم على صخيرات اليمام، ثم على (السيالة) ، ثم على (فج الروحاء) ، ثم على (شنوكة) ، وهي الطريق المعتدلة ، ثم على (عرق الظبيّة) (الظبية) ، ثم على (سجسج) ، وهي بئر الروحاء ، حتى اذا كان بالمنصرف ، ترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين على (النازية) يريد (بدراً) ، فسلك في ناحية منها ، حتى جزع وادياً يقال له (وحقان) بين (النازية) وبين مضيق الصفراء ثم على المضيق ثم انصب منه الى (الصفراء) ، وهي قرية بين جبلين ، ثم سلك الى واد يقال له (ذ فران) ، ثم سلك على ثنايا يقال لها (الأصافر) ، ثم انحط منها إلى بلد يقال له (الدّبّة) (الدية) ، وترك (الحنان) بيمين وهو كثيب عظيم كالجبل ، ثم نزل بدراً[5] .

---

١ الطبري (٢/٣٧٧) ، المسالك (١٢٩ وما بعدها) .

٢ ابن هشام (١/١٠) ، حاشية على الروض) .

٣ ابن هشام (١/١٠) ، (حاشية على الروض) ، الطبري (٢/٣٧٧) ، المسالك (١٢٩ وما بعدها) ، نهاية الارب (١٦/٣٣٨ وما بعدها) .

٤ الطبري (٢/٤٢٢) ، (ذكر وقعة بدر الكبرى) .

٥ ابن هشام (٢/٦٣ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الطبري (٢/٤٣٣ وما بعدها) .

و (السقيا) ، موضع به ماء ، بين المدينة ووادي الصفراء[1] ، يعرف اليوم بـ (أم البرك)[2] .

و (شنوكة) ، جبل جمع على (شنائك) في شعـــر لكثير ، لأنه ثلاث أجبل صغار منفردات من الجبال ، يمر منها الطريق الى بدر والصفراء وإلى النازية ورحقان ، ويدع المنصرف الى يساره[3] . وتقع بين (المنصرف) وبين الروحاء . ولا تزال معروفة[4] .

و (المنصرف) ، موضع يقال له (المسيجد) في الوقت الحاضر ، وهـــو قرية كبيرة[5] . وتقع على طريق المدينة المتجه الى (الصفراء) فالساحـــل والذي يتصل بجدة . وهو غير بعيد عن (النازية) . و (النازية) عين ثرة على طريق الآخذ من مكة الى المدينة قرب الصفراء ، وهي الى المدينة أقرب[6] .

و (بدر) أسفل وادي الصفراء ، وهو الى المدينة أقرب ، يقال إنه هـــو منها على ثمانية وعشرين فرسخاً ، وبينه وبين (الجار) ، وهو على ساحل البحر ليلة . وبه بئر حفرها رجل من غفار ، اسمه (بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة) وقيل (بدر بن قريش بن يخلـــد بن النضر بن كنانة ، وقيل بدر رجـــل من (بني ضمرة) سكن ذلك الموضع فنسب اليه ، ثم غلب اسمه عليه ، وقيل بدر رجل من جهينة كان يملك البئر فسمّيت به . ولهم تفاسير أخرى من هذا القبيل في تعليل سبب تسمية بدر بدراً[7] . وبدر قرية كبيرة في الوقت الحاضر أسفـــل (وادي الصفراء) ، يتجه منها طريق الى (ينبع) ، ومن ينبع الى مكة[8] .

وكان (أبو سفيان) لما بلغ (الزرقاء) من بلاد الشأم ، وهو منحدر إلى مكة ، أخبره أحدهم ان محمداً قد كان عرض لعيرهم في بدأتهم ، وانه تركه

---

١ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) .
٢ العرب (١٩٦٨) ، (حـ ١١ ص ٩٧٧) .
٣ تاج العروس (٧/١٥١) ، (شنوكة) ، العرب (١٩٦٨) ، (حـ ١١ ص ٩٧٧) .
٤ العرب (١٩٦٨) ، (حـ ١١ ص ٩٧٧) .
٥ العرب (حـ ١١) ، (السنة الثانية) ، (١٩٦٨) ، (ص ٦٢) .
٦ تاج العروس (١٠/٣٦٥) ، (نزا) .
٧ تاج العروس (٣/٣٤) ، (بدر) .
٨ العرب (١٩٦٨) ، (حـ ١١ ص ٩٧٨) .

مقيماً ينتظر رجعتهم ، فخرج خائفاً من الرصد ، فلما بلغ الساحل، أرسل رسولاً استأجره بعشرين مثقالاً ، وأمره أن يخبر قريشاً ان محمداً قد عرض لعيرهم ، فذهب اليهم وأخبرهم ، فتجهزوا وأسرعوا لانقاذ قافلة (أبـي سفيان) ، الذي خاف خوفاً شديداً حين دنا من المدينة ، فلما أصبح (أبو سفيان) ببدر ، ضرب وجه عيره فساحل بها ، وترك بدراً يساراً وانطلق سريعاً ، حتى بلغ مكة . وكان أهل مكة قد خرجوا من مكة على طريق (مرّ الظهران) ، ثم (عسفان) ثم (قديد) ، ثم إلى (مناة) من البحر ، ثم (الجحفة) ، ثم (الأبواء) ، ثم (بدر)[1] ، حيث التقوا برسول الله ، فوقعت معركة بدر .

وكانت قريش تأخذ الساحل : ساحل البحر حين تأخذ إلى الشأم[2] . وهو طريقها الى متجرها هناك ، وقد عرف بالمعرقة ، وفيه سلكت عير قريش حين كانت وقعة (بدر) . ومن هذا قول (عمر) لسلمان أين تأخذ إذا صدرت أعلى المعرقة أم على المدينة ؟[3] . ويقع طريق المعرقة بين (عزور) وبين (رضوى) تختصره العرب إلى الشأم والى مكة وإلى المدينة . وهو بين الجبلين[4] .

ومن مواضع هذا الطريق : العيص ، وهو عرض من أعراض المدينة ، وموضع على مقربة من ساحل البحر[5] . ومن (ذي المروة)[6] . وهو موضع على طريق تجارة قريش مع الشأم ، وبه كان يمر طريق الشأم ومصر إلى المدينة ومكة[7] . وإلى سيف البحر ناحية العيص أرسل الرسول (حمزة) ، حين بلغه ان (أبا جهل) قد جاء بعير لقريش من الشأم يريد مكة في ثلاثمائة راكب[8] . فقد كان هذا الموضع من الساحل مسلك قوافل قريش . ولا يزال اسم العيص معروفاً . وفي مقابله (الحوراء) ، مرفأ سفن مصر في القديم[9] .

---

١ امتاع الاسماع (١/٦٦ وما بعدها) ، الطبري (٢/٤٣٧ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/٦٣٩) .
٣ تاج العروس (٧/١١) ، (عرق) .
٤ عرام (٣٩٦) .
٥ تاج العروس (٤/٤١١) ، (عيص) .
٦ الطبري (٢/٦٣٩) .
٧ بلاد العرب (٣٩٥،٣٩٦،٤١٣،٤١٤) .
٨ امتاع الاسماع (١/٥١ وما بعدها) ، ابن هشام (٢/٥٦) ، (حاشية على الروض)
٩ تاج العروس (٣/١٦١) ، (حور) .

ولم يذكر علماء السير والأخبار أسماء المراحل التي قطعتها قريش عند زحفها على (أحد) بتفصيل . وكل ما ذكروه أن قريشاً جاؤوا فنزلوا (عينين) بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة [1] . وذكر أنه الجبل الذي أقام عليه الرماة يوم أحد ، ولذلك قيل ليوم أحد يوم عينين[2] . وكانوا قد قدموا من (ذي طوى) على طريق (الأبواء) حيث همت وهي هناك أن تنبش قبر (آمنة) أم النبي . وسلكوا (العقيق) حتى نزلوا ظاهر المدينة [3] . ثم التقوا بالمسلمين عند أحد .

ويظهر من هذه الأسماء ، أن قريشاً سلكت في سيرها على المدينة الطريق المألوف الذي يمر بالأبواء . و (ذو طوى) موضع قرب مكة عرف بالزاهر ، به بئر حفرها (عبد شمس بن عبد مناف)[4] .

ولما سار الرسول للعمرة ، سلك طريق (الفرع) (الفروع) نحو (مر الظهران) ، ثم (بطن يأجج) ، وحبس الهدي بـ (ذي طوى) ودخل مكة من الثنية[5] . و (مر الظهران) ، واد به عيون ومياه ، غير بعيد عن مكة ، وبه (مجنة) ، ويعرف الآن بوادي فاطمة [6] .

وخرج الرسول من المدينة ، فسلك حرة بني حارثة ، ثم (الشوط) بين المدينة وأحد ، ثم (الشيخين) حتى نزل الشعب من (أحد) في عدوة الوادي الى الجبل[7] . ولما عاد الرسول الى المدينة ، بلغه أن (أبا سفيان) كان بموضع (ملل) ، يقرر الرجوع على المسلمين ، وأن رجلاً أخبره أنه رأى (أبا سفيان) بالروحاء، وهو مجمع مع قريش على السير على المدينة . وسأل الرسول عن موضع قريش فقيل له : إنه بالسيالة ، فخرج من المدينة حتى وصل (حمراء الأسد) فبلغه رجوع قريش الى مكة ، وذهاب شرها فرجع الى يثرب[8] .

---

١ الطبري (٢/٥٠٢) ، (غزوة أحد) .
٢ تاج العروس (٩/٢٩١) ، (عين) .
٣ امتاع الاسماع (١/١١٥ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (١٠/٢٢٩) ، (طوى) .
٥ امتاع الاسماع (١/٣٣٧ وما بعدها) ، الطبري (٣/٢٣ وما بعدها) .
٦ بلاد العرب (٢٤،٣٢) .
٧ الطبري (٢/٥٠٤ وما بعدها) .
٨ الطبري (٢/٥٣٤) ، امتاع الاسماع (١/١٦٧ وما بعدها) .

ولما عاد (عمرو بن أمية الضمري) من مكة ، وكان قد وجهه الرسول لقتل أبي سفيان ، خرج إلى (التنعيم) ، ثم أخذ طريق (الصفراء) ، ثم (غليل ضجنان) ، ثم أخذ المحجة ، ثم (النقيع) حتى وصل المدينة [1] .
و (التنعيم) على ثلاثة أميال أو أربعة من مكة ، وهو أقرب أطراف الحل إلى البيت ، على يمينه جبل نعيم ، وعلى يساره جبل ناعم ، والوادي اسمه (نعمان) [2] .
و (الصفراء) واد بين مكة والمدينة ، وراء بدر مما يلي المدينة [3] . و (ضجنان) غليل يظهر من وصف خبر رجوع (عمرو بن أمية) إلى المدينة ، انه بعد الصفراء ، ذكر انه موضع أو جبل بين مكة والمدينة ، ويظهر ان العلماء كانوا قد اختلفوا في تعيين مكانه [4] . و (النقيع) هو (نقيع الخضمات) الذي حماه (عمر) لنعم الفيء وخيل المجاهدين فلا يرعاها غيرها . وورد في الحديث أول جمعة جمعت في الاسلام بالمدينة في نقيع الخضمات [5] . ويظهر من شعر لمعبد بن أبي معبد الخزاعي ، ان ماء (ضجنان) بعد ماء (قديد) [6] .

ولما سار الرسول على (بني لحيان) ، خرج من المدينة ، فسلك على (غراب) جبل بناحية المدينة على طريقه الى الشأم ، ثم على (مخيض) ، ثم على (البتراء) ثم صفق ذات اليسار ، ثم على (يين) ، ثم على (صخيرات اليمام) ، ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة ، حتى نزل على (غُران) ، وهي منازل بني لحيان . و (غران) وادٍ بين (أمج) و (عسفان) الى بلد يقال له (ساية) . ثم سار الرسول حتى نزل (عسفان) ، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كُراع (الغميم) ، ثم (كرا) ، ثم قفل الرسول راجعاً الى المدينة [7] .

---

١ الطبري (٢/٥٤٣ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٨/٨٤) ، (نعم) .
٣ تاج العروس (٣/٣٣٥ وما بعدها) ، (صفر) .
٤ تاج العروس (٩/٢٦٣) ، (ضجن) .
٥ تاج العروس (٥/٥٣٠) ، (تقع) .
٦ تهوى على دين أبيها الاتلد قد جعلت ماء قديد موعدي
وماء منجنان لها ضحى الغد
الطبري (٢/٥٦٠) .
٧ الطبري (٢/٥٩٥) .

ويظهر من هذا الوصف أن الرسول أراد اعماء خبر غزوته عن (بني لحيان) ، فسلك طريق الشأم ، ثم غيَّر اتجاهه ، فتوجه نحو (يين) وصخيرات السيام ، فبلغ الجادة ، ثم أسرع حتى بلغ (غران) ، منازل (بني لحيان) بين (أمج) و (عسفان) . فتكون منازل (بني لحيان) في هذه المنطقة .

ولما سار الرسول على مكة عام الفتح ، سلك طريق (العرج) ، و (العرج) جبل بين مكة والمدينة يمضي الى الشأم[1] ، وواد يقع بين أم البرك ، الموضع المعروف بالسقيا قديماً ، وبين الجيّ ، الوادي الذي يقطعه المسافرون مع طريق السيارات القديم الى (المسيجد)[2] ، وذكر أنه على أربعة أميال من المدينة[3] ، وكان الرسول قد نزل (السقيا) ، وهي (أم البرك) الآن[4] ، وذكر أنه بين المدينة والصفراء ، وفي الحديث أنه كان يستعذب من بيوت السقيا[5] . و (الصفراء) وراء (بدر) مما يلي المدينة[6] . كما مرّ بثنية العقاب[7] وبالأبواء ، وبذي الحليفة ، وبالجحفة ، وبالكديد ، وهو موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة بين (عسفان) و (رابغ) ، وقيل بين عسفان وقديد بينه وبين مكة ثلاث مراحل ، أو بين ثنية غزال وأمج[8] . وبـ (قديد)[9] ، وبمر الظهران[10] .

ولما حج الرسول حجة الوداع ، سار من المدينة،فصلى الظهرَ بـ(ذي الحليفة) ، ثم استوى بالبيداء ، ومرّ إلى (القاحة) ، وهو موضع على ثلاث مراحل من

---

١ المسالك (١٧٢) .

٢ بلاد العرب (٢٩، ٣٣٨) .

٣ تاج العروس (٢/٧٢) ، (عرج) .

٤ بلاد العرب (٢٩، ٣٣٠، ٣٩٦) .

٥ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) .

٦ تاج العروس (٣/٣٣٥) ، (صفر) .

٧ الطبري (٣/٥٢) .

٨ تاج العروس (٢/٤٨٣) ، (كد) .

٩ تاج العروس (٢/٤٦١) ، (قد) .

١٠ امتاع الاسماع (١/٣٥٧ وما بعدها) ، الطبري (٣/٤٢ وما بعدها) ، (ذكر الخبر عن فتح مكة) .

المدينة وعلى ميل من (السقيا) ، وهو بين (الجحفة) و (قديد)[1] . ثم سار الى (ملل) (يلملم)[2] ، وهو موضع به آبار ، علـى مسافة اثني عشر ميلاً من (الشجرة)[3] ، أو سبعة عشر ميلاً من (المدينة) ، وقيل عشرين ميلاً[4] ، ثم شرف السيالة ، وهو موضع بين (ملل) و (الروحاء) في طريق مكة[5] ، ثم (عرق الظّبية) بين (الروحاء) و (السيالة) ، وهو دون (الروحاء) ، ثم نـزل (الروحاء) ، ثم راح مـن (الروحاء) فصلى العصر بالمنصرف[6] . و (المنصرف) على أربعة بُرُد من (بدر) مما يلي (مكة)[7] ، وصلى المغرب بالمُتعشى وتعشى به ، وصلى الصبح بالأثاية . و (أُثايـة) بطريق (الجحفة) إلى مكة ، فيه مسجد نبوي ، قيل بينه وبين المدينة خمسة وعشرون فرسخاً ، أو بئر دون العرج[8] . وأصبح بالعرج يوم الثلاثاء[9] .

ونزل (السقيا) يوم الأربعاء ، وأصبح بالأبواء ، ثم راح إلى (الجحفة) ، ثم راح منها إلى (قديد) ، ثم (عسفان) ، ثم (الغميم) . ثم (مر الظهران) ، ثم نزل موضع (سرف) . ولما انتهى الى (الثنيتين) بات بينهما ، بين (كداء) و (كدى) ، ودخل مكة من (كداء)[10] .

وأما الطريق من مكة الى الطائف ، فمن مكـة الى بئر ابن المرتفع ، ثم الى قرن المنازل ، وهي ميقات أهل اليمن والطائف ، ثم الى الطائف ، ومـن أراد من مكة الى الطائف على طريق العقبة يأتي عرفات ، ثم بطن نعمان ، ثم يصعد عقبة حراء ، ثم يشرف على الطائف ويهبط ويصعد عقبة خفيفة ، تسمى (تنعم

---

١ تاج العروس (٢/ ٢١٠) ، (قاح) ، امتاع الاسماع (١/ ٥١٢) ، (حاشية رقم ٣) .
٢ « يلملم » هكذا في امتاع الاسماع (١/ ٥١٣) ، وهو خطأ ، فـ « يلملم » ميقات أهل اليمن ، والصواب « ملل » .
٣ المسالك (١٣٠، ١٨٧) .
٤ تاج العروس (٨/ ١٢٠) ، (ملل) .
٥ تاج العروس (٧/ ٣٨٥ وما بعدها) ، (سال) ، (٦/ ١٥٢) ، (شرف) .
٦ امتاع الاسماع (١/ ٥١٣) .
٧ تاج العروس (٦/ ١٦٥) ، (صرف) .
٨ تاج العروس (١٠/ ١٠) ، (أثى) .
٩ امتاع الاسماع (١/ ٥١٣) .
١٠ امتاع الاسماع (١/ ٥١٦ وما بعدها) .

الطائف) ، ثم يدخل الطائف[1] .

وبين مكة والطائف ، موضع يقال له (بطن نخلة) (نخلة)[2] ، اليه أرسل الرسول (عبدالله بن جحش) على رأس سرية ، ليرصد بها عير قريش . فسلك على الحجاز ، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له (بحران) سلك طريقه نحو (نخلة) حتى بلغها ، فمرت بهم عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش وخمراً ، فاستولت على العير وأخذت أسيرين ممن كان يحرس العير ، ورجعت الى المدينة . وذكر أن (عبـــدالله بن جحش) كان يحمل كتاباً من الرسول ، يعين له الهدف ، أمره ألا يفتحه إلا بعد أن يسير ليلتـين ، فلما سار وصار ببطن (ملل) أو عند (بئر ابن ضميرة) فتح الكتاب ، فـإذا فيه أن يذهب الى (بطن نخلة) ليتحسس أخبار قريش[3] .

وقد سلك أهل مكة في ذهابهم إلى اليمن وفي إيابهم منها جملة طرق ، منها ما تمرّ بالساحل ، ومنها ما تمر شرقاً عنه. ومن هذه الطريق : طريق يبدأ بمكة ، ثم إلى (قرن المنازل) ، قريـــة كبيرة ، وهو ميقات أهل اليمن والطائف ، واسم واد[4] . ثم إلى (الفتق)[5] ، وهو قرية ، ثم إلى (صفن) (صفر) (صقر) ، ثم إلى (تربة) ، ثم إلى (كرى) (كرا) (كدا) (كدى) ، ثم إلى (رنية) ، ثم إلى (تبالة) ، ويرد اسمها في تأريخ (الحجاج) ، فقد استعمل عبد الملك (الحجاج) عليها ، فلما أتاها استحقرها ولم يدخلها ، فقيل : « أهون من تبالة على الحجاج »[6] . ثم إلى (بيشة بعطان) ، ثم إلى (جسداء) ، ثم إلى (بنات حرب) (بنات حرم) ، ثم إلى (يبمبم) ، وهو منزل في صحراء فيه بئر واحدة عذبة ، وليس به أهل ، وحوله أعراب من خثعم ، وبينه وبين

---

١ المسالك (١٣٤) ، قدامة (١٨٧ وما بعدها) .

٢ وقد ذكر في شعر لامرىء القيس :

فريقان منهـــم سالك بطن نخلة　　　واخر منهم جازع نجـــد كبكـــب

تاج العروس (٨/١٣١) ، (نخل) .

٣ الطبري (٢/٤١٠ وما بعدها) ، ابن هشام (٢/٥٩) ، (حاشية على الروض) ، امتاع الاسماع (١/٥٥ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (٩/٣٠٦) ، (قرن) ، صبح الاعشى (٥/٤٣) .

٥ تاج العروس (٧/٤١) ، (فتق) .

٦ تاج العروس (٧/٢٣٩) ، (تبل) .

(جرش) نحو أربعة عشر ميلاً ، ومنه إلى (كتنة) (كثبة) ، ثم إلى (الثجة) ، ثم (سروم راح) (شروم راح) ، ثم إلى (المهجرة) ، وفيما بين (سروم راح) والمهجرة طلحة الملك ، شجرة عظيمة تشبه الغرب ، غير انها أعظم منه ، وهي الحد ما بين عمل مكة وعمل اليمن[1] . وكان النبي حجز بها بين اليمن ومكة[2] .

ومن (المهجرة) يتجه الطريق الى (عرقة) ، وهو أول عمل اليمن ، ثم الى (صعدة) ، وهي مدينة يدبغ فيها الأدم ، واشتهرت بالنعل[3] . ولصعدة مخاليف ، وقرى كثيرة . وقد ذكر (قدامة) أن أكثر تجار (صعدة) من أهل البصرة ، وطريق منها للبصريين يرجع الى (ركبة) (الركيبة) . مما يدل على أن التجارة كانت متينة بين أهل اليمن وبين أهل البصرة في الإسلام . ومن يدري ، فلعل هذه التجارة تعود الى ما قبل تأسيس البصرة ، أي الى ما قبل الإسلام .

ومن صعدة ، يتجه الطريق الى (الأعمشية) ، ومن الأعمشية الى خيوان ، قرية جبلية الماء من السماء ، وفيها كروم ، ومن خيوان الى (اثافت) ، وهي قرية عظيمة وفيها زروع وكروم ، وماء الشرب من بركة[4] . ثم الى صنعاء)[5] .

والطريق المذكور،هو الطريق الذي عليه الأميال ، وهو طريق العوامل والعمال[6] . فهو الطريق المسلوك الذي يمر به البريد .

وذكر العلماء أن أهل (صنعاء) كانوا إذا أرادوا مكة قصدوا (الرحابة) ، ثم الى (رافدة) ، ثم الى (خيوان) ، ثم الى (صعدة) ، ثم الى (النضح)، ثم (القصبة) ، ثم (الثجة) ثم كثبة ، (كتنة) ، ثم بنات حرم (بنات حرب) ثم جسداء ، ثم بيشة ، ثم تبالة ، ثم رنية ، ثم الزعراء ، ثم صفر ، ثم الفتق، ثم بستان ابن عامر ، ثم مكة[7] .

---

١ المسالك (١٣٤ وما بعدها) .
٢ قدامة (١٨٩) .
٣ المسالك (١٣٥) ، تاج العروس (٢/٣٩٨) .
٤ المسالك (١٣٦) ، قدامة (١٨٩) ، صبح الاعشى (٥/٤٣ وما بعدها) .
٥ المسالك (١٣٦) .
٦ قدامة (١٩٠) .
٧ قدامة (١٩٢) ، الصفة (١٨٦) .

و (تربة) بناحية (العبلاء) ، على أربع ليال من (مكة) طريق صنعاء ونجران . واليها أرسل الرسول (عمر بن الخطاب) على رأس سرية في شعبان سنة سبع . وأصحابها من (عجز هوازن)[1] .

وذكر (الهمداني) محجة (صنعاء) إلى مكة على هذا النحو : ريدة ، ومنها إلى (أثافت) ، ثم خيوان ، ثم العمشية ، ثم صعدة ، ثم إلى (العرقة) ، في المحجة اليسرى القديمة ، ثم بقعة في المحجة اليمنى المحدثة ، ثم إلى مهجرة ، ثم إلى أرينب ، ثم سروم الفيض ، ثم إلى الثجة ، ثم الى كتنة،ثم الى الهجيرة، ثم الى يَبَنَبم ، ثم الى بنات حرب ، ثم الى الجسداء ، ثم الي بيشة بعطان ، ثم تبالة ، ومنها الى كرى ، ثم تربة ، ثم الى الصفن ، ثم الفتق ، ثم الى رأس المناقب ، ثم قرن المنازل ، ثم رمة ، ثم الزيمة ، ثم مكة[2] .

وذكر (الهمداني) ان هنالك طريقاً يمر بتهامة ، هو محجة صنعاء الى مكة. فقال : « من صنعاء صليت من البون ، ثم المربد ، ثم أسفل العرقة وأخرف ، ثم الصرجة ، ثم رأس الشقيقة ، ثم حرض ، ثم الخصوف من بلد حكم ثم الجوينية من قنونا وتسمى القناة ، ثم دوقة وهي للعبديين من بقايا جرهم ، ثم الى السرين ، ثم المعجر ، ثم الخيال ، ثم الى يلملم ثم ملكان ثم مكة . هذه طريق الساحل » . « والمحجة القديمة ترتفع الى حلي العليا وتسمى حلية ، واليها ينسب أسود حلية ... ثم الى عشم ، ثم على الليث ومركوب الى يلملم »[3] .

وأما محجة (عدن) ، فمن عدن الى المخنق ، ومن المخنق الحُجار ، ومن الحجار المسيل ، ومن المسيل عبرة ، ومن عبرة الى كهالة ، بئر ذي يزن ، ومن كهالة الماجلية ، ثم المقعدية ، ثم الى زبيد ، ثم الى المعقر ، ثم الكدراء ، ثم المهجم ، وبالمهجم تفضى محجة صنعاء على وادي سهام ، ثم بلحة من وادي مور ، ثم الحسارة ، ثم العباية ، ثم الشرجة ، ثم العُرش ، ثم عثر[4] .

وذكر (ابن خرداذبه) طريقاً ساحلياً ربط (عمان) بمكة ، وهو الطريق الذي سلك في الإسلام . وقد كان جاهلياً ولا شك، لأن الجاهليين والروم وغيرهم كانوا يساحلون العربية الغربية والجنوبية والشرقية ، ويهبطون بعض المواضع التي

---

١ امتاع الاسماع (١/٣٣٣) ، تاج العروس (١/١٥٩) ، (ترب) .
٢ الصفة (١٨٦ وما بعدها) .
٣ الصفة (١٨٨) .
٤ الصفة (١٨٨) .

يذكرها المسلمون كمراحل لهذا الطريق . ويبدأ الطريق بعمان ، ثم يمر الى (فرق)، ثم الى (عوكلان) ، ثم الى ساحل (هباه) (هماه) ، ثم الى (الشحر)، وهي بلاد (الكندر)[1] ، ثم الى مخلاف (كندة) ، ثم الى مخلاف (عبدالله بن مذحج) ، ثم الى مخلاف (لحج)[2] ، ثم الى (عدن أبين) ، ثم الى (مغاص اللؤلؤ) ، ثم الى (مخلاف بني مجيد) ، ثم الى (المنجلة) ، ثم الى مخلاف الركب ، ثم الى المندب ، ثم الى مخلاف زبيد ، ثم الى غلافقة ، ثم الى مخلاف علك ، ثم الى الحردة ، ثم الى مخلاف حكم ، ثم الى عثر ، ثم الى مرسى ضنكان ، ثم الى مرسى حلي، ثم الى السرين ، ثم الى أغيار ، ثم الى الهرجاب، ثم الى الشعيبة ، ثم الى منزل لم يذكر (ابن خرداذبه) اسمه ، ثم الى (جدة) وهي اسلامية ، لم تكن في الجاهلية ، وإنما ذكرت هنا ، لأن هذا الطريق ، كان يسلك في الاسلام ، ومن جدة الى مكة[3] .

ويوجد طريق بري بين مكة وحضرموت يمر بـ (نجران) و (الضحيان) و (تثليث) ، وهو طريق مختصر يكون الجادة الى حضرموت[4] .

وذكر (الهمداني) ان محجة حضرموت من العبر الى الجوف ، ثم صعدة ، وتنضم معهم في هذه الطريق أهل مأرب ، وبيحان ، والمسّروين ، ومرخة ، وهذه محجة حضرموت العليا . وأما محجتها السفلى ، فمن العبر في شثز صيهد الى نجران ، ثم من نجران حبونن ، ثم الملحات ، ثم لوزة ، ثم عبالم ثم مريع ، ثم الهجيرة ، ثم تثليث ، ثم جاش ، ثم المصامة ، ثم مجمعة ترج ، والتقت بمحجة صنعاء بتبالة[5] .

---

١ قال الشاعر :

اذهب الى الشحر ودع عمانا الا تجد تمرا تجد لبانا

المسالك (١٤٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٩٣/٣) ، (شجر) .

٢ « ولحج بفتح فسكون بعدن أبين . سمى بلحج بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميع بن حمير بن سبأ » ، تاج العروس (٩٤/٢) .

٣ المسالك (١٤٧ وما بعدها) ، قدامة (١٩٢ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٥٧/٥) .

٤ تاج العروس (٢١٧/١٠) ، (ضحا) .

٥ الصفة (١٨٨ وما بعدها) .

الفصل الرابع بعد المئة

الاسواق

والسوق المحل الذي يتسوق منه . وهي إما ثابتة مع أيام السنة ، يبيع فيها الباعة ويقصدها المشترون للشراء ، وإما موسمية ، تعقد في مواسم معينة ، فإذا انتهى الموسم رفعت . ويقال للسوق القسيمة كذلك[1] .

وتكون الأسواق الثابتة في مواضع السكن ، كالقرى والمدن والمستوطنات، أي بين (الحضر) ، حيث القرار والاستقرار والإقامة ، فيجلس الناس في السوق يبيعون ما عندهم من سلع ، يبسطونها على الأرض ، أو على (الدكة) المبنية للجلوس عليها ، ولعرض البضاعة فوقها ، أو على مائدة أو ما شابه ذلك، وهم من صغار الباعة ممن لا تكون عندهم سلع كثيرة . أما الباعة الكبار فيجلسون في (حوانيت) ، وهي (الدكاكين) ، يبيعون فيها سلعهم التي توضع فيها ، ولها أبواب ، فإذا انتهوا من البيع ، أغلقوها ليعودوا اليها في اليوم الثاني . ويقال للحانوت (المبيعة) كذلك .

ولم يكن كل الباعة يملكون حوانيتهم ، أو ما يعرضونه من سلع للبيع . فبينهم

---

١ « والقسيمة ، وهي السوق أيضا » ، القاموس (١٦٥/٤) ، والقسيمة كسفينة ، وبه يفسر قول عنترة :
وكأن فارة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها اليك من الفم
وعلى قول ابن الاعرابي أصله القسمة فأشبع الشاعر ، ضرورة . وهي السوق » ، تاج العروس (٢٧/٩) ، (قسم) .

من كان يشتغل لغيره ، كأن يكون مملوكاً ، أقامه سيده في (مبيعته) ، ليبيع عنه ، وليأتي بثمن ما باعه اليه ، ومنهم من كان أجيراً اتفق مع صاحب الحانوت ومالكه على أن يشتغل عنده في مقابل أجر يقدمه اليه ، فهو لا ينال من الدكان إلا أجر عمله .

والبيع في العربية من الأضداد ، يقال : باع فلان اذا اشترى ، وباع من غيره . والبائع هو كل من البائع والمشتري ، والبياعة : السلعة ، والتبايع المبايعة، والبيعة الصفقة على ايجاب البيع وعلى المبايعة ، والمبيعة الدكان ، أي موضع البيع[1] .

وقد تخصص بعض الجاهليين في عمله ، فنهم من كان حدّاداً ، حرفته معالجة الحديد ، ومنهم من كان نجاراً ، ومنهم من كان بزّازاً ، ومنهم من كان عطّاراً ، ومنهم من كان (جزاراً) حرفته (الجزارة) . وقد يجتمع صنف واحد من الباعة في مكان واحد ، يكوّنون سوقاً خاصة بهم ، فتسمى سوقهم باسم ذلك الصنف .

وهناك مصطلحات تطلق على السوق من حيث الرواج والكساد . فإذا نشطت السوق وراج عمل أصحابها قيل نفقت السوق[2] ، واذا كسدت قيل انحمقت[3] .

و (الصفقة) البيعة . يقال صفقة رابحة وصفقة خاسرة ، أي بيعة . وإنما قيل للبيعة صفقة ، لأنهم إذا تبايعوا تصافقوا بالأيدي ، ويقال لمن لا يشتري شيئاً إلا ربح فيه : إنه لمبارك الصفقة . والصفقة تكون للبائع والمشتري . والصفق التبايع . وفي حديث (ابن مسعود) صفقتان في صفقة ربا ، أراد بيعتان في بيعة ، وهو على وجهين ، أحدهما أن يقول البائع للمشتري بعتك عبدي هذا بمائة درهم على أن تشتري مني هذا الثوب بعشرة دراهم ، والوجه الثاني أن يقول بعتك هذا الثوب بعشرين درهماً على أن تبيعني سلعة بعينها بكذا وكذا درهماً[4] .

و (الصفاق) الكثير الأسفار والتصرف في التجارات[5] .

---

١ تاج العروس (٥/٢٨٤ وما بعدها) ، (بيع) .
٢ القاموس (٣/٢٨٦) ، تاج العروس (٧/٧٩) .
٣ القاموس (٣/٢٢٤) ، تاج العروس (٦/٣٢٤) .
٤ تاج العروس (٦/٤٠٩) ، (صفق) .
٥ تاج العروس (٦/٤٠٩) ، (صفق) .

وقد يشهد الأسواق للتجارة قوم لا رأس مال عندهم ولا نقد لديهم ، فإذا اشترى التجار شيئاً دخلوا معهم فيه . ويقال لهؤلاء : (الصعافقة)[1] .

وقد ترد التجارة من الخارج لبيعها في السوق . ويقال للذين يجلبون الإبل والغنم للبيع الأجلاب والجلب . وذكر ان الجلب ما يجلب من إبل وغنم وخيل ومتاع وسبي . وفي المثل : النفاض يقطر الجلب ، أي اذا نفض القوم ، بمعنى نفدت أزوادهم قطروا إبلهم للبيع ، كالجليبة و (الجلوبة)[2] . ويقال لموضع بيع النعم : (المربد)[3] .

وتمتار القبائل ميرتها من أسواق الحضر ، والميرة الطعام يمتاره الانسان، وجلب الطعام . فكان رجالها يقصدون الأسواق في المواسم وعند الحاجة لشراء ما فيها من طعام يحتاجون اليه ، ومن حاجيات أخرى يحتاجون اليها،ثم يعودون الى منازلهم . و (الميار) جالب الميرة ، ويقال للرفقة التي تنهض من البادية الى القرى لتمتار (ميارة)[4] .

و (السواقط) الذين يردون اليمامة لامتيار التمر ، و (السقاط) ما يحملونه من التمر[5] .

ويقال لكل سوق يجلب اليها غير ما يؤكل من حر الطيب والمتاع غير الميرة (لطيمة) . والميرة لما يؤكل . وذكر أن اللطيمة سوق فيها أوعية من العطر ونحوه ، وربما قيل لسوق العطارين لطيمة[6] .

ويقال للإبل التي تخرج ليجاء عليها بالطعام (ركاباً) ، حين تخرج وبعدما تجيء . وتسمى عيراً على هاتين المنزلتين . والتي يسافر عليها الى مكة أيضاً ركاب تحمل عليها المحامل والتي يكثرون ويحملون عليها متاع التجار وطعامهم كلها ركاب ، ولا تسمى عيراً ، وإن كان عليها طعام إذا كانت مؤاجرة بكرى . وليس العير التي تأتي أهلها بالطعام ولكنها ركاب . ويقال زيت ركابي ، لأنه

---

١ تاج العروس (٦/٤٠٧) ، (الصعفوق) .
٢ تاج العروس (١/١٨٤) ، (جلب) .
٣ تاج العروس (٢/٣٤٩) ، (ربد) .
٤ تاج العروس (٣/٥٥٢) ، (ماير) .
٥ تاج العروس (٥/١٥٦) ، (سقط) .
٦ تاج العروس (٩/٦٠) ، (لطم) .

يحمل من الشأم على ظهور الإبل [1] .

ويباع في الأسواق كل شيء : سلع مختلفة الأصناف والألوان ومنها البشر والحيوان . وقد ذكر العبيد والإماء مع الحيوانات في بعض الأوامر والأنظمة التي أصدرها الملوك في تنظيم البيع والشراء ، وفي كيفية جباية حصة الحكومة من البيع والشراء ، كما في هذه الجملة المقتبسة من أمر ملكي أصدره الملك (شمر يهرعش ملك سبأ وذي ريدان) في تنظيم التجارة والجباية : « بن انسم وابلم وثورم وبعرم وشامت بمنمو ذ يشامتم عبدم فعو امتم وبعرم » [2] . ومعناها : « من انس (بشر) وإبل وثيران وبعر تشتري . ومن يشتري عبداً أو أمتاً أو بعراً » . فذكر (انسم) أي (انس) وذكر بعدهم الإبل والثيران والبعر وغير ذلك . وكيف يميز بين الانسان والحيوان ، والانسان في ذلك الوقت سلعة ، مثل سائر السلع تباع وتشترى ، ليكون عبداً وخادماً ومملوكاً لمشتريه !

والبضاعة ، القطعة من مال يتجر فيه . وأبضعه البضاعة أعطاه اياها [3] . وهي من الألفاظ التجارية التي لا زالت رائجة جارية على كل لسان في الأسواق .

ويقال لثمن الشيء : (القيمة) ، وهو ثمن الشيء بالتقويم . وقومت السلعة ثمنتها . ويقول أهل مكة : (استقمتها) ، أي ثمنتها ، ويقولون استقمت المتاع ، أي قومته [4] .

و(العينة) خيار المال . وعين التاجر ، إذا باع من رجل سلعته بثمن معلوم الى أجل معلوم ثم اشتراها منه بأقل من ذلك الثمن الذي باعها به . وقد كره العينة أكثر الفقهاء وروى فيها النهي [5] .

وقد كانت بالقرى والمدن أسواق محلية ، فكان بمكة والمدينة أسواق بها مبيعات. ويظهر أن (ملأ) القرى كانوا يشرفون عليها ويأخذون ضرائب البيع والشراء منها . وقد ورد أن (عمر) استعمل على سوق المدينة (السائب بن يزيد) وسليمان بن أبي خيثمة وعبدالله بن عتبة بن مسعود [6] . ولم تشر الرواية الى الأعمال

---

١ تاج العروس (١/٢٧٧) ، (ركب) .

٢ REP. EPIGR. 3910.

٣ تاج العروس (٥/٢٧٩) ، (بضع) .

٤ تاج العروس (٩/٣٦) ، (قوم) .

٥ تاج العروس (٩/٢٩١) ، (عين) .

٦ الاصابة (٢/١٢) ، (رقم ٣٠٧٧) .

التي أناطها (عمر) بهؤلاء . ولكني لا استبعد احتمال كون هذا التعيين استمرار لعادة قديمة كانت متبعة بيثرب قبل الإسلام ، لمراقبة السوق ، ولمنع التلاعب به وأخذ الحقوق من التعامل بالسوق .

أسواق العرب الموسمية :

وللعرب أسواق يقيمونها شهور السنة وينتقلون من بعضها الى بعض ويحضرها سائر العرب بما عندهم من حاجة الى بيع أو شراء [1] . وتقع هذه الأسواق في مواضع مختلفة متناثرة من جزيرة العرب . فهي إذن أسواق عربية . وهناك أسواق أخرى قصدها العرب للاتجار في مواسم وفي أوقات مختلفة ، كانت خارج جزيرة العرب ، في العراق أو في بلاد الشام أو في الحبشة ، وقد كان العرب يقصدونها أيضاً للاتجار والامتيار .

وقد ذكر (اليعقوبي) ، ان أسواق العرب كانت عشرة أسواق يجتمعون بها في تجاراتهم ويجتمع فيها سائر الناس ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم [2] . ويظهر من قول (اليعقوبي) هذا من انهم كانوا يأمنون فيها على دمائهم وأموالهم أثناء التقائهم بها . ان من دين أهل الجاهلية ، اعتبار هذه الأسواق أماكن حرماً ، يأمن الانسان فيها دمه وماله ما داموا في ضيافة السوق وحرمته . ولهذا كان لكل سوق (قومة) يقومون بأمر السوق وبالمحافظة على الأرواح والأموال فيه . فقد « كان في العرب قوم يستحلون المظالم ، إذ حضروا هذه الأسواق ، فسمّوا (المحلّون)» [3] . وهؤلاء (المحلون) ، هم مثل (المحلون) الذين كانوا لا يقيمون وزناً لحرمة (الحرم) و (الحرمات) ، مثل حرم مكة ، ولا يقيمون للأشهر الحرم قدراً ، فكانوا يعتدون فيها وفي كل شهر ، ولذلك قيل لهم (المحلون) .

---

١ بلوغ الارب (١/٢٦٤) ، المرزوقي ، الازمنة والامكنة (٢/١٦١ وما بعدها) ، المفضليات (٢٠٨) ، البكري ، معجم (٣/٩٥٩) ، النقائض (١/١٣٩) ، العقد الفريد (٥/٢٠٨) ، البيان والتبيين (٣/١٠٠) ، الاغاني (٥/٢٣) ، (١١/٨٢،٦) ، (١٢/١٦) ، (١٥/٢٤٠) ، أسد الغابة (٢/٢٢٤) ، الاغاني (١٤/١٤٥) .

٢ اليعقوبي (١/٢٣٩) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

٣ اليعقوبي (١/٢٤٠) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

ومن المحلّين قبائل من أسد وطيء وبني بكر بن عبـد مناة بن كنانة وقوم من بني عامر بن صعصعة [1] .

ولحماية الأسواق والمجتمع من (المحلّين) ، الذين أباحوا لأنفسهم استحلال المظالم ، ظهر قوم من أهل المروءة والمعروف ، تواصوا فيما بينهم على ردّ السفيه عن سفهه والغاوي عن غيّه، ونصبوا أنفسهم حماة على الأسواق ، يحملون سلاحهم فيها في الأشهر الحلّ وفي الأشهر الحرم للذود عن الحرمات . وقد عرف شمل هؤلاء بـ (الـذادة المحرمون) . وقد تحدث عنهم (اليعقوبي) ، فقال : « وكان في العرب قـوم يستحلّون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق ، فسمّوا المحلّون ، وكـان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، فيسمون : الـذادة المحرمون . وأما المحلّون ، فكانوا قبائل من أسد وطيء وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة وقوم من بني عامر ابن صعصعة . وأمـا الذادة المحرمون ، فكانوا من بني عمرو بن تميم ، وبني حنظلة بن زيد منـاة ، وقوم من هذيل ، وقوم من بني شيبان وقوم من بني كلب بن وبرة . فكانوا هؤلاء يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس ، وكان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع أسلحتهم في الأشهر الحرم » [2] .

والذود في اللغة السوق والطرد والدفع . فالذادة هـم المدافعون الذابون عن المظلومين ، والواقفين أمام الظالمين . وقد ورد (ذادة) بمعنى يذودون عن الحرم [3] .

ولم تكن هذه الأسواق محصورة في موضع معين ، انما كانت تعقد في مواضع مختلفة متعددة من جزيرة العرب . وقد خصصت في الغالب بامتيار الأعراب وبشراء ما عندهم من سلع فائضة عليهم . ولا يستبعد بالطبع ورود التجار الأجانب اليها من غير العرب: فقد كان الروم مثلاً يتوغلون الى مسافات بعيدة في هذه الأرضين الشاسعة للبيع والشراء .

وبحكم ورود أناس الى هذه الأسواق لا يسهل الاجتماع والاتصال بهم في الأوقات الأخرى ، فقد قصدها أناس من أماكن بعيدة بحثاً عن طلب أو ترويجاً لرأي ،

---

١ اليعقوبي (١/٢٤٠) ، العقد الفريد (٢/٢٠٦) ، البيان والتبيين (٣/١٠٠) .
٢ اليعقوبي (١/٢٤٠) ، (النجف ١٩٦٤ م) .
٣ تاج العروس (٢/٣٤٧) ، (ذود) .

فقصدها المبشرون للاتصال بالقبائل وللتأثير في بعض أفرادها لادخالهم في دينهم . وفي كتب السير : ان الرسول نفسه كان يخرج في المواسم ، لعرض نفسه على القبائل ، ولهدايتهم الى الاسلام .

ومن أشهر أسواق العرب عند ظهور الإسلام : (سوق دومة الجندل) ، و (سوق هجر) ، و (سوق عمان) ، و (سوق المشقر) ، و (سوق عدن أبين) ، و (سوق صنعاء) ، و (سوق حضرموت) ، و (سوق ذي المجاز) ، و (سوق مجنة) ، و (سوق عكاظ) ، و (سوق حباشة) ، و (سوق صحار) ، و (سوق بدر)[1] ، و (سوق بني قينقاع) ، و (سوق الشحر) ، و (سوق عشر) ، وأسواق محلية أخرى تأتيها القبائل والعشائر للامتيار. وقد ذكر بعض أهل الأخبار أن أسواق العرب الكبيرة كانت في الجاهلية ثلاث عشرة سوقاً ، وأولها قياماً دومة الجندل[2] .

وذكر (الهمداني) ، أن من أسواق العرب القديمة : عدن ، ومكة ، والجند ، ونجران ، وذو المجاز ، وعكاظ ، وبدر ، ومجنة ، ومنى ، وحجر اليمامة ، وهجر البحرين[3] . وسوق (همل) من الخارف ببلد حاشد[4] . وهناك أسواق أخرى عديدة وردت أسماؤها عرضاً في روايات أهل الأخبار .

أما (دومة الجندل) ، فكانوا ينزلونها أولَ يوم من شهر ربيع الأول ، يجتمعون في أسواقها للبيع والشراء والتبادل . وكان أكيدر صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم ، وتدوم سوقهم الى نصف الشهر . وكان (أكيدر) يعشر الناس ، . وربما يتولاها بنو كلب الذين يأتونهم متأخرين ، فيتولونها ، وتدوم عندئذ الى آخر الشهر ، ويتولون هم حينئذ تعشير الناس[5] . ويعرف البيع فيها بـ (بيع الحصاة) ، وهو نوع من أنواع المقامرة أبطله

---

١ الطبري (٢/٢٧٦) ، صبح الاعشى (١/٤١٠ وما بعدها) .
٢ المرزوقي ، الازمنة والامكنة (٢/١٦١) .
٣ الصفة (١٧٩ وما بعدها) .
٤ الصفة (١١٣) .
٥ البلدان (٤/١٠٦ وما بعدها) ، (٢/٦٢٨ وما بعدها) ، « طبعة طهران » « سنة ١٩٦٥ » ، اليعقوبي (١/٢٢٦) « طبعة النجف » ، ابن خلدون (٢ ، القسم الاول ص ٧٧٣) « بيروت ١٩٥٦ م » .

الاسلام[1] . وكانت تقصدها قبائل الشأم والحجاز والأقسام الشمالية والغربية من أعالي نجد ، وتقيم بالقرب منها كلب وجديلة طيء .

وكان الذي يشرف على هذه السوق سادات العرب من كلب أو من غسان ، يتنافسون عليها ويتزايدون ، فأي الحيين فاز ، خضع ودان له الآخــر . وكان مكس هذه السوق لمن يتولى الاشراف عليها . وهم جميعاً يأخذون الاذن بالإشراف على السوق من الملك الذي يحكم الموضع في ذلك الوقت[2] . وكان الإشراف عـلى هذه السوق عند ظهور الاسلام بين (الأكيدر) وبين (قنافة الكلبي) الذي كان ينافسه على الملك[3] .

وذكر (ابن حبيب) انه « كان لكلب فيهـــا قُنٌ كثير في بيوت شعر ، فكانوا يكرهون فتياتهم على البغاء ويأخذون كسب أولئك البغايا ، ولما كان الاسلام حرم هذه العادة بالآية : « ولا تكرهوا فتياتـكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا »[4] .

ودومة الجندل في غائط من الأرض خمسة فراسخ ، ومن مغربــه عين تثج فتسقي ما به من النخل والزرع ، ودومة ضاحية بين غائطها واسم حصنها مارد[5] . وهو حصن قديم ، ورد ذكره في الشعر الجاهلي وفي كتب الأدب . وقد اكتسب شهرة كبيرة بين الجاهليين حتى ضربوا به وبـ (الأبلق) حصن السموأل المثل في العزّ والمنعة ، فقالوا : « تمرد مارد وعز الأبلق » ، قالوا : قصدتهما الزباء فعجزت عن قتالها ، فقالت : « تمرد مارد وعزّ الأبلق » ، وذهب مثلاً لكل عزيز ممتنع[6] . ويظهر أن حصن (مارد) كان من الحصون الحصينة القديمة التي

---

١ بلوغ الارب (١/٢٦٤ وما بعدها) ، المسعودي ، التنبيه (٢١٤) ، الطبري (٢/٥٧٨) « مطبعة الاستقامة » ، تاريخ الخميس (٢٠/١ وما بعدها) ، فتوح البلدان (١/٦٨ وما بعدها) . جمهرة أنساب العرب (٤٠٣) ، فتوح البلدان (٢٢٣) « دار النشر للجامعيين . بيروت ١٩٥٧ » .

٢ البلدان (٤/١٠٦) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (٢/١٦١ وما بعدها) ، المحبر (٢٦٤) ، البكري (٢/٥٦٤ وما بعدها) ، مراصد الاطلاع (٢/٥٤٢ وما بعدها) ، التأريخ الكبير (١/٨٩ وما بعدها) ، المسالك والممالك (١١٥) الكامل (٢/١٩٢) ،

٣ الازمنة والامكنة (٢/١٦١) .

٤ النور ، الرقم ٢٤ ، الآية ٣٣ ، المحبر (٢٦٤) ، الازمنة والامكنة (٢/١٦١ ومـــا بعدها) ، البلدان (٤/١٠٦) .

٥ تاج العروس (٨/٢٩٧) ، (دوم) .

٦ تاج العروس (٢/٥٠٠) ، (مرد) .

بنيت بـ (الجندل) ، أي الحجر[1] .

ولم تكن دومة الجندل سوقاً يقصدها التجار في موسم واحد معين ، بل كانت مفرقاً مهماً من مفارق الطرق ، وموضعاً يقصده أصحاب القوافل الذاهبون من جزيرة العرب الى العراق والى بلاد الشأم ، وبالعكس ، لوجود الماء العذب بها ، وما يحتاج المسافر اليه من زاد وماء . وهي اليوم (الجوف) في المملكة العربية السعودية .

ويقصد سوق المشقر الأعراب الساكنون في العربية الشرقية والأعراب القريبون الى هذا الموضع ، ويرد الى هذه السوق تجار فارس ببياعاتهم يقطعون البحر ، فيتاجرون مع من يقصد هذه السوق من القبائل والحضر . وكانت بنو تميم وعبد القيس جيرانها . أما المشرف عليها فرؤساء تميم من بني عبدالله بن زيد رهط المنذر بن ساوى ، وكانوا يتلقبون بألقاب الملك . ويسيرون في معاملتهم في هذه السوق سيرة الملوك بدومة الجندل ، ويأخذون العشر . وكان من يؤمها من التجار يتخفرون بقريش ، لأنها لا تؤتي إلا في بلاد مضر . وكان بيعهم فيها الملامسة والهمهمة . وتقوم سوقها أول يوم من جمادى الآخرة الى آخر الشهر[2] .

وقد قصد هذه السوق أحياء من العرب من مختلف أنحاء جزيرة العرب ، كما وفدت اليها اللطائم . وطالما اعجبت أرض هجر ، وموضع المشقر منها ، بعض هؤلاء الأعراب فيبقون فيها ولا يرتحلون عنها ، فمن هناك صارت بهجر طوائف من كل حي من العرب وغيرهم[3] .

ويحمي المشقر حصن قديم قويم ، يقال ورثه (امرؤ القيس) ، وقد أشير اليه في الشعر . قال عنه (المخبل) :

---

١ تاج العروس (٢٦٦/٧) ، (الجندل) .

٢ المحبر (ص ٢٦٥) ، اليعقوبي (٢٢٦/١) ، البكري ، معجم (١١٩٣/٤) ، البلدان (١٣٤/٥) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (١٦٢/٢ وما بعدها) ، اثار البلاد وأخبار العباد (ص ٧٣) ، مراصد الاطلاع (١٢٧٥/٣) ، البكري (١٢٣٢/٣) .

٣ الازمنة والامكنة (١٦٣/٢) .

فلئـــن بنيت لي المشقر في صعب تقصر دونــه الهمم
لتنقبن عـــني المنيّـــة ان الله ليس كعلمه عـــلم [1]

وكان من الحصون التي تحمي قرى ساحل الخليج من الأعراب ، به حاميـــة كبيرة ، تغلق عليها الأبواب عند دنو الخطر . ويظهر من قصة فتك المكعبر بتميم، أنه كان ذا بابين ، وكان قد بني لحماية المنطقـة من الأعراب وللمحافظة عـــلى الأمن . وقد كان حصناً كبيراً ادخر فيه الفرس الميرة والأرزاق لتوزيعها عـــلى الأعراب أيام المجاعة . وبه جنود من الفرس ، يحكمهم قوّاد منهم ، يقـومون بضبط الأمن ومراقبة حركات الأعراب .

وتعقد سوق هجر في شهر ربيع الآخر ، وكان الذي يتولى تعشير التجار بها (المنذر بن ساوى) ، أحد بني عبدالله بن دارم . وهو ملك البحرين [2] . وهجر اسم لجميع أرض البحرين ، وقصبة بلاد البحرين . وقد عرفت بكثرة تمرهـا ، ومنه المثل كمبضع تمر الى هجر . وذكر أن (عمر) تذكرها فقـال : عجبت لتاجر هجر وراكب البحر ، كأنه أراد لكثرة وبائها ، فتاجرهـا وراكب البحر في الخطر سواء [3] . ويظهر أنها كانت موبوءة .

ثم يرتحلون نحو عمـــان من البحـرين أيضاً ، فتقوم سوقهم بها . ثم يرتحلون فينزلون (إرم) وقرى الشحر ، فتقوم أسواقهم بها أياماً . ثم يرتحلون فينزلون سوق عدن [4] .

أما (سوق‌عدن) ، فكانت تقوم أول يوم من شهر رمضان الى عشر يمضين منه . وكانت الأبناء هي التي تعشر التجار بها ، والأبناء هم أبناء الفرس الذين فتحوا اليمن مع وهرز وقتلوا الحبشة . وكان التجار لا يتخفرون فيها بأحد، لأنها أرض مملكة ، وأمرها محكم [5] . أما ما قبل حكم الأبناء . فقد كان يعشر هـــذه

---

١ وقال عنه « لبيد » :
وأفنى بنات الدهر أرباب ناعط بمستمع دون السمـــاء ومنظـر
وأنزلن بالدومي من رأس حصنه وانزلن بالاسباب رب المشقـر
تاج العروس (٣/٣١١) ، (شقر) .
٢ صبح الاعشى (١/٤١٠ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٣/٦١٣ وما بعدها) ، (هجر) .
٤ صبح الاعشى (١/٤١١) .
٥ المحبر (ص ٢٦٦) .

السوق ملوك حمير ، ثم من ملك اليمن من بعدهم . وأشهر ما يباع فيها الطيب . ولم يكن أحد يحسن صنع الطيب من غير العرب ، حتى ان تجار البحر ترجع بالطيب المعمول تفخر به في السند والهند ، ويرحل به كذلك تجار البر الى فارس والروم[1] .

وأما سوق صنعاء ، فكانت تقوم في النصف من شهر رمضان الى آخره . وكانت الأبناء تعشرهم . وكان بيعهم بها الجس جس الأيدي[2] . وقد اشتهرت ببيع الخرز والأدم والبرود . وكانت تجلب اليها من معافر[3] . والقطن والكتان والزعفران والأصباغ وأشباهها مما يتفق بها ، ويشترون بها ما يريدون من البر والحديد وحاصلات اليمن وما يأتي الى اليمن من تجارات البحار[4] .

وسوق ذي المجاز ، قريبة من عكاظ ، وتقوم أول يوم من ذي الحجة الى يوم التروية . ثم يصيرون الى منى[5] . وقد كانت لهذيل . وكانت مبايعة العرب بها بإلقاء الحجارة ، وذلك أنهم كانوا يجتمعون حول السلعة يساومون بها صاحبها ، فأيهم أراد شراءها ألقى حجراً ، وربما اتفق في السلعة الرهط ، فلا يجدون بداً من أن يشتركوا وهم كارهون . وربما ألقوا الحجارة جميعاً فيوكسون صاحب السلعة اذا تظاهروا عليه. وكانت قريش تخرج قاصدة اليها من مكة ، فإن اخذت على حزن لم تتخفر من القرب حتى ترجع ، وذلك أن مضر عامتهم لا تتعرض لتجار قريش ولا يتهجمهم حليف لمضري مع تعظيمهم لقريش ومكانتهم في البيت[6] .

وأما سوق حُباشة ، فمن أسواق العرب المشهورة القديمة في الجاهلية في العربية الغربية . وهي سوق بتهامة ، يتاجر فيها أهل الحجاز . وأهل اليمن . وكان

---

١ الازمنة والامكنة (٢/١٦٥) ، اليعقوبي (١/٢٣٦) .
٢ المحبر (ص ٢٦٦) .
٣ صبح الاعشى (١/٤١٠ وما بعدها) .
٤ الازمنة والامكنة (٥/١٦٥) ، اليعقوبي (١/٢٣٦) .
٥ المحبر (ص ٢٦٧) .
٦ الازمنة والامكنة (٢/١٦١) .

في جملة من حضرها وتاجر فيهـا الرسول[1] . وكانت تقام في شهر رجب[2] . وحباشة سوق أخرى كانت لبني قينقاع[3] .

وكان الجلندي بن المستكبر ، هو الذي يعشر تجـار سوق ُصحار بعمان ، وكذلك تجار سوق (دبا) . وكان يقصد سوق (دبا) تجار السند والهند والصين ومواضع أخرى ، فهي سوق عظيمة كبيرة ، ذات تجارة مـع العالم الخارجي . احدى فرضتي العرب . ويقوم سوقها آخر يوم من رجب . وكان بيعهم فيهـا المساومة . وتقوم سوق ُصحار أول يوم من رجب . تقوم خمس ليال[4] . ويذكر بعض أهل الأخبار ان البيع في سوق صحار هو بالقاء الحجارة[5] .

وقد اشتهرت (صحار) بثيابها ، فعرفت باسمها ، كما كانت سوقاً للتجارات المستوردة من اليمن والصين والبحرين والهند . ولذلك كانت سوقاً نشطة ، وبها أصحاب حرف وصناعة[6] .

وأما (بدر) ، فكان موضعاً فيه ماء وفيه وقعت معركة بدر الكبرى . وكان موسماً من مواسم العرب ، تجتمع لهم بها سوق كل عام ، يجتمعون فيـه للتجارة وللتنزه ، فكانوا ينحرون ويطعمون ويشربون ويسمعون الغناء[7] . وذكر ان موضع (بدر) بئر حفرها رجل من غفار ، ثم من (بني النار) اسمه بدر . وذكر انه (بدر بن قريش بن يخلد)[8] ، وبه سمي الموضع بدراً ، وقيل بدر رجـل من (بني ضمرة) سكن المكان فنسب اليه[9] ، وهو بين مكة والمدينة أسفـل وادي الصفراء ، وهو الى المدينة أقرب ، وبينه وبين (الجار) ، وهو ساحل

---

١ بالضم والشين معجمة ، البلدان (٣/٢٠٦) ، شرح القاموس ، (٤/٢٩٣) . وقد كان هذا الموضع هو السبب الباعث لياقوت الحموي على تأليف كتاب معجم البلدان ، راجع مقدمة الجزء الاول من معجم البلدان .

٢ أخبار مكة ، للازرقي (١/١٩٤ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٦/٢٦٣) ، البلدان (٣/٢٠٦) .

٤ المحبر (ص ٢٦٥ وما بعدها) .

٥ اليعقوبي (١/٢٣٦) « النجف » ، الازمنة والامكنة (٢/١٦٣) .

٦ راجع دائرة المعارف الاسلامية مادة « صحار » .

٧ الطبري (٢/٢٧٩) ، البلدان (٢/٨٨) .

٨ الروض الانف (٢/٦١) .

٩ تاج العروس (٣/٣٤) ، (بدر) .

البحر ومرفأ ليلة [1]. ويظهر انه كان من المواضع المقدسة على شاكلة (سوق عكاظ) به أحجار ، يتقرب اليها الناس ، وبه ماء فصار سوقاً في موسمه المخصص له ، يقصده الناس من مكة ومن المواضع القريبة لبيع ما عندهم من ناتجهم فيه، ولشراء ما يحتاجون اليه منه .

وأما سوق بني قينقاع ، فسوق لليهود يذهب اليها الناس للاتجار وابتياع ما عند يهود من سلع ، ولبيع ما عندهم ليهود .

أما (سوق الشحر) شحر مهرة ، فتقوم السوق تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود . ولم تكن بها عشور ، لأنها ليست بأرض مملكة . وكانت التجار تتخفر فيها ببني محارب بن هرب ، من مهرة . وكان قيامها للنصف من شعبان . وكان بيعهم بها إلقاء الحجارة [2] . وكان غالب ما يعرض فيها الأدم والبُز وسائر المرافق. ويشترون بها الكندر ، والمرّ ، والصبر ، ويقصدها تجار من البرّ والبحر [3] .

وأما سوق الرابية بحضرموت ، فلم يكن يصل اليها أحد إلاّ بخفارة ، لأنها لم تكن أرض مملكة . وكان من عز فيهـا بزّ صاحبه . فكانت قريش تتخفر فيها ببني آكل المرار ، وسائر الناس يتخفرون بآل مسروق بن وائل من كندة [4].

وتقوم سوق نطاة بخيبر وسوق حجر باليمامة يوم عاشوراء الى آخر المحرم [5] .

وأشهر الأسواق المتقدمة وأعرفها (سوق عكاظ) ، وهي سوق تجارة وسوق سياسة وسوق أدب ، فيها كان يخطب كل خطيب مصقع ، وفيها علقت القصائد السبع الشهيرة افتخاراً بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل على مـا يذكره بعض أهل الأخبار . وكان يأتيها قريش وهوازن وسليم والأحابيش وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب . وكانت تقوم للنصف من ذي القعـدة الى آخر الشهر . ولم تكن فيها عشور ولا خفارة . وكان بيعهم السرار : إذا وجب البيع

---

١ تاج العروس (٣/٣٤) ، (بدر) .

٢ المحبر (ص ٢٦٦) .

٣ الازمنة والامكنة (٢/١٦٣) ، اليعقوبي (١/٢٢٦) ، تاج العروس (٦/٢٩٣) .

٤ المحبر (ص ٢٦٧) ، الازمنة والامكنة (٢/١٦٥) ، اليعقوبي (١/٢٣٦) .

٥ المحبر (ص ٢٦٨) .

وعند التاجر فيها إلف ممن يريد الشراء ولا يريده أشركه في الربح[1] .

وذكر ان عكاظ نخل في وادٍ بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، وبه كانت تقام سوق العرب . وقيل : عكاظ ماء ما بين نخلة والطائف الى بلد يقال له الفتق ، كانت موسماً من مواسم الجاهلية . تقوم هلال ذي القعدة وتستمر عشرين يوماً . وكانت تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون ، أي يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ، يقيمون على ذلك شهراً ، يتبايعون ثم يتفرقون. فلما جاء الاسلام هدم ذلك[2] .

وذهب فريق من أهل الأخبار الى أن انعقاد سوق عكاظ إنما كان يقوم بهلال شهر ذي القعدة ويستمر لمدة عشرين يوماً[3] . وهم يخطئون رأي من يذهب الى أن انعقاد السوق كان في شهر شوّال ، وحجتهم أن انعقاد السوق كان في الأشهر الحرم ، ليراعي الناس حرمة تلك الأيام فلا يعتدون على من يقصد السوق،وشهر شوال لا يدخل في جملة الأشهر الحرم ، لذلك فلا يمكن أن يكون انعقاد السوق فيه . ويستدلون بدليل آخر ، هو تقاتل بعض العرب في أيـام عكاظ ، ونظراً لوقوع ذلك القتال في شهر حرام ، أطلقوا على تلك الأيام ، أيام الفجار ، وهي أربعة أيام : يوم شمطه،ويوم العبلاء ، ويوم الحريرة ، ويوم شرب ، وهـذه الأسماء هي أسماء أماكن في عكاظ . وما كان العرب ليطلقوا على تلك الأيام أيام الفجار لو لم تكن قد وقعت في أيام حرم[4] .

---

١ الحيوان ، للجاحظ (٧/٢١٥) ، البكري ، معجم (٣/٩٥٩ وما بعدها) ، المحبـر (ص ٢٦٧) ، « وكانت تقوم هذه السوق في قول أول ذي القعدة الى عشرين منه ، ثم يتوجهون الى مكة فيقفون بعرفات ويقضون مناسك الحج ثم يرجعون الى أوطانهم . وفي قول اخر : انهم كانوا يقيمون به جميع شوال الى غير ذلك من الاقوال المختلفة . ولعل ذلك لاختلاف العادة في السنين ، أو لاختـلاف القبائـل في الاقامة في هذا الموسم . والذي عليه صاحب قبائل العرب ، أنهم كانوا يقيمون في هذه السوق من نصف ذي القعدة الى آخره ... » بلوغ الارب (١/٢٧٠) .

٢ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) .

٣ مراصد الاطلاع (٢/٩٥٣) ، القاموس المحيـط (٢/٣٩٦) ، أخبـار مكة ، للازرقي (١٢٩) ، صبح الاعشى (١/٤١٠ وما بعدها) ، البلدان (٣/٧٠٤) ، الازمنة والامكنة (٢/١٦٥) ، اليعقوبي (١/٢٣٦) .

٤ أخبار مكة (١٣٢) ، الاغاني (٩/١٧٦) ، (١٠/٩) ، العقد الفريد (٣/٣٧٧) ، أخبار مكة (١/٦٦) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٣٥٨ وما بعدها) .

وجاء في بعض الأخبار ان أشراف العرب كانوا يتوافون بتلك الأسواق مع التجار من أجل ان الملوك كانوا يرضخون للأشراف ، لكل شريف بسهم من الأرباح . فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، إلا عكاظ ، فإنهم كانوا يتوافون بها من كل أوب[1] . فسوق عكاظ ، اذن سوق حرة ، لا عشور فيها ولا خفارة . وهي تختلف بذلك عن بقية الأسواق التي كان يعشرها الملوك ، اذا كانت في حكم (ملك) ، أو في حكم الأمراء وسادات القبائل ، على أن يؤدوا سهماً من الأرباح المتجمعة من العشور والخفارات الى أشراف العرب، أي سادات القبائل الذين تقام تلك الأسواق في أرضهم . فأشراف (تميم) وإن أشرفوا على هذه السوق ، وحكموا بها ، ونظموا أمورها ، إلا انهم لم يكونوا يجبون شيئاً من التجار . ولعل ذلك كان بتأثير قريش عليهم ، فقد كان رجال مكة هم المستأثرون الأثيرون في عكاظ . وكانوا يشجعون العرب على حضورها ، لما لهم فيها من منافع اقتصادية ، وقد كان لهم أنفسهم اشراف على نواح من أمور السوق . ويظهر انه لأجل تشجيع القبائل على حضور (عكاظ) وجمع أكثر مَن يمكن جمعه من التجار، اتفقوا مع سادات تميم ، ولا سيما مع (بني دارم) على أن يتركوا السوق حرة ، ليقصدها أي تاجر ، فلا يكلف أحد منهم بكلفة العشور والخفارة ، ولا يهان أو يعتدى عليه ، وهو بالطبع في شهر حرام ، ليضمنوا بذلك حضور أكبر عدد ممكن من الناس ، وليضمنوا مجيئهم بعد ذلك الى مكة ، وقد كانوا يسعون جهد طاقتهم لجلب العرب اليها من الأماكن البعيدة، ليستفيدوا منهم في موسم الحج ، وليكوّنوا معهم صلات طيبة ، وعلاقات وثيقة تؤمن لهم ولقوافلهم ولتجاراتهم حق المرور بأمن وسلام ، وتقديم كل ما يحتاج اليه رجال القوافل من ماء وطعام ومأوى وحماية .

ويعرض للبيع وللشراء في سوق عكاظ وفي الأسواق الأخرى كل أنواع البضاعات ، من أدم ومن حبوب وأقمشة الى بضاعة حية ناطقة هي الحيوان ، أو الانسان ، حيث يعرض الرقيق في السوق . وقد كان شراء (خديجة) زوجة الرسول لـ (زيد بن حارثة) من سوق عكاظ[2] . وقد اشتهرت سوق عكاظ

---

١ المرزوقي ، الامكنة (٢/١٦٦) .

٢ المعارف (ص ١٤٤) .

بأديمها حتى عرف بين تجار الأديم بـ (الأديم العكاظي)[1] مع أنه لم يكن مـن حاصل عكاظ ، بل كان يورد الى السوق من مختلف الأنحاء .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (سوق عكاظ) موسم عظيم من المواسم، وقد اتخذت سوقاً بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة . وهي مـن أعظم أسواق العرب على الاطلاق في الجاهلية وفي الإسلام . ثم تضاءل شأنها وخربت بعد سنة (١٢٩) للهجرة ، عندما ظهر الخوارج الحرورية مع المختار بن عوف في مكة ، فنهبت هذه السوق ، وخاف الناس على أنفسهم من الذهاب اليها ، فتركت[2] .

ولو أخذنا بهذه الرواية ، نكون قد جعلنا مبدأ هذا السوق سنة (٥٨٥) أو (٥٨٦) للميلاد تقريباً . أي ان تأريخ سوق عكاظ لم يكن بعيد عهد عن الإسلام. فهو قبله بنحو ربع قرن . وقد أقيمت وعمر الرسول آنذاك (١٥) عاماً .

ويذهب الناس بعد سوق عكاظ الى سوق أخرى ، هي سوق مجنة ، فيقيمون بها عشرة أيام . فإذا رأوا هلال ذي الحجة في نهاية هـذه الأيام العشرة قصدوا ذا المجاز ، وهي سوق جاهلية ، فيقيمون فيها ثمانية أيام يبيعون ويشترون ، ثم يخرجون يوم التروية من ذي المجاز الى عرفة ، فيأخذون ذلك اليوم من الماء ما يرويهم من ذي المجاز . وقد سمي هذا اليوم باسم يوم التروية لترويهم من المـاء بذي المجاز ، حيث كان ينادي بعضهم على البعض الآخر أن يترووا من المـاء لأنه لا يوجد ماء بعرفة . كذلك لا يوجد ماء بالمزدلفة يومئذ . ويعتبر يوم التروية نهاية أسواقهم . وكان العرب لا يتبايعون في يوم عرفة ولا في أيام منى . فلـما جاء الإسلام أحل لهم ذلك[3] .

وذكر ان (ذا المجاز) موضع بمنى ، وذكر انه سوق كانت في الجاهليـة على فرسخ من عرفة ، بناحية كبكب ، سمي به لأن إجازة الحج كانت فيه[4] . و (كبكب) . جبل بعرفات خلف ظهر الإمام اذا وقف ؛ وقيل هو ثنية[5] .

---

١ البلدان (٣/٧٠٤) ، تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) .
٢ الازرقي ، أخبار مكة (١٢٩ وما بعدها) ، البكري ، معجم (٣/٩٥٩ وما بعدها) ، اللسان (٧/٤٤٧) .
٣ أخبار مكة ، للازرقي (١٢٩ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٤/٢١) ، (جوز) .
٥ تاج العروس (١/٤٤٤) ، (كب) ، (ك/ب/ب) .

ويذكر علماء التفسير ان متجر الناس في الجاهلية كان سوق عكاظ وذو المجاز، فلما جاء الاسلام تركوا ذلك . وكانوا لا يتجرون في أيام الحج ، فكانوا لا يبيعون أو يبتاعون في الجاهلية بعرفة ، ويبتاعون ويبيعون قبل وبعد أيام الحج ، اذ كانوا يتأثمون من الاتجار في أيام الحج[1] .

وقد كان الحج من أكبر مواسم الربح لقريش،تبيع قريش ما عندها للأعراب القادمين اليها من البادية ولأهل القرى البعيدة عن مكة ، وتشتري منهم ما يحملونه معهم من مواد وسلع ، ثم تقوم قوافلهم بنقـــل الفائض مما اشترته الى الأسواق الخارجية في بلاد الشأم أو العراق ، وتشتري في مقابل ذلك ما يحتاج اليه الحجاز وأعراب البادية من سلع ومواد .

ومكة في مواسم الحج وفي المناسبات الأخرى سوق تجارية مهمة ، لا تقل شأناً في الواقع عن الأسواق الأخرى . وقد تمكن أهلها النشطون في جمع المـــال من اكتناز الأموال ومن استثمار ما يحصلون عليه من أرباح حتى صاروا من أغنى الناس في الحجاز .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان حظ المفاخرة والمباهاة والتمـدح والذم ، لم يكن بأقل من حظ البيع والشراء في سوق عكاظ . فقد كان الشعراء يعرضون أجود وأحدث مـــا عندهم من شعر على الحاضرين[2] . وكان كثـــير من هؤلاء الحاضرين إنما يفدون اليها للوقوف على أحدث ما يقال من صنوف الشعر ، وهو صنف رائج أكثر من رواج النـــثر بالطبع ، لما فيه من ايقاع وموسيقى ووزن وسهولة في الحفظ وأثر في النفس ، لذلك كان للشاعر في هذه السوق مكانة تزيد كثيراً على مكانة التاجر فيهـــا ، لما لشعره من أثر في الحياة العامـة لمجتمع ذلك اليوم .

ويقال إن الشاعر الشهير (النابغة الذبياني) ، كان يحضر سوق عكـــاظ ، فتضرب له قبة من أدم ؛ يجلس تحتها ، فيفد اليه من الشعراء من يريد أن يفتخر

---

١ تفسير الطبري (٢/١٦٥ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٥/٢٥٤ وما بعدها) ، اللسان (٩/٤٤٧) ، « وقد كانت قبائل العرب تجتمع فيه كل سنة ، يتفاخرون فيها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون » ، البلدان (٦/٢٠٣) ، ابن خلدون ، المجلد الثاني (ص ٦٤٢) .

بشعره على غيره ، لينشد أمامه شعره ، فيحكم على شعره برأيه ، لما لرأيه من أثر في الناس . وكان الشاعران الأعشى وحسان بن ثابت ممن احتكما اليه وكذلك الشاعرة الخنساء [1] .

ومن حضر عكاظ الخطيب الجاهلي الشهير (قس بن ساعدة الايادي) (شيشرون) العرب ، وعمرو بن كلثوم التغلبي ، الشاعر المعروف[2] . ويذكر أهل الأخبار ان الرسول رأى (قس بن ساعدة الأيادي) يخطب في هذه السوق . وقد قصد الرسول سوق عكاظ وسوق مجنة وذي المجاز ، يدعو من كان يحضر المواسم الى دين الله . وقيل انه مكث سبع سنين يتبع الناس في مواسمهم في سوق عكاظ ، وكان فيمن كلمهم ودعاهم الى الاسلام (بنو عامر بن صعصعة)[3] .

وحال الأسواق الأخرى مثل حال سوق عكاظ من حيث ورود الشعراء اليها لعرض ما عندهم من شعر جديد . والظاهر ان قرب سوق عكاظ من مكة ، وورود الحجاج اليها قبل البدء بالحج ، ثم ورود اسمها في أخبار الرسول، ولكونها سوق مكة وتجار قريش ، ووقوعها في أرض يتكلم أهلها باللغة التي نزل بها الوحي ، هذه الأسباب وغيرها هي التي خلّدت اسم هذه السوق ، وربطت بينها وبين الشعر والنثر ، أكثر من الأسواق الأخرى التي كانت بعيدة عن مكة ، وبعيدة لذلك عن ذاكرة أهل الأخبار .

هذا وان للباحثين في موضع سوق عكاظ آراء متباينة فيه . ولا زالت هذه الآراء متباينة فيه حتى اليوم[4] .

هذا ، وقد كان موضع عكاظ في الأصل مكاناً مقدساً على ما يظهر من أخبار أهل الأخبار . فقد ذكروا أن العرب كانت تطوف بصخور كانت هناك ويحجون اليها ، وكانوا يذبحون وينحرون الى تلك الأصنام والأنصاب . حتى تلطخت تلك

---

١ الاغاني (١٥٦/٩) « مطبعة التقدم » ، شعراء النصرانية (٦٤٠/٥) .

٢ الاغاني (١٧٦/٩) .

٣ البكري (٢٥٩/٥ وما بعدها) ، ابن كثير ، البداية (١٤١/٣) .

٤ لسان العرب (٤٤٧/٧) ، معجم ، البكري (٣-٩٦١/٤) ، البلدان (٧٠٤/٣) ، القاموس ٢(٣٩٦/) ، تاج العروس (٢٥٥/٥) ، مراصد الاطلاع (٩٥٣/٢) ، شرح ديوان الحماسة (١٥١٤/٣ وما بعدها) .

الأنصاب والأرض التي تحيط بها بدماء البدن[1] . ويظهر أن أهمية ذلك المكان الدينية كانت قد قلّت بالتدريج ، إذ غطت قدسية مكة عليه . ولما جاء الإسلام، وأزال الأنصاب والأصنام ذهبت كل أهمية لمحجة عكاظ واختفت أهمية السوق معه حتى ماتت على نحو ما ذكرت .

ويتقدم سادات الناس في مثل هذه المناسبات الى آلهتهم باطعام الفقراء واضافة الناس . وكان (خويلد بن فضيل بن عمرو بن كلاب) المعروف بـ (الصعق)، لأن صاعقة نزلت عليه فأحرقته ، ممن يطعم بعكاظ . وكان من سادات قومه[2] . ويترك هذا الكرم أثراً في نفوس من يحضر السوق ، ويكون سبباً للحصول على ثناء ومديح الشعراء على أولئك الكرماء .

والظاهر من روايات أهل الأخبار عن هذه الأسواق ، انها كانت كلهـــا في الأصل ، مواضع مقدسة ، لها أصنام تعبدها القبائل . وتأتي للتقرب اليهـــا في مواسم معينة ، هي مواسم حجها ، فتتحول تلك المواسم الى أسواق للبيع والشراء. فقد ذكروا ان (بني وبرة) ، كانوا يفدون الى (دومة الجندل) للتقرب الى (ودّ) ، وكان سدنته من (بني الفرافصة بن كلب)[3] ، وأن (بني عبد القيس) كانوا يتقربـــون الى صنم لهم اسمه (ذو اللّب) ، وكان بالمشقـــر ، وسدنته (بنو عامر)[4] .

ويجب ألا ننظر الى هذه الأسواق نظرتنا الى السوق بالمعنى المفهوم من اللفظة في الوقت الحاضر . فقـد كانت أسواق الجاهليـــة أوسع مجالاً من ذلك بكثير . كانت مجامع لأهل اللسان من شعراء ومن خطباء ، من مرموقـيـن معروفين ومن مغمورين طلاب شهرة ، قصدوا هذه الأسواق للحصول على اسم وسمعة ، كما هو شأن سوق عكاظ . كما كانت مجتمعات تعقد فيها العقود والمعاهدات والاتفاقات القبلية والعائلية ، ومواضع يعلن فيها عن التبني وعن الخلع ، أي خلع الأفراد ،

---

١ البلدان (٦/٢٠٣) ، البكري (٣/٩٥٩ وما بعدها) .
٢ جمهرة ، ابن حزم (ص ٢٦٩) .
٣ جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم (ص ٤٥٨) .
٤ جمهرة ، ابن حزم (ص ٤٦٠) .

لجرائم يرتكبونها ، وهي ساحات محاكم ، يجلس فيها المتخاصمون للاستماع الى قرار حاكم مهاب محترم ، اتفقوا على تحكيمه في نزاعهم . وقد كانت الحكومة في هذه السوق الى (بني تميم) ، وكان آخر من حكم منهم فيها : الأقرع بن حابس التميمي[1] .

ويروي أهل الأخبار أن فرسان العرب كانوا إذا حضروا موسم عكاظ تقنعوا إلا (أبا سليط) (طرفة بن تميم) ، فارس عمرو بن تميم في الجاهلية ، فإنه كان لا يتقنع ولا يبالي أن تقع عيون الفرسان عليه ، وذلك اعتماداً على نفسه وازدراءً لشأن أعدائه ومن يريد إلحاق الأذى به[2] . وقد كانت سوق عكاظ وبقية الأسواق ، من أهم المواضع التي تجلب أنظار الفرسان اليها ، إذ كان الكثير منهم يتصيدون فرص الأخذ بالثأر ، بعد انفضاض موسم السوق ، أو الحصول على غنائم بمهاجمة التجار ومن يحمل تجارة دسمة أو حمولة ثمينة ، ولهذا كان لا بد للفرسان ومن يريد الحصول على مغنم أو تنفيذ مأرب ما من التحفظ والاحتراز حذر انكشاف أمره ، فيكون عرضة للغدر .

وإذا وقعت في هذه الأسواق خصومات في مثل اختلاف في سعر أو اختلاف في تجارة ، فهناك حكّام يلجأ المتخاصمون اليهم للنظر في خصوماتهم وللنظر في كل خصومات أخرى قد تقع على الحاضرين . فيقوم هؤلاء الحكام بفض ذلك النزاع. وقد اشتهر سادات بني تميم بالنظر في الخصومات التي تقع في الأسواق القريبة منهم أو التي تقع في ديارهم ، وكان من أواخر حكامهم (الأقرع بن حابس)[3] .

سوق عكاظ في الاسلام :

كانت سوق عكاظ عامرة مقصودة في الجاهلية ، « فلما جاء الاسلام هدم

---

١ صبح الاعشى (١/ ٤١٠ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (ص ١٣١) ، اليعقوبي (١/٢٢٦) ، العقد الفريد (٢/٢٠٦) ، البيان والتبيين (٣/١٠٠) .

٣ صبح الاعشى (١/٤١٠) .

ذلك »[1] . وورد في كتب الحديث : « عن ابن عبـــاس ، رضي الله عنهما ، قال : كانت عكاظ ، ومجنة ، وذو المجاز ، أسواقاً في الجاهلية ، فلـــما كان الاسلام تأثموا من التجارة فيها ، فأنزل الله : ليس عليكم جناح في مواسم الحج . قرأ ابن عباس كذا »[2] . وورد في تفسير الطبري : « قال ابن عباس : كانت ذو المجاز وعكـــاظ متجر الناس في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام تركوا ذلك حتى نزلت ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحـــج »[3] . وورد : « كانوا يحجـــون ولا يتجرون ، فأنزل الله : ليس عليـــكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربـكم »[4] . وتفسير ذلك كما جاء في كتب التفسير والحديث ، وكما سبق أن تحدثت عن ذلك في الجزء الخاص بالحياة الدينية عند أهل الجاهلية ، ان الجاهليين كانوا يتأثمون من الاتجار في الحـــج ، فلا يحجون ولا يتجرون ، وتكون تجارتهم في الأسواق المذكورة قبل الحج ، أو في مكة بعد الحج ، وبقوا على ذلك حتى رفع عنهم الحرج بنزول الوحي : « ليس عليـــكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم »[5] ، فرخص لهم في المتجر والركوب والزاد ، وأحـل الله لهم الاتجار في الحج[6] ، فصاروا يتبايعون بمكة ، فأثر ذلك على الأسواق المذكورة .

وكان تحديد مواقيت الحج ، وانتشار الاسلام ، ومنع التعرض والتحرش بالناس طيلة أيام السنة ، في جملة العوامل التي قللت من أهمية تلك الأسواق ، فلم يعد الحجاج في حاجة الى الذهاب قوافل اليها ، استغلالاً لحرمة الأشهر ، بل صاروا يتجهون الى المواقيت المعينة للحج رأساً ، فيتجرون بمكة ويعودون الى ديارهم ، فقلّت بذلك أهمية تلك الأسواق حتى ماتت .

وسبب آخر ، هو في نظري أهم من كلّ ما ذكرت . هو أن هجرة الرسول الى يثرب ، وانتصار الاسلام على مكة ، ثم وفاته بيثرب ، واتخاذ الخلفاء الثلاثة الأول إياها قاعـــدة لهم ولبيت مال المسلمين ، ثم خروج سادات مكة اليها في

---

١ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) .
٢ ارشاد الساري (٣٧/٤) .
٣ تفسير الطبري (٢/١٦٤ ، ١٦٥) .
٤ تفسير الطبري (٢/١٦٤) .
٥ سورة البقرة ، رقم ٢ الآية ١٩٨ .
٦ تفسير الطبري (٢/١٦٤ وما بعدها) .

حيـــاة الرسول ، وانتقالهم الى الأمصار المفتوحة لادارتها سياسياً وعسكرياً ، أو للاشتغال بها بالزراعة والتجارة وبالأعمال الأخرى المربحة، كل هذه العوامل وأمثالها جعلت مكة في الدرجـــة الثانية بعد (يثرب) ، حتى أن من بقي بالمدينة من الصحابة ولم يغادرها كما غادرها غيرهم الى الأمصار المفتوحة ، وجـــدوا أن من أدب الصحبة ملازمة قبر الرسول ، والثوى بها في الحياة وفي الممات ، ولم يقيموا بمكة إلا فترات ، لحج أو لزيارة ، فأثر ذلك على وضعها المالي ، وأزال مكانها القديم في التجارة ، فتغير بذلك كل شيء .

الفصل الخامس بعد المئة

البيـع والشراء

أنواع البيع :

وقد تعرض أهل الأخبار لبعض أنواع البيع وطرقها التي كان يستعملها الجاهليون، وهي لا تختلف في طبيعتها عن طبيعة ما يسمى بـ (الحظ والنصيب) في العهـد الحاضر . ونظراً الى ما قد كانت تسببه هذه الأنواع من خصومات ومنازعات بين المشتري وبين البائع ، من بيعهم شيئاً مجهولاً غير معلوم ، والى ما في كثير من هذه البيوع من غرر ، نهى الاسلام عنها ، وجاء ذكرها لذلك في كتب الحديث والفقه .

والبيع والشراء ، إما أن يكونا بشروط ، يشترطها أحدهما أو كلاهما عند عقد الصفقة ، ويتم التوافق والتعاقد عليها برضى البائع والمشتري ، أي الطرفين . وإما ألا يكونا بشروط . فإذا اشترط المشتري علي البائع شرط حق إرجاع السلعة اليه، إن وجد فيها شيئاً مخالفاً للوصف ، ورضي البائع بذلك ، فللمشتري حق إرجاع السلعة اليه في حدود معقولة ، وقد يعين زمن ذلك الحق وهو ما يحدث في الغالب.

ومن جملة طرق البيع (بيع الحصاة) . وهو بيع ذكر أهل الأخبار أنه كان متبعاً في سوق (دومة الجندل) المنعقدة في أول يوم من شهر ربيع الأول . وقد ذكروا أن هذه المبايعة من بيوع الجاهلية التي أبطلها الإسلام . وتفسير ذلك أن يقول أحد المتبايعين للآخر : إرم هذه الحصاة ، فعلى أي ثوب وقعت فهو لك

بدرهم ، أو أن يبيع أحد المتبايعين من أرضه قدر ما انتهت اليه رمية الحصاة ، أو أن يقبض على كف من حصى ويقول : لي بعدد مـا خرج في القبضة من الشيء المبيع ، أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول : لي بكل حصاة درهم ، أو أن يمسك أحدهما حصاة في يده ، ويقول : أي وقت سقطت الحصاة وجب البيع ، أو أن يتبايعا ويقول أحدهما : إذا نبذت اليك الحصاة فقد وجب البيع ، أو أن يعترض القطيع من الغنم فيأخذ الحصاة ويقـول : أي شاة أصابتها فهي لك بكذا[1] ، أو هو أن يقول بعتك من السلع ما تقع عليه حصاتك إذا رميت بها ، أو بعتك من الأرض الى حيث تنتهي حصـاتك . أو أي ثوب من هذه وقعت الحصاة التي أرمي بها فهو لي بكذا ، فيقول البائع : نعم . فيقع البيع لوجود شروط الايجاب والقبول[2] .

ومن طرق البيع بيع الملامسة ، والمراد بالملامسة المس باليد ، وأن يجعل عقد البيع لمس المبيع . وذكر أن بيع الملامسة : أن تشتري المتاع بأن تلمسه ولا تنظر اليه . وذلك كأن يقول : « لمَسْتَ ثوبي أو لمستُ ثوبك أو إذا لمست المبيع، فقد وجب البيع بيننا بكذا وكذا ، ويقال هو أن يلمس المتاع من وراء الثـوب ولا ينظر اليه ، ثم يوقع البيع عليه » و « قيل : معناه أن يجعل اللمسَ باليـد قاطعاً للخيار »[3] .

وقيل هو أن يأتي البائع بثوب مطوي ، ثم يطلب من المشتري أن يلمسه ، ثم يقول له : « بعتك اياه بثمن كذا بشرط أن يقوم لمسك مقام نظرك » . أو أن يقول له : « اذا لمست هذا الشيء فهو بيع لك » . فيكون اللمس نهاية خيار المشتري . وهو يحل بذلك محل النظر الى الشيء الـذي سيباع وتدقيقه وتمحيصه للوقوف على مقدار جودته أو بما فيه من عيوب . فهو بيع شرطه اللمس ولا خيار

---

١ جامع الاصول (١/٤٤١) ، بلوغ الارب (١/٢٦١) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (٢/١٦٤) ، زاد المعاد (٤/٢٦٦) .

٢ صحيح مسلم (٥/٣) ، الجصاص (١/٥٣٠) ، اللسان (١٤/١٨٣) ، تاج العروس (١٠/٩٢) ، (حصا) ، زاد المعاد (٤/٢٦٦) .

٣ اللسان (٦/٢١٠) ، صحيح مسلم (٥/٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٣٤٠) ، (لمس) ، زاد المعاد (٤/٢٦٦) .

فيه[1] . ومن بيع الملامسة ، أن يقول الرجل للرجل : أبيعك ثوبي بثوبك ولا ينظر واحد منهما الى ثوب الآخر ، ولكن يلمسه لمساً[2] .

واختلف الفقهاء في تفسير الملامسة على ثلاث صور : إحداها أن يكتفي باللمس عن النظر ولا خيار له بعده ، بأن يلمس ثوباً لم يره ثم يشتريه على أن لا خيار له اذا رآه . الثانية ، أن يجعل اللمس بيعاً ، بأن يقول : اذا لمسته ، فقد بعتكه ، اكتفاءً بلمسه عن الصيغة . الثالثة ، أن يبيعه شيئاً على انه متى لمسه لزم البيع وانقطع خيار المجلس وغيره اكتفاء بلمسه عن الالزام بتفرق أو تخاير. وبطلان المبيع المستفاد من النهي ، لعدم رؤية المبيع ، واشتراط نفي الخيار في الأولى ونفي الصيغة في عقد البيع في الثانية ، وشرط نفي الخيار في الثالثة[3] .

ومن البيوع ، بيع المنابذة . وهو أن يجعلا النبذ بيعاً . وهو أن تقول لصاحبك: انبذ إلي الثوب أو غيره من المتاع ، أو انبذه اليك ، وقد وجب البيع بكذا وكذا . أو هو أن ترمي اليه بالثوب ويرمي اليك بمثله . وهو أن يجعلا النبذ بيعاً بغير صيغة ، أو أن يجعلا النبذ قاطعاً للخيار . ويقال له بيع الالقاء[4] . وقيل هو أن تقول : إذا نبذت الحصاة اليك ، فقد وجب البيع ، أو أن ينبذ الرجل الى الرجل بثوبه ، وينبذ الآخر اليه ثوبه ، ويكون ذلك بيعهما من غير نظر ولا تراض . فيكون النبذ وحده هو البيع[5]

و (النجش) ، أن يبيع الإنسان بياعة فتساومه بثمن كثير لينظر اليك ناظر

---

١ صحيح البخاري (٢/٨٧) ، تاج العروس (٤/٣٤٠) ، (لمس) ، بلوغ الارب (١/٢٦٥) .

٢ ارشاد الساري (٤/٦٤) .

٣ ارشاد الساري (٤/٦٤) ، (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لبستين وعن بيعتين ، نهى عن الملامسة والمنابذة في البيع ، والملامس لمس الرجل ثوب الآخر بيده بالليل أو بالنهار ولا يقبله الا بذاك » ، زاد المسلم (٥/٥١٧ وما بعدها) ، صحيح البخاري (كتاب البيوع ، باب بيع الملامسة) ، (وفي كتاب اللباس ، في باب اشتمال الصماء) ، (باب الاحتباء في ثوب واحد) ، صحيح مسلم (كتاب البيوع ، باب ابطال بيع الملامسة) .

٤ تاج العروس (٢/٥٨١) ، بلوغ الارب (١/٢٦٤ وما بعدها) ، صحيح البخاري (٢/٨٧) ، ارشاد الساري (٤/٦٤ وما بعدها) .

٥ صحيح مسلم (٥/٣) ، الشوكاني ، نيل الاوطار (٥/١٤٧ وما بعدها) ، اللسان (٣/٥١٢) .

فيقع فيها ، وكذلك في الأشياء كلها . وقيل : النجش في البيع أن يزيد الرجل ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها ، ولكن ليسمعه غيره فيزيد بزيادته . وقيل أن تمدح سلعة غيرك ليبيعها ، أو أن تنفر الناس عن الشيء الى غيره . والغاية من كل ذلك هو غش المشتري وجرّ النفع . لذلك نهي في الاسلام عنه . و(التناجش) في البيع المنهى عنه ، هو التزايد في البيع وغيره[1] . وأن يقول الرجل للرجل بيعٌ فيقول نظر ، أي انظرني حتى اشتري منك[2] . والنجش في الشرع ، أن يزيد في ثمن السلعة من غير رغبة ليوقع غيره فيها . فهو بيع غش وخداع[3] .

ويقال للنجش الفلح . قالوا ، الفلح النجش في البيع،وذلك أن يطمئن اليك ، فيقول لك بع لي عبداً أو متاعاً أو اشتره لي ، فتأتي التجار فتشتريه بالغلاء وتبيع بالوكس وتصيب من التاجر ، وهو الفلاح . وذكر انه زيادة المشتري ليزيد غيره فيغريه[4] .

ومن طرق البيع أيضاً : البيع ناجزاً بناجز . أي يداً بيد[5] . ومن بيوعهم قول أحدهم بعتك هذا الثوب نقداً بدينار ونسيئة بدينارين ، وقد ورد في الحديث : لا يجوز شرطان في بيع ، أي مثل هذا البيع[6] .

والبيعُ مُزابنة ، وهو بيع التمر في رؤوس النخل بالتمر . وبيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر . أو بيع كل ثمر على شجرة بتمر كيلاً . أو بيع التمر على رؤوس النخل بالذهب والفضة . وقد نهي عنه في الاسلام ، إلا اذا انضج ولا يباع منه إلا بالدرهم والدينار . وذلك لأنه بيع مجازفة ، ولما يقع فيه من الغبن والجهالة[7] . وروي عن الإمام (مالك) انه قال : المزابنة كل جزاف لا يعرف كيله ولا عدده ولا وزنه بيع بمسمى من مكيل وموزون ومعداد. أو هي

---

١ تاج العروس (٤/٣٥٤) ، (نجش) . «نهى النبي صلى الله عليه وسلم، عن النجش»، البخاري (٣/٦٩ وما بعدها)، (كتاب البيوع)، عمدة القاريء (١١/٢٥٨ وما بعدها)، اللسان (٦/٣٥١) ، القسطلاني (٤/٦٢) ، زاد المسلم (٥/٤٨٥) .

٢ المخصص (١٢/٢٥٤) .

٣ تاج العروس (٤/٣٥٤) ، (نجش) ، عمدة القاريء (١١/٢٥٨ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (٢/١٩٩) ، (فلح) .

٥ المخصص (١٢/٢٥٤) .

٦ تاج العروس (٥/١٦٦) ، (شرط) .

٧ صحيح البخاري (٢/٩٤) ، « كتاب البيوع » ، القاموس (٤/٢٣٠) ، صحيح مسلم (٥/١٣) ، زاد المسلم (٥/٤٧٧ وما بعدها) .

بيع معلوم بمجهول من جنسه أو بيع مجهول بمجهول من جنسه ، أو هي بيع المغابنة في الجنس الذي لا يجوز فيه الغبن ، لأن البيعين اذا وقفا فيه على الغبن ، أراد المغبون أن يفسخ البيع ، وأراد الغابن أن يمضيه ، فتزابنا فتخاصما فتدافعا [1]. وتكون المزابنة في النخل غالباً . وذكر ان سبب ورود النهي عن هذا البيع ، هو انه يؤدي الى ربا الفضل ، إذ الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة من حيث انه لم يتحقق فيها المساواة المشروطة في الربوى بجنسه[2] .

وكان هذا البيع معروفاً عندهم . وذلك أن يبيع رجل ثمر نخله بتمر كيلاً أو بغير كيل ، أو أن يبيع كرمه بزبيب ، فورد النهي عنه في الإسلام ، وإنما نهى عن ذلك لجهل المبيع[3] . واعتبر هذا البيع نوعاً من أنواع الربا [4] .

ومن البيوع الجاهلية : المخاضرة ، بيع الثمار خضراً قبل أن يبدو صلاحها . ويدخل فيه بيع الرطاب والبقول وأشباهها على قول بعض . سُمّي مخاضرة لأن المتبايعين تبايعا شيئاً أخضر بينهما ، مأخوذ من الخضرة [5] .

وقد نهي عن (المعاومة) في الإسلام . وهي بيع النخل معاومة . وأن تبيع زرع عامك بما يخرج من قابل . أو أن تبيع ثمر النخل أو الكرم أو الشجر سنتين أو ثلاثاً فما فوق[6] . فهو بيع السنين ، ولما فيه من غرر ومن بيع لمجهول، لم يصح هذا البيع في الإسلام[7] .

و (الطني) : شراء الشجر ، أو بيع ثمر النخل خاصة [8] . ونهى في الإسلام عن بيع صبرة التمر المجهولة القدر ، أي بيع المبيع بالكومة ، ولا يعلم مكيلته بالكيل[9] .

---

١ تاج العروس (٩/ ٢٢٤ وما بعدها) ، البخاري (كتاب البيوع ، في باب بيع المزابنة) ، صحيح مسلم (كتاب البيوع ، في باب كراء الارض) .
٢ زاد المسلم (٥/ ٤٧٧) .
٣ زاد المسلم (٥/ ٤٨٢) .
٤ « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن بيع الثمر بالتمر ، وقال ذلك الربا تلك المزابنة الا أنه رخص في بيع العرية، النخلة والنخلتين يأخذها أهل البيت. بخرصها تمرا يأكلونها رطبا » ، زاد المسلم (٥/ ٤٩٤ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (٣/ ١٨٠) ، (خضر) ، القاموس (٢/ ٢١) ، صحيح مسلم (٥/ ١١) .
٦ تاج العروس (٨/ ٤١٢) ، (عام) .
٧ صحيح مسلم (٥/ ١٧ وما بعدها) .
٨ القاموس (٤/ ٣٥٨) ، تاج العروس (١٠/ ٢٢٨) ، (طنى) .
٩ صحيح مسلم (٥/ ٩) .

ومن ذلك أيضاً البيع المعروف بـ (المجر) ، وهو من بياعات الجاهلية . والمجر بيع ما في بطون الحوامل من الإبل والغنم ، وهو ان يباع الشيء بما في بطن الناقة ، وأن يباع البعير أو غيره بما في بطن الناقة ، ولا يقال لما في البطن مجراً إلا اذا ثقلت الحامل . فالمجر اسم للحمل الذي في بطن الناقة ، وحمل الذي في بطنها[1] .

ونهى الاسلام عن بيع (حبل الحبلة) ، وهو بيع نتاج النتاج،وبيع الأجل، فكان الرجل في الجاهلية يبتاع الجزور الى أن تنتج الناقة ثم تنتج التي في بطنها ، أو بيع حبل الكرم قبل أن يبلغ ، ومنه بيع الملاقيح والمضامين . والملاقيح ما في البطون من الأجنة والمضامين ما في أصلاب الفحول ، وكانوا يبيعون الجنين في بطن الناقة وما يضربه الفحل في عام أو أعوام . وسبب النهي عنه انه من بيوع الغرر ، وهو بيع مجهول[2] .

ومن بيوع أهل الجاهلية : (الغَدَوى) ، وذلك أن تبيع الشاة بنتاج ما نزا به الكبش ذلك العام . وقيل كل ما في بطون الحوامل ، وقوم يجعلونه في الشاة خاصة . أو هو أن يباع البعير أو غيره بما يضرب الفحل ، أو أن تباع الشاة بما نزا به الكبش . وكان الرجل منهم يشتري بالجمل أو العنز أو الدراهم ما في بطون الحوامل[3] .

وأما بيع (الغذى) ، فهو كالسابق أن يباع بنتاج ما نزا به الكبش. وقيل بل يكون الغذى من الإبل والبقر والغنم[4] . وأظن أن (الغدى) و (الغذى) شيء واحد . وقد أخطأ بعض النساخ في حرفي الدال أو الذال ، فصارت الكلمة كلمتان .

وقد نهي في الحديث عن بيع الملاقيح والمضامين . روي عن سعيد بن المسيب

---

١ اللسان (١٥٨/٥) ، زاد المعاد (٢٦٧/٤) ، القاموس (١٣١/٢) ، تاج العروس (٥٣٣/٣) ، (مجر) .
٢ عمدة القاريء (٢٦٢/١١ وما بعدها) جامع الاصول (٤٤١/١ وما بعدها) ، زاد المعاد (٢٦٦/٤) ، صحيح البخاري (٨٧/٢) ، اللسان (١٣٩/١١) ، صحيح مسلم (٣/٥) .
٣ المخصص (٢٥١/١٠ ، القاموس (٢٦٩/٤) ، تاج العروس (٢٦٣/١٠) ، (غدا) .
٤ تاج العروس (٢٦٣/١٠) ، (غذا) .

أنه قال : «لا ربا في الحيوان ، وإنما نهي عن الحيوان عن ثلاث ، عن المضامين والملاقيح وحبل الحبلة » فالملاقيح ما في ظهور الجمال ، والمضامين ما في بطون الاناث . وورد العكس . أي الملاقيح ما في بطون الاناث ، والمضامين ما في أصلاب الجمال . وكانوا يتبايعون أولاد الشاء في بطون الأمهات وأصلاب الآباء[1].

و (الرجع) أن تباع الذكور ويشترى بثمنها الاناث . وقيل بيع الابل بعد الارتجاع منها . و « الرجعة : إبل تشتريها الأعراب ليست من نتاجهم وليست عليها سماتهم » . و « الراجعة : الناقة تباع ويشترى بثمنها مثلها » . والرَّجيعة بعير ارتجعته ، أي اشتريته من أجلاب الناس ، ليس هو من البلد الذي هو به . وكانوا يربحون من بيع الذكور وشراء الاناث بثمنها ، لأن الاناث تلد ، فيكثر عندهم المال . « قيل لقوم من العرب بمَ كثرت أموالكم ؟ فقالوا : أوصانا أبونا بالنجع والرجع » . فالنجع: طلب الكلأ ، والرجع أن تباع الذكور ويشترى بثمنها الاناث[2] . وبذلك يكثرون أموالهم .

وتدخل في البيوعات الجاهلية بيع الرجل ما ليس عنده ، وهو يتضمن نوعاً من الغرر ، فإنه اذا باعه شيئاً معيناً وليس في ملكه ثم مضى ليشتريه ويسلمه له كان متردداً بين الحصول وعدمه ، فكان غرراً يشبه القمار فنهى الاسلام عنه[3] . وبيع المعدوم لا يدري يحصل أو لا يحصل ولا ثقة لبائعه بحصوله بل يكون المشتري منه على خطر ، فإن البائع اذا باع ما ليس في ملكه ولا له قدرة على تسليمه ليذهب ويحصله ويسلمه الى المشتري كان ذلك شبيهاً بالقمار والمخاطرة من غير حاجة بهما الى هذا العقد ولا تتوقف مصلحتها عليه ، لهذا منع الشارع بيعه، لا لكونه معدوماً بل لكونه غرراً[4] .

وقد نهى الاسلام عن بيع الرجل على بيع أخيه وسومه على سومه . فورد انّ الرسول نهى عن أن يستام الرجل على سوم أخيه[5] . وكان أهل الجاهلية يستامون بعضهم على بعض بما في ذلك استيام الأخوة ، فنهى عنه ، لما قد يحدث هذا الاستيام من فرقة واختلاف بين الأخوة .

---

١ تاج العروس (٢/٢١٦) ، (لقح) ، (٩/٢٦٦) ، (ضمن) .
٢ المخصص (١٠/٢٥٢) ، تاج العروس (٥/٣٥٢) ، (رجع) .
٣ زاد المعاد (٤/٢٦٢) .
٤ زاد المعاد (٤/٢٦٣) .
٥ صحيح مسلم (٥/٣ وما بعدها) .

ونهى الإسلام عن التلقي للركبان ، أي عن تلقي البيوع والسلع حتى تبلغ الأسواق . وقد ورد في الحديث : « لا تلقوا الجلب ، فمن تلقاه فاشترى منه، فإذا أتى سيده السوق فهو بالخيار » . وذلك لأن من تلقاهم يكذب في سعر البلد ويشتري بأقل من ثمن المثل وهو تغرير[1] . وقد نهي عن بيع الحاضر للبادي. وذلك بأن يكون له سمساراً ليكسب منه ، أو أن يطلب الحاضر من البادي أن يترك متاعه عنده حتى يبيعه بسعر أغلى ، وذلك لما في هذا البيع من تغرير ومن ضرر يصيب الناس[2] .

ونهى الإسلام عن بيوع أخرى من بيوع الجاهلية ، منها بيع (الغرر) ، ويراد به البيوع التي لا يحيط بكنهها المتبايعان ، وهو بيع المخاطرة وهو الجهل بالثمن أو المثمن أو سلامته أو أجله ، ومن ذلك بيع العبد الآبق الذي لا يقدر على تسليمه والفرس الشارد والطير في الهواء، وبيع السمك في الماء ، وكبيع ضربة الغائص وما تحمل شجرته أو ناقته وما يرضى له به أو يهبه له أو يورثه إياه ونحو ذلك مما لا يعلم حصوله أو لا يقدر على تسليمه أو لا يعرف حقيقة مقداره، فهو بيع شيء مجهول[3] . وقد كانت من البيوع الشائعة بين الجاهليين تفنناً في الغش ، وفي الكسب من أي طريق كان .

وقد عرفوا بيعة الغائص ، بأن يقول الغائص في البحر للتاجر : أغوص غوصة، فما أخرجت فهو لك بكذا ، فيتفقان على ذلك . وقد نهي عنه لأنه غرر[4] .

ومن البيوع الجاهلية : (الجس) ، وهو بيع عُرِف بسوق صنعاء . فإذا تعاقد شخصان على سلعة ، ووافقا على البيع ، جس أحدهما يد الآخر ، علامة على صحة البيع[5] .

ومنها : (السرار) . فإذا وجب البيع وعند التاجر إلف ممن يريد الشراء ولا يريده ، أشركه في الربح[6] .

---

١ صحيح مسلم (٥/٥) .

٢ صحيح مسلم (٥/٦) .

٣ عمدة القارىء (٢٦٢/١١ وما بعدها) ، جامع الاصول (٤٤١/١ وما بعدها) ، زاد المعاد (٢٦٦/٤) ، صحيح البخاري (٨٧/٢) ، « كتاب البيوع » .

٤ تاج العروس (٣٥٠/١) ، (ضرب) .

٥ المحبر (ص ٢٦٦) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (١٦٤/٢) .

٦ المحبر (ص/٢٦٧) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (١٦٤/٢) .

وهناك نوع من البيوع يقال له (الجزاف) ، وهو أخذ الشيء بالحدس بلا كيل ولا وزن ولا عدد[1] .

وقد عرف (بيع المزايدة) عند الجاهليين كذلك[2] . وهو أن يعرض ما يراد بيعه للبيع فيتزايد من يريد شراءه على ثمنه ، حتى يقف على آخر من يقدم أكبر سعر له[3] .

ومن البيوع بيع (العينة) ، أن يشتري التاجر بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بثمن معلوم ويقبضه ثم يبيعها من طالب العينة بثمن أكثر مما اشتراه الى أجل مسمى ، ثم يبيعها المشتري من البائع الأول بالنقد بأقل من الثمن الذي اشتراها به ، فهذه عينة . وسميت عينة لحصول النقد لطالب العينة . وذكر ان العينة ، اذا باع التاجر من رجل سلعته بثمن معلوم الى أجل معلوم ، ثم اشتراها منه بأقل من ذلك الثمن الذي باعها به . وللفقهاء كلام في هذا البيع[4] . وقد كانوا يربحون من (العينة) ، قال « عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وكان من سادة قريش : « أغد غداً الى السوق ، فخذ لي عينة » ، فغدا ابنه فتعين من السوق عينة لأبيه ، ثم باعها ، فأقام اياماً ، ما يبيع في السوق طعاماً ولا زيتاً غير ابنه من تلك العينة . وربح منها ربحاً طيباً[5] .

وقد كان في جملة البيوع التي نهى عنها الرسول ، بيع حاضر لباد ، والبادي هو الذي يكون في البادية ، مسكنه المضارب والخيام ، والحاضر ساكن الحضر ، وصورة البيع للبادي أن يقدم غريب من البادية بمتاع ليبيعه بسعر يومه ، فيقول له بلدي : اتركه عندي ، لأبيعه لك على التدريج بأغلى منه . أو أن تشتري السلع من الأعراب الوافدين على القرى وهم في طريقهم الى السوق وأماكن البيع بأثمان بخسة ، ثم عرضها في السوق واغلاء أثمانها فيها ، أو تشرى السلع منهم ، وهي في السوق وعرضها مرة أخرى للبيع ، لكسب الفرق بين السعرين . وقد نهى الإسلام عن هذا البيع ، لما فيه من احتكار واضرار بالمصلحة العامة، ليكتسب

---

١ شمس العلوم (حـ ١ ق ٢ ص ٣٣٠) .
٢ القسطلاني (٤/ ٦١ وما بعدها) .
٣ اللسان (٣/ ١٩٩) .
٤ تاج العروس (٩/ ٢٩١) ، (عين) .
٥ كتاب نسب قريش (٣٠٤) .

بذلك نفر محدود من الناس . وللفقهاء في هذا البيع كلام وآراء [1] .

وقد كان الناس يلجأون الى أساليب غير حميدة من أساليب التلاعب بالأسعار ، وغش المشترين والتحايل بالبيع ، كأن يأتي البائع بجماعة من أصحابه يتظاهرون بالشراء وبالتكالب على السلعة لرفع السعر ، حتى يدفع الحاضرين على رفع السعر ، فيرسو البيع عليهم . وبذلك يغش البائع المشتري . وهو بيع نهي عنه في الاسلام .

ومن البيوع التي تتضمن الغش والخداع بيع التصرية . وكان من عادة العرب اذا أرادوا بيع شاة أو ناقة تركوا أياماً لا يحلبونها ، فيبقى اللبن في ضرعها ، فيكبر ، فيعرضها البائع للبيع ، ويظن المشتري ان كبر ضرعها ووجود اللبن بغزارة فيه ، هو بسبب ان تلك الشاة أو الناقة حلوبة ، فيشتريها ، فيغش . ونظراً الى ما في هذا البيع من غش وخداع نهي عنه في الاسلام [2] ، وجعل خيار البيع ثلاثة أيام ، فإن ردها ردّ معها صاعاً من تمر ، وإن شاء أمسكها . ويقال لهذا البيع أيضاً بيع المصراة [3] .

وقد يشتري الشركاء سلعة رخيصة ، ثم يتزايدون بينهم حتى يبلغوا غاية ثمنها ، فيشتريها من يرسو الثمن عليه ، ويأخذها . ويقال لذلك : (التقاوي) . ولم يرَ الإسلام بأساً بذلك . وفي حديث ابن سيرين لم يكن يرى بأساً بالشركاء يتقاوون المتاع بينهم فينمى ويزيد [4] .

ومن البيوع التي نهي عنها في الإسلام (الإعراب) . أن يقول الرجل للرجل: إن لم آخذ هذا البيع بكذا ، فلك كذا وكذا من مالي [5] .

---

١ عمدة القارىء (٢٥٨/١١) ، ارشاد الساري (٧٢/٤ وما بعدها) .

٢ صحيح البخاري (٨٧/٢) ، « وفي حديث النبي ، صلى الله عليه وسلم : من اشترى مصراة ، فهو بخير النظرين ، ان شاء ردها ورد معها صاعا من تمر ... لا تصروا الابل والغنم » ، اللسان (٤٥٨/١٤) .

٣ صحيح مسلم (٤/٥) ، تاج العروس (٢٠٩/١٠) ، (صري) .

٤ تاج العروس (٣٠٧/١٠) ، (قوو) .

٥ تاج العروس (٣٧٢/١) ، (عرب) .

الخلابة :

ومن البيوع الفاسدة الخلابة . وتقوم على المخادعة ، والخلابة المخادعة . وفي الحديث : أن بيع المحفلات خلابــة ، ولا تحلّ خلابة مسلم . والمحفلات التي جُمع لبنها في ضرعها . وفي حديث النبي ، أنه قال لرجل كان يخدع في بيعه: إذا بايعتَ ، فقل لا خلابة ، أي لا خداع[1] . وذلك لأن بعض الباعــة كانوا يخادعون المشتري في بيوعهم .

ومن بيوع أهل الجاهلية : بيع المواصفة ، وهو أن تواصف الرجل بالسلعة ليست عندك . وقد أبطل هذا البيع بعض الفقهاء ، وأجازه بعض آخر ، إذا وافقت السلعة الصفة [2] .

وقد يتفق في السلعة الرهط ، فلا يجدون بداً من أن يشتركوا وهم كارهون. وربما اتفقوا فألقوا الحجارة جميعاً إذا كانوا عدداً على أمر بينهم فوكسوا صاحب السلعة إذا طابقوا عليه[3] .

ومن بيوع أهل الجاهلية بيعهم الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح . وقد نهي عنه في الاسلام ، إلا سواء بسواء ، أي إلا متساوين ، ويداً بيد . ويسمى هذا البيع (مراطلة) إن كان بالوزن ، ومبادلة إن كان بالعدد[4] . وأما بيع الذهب بالفضة ، والفضة بالذهب ، فقد أبيح ذلك في الاسلام كيف شاء المتبايعون ، بتفاضل أو بتساو ، لأن بيع الذهب بالفضة والعكس يسمى (صرفاً) ويجوز فيه التفاضل ، لكن يشترط فيه التقابض يداً بيد[5] .

ويظهر من منــع الاسلام لبيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة إلا أن يكونا متساوين ويداً بيد ، أي مقبوضين ، ان أهل الجاهلية كانوا يبيعون الذهب بذهب

---

١ اللسان (١/٣٦٣) ، (خلب) .

٢ تاج العروس ٥(/٣٩) ، (روض) .

٣ المحبر (٢٦٤) . (أسواق العرب المشهورة في الجاهلية ومبايعتهم فيها) .

٤ قال ابن عاصم في تحفة الحكام :

والجنس بالجنس هو المراطــلة   بالــوزن أو بالعـد فالمبــادلة

٥ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم (٥/٤٧٠ وما بعدها)، (القاهرة ١٩٥٦م).

يزيد عليه حين يؤديه في أجله المحدود ، فاعتبر الاسلام ذلك علة من علل الربا ، وعلته هنا الثمينة ، ولو تبايع الناس بالجلود لنهى عن التفاضل فيها . والعلة في الأربعة الأخرى الادخار للقوت أو ما يصلح للقوت . وعلة الربا هي النقدية أو الطعم أو الاقتيات[1] .

ومن بيوع أهل الجاهلية بيع حق الانتفاع ، مثل أن يبيع بائع لمشتري حق الانتفاع من ظهر دابة ، بأن يستفيد من ركوب ظهر الدابة التي اشتراها، ولكن الدابة تكون مع ذلك لصاحبها . ومن ذلك اشتراط البائع على المشتري ظهر الدابة الى مكان معين[2] .

وقد كان الباعة الجاهليون يفعلون في أسواقهم ما يفعله باعة أيامنا من صخب في السوق ، ومن لغط ومن قسم على جودة السلع ورخص أسعارها ، يريدون التأثير على المشترين وحملهم على الشراء . وقد لاحظ الرسول ما في هذا الصخب من ضرر ، وما في هذا النوع من الدعاية للبضاعة من غش ، فنهى عنه[3] .

وقد لخصت بعض كتب الحديث والفقه البيوع وعرفتها على النحو الآتي : البيع المطلق إن كان بيع العين بالثمن ، والمقايضة إن كان عيناً بعين ، والسلم ان كان بيع الدين بالعين ، والصرف ان كان بيع الثمن بالثمن ، والمرابحة ان كان بالثمن مع زيادة ، والتولية إن لم يكن مع زيادة . والوضيعة ان كان بالنقصان ، واللازم إن كان تاماً ، وغير اللازم ان كان بالخيار ، والصحيح والباطل والمكروه[4] .

والبيع نقداً ، وهو خلاف النسيئة . وهو أن يشتري الرجل شيئاً ، فيعطي البائع نقداً معجلاً[5] . أما بيع النسيئة ، فهو البيع المؤخر ، أي الذي يدفع ثمنه مؤخراً[6] .

وقد اتخذ الاسلام قاعدة عامة في البيوع ، هي : بطلان بيع المبيع الذي يقوم على بيع المجهول كماً وكيفيةً وقبل التأكد منه ، أي بيع المجهول ، لما في ذلك

---

١ زاد المسلم (٤٧٢/٥) .
٢ ارشاد الساري (٤٣٣/٤) .
٣ عمدة القارىء (باب كراهية الصخب « السخب » في السوق) ، (٢٤٢/١٠) .
٤ عمدة القارىء (١٥٩/١١ ، ١٧٥) ، « كتاب البيوع » .
٥ تاج العروس (٥١٦/٢) ، (٤٥٤/١) ، « طبعة الكويت » ، « نساء » ، البخاري (٥٩/٣) ، (كتاب البيوع) ، عمدة القارىء (١٨٢/١١) ، (كتاب البيوع) .
٦ تاج العروس (٤٥٤/١) ، (نسأ) ، (طبعة الكويت) .

من التغرير ، أي الخداع في البيع والغبن ، ولما يقع من هذه البيوع من أضرار ولما تحدثه من خصومات ومجادلات ومن تلاعب في الأسعار ومن تأثير ذلك في الناس المنتفعين . فأبطل بيع المبيع قبل القبض، إذ كان الجاهليون يتبايعون بالذهب والطعام وهو مرجأ ، يشترون الطعام من الركبان جزافاً ، ثم يبيعونه في مكانه ، للكسب، فنهى الرسول عن هذا النوع من البيع ، حتى يؤووه الى رحالهم ويحوّلوه، وفي رواية ويكتالوه ، وأمر الرسول بضرب من يبتاع الطعام جزافاً [1] ، كما نهى عن معظم البيوع المذكورة واعتبرها باطلة ، لا تعتبر عقداً صحيحاً مشروعاً لمن عقده .

والبيوع المذكورة وإن كانت بيوعاً بنيت في الواقع على ايجاب وقبول في البيع وتراض من الطرفين وبموافقة بحصول البيع من المتعاقدين : البائع والمشتري ، غير ان هذه البيوع كانت تحدث منازعات أحياناً بين الطرفين ، وتنتج ضرراً لذلك نهي عنها في الاسلام وقيّد بعضها بقيود حتى تحدّ من وقوع المخاصمات قدر الامكان ومن وقوع الغلط في السلعة ، من حيث الجنس والنوع أو من حيث الصفة ، ومن وقوع الغبن والتغرير .

الحكرة :

الحكرة وتعرف أيضاً بالاحتكار ، ويراد بها حبس الطعام ليتربص به الغلاء . وذلك للحصول على كسب زائد . وقد كان أهل المال من الجاهليين يقصدون الأسواق ، فيشترون ما يرون فيه ربحاً في المستقبل من طعام أو ما شابه ذلك من مواد ضرورية ، ثم يختزنونها ، ويبيعونها عند حلول الموسم أو وقوع مجاعة أو فرص مؤاتية بسعر مرتفع ، غير مبالين بما في ذلك من ضرر ومن استغلال لأحوال الناس . وقد ورد النهي عن هذا البيع في الإسلام [2] .

ومن التجار المتمكنين من كان يشتري حمولة قافلة كاملة ، ثم يحتكرها ليبيعها

---

١ صحيح مسلم (٥/٧ وما بعدها) .

٢ « في الاحتكار والتسعير » ، جامع الاصول (٢/٢٢ وما بعدها) ، اللسان (٤/٢٠٨) ، (حكر) ، تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حكر) .

وقت الحاجة ، أو يدخرها ويبيع منها على التفريق بغية الربح ، فلا ينافسه على ربحها أحد[1] . ويجعل لما اشتراه السعر الذي يشاء .

ومن التجار من كان يتلقى (الركبان) ليشتروا ما معهم من طعام ، وذلك قبل وصولهم السوق[2] . فيتضرر بذلك تجار الأسواق ، والمستهلكون، أي المشترون، ومن هذا القبيل ، خروج الحضر،لاستقبال البدو ، أي الأعراب ، الذين يقصدون الحواضر ، لبيع ما عندهم من سلع ، فكان أصحاب المال يستقبلونهم قبل وصولهم السوق، وقبل اتصالهم بالتجار ، ووقوفهم على السعر ، فيشترون منهم ما يحملونه من سلع ، لبيعها في السوق[3] .

شهود البيع :

وقد كان من الجاهليين من يشهد (شهوداً) على التبايع ، أي يجعل له شهوداً يشهدون على صحة المعاملة ، ومنهم من كان يكتب التبايع وشروطه بكتاب ، حتى لا ينكل أحد المتبايعين عن البيع ، ويلحق الضرر بالطرف الآخر . إذ يكون الكتاب حجة وشاهداً والى ذلك أشير في القرآن الكريم : « وأشهدوا إذا تبايعتم . ولا يضار كاتب ولا شهيد »[4] ، وذلك منعاً لما قد يحدث من خلاف ونزاع بين المتكاتبين ، فيرجع عندئذ الى ما هو مكتوب ويعمل بموجبه .

فسخ البيع :

والبيع عقد فيه ايجاب وقبول ، فلا يجوز فسخه والتخلص منه من غير سبب مخل بعقد شرط البيع . أما اذا حصل تراض على فسخ الصفقة فذلك مباح لأنه قد حصل عن رضا وموافقة واختيار ، دون إكراه ولا إجبار . ويعبر عن تفاسخ الصفقة بـ (تقايل البيع) . يقال : تقايلا بعدما تبايعا أي تتاركا . وأقلته

---

١ اللسان (٤/٦٢٤) ، (عير) .
٢ ارشاد الساري (٤/٧٤) .
٣ ارشاد الساري (٤/٧٢ وما بعدها) .
٤ البقرة ، الآية ٢٨٢ ، تفسير الطبري (٣/٨٨) .

البيعَ إقالة : فسخه . وعاد المبيع الى مالكه والثمن الى المشتري،اذا كان قد ندم أحدهما أو كلاهما [1] .

العربون :

و (العربون) ما عقد به البيع[2] . ويعبر عنه بـ (عربن) في المسند . وتقابل هذه اللفظة لفظة (العربان) في عربية القرآن الكـــريم[3] . وهو ما يقدمه المشتري للبائع لعقد البيع ، اذا كان البيع نسيئة ، حتى يسلم تمام الذي الذي اتفق عليه . ولهذا لا يكون عربوناً اذا تم البيع يداً بيد ، أي اذا دفع الثمن كاملاً في مجلس البيع ، وتم البيع والاستلام ، إذ لا حاجة عندئذ اليه ، لأن العربون وديعة تقدم للائتمان ، لتكون وثيقة للبيع ، ولقبول المشتري السلعة ، فلا يحق له النكول عن البيع وإلا خسر عربونه ، وليكون ضماناً للبائع على البيـــع ، فإذا نكل المشتري وامتنع عن الشراء خسر عربونه ، وصار حقه للبائع بدل النكول . ولهذا يكون العربون في الغالب مبلغاً يرضي البائع ، أي متناسباً مع قيمة البيع[4] .

وكما يكون (العربون) في البيع يكون في الاجارة ، وفي العمل . وذلك أن يقدم الرجـــل ربّ العمل أو المال الى الصانع أو التاجر ليرتبط العقد بينهما حتى يتوافيا بعد ذلك[5] . فإذا أخلف رب العمل أو المال في وعده وخاس في عهده ، صار العربون من حق الصانع أو التاجر .

ويعبر عن العربون بلفظة (ودعت) في المسند . ويراد بها الوديعة [6] . والوديعة في عربيتنا ما استودع . يقال : استودعه مالاً وأودعه إياه : دفعه اليه ليكون عنده وديعة [7] . فالوديعة في هـــذه العربية قد تؤدي معنى العربون ، وقد تؤدي معنى الرهن والرهينة ، وقد تؤدي معنى الاستيداع مطلقاً ، أي ايداع شيء عند شخص

---

١ اللسان (١١/٥٧٩ وما بعدها) ، (قيل) .
٢ تاج العروس (٩/٢٧٧) ، (عربن) .
٣ تاج العروس (١/٣٧٢) ، (عرب) .
٤ تاج العروس (١/٣٧٦) ، (عرب) .
٥ تاج العروس (١/٣٧٦) ، (عرب) .
٦ REP. EPIGR. 3911.
٧ اللسان (٨/٣٨٦) ، (ودع) .

وحفظه لديه . وأنا لا أستبعـد أن يكون هذا المعنى ، هو معناها في لغة المسند أيضاً .

ويقال للعربون ، الأربون كذلك . وهو ما عقد به المبايعة ، أو البيعـة من الثمن . وفي الحديث أنه نهي عن بيع العربان ، وهو أن يشتري السلعة ويدفـع الى صاحبها شيئاً ، على أنه إن أمضى البيع حسب من الثمن ، وإن لم يمض البيع كان لصاحب السلعة ، ولم يرتجعه المشتري . وذكر هو القليل من الثمن أو الأجرة يقدمه الرجل الى الصانع أو التاجر ليرتبط العقد بينهما حتى يتوافيا بعد ذلك . فكما أنه يكون في البيع يكون في الاجارة . وللعلماء الفقهاء آراء في جواز أو عدم جواز البيع بالعربون[1] .

و (الكُلأة) النسيئة والعربون ، أي السلفة . وفي الحديث نهي عـن الكالىء بالكالىء ، يعني النسيئة بالنسيئة[2] .

و (المسكان) العربون كذلك . وجاء في الحديث النهي عن بيـع المسكان ، وهو أن يشتري شيئاً فيدفع الى البائع مبلغاً على انه إن تم البيع احتسب من الثمن ، وإن لم يتم كان للبائع ولا يرتجع منه[3] .

الخيار في البيع :

والخيار في البيوع طلب خير الأمرين : إما الامضاء وإما البيـع أو فسخه[4] . فقد يرى البائع أو المشتري في السلعة المشتراة رأياً ، لم يكن له حين عقد صفقة البيع . وللفقهاء كلام عليه ، وهو أنواع عندهم ، منها خيار المجلس ، وخيار الشرط ، وخيار الرؤية وهو شراء ما لم يره على انـه بالخيار إذا رآه ، وخيار العيب ، وخيار تلقي الركبان ، وخيار تفريق الصفقة وتفريقها بتعددها بالابتداء، وخيار العجز عن الثمن ، وخيار فقد الوصف المشروط في المبيع ، والخيار فيما رآه

---

١ « وفي حديث عمر أن عامله اشترى دارا للسجن بأربعة الاف، وأعربوا فيها اربعمائة، أي أسلفوا » ، تاج العروس (٣٧٦/١) ، (عرب) .
٢ تاج العروس (١١١/١) ، (كلا) .
٣ تاج العروس (١٧٧/٧) ، (مسك) .
٤ تاج العروس (١٩٥/٣) ، (خير) .

قبل العقد اذا تغير عن صفته ، وغير ذلك[1] . وقد جعل بعضهم الخيار ثلاثة أضرب : خيار المجلس ، وخيار الشرط ، وخيار النقيصة [2] .

وقد يشترط في البيع ألا يضمن عهدته . ويقال لهذا النوع من البيع : (الملسى) و (الملسى) ، هي البيعة التي لا يتعلق بها تبعة ولا عهدة . يقال : أبيعك الملسى لا عهدة . أي تتملس وتنفلت ولا ترجع إليّ . ويقال في البيع ملسى لا عهدة ، أي قد انملس من الأمر لا له ولا عليه[3] .

صفات البيع :

وإذا تم عقد بيع بين بائع ومشترٍ ، يضع أحدهما يده في يد الآخر ، دلالة على قبول البيع وتمامه . ومن هنا قيل للتبايع الصفق . وورد : تصافقوا ، أي تبايعوا [4] . وبذلك يتم البيع ويكون في عرفهم بيعاً صحيحاً .

وكانت عادتهم انهم اذا تبايعوا تصافقوا بالأيدي ، دلالة على عقد البيع وحصول الرضا به ، ووقوع الايجاب والقبول من البائع والمشتري ، ومن هنا قيل للبيعة صفقة ، والصفقة تكون للبائع والمشتري[5] . ومتى تم التصافق فلا يجوز لأحدهم النكول عن البيع ، لأنه عقد عقداً وأمضى أمراً ، وكان عليه أن يعمل رأيه قبل المصافقة ، واذا كانت البيعة على شيء مجهول ، كأن تكون السلعة المباعة قد خبئت في خباء وبيعت مجهولة ، ووافق المشتري على شرائها على تلك الحالة ، ثم تبين انها دون الثمن بكثير ، فلا حق للمشتري برد البيع ، لأنه حين شرائه تلك السلعة كان يعلم انها مخبأة وانها تباع بيع الشيء المجهول . وقد رضي بالبيع بالمصافقة ، فلا حق له اذن برفض السلعة .

---

١ ارشاد الساري (٤/٤٢) .

٢ تاج العروس (٣/١٩٥) ، (خير) .

٣ قال الراجز :

لما رأيت العام عاماً أعبسا   وما ربيع مالنا بالملسى

تاج العروس (٤/٢٤٩) ، (ملس) ، اللسان (٦/٢٢١) ، (ملس) .

٤ اللسان (١٠/٢٠٠ وما بعدها) ، (صفق) .

٥ تاج العروس (٦/٤٠٩) .

الدَّيْن :

وقد لعبت الديون دوراً خطيراً في الحياة العامة في الجاهلية وفي الحياة الاقتصادية بصورة خاصة ، لاضطرار التجار الى التعامل بالدين ، وكذلك الباعة والمشترين . وتلعب الحاجة الدور الأول في التداين ، فلولاها لما استدان مدين .

وقد استدان أصحاب المال بعضهم من بعض أيضاً ، لتمشية أمورهم المالية ، ولتوسيع رأسمالهم بالدين ، بتشغيله للحصول على ربح كبير منه . وذلك على نحو ما يفعل التجار في هذا اليوم ، من التداين من البنوك ، لتشغيل ما يستقرضونه منها في أعمال تجارية تأتي اليهم بأرباح تزيد كثيراً على مقدار الفائدة التي ستدفع للبنوك .

وقد أشير الى الدَّين في القرآن الكريم . ورد في سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجلٍ مسمّى ، فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل »[1] . يعني « يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إذا تداينتم يعني إذا تبايعتم بدين أو اشتريتم به أو تعاطيتم أو أخذتم به الى أجل مسمى . يقول الى وقت معلوم وقتموه بينكم . وقد يدخل في ذلك القرض والسلم في كل ما جاز السلم شرى أحل بيعه ، يصير ديناً على بائع ما أسلم اليه فيه ، ويحتمل بيع الحاضر الجائز بيعه من الأملاك بالأثمان المؤجلة . كل ذلك من الديون المؤجلة الى أجل مسمى ، إذا كانت آجالها معلومة بحد موقوف عليه . كان ابن عباس يقول : نزلت هذه الآية في السلم خاصة »[2] .

و (السلم) الذي يشير (ابن عباس) اليه ، هو (السلف) . وأسلم وأسلف بمعنى واحد[3] . والسلف القرض الذي لا منفعة فيه للمقرض ،غير الأجر والشكر ، وعلى المقترض ردّه كما أخذه[4] .

والدين في تعريف العلماء ما له أجل ، وما لا أجل له فقرض . وبينهما وبين

---

١ الآية (٢٨٢) .

٢ تفسير الطبري (٣/٧٦) .

٣ تاج العروس (٨/٣٣٧) ، (سلم) .

٤ تاج العروس (٦/١٤٣) ، (سلف) .

السلم فروق عرفية[1] . والقرض ما تعطيه من المال لتقضاه[2] .

وقد كان من الصعب دفع الديون أو استحصالها ، للأحوال الاقتصادية السيئة التي قد تحيط بالمدين . فإذا أخذ الرجـــل الدين أكله ، فإذا أراد صاحب الدين حقه لواه به ، أي مطله . ومنه المثل : الأخذ سلجان والقضاء ليان[3] .

المنحة :

والمنحة العطيّة . وقد تقع المنحة على الهبة مطلقاً ، لا قرضاً ولا عارية،فتكون له . وقد تكون اعارة للاستفادة من منفعة ، ثم تعاد . ومن هذا القبيل منحـــة الأرض . فقد تمنح هبة ، فتكون لمن وهبت له ، يستغل منفعتها، وله ان يبيعها متى شاء ، لأنها هبة وهبت له ، فصارت في حـــكم ملكه ، وقد تستغل إعارة لأجل يتفق عليه ، أو بغير أجل ، يستردها صاحبها متى شاء وأحب. ومن المنح، منح الإبل ، للاستفادة من وبرها وألبانها وولدها ، والسفر عليهـــا ، واكرائها للقوافل وللأشخاص . والمنحة المعارة مردودة . وقد ورد في الحديث : المنحـــة مردودة ، والعارية مؤداة[4] . وورد ان المنحة عند العرب على معنيين: أحدهما ان يعطي الرجل صاحبه المال هبة أو صلة فتكون له . وأما المنحة الأخرى،فإن يمنح الرجل أخاه ناقة أو شاة يحلبها زماناً وأياماً ثم يردها . وهو تأويـــل ما ورد في الحديث من قوله : المنحة مردودة والعارية مؤداة[5] .

---

١ تاج العروس (٩/٢٠٧) ، (دين) .
٢ تاج العروس (٥/٧٦) ، (قرض) .
٣ تاج العروس (٢/٥٩) ، (سلج) .
٤ تاج العروس (٢/٢٣٢) ، (منح) .
٥ تاج العروس (٢/٢٣٢) ، (منح) .

الفصل السادس بعد المئة

الشركة

والشركة في البيع ، معروفة عند الجاهليين ، فقد كان الناس يشتركون في البيع ، بالمساهمة ، بمال الشركة مناصفة أو على نصيب يعين أو بنسب يتفقون عليها ، وبالمساهمة بمال يقدم من جهة وبعمل يقوم به الطرف الآخر وَفْق شروط يتفق عليها المشاركون بالنسبة الى الربح أو الى الخسارة . وقد كان من عادة أهل مكة مساهمة معظم أهلها في مال تجارتهم التي يرسلونها الى اليمن والى بلاد الشأم، ولهذا كانت القافلة التي يرسلونها تكون كبيرة ضخمة ، يزيد عدد جمالها على الألف . ومعنى هذا أن المال الذي تحمله القافلة يكون كبيراً غالياً ، وذلك لأن أكثر أهل مكة من الأغنياء والموسرين والمتوسطين قد ساهموا فيه .

ويقال للشريك (الجار) . و (الجار) الشريك في العقار والشريك في التجارة [1].

وقد يتكاتب الشركاء فيما بينهم ، بأن يكتبوا ما اتفقوا عليه في صحيفة تحفظ نسخ منها عند الشركاء . وقد يتكاتبون ، وانما يرضون بالوفاء على ما اتفقوا عليه ، معتمدين على اخلاصهم في النية وعزمهم على الوفاء بما اتفقوا عليه بكل أمانة واخلاص . ونجد في كتب أهل الأخبار أمثلة على تشارك أشخاص للقيام بأعمال تجارية في مختلف أنحاء جزيرة العرب . فهي تبين ان الشراء كانوا يقدمون من أموالهم كذا وكذا من المال ، للعمل شركة. فيخلطون المال المقدم من الشركاء

---

١ تاج العروس (٣/١١١) ، (جار) .

حتى يصير شيئاً واحداً ، وبعد إخراج رأس المال بعد الحساب ، والمؤن والكلف يقسم الربح نصفين إن كانا شريكين ، أو أكثر حسب عـــدد الشركاء ومقدار ما ساهم به كل واحد من الشركاء في رأس المال . وتوزع الخسائر ، إن كانت هنالك خسائر على عدد المساهمين ، وبنسب ما ساهم كل واحد من المساهمين في رأس المال[1] .

وقد ورد في الأخبار ان (نوفل بن الحارث ين عبد المطلب بن هاشم) كان في الجاهلية شريكاً (للعباس بن عبد المطلب) ، وكانا شريكـــين متفاوضين في المال متحابين . ولما وقع في الأسر في (بدر) ، فداه العباس . وقد كان غنياً، أسلم ، وأعان رسول الله يوم بدر بثلاثة آلاف رمح[2] . وكان (السائب بن أبي السائب صيفي بن عائذ) يشارك الرسول في تجارته ، ويتاجران مع بلاد اليمن[3] . وذكر ان (السائب بن عبدالله) المخزومي ، كان هو شريك الرسول وصاحبه في الجاهلية[4] . وورد ان (السائب بن الحارث بن صبرة) ، كان شريكاً للنبي بمكة[5] . ويظهر ان اشتراك الثلاثة في الاسم ، صير ثلاثتهم شركاء للرسول في تجارته ، والصحيح ان واحداً منهم كان شريكاً له .

وكان (مرداس بن أبي عامر) ، والد (العباس بن مرداس) الشاعر ، شريكاً لحرب بن أمية ، والد أبي سفيان[6] . وكان (العباس بن أنس) شريكاً لعبد المطلب[7] .

وقد شارك (البرّاء بن عازب) (زيد بن أرقم) بالصرف ، وهـــو بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة . ثم راجعا رسول الله فيه ، فقال لهما : ما كان يداً بيد فخذه ، وما كان نسيئة فذروه[8] .

وقد تشارك أهل مكة فيما بينهم في تكوين الشركات ، كما تشاركوا مع غيرهم

---

١ نهاية الارب (١٨/٩) .
٢ البرقوقي (ص ٧٢) .
٣ امتاع الأسماع (٨/١ وما بعدها) ، الاصابة (١٠/٢) ، (رقم ٣٠٦٤) .
٤ الاصابة (١٠/٢) ، (رقم ٣٠٦٦) .
٥ الاصابة (١٠/٢) ، (رقم ٣٠٥٧) .
٦ الاصابة (٢٦٣/٢) ، (رقم ٤٥١١) .
٧ الاصابة (٢٦٢/٢) .
٨ ارشاد الساري (٢٩٠/٤) .

في تكوين شركات ، أسست لها فروعاً في المحال التي أقام فيها الشركاء الغرباء . فقد شاركوا بعض أهل اليمن ، وجعلوا من مواضع شركائهم فروعاً لهم هناك ، يبيعون ويشترون شراكة ، ويقتسمون الأرباح والخسائر على حسب ما اتفقوا عليه. فشاركوا أهل الحيرة ، كانوا يرسلون تجارتهم اليهم ، لبيعها في أسواق الحيرة ، ويرسل شركاؤهم من أهل الحيرة بضائعهم الى مكة،لتصريفها بها ، ثم يتحاسبون ويقسمون الأرباح أو الخسائر حسب ما اتفقوا عليه . وكان (كعب بن عدي) التنوخي الحيري ، شريك (عمر) في التجارة . يتاجر معه في البز . وقد أسلم قبيل وفاة الرسول ، وكان قد ذهب في وفد من أهل الحيرة الى المدينة ، فعرض الرسول عليهم الاسلام فأسلموا ، فلما انصرفوا الى الحيرة ، جاءتهم أنباء وفاة الرسول ، فارتاب أصحابه ، وقالوا : لو كان نبياً لم يمت ، وقال كعب : فقد مات الأنبياء قبله ، وثبت على الإسلام ، ثم خرج الى المدينة ، ورأى (أبا بكر) ، فلما بعث أبو بكر جيشاً الى اليمامة ذهب معه ، ثم أرسله (عمر) الى (المقوقس) وقدم الاسكندرية سنة خمس عشرة رسولاً من (عمر) الى المقوقس. وشهد فتح مصر .

وورد في رواية أخرى ، أنه أسلم بعد وفاة الرسول ، في خلافة (أبي بكر). وورد في رواية أخرى أنه كان أحد وفد الحيرة الى الرسول ، وكان شريك النبي في الجاهلية[1] . وكان عقيداً أي حليفاً لعمر[2] .

وقد أشرك أهل مكة سادات القبائل معهم في الاتجار ، تأليفاً لقلوبهم ، وحماية لتجارتهم ولقوافلهم من التعرض للسلب والنهب ، وكانوا يعطونهم نصيبهم من الأرباح . وهو عمل حكيم جعل سادات القبائل يفدون الى مكة ، ويعقدون العقود مع تجارهم للاتجار معهم . وبذلك توسعت تجارة مكة وزادت رؤوس أموال قريش .

وقد كان أهل اليمن يتشاركون في الأرض ، وهو أن يدفعها صاحبها الى آخر بالنصف أو الثلث أو نحو ذلك . وقد أشير الى هذا التشارك في نصوص المسند . وفي حديث معاذ : انه أجاز بين أهل اليمن الشرك ، أي الاشتراك في الأرض[3] .

١ الاصابة (٣/٢٨٢) ، (رقم ٧٤٢٢) .
٢ الاصابة (٣/٢٨٢) ، (رقم ٧٤٢٢) ، تاج العروس (٢/٤٢٨) ، (عقد) .
٣ اللسان (١٠/٤٤٩) ، (شرك) ، تاج العروس (٧/١٤٨) ، (شرك) .

أنواع الشركات :

ويقسم الفقهاء الشركة في التجارة الى شركة عنـان ، وشركة مفاوضة ، أو شركة عنان وشركة تفويض[1] . وجعلها بعضهم أنواعاً أربعـة : شركة الأبدان كشركة الحمّالين والجمّالين وسائر المحترفة ليكون كسبهما متساوياً أو متفاوتاً مع اتفاق الصنعة واختلافها ، وشركة الوجوه ، كأن يشترك وجيهان عند الناس ليبتاع كل منهما بمؤجل ويكون المبتاع لهما ، فإذا باعا كان الفاضل عن الأثمان بينهما ، وشركة المفاوضة ، بأن يشترك اثنان بأن يكون بينهـما كسبهما بأموالها وأبدانهما وعليهما ما يعرض من مغرم . وسميت مفاوضة من تفاوضا في الحديث شرعا فيه جميعاً ، وشركة العنان . وكلها باطلة إلا شركة العنان ، لخلو الثلاث الأولى عن المال المشترك ولكثرة الغرر فيها بخلاف الأخيرة فهي الصحيحة[2] .

فأما (شركة العنان) أو (العنان) (شركة عنان) ، فهي أن يخرج كل واحد من الشريكين دنانير أو دراهم مثل ما يخرج صاحبه ويخلطاها ، ويأذن كل واحد منهما لصاحبه بأن يتجر فيه . فإن ربحا في المالين فبينهما ، وان وُضعا فعلى رأس مال كل واحد منهما . وسميت هذه الشركة شركة عنان لمعارضة كل واحد منهما صاحبه بمال مثل ماله ، وعمله فيه مثل عمله بيعاً وشراءً . وقـد أشير الى هذه الشركة في شعر ينسب الى النابغة الجعدي ، حيث يقول :

وشاركنا قريشاً في تقاهـا ... وفي أحسابها شِرك العنان[3]

وهناك شركة أخرى عرفت بـ (شركة المفاوضة) (فوضى) ، وهي أن يشتركا في كل شيء في أيديهما أو يستفيداه من بَعْدُ ، وقيل هـو أن يعارض الرجلُ الرجل عند الشراء فيقول له : أشركني معك ، وذلك قبل أن يستوجب العَتَق . ورد : « الشركـة شركتان : شركة العنـان ، وشركة المفاوضة »[4] .

١ تاج العروس (١١١/٣) ، (جار) ، تاج العروس (٢٨/٩) ، (عن) .
٢ ارشاد الساري (٢٨١/٤) ، (باب الشركة) .
٣ اللسان (٢٩٢/١٣) « صادر » ، تاج العروس (١٤٨/٧) ، (شرك) ، (وفي أنسابها) تاج العروس (٢٨٢/٩) ، (عن) .
٤ اللسان (٢٩٢/١٣) « صادر » .

وذكر أن شركة المفاوضة ، وهي العامة في كل شيء . وشركة العنان في شيء واحد . يقال شاركته شركة مفاوضة ، وذلك أن يكون مالهما جميعاً من كل شيء يملكانه بينهما . وقيل شركة المفاوضة أن يشتركا في كل شيء في أيديهما أو يستفيآنه من بعد . يقال تفاوض الشريكان في المال إذا اشتركا فيه أجمع . والمفاوضة المساواة . ويقال متاعهم فوضى بينهم إذا كانوا فيه شركاء . كما يقال أيضاً فوضى فضا . قال الشاعر :

طعامهم فوضى فضا في رحالهم ولا يحسنون السرّ إلا تناديا [1]

المشاركة :

ويعبر عن (الشريك) بـ (الخليط) . والخليط المشارك في حقوق الملك كالشرب والطريق ونحو ذلك . وقيل الخليط والمخالط ، لا يكون إلا في الشركة. وفي الحديث ، أي حديث الشفعة : الشريك أولى من الخليط ، والخليط أولى من الجار . أراد بالشريك المشارك في الشيوع ، والخليط المشارك في حقوق الملك . ومنه الحديث : ما كاد من خليطين ، فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية [2] .

وقد أشير الى (الخلطاء) في القرآن ، ورد : « قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض »[3]. والخلطاء الشركاء الذين خلطوا أموالهم ، وقد تغلب الخلطة في الماشية [4] .

وقد أشار أهل الأخبار الى ان تجار قريش صاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء[5] ، جابوا البلاد وضربوا في الأرض الى قيصر بالروم والى النجاشي بالحبشة ؛ والى المقوقس بمصر . فهم شركاء يكسبون عيشهم بالتجارة بعد أن حرموا من خيرات الأرض في واديهم القفر .

١ تاج العروس (٥/٧١) ، (فوض) .
٢ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) .
٣ سورة ص ، الرقم ٣٨ ، الآية (٢٤) .
٤ تفسير الطبري (٢٣/٩٢) ، تفسير النيسابوري (٢٣/٩٢) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، تفسير القرطبي (١٥/١٧٩) .
٥ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١ وما بعدها) ، البلدان (٤٧٢) .

والخلطاء الشركاء الذين خلطوا أموالهم ، وقد تغلب الخلطة في الماشية[1] . وذلك أن يتخالطوا في الماشيـــة ، فيقدم كل واحد عدداً من الماشية ، ترعى معاً ، ويقال لذلك : (الخلاط) . وقد أشير اليه في كتب الحـــديث[2] . وذكر بعض العلماء : أن الخليطين الشريكين لم يقتسما الماشية وتراجعها بالسوية . وقـــد يكون الخليطـــان الرجلين يتخالطان بماشيتهما وإن عرف كل واحد ماشيته ، ولا يكونا خليطين حتى يريحا ويسرحا ويسقيا معاً ، وتكون فحولها مختلطة ، وان تفرقا في مراح أو سقي أو فحول فليسا خليطين ، ولا يكونان خليطين حتى يحول عليهما حول من يوم اختلطا . وللفقهاء بحث في هذا الموضوع[3] .

والتراجع بين الخليطين ، أن يكون لأحدهما مثلاً أربعون بقرة وللآخر ثلاثون ومالها مشترك ، فيأخذ العامل عن الأربعين مسنـــة وعن الثلاثين تبيعاً ، فيرجع بأذل المسنة بثلاثة أسباعه على خليطه ، وبأذل التبيع بأربعة أسباعه على خليطه لأن كل واحد من السنين واجب على الشيوع ، كأن المال ملك واحد[4] .

والخلاطة شركة في الواقع ، تختلف عن الشركـة المعروفة في كونها شركـــة بالمال ، وتلك شركة برأس المال . وكل واحد من الخليطين يتصرف بمـــا عنده من مال ، ثم يتراجعا عند الحساب ، لاخراج ما فيه من ربح أو غرم ، وبذلك تختلف الخلاطة عن الشركة[5] .

السفتجة :

وعرفت (السفتجة) بين الجاهليين . وهي كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالاً قراضاً يأمن به من خطر الطريق . وقيل : هو قرض استفاد بـــه المقرض سقوط خطر الطريق ، بأن يقرض ماله عند الخوف ليرد عليه في موضع أمن . أو أن يعطي رجل مالاً لآخر ، وللآخر مال في بلد المعطي ، فيوفيه إياه فيستفيد

---

١ تفسير النيسابوري (٢٣/٩٢) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٢ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) .
٣ تاج العروس (٥/١٣٣) ، (خلط) .
٤ تاج العروس (٥/٣٥١) ، (رجع) .
٥ ارشاد الساري (٤/٢٨٤) .

أمن الطريق وفعلـه السفتجة ، والجمع السفاتج . وقد كان أهل الجاهلية يعطون مالاً لشخص محتاج اليه ، على أن يوفيه في بلده لوكيل صاحب المال أو لمن يثق به ، في مقـابل نفع يعين ، أو قرض لا نفع له . وقد نهى النبي عن قرض يجرّ نفعاً[1] .

الوكالة :

وعرفت الوكالة عند الجاهليين . والوكيل ، هو الذي يقـوم بأمر الانسان ، سمي به لأن موكله قد وكل اليه القيام بأمره ، فهو موكول اليه الأمر[2] وحـكم الوكيل حكم الأصيل ، والتاجر الوكيل في البيع والشراء ، وفي كل تعامل ، هو بمنزلة التـاجر الأصيل صاحب المال ، وما يعقده من عقود ، يكون ملزماً بحق التاجر الأصيل . وقد عرف العلماء الوكالة : انها تفويض شخص أمره الى آخر فيما يقبل النيابة[3] .

ولا يشترط في الوكالة ، أن تكون وكالة تجارة ، بل يجوز أن تكون وكالة في كل شيء ، كأن تكون إشرافاً على أهل أو بيت لحمايته أثناء غياب صاحبه ، كما تكون وكالة حراسة أموال والتصرف بها . فقد كاتب (عبد الرحمن بن عوف) (أميةَ بن خلف) أن يحفظه في صاغيته بمكة ، وأن يحفظ (عبد الرحمن) صاغية (أمية) بالمدينة[4] .

وكانوا يوكلون وكلاء عنهم في اجراء العقود والتوقيـع على العهود ، وعلى شروط السلم ، اذا كانوا مخولين . ولما جاء وفد (هوازن) الى رسول الله ، يسأله المنّة عليه برد أموالهم وسبيهم ، سأل رسول الله من كان عنده من أصحابه من الناس من المقاتلين في أمر رد السبي ، فتنازلوا عن حقهم فيـه طيبة لرسول الله ، فقال رسول الله : « إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ، ممن لم يأذن ، فارجعوا حتّى يرفع لنا عرفاؤكم أمركم » ، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ، ثم

---

١ تاج العروس (٢/٥٩) ، (السفتجة) .
٢ تاج العروس (٨/١٥٩) ، (وكل) .
٣ ارشاد الساري (٤/١٥٥) ، (كتاب الوكالة) .
٤ ارشاد الساري (٤/١٥٦) .

رجعوا، وقد طيبوا وأذنوا لرسول الله أن يرد السبي اليهم، لتوكيل الناس لهم ذلك[1] .

السمسرة :

والسمسار المتوسط بين البائع والمشتري لامضاء البيع . وهو الذي يسميه الناس الدلال ، فإنه يدل المشتري على السلع ويدل البائع على الأثمان . واللفظة من الألفاظ المعربة ، وقد ذكرت في شعر للأعشى :

فأصبحت لا أستطيع الكلام   سوى أن أراجع سمسارها[2]

والسمسار الرجل الحاذق المتبصر ، وسمسار الأرض العالم بها ، والحاذق المتبصر بأمورها[3] . وقد ذهب علماء اللغة الى انها لفظة عرّبت عن الفارسية ، وذهب بعض الباحثين الى انها من أصل إرمي[4] .

والسمسار الذي يبيع البرّ للناس . وفي حديث : (قيس بن أبي عروة) : « كنا قوماً نسمى السماسرة بالمدينة في عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فسمانا النبي ، صلى الله عليه وسلم ، التجار »[5] . والسمسرة ، هو أن يتوكل الرجل من الحاضرة للبادية فيبيع لهم ما يجلبونه . قيل القيم بالأمر الحافظ له[6] . ويظهر أنهم كانوا يطلقون لفظة (السمسير) على الوكيل والقيم بالأمر الحافظ له في الأصل ، ثم غلب استعمالها فيمن يدخل بين البائع والمشتري . كما استعملوها خاصة فيمن يدخل بين البائع البادي والمشتري الحاضر ، أو عكسه[7] .

ومن طريقتهم في السمسرة أن يقول صاحب السلعة للسمسار بع هذا الثوب فما زاد على كذا وكذا فهو لك ، فما زاد على ما اتفق عليه يكون أجرة سمسرة . أو أن يقول : بعه بكذا فما كان من ربح فهو لك[8] . أو أن يترك السعر للسمسار، يبيعه حسب خبرته وقدرته على السوم ، فإن باع الشيء دفع صاحب السلعة له

١ ارشاد الساري (٤/١٦١) .
٢ تاج العروس (٣/٢٨٠) ، (سمسر) ، اللسان (٤/٣٨٠) ، (سمسر) .
٣ تاج العروس (٣/٢٨٠) ، (سمسر) .
٤ غرائب اللغة (١٨٩) .
٥ اللسان (٤/٣٨٠) ، (سمسر) .
٦ اللسان (٤/٣٨٠) ، (سمسر) .
٧ ارشاد الساري (٤/٧٢ وما بعدها) .
٨ ارشاد الساري (٤/١٣٦) .

أجر سمسرته . وقد يأخذها من المشتري وقد يأخذها من صاحب السلعة ومن المشتري.

ولا تنحصر السمسرة بالبيع في السوق ، ويحمل السمسار السلعة معه يعرضهـا على من يريد الشراء ، فقد تكون السمسرة عن طريق بيع ملك ثابت ؛ مثل دار أو أرض أو بئر ، فيراجع السمسار من يرغب في الشراء في بيته أو في أي مكان آخر مناسب ، فلا ينادي المتساومين المتنافسين لشراء الملك ، وقد يقف عند الدار أو الأرض أو البئر ، في يوم يعين ووقت يثبت ، ثم ينادي على السعر فيزايـد الراغبون في الشراء السعر ، حتى يقف على أعلا المتزايدين . ويدخل في هـذه المزايدات بيع الحيوان من نعم وماشية وغير ذلك .

ومن السماسرة من كان يربح ربحاً حسناً ، ولا سيما أولئك الذين كانوا يرعون أمور (الركبان) من الأعراب ، ويبيعون لهم عـلى الأمانة والتصريف ويكونون لهم وكلاء ، إذ كانوا يبخسون الأعراب حقهم ويتناولون منهم أكثر ممـا يجب أخذه عن أتعابهم ، لجهلهم بمعاملات السوق والبيع والشراء .

الفصل السابع بعد المئة

المـال

المال في اللغة ما ملكته من كل شيء ، وهو في الأصل ما يملك من الذهب والفضة ، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل ، لأنها كانت أكثر أموالهم . وفي الحديث نُهي عن إضاعة المال ، قيل أراد به الحيوان[١] . ويشمل المال الصامت وهو العين[٢] ، والورق وسائر المصوغ منها[٣]. والعرض ويشمل الأمتعة والبضائع والجواهر والمعادن والأخشاب وسائر الأشياء المصنوعة منها ، والعقار من مسقف ومن مزروع مثل البساتين والكروم والمراعي والغياض والآجام وما يحويه من العيون والحقوق في مياه الأنهار، والحيوان بأنواعه . ويدخل الرقيق أيضاً في أصناف المال بالنسبة الى ذلك العهد ، لأن له قيمة وثمناً ، وهو ثروة لصاحبه وملك ، وهو بوجه عام كل ما تملكه مما له ثمن .

و (العين) الدينار والذهب عامة[٤] . و (الوَرِق) ، الدراهم المضروبة ، وقيل الفضة ، كانت مضروبة أولاً[٥] . ويلاحظ ان الكلمتين تعبران عن الذهب

---

١ اللسان (١١/١١/٦٣٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/١٢١) ، (مول) .
٢ القاموس (٤/٥٢) ، كتاب الارشاد الى محاسن التجارة (ص ٢ وما بعدها) .
٣ القاموس (٣/٢٨٨ وما بعدها)، تاج العروس (٧/٨٦ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٩/٢٨٨) ، (عين) .
٥ تاج العروس (٧/٨٥) ، (ورق) .

والفضة ، وعن الدنانير والدراهم . والدنانير من ذهب ، والدراهم من فضة . ويعبر عن الذهب بلفظة (الصفراء) للونه[1] . وعبروا عن الفضة بـ (البيضاء) وبالأبيض لبياض الفضة ، ومنه الحديث : أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وهما الذهب والفضة[2] .

ويقال للمال (النشب) ، والنشب المال والعقار ، وأكثر ما يستعمل في الأشياء الثابتة التي لا براح بها كالدور والضياع . والمال أكثر ما يستعمل فيما ليس بثابت كالدراهم والدنانير ،وربما أوقعوا المال على كل ما يملكه الإنسان ، وربما خصصوه بالابل ، والعروض اسم للمال[3] .

والذهب والفضة ، هما مقياس الثراء عند الحضر . ويكون ذلك بحيازتهم سبائك من ذهب أو فضة ، أو مصوغات ، أو دنانير ودراهم . و (الثري) ، الكثير المال ، والثرة كثرة المال[4] . وهو الذي يملك الذهب والفضة أو الأموال الأخرى. والغني ، ذو الوفر ، أي المال الكثير[5] .

وكان الذهب والفضة ، مقياسي الثراء عند الانسان قبل أن تضرب النقود وتسك السكك ، بل بقيا على ذلك حتى بعد ضرب النقود ، بسبب ندرة الدنانير ، وقلة الدراهم ، وتفضيل البعض الذهب على الدينار والفضة على الدرهم ، لهذا نجد أهل الجاهلية يتعاملون بالذهب والفضة وزناً في تعيين الأسعار وفي شراء الحاجات وفي المهور مع وجود الدنانير والدراهم ، بل بقي التعامل بهما في الاسلام أيضاً . ولما أرسل الرسول (شجاع بن وهب الأسدي) الى (الحارث بن أبي شمر) الغساني ، أمر له (الحارث) بمائة مثقال ذهب[6] . وأجاز رسول الله (مسعود بن سعد) الجذامي رسول (فروة بن عمرو الجذامي) اليه ، باثنتي عشرة أوقية ونش ، وذلك خمسمائة درهم . وكان (فروة) عامل قيصر على (عمان) من أرض البلقاء ، فأرسل (مسعوداً) الى الرسول ليخبره باسلامه ، وأرسل معه هدية الى الرسول[7] .

---

١ تاج العروس (٣/٣٣٥) ، (صفر) .
٢ تاج العروس (٥/٩) ، (بيض) .
٣ تاج العروس (١/٤٨٤ وما بعدها) ، (نشب) .
٤ تاج العروس (١٠/٥٦) ، (ثرو) .
٥ تاج العروس (١٠/٢٧١) ، (غنى) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦١) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٢) .

ونظراً لوجود أناس كانوا يتلاعبون في نوعية الذهب والفضة ، بغش المعدنين ومزج معادن خسيسة فيها،فقد ظهر أناس تخصصوا بفحص الذهب والفضة وبتعيين درجتها من حيث الجودة والنقاوة ، وبتعيين سعر السبائك وما يباع منها وفقاً لذلك ، ثم تخصص هؤلاء بدراسة النقود ، وتعيين درجة نقاوتها وتثبيت وزنها ، وذلك لوجود الغش فيها بالنسبة لمدلك العهد . فإذا اشتروا نقداً أو باعوه ، أو صرفوه بنقد آخر ، فحصوه فحصاً دقيقاً وتأكدوا منه قبل الشراء أو التصريف لكي لا يكون مغشوشاً . فصار هؤلاء ، هم صيارفة النقود ، وخبراء السكة في ذلك العهد . وقد كان الصيارفة يجلسون أمام باب (الهيكل) في القدس ، يبيعون ويشترون ويصرفون النقود . وقد أشير اليهم في (الأناجيل) ، ووبخهم (المسيح) وقلب موائد صيرفتهم[1]. وكانوا يصرفون الدنانير بالدراهم والدراهم بنقود النحاس، والعملات الأجنبية بالعملة الرومانية الدارجة في فلسطين ، تماماً كما يفعل صيارفة هذا اليوم في بلاد الشرق الأدنى .

ويظهر من الأناجيل ، ان أولئك الصيارفة ، كانوا يجلسون عند موائدهم التي يصرفون عليها النقود . أما كبارهم ، أي الأغنياء منهم من أصحاب المال ، فقد كانوا يتعاملون بالقروض ، يقرضون المال للمحتاج اليه في مقابل دفع فوائد عنها هي الربا ، وفي تشغيل أموالهم في مشاريع تعود عليهم بالأرباح[2] .

وقد تاجر أهل الجاهلية في (الصرف) ، وهو بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، أو أحدهما بالآخر . وقد أقر الرسول الصرف ، اذا كان يداً بيد ، أي متقابضين في المجلس ، ونهى اذا كان نَساءً[3] . والصيرفي ، والصيرف ، والصراف : صراف الدراهم ونقادها من المصارفة وهو من التصرف على ما يذكره علماء اللغة[4] . وقد جاءت لفظة (الصرف) والصيرفة في رأيي من (الصرف) أي الفضة ، فالصرف الفضة في لغة العرب الجنوبيين . و (الصريف)[5] الفضة

---

١ انجيل متى ، الاصحاح ٢١ ، الآية ١٢ .

٢ Hastings, p. 630.

٣ ارشاد الساري (٤/١٣) .

٤ تاج العروس (٦/١٦٤) ، (صرف) .

٥ كأمير .

أيضاً في لغة القرآن الكريم ، كما يذكر ذلك علماء اللغة . قال الشاعر :

بني غدانة حقاً لستم ذهباً ولا صريفاً ولكن أنتم خزف[1]

وذلك انهم كانوا يتعاملون بالفضة في الغالب ، لكثرتها بالنسبة الى الذهب ، حتى غلب اسمها على هذا التعامل . فقيل : الصرف والصيرفة والصراف ، وهو الذي يتعامل بالصرف . فصارت كلمة (الصرف) التي تعني الفضة مرادفة لنقود ، كما صارت لفظة (الفلوس) التي هي جمع (فلس) أصغر عملة من العمل وهي من النحاس ، مرادفة للنقود . وفي العبرانية شبه لذلك . فالنقود ، أي العملة (Money) هي (Keseph) في العبرانية ،و (Keseph) الفضة ،وقد استعملها العبرانيون في معنى العملة ، لأنهم كانوا يتعاملون بها في حياتهم اليومية ، فكانت مشترياتهم وأجورهم ومعاملاتهم بالفضة وبالعملة المعمولة منها ، حتى صارت في معنى النقود[2].

ومن تعامل الصيارفة ، شراء الدنانير بالدراهم والدراهم بالدنانير ، بأن يساوم رجل رجلاً على بيع مائة دينار بدراهم ، فيتراوض الطرفان على ذلك ويتساوما حتى يتفقا على عدد ما يدفع من الدراهم[3] ، وذلك لاختلاف نوع الدراهم ، وأوزانها وجودة فضتها . ويكون العكس ، بأن يبيع شخص دراهم في مقابل دنانير . وقد يتبايعون على بيع الذهب بالذهب ، مضروباً كان أو غير مضروب، أو بيع الذهب بالذهب ، مضروباً كان أو غير مضروب ، أو بيع الفضة بالفضة. وكانوا يتلاعبون في تصريف النقود ويتحكمون في أسعار صرفها ، لاحتكارهم الصرافة في الأسواق ، ويربحون خاصة من فروق تصريف العملة الأجنبية بالعملة الرائجة في السوق .

وقد عرف الصراف بالحيلة والخداع والغش في الصرف ، ولهذا السبب لعنوا في الأناجيل ، وقلب (المسيح) موائد صيرفتهم . و (الصيرفي) المحتال المتصرف في الأمور والمجرب لها كالصيرف . قال سويد بن أبي كاهل اليشكري :

ولسانا صيرفياً صارماً كحسام السيف ما مس قطع[4]

---

١ تاج العروس (٦/١٦٣) ، (صرف) ، وورد : « بني غدانة ما ان انتم ذهبا » .
٢ Hastings, p. 627.
٣ ارشاد الساري (٤/٧٩) .
٤ تاج العروس (٦/١٦٤) ، (صرف) .

ولا زال الناس يومنا هذا يطلقون لفظة (صراف) على المحتال الذكي الذي يعرف كيف يتعامل مع الناس .

ومن مصطلحات الصيارفة المذكورة في كتب اللغة (الشوقل) يقال : شوقل الدينار إذا عايره وصححه ووزنه ، واستعملوا الشاقل أيضاً في المعايير . ويظهر من مراجعة كتب اللغة ، أن علماء اللغة لم يكونوا على علم واضح بأصل لفظة (شقل) ، فاكتفوا بقولهم شقل الدينار وزنه [1] . وترد هذه اللفظة في الإرمية كذلك ، بمعنى الوزن ، أي وزن الدنانير والدراهم [2] ، وترد بهذا المعنى أيضاً في العبرانية . وقد أخذ هذا الوزن من الأوزان البابلية ، وقد كانت الأوزان البابلية أساساً لجميع الأوزان التي استعملت في الشرق الأدنى ، بل وفي أوروبة أيضاً . و (الشقل) (Shekel) هو جزء من ستين جزءاً من (المن) (Manu) [3] . فمن هذا الوزن ورد اصطلاح (شقل) و (شوقل) بمعنى وزن العملة بالميزان في لغات أهل الشرق الأدنى،لأنهم كانوا يصححون العملة ويعايرونها بوزنها بالميزان، لتظهر صحة وزنها ، فيتبين به الزائف منها من الصحيح .

وقد برع قوم من (الصيارفة) بتنقاد الدراهم ، أي بتمييز الدراهم واخراج الزائف منها . وقد برع في ذلك نفر من أهل مكة ، لأنهم تجار يتعاملون في الأسواق ويتعاطون الربا والصيرفة وتبديل العملة .

وكان اليهود من الصيارفة ، يتعاطون بيع الذهب والفضة وتبديل النقود والربا . وكان الأعراب يحفظون عندهم ودائعهم ، ذهباً وفضة ونقوداً . ذكر أن رجلاً من قريش استودع (عبدالله بن سلام) ألفاً ومائتي أوقية ذهباً [4] . وذكر علماء التفسير ، أن من اليهود من كان يأكل الأمانات ويجحدها فلا يؤديها الى أصحابها، إلا بالتهديد والقوة،وقد استحل أكل أموال العرب ، ذلك أنهم قالوا : لا حرج علينا فيما أصبنا من أموال العرب ولا إثم ،لأنهم على غير الحق وأنهم مشركون [5].

---

١ التاج (٣٩٢/٧) ، (شقل) .

٢ غرائب اللغة (١٩١) .

٣ Hastings, p. 627.

٤ تفسير النيسابوري (٢٢٥/٣) ، (حاشية على تفسير الطبري) .

٥ تفسير الطبري (٢٢٦/٣ وما بعدها) .

وكان الصيارفة يعتبرون النقود الطيبة اللينة نقوداً صحيحة ، والنقود الصلبة نقوداً زائفة ، فالدرهم القسي ، هو درهم زائف . لذلك كانوا إذا قالوا (درهم قسي) ، عنوا بقولهم درهم زائف مغشوش ، فضّته صلبة رديئة ليست بلينة . وفي الحديث : كانت زيوفاً وقسياناً [١] . قال مزرد :

وما زوّدوني غير سحق عمامة وخمسميء منها قسيّ وزائف[٢]

رأس المال :

ورأس المال أصله يقال أقرضني عشرة برؤوسها ، أي قرضاً لا ربح فيه إلا رأس المال [٣] . وقد أشير اليه في القرآن الكريم في تحريم الربا . « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون »[٤] . فأوجب الاسلام على المرابين الذين دخلوا فيه التوبة من الربا وأن يأخذوا رؤوس أموالهم التي أعطوها من غير زيادة عليها ، مهما كان قدرها ، فهذه الزيادة هي الربا [٥] .

وما يضعه التاجر من مال ليتاجر به ، هو رأس ماله الذي يتاجر به . وما يتجمع من مال يقدمه المساهمون في تكوين شركة ، هو رأس مال الشركة ، الذي تشتغل به ليأتي عليها بأرباح توزع على المساهمين ، حسب نسب حصصهم في رأس المال ، وما يقدم من مال قراضاً ، فهو رأس مال ، وكل مال يتخذ أساساً لعمل هو رأس مال ذلك العمل .

استثمار الأموال :

وقد أبدع أصحاب الأموال بمكة وأجادوا في تشغيل رؤوس أموالهم وفي استثمارها ،

---

١ الروض (١/٩٥) ، تاج العروس (١٠/٢٩٣) ، (قسا) .
٢ تاج العروس (١٠/٢٩٣) ، (قسا) .
٣ تاج العروس (٤/١٥٧) ، (رأس) .
٤ البقرة ، الرقم ٢ ، الآية ٢٧٩ .
٥ تفسير الطبري (٣/٧١) ، روح المعاني (٣/٤٦) .

فزادت ونمت . شغلوها في التجارة ، وشغلوها في أعمال نستطيع أن نسميها أعمالاً مصرفية بلغة هذا اليوم ، مثل اعطائها للمحتاج اليها بفائض هو (الربا) ، أو (مضاربة) ، أو مسالفة ، وشغلوها باستثمارها بمشاريع زراعية وصناعية وما شابه ذلك ، مشاركة أو على ربح ثابت معين ، أو مساهمة في الأرباح دون الخسائر . وكان بعض منهم ، قد ساهم في أعمال عديدة ، واستثمر أمواله بها ، فإذا خسر في عمل ، عوض عن خسارته تلك بربح يأتيه من عمل آخر .

ولم يكتف تاجر مكة بالاتجار على حسابه ، بل ساهم مع غيره من أهل مكة في تكوين رؤوس أموال القوافل ، بحيث صارت القوافل تجارة شركاء ، أو شركة عامة يساهم فيها من يشاء من أصحاب المال . وساهم تاجرهم أيضاً بتوزيع أمواله على التجار الآخرين ، ليشاركهم بذلك في أرباحهم ، فكان (أبو سفيان) يتاجر بتجارته وعلى حسابه ، يذهب بنفسه على رأس قافلته الى العراق للاتجار بالحيرة ، وكان من المساهمين في قوافل قريش كذلك ، كما كان يقدم ماله للتجار ، للاتجار به مع أموالهم ، فيشاركهم بذلك في أرباحهم ، ويأخذ منهم ما يقع له من نصيب في الأرباح . وكان (العبّاس) قد وزع مالاً من ماله على التجار لاستثماره ، وكان للحجاج بن علاط السُلمي مال متفرق في تجار أهل مكة [1] .

وكانوا يتعاملون مع غير تجار قريش كذلك ، يقرضونهم المال ويستقرضون الأموال منهم ، ويتاجرون على الأرباح والخسائر ، ونجد في الأخبار أسماء رجال من الطائف أو من الحيرة أو من أهل اليمن ، كانت لهم شراكة مع تجار من تجار مكة ، خلطوا أموالهم مع أموال أولئك الغرباء عنهم . فهم (خلطاء) ، أي شركاء . و (الخليط) الشريك[2] . فأهل مكة خلطاء فيما بينهم ، وخلطاء مع غيرهم أيضاً . يتاجرون بأموالهم ويتاجرون بأموال غيرهم كذلك . « وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء »[3] .

الربا :

وفي جملة وسائل استثمار المال : الربا ، وقد كان شائعاً بين أهل الجاهلية ،

---

١ الطبري (٣/١٧) .
٢ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) .
٣ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١ وما بعدها) ، البلدان (٤٧٢) .

كما كان شائعاً معروفاً بين غير العرب . وقد عرفه العلماء بأنه : « الزيادة على رأس المال »[1] « وهو في الشرع الزيادة على أصل المال من غير عقد تبايع »[2] والإرباء الزيادة على الشيء ، والزيادة هي الربا[3] . وكل قرض جرّ منفعة ، فهو ربا[4] ، ويقال له : (اللياط) ، وهو الربا الذي كانوا يربونه في الجاهلية الى أن يأخذوا رؤوس أموالهم ويدعوا الفضل عليها[5] .

وقد كان أهل الجاهلية يزيدون على الدين شيئاً ويؤخرونه . كأن يحل دينك على رجل فتزيده في الأجل ويزيدك في الدين . وقد نُهي عنه في الاسلام[6] . وهو في الواقع ربا ، لأنه استغلال ووجود منفعة بغير جهد . ويقال لذلك : المعاومة .

وقد اشتط أهل المال في الاستفادة من المقترضين ، فتقاضوا منهم الربا الفاحش ، وألحفوا في زيادته ، وتشددوا في المطالبة برأس المال ورباه ، ولم يمهلوا معسراً ، ولم يتساهلوا في الأداء الى وقت الميسرة ، إلا إذا زادوا في الربا ، وأخذوا ربا المال وربا الربا . وكان اليهود من أشهر المرابين في الحجاز ، كما اشتهرت بذلك مكة والطائف ونجران ، ومواضع المال الأخرى من جزيرة العرب . وكان من عادة هؤلاء أنهم كانوا يحتسبون الربا الذي يستحق في آخر السنة ولا يدفع للمرابي جزءاً من رأس المال ، أي من المبلغ المقترض ، فيؤدي الربا للسنة التالية على أساس المبلغ المقترض مع رباه ، وإذا أجل دفع ربا هذا المبلغ الجديد المكون من المبلغ الأصل ورباه ، أضيف عليه فصار المبلغ المقترض ورباه ثم ربا المبلغين جزءاً من القرض ، ويطلب من المدين دفع الربا على هذا الأساس .

والربا هو (نشك) (نشق) (Neshec) في العبرانية . وتعني اللفظة الزيادة التي تؤخذ عن كل دين يعطى لمدين ، سواء كان ذلك الدين نقوداً أو عيناً ، بضاعة أو ملكاً ، أو أي شيء آخر يستدان من مدين في مقابل زيادة تؤدى عليه عند

---

١ المفردات (ص ١٨٥) .
٢ اللسان (١٤/٣٠٥) .
٣ تفسير الطبري (٣/٦٧) .
٤ اللسان (٩/١٥٩) ، (سلف) .
٥ اللسان (٧/٣٩٦ وما بعدها) ، (لوط ، ليط) ، الروض الانف (١/٦٢) .
٦ تاج العروس (٨/٤١٢) ، (عام) .

استحقاق الأجل المعين . وقد أشير اليه في التوراة [١] . وعرفت الزيادة التي تؤخذ على المبلغ بـ (تربيث) أيضاً ، أي ربا . غير أن ربا (النشق) ، استعمل في ربا المال ، أي الربا المأخوذ عن النقد من دنانير ودراهم ، فهو في مقابل (ربا النسيئة) في الإسلام . وأما (التربيث) ، فهو الربا المأخوذ عن الطعام مثل الحنطة والشعير والتمر وما شابه ذلك من طعام . وهو ما يقال له (ربا الفضل) في الاسلام . وقد تطلق لفظة (نشق) على الربوين : ربا الدنانير والدراهم ، وربا الفضل . وقد حرمت التوراة على اليهود تعاطي الربا فيما بينهم ، وأحلته بالنسبة للغرباء . فجوزت لليهودي أخذه ممن لم يكن على دينهم . ولكنهم لم يتقيدوا بما جاء في التوراة من تحريم الربا عليهم ، فتعاطوه فيما بينهم ، لا سيما بعد عودتهم من السبي ، وصار الربا من أهم المنافع بالنسبة لأرباب المال عندهم [٢] .

وقد كان الرومان واليونان قد كوّنوا (بنوكاً) أي مصارف تعاملت بالمال ، وتعاطت قرضه مقابل ربح هو رباه . وقد حدد بنسبة واحد في الشهر ، و (١٢) في السنة ، وذلك في مقابل الاعتماد (Creditum) . وقد تعاطت المعابد أعمال الربا كذلك ، ومن هذه معابد (بابل) [٣] .

وأصل (الربا) هو وجود حاجة لدى انسان الى مال ، ووجود أناس ذوي مال يريدون استغلال أموالهم وتكثيرها ، فيقرضونها الى المحتاج اليها مقابل زيادة يتفق عليها تدفع عن المال المقترض للأجل المتفق عليه . ويستغل المرابي في الغالب حاجة الشخص الذي يريد المال ، فيشتط عليه ويتعسف في شروطه ، ويضطر المدين الى قبول ما تملى عليه من شروط لحاجته الى المال ، وعلى دفع الربح العالي الذي فرضه المرابي عليه . ومن الربا انهم « كانوا يبيعون البيع الى أجل ، فإذا حل الأجل زادوا في الثمن على أن يؤخروا » [٤] .

---

١ الخروج ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الآية ٢٥ ، اللاويون ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ٣٦ .

٢ W. Smith, A Dictionary of the Bible Vol., III, p. 1606, Beetons, Illustrated Dictionary of Religion, Philosophy, Politics, and Law, p. 523, John, Babylonian and Assyrian Laws, Contracts, and Letters, 211, Hastings, A Dictionary of christ and the Gospels, I, 837, The Bible Dictionary, Vol., II, p.540.

٣ Hastings, A Dictionary of Christ and the Gospels, I, p. 837.

٤ تفسير القرطبي (٤/٢٠٢) .

ويدخل في الربا الربا في الطعام ، وقد كان شائعاً بين أهل العمود والبوادي بصورة خاصة ، إذ ليس عندهم دراهم ولا دنانير ، فكانوا يأخذون الصاع الواحد مقابل صاع وزيادة ، والزيادة رباه ، حتى يكون قفزاناً كثيرة . فاستغل المرابون أهل الحاجة وضايقوهم بالطلب . ورد ان أحدهم في الجاهلية يبيع الرجل البيع الى أجل مسمى ، فإذا حل الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخر عنه . فهو ربا مثل الربا في النقد[1] . كما فعلوا ذلك في الدنانير والدراهم ، فكان أحدهم يبيع الدينار بدينارين ، والدرهم بدرهمين ، وفي الذهب والفضة ، فكانوا يعطون مثقالاً مقابل مثقالين أو أكثر أو أقل من المثقالين ، فالزيادة هي الربا . ومعنى هذا ان الربا كان يعادل المبلغ المقترض،فالدرهم بدرهمين والدينار بدينارين ، وهو ربا فاحش ، استغل فيه المرابي حاجة المدين الى المال ، ولهذا نهي عنه في الاسلام بتحريم كل أنواع الربا في القرآن وفي الحديث حيث ورد : « لا تبيعوا الدينار بالدينارين ولا الدرهم بالدرهمين »[2] ، و « الدينار بالدينار لا فضل بينهما، والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما »[3] .

أما رباهم بالذهب والفضة ، فكانوا يأخذونه وزناً فإذا أعادوه زادوا عليه وزن الربا ، المتفق عليه ، ولهذا ورد في الحديث : « لا تبيعوا الذهب بالذهب، إلا مثلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا منها غائباً بناجز »[4] . فمنع الرسول الزيادة ، وجعل الربا قرضاً ، يعاد الى صاحبه وزناً بوزن ، أي متساويين في الوزن . كما منع الزيادة في البيع ، فجعل الزيادة على ثمن البيع ، الذي يدفع بأجل ربا ، لأنه زيادة على المبلغ ، واستغلال لحاجة المشتري ، وهو بيع غرر .

وورد في الحديث أنهم كانوا يشترون الصاع بالصاعين أو أكثر ، كأن يعرض أحدهم سلعة ، فيبيعها بسلعة مثلها ، ولكن بضعف وزنها أو أكثر ، فقد اشترى غلام لمعمر بن عبدالله صاعاً وزيادة من شعير بصاع من قمح ، فلما عاد بما اشتراه أمره سيده برده ، لأنه سمع أن الرسول قال : الطعام بالطعام مثلاً بمثل . وورد أن بعضاً من الصحابة كانوا يشترون صاعاً من التمر الجيد بصاعين من الجمع ،

---

١ أعلام الموقعين (١٣٨/٢ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٦٧/٣) .
٢ البخاري (٤٢/٥) ، (كتاب البيوع ، باب الربا) .
٣ البخاري (٤٥/٥) ، (كتاب البيوع ، باب الربا) .
٤ البخاري (٤٢/٥) ، (كتاب البيوع ، باب الربا) .

أي من تمر مختلط من أنواع متفرقة وليس مرغوباً فيه ، وما يخلط إلا لرداءه . فلما سمع بذلك الرسول ، قال لا تفعلوا ولكن مثلاً بمثل ، أو بيعوا هذا واشتروا بثمنه من هذا وكذا الميزان[1] .

وسبب هذا التوسع في هذا النوع من الربا ، ان العرب ، كانوا أهل تجارة وأهل زراعة ورعي ، ولم تكن العملة من دنانير ودراهم ، منتشرة بين المزارعين وأهل البوادي ، فكانت المقايضة تقوم عندهم مقام العملة . فمن احتاج الى طعام، أخذ من بائعه أو مالكه أو مكتنزه كيلاً بكيل مثله ، لأجل معلوم على أن يعطيه زيادة عليه ، يتفق على مقدارها . فيأخذ قفيص تمر بقفيص ونصف أو قفيصين، أو أكثر من ذلك ، على نحو ما اتفق عليه ، يؤديه له من جنس التمر المسلف ومن جودته ، فإذا حل الأجل ، ورأى المستحق أن يؤخر دينه ، على أن يزيد في المال فعل ، وكلما أخره زاد في المال حتى يصير أضعافاً مضاعفة ، وذلك بسبب الحاجة والفقر . فهذا هو ربا مثل ربا الدنانير والدراهم ، نشأ من الحاجة والظروف التي كان عليها أهل الجاهلية في ذلك العهد . ونجد هذا النوع من الربا عند غير العرب من الشعوب أيضاً ، وهو ربا الفقراء والمحتاجين في الغالب ، أما ربا الدراهم والدنانير ، فكان ربا التجار ، ومن كان يريد تنمية ثروته وزيادة تجارته ، فكان يقترض بالربا لهذه الغاية .

والربا المذكور ، هو الأصل ، وأما ربا الدراهم والدنانير أي ربا العملة ، فمتأخر بالنسبة اليه ؛ لأن الانسان مارس التجارة قبل ان تكون لديه دراهم ودنانير، كانت تجارته مبادلة سلع بسلع ، وذلك قبل ضرب العملة . فكان الربا ربا سلع ومواد عينية . يقدم المرابي طعاماً الى تاجر آخر أو الى محتاج ، الى أجل معين، على أن يزيده في الكمية عند حلول أجل الربا ، وفقاً لما اتفق عليه ، فإن أخره زاد في المال ، وكلما أخره زاد في المال ، حتى يتضاعف أضعافاً مضاعفة ، فهذا أصل الربا الأول ، فلما أوجد الانسان العملة وتعامل بها ، وأقبل عليها ، ظهرت تجارة جديدة ، أساسها التعامل بالعملة ، وظهر بذلك ربا العملة، الذي غلب على الربا الأول ، حتى صار وكأنه هو الربا وحده ولا ربا سواه .

ووجهة نظر المرابين الى الربا ، أنه نوع من أنواع البيوع ، وأن الربا مثل

---

[1] البخاري (٥/٤٧) . (كتاب البيوع ، باب بيع الطعام مثلا بمثل) .

البيع . ففيه إيجاب وقبول . ولما نزل الأمر بتحريمه عجب المرابون من التحريم ، عجبوا كيف حرم البيع وأحل الربا ، مع ان الاثنين في نظرهم واحـد . وذلك كما يظهر من الآية : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا »[1] . فنظموا البيع والربا في سلك واحد ، لافضائهما الى الربح ، فاستحلوه استحلاله . وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو اشترى الرجل ما لا يساوي إلا درهماً بدرهمين جاز ، فكيف إذا باع درهماً بدرهمين[2] . فكان التاجر والمرابي عندهم سواء بسواء ، فكلاهما يعامل المشتري أو المدين معاملة كسب ونهب ، والحصول منهما على أكثر ما يمكن الحصول عليه من ربح ومكسب . والإثراء بأية طريقة كانت . ولهـذا عجبوا من تحريم الاسلام للربا ، وهو كسب يأتي عـن ايجاب وقبول ، ومن تحليله للبيع ، وهو كسب أيضاً ، مبني على إيجاب وقبول .

وقد اشتهر اليهود بمعاطاة (الربا) ، وقد أشير الى ذلك في القرآن الكريم[3] . كما عرف به أهل مكة والطائف ونجران وسائر من كان لديه فضل من المال وأراد استغلاله . وذلك للظروف الاقتصادية التي كانت سائدة في ذلك العهد . من عدم وجود صناعة يشغل أصحاب المال بها أموالهم ، فيكثرونها باستغلالها بإنشاء صناعات أو توسيع حرف،ومن عدم وجود مياه غزيرة وأرضين خصبة تسقي سيحاً بصورة دائمة ، حتى يشغل صاحب المال ماله في استغلال الأرض ، ولهذا عمد أصحاب المال الى تكثير أموالهم بطريق إقراضه والاستفادة من رباه .

وكان ربا الجاهلية ان الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال الى أجل ، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له الذي عليه المال : أخر عني دينك وأزيدك على مالك فيفعلان ذلك . فذلك هو الربا أضعافـاً مضاعفة . وروي عن (عطاء) انه قال : « كانت ثقيف تداين في بني المغيرة في الجاهلية فإذا حل الأجل قالوا : نزيدكم وتؤخرون » ، فكان يكون أضعافـاً مضاعفة[4] . وروي

---

١ البقرة ، الآية ٢٧٥ .
٢ ارشاد الساري (٤/٢٦ وما بعدها) .
٣ سورة النساء ، الرقم ٤ ، الآية ١٦١ ، تفسير الطبري (٦/١٧ وما بعدها) ، روح المعاني (٦/١٣) .
٤ تفسير الطبرى (٤/٥٩) ، تفسير الالوسي (٤/٤٩) .

أيضاً « ان الذين كانوا يأكلون الربا من أهل الجاهلية، كان اذا حل مال أحدهم على غريمه يقول الغريم لغريم الحق : « زدني في الأجل وأزيدك في مالك »[1] . وذكر « ان ربا أهل الجاهلية : يبيع الرجل البيع الى أجل مسمى ، فإذا حل الأجل ، ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخر عنه »[2] . وذكر أيضاً انهم « كانوا في الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين . فيقول لك كذا وكذا ، وتؤخر عني ، فيؤخر عنه »[3] . أو أن يقول أحدهم لمدينه اذا حل الدين : إما أن تقضي وإما أن تربي »[4] . وذكر ان « الربا الذي كانت العرب تعرفه وتفعله انما كان قرض الدراهم والدنانير الى أجل بزيادة على مقدار ما استقرضه على ما يتراضون به » . و « ان ربا الجاهلية انما كان قرضاً مؤجلاً بزيادة مشروطة، فكانت الزيادة بدلاً من الأجل »[5] .

وروي عن (ابن زيد) أنه كان يقول : إنما كان الربا في الجاهلية وفي التضعيف وفي السن . يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل ، فيقول له : تقضيني أو تزيدني ، فإن كان عنده شيء يقضيه قضى وإلا حوله الى السن التي فوق ذلك . إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية ، ثم حقة ، ثم جذعة ثم رباعياً ثم هكذا الى فوق . وفي العين يأتيه فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل ، فإن لم يكن عنده أضعفه أيضاً ، فتكون مائة فيجعلها الى قابل مائتين ، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمائة يضعفها له كل سنة أو يقضيه . فهذا قوله : « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة »[6] .

ومن أغراض الربا وأسبابه الحاجة . الحاجة الى المال لسدّ دين أو عجز وللتغلب على فاقة أو ما شاكل ذلك من ضرورات ، فيضطر المحتاج الى اللجوء الى المرابي ليستدين منه في مقابل زيادة يؤديها اليه عند حلول الأجل . وقد يأخذ المدين المال ليشتغل به فيربح منه ، فيؤدي المال ورباه ، ويستفيد من الربح الذي حصل عليه

---

١ تفسير الطبري (٣/٦٩) .
٢ تفسير الطبري ٣/٦٧ .
٣ تفسير الطبري ٣/٦٧ .
٤ عمدة القارىء (١١/٢٠٢) .
٥ أحكام القرآن ، للجصاص (١/٤٦٥ وما بعدها) .
٦ تفسير الطبري (٤/٥٩) .

من تشغيله لذلك المال في تجارة أو في أعمال انتاجية أخرى . ورد عن (ابراهيم النخعي) أنه قـال : « كان هذا في الجاهلية ، يعطي أحدهم ذا القرابة المال يكثر به ماله »[1] . وورد أنهم كانوا يعطون الرجل المال ليكثر به ماله ، وذلك عن طريق تشغيله لذلك المال[2] .

وقد قسّم العلماء الربا الى نوعين : ربا النسيئـة وربا الفضل . أما الأول ، فهو الذي كان يتعارفونه في الجاهلية . كانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كـل شهر قدراً معيناً ، ثم اذا حل الدين طالب الدائن المدين برأس المال ، فإن تعذر عليه الأداء زادوا في الحق والأجل[3] . « وفي الحديث : انما الربا في النسيئة هي البيـع الى أجـل معلوم ، يريد أن بيع الربويّات بالتأخير من غير تقابض هو الربا ، وإن كان بغير زيادة . وكان (ابن عبـاس) « يرى بيع الربويات متفاضلة مع التقابض جائزاً ، وان الربا مخصوص بالنسيئـة »[4] . وقد ورد في الحديث : « انما الربا في النسيئة وما كان يداً بيد فلا بأس »[5] .

وكان بيع النسيئة بيعاً معروفاً ، ولما قدم الرسول المدينة ، كانوا يتبايعون بهذا البيع . فقال : « ما كان يداً بيد فلا بأس به وما كان نسيئة ، فهو ربا »[6] . والنسيئة ، التأخير الى أجل ، هو الموسم ، أو أي أجل يتفق عليه .

وقسّم بعض الفقهاء الربا الى ثلاثـة أنواع : ربا الفضل ، وهو البيع مع زيادة أحد العوضين على الآخر ، وربا اليد ، وهـو البيع مع تأخير قبضهما أو قبض أحدهما ، وربا النساء ، وهو البيـع لأجل . وكل منها في الاسلام حرام[7].

وعرفوا ربا الفضل ، بأنه الربا الذي يباع فيه الشيء بضعفه ، مثل أن يباع من الحنطة بمنوين مثلاً[8] ، وأن يباع الدرهم بدرهمين . وقد خصص العلماء ربا

---

١ تفسير الطبري (١/٣٠ وما بعدها) .
٢ تفسير الطبري (٢١/٣٠) .
٣ تفسير الطبري (٣/٦٧) .
٤ اللسان (١/١٦٧) ، تاج العروس (١/٤٥٧) ، (طبعة الكويت) .
٥ مسند الامام أبي حنيفة (ص ١٥٨) ، عقود الجواهر (٢/٣٠) .
٦ البخاري (٥/٤٥) ، (كتاب البيوع ، باب النهي عن بيع الورق بالذهب دينا) .
٧ ارشاد الساري (٤/٢٦ وما بعدها) .
٨ تفسير النيسابوري (٣/٧٩) ، « حاشية على تفسير الطبري » ، تفسير القرطبي (٣/٣٤٨) .

الفضل في ستة أعيان ، وهي : الذهب ، والفضة ، والبرّ ، والشعير ، والتمر ، والملح ، فاتفق النـــاس على تحريم التفاضل فيها مع اتحاد الجنس ، وتنازعوا فيما عداها [1] وقد منع هذا الربا في الاسلام . فإذا باع رجل رجلاً دينـــاراً بدينارين الى أجل ، أو درهماً بدرهمين ، أو كيلة حنطة بكيلتين أو أكثر كما كان يفعل أهل الجاهلية ، فالزيادة هي ربا ، ولذلك نهي عنه في الإسلام[2] .

ولما نزل الأمر بتحريم الربا،وذلك في آخر ما نزل من الوحي،وقبل وفاة الرسول بتسع ليال على بعض الروايات[3] . صعب ذلك على الأغنياء الذين كانـوا يعيشون على الربا ويقولون إنما البيع مثل الربا [4] . وذكر علماء التفسير أن الآية : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين »[5] ، إنما نزلت « في العباس بن عبد المطلب ورجل من بني المغيرة كانوا شريكين في الجاهلية ، سلفا في الربا الى أنـــاس من ثقيف من بني عمرو . وهم بنو عمرو بن عمير . فجاء الإسلام ، ولهما أموال عظيمة في الربا ، فأنزل الله ذروا ما بقي من فضل كان في الجاهلية من الربا »[6] . وذكر أيضاً « أن نبي الله ، صلى الله عليه وسلم، قال في خطبته يوم الفتح : ألا إن ربا الجاهلية موضوع كله . وأول ربا ابتدىء به ربا العباس بن عبد المطلب »[7] .

ولما جاء وفد (ثقيف) الى المدينة ، لمفاوضة الرسول في أمـــر دخولهم في

---

١ اعلام الموقعين (٢/١٣٦ وما بعدها) .

٢ مسند الامام أبي حنيفة (ص ١٥٩) ، صحيح مسلم (٥/٤٢) ، « باب الربا » ، « لا تبيعوا الذهب بالذهب ، ولا الورق بالورق الا وزنا بوزن مثلا بمثل سواء بسواء » ، صحيح مسلم (٥/٤٢ وما بعدها) .

٣ تفسير الطبرى (٣/٧٦) ، « وعن ابن عباس . قال : آخر ما أنزل على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، آية الربا » ، « وعن ابن عباس قال : آخر آية نزلت على النبي، صلى الله عليه وسلم ، واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله » ، تفسير الطبري (٣/٧٥) .

٤ البقرة ، الآية ٢٨٢ ، تفسير الطبري (٣/٦٨) ، « وقد قيل ان هذه الايات في أحكام الربا هن اخر آيات نزلت من القرآن » ، « ان عمر بن الخطاب قال : كان اخر ما انزل من القرآن آية الربا . وأن نبي الله ، صلى الله عليه وسلم ، قبض قبل أن يفسرها »، تفسير الطبري (٣/٧٥ وما بعدها) .

٥ البقرة ، الآية ٢٨٢ .

٦ تفسير الطبري (٣/٧١) .

٧ تفسير الطبري (٣/٧٢) ، تفسير ابن كثير (١/٣٣٠) .

الاسلام ، قال (عبد ياليل) وهو لسانهم الناطق باسمهم : « أرأيت الزنا ! فإنا قوم عُزّاب لا بد لنا منه ، ولا يصبر أحدنا على العُزبة ٤ قال : هو مما حرم الله ؛ قال : أرأيت الربا ! قال : الربا حرام ! قال : فإن أموالنا كلها ربا ! قال : لكم رؤوس أموالكم . قال : أفرأيت الخمر ! فإنها عصيرُ أعنابنا ولا بد لنا منها ! قال : فإن الله حرمها ! »[1] .

وكانت ثقيف قد صالحت النبي « على ان ما لهم من ربا على الناس وما كان للناس عليهم من ربا ، فهو موضوع . فلما كان الفتح استعمل عتّاب بن أسيد على مكة . وكانت بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من بني المغيرة . وكانت بنو المغيرة يربون لهم في الجاهلية . فجاء الاسلام ولهم عليهم مال كثير. فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم ، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الاسلام ، ورفعوا ذلك الى عتّاب بن أسيد . فكتب عتاب الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فنزلت : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ... الى ... ولا تظلمون . فكتب بها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى عتّاب . وقال : إن رضوا وإلا فآذنهم بحرب »[2] . وذكر ان (بني عمرو بن عوف) ، الذين كانوا يأخذون الربا من (بني المغيرة) ، هم : (مسعود وعبد ياليل وحبيب وربيعة بنو عمرو بن عمير. وهم من كبار الملاكين والأثرياء في ثقيف[3] .

وأسقط النبي عن أهل نجران كل ربا كان عليهم في الجاهلية ، إلا رؤوس أموالهم فإنهم يردّونها وأسقط عنهم كل دم كانوا يُطلبون به[4] .

وقد كان إرغام ثقيف وغيرهم من الذين كانوا يتاجرون بالربا على ترك الربا، والاكتفاء بأخذ رؤوس أموالهم إن كان لهم ربا في الجاهلية ، خسارة كبيرة لهم، أرغموا عليها إرغاماً ، لتحريم القرآن له . واحلال (القرضة الحسنة) محله ، والقرض الحسن ، هو اقراض المال للمحتاج اليه من غير اشتراط زيادة عليه حين إعادته ، أي من غير ربا لذلك المال .

---

١ الطبري (٣/٤٩٢) .
٢ تفسير الطبري (٣/٧١) ، البلدان (٦/١٠ وما بعدها) .
٣ تفسير الطبري (٣/٧١) .
٤ اللسان (١٤/٣٠٥) .

واضطر من كان له فضل ربا من ربا الجاهلية وهو في الإسلام على تركه والتنازل عنه . وعلى أخذ خالص ماله فقط الذي أقرضه للمدين من غير أي ربح. وفرض الاسلام على هؤلاء الدائنين أيضاً وجوب التساهل مع المدينين وتأجيل الدفع إن كان المدين في عسر وضيق حال حتى يتحسن حاله فيتمكن من الدفع[١] .

وقد ذكر الفقهاء أن الربا ربوان : فالحرام كل قرض يؤخذ به أكثر منه أو تجر به منفعة فحرام ، والذي ليس بحرام أن يهبه الإنسان يستدعي به ما هو أكثر أو يهدي الهدية ليهدى له ما هو أكثر منها[٢] وقد دعا بعض العلماء الربا الأولى بـ (ربا البيع) . وقال عنه انه هو الربا المحرم[٣] .

وأول اشارة وردت في القرآن الكريم الى الربا ، هي الاشارة الواردة في سورة الروم : « وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون »[٤] . وسورة الروم من السور المكية ، أما المواضع الأخرى التي أشير فيها الى الربا ففي سوره البقرة[٥] وسورة آل عمران[٦] وسورة النساء[٧] ، وهي من السور المدنية . ويظهر من دراسة هذه المواضع ان حرمة الربا انما نزلت في المدينة ، أما في مكة ، فلم يكن قد حرم ، وانما حث الأغنياء على قرض المال للمحتاج اليه لوجه الله ، مساعدة له ، ويكون ثوابه عند الله .

وفي سورة (المزمل) ، وهي من السور المكية ، وتعد السورة الثالثة في ترتيب سور القرآن : « واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً »[٨] ، وفي سورة التغابن « ان تقرضوا الله قرضاً حسناً ، يضاعفه لكم ويغفر لكم »[٩].

---

١ تفسير الطبري (٣/٧٢ ، ٧٤ وما بعدها) .
٢ اللسان (١٤/٣٠٤) « صادر » ، تفسير الطبري (٢١/٣٠ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٤/٣٦) .
٣ تفسير ابن كثير (٣/٤٣٤) .
٤ سورة الروم ، الآية ٣٩ .
٥ البقرة ، الآية ٢٧٥ فما بعدها .
٦ آل عمران ، الآية ١٣٠ .
٧ النساء ، الآية ١٦١ .
٨ المزمل ، الرقم ٧٣ ، الآية ٢٠ .
٩ التغابن ، الرقم ٦٤ ، الآية ١٧ .

وهذه السورة هي من السور المكية كذلك . ولم يكن الربا قد حرّم في هذا العهد كما ذكرت . فيكون الاسلام قد وضع مبدأ القرضة الحسنة ، وهو القرض لله وفي سبيله ، بغير زيادة ، والتبرع في سبيل الله ، في موضع الربا في ذلك الوقت. فلما نزل الأمر بتحريمه ، جعلت القرضة الحسنة ، من أعمال البر والتقرب الى الله. وصار كل قرض يؤخذ عليه ربح ربا محرماً،يعاقب الله الإنسان يوم القيامة عليه . ولعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه [1] .

وقد ذكر علماء التفسير في تفسيرهم الآية : « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس ، فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله،فأولئك هم المضعفون » [2] . ان هذا كان في الجاهلية يعطي أحدهم ذا القرابة المال يكثر به ماله . أو ان الرجل يقول للرجل : لأموّلنك فيعطيه ، فهذا لا يربو عند الله لأنه يعطيه لغير الله ليثري ماله ، أو ان الرجل يلزق بالرجل ، فيخف له ويخدمه ويسافر معه ، فيجعل له ربح بعض ماله ليجزيه ، وانما أعطاه النّاس عونه ولم يرد وجه الله ، أو هو ما يعطى الناس بينهم بعضهم بعضاً ، يعطي الرجل الرجل العطية ليثيبه ، يريد أن يعطي أكثر منها [3] ه

ويذكر العلماء ان رسول الله لما ظهر على مكة وضع يومئذ الربا كله ، وحتّم على المرابين أخذ رؤوس أموالهم من غير زيادة عليها ، وذكر بعض العلماء ان التحريم نزل في ربا « بني عمرو بن عمير بن عوف من ثقيف وفي بني المغيرة من بني مخزوم » ، أو « في العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان ، وكانا قد أسلفا في التمر ، فلما حضر الجداد قال لهما صاحب التمر لا يبقى لي ما يكفي عيالي اذا أنتما أخذتما حظكما كله،فهل لكما ان تأخذا النصف واضعف لكما ففعلا، فلما حل الأجل طلبا الزيادة ، فبلغ ذلك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم،فنهاهما وأنزل الله تعالى هذه الآية فسمعا وأطاعا وأخذا رؤوس أموالهما » [4] . وقيل : « نزلت في العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا فجاء الاسلام ولهما أموال عظيمة في الربا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . فقال

---

١ البخاري (٥/٥٠) ، (كتاب البيوع ، باب لعن آكل الربا ومؤكله) .
٢ الروم ، الرقم ٣٠ ، الآية ٣٩ .
٣ تفسير الطبري (٢١/٢٩ وما بعدها) ، روح المعاني (٢١/٤٠ وما بعدها) .
٤ أسباب النزول (ص ٦٥) .

رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ألا ان كل ربا من ربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب »[1] .

فنحن إذن أمام أفراد وأمام شركاء كانوا يتعاملون بالربا ، أي قرض المال في مقابل جر مغنم منه . وقد حصل هؤلاء المرابون على أموال طائلة منه . أضف الى ذلك أنهم كانوا تجاراً ، يسافرون الى الخارج ويربحون من تجارتهم هذه ربحاً حسناً .

ولضبط المدين الآخذ بالربا ، كانوا يكتبون الدين ورباه في صحيفة ، يكتب كاتبها اسمه فيها ، ويكتب فيها اسم المدين واقراره بدينه للدائن، وبمقدار الزيادة . والغالب أنهم كانوا لا يذكرون أصل الدين ، بل يذكرون الرقم الذي يبلغه هذا المبلغ مع فائضه مضافاً اليه ، حتى يظهر الفائض وكأنه جزء من رأس المال . ويشهد على صحة العقد شاهدان . ولهذا لعن الرسول آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه[2] .

وكان (أبو لهب) من أصحاب المال بمكة ومن المرابين . ذكر أنه كان قد لاط (العاصي بن هشام) بأربعة آلاف درهم ، فلما وقعت معركة بدر ، استأجره بها على أن يجزىء عنه بعثه ، فلم يخرج (أبو لهب) مع من خرج من رجال قريش . وكان (العاصي) قد أفلس ، فلم يتمكن من دفع المبلغ ورباه ، فتنازل (أبو لهب) عنه على أن يخرج الى بدر في مكانه[3] . وفي سورة (تبت) اشارة الى أن (أبا لهب) ، كان ملاكاً ذا مال وقد كسب كثيراً .

وقد كان أهل يثرب يقترضون المال والطعام من اليهود في مقابل ربا فاحش . فورد ان أنصارياً اقترض ثمانين ديناراً من يهودي ، وقد أعطاه رباً بلغ خمسين في المئة من المبلغ لسنة واحدة[4] . وقد وبخهم القرآن لأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل[5] .

---

١ المصدر نفسه .

٢ البخاري (٥/٥٠) ، الترتيب والبيان عن تفصيل آي القرآن (٢/٢٣٤) ، عقود الجواهر (٢/٣٣) ، تيسير الوصول (١/٦٨) ، مسند الامام أبي حنيفة (ص ١٥٨) .

٣ الروض الانف (٢/٦٢) .

٤ البخاري ، بيوع (٣٤) ، ١٤ ، Watt, Muhammad at Medina, p. 297.

٥ تفسير الطبري (١/١٧ فما بعدها) .

القراض :

وفي جملة وسائل تنمية المال وزيادته : القراض ، وهو المضاربة في كلام أهل الحجاز ، ويراد به تقديم مال الى شخص يتجر به على ربح معين . وكان معروفاً بين أهل مكة ، فكانوا يضاربون بأموالهم مساهمة منهم في الأرباح . ومنه حديث الزهري : « لا تصلح مقارضة من طُعمته الحرام » . فكانوا يعطون المال مضاربة الى شخص يتجر به ، على جزء يأخذه من ربح المال[١] ، وذلك كأن يعطي رب مال رجلاً مالاً يعمل فيه ويأذن له أن يشتري ما يشاء ، وأن يبيع بالسعر الذي يشاء ، ويدير هذا المال على يديه ، وبعد إخراج رأس المال وما صرف على التجارة من أتعاب وأجور ، وضرائب ، يوزع الربح نصفين ، أو أثلاثاً : لرب المال الثلثان ، وللعامل بحق عمله الثلث ، أو حسب ما تعاقدا عليه[٢] . وقيل : القراض : أن يدفع اليه مالاً ليتجر به والربح بينهما على ما يشترطان والوضيعة على المال[٣] .

وذكر ان المضاربة ان تعطي انساناً من مالك ما يتجر فيه على أن يكون الربح بينكما ، أو يكون له سهم معلوم من الربح . والمضارب صاحب المال والذي يأخذ المال كلاهما مضارب . ويقال للعامل : ضارب،لأنه هو الذي يضرب في الأرض. وجائز أن يكون كل واحد من رب المال ومن العامل يسمى مضارباً ، لأن كل واحد منهما يضارب صاحبه ، وكذلك المقارض[٤] .

فنحن اذن أمام نوع من الاتجار بالمال ، يقدم فيه صاحب المال مالاً الى شخص آخر ليعمل به رأس مال التجارة ، على أن يكون الربح بينهما على نحو ما اتفقا عليه . وقد عرف بالقراض وبالمضاربة . .

و (الوضيعة) الخسارة ، وفي حديث (شريح) الوضيعة على المال والربح على ما اصطلحا عليه ، يعني أن الخسارة من رأس المال[٥] . وذلك لاشتراط بعض الجاهليين ، أن القراض على جزء من الربح ، على ألا يتحمل صاحب المال ،

---

١ اللسان (٢١٧/٧) « صادر » ، (قرض) .
٢ نهاية الارب (١٩/٩) .
٣ تاج العروس (٧٧/٥) ، (قرض) .
٤ اللسان (٥٤٤/١) ، (ضرب) ، تاج العروس (٣٤٩/١) ، (ضرب) .
٥ تاج العروس (٥٤٤/٥) .

أي المقرض له أيـــة خسارة إذا خسرت التجارة . وعلى المقترض ارجاع المـــال كاملاً الى المقرض .

التسليف :

وفي جملة وسائل الاستفادة من المال : التسليف . وهو تسليف المـال لمزارع أو لأصحاب الإبل والماشية في مقابل شيء يتفق عليه ، يدفع بعد البيع أو الحصاد. يدفع نقوداً أو عيناً أو إبلاً أو ماشية أو أي شيء آخر يتفق عليه . والسلف ، هو أن يعطى مالاً في سلعة الى أجل معلوم بزيادة في السعر الموجود عند السلف، وذلك منفعة للمسلف . وقيل كل مال قدمته في ثمن سلعة مضمونة اشتريتها للصفقة، فهو سلم وسلف . والسلف القرض الذي لا منفعة فيه للمقرض غير الأجر والشكر وعلى المقترض رده كما أخذه[1] .

وذكر العلماء أن السلف في المعاملات له معنيان : أحدهما القرض الذي لا منفعة للمقرض فيه غير الأجر والشكر وعلى المقترض ردّه كما أخـــذه . والعرب تسمي القرض سلفاً ، والمعنى الثاني في السلف ، هو أن يُعطى مالاً في سلعة الى أجل معلوم بزيادة في السعر الموجود عند السّلف ، وذلك منفعة للمسلف[2] .

ولما قدم النبي المدينة ، وجدهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين ، أي يعطون الثمن في الحال ويأخذون السلعة في المـآل. فقال لهم : من أسلف فـــلا يسلف إلا في كيل معلوم ووزن معلوم الى أجل معلوم[3] . ويظهر من ذلك انهـم كانوا يسلفون المزارع مالاً ، ويشترطون عليه أن يعطيهم في مقابل ذلك حاصلاً ، أو يبيع زرعه عندهم أو بواسطتهم ، وذلك عـلى نحو ما يفعـــل المزارعون في هذا الوقت . فيكسب المسلف،ويربط المزارع به ، بحيث يرغمه على أن يكون مرجعه الوحيد في بيع حاصله . فجوّز الرسول السلف،على أن يكون بيعاً شرعياً صحيحاً، كيل معلوم ووزن معلوم الى أجل معلوم .

و (القرض) الذي لا منفعة للمقرض فيه غير الأجر والشكر ، هو ما يقال

---

١ تاج العروس (١٤٣/٦) ، (سلف) .
٢ اللسان (١٥٩/٩) ، (سلف) .
٣ البخاري (٥٥/٥ وما بعدها) ، (كتاب البيوع ، باب السلم) .

له (قرضاً حسناً) في الاسلام ، وهو ما تعطيه لتقضاه ، أي ما يعطى قرضاً ، فيعاد الى صاحبه[1] .

وقامت المعابد في العربية الجنوبية بتسليف المال للمحتاج اليه . ولا أعني بالمال النقود ، بل كل شيء له ثمن وقيمة . وكانت تتقاضى فائضاً في مقابل الاستفادة منه . وقد كانت معظم معابد ذلك الوقت تقوم مقام (بنوك التسليف) في هذا اليوم بتسليف الأموال الى المحتاج لها ، لما كان عندها من فائض يأتيها من أملاكها ومن حقوقها المفروضة على أتباعها ، فتاجرت في الأسواق ، وسلفت الفائض الى المتسلفين .

ولهذه المعابد بيوت وضعت بها أموال المعبد ، وهي خزائن المعابد ، وبيوت المال عند المسلمين . وقد كانت في المعابد في الغالب ، ليكون في وسع أصحاب النذور طرح نذورهم بها . أما الزروع والمواشي التي تكون من حقوق المعبد فتحفظ في المخازن المخصصة لهذه الغاية وفي (حرم) الآلهة المحماة باسمها لرعي ماشيتها . وقد تحدثت عن (الغبغب) الذي كان بمكة في الجزء السادس من هذا الكتاب ، وقد كان خزانة للكعبة ، وأشرت الى وجود خزائن لبيوت الأرباب الأخرى . وسدنة الأصنام هم حفّاظها وأمناؤها ، ولا استبعد احتمال قيام هؤلاء السدنة بالاتجار باسم المعابد ، وبتسليف ما في خزائنها من مال الى المحتاجين اليه .

وقد عرف الاستلاف من بيت المال في الاسلام . استلف منه بعض الخلفاء والعمال وكبار الرجال لحاجتهم الى المال أو لتشغيله وللاستفادة منه تجارة أو لاستخدامه في مشاريع زراعية مثل إحياء موات ، أو تحويل مجرى ماء الى غير ذلك من سلف وقروض نص عليها أهل التواريخ والأخبار .

الافلاس :

والافلاس ذهاب المال ، واذا لم يبق للتاجر مال[2] . فقد كان التاجر يصاب بخسارة فادحة ، تتغلب على أرباحه وعلى ما عنده من مال ، أو تتعرض أمواله

---

١ تاج العروس (٥/٧٦) ، (قرض) .
٢ اللسان (٦/١٦٦) ، (فلس) .

للنهب ، فلا يستطيع إعادة اعتباره ، فلا يكون في وسعه دفع ما بذمته من قروض أو رأس مال الى دائنيه ، فيعلن عندئذ عدم تمكنه من دفـع ما عليه ، ويشهر افلاسه . وهذا ما يقال له الافلاس .

والمفلس مسؤول عن وفاء ديونه . وعليه ارضاء خصومه ، بدفع ما بذمته لهم دفعاً كاملاً أو حسب ما يتفق معهم عليه ، أو تقسيطاً. ويكون الشركاء مسؤولين عن افلاسهم أيضاً ، وعليهم تحمّل المسؤولية كل حسب حصته في الشركة .

الفصل الثامن بعد المئة

أصحاب المال

وصاحب المال عند أهل الجاهلية ، من له تجارة وجمع منها مالاً ، أو من له زرع ونخيل ، جاء اليه بربح طيب ، أو من له إبل ، والإبل هي (المال) عند العرب ، ومقياس ثراء الانسان ، لأنهم لا يعرفون مالاً غيرها ، أو من له حرفة رائجة ، وذلك بين أهل المدن والقرى ، حيث يستطيع صاحبها الحصول منها على ربح طيب اذا عرف كيف يستغل مواهبه في اختيار حرفته وفي تشغيل الأيدي العاملة لزيادة الانتاج .

وقد أشار أهل الأخبار الى رجال جاهليين ومخضرمين كان يملك كل واحد منهم عشرات الألوف من الدراهم ، أي النقود ، عدا الإبل والمزارع والأملاك : من هؤلاء : (عبدالله بن جدعان) . ويظهر انه كان واسع الثراء ، لم يبلغ أحد مبلغه في كثرة ماله بمكة ، حتى ذكر انه كان يأكل بصحاف من ذهب ، ويشرب بآنية من فضة ، وبكؤوس من البلور ، وانه كان قد امتلك قياناً ليغنين له . وللجرادتين ، وهما قينتان من قيانه،شهرة واسعة في كتب الأدب ، تغنيان له ولمن يحضر مجلس شرابه ليلاً ، وكان بيته داراً للضيفان .

وكان استعمال الأغنياء لآنية من الفضة والذهب في أكلهم وشربهم معروفاً بمكة. وقد كان ذلك يترك أثراً في نفوس الفقراء الذين لا يملكون قوتاً لهم . ولهذا السبب نهي عن استعمالها في الإسلام ، ونهي أيضاً عن استعمال ثياب الحرير . وقد كانت ثياب الحرير والملابس المقصبة بالذهب ، وحلل الديباج من ألبسة

الأغنياء ، الذين كانوا يعتنون بملابسهم وينفقون في شرائها مالاً ، وهي تستورد من الخارج من اليمن ومن بلاد الشأم والعراق .

ويفهم من القرآن الكريم أن بين الجاهليين من كان يكتنز الذهب والفضة ، ولا يعطي مما جمعه للفقراء والمحوجين شيئاً . وقد بشر هؤلاء بعذاب أليم ، لاكتنازهم المال وعدم إخراج شيء منه من حق مفروض عليهم ، لينفق في موضعه ومكانه الذي وضعه الله له[1] . وأشار الى أناس حبب اليهم جمع القناطير المقنطرة من الذهب والفضة[2] . وكان أغنياؤهم يعيشون عيشة مترفة ، يحتسون الماء بآنية من ذهب ، حتى قيل لأحدهم (حاسي الذهب) و (شارب الذهب)[3]. ويستخدمون الأثاث الفاخر ، والمذهبات ، وهي الأشياء المطلية بالذهب ، والبرد المذهبة والملابس المذهبة ، والحلي المصوغة من الذهب ، على حين يعيش بعضهم عيشة كفاف ، وبعض منهم عيشة فقير معدم .

وقد عرف (عثمان بن عمرو بن كعب) ، وهو من (بني تيم بن مرة) بـ (شارب الذهب) ، لغناه وكثرة ماله ، حتى كان يشرب بآنية من ذهب، وقد عدّ في أجواد قريش[4] .

ويظهر من سورة « تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب»[5] أن (أبا لهب) كان رجلاً ثرياً كسب مالاً وذرية ذكوراً . وهو عم من أعمام النبي ، واسمه (عبد العُزى) ، وكان يرى نفسه لكثرة ماله وولده ، أنه من رجال قريش وسادتهم ، فلا يليق به اتباع ابن أخيه ، وهو أصغر منه سناً وأقل منه مالاً . يقال إنه قال للنبي : « ماذا أعطى يا محمد إن آمنت بك ؟ قال : كما يعطى المسلمون ! فقال : مالي عليهم فضل ! قال : وأي شيء تبتغي : قال : تباً لهذا من دين . تباً أن أكون أنا وهؤلاء سواء »[6] .

وقد تحدثت عن (أبي سفيان) في مواضع من هذا الكتاب ، وكان تاجراً

---

١ سورة التوبة ، الرقم ٩ ، الاية ٣٤ .
٢ سورة آل عمران ، الرقم ٣ ، الاية ١٤ .
٣ المحبر (١٣٧) .
٤ المحبر (١٣٧) .
٥ سورة تبت ، الرقم ١١١ ، الآية ١ وما بعدها .
٦ تفسير الطبري (٣٠/٢١٧) .

يجهّز التجار بماله وأموال قريش الى الشأم وغيرها من أرض العجم، وكان يخرج أحياناً بنفسه[1] . وقد عهدت اليه قريش بقيادة قوافلها الى الشأم ، وبسبب قيادته قافلتها الى الشأم وقعت معركة بدر . ويظهر انه كان يدفع أمواله الى كبار تجار قريش ممن كانوا يتاجرون مع الشأم والعراق ، للاتجار بها ، فإذا عادوا يصيب من أرباحها .

ويتبين من خبر وقوع ابنه (عمرو) أسيراً يوم بدر ، ومن امتناعه من تخليصه من أسره بتقديم فدية عنه ، ومن قوله لمن ألح عليه بإفدائه : « أيجمع عليّ دمي ومالي ! قتلوا حنظلة وأفدي عمراً ، دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم » ، انه كان شحيحاً ، حمله شحه على تفضيل المال على ابنه . حتى حمله شحه هذا على مخالفة دين قريش،وعرفهم في عهدها ألا تعترض لأحد حاجاً أو معتمراً إلا بخير. فلما جاء (سعد بن النعمان بن أكال) ، وكان شيخاً مسلماً كبيراً الى مكة معتمراً ، عدا عليه (أبو سفيان) ، فحبسه بمكة بابنه (عمرو) ، مما حمل الرسول على فك أسر ابنه بـ (سعد بن النعمان بن أكال)[2] .

وكان يتاجر بالفضة وبالأدم ، والأدم من تجارة قريش المهمة . ويظهر انه كان يشتري الأدم من الطائف ومن اليمن ، ثم ينقله الى بلاد الشأم . وقد أشير الى أدم قريش ، وهو أديم عرف في الأسواق بجودته وبنفاسته .

وكان (العباس بن عبد المطلب) من أثرياء قريش . كانت له ثروة واسعة من نقود ومن ذهب وفضة . وقد استغل ماله بالتجارة وبإقراضه بالربا ، قيل عنه إنه « كان ذا مال كثير متفرّق في قومه »[3] . كان يقرضهم ويسلفهم ويشاركهم في تجارتهم . ولما انتهى الى المدينة قال الرسول له : « يا عبّاس افدِ نفسك وابني أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث ، وحليفك عروة ابن عمرو بن جحدم ، أخا بني الحارث بن فهر . فإنك ذو مال . فقال : يا رسول الله ؛ إني كنت مسلماً ، ولكن القوم استكرهوني ، فقال : الله أعلم بإسلامك ، إن يكن ما تذكر حقاً فالله يجزيك به . فأما ظاهر أمرك فقد كان

---

١ الاستيعاب (٤/٨٦) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٢/١٧٢) ، (رقم ٤٠٤٦)
٢ الطبري (٢/٤٦٦ وما بعدها) .
٣ الطبري (٢/٤٦١) .

علينا ، فافدِ نفسك — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ منه عشرين أوقية من ذهب — فقال العباس : يا رسول الله ، احسبها لي في فدائي ، قال : لا ؛ ذاك شيء أعطاناه الله عزّ وجلّ منك ، قال : فإنه ليس لي مال . قال : فأين المال الذي وضعته بمكة حيث خرجت من عند أم الفضل بنت الحارث ، ليس معكما أحد . ثم قلت لها : إن أصبت في سفري هذا فللفضل كذا وكذا ، ولعبدالله كذا وكذا ، ولقثم كذا وكذا ، ولعبيد الله كذا وكذا ! قال : والذي بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيري وغيرها ، وإني لأعلم أنك رسول الله ، ففدى العباس نفسه وابني أخيه وحليفه »[1] . وكان ذلك عند وقوعه في الأسر ببدر[2] .

وكانت أم العباس غنية على ما يظهر ، ذكر انه ضاع وهو صغير ، فنذرت إن وجدته أن تكسو البيت الحرير ، فوجدته فكست البيت الحرير ، فهي أول من كساه ذلك[3] . وكان له مال في الطائف ، فإذا كان الموسم جيء اليه بالزبيب لينتبذه للحجاج ، فقد كان المتولي لأمر السقاية بمكة . وذكر انه كان يملك (مكوكاً) ، مصوغاً من فضة مموهاً بالذهب يشرب به[4] .

وقد نجح بعضهم في الزراعة نجاحاً باهراً ، وأظهر مقدرة في إحياء الأرض الموات . ومن هؤلاء : (عبدالله بن عامر بن كريز) . وكان صغيراً في أيام النبي ، وولي (البصرة) في أيام (عثمان) . وكان ابن خال (عثمان) . وله (النباج) الذي يقال له نباج ابن عامر ، وله (الجحفة) ، وله بستان ابن عامر بنخلة على ليلة من مكة ، وله أرضون أخرى ، تمكن من معالجتها ومن إظهار الماء فيها ، حتى جمع ثروة طائلة من الزراعة[5] .

ونجح (عبدالله بن عمرو بن العاص) في الزراعة أيضاً ، فقد كان له مال بالطائف على ثلاثة أميال من (وج) ، هو كرم فاخر موصوف ، « كان يعرش على ألف ألف خشبة شراء كل خشبة درهم » . وقد كان يحصل منه على أكوام كبيرة من الزبيب[6] .

---

١ الطبري (٢/٤٦٦) .
٢ الاصابة (٢/٢٦٣) ، (رقم ٤٥٠٧) .
٣ الاصابة (٢/٢٦٣) ، (رقم ٤٥٠٧) ، الاستيعاب (٣/٩٤) ، (حاشية على الاصابة)
٤ تاج العروس (٧/١٧٩) ، (مك) .
٥ كتاب نسب قريش (١٤٨) ، الاستيعاب (٢/٢٥١) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ تاج العروس (٥/٢٤٣) ، (وهط) .

وعرف (آل مخزوم) بالثراء في الجاهلية وفي الاسلام . مرّ (عثمان بن عفان) بمجلس لبني مخزوم ، فسلم عليهم ، ثم قال : « إنه ليعجبني ما أرى من جمالكم ونعمة الله عليكم » . « وزعموا أن قوماً قعدوا يذكرون الأغنياء من قريش، فقال أحدهم : (المغيرة بن عبد الرحمن) . فقال له القوم : « وهل لمغيرة من مال؟» فقال الرجل : أليس له أربع بنات وأربع أخوات ؟ وكان المغيرة يقول : لا أزوج كفؤاً إلا بألف دينار ! فكان إذا خطب اليه الكفؤ ، قال له : قد علمت قولي ؟ فيقول له الخاطب : قد علمتُ وقد أحضرت المالَ ؟ فيزوجه ويقبض المال منه ، ثم يقول له : أختم عليه بخاتمك ، فإذا أدخل زوجته ، بعدما جهزها بما يصلحها ، ويخدمه خادمين ، ويدخل بيتها نفقة سنة دفع اليها صداقها مختوماً بخاتم زوجها ، ثم يقول لها : هذا مالك ، وما جهزناك به صلة منّا لك »[1]. وهي قصة مهما قيل فيها فإنها تشير الى ثراء وغنى آل مخزوم .

وعكرمة بن أبي جهل من أغنياء قريش كذلك ، ولما ندب (أبو بكر) الناس لغزو الروم ، خرج معهم غازياً ، فبصر (أبوبكر) بخباء عظيم ، حوله ترابط ثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة ، فجاء اليه ، فإذا خباء (عكرمة) ، فعرض أبو بكر عليه المعونة ، فقال : « أنا غني عنها ، معي ألفا دينار ، فاصرف معونتك الى غيري »[2] .

وكان (الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس) من تجار مكة ، وكان يخرج بتجارته الى الخارج ، فيذهب الى الحيرة ، للاتجار بسوقها . ومرّ (الحكم) بحاتم الطائي فسأله الجوار في أرض طيء حتى يصل الى (الحيرة) فأجاره ونحر له وأوصله الى الحيرة .

ومن أغنياء الطائف (مسعود بن معتب الثقفي) ، قيل انه كان له مال عظيم. وانه أحد من قيل فيه انه المراد من الآية : « على رجل من القريتين عظيم » . وكانت له مزارع بها أشجار كروم وفواكه ، وله عبيد ، وقصر ضخم[3] .

ومن رجال الطائف الأغنياء (مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي) ، كان غنياً

---

١ كتاب نسب قريش (٣٠٨ وما بعدها) .
٢ كتاب نسب قريش (٣١١) .
٣ تاج العروس (١٨٤/٦) ، (طوف) .

يرابي بماله . ولإخوته ربا عند (بني المغيرة بن عبدالله) ، فلما أسلموا طالبوهم، فقالوا : ما نعطي الربا في الاسلام ، واختصموا الى (عتاب بن أسيد) ، فكتب به الى النبي ، فنزلت : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين »[1] .

ولا توجد لدينا قوائم بمقدار ما كان يملكه الأغنياء في الجاهلية من مـال ، وأقصد بالمال هنا : النقود ، من دنانير ودراهم ، لعدم وصول موارد مدوّنـة فيها مثل هذه القوائم ، إلا أن الموارد الاسلامية قد تطرقت الى ذكر ما قدمـه بعض من أسلم من النقود في سبيل الله،وبعض ما قدمه المشركون من أجل الدفاع عن مصالحهم ، كما أشارت الى أمور أخرى وردت فيها أعداد وأرقام ، قـد ترسم لنا صورة عن أموال بعض الأغنياء عند ظهور الإسلام . فقد ورد في كتب السير والتواريخ مثلاً أن الرسول استسلف من (عبدالله بن أبـي ربيعة) أربعين ألف درهم ، فأعطـاه ، واستقرض من (صفوان بن أمية) خمسين ألف درهم فأقرضـه . واستقرض من (حويطب بن عبد العُزى) أربعـين ألف درهم . فكانت ثلاثين ومائة ألف قسمها بين أهل الضعف ، فأصاب الرجل خمسين درهماً وأقل وأكثر ، وبعث من ذلك الى بني جذيمة[2] .

وورد أن (المطلب بن أبـي وداعــة) ، فدى أباه يوم بدر بأربعة آلاف درهم[3] . وهو مبلغ يمكن أن يتحدث عمّا كان لدى آل (أبـي وداعة) من مال .

واستعان الأغنياء بخزنة يخزنون لهم أموالهم ، ويكتبون لهم حساباتهم ، فكان لـ (طلحة بن عبيد الله) خازن ، يحفظ له ماله ، ويشرف على أملاكه ونخله وزروعه[4] . والخازن ، هو الذي يحافظ على المال وخزنه ، والخزانة مكان الخزن[5] . وقد كانت الخزائن معروفة عند الجاهليين ، وقد أشير اليها في مواضع من القرآن الكريم[6] . وكان (بلال المؤذن) خازناً لأبـي بكر ، ثم صار خازناً للرسول ،

---

١ الاصابة (٣/٣٩٢) ، (رقم ٧٩٥٨) .
٢ امتاع الاسماع (١/٣٩٥) .
٣ كتاب نسب قريش (٤٠٦) .
٤ ارشاد الساري (٤/٧٩) .
٥ تاج العروس (٩/١٩١) .
٦ غافر ، الاية ، ٤٩ ، الزمر ، الاية ٧١ ، ٧٣ ، الملك ، الاية ٨ ، الانعام ، الاية ٥٠ ، هود ، الاية ٣١ ، الاسراء ، الاية ١٠٠ ، يوسف ، الاية ٥٥ ، ص ، الاية ٩ ، الطور ، الاية ٣٧ ، المنافقون ، الاية ٧ ، الحجر ، الاية ٢١ .

لما أعتقه (أبو بكر) ، يقوم بحفظ ما يأتي الى الرسول من بيت المال ، ويعطي منه من يأمره باعطائه منه[1] .

واتخذوا لهم محاسبين يحسبون لهم حسابهم ، وتجار لهم قوافل ولهم شركات مساهمة ، يساهم فيها كل من أراد من أهل مكة ، كان لا بد لهم من استخدام المحاسبين ، لحساب رؤوس أموالهم ومصاريفهم وتقدير أرباحهم وخسائرهم . وقد « استعمل الرسول رجلاً من الأسد على صدقات (بني سليم) ، يدعى (ابن اللتيبة) ، فلما جاء حاسبه ، فقد صح ان رسول الله حاسب . وبكتاب الحساب تحفظ الأموال »[2] . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال آخرين عيّنهم الرسول لأخذ صدقات المسلمين ومحاسبتهم عليها .

وقد استغل أهل مكة (الطائف) ، فكانت لقريش أموال بها يأتونها من مكة فيصلحونها ، فلما فتحت مكة وأسلم أهلها طمعت ثقيف فيها ، حتى اذا فتحت الطائف أقرت في أيدي المكيين . وصارت الطائف مخلافاً من مخاليف مكة . وممن كان له مال بالطائف (العباس بن عبد المطلب) ، كانت له بها أرض ، بها كروم ، فكان الزبيب يحمل منها فينبذ في السقاية للحجاج[3] .

والتجارة من أهم موارد الثراء عند الجاهليين ، وقد كان أكثر أغنياء مكة تجاراً . وأهم ما يمتاز به ثراء التاجر عن ثراء غيره من الأغنياء ، هو أن ثراءه ثراء نقود ، وتعامله بالدنانير والدراهم في الغالب ، وأن ما يبيعه ويشتريه هو من منتوج ومحصول غيره ، فهو وسيط ، يكسب ربحه من البيع والشراء ، أي من فرق السعر الذي يكون بين سعر شرائه وسعر بيعه ، وقد يخسر بالطبع . أما ثراء الأغنياء المزارعين ، فمن بيع حاصلهم ، ويزيد كسبهم كلما ارتفع سعر البيع ، فتزيد به ثروتهم وتتوسع أرضهم . وأما ثراء سادة القبائل ، فمن المال ، أي الإبل ، ومن الجباية والتعامل مع التجار ومن الجهود الشخصية التي يبذلونها في الحصول على المال ، مثل حفر الآبار واستنباط الماء في الأرض الموات وغير ذلك .

ومن وسائل الثراء العثور على (الرّكاز)[4] ، دفين أهل الجاهلية ، أي الكنز

---

١ الاستيعاب (١/١٤٥ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة ، (١/١٦٩) ، (رقم ٧٣٦) .
٢ نهاية الارب (٨/١٩٢) .
٣ البلاذري ، فتوح (٦٨) .
٤ الركاز ككتاب .

الجاهلي ، والمال العاديّ يوجد مدفوناً . و (الركزة) واحدة الركاز ، القطعة من جواهر الأرض المركوزة فيها ، وقطع عظام مثل الجلاميد من الذهب والفضة تخرج من الأرض أو سن المعدن. وأدخل بعض العلماء المعادن في الركاز. وخصص أهل الحجاز الركاز بالمال المدفون خاصة مما كنزه بنو آدم قبل الاسلام ، وأما المعادن ، فليست بركاز[1] . وعرف الركاز بـ (السيوب) . وذكر أن السيوب المعادن ، وذكر أنها عروق من الذهب والفضة تسيب في المعدن ، أي تتكون فيه وتظهر ، سميت سيوباً لانسيابها في الأرض . وذكر أنها المال المدفون في الجاهلية أو المعدن . وقد وردت اللفظة في كتاب الرسول لـ (وائل بن حجر) . إذ ورد « وفي السيوب الخمس »[2] .

وقد اعتبر الجاهليون (الركاز)،مالاً يأخذه من يعثر عليه ، ونصيباً حلالاً، حكمه حكم اللقطة التي لا صاحب لها ، أما الاسلام ، فقد فرض الخُمس في الركاز . وإنما كان فيه الخمس لكثرة نفعه وسهولة أخذه . فما استخرج من الركاز ، فلمستخرجه أربعة أخماس ولبيت المال الخمس[3] .

ونجد السور المكية الأولى من سور القرآن ، تصور أغنياء قريش ، أناساً متغطرسين غلاظ الأكباد يرون أنفسهم فوق الناس ، لغناهم ولمكانتهم بسبب ذلك في قولهم ، وكان ضعف حال الرسول بالنسبة لهم ، وصغر سنه من أهم العوامل التي دفعت أولئك السادة على مقاومته ومقاومة ما جاء به،خاصة في دعوته انصاف الفقير وإخراج حق الله المكتوب للفقراء من أموالهم صدقة وزكاة،تزكية لأموالهم، وإسعافاً لنفرائهم ، قال أبو لهب للرسول : « ماذا أعطى يا محمد إن آمنت بك؟ قال : كما يعطى المسلمون ! فقال : ما لي عليهم من فضل. قال : وأي شيء تبتغي ؟ قال : تباً لهذا من دين ، تباً أن أكون أنا وهؤلاء سواء »[4] .

ويصورهم القرآن الكريم قوماً ألهاهم التكاثر والتفاخر ، تفاخروا بأموالهم وبوجاهتهم في قومهم ، بل تفاخروا حتى بمن توفي منهم من سادتهم[5]. لا يرحمون

---

١ تاج العروس (٣٩/٤) ، (ركز) .
٢ تاج العروس (٣٠٥/١) ، (سيب) .
٣ تاج العروس (٣٩/٤) ، (ركز) .
٤ تفسير الطبري (٢١٧/٣٠) .
٥ سورة التكاثر ، الرقم ١٠٢ .

فقيراً ، ولا يعطفون على يتيم ، بل كانوا يأكلون أموال اليتامى ، ويقهرونهم ، ولا يعطونهم حقوقهم[1] ، اذا جاءهم سائل انتهروه ، وطردوه طرداً قبيحاً ، واذا طلب محروم منهم عوناً أبعدوه عنهم . واذا وزن بائعهم أنقص في الميزان ، واذا كال قصر في الكيل : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم »[2].

ونجد هذه الصور البشعة المعبرة عن جشع بعض الأغنياء في كتب السير والحديث والأخبار أيضاً ، اذ صورت بعضها بعضهم وقد اعتدى على أموال رجل غريب جاء يتاجر بمكة ، فتلقاه تاجر من تجارها ، عامله على سلعة له ، ثم بايعه ، فلما قبضها ماطله الثمن، ثم أكله . هذا (أبو جهل) ابتاع إبلاً لرجل من (اراش) (اراشة) بمكـة ، فمطله بأثمانها ، فأقبل (الاراشي) حتى وقف على نادٍ من قريش ، ورسول الله في ناحيـة من المسجد جالس . فقال : يا معشر قريش من رجل يؤديني على أبي الحكم بن هشام ، فإني رجل غريب ابن سبيل وقد غلبني على حقي . فقـال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل الجالس ، يشيرون الى رسول الله ، وهم يهزأون به لما يعلمون بينـه وبين أبـي جهل من العـداوة ، اذهب اليه فإنه يؤديك عليه . فذهب به الى أبـي جهل ، وأخـذ منه حقه ، وأعاده عليه[3] . وهذا رجل من (زبيد) قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه (العاصي بن وائل) ، وكان ذا قـدر بمكة وشرف فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليـه الزبيدي الأحلاف ، فأبوا أن يعينوه عـلى (العاصي بن وائل) وزبروه . فلما رأى الزبيدي الشر أوفى عـلى أبـي قبيس وقريش في أنديتهم ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعتـه ... ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

---

١ الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ١٥٢ ، الاسراء ، الرقم ١٧ ، الاية ٣٤ ، الفجر ، الرقم ٨٩ ، الاية ١٧ ، الضحى ، الرقم ٩٣ ، الاية ٩ ، ومواضع أخرى ، المعجم المفهرس (٧٧٠) .

٢ الرحمن ، الاية ٩ ، المطففين ، الاية ١ وما بعدها ، تفسير الطبري (٥٧/٣٠ ومـا بعدها) ، تفسير النيسابوري (٤٤/٣٠) ، (حاشية على تفسير الطبري) .

٣ ابن هشام ، سيرة (٢٣٧/١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .

فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبدالله بن جدعان ، وتعاقـدوا وتعاهدوا ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى اليه حقه . وعرف حلفهم هذا بحلف الفضول ، ثم مشوا الى (العاصي بن وائل) ، فانتزعوا منـه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه[1] . فكان حلف الفضول نتيجة لما كان يقع بمكة من اعتداء على حقوق وأموال الغرباء والمستضعفين من الناس .

وذكر ان منهم من كان يأكل أجر العامل الأجير ، ومنهم من كان يشتط على عبده ، فيشغله في أشغال صعبة ، ثم يطلب منه أجره ، وقد يستقل أجره فيضربه ليحمله على ان يشتغل له أكثر من شغله ، ليجيء اليه بمال زائد . ومنهم من كان يحمل إماءه على البغاء ليأخذ أجرهن ، كما أشير الى ذلك في القـرآن الكريم . وكما أشرت الى ذلك في مواضع أخرى من هذا الكتاب. ومنهم من كان لا يبالي للحصول على المال بسلوك أي سبيل يؤدي اليه .

وهي صورة تعارض ما نقرأه في أخبار أهل الأخبار عن تعاطف أغنياء مكة مع فقرائهم ، وعن اخراجهم جزءاً من أموالهم لمساعدة البائس والفقير والصعلوك والغريب ، حتى صار الفقير عندهم كالكافي وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء الى غير ذلك من نعوت وأوصاف[2] ، وكما جاء في شعر ينسب الى (مطرود بن كعب الخزاعي)[3] . وما ذكروه عن الذادة الذين أخذوا على أنفسهم الذود عن الضعيف والمظلوم .

ونجد أناساً بين الأعراب كانوا يشعرون بما كان يعانيه الفقراء من شدة الفقر ، ومن شدة ما أصاب بعضهم من إملاق ، ومن اضطرار بعضهم إلى وأد بناته من شدة الفقر ، كما أشير الى ذلك في القرآن الكريم ، وهذا مما حمل بعض أصحاب القلوب الرحيمة الشفيقة على ودى البنات ، وحمل مؤونتهن وبذل الرعاية لهن حتى يكبرن فيتزوجن . وقد ذكر ان من هؤلاء الذين وهبوا الشعور بالمسؤولية الانسانية وبالشفقة والرحمة والحنان : (صعصعة بن ناجية بن عقال) ، فقد أحيا الموءودات فبعث الرسول وعنده مائة جارية وأربع جوار أخذهن من آبائهن لئلا يوأدن[4] .

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/ ٩٠ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (١/ ٩٠ وما بعدها) .
٢ ثمار القلوب (١٠ وما بعدها) .
٣ الروض الانف (١/ ١١٧) .
٤ المحبر (١٤١) .

عادات وأعراف :

ويظهر من بعض الأخبار ان الوأد لم يكن عن إملاق حسب ، بل كان لسبب آخر ، أراه متصلاً بعقيدة ودين . فقد ذكر ان وفد (جعفى) ، قال لرسول الله : « يا رسول الله ! إن أمنا مُليكة بنت الحلو ، كانت تفك العاني وتطعم البائس وترحم المسكين ، وانها ماتت وقد وأدت بنيّة لها صغيرة فما حالها؟ قال : الوائدة والموءودة في النار »[1] . فلم يكن الوأد هنا بسبب الفقر والإملاق ، بل لسبب آخر ، قد تكون له صلة بدين أو بعرف اجتماعاً . ويلاحظ ان (جعفى) كانوا يحرمون القلب في الجاهلية ولا يأكلونه . ولما قدم وفدهم الى يثرب ، قال رسول الله : بلغني انكم لا تأكلون القلب ؟ قال : نعم . قال : فإنه لا يكمل اسلامكم إلا بأكله . ودعا له بقلب فشوي ، ثم ناوله أحد رجال الوفد، فلما أخذه أرعدت يداه ، فقال له رسول الله : كُله ، فأكله وقال :

على أني أكلت القلب كرهاً وترعد حين مسته بناني[2]

وقد حمل الأعشى على أولئك الذين ينامون وهم متخمون ملاء البطون،وجيرانهم جياع يتضورون من الجوع ، إذ يقول :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وفي هذا المعنى يقول بشر بن المغيرة :

وكلّهم قد نال شبعاً لبطنه وشبع الفتى لؤم اذا جاع صاحبه

ولعلّ هذا الشعور هو الذي حمل (عروة بن الورد) على أن يكون سيد الصعاليك ومجمعهم ومغيثهم ، حتى قيل له : (عروة الصعاليك) ، لأنه كان يجمع الصعاليك في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه[3] .

وفي القرآن الكريم أن (ملأ) نوح ، وهم الأعزة أصحاب الحول والطول،

---

١ ابن سعد ، الطبقات (١/٣٢٥) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (١/٣٢٤ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (١٥٣/٧) ، (صعلك) .

يقولون لنوح : « ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا »[1] ، وفيه أنهم قالوا له : « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون »[2] . وقول ملأ نوح هذا ، هو تعبير عن رأي ملأ قريش الذين كانوا يقولون لو كان محمد رسولاً حقاً ، لكان رجلاً من رجال قريش أو الطائف الأغنياء أصحاب المال ، فالرئاسة ولو كانت نبوة لا تكون إلا في رجل عظيم : « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »[3].وكانوا يسخرون من المسلمين ويستهزئون بهم حينما يرونهم خلف الرسول ، يدخلون المسجد الحرام ، وهم من الأراذل الضعفاء والفقراء ، فيضحكون ويقولون جاءكم ملوك الأرض كسرى وهرقل : فدين يكون اتباعه ومعتنقوه من الرقيق والضعفاء دين ليس له شأن ، ولا يمكن أن يكون مقبولاً حتى يكون أتباعه من الأغنياء ملأ القوم .

وقضى أغنياء مكة وسادتها لياليهم في مجالسهم ونواديهم ، وعادتهم أنهم كانوا يتنادمون ، يشربون ويسمعون القيان ، ويتنادرون ويسمعون القصص والنكات ، ثم يعودون الى بيوتهم ، ونجد في كتب أهل الأخبار أسماء ندماء قريش .

وأكثر الأغنياء من التدهن ، فالتدهن من النعيم ، وهم يتدهنون بالدهون الجيدة المطيبة . ويقال لكثرة التدهن (التورن)[4] . و (التودن) ، كثرة التدهن والتنعم[5].

وفي مقابل هذه الطبقة الغنية ، كان السواد فقيراً ، ومنهم معدمون تماماً لا يملكون شيئاً ، اذا عجزوا عن الحصول على قوت ، عمدوا الى الشجر فأكلوا ورقه أو ثمره إن كان برياً لا يملكه أحد ، أو الى الأعشاب فأكلوها . ورد في حديث (عتبة بن غزوان) : ما لنا طعام إلا ورق البشام[6] . أو الى (العلهز) فأكلوه . وهو طعام من الدم والوبر كان يتخذ في أيام المجاعة ، وذلك أن يخلط الدم بأوبار الإبل ثم يشوى في النار ، قيل وكانوا يخلطون فيه القردان ، وذكر انه الصوف ينفش ويشرب بالدماء ويشوى ويؤكل . ورد في حديث (عكرمة) :

---

١ سورة هود ، الرقم ١١ ، الاية ٢٧ .
٣ سورة الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الاية ١١١ .
٣ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الاية ٣١ .
٤ تاج العروس (٣٦٠/٩) ، (التورن) .
٥ تاج العروس (٣٦٠/٩) ، (ودن) .
٦ تاج العروس (٢٠٣/٨) ، (بشم) .

كان طعام أهل الجاهلية العلهز[1] . أو الى (القرف) ، لحاء الشجر ، فأكلوه[2] . وأكلوا (الوزين) ، وهو الحنظل يؤكل باللبن أيام الحاجة [3] .

وقد كان الناس يصابون بالشدة والعسر ، ويعبر عن ذلك بـ (الحشر) : والحشر إجحاف السنة الشديدة بالمال . واذا أصابت الناس سنة شديدة فأجحفت بالمال وأهلكت ذوات الأربع قيل حشرتهم السنة ، بمعنى أصابهم الضرر والجهد[4] .

وفي العربية ألفاظ عديدة تعبر عن الشدة والضيق والفقر وضنك الحياة ، وسوء الحال ، من ذلك (القشف) والضعف والشظف ، وغير ذلك [5] . وفي كثرة هذه الألفاظ تعبير عن سوء الأحوال وعن تبرم الناس من الحياة ومن شدتها عليهم في ذلك الوقت ، حيث كانت حياتهم في عسر وضيق .

سرقة أموال الآلهة :

وقد ورد في نص من نصوص المسند ، وعيد بأن ينزل الإله رب السماء (ذ سموي) غضبه ولعناته وكل سوء ، وأن يلحق البؤس (يبأس) بكل (نفس) إنسان لا يبالي بأوامر ذلك الإله ، فيسرق (ذ يسرقن) محرمه ، ويسرق من أموال محرمه (بقرم) بقراً ، أو غير ذلك كما أشير الى العقوبات التي ستنزل بذلك الإنسان المتطاول المخالف لأوامر الآلهة [6] . عقوبات العذاب (عذبن) تنزلها الآلهة على أولئك الأشخاص[7] .

ولهذا النص أهمية كبيرة بالنسبة الينا ، لأنه شاهد ناطق على أن الإنسان عند الحاجة وعند تصوره وجود منفعة وفائدة له لا يعبأ بسرقة آلهته وبالسطو على ما في معابدها من أموال وحلال ، وأنه لا يتردد من السطو على أوقاف تلك الآلهة

---

١ تاج العروس (٤/٦١) ، العلهز) .
٢ وان قرى قحطان قرف وعلهز فاقبح بهذا ويح نفسك من فعل
تاج العروس (٤/١٦) ، (العلهز) .
٣ تاج العروس (٩/٣٦١) ، (وزن) .
٤ تاج العروس (٣/١٤٢) ، (حشر) .
٥ تاج العروس (٦/٢٢١) ، (قشف) .
٦ REP. EPIGR. : 820.
٧ الفقرة السادسة من النص : REP. EPIGR. : 820.
Rhodokanakis, Stud. Lexi. II, S. 162.

وأخذ ما فيها . لا فرق في ذلك بين إنسان قديم ، كان للدين عليه وعلى مجتمعه نفوذ وسلطان،وبين مجتمع حديث تهذب فيه الانسان وارتفعت فيه مداركه ومزاياه فها نحن أمام جماعة سرقت معبد (محرم) إلآهها (ذو سمـوي) رب السماء ، ولم تكتف بسرقة ذلك المعبد ، بل سرقت البقر في الأرض المحبوسة على ذلك الإلـه : ولهذا أمر رجـــال ذلك المعبد الناطقين باسم ذلك الإلـه بكتابة ذلك النص ليقرأه الناس وليروا مـــا فيه من لعنات ستنزل على من يتجاسر على مخالفة أوامر ذلك الإلـه ، فيسرق معبده ويسرق بقره .

ويلاحظ ان التشريع قد اعتبر القبيلة والجماعة وحدة اجتماعية مسؤولة أمام الإلـه عن كل ما اقترفه أفرادها من سرقات وآثـام . فإذا سرق أحدهم من معبده أو ألحق أضراراً بأملاكه ، صارت القبيلة مسؤولة قانوناً وكلها أمامه ، وعليها إنزال عقابها بالفاعل ، بالاضافة الى العقاب الذي يفرضه المعبد عليه . وبإيقاع المسؤولية على القبيلة كلها ، يكون المعبد قد أمن بذلك من غدر الأفراد المجهولين ، ومن تطاول السرّاق المتسترين على أموال المعابد والآلهة،ومتى وجدت القبيلة انها مسؤولة عن ذلك بالتضامن ، فإنها تكون حذرة وعيناً على السرّاق والمفسدين ، لا سيما اذا ما علمت ان الآلهة تغضب عليها فتصيبها بالكوارث،فتقلّ بذلك حوادث السرقات بالنسبة الى أموال المعابد والأوقاف .

ويجب أن نتذكر هنا القصة التي يرويها أهل الأخبار عن سرقة (كنز الكعبة) وذلك قبل بنيانها بقليل ، ووضع السراق ما سرقوه عند (دويك) مولى لبني (مليح ابن عمرو) من خزاعة ، وقطع أهل مكة يده لذلك . وما ذكره أيضاً من أن سارقاً سرق من مالها زمن جرهم ، فانتزع المال منه[1] .

كذلك يجب أن نتذكر ان سارقاً سرق من بيت (عائشة) شيئاً ، فدعت عليه، فقال لها النبي : « لا تسبخي عنه بدعائك عليه » ، أي لا تخففي عنه إثمه الذي استحقه بالسرقة بدعائك عليه[2] . سرق بيت رسول الله مـــع انه مسلم مؤمن بالله وبرسوله،لم يردعه عن السرقة دينه ، وقد تكون الحاجة قد دفعته إلى تلك السرقة.

ووصلت الينا نصوص أخرى يفهم منها أن أشخاصاً استدانوا من أموال المعبد، فلم يؤدوها له ، وأن قوماً أكلوا حقوق الآلهة المفروضة عليهم من أعشار ونذور،

---

١ ابن هشام (١/ ١٣٠) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (١/ ١٣٠) .
٢ تاج العروس (٢/ ٢٦٠) ، (سبخ) .

وفي بعض منها إقرار من أصحابها بأنهم أكلوا حق الآلهة ، أو لم يتمكنوا من الوفاء بديونهم أو بنذورهم لها ، فهي تتوسل اليها بأن تغفر لأصحابها ما اقترفوه بسبب ذلك من إثم ، وأن تمن عليهم بالصحة والعافية . ويظهر أنهم أصيبوا بسوء ومرت بهم أوقات عصيبة ، جعلتهم ينسبون ما حلّ بهم الى فعل الآلهة ، والى غضبها عليهم بسبب أكلهم أموالها وحقوقها ، فكتبوا ما كتبوه يستغفرون ويتوبون، يرجون الصفح والعفو ، وقد وعد بعضهم بالوفاء بل ما أخذه ولوّاه .

دفن الذنوب :

ومن عادة العرب في الجاهلية ، أن أحداً منهم إذا جنى جناية ، أو نهب شيئاً أو أكل مالاً ، أو غش أحداً في تجارة ، أو أكلها بالباطل ، وأراد المجنى عليه العفو عمّا وقع ، فالتعويل في الصفح فيها على الدفن . وطريقتهم فيه أن تجتمع أكابر قبيلة الذي يَدْفن الذنب بحضور رجال يثق بهم المدفون له ، ويقوم منهم رجل ، فيقول للمجني عليه : نريد منك الدفن لفلان ، وهو مقر بما أهاجك عليه ، ويعدد ذنوبه التي أخذ بها ولا يبقي منها بقية ، ويقر الذي يدفن ذلك القائل على أن هذا جملة ما نقمه على المدفون له،ثم يحفر بيده حفيرة في الأرض، ويقول : قد ألقيت في هذه الحفيرة ذنوب فلان التي نقمتها عليه ، ودفنتها له دفني لهذه الحفيرة ، ثم يرد تراب الحفيرة اليها حتى يدفنها بيده . ولا يطمئن خاطر المذنب منهم إلا به ، إلا أنه لم تجر للعرب فيه عادة بكتابة ، بل يكتفي بذلك الفعل بمحضر كبار الفريقين ، ثم لو كانت دماء أو قتلى عفيت وعفيت بها آثار الطلائب[1] .

---

١ صبح الاعشى (١٣/٢٥٢) .

الفصل التاسع بعد المئة

الطبقة المملوكة

وأدنى الطبقات منزلة في المجتمع ، هي الطبقة التي تحترف الحرف ، وطبقة الرقيق ، أي الطبقة المملوكة ، التي تساوي الحيوان في كونها مخلوقات حية مملوكة لغيرها ، ليس لها في هذه الحياة حرية ولا رأي ولا اختيار . فقدت حريتها بالرق ، وصارت ملك سيدها ، وهي وما تنتجه ملك للمالك ، ويدخل في ذلك نسلها الى الأبد ، إلا اذا منّ المالك على عبده بفك رقبته ، فيصير حراً، وتنتقل الحرية الى نسله كذلك.

والرقيق سلعة من سلع السوق ، تباع وتشترى كما تباع وتشترى أية سلعة أخرى . وليس لها سعر ثابت معين ، انما يتوقف ثمنها على عمر تلك السلعة وعلى درجتها من الجمال وعلى نوع جنسها وعلى حذق ومهارة ودرجة فطنة وذكاء تلك السلعة الآدمية ، وعلى الأعمال التي تتمكن من القيام بها . ولم نعثر على نصوص جاهلية فيها أسعار الرقيق ، أما أخبار أهل الأخبار ، فقد ذكرت في بعض المناسبات أسعار بعض الرقيق ، فساعدتنا بذلك على تكوين رأي عن سعر هذه البضاعة الحية عند ظهور الاسلام .

فقد ذكرت كتب السير والتواريخ والصحابة ، أن (خديجة) ملكت (زيد ابن حارثة) اشتراه لها (حكيم بن حزام بن خويلد) ، بسوق عكاظ بأربعمائة درهم[1] . وذكرت أن (أبا بكر) اشترى (بلال بن رباح) مؤذن الرسول

---

١ ابن سعد ، طبقات (٤٩٧/١) ، الاحكام السلطانية ، لأبي يعلى (١٨٥) .

وهو من الحبش ، أي من الزنوج بخمس أواق ، وقيل بسبع أواق ، وقيل بتسع أواق ، ثم اعتقه . وكان خازناً له[1] . كما كان خازناً للرسول[2] . وبيع (يعقوب) المدبر والمعروف بـ (القبطي)،من (نعيم النحام) بثمانمائة درهم ، وقيل بسبعمائة أو تسعمائة[3] .

الاتجار بالرقيق :

وكان الرقيق إذ ذاك تجارة نشطة مربحة ، يكسب صاحبها منها،ربحاً طيباً،وكان المتاجر بالرقيق ، يشتري تجارته من الأسواق الخارجية ، ثم يأتي بسلعته الى أسواق جزيرة العرب لبيعها فيها ، في الأسواق الموسمية وفي الأسواق المحلية الدائمة ، مثل سوق مكة ويثرب والطائف ونجران وغيرها،ففي كل هذه الأسواق وأمثالها طلب شديد على الرقيق ، لأنه وسيلة من وسائل تأدية الأعمال والانتاج . وأسواق العراق وبلاد الشأم من أهم الأسواق التي موّنت جزيرة العرب بالرقيق الأبيض. أما السواحل الافريقية،فقد موّنتها بالرقيق الأسود . وهو أرخص ثمناً من الرقيق الأبيض ، وكفاءته محدودة،وقابلياته للعمل معينة ، وهو لا يجاري الرقيق الأبيض في كثير من الأمور .

والرقيق المملوك : بين الرق . والرِق ، الملك والعبودية . ورق صار في عبودية . واسترق المملوك فرق : أدخله في الرق . والرقيق العبد ، والرق العبودة. سُمّي العبيد رقيقاً لأنهم يرقون لمالكهم ويذلون ويخضعون[4] . و (المملوك) العبد . وقيل الذي سبي ولم يملك أبواه ، أو اذا ملك ولم يملك أبواه ، فهو عبد مملكة. « وفي الحديث : ان الأشعث بن قيس خاصم أهل نجران الى عمر في رقابهم وكان قد استعبدهم في الجاهلية ، فلما أسلموا أبوا عليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا كنا عبيد مملكة ولم نكن عبيد قن » . المملكة . أن يغلب عليهم فيستعبدهم

---

١ الاستيعاب (١/١٤٥) ، (حاشية على الاصابة) .

٢ الاصابة (١/١٦٩) ، (رقم ٧٣٦) .

٣ ارشاد الساري (٤/١١١) ، الاصابة (٣/٦٣٠) ، (رقم ٩٣٥٩) .

٤ اللسان (١٠/١٢٤) ، (رقق) ، تاج العروس (٦/٣٥٩) ، (رق) .

وهم في الأصل أحرار . والقنّ العبد ، ويقال المشترى[1] .

والعبد : المملوك خلاف الحر ، و (العِبِدّي) جماعة العبيد الذين ولدوا في العبودية . « وفي حديث عامر بن الطفيل : انه قال للنبي ، صلى الله عليه وسلم : ما هذه العِبِدّي حولك يا محمد ؟ أراد فقراء أهل الصفة ، وكانوا يقولون اتبعه الأرذلون »[2] .

و (القِن) عبد مملك هو وأبواه ، أو هو الخالص العبودة ، أو الذي ولد عندك ولا تستطيع اخراجه عنك[3] .

ومن الرقيق ، رقيق تبع الأرض ، فهو دائماً بها ، يباع معهــا ، ويشترى بشرائها ويقال له (امّي) في لغة العرب الجنوبيين . وأما (الأدم) ، فيمثلون الطبقات الدنيا ، من عمال يشتغلون بالأرض أو بالحرف ، فهم أحرار من حيث التنقل وامتهان الحرف ، غير انهم من الطبقات الدنيا ، وكذلك الـ (غبر) ، وهم من الفقراء المعدمين ، وطبقة (مى) (امى) ، وهم الأوباش غير المثقفين[4] . ولعل لفظة (الأمى) ، قد جاءت من هذا الأصل .

ونظراً لصغر مساحة الأرضين التي كانت تزرع في الحجاز ، فإننا لا نستطيع أن نجد اقطاعاً فيه على نمط الاقطاع الذي نراه في العربية الجنوبية ، ولا نجد فيه تذمراً بين الفلاحين على نحو ما وجدناه في اليمن ، كما لا نجد سادة أمــلاك في الحجاز لهم نفوذ واسع ، على نحو ما نجده في اليمن من تحــكم الأقيال والأذواء وبقية الملاكين في الحكم وفي المجتمع ، وفي شؤون رقيقهم المستخـدم في استغلال الأرض . وكل ما نجده ان أشخاصاً كانوا يمتلكون ينابيع أو عيونــاً أو آبار ، وقد زرعوا بمائها . وزراعة تعتمد على هذا النوع من الري لا يمكـن أن تكون زراعة كثيفة تدر على أصحابها ربحاً طائلاً . لذا فهي لا تحتاج الى تشغيـل عدد كبير من العبيد والأرقاء .

وكانت الغزوات والحروب أهم مورد لتجارة الرقيق . وهو مورد قديم معروف . فالغالب المنتصر يأخذ من يقع في قبضته من أسرى ، ويعده ملكاً له . وقد كان

---

١ اللسان (٤٩٣/١٠) ، (ملك) .
٢ اللسان (٢٧١/٣) ، (عبد) ، تاج العروس (٤٠٩/٢) ، (عبد) .
٣ تاج العروس (٣١٤/٩) ، (قن) .
٤ Grohmann, S. 124.

في إمكان الأسرى فك أسرهم بـ (الفداء) . أما من لم يتمكن من دفع الفدية منهم ، فيعد بحسب القانون ملكاً لآسره أو للدولة بحسب القوانين النافذة ، فيجوز في هذه الحالة امتلاك الأسير وتشغيله في الأعمال التي يكلفه إياها سيده ، ويجوز له إطلاق حريته وعدّه حرّاً معتق الرقبة وبيعه في أسواق النخاسة . وقد كان تجار العبيد يفدون الى هذه الأسواق ، ليبتاعوا منها العبيد الذين يحتاجون اليهم ، ويأخذونهم معهم الى بلادهم ، ليبيعوهم مرة ثانية في أسواق النخاسة ، لمن هو في حاجة اليهم .

والحروب مورد من موارد الرزق للمحاربين الشجعان الذين يتمكنون من أسر من يبرز لهم ، والأسر خير للآسر من محارب يقتله ، فقتله لا يفيده من الناحية المادية شيئاً ، سوى ما قد يقع في يديه من أسلابه . أما أسره ، فإنه يفيده فائدة مادية ، فعلى الأسير ترضيته بدفع فدية مرضية ، إن أراد فك أسره وتحرير رقبته، وإلا صار عبداً مملوكاً لآسره ، له أن يمتلكه وله أن يبيعه ، والغالب أنه يبيعه في حالة عجزه عن تقديم فدية ، أو عجز أهله عنها ، كي يتخلص بذلك آسره من أخطار هروبه منه ، فيأخذه الى الأسواق ويبيعه فيها .

وقد يقع القريب أسيراً في يدي قريب له ، فيكون مملوكاً لـه . ولا تسقط صلة الرحم حق التملك . وللأسير فداء نفسه حتى إن كان أخاً لآسره أو عماً له[1] . ولكن الأغلب أن يتوسط الناس بين الآسر وأسيره ، لفك أسره ، وأن تتغلب عاطفة الدم على المطالبة بالمال .

ومن أسباب الرق الفقر ، ونجد في كتب الحديث والأخبار أن عوائل باعت أولادها من ذكور وأناث ، من الفقر . وكان بعض من باع أولاده يشترط أن يكون الـولاء لهم : والولاء سبب من أسباب الارث . جاءت (بريرة) الى (عائشة) ، وكانت مكاتبة،ولم تكن قضت من مكاتبتها شيئاً ، وكانت كاتبتهم على تسع أواق في كل سنة وقية ، فقالت : « يا أم المؤمنين اشتريني فإن أهلي يبيعوني ، فاعتقيني . قالت عائشة : نعم . قالت بريرة : إن أهلي لا يبيعوني حتى يشترطوا ولائي . قالت : لا حاجة لي فيك . فسمع ذلك النبي ، فقال : ما شأن بريرة ؟ فذكرت له شأنها ، فقال : اشتريها فأعتقيها وليشترطوا ما شاؤوا.

---

١ ارشاد الساري (٤/٣١٥) ، (باب اذا أسر أخو الرجل أو عمه هل يفادى ؟) .

فاشترتها واعتقتها . فقال النبي : الولاء لمن أعتق وإن اشترطوا مائة شرط[1] .

وقد وجد الرقيق في كل مكان من جزيرة العرب ، لا سيما في المستوطنات الزراعية والقرى ومواضع التجار والتعدين ، لحاجة هذه المواضع الى الأيدي العاملة والى من يدافع عنها ، حتى انهم كانوا يقذفون بعبيدهم في الحروب للدفاع عنهم. ولما أراد (مجاعة) مصالحة (خالد بن الوليد) على (الصفراء والبيضاء ونصف السبي والحلقة والكراع وحائط من كل قرية ومزرعة) ، قال (سلمة بن عمير الحنفي) : « لا والله لا نقبل ، نبعث الى أهل القرى والعبيد فنقاتل ولا نقاضي خالداً ، فإن الحصون حصينة والطعام كثير ، والشتاء قد حضر »[2] . فجعل (سلمة بن عمير) أهل القرى والعبيد في جملة من يتكل عليهم في قتال (خالد). ولما كان القتال بين (خالد) وبين (مسيلمة) واستحر القتل ، « قال أهل القرى : نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم . فقال لهم أهل البادية : إن أهل القرى لا يحسنون القتال ، ولا يدرون ما الحرب ! فسترون اذا امتزنا من أين يجيء الخلل ! فامتازوا »[3] . ونجد في رواية أخرى ان (خالداً) صالح (مجاعة) على (الصفراء والبيضاء والحلقة وكل حائط رضانا في كل ناحية ونصف المملوكين)[4] . بدلاً من جملة : « ونصف السبي » التي ترد في روايات أخرى . والمملوك العبد ومن دخل في الرق . وهذا مما يدل على وجود عدد كبير من العبيد في اليمامة في ذلك العهد ، لحاجة أهل اليمامة وهم أهل زرع في الغالب اليهم ، لتشغيلهم في الأعمال الزراعية وفي التعدين والحرف .

ونجد اشارة الى الموالي في بعض كتب الرسول الى سادات القبائل . فلما كتب الرسول عهده لقيس بن سلمة الجعفي ، جاء فيه : « كتابٌ من محمد رسول الله لقيس بن سلمة بن شراحيل : إني استعملتك على مران ومواليها ، وحريم ومواليها والكلاب ومواليها »[5] . وفي النص على ذكر الموالي في هذا العهد دلالة على انهم كانوا يكونون طبقة ظاهرة في (جعفى) .

---

١ ارشاد الساري (٤/٤٣٩) .
٢ الطبري (٣/٢٩٨) ، (ذكر بقية خبر مسيلمة الكذاب وقومه من أهل اليمامة) .
٣ الطبري (٣/٢٩٢) .
٤ الطبري (٣/٢٩٩) .
٥ ابن سعد ، الطبقات (١/٣٢٥) .

وأما (أهل القرى) ، فهم المستوطنون الذين أغراهم عثورهم على الماء على السكن حوله وعلى الاشتغال بالزراعة ، كما استقروا حول مواضع المعادن وفي المستوطنات القديمة التي نسبت الى (طسم وجديس) . فهم طبقة خاصة من أهل اليمامة ، وهم حضر اليمامة ، وأصحاب العمل والثراء ولهم العبيد لحاجتهم اليهم . أما الطبقة الثانية ، فأهل البادية . ممن سكن بيوت الوبر ، ولم يقم في بيوت من طين . ولم يفلح ولم يزرع ، بل كان رزقه على الإبل .

وكان لأهل القرى حصونهم ، يحتمون بها من الأعراب ومن كلّ من يريد بهم سوءاً ، ولهم مخازنهم يخزنون بها طعامهم ، ولهم آبارهم في داخل قراهم وحصونهم ، فإذا حوصروا كان لديهم الماء ، فلا يحتاجون الى مصالحة المحاصر لهم لعطشهم ولعدم وجود الماء عندهم ، وتكون حصونهم عند الحصار قد امتلأت بهم ، وقد أغلقوا أبوابها ، وقد احتلوا أبراجهم وسطوحها لرمي المحاصر بالسهام وبالماء الحار وبالحجارة ، وحولها خنادق تمنع العدو من الدنو من حائط الحصن ، وقد رفعوا جانب الخندق المقابل للحصن حتى يصعب على من يريد تسلقه وتسوره الوصول الى الحصن . وبعض هذه الحصون عالية سميكة الجدران، ذكر (الهمداني) أن جدر (الهيصمية) ، وهي لبني (صُهيب) من (بني قشير) يركض عليها أربع من الخيل ، وكان من الصعب أن ينال رأسها السهم . وذكر عن (القصر العادي) بالأثل ، أنه قصر منيف من عهد (طسم) و (جديس) ، أقيم على حصن من طين ثلاثين ذراعاً دكّة ، ثم بني الحصن . ووصف حصوناً كثيرة بعضها من حصون ما قبل الإسلام ، بنيت لحماية أهلها من الغارات[1] .

و (القصب) دون الحصون ، ذكرها (الهمداني) بقوله : « وبالمذارع وغيرها قصب دون الحصون لطاف تسمى الثنية »[2] . والقصبة القصر أو جوفه ، يقال كنت في قصبة البلد والقصر والحصن ، أي جوفه . والقصب من البلد : المدينة والقرية[3] .

وورد في خبر مصالحة (خالد بن الوليد) (بني حنيفة) ، انه صالحهم

---

١ الصفة (١٥٩ وما بعدها) .

٢ الصفة (١٥٩) .

٣ تاج العروس (١/١٣١) ، (قصب) .

« على الرقيق ولم يصالحهم على أنفسهم » ، وأنه أخذ منهم رقيقاً ، كان فيه أمة سندية سوداء ، لم تكن من بني حنيفة ، وانما كانت من رقيقهم ، فصارت الى (علي بن أبي طالب)[1] . وفي وجود هذه السندية في اليمامة دلالة على وجود الرقيق المستورد من الهند في جزيرة العرب في الجاهلية،وقد كانت أسواق البحرين وبقية أسواق العربية الشرقية تشتري الرقيق الوارد عليها من الهند ، فلا يستبعد وصول رقيق السند وغير السند من بلاد الهند الى اليمامة والى أماكن أخرى من جزيرة العرب قبل الاسلام .

ويعرف بائع الرقيق بالنخاس ، والنخاسة حرفته ، والنخاس في الأصل بياع الدواب[2] .

وقد كان تجار الرقيق يشترون الرقيق ويزوّجونه ، ليجنوا نسله لهم ، فيبيعوه في الأسواق . يفعلون ذلك فعل من يربي الخيل أو الإبل أو البقر ، لتكثير نسله وبيعه . وبذلك يكثر مال صاحبه ، وينسب المولد الى الأرض التي ولد بها،والتي يكون سيده مقيماً بها ، والى قبيلة سيده أيضاً ، فيقال هو من مولدي السراة ، وهو من مولدي هذيل .

ويعرف (العبد) المولود في الرق بالوليد . قال بعض علماء اللغة : الوليد من يولد في الرق[3] . و (المولدة) الجارية المولودة بين العرب كالوليدة . وورد عربية مولدة ورجل مولد اذا كان عربياً غير محض[4].وترد لفظة (مولد) ومن (مولدي) في تراجم بعض الأشخاص . فقد كان (أبو كبشة) مولى رسول الله من مولدي (مكة) ، وقيل من مولدي أرض دوس[5] . وكان (أنسة) مولى الرسول من مولدي (السراة)[6] . وكان (أبو موهبة) وهو من موالي الرسول كذلك ، مولداً من مولدي (مزينة)[7] .

---

١ المعارف (٢١٠) .
٢ تاج العروس (٤/٢٥٥) ، (نخس) .
٣ تاج العروس (٢/٥٤٠) ، (ولد) .
٤ تاج العروس (٢/٥٤٢) ، (ولد) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، الاصابة (٤/١٦٤) ، الاستيعاب (٤/١٦٤) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٣٩٨) ، (ويقال أبو موهبة وأبو موهوبة) ، الاصابة (٤/١٨٨) ، (رقم ١١٠٥) .

وتطلق لفظة (غلام) على الولد الى ان يشب ، ويطلق على الغلام الذي يكون مملوكاً ، أو يخدم غيره . وقد يطلق أيضاً على الكهل[1] . وكان (شقـران) ، واسمه (صالح بن عدي) ، غلاماً للرسول ، وكان حبشياً[2] . وكان (سفينة) غلاماً للرسول ، وهو من أصل فارسي[3] . وكان (مدعم) غلاماً للنبي ، وكان من مولدي (حسمى)[4] . وهبه له (رفاعة بن زيد الجذامي) ، ويظهر انـه كان من الزنج ، إذ عرف بالأسود[5] . وكان (كركرة) غلاماً للنبي[6] . وكان نوبياً ، أهداه له (هوذة بن على الحنفي اليمامي) فأعتقـه[7] . وكان (رباح) غلاماً للرسول[8] . وكان أسود ، وكان يستأذن عليه ، ثم صيره الرسول مكـان (يسار) بعد قتله ، فكان يقوم بلقاحه . وكان يؤذن له[9] .

وتطلق لفظة (خادم) و (خادمة) على من يقوم بالخدمة ، خدمة البيت، أو السفر ، وكل خدمة أخرى يطلبها المالك . وفي حديث فاطمة وعلي : « اسألي أباك خادماً تقيك حرّ مـا أنت فيه »[10] . ويخدم الخدم في البيوت ، يقومون بتنظيفها وبالطبخ والخبز وما شاكل ذلك من أعمال . وكان (أنس بن مالك بن النضر) الأنصاري خادماً لرسول الله . وكان يخرج معه يخدمه،وهبته أمه للنبي[11] ولم يكن عبداً بل كان حراً من الأنصار،نذرت أمه ان تجعله خادماً لرسول الله ، ووفت بنذرها ، وكان كثير المال .

ومن خدم رسول الله ، (سلمى) أم رافع ، امرأة أبي رافع[12] ، و(خضرة)[13]،

---

١ تاج العروس (٩/٥) ، (غلم) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٤٩٧/١) ، ابن سعد ، اصابة (١٥٠/٢) ، (رقم ٣٩١٦) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٤٩٨/١) ، ابن سعد ، اصابة (٥٦/٢) ، (رقم ٣٣٣٥) .
٤ ابن سعد ، طبقات (٤٩٨/١) .
٥ الاصابة (٣٧٤/٣) ، (رقم ٧٨٥٨) .
٦ ابن سعد ، طبقات (٤٩٨/١) .
٧ الاصابة (٢٧٧/٣) ، (رقم ٧٤٠٢) .
٨ ابن سعد ، طبقات (٤٩٨/١) .
٩ اصابة (٤٩٠/١) ، (رقم ٢٥٦٥) .
١٠ تاج العروس (٢٦٩/٨) ، (خدم) .
١١ الاصابة (٨٤/١) ، (٢٧٧) ، ابن سعد ، طبقات (٤٩٧/١) .
١٢ ابن سعد ، طبقات (٤٩٧/١) ، الاصابة (٣٢٦/٤) .
١٣ ابن سعد ، طبقات (٤٩٧/١) ، الاصابة (٢٧٧/٤) ، (رقم ٣٤٤) .

و (رضوى)[١] ، و (ميمونة بنت سعد)[٢] . و (مارية) جدة المثنى بن صالح ابن مهران ، مولى (عمرو بن حريث)[٣] . و (مارية) المكناة بـ (ام الرباب)[٤] و (موهبة)[٥] .

الموالي :

ويعد المولى في طبقة المملوكين ، وللفظة (مولى) معان عديدة ، منها المعنى الذي نقصده منها في هذا المكان ، وهو (العبد)[٦] . ولا يشترط في المولى أن يكون أعجمياً ، أي من أصل غير عربي ، فيقع الولاء على العرب كذلك ؛ كأن يؤسر ، أو يقع في غنيمة قطاع طرق ، فيكون ملكاً لهم ، يبيعونه في في الأسواق ، أو يطلبون فداءه من إلّه ، وإلا بيع مع الرقيق . وقد كان بمكة وسائر الأمكنة الأخرى عدد كبير من هؤلاء ، ومن جملتهم (زيد بن حارثة ابن شراحيل الكلبي) ، مولى خديجة بنت خويلد ، زوج الرسول ، ثم مولى الرسول . فقد كان من كلب . أصابته خيل من (بني القين بن جسر)، وكان قد خرج مع أمه لتزيره أهله ، فباعوه بسوق حباشة من أسواق العرب ، وهو يومئذ ابن ثمانية أعوام ، ثم أعتقه الرسول[٧] .

وكان (ثوبان) مولى رسول الله من العرب من أهل اليمن ، وقيل من السراة ، ابتاعه النبي بالمدينة فأعتقه ، ويظهر انه مات ولم يكن يملك شيئاً[٨] . وكان (فضالة) مولى رسول الله من أهل اليمن[٩] .

وقد يكون للعبد مالكين أو أكثر . كأن يقع في أسر رجلين أو أكثر ،

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، الاصابة (٤/٢٩٥) ، (رقم ٤٢١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، الاصابة (٤/٣٩٩) ، (رقم ١٠٢٧) .
٣ الاستيعاب (٤/٣٩٨) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٤/٣٩٢) ، (رقم ٩٨٦) .
٤ الاستيعاب (٤/٣٩٩) ، (حاشية) ، الاصابة (٤/٣٩١) ، (رقم ٩٨٥) .
٥ الاصابة (٤/٣٩٧) ، (رقم ١٠٢٥) .
٦ تاج العروس (١٠/٣٩٩) ، (ولى) .
٨ الروض الانف (١/١٦٤) .
٩ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٨) ، الاصابة (١/٢٠٥) ، (رقم ٩٦٧) .
ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٨) ، الاصابة (٣/٢٠٢) .

فيصير عبداً لها أو لهم . أو أن يتشارك رجلان أو أكثر في شراء عبد ، فيكون مملوكاً لمشتريه . وكان بعضهم يتشاركون في شراء العبيد . وقد يبيع بعضهم حصصهم من العبيد لشركائهم أو لغيرهم ، وقد يمنّ بعض منهم على عبده ، أو عبيده ، فيتنازل عن حقه فيه أو فيهم ، ويبقى العبد مملوكاً للشريك الآخر أو لبقية الشركاء ، لحقهم فيه . وكان منهم من يرضى بعتقه على أن يدبر له ما بذمته من حق[1] .

ومن حق سيد العبد بيعه متى شاء ، أو إهداءه الى من يريد . فهو ملك ، ومن حق المالك أن يفعل بما يملكه ما يشاء ويريد[2] .

وقد تضخم عدد الموالي بين أهل الحضر وبين أهل المدر ، حتى صار لهم شأن يذكر ، ولما ظهر الاسلام كان الموالي من العوامل المؤثرة في التوازن السياسي عند الحضر وعند القبائل ، حتى ذكروا في العقود لكثرة عددهم وللحقوق المترتبة لسادتهم عليهم ، فلما عقد الرسول عقده مع وفد (جعفى) من قبائل اليمن ، واستعمل الرسول (قيس بن سلمة) من بني (مرّان بن جعفى) ، كتب له كتاباً فيه : « اني استعملتك على مرّان ومواليها ، وحريم ومواليها ، والكلاب ومواليها »[3] . و (الكلاب) ، أود ، وزبيد ، وجزء سعد العشيرة ، وزيد الله ابن سعد ، وعائذ الله بن سعد ، وبنو صلاءة من بني الحارث بن كعب . ولما عقد الرسول عهده مع (وفد همدان) ، وكتب لقيس بن مالك بن سعد بن لؤي الأرجي كتاباً ، ولاه فيه على قومه ، جاء فيه انه ولاه « على قومه همدان : أحمورها وغربها وخلائطها ومواليها أن يسمعوا له ويطيعوا »[4] . وذكر الموالي مع همدان والأحمور والغرب والخلائط يشير بالطبع الى أهميتهم والى كثرة عددهم في ذلك العهد .

والأحمور : هم قُدم ، وآل ذي مران ، وآل ذي لعوة ، وأذواء همدان . والغرب : أرحب . ونِهم ، وشاكر ، ووادعة ، ويام ، ومرهبة ، ودالان ، وخارف ، وعذر ، وحجور[5] .

---

١ ارشاد الساري (٤/٣٠٣) .
٢ الاصابة (٣/٣٧٤) ، (رقم ٧٨٥٨) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٥) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤١) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤١) .

ولما كتب الرسول الى (ربيعة بن ذي مرحب) الحضرمي وآله ، يدعوه الى الإسلام ، أشار الى (رقيقهم) ، في الكتاب ، مما يدل على أن عددهم كان كبيراً[1] .

بيع الولاء :

وقد نهى الإسلام عن بيع الولاء وعن هبته . وهو أنه إذا مات (المُعْتَق) ورثه شرعاً (مُعْتِقه) حسب قوانين أهل الجاهلية ، وكانت العرب تبيعه وتهبه مع أنه كالنسب فلا يزول بالإزالة . وقد كانوا في الجاهلية ينقلون الولاء بالبيع وغيره ، فإذا أعتق رجل عبده ، صار له حق ولائه ، وله ولورثته حق بيع ذلك الولاء ، على نحو ما كان لهم من حق الحصول على إرثه ، فنهى الشارع عن ذلك[2] .

رزق المملوك :

وما يحصل عليه العبد من عمل يديه ، يكون لسيده ، لأنه ملك يمينه ، مملوك الرقبة . وإذا شهد غزواً أو حرباً فلا يسهم له بسهم في الغنائم ، لكونه مملوكاً[3]. وإذا حارب سيده حارب معه ، وإذا أمر بالاشتراك في غزو أو حرب وجبت عليه الطاعة وبذل النفس في القتال ، دون أن يصيب من غنائمه أي شيء .

وإذا عهد السيد الى مملوكه القيام بتجارة ، فإن التجارة وأرباحها تكون لسيد العبد . وكان الرسول قد أعطى (العباس) عمه عشرين غلاماً ، تجروا بماله[4] . وكان لـ (تميم الداري) خمسة غلمان يتاجرون بالخمر . اسم أحدهم (فتحا) ، وكان من بيت المقدس ، فلما رآهم الرسول مع (تميم) قال له : « بعني غلمانك لأعتقهم » ، فقال له تميم : قد اعتقتهم يا رسول الله . و (فتحا) هو الذي

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .

٢ زاد المسلم (٥/٥٠٣ وما بعدها) .

٣ الاصابة (٢/١٥٠) ، (رقم ٣٩١٦) .

٤ المقريزي ، امتاع الاسماع (١/٦١) .

أسرج مسجد النبي . وكان يسرج بسعف النخل . فقدم (فتحا) بالقناديل والزيت والحبال وأسرج المسجد ، فسماه الرسول (سراجاً)[1] .

واذا أجاز مالك عبد لعبده الاشتغال بالتجارة ، صار من حقه الاتجار حسب ما اتفق عليه . ويقال للعبد المأذون له في التجارة : (المجيز)[2] .

وقد يقرر السيد ضريبة يفرضها على عبده ، يدفعها اليه في كل يوم ، وعلى العبد أداءها له[3] . فيشتغل العبد في السوق أو يقوم بأي عمل يتمكن منه لأداء ما فرضه سيده عليه . ونظراً الى عدم تمكن بعضهم من الوفاء بما فرض عليه ، فقد عمد بعضهم الى السرقة ليسدّ مبلغ ما فرض عليه . وفرض بعض منهم على إمائه أن يزنين ، ليأتين اليهم بما فرضوه عليهن من ضريبة ، فقد ذكر علماء التفسير ان (عبدالله بن أبي بن سلول) كان يكره فتياته على البغاء ، ليأخذ أجورهن ، وروي عن (عبدالله بن عباس) انه قال : « كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا يأخذون أجورهن ، فقال الله : لا تكرهوهن على الزنا من أجل المنالة في الدنيا »[4] . وفي منع ذلك وتحريمه نزل في القرآن الكريم : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً »[5] .

وتكون المسبية ملكاً لسابيها ، له أن يصيبها متى شاء ، وله أن يبقيها عنده حتى تموت ، أو يموت هو ، فتنتقل إرثاً لورثته ، وله أن يبيعها متى أراد . وكان منهم من يصيب المسبيات،غير أنه يعزل ، فلا ينزل فيها ، حتى لا يحصل لها الولد المانع من البيع . وذلك لحبهم للأثمان[6] .

ومن الحرف التي شاعت بين الرقيق الحجامة ، وقد كان سادتهم يأخذون أجورهم منها . ومن الحجامين الذين ورد اسمهم في الكتب (سالم الحجام) ، وقد حجم الرسول وشرب دم المحجمة التي فيها دم الرسول تبركاً به[7] .

---

١ الاصابة (١٧/٢) ، (٣١٠٣) .
٢ تاج العروس (٢١/٤) ، (جوز) .
٣ ارشاد الساري (١٣٩/٤) .
٤ تفسير الطبري (١٠٣/١٨ وما بعدها) ، الاستيعاب (٤٠١/٤) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٣٩٤/٤) ، (رقم ١٠٠٣) .
٥ سورة النور ، الرقم ٢٤ ، الاية ٢٣ ، أسباب النزول (ص ٢٤٥ وما بعدها) .
٦ ارشاد الساري (١١٠/٤) .
٧ الاصابة (٦/٢) ، (رقم ٢٠٥١) .

العتق :

العتق خلاف الرق ، وهو الحرية . يقال عتق العبد ، أي خرج عن الرق . ويقال : هو مولى عتاقة ، ومولى عتيق ، إذا كان عبداً فعتق ، فصار مولى لسيده ، تربطه به رابطة الولاء ، فهو في حمايته ورعايته[1] . ولما فتح الرسول مكة عفا عن أهلها وأطلقهم فلم يسترقهم ، فعرفوا بالطلقاء . « وفي الحديث : الطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف ، بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة . وفي رواية: بعضهم أولى ببعض . وفي حديث حنين ، خرج ومعه الطلقاء ، وهم الذين خلى عنهم يوم فتح مكة وأطلقهم فلم يسترقهم،واحدهم طليق »[2] . والطليق الأسير الذي أطلق أساره وخلى سبيله ، لمنة أراد الآسر أن يمن بها على أسيره[3] .

وقد ينجح العبد المعتق في حياته بعد نيله حريته ، فيصير من ملاك العبيد . ومن بين الصحابة جماعة كانت من الرقيق في الجاهلية ، فلما أسلمت عتقت وتحسن حالها فاشترت لها الرقيق .

المكاتبة :

فالعتق هو فك الرقبة ، وعودة الحرية الى العبد . ومن أبواب فك الرقبة وتحريرها من العبودية المكاتبة ، وهو أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتك على كذا منجماً اذا أديته ، فأنت حر ، ويبين عدد النجوم ، وقسط كل نجم : فإذا أدى العبد ما عليه ، صار حراً . وقد عرف ذلك في الاسلام أيضاً . وقد كان (سيرين) والد (محمد بن سيرين) المشهور ، من سبي (عين التمر) فاشتراه (أنس بن مالك) الأنصاري ، وكان كثير المال ، فأراد (سيرين) فك نفسه من العبودية ، وسأل أنساً المكاتبة ، فأبى ، فانطلق (سيرين) الى (عمر) ، فأمره أن يكاتبه ، وتلا عليه « فكاتبوهم إن علمتم ان فيهم خيراً » . وذكر في رواية أخرى ، ان أنساً كاتبه على عشرين ألف درهم ، فأتاه بكتابته ، فأبى ان

---

١ تاج العروس (٣/٧) ، (عتق) .
٢ تاج العروس (٤/٧) ، (عتق) .
٣ تاج العروس (٤٢٥/٦) ، (طلق) .

يقبلها منه إلا نجوماً ، فأتى (عمر) فذكر ذلك له ، فقال : أراد أنس الميراث ، وكتب الى أنس ان اقبلها من الرجل ، فقبلها . وورد في صحيفة المكاتبة : هذا ما كاتب أنس غلامه سيرين . كاتبه على كذا وكذا ألفاً ، وعلى غلامين يعملان مثل عمله[1] . وكاتب (عبدالله بن عمر) غلاماً له يقال له شرف على خمسة وثلاثين ألف درهم ، فوضع من آخر كتابته خمسة آلاف[2] .

وذكر (الدميري) ان (المكاتبة) لفظة اسلامية[3] . ولكني أشك في صحة هذا الرأي ، لأن التكاتب كان معروفاً عند الجاهليين ، وهو عقد من العقود ، يؤدي العبد بموجبه ما فارقه عليه من أداء المال ، فإذا أداه استحق العتق ، وإن عجز عن أداء نجم يحل عليه ، فلسيده تعجيزه[4] . ودليل ذلك ما ورد عن المكاتبة في القرآن الكريم من قوله : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم ، فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً »[5] . فنسق الآية يدل على وجود التكاتب عند الجاهليين ، واذا وجد ، فلا يستبعد استعمالهم لفظة (المكاتبة) قبل الاسلام .

أما (التنجيم) ، فمن (نجم المال)،إذا أداه نجوماً ، أي يؤديه عند انقضاء كل شهر منها نجماً ، حتى أنهم كانوا يؤدون الديات نجوماً . قال زهير في ديات جعلت نجوماً على العاقلة :

ينجمها قوم لقوم غرامــة ولم يهريقوا بينهم ملء محجم

« وفي حديث سعد : والله لا أزيدك على أربعة آلاف منجمة تنجيم الدين . هو أن يقدر عطــاؤه في أوقات معلومة متتابعة مشاهرة أو مساناة . ومنه تنجيم المكاتب »[6] . ويظهر من ذلك أنهم كانوا في الجاهلية ينجمون حق العتق،ويكتبون بذلك كتاباً .

---

١ ارشاد الساري (٤/٣٢٩) ، (باب المكاتب) ، تفسير الطبري (١٨/٩٨ وما بعدها)
٢ تفسير الطبري (١٨/١٠١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (١/٤٤٥) ، (كتب) .
٤ تاج العروس (١/٤٤٥) ، (كتب) .
٥ سورة النور ، الرقم ٢٤ ، الاية ٣٣ ، تفسير الطبري (١٨/٩٨ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٩/٧٢) ، (نجم) .

وكان منهم من يوصي بفك رقبة عبد له ، أو أمة بعد وفاته . وللفقهاء آراء في بيع (المدبر) ، وهو العبد الذي علق سيده عتقه على الموت[1] .

سوء حالة العبيد :

ونظراً الى ما كان يعانيه الرقيق من معاملة غليظة شديدة قاسية ، ومن قسوة ينزلها بهم أصحابهم عند صدور أي شيء منهم لا يرضى عنه أصحابهم ، فقد فرّ كثير منهم من ساداتهم ، وخرجوا على أمرهم ، فأبقوا مع علمهم بما في الإباق من عقوبة صارمة يدخل فيها قتل الآبق . وانضم بعض منهم الى الخارجين على عرف قبيلتهم من الضلال والصعاليك والخلعاء وألفوا عصابات أخذت تعتدي على المارة وتغزو العشائر ، فتصيب منها مغنماً . وقد تكتل قوم من كنانة ومزينة والحكم والقارة ومن اتبعهم من العبيد في جبل تهامة ، وأخذوا يغتصبون المارة ، وقد كتب اليهم الرسول ، انهم إن آمنوا بالله وبرسوله وعملوا بسنة الاسلام ، فعبدهم حرّ ومولاهم محمد . ومن كان منهم من قبيلة لم يرد اليها ، وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه ، فهو لهم ، وما كان لهم من دين في الناس رد اليهم[2] . ويظهر أنهم كانوا قد هددوا الأمن في ذلك الوقت ، وقطعوا السبيل ، مما أدى بالرسول الى الكتابة اليهم بالدعوة الى الإسلام وبترك الفتنة .

وقد فرّ بعض الرقيق من ساداتهم ، ودخلوا في الاسلام ، وقد خاف سادات قريش والطائف من هذه الظاهرة ، لما قد تتركه من أثر عليهم وعلى أوضاعهم الاقتصادية ، والعبيد ركن قويم في نظمهم الاقتصادية ، فحسنوا بعض الشيء من أحوال رقيقهم ، وشددوا على من شعروا ان في نفسه ميلاً الى الاسلام .

وقد أمر الاسلام بالعطف على الرقيق ففي القرآن : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم . إن الله لا يحب

---

١ ارشاد الساري (٤/٣١٣) .

٢ ابن سعد (١/٢٧٨) .

من كان مختالاً فخوراً »[1] . وفي كتب الحديث أحاديث في الحث على إنصاف المماليك ، أي الرقيق . منهـا حديثه : « إن اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس،ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم مـا يغلبهم فأعينوهم »[2] . وحث في أحاديث أخرى على إنصاف الجواري والاحسان اليهن ، وعتقهن وتزويجهن إن أمكن[3] . كما حث العبيد على خدمة سادتهم باخلاص . ونهى سادة الإماء من اكراههن على الزنا ، لأخذ أجورهن[4] .

تعرب العبيد والموالي :

وقد أشار أهل الأخبار الى أقوام من العبيـد ، تعربوا واستقروا فصاروا من العرب . كما أشار الكتبة اليونان واللاتين الى أقوام من الأعاجم نزلت سواحل جزيرة العرب ، لأغراض تجارية وعسكرية ، فأقامت بها واستقرت ، وتعربت ونسيت أصلها ، واتخذت نسباً عربياً . وقد عثر الباحثون والمنقبون المحدثون على بقايا هياكل بشرية ، وبقايا عظام بشر،في مواضع متعددة من السواحل والبواطن ، تدل على ان أصحابها من الأعاجم ومن الافريقيين الوافدين على جزيرة العرب ، وقد أقاموا واستقروا بها وماتوا فيها. كما سبق أن تحدثت عن ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب .

ومن المتعربة قوم عرفوا بـ (الصعافقة) . قال أهل الأخبار إن آباءهم كانوا عبيداً استعربوا أو أنهم كانوا قوماً من بقايا الأمم الخالية ضلت أنسابهم . وقد ذكروا أن مساكنهم كانت في اليمامـة في موضع يقال له (صعفوق) ، به قناة يجري منها نهر كبير ، أو أنهم بالحجاز . وقيل ان (الصعافقة) خول لبني مروان ، أنزلهم اليمامة ، ومروان بن أبي حفصة منهم[5] .

---

١ النساء ، الرقم ٤ ، الاية ٣٦ ، تفسير الطبري (٥/٥٠) .
٢ ارشاد الساري (٤/٣٢٠ وما بعدها) .
٣ المصدر نفسه .
٤ المصدر نفسه كذلك .
٥ تاج العروس (٦/٤٠٧) ، (الصعفوق) .

السخرة :

السخرة، تكليف شخص وقهره على ما لا يريده . وسخره تسخيراً أذله وكلفه ما لا يريد وقهره وأجبره على عمل بلا أجرة ولا ثمن[1] . وقد عرفت السخرة في العربية الجنوبية ، إذ كانت تلك الحكومات تقوم بإنشاء الأبنية العامة والطرق والجسور والسدود ، وبتشييد القصور على طريق (السخرة) . وهي طريقة كانت معروفة في كل أنحاء العالم في ذلك الوقت ، وكانت معروفة الى عهد قريب . وذلك بأن تطلب الى الموظفين والى المدن والقرى وسادات القبائل تقديم ما يتمكنون من تقديمه من أتباعهم لتشغيلهم قسراً بأعمال تريد القيام بها . فيقدم كل منهم ما يتمكن من جمعه ، ويساقون سوقاً الى مكان العمل للعمل هناك حتى ينتهي العمل.

وتتكلف الحكومة الانفاق على العمال الذين تكلفهم القيام بالأعمال العامة ، تدفع اليهم عطاياهم ، وتعرف بـ (شبو) ، وتعني (الرزق) عيناً ، وذلك بأن تقدم اليهم الطعام اللازم لعيشهم في مقابل اشتغالهم بتلك الأعمال ، كما يقوم المعبد بتقديم ذلك اذا كان المعبد هو صاحب العمل[2] . وترد لفظة (أشبى) بمعنى أعطى في عربية القرآن الكريم[3] ، وهو معنى قريب من معنى لفظة (شبو) في لغة المسند .

والسخرة عمل مرهق ، يقوم به المسخر المسكين دون مقابل ، فهو لا يحصل وهو في موقع العمل حتى على أكل بطنه إلا بشق الأنفس ، من الإهمال وسرقة القوت وسوء الاستعمال ، ثم انه قد يحبس أياماً وأشهراً وهو في هذا الوضع ، لا يدفع له شيئاً ليستعين به في تمشية أموره ، أو في إعالة عائلته البعيدة عنه ، اذا كان متزوجاً ، أو معيلاً لأهله ، وطالما تعرض للمرض ، ومنهم من كان يموت من الارهاق والجوع ، ولذلك ، كان الهرب من السخرة شيئاً مألوفاً ، على الرغم من تشديد الحراسة على معسكرات العمل ومواضع تجمع المسخرين ، وعلى الرغم من العقوبات الشديدة التي تفرض على الهارب في حالة القبض عليه .

---

١ تاج الغروس (٣/٢٦٠) ، (سخر) .

٢ Glaser 1150, Halevy 192, 199.

٣ القاموس (٤/٣١٦) ، تاج العروس (١٠/١٩٢) ، (شبا) .

وكانت الحكومات تسرف في استخدام السخرة وتشتط، فتنجز بالسخرة كثيراً من الأعمال التي هي من صميم عملها وواجبها . ولن يتأثر بالسخرة إلا الطبقات الفقيرة التي لا تملك دفاعاً عن نفسها ، ولا تجد من يساعدها ويعاونها . أما سادات القبائل ووجوه البلد والأشراف وأصحاب الأرض، فلا تقع السخرة عليهم ، وإنما يرسلون ما يطلب منهم من أتباعهم للقيام بالأعمال المطلوبة ، وقد يسخرونهم لأداء أعمال خاصة بهم ، لا صلة لها ولا علاقة بالأعمال العامة وبالنفع العام . ثم إن مفهوم القيام بالأعمال العامة وبالاشتغال بمشاريع النفع العام ، لا يطبق لدى هذه الحكومات ولدى بعض الحكومات حتى في هذه الأيام إلا على هذه الطبقات الفقيرة ، فعليها وحدها القيام بهذه الواجبات . ومثل هذه النظرة الى السواد الأعظم من الأمة ، جعل هذا السواد يكره حكوماته ، ويكره الحاكمين ، ويتهرب من الخدمة ما أمكنه ذلك ، لأنه لا يشعر بحكومة تعطف عليه ، ولا بحاكمين ينظرون الى مصالحه ، وإنما هم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم هم الناس ، وأما أبناء الشعب فإنما خلقوا لخدمته ليس غير .

ولما قام أبرهة باصلاح سد (مأرب) ، طلب من الأقيال وسادات القبائل وأصحاب الأرض مدّه بالمسخرين ، فأرسلوا اليه ما طلب منهم ، واشتغلوا في اصلاح السد وفي العمل على رتق ما صدع منه . فقاموا بنقل الحجارة الصلدة من مواضع مقالع الحجر ، وعملوا مسخرين في أعمال البناء ، ولم يدفع لهم شيئاً سوى الأكل ، وقد بقوا هناك حتى تم العمل ، فسمح لهم بالعودة الى ديارهم .

والمفروض في أخذ المسخرين من المدن والقرى والقبائل ، أن يكون ذلك متناسباً مع عدد السكان ، وعدد رجال القبيلة . فالمدينة الكبيرة تقدم عدداً يزيد على ما تقدمه المدينة الصغيرة أو القرية ، والقبيلة الكبيرة تقدم عدداً يزيد على عدد ما تقدمه القبيلة الصغيرة ، غير ان ذلك لا يطبق بصورة عملية ، فالعادة أن تفرض الأعمال الشاقة على الضعفاء والفقراء ، وربَّ قرية تقدم من المسخرين ما يزيد على ما تقدمه مدينة كبيرة . وهكذا الحال بالنسبة الى القبائل الضعيفة والقبائل القوية .

وقد كان الرقيق في أوائل من استجاب الى الإسلام ، تخلصاً من رق العبودية ، كان العبد إذا استطاع التخلص من سيده ، ودخل في الإسلام صار حراً طليقاً . وهذا مما أغضب سادة قريش وغيرهم من الملاك أصحاب العبيد، وجعلهم يقولون: إن محمداً قد أفسد علينا عبيدنا . ولما حاصر الرسول (الطائف) نزل اليه رقيق من رقيق أهل الطائف ، فأسلموا واعتقوا [1] ، وجعل الرسول ولاء هؤلاء العبيد لسادتهم حين أسلموا [2] ..

---

١ البلاذري ، فتوح (٦٧) .
٢ الاصابة (٢/٤٥٤) ، (رقم ٥٤٤٥) .

الفصل العاشر بعد المئة

الاتاوة والمكس والاعشار

والإتاوة : الرشوة والعطاء والخراج ، يقال أدى إتاوة أرضه أي خراجها ، وضربت عليهم الإتاوة ، أي الجباية [1] . وهي ما كان يفرضه الملوك وأصحاب الأرض وسادات القبائل من حقوق على رعاياهم وأتباعهم ، ويجبرونهم على أدائها لهم . وهي بالطبع جباية مكروهة ، كان الناس يتهربون منها كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، ويتهربون من رؤية وجوه عمالها ، الذين كانوا يكرهونهم كرهاً شديداً لاشتطاطهم عليهم ، وتعسفهم بهم ، وأخذهم أكثر مما يجب أخذه في أغلب الأحوال، ليأكلوا منها ما يتمكنون من أكله ، فقد كانت الجباية من موارد الرزق الحرام والكسب الغير المشروع للجباة .

ويقال للخراج والإتاوات (الطعم) ، يقال فلان تجبى له الطعم ، أي الخراج والاتاوات . ويقال جعل السلطان ناحية كذا طعمة لفلان ، أي مأكلة له . وفسر بعضهم الطعمة بشبه الرزق وبالمأكلة [2] . وفي هذا التفسير تفسير لوجهة نظر الجاهليين والإسلاميين بالنسبة الى الاتاوة وكل أنواع الجباية، كانوا يرون أنها مأكلة للحكام ورزقاً يأخذونه من أتباعهم ، ليعتاشوا به مع ما يعتاشون عليه من ارزاق، مثل الاتجار في السوق واستثمار الملك ، بينما لا ينال الأتباع منه أي شيء ، إلا بتوسل واستعطاف ودعاء ومدح وتمرغ على أعتاب أبواب الحكام .

---

١ تاج العروس (١٠/٧) ، (أتو) .
٢ تاج العروس (٨/٣٧٨) ، (طعم) .

و (المكس) هو ما يأخذه الماكس من جباية من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية ، أو الدراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق . والمكوس، هي الضرائب التي كان يأخذها العشارون ، والمكس النقص ، وبين المكس والنقص صلة وعلاقة ، فتأدية المكس ، هو نقص يصيب مال المؤدي للمكس . وقد أشير اليه في شعر (جابر بن حني) التغلبي ، الذي يقول :

أفي كل أسواق العراق اتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم[١]

ومعنى هذا أن الناس كانوا يدفعون إتاوة في أسواق العراق ، يدفعون عن كل ما يبيعونه مكساً هو درهم . وهو مكس يزيد بزيادة ثمن البيع ، فإذا كان ثمن المباع كثيراً ، زاد مكسه ليتناسب مع الثمن .

وتقابل لفظة (مكس) لفظة « Telos » في اليونانية ،و « Toll » في الانكليزية . ويقال للموضع الذي تمكس البضائع والسلع فيه « Telonion » [٢] . ويجب أن نميز بين هذه الضريبة وبين لفظة « Tribute » التي هي في مقابل « Mas » ،لأن المكس، ضريبة تؤخذ عن السلع وعن حق مساهمة الحكومة في الأرباح ، بينما الثانية ضريبة اجبارية تؤخذ من الناس[٣] . وقد ترجمت لفظة « Tribute » ب (جزية) وجباية واتاوة في اللغة العربية . يقال جبى الخراج جباية . وورد في شعر للجعدي :

دنانير يجبيها العباد وغلة على الأزد من جاء امرىء قد تمهلا[٤]

ونجد علماء اللغة يجعلون لفظة (الماكس) في مرادف لفظة (العشار) . وعرفوا المكس ، بأنه ما يأخذه العشار ، وهو ماكس ، فالعشار هو الماكس، وورد في الحديث : لا يدخل صاحب مكس الجنة . قيل صاحب مكس هو العشار[٥] . والعشار هو قابض العشر ، والعشر أخذ واحد من عشرة . فالماكس ، اذن هو الجابي القابض للمكس ، وهو العشر ، أي عشر ما يباع ، وقد غلبت عليه

١ تاج العروس (٤/٢٤٩) ، (مكس) ، المخصص (١٢/٢٥٣) .

٢ Hastings, p. 948.

٣ Hastings, p. 948.

٤ تاج العروس (١٠/٦٥ وما بعدها) ، (جبى) .

٥ تاج العروس (٤/٢٤٩) ، (مكس) .

لفظة (العشار) لأنه يأخذ العشر ، عشر أموال الناس ، ولأنه يعشرهم . وقد كان (العشر) ، من أهم سمات الجاهلية ومعالمها ، « وفي الحديث إن لقيتم عاشراً فاقتلوه ، أي إن وجدتم من يأخذ العشر على ما كان يأخذه أهل الجاهلية مقيماً على دينه ، فاقتلوه ، لكفره أو لاستحلاله لذلك إن كان مسلماً وآخذه مستحلاً وتاركاً فرض الله ، وهو ربع العشر »[1] .

فالمكس ، إذن هي الضرائب التي تؤخذ عن المبيعات والمشتريات ، أي عن التجارة ، يجبيها جباة المكس ، أي العشارون من الأسواق ومن المواضع المخصصة لمرور التجار بها على الحدود ، ولا صلة لهذا العمل بعمل جباية الجزية والخراج .

ولفظة (الإتاوة) و (العشر) و (المكس) والجزيـة من الألفاظ التي لا يشك في كونها كانت معروفة عند الجاهليين . وقد أشرت الى ورود لفظـة (الإتاوة) في شعر (جابر بن حني التغلبي) . ووردت في شعر للجعدي . هو:

موالي حلف لا موالي قرابة ولكن قطيناً يسألون الاتاويا

أي هم خدم يسألون الخراج[2] . وكانت الكلمة على ما يظهر عامة ، بمعنى ضريبة من غير تعيين .

وأما (الخراج) ، فللعلماء في أصلها ومعناها كلام . وقد وردت لفظة (خرجاً) في القرآن الكريم . وردت في سورة الكهف : « فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً »[3] . وقد قرأها بعض المفسرين (خراجاً) ، وذهبوا الى أنها بمعنى الأجر ، وقال بعض منهم إن الخراج عند العرب هو الغلة[4] . ووردت في سورة (المؤمنون) : « أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين»[5]. وفسر العلماء اللفظتين بمعنى الأجر[6] .

---

١ تاج العروس (٣/٤٠٠) ، (عشر) .
٢ تاج العروس (١/٧) ، (اتو) .
٣ الكهف ، الرقم ١٨ ، الاية ٩٤ .
٤ تفسير الطبري (١٦/١٩) .
٥ المؤمنون ، الرقم ٢٣ ، الآية ٧٢ .
٦ تفسير الطبري (١٨/٣٣) ، روح المعاني (١٨/٤٨) .

وذهب علماء اللغة الى ان الخــرج بمعنى الإتاوة تؤخذ من أموال النــاس ، كالخراج ، وهما واحد لشيء يخرجه القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم . وقال بعضهم : الخراج الفيء والخرج الضريبة والجزيـة . وذكروا ان الخراج الـذي وظفه (عمر) على السواد وأرض الفيء ، فإن معناه الغلة أيضاً ، لأنه أمر بمساحة السواد ودفعها الى الفلاحين الذين كانوا فيه على غلة يؤدونها كل سنة ، ولذلك سمي خراجاً ، ثم قيل بعد ذلك للبلاد التي فتحت صلحــاً . ووظف ما صولحوا عليه على أراضيهم خراجية،لأن تلك الوظيفة أشبهت الخراج الذي ألزم به الفلاحون وهو الغلة ، لأن جملة معنى الخراج الغلة . وقيل للجزية التي ضربت على رقاب أهل الذمة خراج ، لأنه كالغلة الواجبة عليهم ، وفي الأساس : ويقال للجزيـة الخراج ، فيقال أدى خراج أرضه والذمي خــراج رأسه . وعن ابن الأعرابي الخرج على الرؤوس والخراج عـلى الأرضين . وقال الرافعــي : أصل الخراج ما يضربه السيد على عبده ضريبة يؤديها اليه ، فيسمى الحاصل منه خراجاً . وقال القاضي : الخراج اسم ما يخرج من الأرض ثم استعمل في منافع الأملاك كريـع الأرضين وغلة العبيد والحيوانات »[1] .

والخراج ، هو (طسقا) « Tasqa » في التلمود،و« Maddata » (مدّاثـاً) في الموارد السريانية النصرانية[2] . ولفظة (طسقا)،هي من الألفاظ الإرمية الأصل. وتعرف ضريبة الأرض بـ « Halk' »و « Halak »وبـ « Minda »(ميندا)وبـ« Midda » في لغة بني إرم . ووردت باسم (طسقا) وبـ (مناثا ذ ــ ملكا) « Mnata d-Malka » في التلمود ، وباسم (طسقا) و (مدّثا) « Maddata » في السريانية[3] .

ولفظة (طسقا) معروفة في العربية كذلك ، فهي عندهم (الطسق)، وتؤدي المعنى ذاته المفهوم منها في التلمود . ذكر علماء العربية أن الطسق ، ما يوضع من الخراج المقرر على الجربان . وكتب (عمر) الى (عثمان بن حنيف) في رجلين من أهل المدينة أسلما إرفع الجزية عن رؤوسهما وخذ الطسق من أرضيهما . وذكر بعض علماء اللغة أنها لفظة معربة أو مولدة[4] . فهي ضريبة الأرض . وتقابــل

---

١ تاج العروس (٢٨/٢) ، (خرج) .

٢ Die Araber, I, S., 632, G. Widengren, The Status of the Jews in the Sassanian Empire, p. 149.

٣ Die Arabe, I, S., 632, Brockelmann, Lexi. Syriac., 374.

٤ تاج العروس (٤٢٣/٦) ، (الطسق) .

(فورس) « Phoros » في اللغة اليونانية . وتؤخذ عيناً في الغالب ، أي غلة [1] .

وأما الجزية ، فقد ذكر العلماء ، انها خراج الأرض ، وما يؤخذ من الذمي. ورد في الحديث : ليس على مسلم جزية ، وورد : من أخذ أرضاً بجزيتها [2] ، وورد في القرآن الكريم : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون » [3] . وقد ذكر المفسرون ان الجزية الخراج عن الرقاب [4] . ويظهر من الحديث ومن كتب الفقه ، ان المراد بها ضريبة الرأس. ولما كتب الرسول الى (المنذر بن ساوى) ، بشأن أتباعه ، قال له : « ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » [5] . وقد أمر الرسول عماله بأخذ الجزية من أهل الكتاب ، ممن يريد البقاء في دينه . فهي اذن ، بهذا المعنى ضريبة تؤخذ من غير المسلمين ، في مقابل الزكاة التي تؤخذ من المسلمين .

وضريبة الرؤوس معروفة ، وهي تؤخذ من المغلوب على أمره ، ولا سيما بعد الحروب . فتفرض على المغلوب ضريبة على رأس كل انسان بالغ . ولذلك أنفت تغلب من أدائها ، ولم تقبل بتأديتها ، لأن في أدائها مذلة وصغاراً . وهي ضريبة دائمة ، تلازم من فرضت عليه ما دام في حكم من فرضها ، وهي تختلف عن الفدية التي تفرض على الأسير لفك أسره ، وعن المبلغ الجماعي الذي يفرض على المغلوب في مقابل التصالح معه ، وهو ما يعبر عنه في العربية بـ « وصالحهم على كذا وكذا » يؤدونه جزاء العفو عنهم .

وعبر عن الجزية بلفظة « Keraga » « Keraga » في التلمود . وبـ « Kesef Rexa » « Kesef Resha » ، أي ضريبة الرأس في الموارد النصرانية السريانية ، وبـ « Belo » (بلو) في لغة بني إرم وبـ « Kesap Gulgulta » في التلمود أيضاً [6] . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن لفظة (الجزية) و (جزية) من أصل سرياني هو « Gzita » ، وذهب بعض آخر الى أنها

---

١ Hastings, p. 948.

٢ تاج العروس (١٠/٧٣) ، (جزى) .

٣ التوبة ، الرقم ٩ ، الاية ٢٩ .

٤ تفسير الطبري (١٠/٧٧) .

٥ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٦٣) .

٦ Die Araber, I, S. 632, Die Aramaische Sprache, I, 149.

من أصل فارسي هو « Gazitak » و (كزيد) بمعنى ضريبة يدفعها الذمي ، أي الذي أمنته الحكومة على حياته وماله وعرضه . وذهب بعض آخر الى أنها من أصل عربي[1] . وتقابل هذه الضريبة ما يقال له « Kensos » في اليونانية ، وهي ضريبة كان يأخذها الرومان من اليونان عن رؤوسهم ، وهي لا تدفع غلة أو سلعة وإنما تؤخذ منهم نقوداً ، أي بالعملة الرومانية[2] .

وقد كانت الحكومات العربية الجنوبية تتقاضى العشر أيضاً عن البيوع وتوسعت حكومة (قتبان) في العشر ، فجعلته إتاوة كل وارد أو ربح يصيبه الرجل ، سواء أكان ذلك من البيع والشراء أو من الإجارة والإرث والزرع وكل عمل آخر[3] . ويظهر أن العشر،قد أخذ عن الزرع أيضاً في حكومة (سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) أيضاً ، وفي حكم الحبش على اليمن . وقد وردت لفظة (عشر) و (عشورت) في كتابات المسند ، وتعني العشر،الذي نبحث عنه[4].

وأشار (بلينيوس) ، الى العشر ، فذكر ان العرب الجنوبيين كانوا يعشرون اللبان وما تنتجه بلادهم من بخور ، يعشرهم رجال الدين باسم الإلـه (سن) (سين)[5] . ومعنى هذا ان المعبد كان يعشر المتمكنين من أصحاب الحاصل ، فيأخذ منهم عشر غلتهم من هذه المواد . وأعتقد انهم كانوا يعشرون كل مال يدخل اليهم ، ولا يقتصر هذا التعشير على المواد المذكورة ، أي على الغلة الزراعية ، بل يشمل ذلك كل ربح مهما كان نوعه،جاء عن الزراعة أو التجارة . وهذا التعشير لكل شيء ، كان متبعاً عند غير العرب كذلك[6] . ونجد (صموئيل) يهدد شعبه بأنه سيعشر زرعه وكرومه وغنمه،ويأخذ جواريه وعبيده وشبانه وبناته، فيجعلهم عبيداً له ، يسخرهم كالحمير إن لم يستجيبوا له ، ويسمعوا لما طلبه منهم[7].

---

١ Die Araber, I, S., 633, C. Brockelmann, Lexl. Syriac., (1928), 111, G. Widengren, p. 154. غرائب اللغة (٢٢٣) .

٢ Hastings, p. 948.

٣ راجع الفقرة الخامسة من النص المرسوم بـ : Glaser 1601 Rhodokanakis, Katab. Texte, I, S. 7.

٤ Rhodokanakis, Stud. Lexl., II, S., 58.

٥ Pliny XII, 65.

٦ صموئيل الاول ، الاصحاح الثامن ، الاية ١١ ــ ١٧ ، Hastings, p. 944.

٧ صموئيل الاول ، الاصحاح الثامن ، الاية ١ وما بعدها .

والعشر ، معروف عند غير العرب أيضاً ، وهو يقابل (اش — رو — و) « Isch-ru-u » في الآشورية ، أي (عشر) ، وهو ما يدفع عن الأموال والذهب عندهم،و (مَعَشير) « Ma'asher » في العبرانية ، وقد جرى التعشير عندهم قبل أيام موسى ، ونص عليه في التوراة . فكانوا يقدمون عشر أموالهم صدقة تزكيهم، يدخل فيه البقر وبقية الماشية ، وتوسع (الفريسيون) في ذلك ، فأدخلوا في العشر، عشر النعناع والشبث والكمون[1] .

وقد أشير في نصوص المسند الى الضرائب التي كان على المتبايعين في الأسواق أداؤها الى الحكومة . فعلى كل متعامل في السوق دفع (همد) الى جباة السوق . والـ (همد) ما يؤخذ من المتعاملين في السوق عن اتجارهم بها . فهي ضريبة البيع والشراء[2] . وقد حذرت تلك النصوص المخالفين المتهربين من دفع ما عليهم من الـ (همد) بإنزال أقصى العقوبات عليهم بما في ذلك مصادرة أموالهم ، إن حاولوا أكل حق الحكومة ، والتهرب من دفع حصتها من الربح .

وهناك ضريبة أخري ذكرت في النصوص كذلك ، هي (فرعم) ، أي (فرع) . يظهر أنها كانت عندهم تطوعية ، لا يجبر الإنسان على أدائها ، وإنما هي صدقة يتصدق بها من يشاء .

وقد كانت الحكومات العربية الجنوبية قد عينت جباة يجلسون في الأسواق وعند مدخل الحدود لجمع الضرائب المفروضة على البيع والشراء والاتجار وحق المرور . أما ضرائب غلات الأرض ، فلها جباتها ، كما كان يلتزمها كبار أصحاب الأرض وأصحاب الأقطاع ، فيدفعون للحكومة حصتها من الزرع ، وهم يجبون تلك الحصة من صغار المزارعين التابعين لهم أو المستأجرين لأرضهم ، فيأخذون منهم كل ما يمكنهم أخذه للاستئثار به ، واعطاء القليل منه الى الحكومة . وبذلك كان صغار المزارعين والمستأجرين للأرض يلاقون عنتاً شديداً من الضرائب المفروضة عليهم .

وقد كان المتولون لأمر الأسواق يأخذون عشور التجار . لهم جباة يجوبون السوق ، ليأخذوا عُشر ما يباع . فكان (الأكيدر) يعشر سوق دومة الجندل،

---

١ راجع سفر التكوين ، الاصحاح ١٤ ، الاية ٢٠ ، والاصحاح ٢٨ ، الاية ٢٢ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/١٠٣) ، (عشر عشور أعشار) .

٢ REP. EPIGR. 4337.

وربما يتولاها سادة (كلب) ، أو بعض الغساسنة ، وكان (قنافة) الكلبي ، ممن ينافس الأكيدر على دومة يتولى جباية العشر كذلك . وكذلك كان المتولون لأمر الأسواق الأخرى يأخذون العشر . فالعشر ، الجباية المألوفة التي يدفعها التجار عن تجاراتهم في كل ما يبيعون ويشترون ، وعن مكس السلع التي تنقل لبيعها في الأسواق الخارجية ، فقد كان التجار العرب إذا دخلوا حدود بلاد الشأم، عشرهم رجال المكس على الحدود . واذا تاجروا في أسواق بلاد الشأم عشرهم العشارون في هذه الأسواق .

وكان (زنباع بن روح) ممن يعشر من يمر به بمشارف الشأم[1] . وهو من (جذام) . وكان يعمل للحارث بن أبي شمر الغساني . ذكر ان (عمر) خرج تاجراً في الجاهلية مع نفر من قريش ، فلما وصلوا الى فلسطين ، قيل لهم إن (زنباع بن روح) يعشر من يمر به ، فعمدوا الى اخفاء ما معهم من ذهب ، فلما وجده ، أغلظ عليهم في العشر ، ونال من عمر ، فقال (عمر) في ذلك :

متى ألق زنباع بن عمرو ببلدة لي النصف منه يقرع السن من ندم
ويعلم أن الحي حي ابن غالب مطاعين في الهيجا مضاريب في الهيم[2]

ويقال لعمال العشور والجزية (الحُشّار) ، وفي حديث وفد ثقيف اشترطوا أن لا يعشروا ولا يحشروا،أي لا يندبون الى المغازي ولا تضرب عليهم البعوث، وقيل لا يحشرون الى عامل الزكاة ليأخذ صدقة أموالهم،بل يأخذها في أماكنهم[3] .

وورد في كتاب الرسول لعبد يغوث بن وعلة الحارثي : « ولا عشر ولا حشر » ، وورد في كتابه الى (يزيد بن المحجل الحارثي) « ان لهم نمرة ومساقيها ووادي الرحمن من بين غابتها ، وانه على قومه من بني مالك وعقبة لا يغزون ولا يحشرون » ، وجاء مثل ذلك في كتابه لقيس بن الحصين ذي الغصة: « لا يحشرون ولا يعشرون »[4] ، ووردت هذه الجملة في كتابه لبني جعيل من

---

١ تاج العروس (٤٦١/٥) ، (قرع) .
٢ الاصابة (٥٣٣/١) ، (رقم ٢٨١٧) .
٣ تاج العروس (١٤٢/٣) ، (حشر) .
٤ ابن سعد (٢٦٨/١) .

بلي[1] ، وقد فسّر (ابن سعـد) جملة « وانهـم لا يحشرون » ، بقوله : « لا يحشرون من ماء الى ماء في الصدقة » ، وعبارة : « لا يعشرون » بقوله: « ولا يعشرون يقول في السنة الا مرة » . وفسر (السعاية) الواردة في الكتاب بالصدقة[2] . وعندي ان الحشر يجب أن يكون في معنى له صلة بالجـلاء ، أو بالجمع لسخرة وتكليف بقيام عمل إجباري . وقـد ورد في كتب اللغة ان الحشر الجلاء ، ولذلك قيل في بني النضير عندما أجلوا انهم أول حشر حشر الى أرض المحشر ، كما قالوا يـوم المحشر وأرض المحشر . والحشر أيضاً بمعنى إجحاف السنة الشديدة بالمال[3] . فاللفظة اذن علاقة بالاجلاء وبالسخرة وبالندبـة الى الحرب أو للقيام بعمل إجباري جماعي . ولا زال أهل العراق يستعملون لفظة (الحشور) في معنى جمع الناس للسخرة ، ولأي عمل تريده الحكومة إجباراً .

و (العشر) كما يتبين من النصوص الجاهلية ومن الموارد الاسلامية ، أقـدم ضريبة معروفة عند العرب ، وهي ضريبة عامة تشمل أرباح التجارة ، كما تشمل أرباح الزراعة . وقد عرفت في جميع أنحاء جزيرة العرب . وهي في الواقع من أقدم الضرائب المعروفة في التاريخ فرضتها الحكومات والأديان على الأتباع منـذ أقدم العصور .

ولم أقف على وجود (العُشّار) في مكة أو في يثرب أيام الجاهليين ، ولكن هذا لا يعني نفياً لوجود هذه الضريبة عند أهل المدينتين . ولا استبعد وجودهـا عندهم ، وذلك أنهم كانوا يأخذونها من المتبايعين في الأسواق لصرفها في الشؤون العامة المتعلقة بمجتمعها ، فقد كان لكل سوق في الجاهلية عشارون يجمعون العشر فلا داعي لاستثناء سوقي مكة والمدينة من العشر .

وقد سبق لي أن ذكرت أن سادات مكة كانوا قد اتفقوا فيما بينهم عـلى أن يقدموا من أموالهم مـالاً للرفادة ولتحمل الأشناق ونفقات الدفاع عن المدينة . يدفعها كـل انسان حسب قابليته المالية وامكانياته ، ولعلهم كانوا يأخذون من أرباحهم التي يحصلون عليها من القوافل نصيباً معلوماً قبل توزيعها على المساهمين ، ليكون عوناً للمدينة في تمشية أعمالها وفي الدفاع عن شؤونها .

---

١ « وأنهم لا يحشرون ولا يعشرون » ، ابن سعد (١/ ٢٧٠) .

٢ ابن سعد (١/ ٢٧٠ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٣/ ١٤١ وما بعدها) ، (حشر) .

الطعمة :

وترد في كتب أهل الأخبار لفظة (طعمة) ، بمعنى المأكلة ، ورد أن النعمان ابن المنذر جعل لبني لأم من طيء ربع الطريق طعمة لهم لصهر كان لهم عنده أي ان النعمان جعل حق الطريق لهم ، يجبون من المارة جبايتهم فيأخذونها لهم ، ولا يعطونها للملك ، لأنه كان قد تنازل عن حقه فيها اليهم . يقال فلان تجبى له الطعم ، أي الخراج والإتاوات[1] . وكان من عادة الملوك ، التنازل عن حق جباية الإتاوة عن بعض الأرضين أو الطرق لسادات القبائل ، تأليفاً لقلوبهم ، واسكاتاً لألسنتهم ، ولأنهم يعلمون أن نفوذهم على تلك الأرضين أو القبائل لم يكن ثابتاً قوياً ، بل كان بالإسم فقط ، وإنهم لا يتمكنون من أخذ جبايتها ، لذلك كانوا يتظاهرون أمام الناس بالتنازل عن حقهم في تلك الضرائب .

ضرائب الزراعة :

وعلى أصحاب الأرض والمزارعين دفع نصيب الحكومة من الحاصل . وقد عينت الحكومات موظفين لجباية حصتها ، عرفوا بـ (حزرو) في نصوص المسند . وواحدهم (حزر)[2] . (الحازر) والخارص في لغة القرآن الكريم . ويذكر علماء اللغة ان (الحزرة) من المال خياره . وفي الحديث ان الرسول بعث مصدقاً ، فقال له : لا تأخذ من حزرات أنفس الناس شيئاً ، خذ الشارف والبكر يعني في الصدقة[3] .

والخرص الحزر والحدس والتخمين . هذا هو الأصل في معناه . ومنه خرص التمر والنخل ،لأن الخرص انما هو تقدير بظن لا احاطة . وفاعل ذلك (الخارص). وما يقدر هو خرص الأرض ، وخرص النخل . وكان هؤلاء الخراص يذهبون في المواسم الى البساتين والمزارع لخرصها . وفي الحديث كان النبي يبعث الخراص على نخيل خيبر عند ادراك ثمرها فيحزرونه رطباً كذا وتمراً كذا[4] .

---

١ تاج العروس (٨/٣٧٨) ، (طعم) .
٢ Rhodokanakis, Katba. Texte, II, S. 75, 99.
٣ تاج العروس (٣/١٣٨) ، (حزر) .
٤ تاج العروس (٤/٣٨٥) ، (خرص) .

ولا نستطيع أن نأتي بتأريـخ ثابت معين عن مبدأ فرض الضرائب الزراعية والضرائب الأخرى في العربية الجنوبية ، ولا في أي مكان آخر من جزيرة العرب، لعدم ورود نصوص جاهلية عن ذلك . ويظهر ان ما نسميه بالضرائب ، كان في بادىء أمره صدقة يدفعها المتمكن عن نفسه وعن أمواله ، قربة للآلهة وزكاة لنفسه ولأهله ولأمواله ، لترضى عنه الآلهة ، ولتمنّ عليه بالصحة والعافية . ومن هذا القبيل النذور ، التي كان يكثر منها الانسان في السابق فكانت تكوّن مورداً حسناً من موارد الحكومة والمعبد . فلما ظهر الملوك ، وصارت الحكومـة حكومتهم ، فرضوا ضرائب إلزامية لتكون وارداً يمون الملوك وحكومتهم بما يحتاجون اليه من مال ونفقات .

والضرائب عالية في الغالب ، بالنسبة الى المزارعين المالكين لأرضين صغـيرة وللمزارعين الذين يشتغلون بأجور ، أو يستغلون الأرض بعقود فعلى هـؤلاء دفع عوائد أخرى الى سادتهم أصحاب الملك،والى رجال الدين الذين يطالبون المزارعين بدفع زكاة زرعهم لهم قسراً ، فلا يبقى لدى هـؤلاء من غلتهم إلا النزر اليسير الذي لا يكاد يكفيهم . فعاش الفلاح في ضنك من العيش . وهذا مما أثر عـلى الوضع العام للدولة بالطبع .

أما كبار الملاكين وسادات القبائل والأشراف،فلم يكونوا يدفعون الى حكومتهم إلا جزءاً صغيراً من دخلهم الذي يحصلون عليه من الزرع . فقد كانوا يتحايلون عليها في تقدير غلاتهم، كما كانوا يحملون المزارعين والمستأجرين لأملاكهم وأفراد قبيلتهم العبء الأكبر في دفع الضرائب . فقد كانوا هم الذين يقومون بجمع الغلّة وتوزيعها وافراز حصة الحكومة وحصة المعبد والحقوق الأخرى المترتبة على المزارع. فكانوا يتناولون حصصهم كاملـة وزيادة ، ويحملون مزارعيهم ومن يشتغل في خدمتهم دفع حصة الحكومة والمعبد ، فلا يقع عنهم من باقي الحصـة إلا الشيء القليل . يقع ذلك والحكومة عارفة به ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، لنفوذ كبار الملاكين وسادات القبائل وسلطانهم على أتباعهم الموروث من العادة والعرف .

ولضمان تحصيل حصص الحكومة من الـزرع ، كان جبـاة الضرائب يأتون المزارع ، فيأخذون ما قدروه وخرصوه من خيار الزرع ويتركون الباقي للفلاح . وقد يثبتون حصة الحكومة عند حلول أوان التقدير ويعينونهـا ، فإذا حان وقت

جمع الحاصل ، جاءوا فأخذوا غلة ما عينوه . ويقولون لهذا الذي تأخذه الحكومة من الغلة (رزم)[1] . يأخذونه وهو بعد على الأرض ، قبل نقله الى موضع التجميع والتخزين .

والمزارع الصغير مغبون في كل شيء ،وكذلك الفلاح. كان على المزارعين والفلاحين أن يبدأوا عملها بالاستدانة من وكلائهم الذين يتوكلون عنهم في تصريف حاصلهم أو من رب الأرض ، فيحملونهم ربا الدين ويتحكمون عندئذ في أمورهم ، ويحصلون منهم على ربح يؤثر عليهم ، حتى اذا انتهى الموسم ، أو حال الحول وجد هؤلاء أنفسهم وقد أثقلتهم ديونهم ، وتكاثرت عليهم التزاماتهم ، وقد صاروا تابعين لأصحاب الأرض ، لا يستطيعون ترك أرضهم إلا بعد ترضيتهم وتسوية ديونهم .

وكما يفعل بعض الناس في الزمن الحاضر من التهرب من دفع الضرائب بمختلف الطرق ، كذلك تهرب الناس في الجاهلية من دفع الضرائب الى الحكومات، بالرغم من العقوبات الصارمة التي فرضت على المتهربين والمخالفين . وفي ضمن ذلك الاستيلاء على الحاصل الزراعي كله ، وتهديم المذاخر التي قد يخفى فيها الحاصل وتهديم أملاك صاحبه . ونجد في أحد النصوص ان من يخفي حاصله ولا يدفع ما عليه ويخفيه في القنن جمع قنة (قنت) ، أي المخازن ويتستر عليه ، فإنه يصادر عليه ويؤخذ منه ، بل يستولي على كل ما يعثر عليه في المزرعة ويتلف ، ويعاقب بالقتل أيضاً[2] .

أما بالنسبة الى الضرائب الزراعية عند أهل العربية الغربية أو أهل المواضع الأخرى من جزيرة العرب ، فلا نملك نصوصاً جاهلية عن هذا الموضوع . ولكننا نجد في القرآن الكريم وفي كتب التفسير اشارة اليها . ورد فيه : « وقالوا هذه أنعام وحرث حِجْرٌ لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، افتراءً عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم »[3] . وورد : « وهو الذي

---

١ تاج العروس (٨/٣١٠ وما بعدها) ، (رزم) .

٢ REP. EPIGR. 2860, Tome, V, p. 192.

٣ سورة الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ١٣٨ وما بعدها .

أنشأ جنّات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »[1] . وورد ، « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون »[2] . ففي الآيات المذكورة أن أهل الجاهلية ، كانوا جعلوا لله ولشركائه من ثمراتهم ومـا لهم نصيباً ، فإذا كان يوم حصاد الزرع أو قطف الثمر، أخرجوا من كل عشرة واحداً ، فهي العشور . عشور كل شيء من نخل أو عنب أو حب أو فواكه أو قصب . وأمـا أموالهم ، فقد جعلوا بحيرة وسائبة ووصيلة وحامياً ، وأنعاماً لا يذكرون اسم الله عليها[3] .

ونجد في كتب رسول الله الى الملوك وسادات القبائل اشارة الى (العشر) ، أي الى هذا الحق الذي كانوا قد فرضوه على أنفسهم ، ففي كتابه الى (عبد يغوث بن وعلة الحارثي) : « ان له ما أسلم عليه من أرضها وأشيائها ، يعني نخلها ، ما أقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وأعطى خُمس المغانم في الغزو، ولا عشر ولا حشر »[4] . وفي كتابـه لقيس بن الحصين ذي الغصة ، أمانـة لبني أبيه بني الحارث ولبني نهد : « ان لهم ذمة الله وذمة رسوله، لا يحشرون ولا يعشرون »[5]، وفي كتابه لبني جُعيل : « لهم مثل الذي لهم ، وعليهم مثل الذي عليهـم ، وانهم لا يحشرون ولا يعشرون »[6] . وفي كتابه الى (العلاء بن الحضرمي) : « وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور »[7] . وفي كتابه « لبادية الأسياف ونازلة الأجواف مما حاذت صحار : ليس عليهم في النخل خراص ولا مكيال مطبق حتى يوضع في الفداء وعليهم في كل عشرة أوساق وسق »[8] ، أي العشر .

---

١ سورة الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ١٤١ .
٢ سورة الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ١٣٦ .
٣ تفسير الطبري (٨/ ٣٠ وما بعدها) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٦٨) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٦٨) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٧٠) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٧٦) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٨٦) .

ونجد في كتاب رسول الله لعمرو بن معبد الجهني وبني الحرقة من جهينة وبني الجرمز : « وما كان من الدين مدونة لأحد من المسلمين قضى عليه برأس المال وبطـل الربا في الرهن . وأن الصدقة في الثمار العشر »[1] . فجعل الصدقـة بمعنى العشر ، أي زكاة الثمار . ونجد العلماء يجعلون الصدقة زكاة ، والزكاة صدقـة ، يفترق الإسم ويتفق المسمى[2] ، ونجدهم يفرقون بينهما في بعض الأحيان ، اذ تكون الصدقة تطوعاً ، بينما الزكاة حكماً مفروضاً ، له حدود معلومة على نحو ما حددته كتب الفقه والأحكام .

وقد كان هذا شأن أهل الحجاز ، ولا سيما أهل يثرب يؤدون عشر حاصل زرعهم ، يوم حصاده وعند الصرام ، وبقوا على حالهم هذه حتى فرضت الصدقة المعلومة ، أي الزكاة ، فسن العشر ونصف العشر ، وترك عشر الجاهلية ، على نحو ما نجده في كتب الفقه والأحكام[3] . وفي الحديث : فما سقت الأنهار والغيم العشور ، وفيما سقي بالسانية والغروب والدلاء نصف العشر[4] .

وقد أشير الى (العشر) في كتاب (عمر) الى (زياد بن حدير) ، حيث جاء : « ان أقاموا ستة أشهر فخذ منهم العشر ، وان أقاموا سنة ، فخذ منهم نصف العشر »[5] . وفي كتاب آخر بعث اليه أيضاً هذا نصه : « لا تعشرهم في السنة الا مرة »[6] .

وعرف من كان يجمع (الصدقة) في الاسلام بـ (المصدق) . وهو آخذ الصدقات ، أي الحقوق من الإبل والغنم يقبضها ويجمعها ، والمتصدق معطيها[7] . وقد جاء ناس من الأعـراب الى رسول الله ، فقالوا : إن ناساً من المُصدّقين

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧١ وما بعدها) .
٢ الاحكام السلطانية ، للماوردي (١١٣) .
٣ تفسير الطبري (٨/٤٢ وما بعدها) .
٤ صحيح مسلم (٣/٦٧) ، (باب ما فيه العشر أو نصف العشر) ، الاحكام السلطانية (١١٨) ، تاج العروس (١/٤٠٥) ، (غرب) ، (١٠/١٨٥) ، (غرب) .
٥ كتاب الخراج ، للقرشي (١٧٢) ، خورشيد أحمد فارق ، حضرت عمركه سركاري خطوط (ص ١٣٥) .
٦ كتاب الخراج ، للقرشي (١٧٢) ، خورشيد أحمد فارق (ص ١٣٦) .
٧ تاج العروس (٦/٤٠٦) ، (صدق) .

يأتوننا فيظلموننا ، فقال رسول الله : ارضوا مصدقيكم[١] . وقد حث الرسول على إرضاء المصدق[٢] .

و (الساعي) مثل المصدق ، من يستعمل على الصدقات ويتولى استخراجها من أربابها . وفي حديث وائل بن حجر ، ان وائلاً يستسعي ويترفل على الأقيال، أي يستعمل على الصدقات[٣] . وقد أهمل استعمال لفظة (الساعي) في هذا المعنى فيما بعد ، واستعملت في أمور أخرى ، مثل سعاة البريد . وقيل لمن يتولى أمر الصدقات ويشرف على سعاتها (عامل الصدقة) ، و (عمال الصدقات) .

ونجد في كتب اللغة لفظة (السمرج) ، في معنى له صلة بالضرائب ، يذكر علماء اللغة انها لفظة فارسية معربة ، تعني استخراج الخراج في ثلاث مرات ، أو اسم يوم ينقد فيه الخراج ، ويوم جباية الخراج . أو هو يوم للعجم يستخرجون فيه الخراج في ثلاث مرات[٤] . وذكر بعض علماء اللغة ان (الشمرج) اسم يوم جباية الخراج للعجم ، وقد عربه (رؤبة) ، بأن جعل (الشين) سيناً[٥] .

هذا ونستطيع حصر الضرائب التي كان يدفعها أهل الجاهلية في ثلاثة أصناف : ضرائب الأرض أي ما يؤخذ عن غلة الأرض ، وضرائب الرؤوس أي ما يقال الجزية في الإسلام ، وضرائب التجارة والأرباح . وقد كانت تقدم الى الحكومة أو سادة القبائل ، على شكل نقود ، أو سبائك ذهب أو مصوغات . حيث تحفظ في خزائنهم وفي خزائن المعابد في حالة الضرائب التي تدفع الى المعبد[٦] .

وكانت الجباية بأنواعها من المآكل والمطاعم بالنسبة لبعض من يتولون أمرها، يأكلون ما يتمكنون من أكله ، ويسلمون الباقي الى من عينهم عليها ، ونجد في الموارد الاسلامية اشارات الى الرشوة والمرتشين وآكلي الصدقات والى (المصانعة) أي الرشوة ، يقال صانع الوالي أو الأمير اذا رشاه[٧] .

---

١ صحيح مسلم (٣/٧٤) ، (باب ارضاء السعاة) .
٢ صحيح مسلم (٣/١٢١) ، (باب ارضاء الساعي ما لم يطلب حراما) .
٣ تاج العروس (١٠/١٧٨) ، (سعى) .
٤ تاج العروس (٢/٦٠) ، (سمرج) .
٥ تاج العروس (٢/٦٥) ، (شمرج) .
٦ Hastings, p. 944. f.
٧ تاج العروس (٥/٤٢٢) ، (صنع) .

الفصل الحادي عشر بعد المئة

النقود

وفي الموارد الاسلامية بعض الأخبار عن نقود كانت متداولة في الحجاز عند ظهور الاسلام . وقد سميت تلك النقود بأسمائها ، وأشير الى وزنها ومقدارها . وعثر الباحثون على نماذج من نقود جاهلية تعود الى عهود مختلفة في مواضع متعددة مختلفة من جزيرة العرب ، قدمت لنا بعض المعارف عنها وعن مصادرها ، فمن الموارد الاسلامية ومن بعض كتابات المسند التي أشير فيها الى نقود جاهلية ومن قطع النقود الجاهلية التي عثر عليها المنقبون ، جمعنا ما سنقوله عن نقود أهل الجاهلية .

وقد استعمل أهل العربية الجنوبية النقود في معاملاتهم ، استعملوا نقوداً سكّت من ذهب ، ونقوداً سكّت من فضة ، وأخرى سكّت من نحاس ومن معادن أخرى . وقد عثر على نماذج من كل نوع من هذه الأنواع . كما تعاملوا بالنقود الأجنبية كذلك ، مثل النقود اليونانية والرومانية والمصرية والحبشية والفارسية . وقد عثر على نماذج من هذه النقود في مواضع متعددة من العربية الجنوبية : في اليمن ، وفي حضرموت ، وفي مواضع أخرى . وقد زاد تعامل أهل اليمن بالنقود الحبشية والساسانية في أثناء احتلال الحبش والساسانيين لليمن ، ولا شك .

وفي بعض المتاحف ودور الآثار وعند بعض هواة جمع النقود والأشياء القديمة، قطع من نقود جاهلية ضربت في العربية الجنوبية ، بعضها من ذهب ، وبعضها من فضة ، وبعض آخر من نحاس ، ومنها الكبير ، ومنها نقود صغيرة دوّن

على بعضها اسم الملك الذي ضربت في أيامه ، أو الحرف الأول من اسمه ، وعلى بعض آخر رموز وصور ألفَ العرب الجنوبيون ضربها على النقود ، مثل صورة (أثينة) أو (البوم) وهي من الطيور التي ألف العرب الجنوبيون إظهار صورتها على النقد ، وعلى الحجارة المكتوبة وعلى جبهات البيوت .

والعملة تطور خطير من التطورات التي أثرت في الحياة الاقتصادية للبشر . أحدث اختراعها انقلاباً كبيراً في النظم الاقتصادية والاجتماعية ، ويعدّ ايجادها من المخترعات الكبرى التي لعبت دوراً خطيراً في حياة الإنسان ولا تزال تلعبه . قلصت أعمال المقايضة المرهقة المتعبة،وقضت على التعامل بالوزن في تقدير الأثمان . أعني التعامل بوزن الذهب والفضة ، في تقدير قيم الأشياء ، بأن يعطي إنسان إنساناً قيراطاً من ذهب ، أو نصف مثقال ، أو مثقالاً مقابل سلعة ثم التساوم على سعرها . أو وزن مثقال من فضة أو أقل من ذلك أو أكثر في مقابل سلعة يريدها المشتري . وهو نظام سبق نظام النقد ، الذي ولدت منه فكرة العملة . وهو نظام متقدم بالنسبة الى نظم المقايضة التي سبقته، قلّص من صعوباتها كثيراً، وأراح التاجر في التعامل ، حتى ولدت فكرة سك العملة ، فقلصت منه ومن تعقيداته ، لسهولة التعامل بالعملة ، ولاكتسابها صفة رسمية وسعراً ثابتاً مقرراً ووزناً معيناً حددته الحكومات .

وفي وسعنا اطلاق مصطلح (النقد الطبيعي) على نظام المقايضة ، أي مبدأ مبادلة سلعة بسلعة . فهو في الواقع نظام يستند على مبدأ التسعير وتثمين السلع وبيع سلعة بثمن سلعة أخرى . ولما وجد الانسان صعوبة كبيرة في التعامل بهذه الطريقة، هداه عقله وتقدمه الفكري الى ابتداع طريقة التعامل بالذهب والفضة وزناً . فخفف الإنسان بذلك كثيراً من التعقيدات والصعوبات التي كان يجابهها في تعامله بالمقايضة، فكان إذا أراد شراء حاجة عامل صاحبها بمقدار موزون من الذهب أو الفضة ، يقدمه اليه في مقابل شرائها ، ثم انتقل بعد ذلك الى طريقة سك العملة . فسهل بذلك معاملاته في البيع والشراء كثيراً ، ولا زال هذا النظام سائداً في كل أنحاء العالم ، مع نظام العملة الورقية ونظام التعامل بالصكوك .

وقد تعامل الجاهليون بالطرق الثلاثة المذكورة . تعاملوا بالمبادلة ، أي المقايضة، وتعاملوا بوزن الذهب والفضة ، وتعاملوا بالعملة . ولما ظهر الاسلام كانت هذه الطرق لا تزال مألوفة عندهم متبعة ، فكانوا يبيعون تمراً بتمر ، وشعيراً بشعير،

وحنطة بحنطة . وقد أشير الى هذه النوع في كتب الحديث ، وأشرت اليهـا في باب البيوع . ولم يراع أهل الجاهلية تنوع الصنف في البيع ، كأن يبيعوا حنطة من جنس معلوم بحنطة من جنس آخر ، بل كانوا يبيعون الحنطـة بالحنطة من نفس الجنس والنوع ، بوزن مختلف لوجود تباين في الجودة أو تراب أو حبوب غريبة في احدى الحنطتين . كما تعاملوا بتنوع السلع ، مثـل بيـع حنطة بشعير وبالعكس ، وبيع تمر بصوف أو بجلود ، وما شاكل ذلك لوجود حاجة ولقلة النقد .

وتعاملوا بوزن الذهب والفضة ، فاشتروا الرقيق بأواقي يحددونها من ذهب أو من فضة ؛ وباعوا التجارة بأواقي الذهب والفضة . تعاملوا بالأواقي وبأقـل منها وبأكثر حسب قيم الأشياء ودرجة تثمينها [1] . ونجد ذكر هذا التعامـل في كتب الحديث والفقه ، لمـا لـه من دور خطير في معاملات الناس في الجاهلية وفي والاسلام .

و (النقد) في مصطلح علماء العربية تمييز الجيد من الرديء . قال الشاعر :

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة   نفي الدنانير تنقاد الصياريف

والنقد اعطاء النقد . ونقد الثمن أعطاه نقداً معجلاً [2] . ويظهر ان الجاهليين كانوا يطلقون لفظة (النقد) على العملة ، وعلى التعامل بها من أخذ وقبض وتمييز الجيد من الرديء منها .

و (السِكة) : حديدة منقوشة كتب عليها ، يضرب عليها الدنانير والدراهم . ومنه الحديث انه نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس . أراد بها الدرهم والدنانير المضروبين . سمى كل واحد منها سكة لأنه طبـع بالحديدة المعلمة له [3] .

ونجد في كتب الحديث رواية تذكر ان أول من ضرب الدينار تبـع ، وهو

---

١ « وكانوا يتبايعون بأوزان اصطلحوا عليها فيما بينهم . وهو الرطل الذي هو اثنتا عشرة أوقية . والاوقية هي أربعون درهما » ، الاحكام السلطانية (١٥٩) ، (حاشية رقم ١) .

٢ تاج العروس (٢/٥١٦) ، (نقد) .

٣ تاج العروس (٧/١٤٣) ، (سكك) .

(أسعد بن كرب) ، وان أول من ضرب الفلوس وأدارها في أيدي الناس : (نمروذ بن كنعان)[1] .

وقد وردت في كتابات سبئية وقتبانية إشارات الى نقود سبئية وقتبانية كانت مستعملة في تلك الأيام . ويرجع بعض العلماء تأريخ أقدمها الى حوالى سنة (٤٠٠) قبل الميلاد[2] . وقد ورد ذكر بعضها مع أسماء ملوك سبئيين وقتبانيين ، في تدوين عقود زراعية أو ضرائب في الغالب ، وقد ذكرت حين الإشارة الى دفع مبلغ أو الى تحديد غرامات . ولكن ورود أسمائها في تلك العقود وفي الأوامر الملكية لأولئك الملوك لا يدل على أنها سكت في أيامهم ، وضربت في عهدهم ، فقد يجوز أن تكون قد ضربت قبل أيامهم بأمد طويل أو قصير ، وأنها كانت مستعملة قبل أيامهم وفي أيامهم في الأسواق ، ولذلك أشير اليها في تلك الكتابات .

ونجد في أحد وجهي بعض النقود رأس رجل ظهرت ملامح وجهه الى العنق، يحيط به غصنا شجر على هيأة دائرة ، وقد تدلى شعر الرأس الى العنق، وظهرت عليه تموّجات الشعر على هيأة خصل محفورة . وأما صورة الأوجه ، فهي جانبية اتجاهها نحو اليمين في الغالب . ولولا وجود بعض حروف المسند عليها لحسبتها من النقود المضروبة عند اليونان ، ونجد في الوجه الآخر من النقد صورة البوم في الغالب : جسمها جانبي ، أي قد امتد نحو الجانب . أما الوجه ، فقد صور وكأنه ينظر اليك ، وقد برزت عيناه بصورة واضحة ظاهرة حتّى بدتا في شكل لا يتناسب أحياناً مع حجم الوجه . ومن ينظر الى هذا الوجه يخيل اليه أنه ينظر الى رأسي بومتين لا بومة واحدة[3] .

وتحمل بعض النقود إشارات ورموزاً لها صلة بديانة العرب الجنوبيين قبل الإسلام ، ومن ذلك ، الهلال ، إشارة الى الإلّه القمر[4] . والهلال وفي داخله

---

١ مسند أبي حنيفة (ص ١٦٣) .

٢ Handbuch, I, S. 96.

٣ انظر الالواح المصورة للنقود الملحقة بكتاب :
G. Fr. Hill, A Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia, London, 1922.
وسيكون رمزه : Hill

٤ Handbuch, I, S. 35.

أو في مقابله كوكب ذو رؤوس تلتقي بنقطة في الوسط ، وأحياناً على هيأة قرص دون رؤوس . يمكن اعتبارهما أساس الكوكب والهلال (النجمة والهلال) المستعملين في بعض الأعلام الإسلامية واللذين يشاهدان على قبب المساجد ويعتبران عند المسلمين وعند الغربيين شعاراً للإسلام . وهمـا في الأصل من شعائر الوثنيين الجاهليين . وقد يكون الكوكب ذو الرؤوس أو القرص رمزاً يشير الى الشمس .

وللعلماء الباحثين في النقود العربية الجنوبية آراء في الحروف المقطعة المضروبة على النقود . وفي الحروف المتصلة المربوطة بعضها ببعض في بعض الأحيان على هيأة الطغراء ، وذهب بعضهم الى ان هذه الحروف هي الأحرف الأولى لأسماء الملوك الذين ضربت تلك النقود في أيامهم . وذهب آخرون الى انها أسماء المواضع التي ضربت فيها تلك النقود . وذهب آخرون الى انها رموز الآلهة ، وقد ضربت تبركاً باسمها . ومهما يكن من شيء ، فبين الباحثين في النقود العربيـة الجنوبية اختلاف في هذا الموضوع ، لم يتوصلوا فيه الى حل متفق عليه[1] .

ومن الملوك الذين ضربت بعض النقود في أيامهم ، ملك ذكر لقبه وحده ، وهو (ينف) (ينوف) ، دون اسمه الأول الذي يعرف به . وإذ قد تلقب جملة ملوك بهذا اللقب ، فمن الصعب البت في تعيين الملك صاحب هذا النقد[2] . وملك ذكر اسمه الأول ، وهو : (شمر) ، والظاهر انه (شمر يهرعش) ملك سبأ وذي ريدان[3] . و (كرب ال وتر يهنعم) ، وهو ابن الملك (ذمر على بين) و (عمدن يهقبض) ، و (عمدن بين) ، وملوك آخرون[4] .

وقد وردت لفظة (بلط) في نصوص المسند، ترجمت بـ (نقد) وبـ « Coin » في الانكليزية[5] . و (أبلط) في عربيتنا بمعنى لصق بالأرض وافتقر ، وذهب ماله ، وأفلس . والبلطة المفلس[6] .

وقد ذكر (نزيه مؤيد العظم) ، ان أهل اليمن يطلقون على النقود لفظـة

---

١ Hill, XIVI.

٢ Hill, p. p. IVII.

٣ Hill, p. IX.

٤ Hill, p. IXVIII.

٥ Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 428, Rhodokanakis, Kaba. Texte, II, S. 25, anm. 3.

٦ تاج العروس (١١١/٥) ، (بلط) .

(ظلط)[1] . ولعل لهذه اللفظة صلة ببعض أسماء النقود اليمانية قبل الاسلام .

وهناك لفظة أخرى وردت في نصوص المسند ، هي (خبصتم) ، (خبصت). ويرى (رودوكناكس) أنها اسم نقد أقل سعراً وثمناً من سعر النقد الذهب ، وأنه لم يكن من الذهب ولا من الفضة بل من المعادن الأخرى[2] .

ووردت لفظة (رضيم) (رضى) بعد العدد خمسة ، في نص سبئي . ذكرت مع العدد في أمر يشير الى غرامة تفرض على المقصر والمتهاهل في العمل ، فحمل ذلك بعض الباحثين على الذهاب الى أنها تسمية لنوع من النقد الذي كان مستعملاً آنئذ . ولكن هناك من يرى أن اللفظة ليست تسمية وسمة لنوع من أنواع النقود، وإنما هي صفة لها، بمعنى مرضية ومرض وبمعنى تامة وافية صحيحة ، غير مزيفة ولا منقوصة في الوزن[3] .

وإذا كنا لا نستعمل اليوم في لغتنا الألفاظ والتعابير التي تدل على صحة النقود وسلامتها من الغش والتزوير كثيراً ، فإن القدماء ولا سيما صيارفتهم وأصحاب المال كانوا يستعملونها في معاملاتهم اليومية وفي عقودهم التي كانوا يدونونها ، لأن سك العملة وضربها لم يكن يومئذ متقناً ولا مضبوطاً من حيث المادة أو الوزن. وكان من السهل تقليد العملة وغشها والتلاعب بوزنها . ولذلك كان ثمنها عرضة للتغير والتلاعب بالسعر في بعض الأحيان، كما كان من السهل غش الناس بإعطائهم العمل المزيفة ، حتى حفظت كتب الماضين أمثلة عديدة على ذلك ، وكتب القدماء فصولاً في كشف الغش في النقود وفي معاقبة المسؤولين عنه .

ومن الألفاظ التي استعملها أهل العربية الجنوبية للتعبير عن صحة العملة وسلامتها من الغش والتي دونوها في كتاباتهم ، لفظة (مصعم) (مصع) ، بمعنى نصع وخلص ، أي خالصة من كل غش ، صحيحة لا شائبة فيها . ولفظة (رضيم) المتقدمة ، ولفظة (خبصتم) (خبصت) من هذه التعابير على رأي بعض الباحثين[4] .

---

١ رحلة (٨٥) .

٢ Rhodokanakis, Katab. Texte., II, S. 26.

٣ Rhodokanakis, Katab. Texte., II, S. 26.

٤ Rhodokanakis, Katab. Texte., II, S. 26.

ويلاحظ وجود أثر للسكة اليونانية على السكة العربية الجنوبية . وقد وجد شبه أيضاً بين بعض النقود العربية الجنوبية ونقود الساسانيين . ونظراً الى وجود صلات تجارية بين اليونان والساسانيين والعرب الجنوبيين ، فلا يستبعـــد تأثر دور ضرب السكة في اليمن وفي حضرموت بطريقة ضرب النقود عنـد اليونان والساسانيين[١] . ومن أهم ملامح تأثر ضرب النقود بنقود اليونان ، هو وجود صورة (البوم) رمز (أثينة) مطبوعاً على النقود ، على نحو ما طبعت على النقود اليونانية ، حتى صار من الصعب التفريق بينهـــما ، فكأنما أخذ عمال ضرب النقود قالباً للنقـــد اليوناني ، ثم حفروا عليه حروف المسند وضربوه[٢] . ثم صور الملوك ، وكراسي جلوسهم عليها ، والصولجان الذي بأيديهم ، فكل هذه نقلت نقـــلاً عن النقود اليونانية .

ولا بد أن تكون في اليمن دور لضرب النقود سكّت فيهـــا عملتهم . وإني لآسفٌ إذ لم أقف على كتابات جاهلية فيها ما يفيدنا عن كيفية ضرب النقود عند العرب الجنوبيين أو عند غيرهم وأوزانها وأنواعها ، وما شابه ذلك من أمور تتعلق بها ، وليس لنا من أمل في زيادة علمنا بها غير الترقب والانتظار ، فلعل يقظة العرب تولّي تأريخ العرب القديم ما يستحقه من عناية ورعاية وبحث ، فيجدّون في تتبع مواطن الآثار الغنية المطمورة لاستخراج دفائنها التأريخية الثمينة التي تظهر لنا أموراً كثيرة من تأريخ تلك الأيام .

وقد عثر في بصرى وفي مواضع من المنطقة التي عرفت بـ (المقاطعة العربية) (الكورة العربية) على نقود معظمها من نقود الرومان واليونان ، كما عـثر على نقود نبطية . ويذهب بعض الباحثين في النميّات ، أن الملك (الحارث الثالث) (٨٧ – ٦٢ ق. م.) ، هو أول ملك نبطي ، أمر بضرب النقود ، أخـــذ السكة من اليونان أثناء استيلائه على دمشق . وقد عثر على نقد من فئة (دينار) طبع عليه رمز يمثل اتفاق الحارث و (سكاورس) وصورة جمل وشجرة . وعثر على نقود أمر (الحارث) هذا بضربها ، تشبه النقود التي ضربهـــا (ديمتريوس

---

١ Carlo Conti Rossini, Monete Sud-Arabiche, Rendiconti della R. Acad. dei Lincei, 30, (1922), p. 239, Handbuch, I, S. 96, 175.

٢ Mardtmann und Mittwoch, Saba. Inschrl., S. 8.

الثاني ؟) (الثالث) « Demetrius Eukairos III » بمدينة (دمشق) شبهـاً كبيراً ، ولهذا يرى الباحثون أنها تقليد ومحاكاة لها . ولم يصل الينا نقد من نقوده يحمل كتابة مدوّنة بالنبطية [1] .

وجاد (عبادة) الثالث من ملوك النبط علينا بقطع من النقود ، يرى الملك على أحد وجهيها ومعه صورة امرأة يظن انها صورة أمه ، وانها تشير الى مبدأ حكمه إذ كان قاصراً ، فكانت أمه تدبر الملك باسمه نيابة عنه ، وذلك بالنسبة الى النقود التي ضربت في أوائل أيام الحكم . وأما في النقود المتأخرة ، فإنها صورة زوجته، التي كانت تساعده وتؤازره [2] . وتشاهد صورة نسر واقف قابض على جناحيه في الوجه الثاني من أحد النقود ، وعلى طرفي الصورة كتابة ، وصورة رأس رجل في القطعتين المرقمتين (٧) و (٨) يرى انها رأس الملك وعلى طرفي الصورة كتابات نبطية وتأريخ الضرب .

وتعدّ النقود التي ضربت في أيام (الحارث) الرابع من خير ما ضرب من النقود في أيام النبط ، ولم يعثر على نقد له ضرب في مدينة (دمشق) في المدة التي استولى فيها على تلك المدينة ، وقد ضرب بعضهـا باسم الملك وباسم زوجته (خلدو) (خلد) ، زوجته الأولى . وصورت صورة زوجته هذه على النقد، وضرب بعضها باسمه وباسم زوجته الأخرى (شقيلة) وطبعت صورتها على النقد كذلك . وضرب بعض آخر باسم الملك وحده ، وهي مختلفة : بعضها من الفضة، وبعض آخر من البرونز ، وعلى عدد منها تأريخ الضرب [3] .

وضرب اسم (شقيلة) الثانية ملكة النبط مع اسم الملك (ملكو) (مالك) الثاني في نقد وصل الينـا . وقد وصفت في النقود بأنها أخته . أما القطع التي وصلت الينا ، فبعضها مصنوع من الفضة وبعض آخر من البرنز ، وعلى نقوده شيء من التبديل والتغيير عن النقد الذي ضرب في أيام (الحارث) الرابع [4] .

وتبورك في بعض النقود مثل نقود (بصرى) بضرب صور الآلهة أو نعوتها

---

١ G. Fra-Hill, Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia, London, 1922, pp. XI, Die Araber, I, S. 298.

٢ Hill, p. XIV, XV, XVI, 4, Pl., 1, 6, 7, 8, Morey, Rev. Num., 1911, p. 79.

٣ Hill. p. XVII, 5, Pl., 9, 10, 11, 12, 13, 14, 15, 16, 17, 18, 19, 20, 21, II, 1-12, Dalman, Neue Petra Forschungen, S., 106.

٤ Hill, p. XIX, II, Pl., II, 13-17.

أو رموزها على النقود ، فقد ضرب نعت الإلـه (دو شرى) (ذو الشرى) على نقد ضرب في (بصرى) . كما أشير الى هذا الإلـه في نقد ضرب بـ (بصرى) بتصوير منظر من مناظر الاحتفالات السنوية التي كانت تقام في كل عام اكراماً له ، وتعرف بـ « Actia Dusaria » [1] . أما آلهة المدينة التي ضربت صورتها على بعض النقود ، فتشبه صورتها صورة (عشتاروت) (عشتروت) المعروفة بفلسطين وفينيقية . ويظهر أنها (اللات)[2] . وتشبه في بعض النقود صورة (أثينة)، وقد دعيت بـ « Tyche » ، و (أثينة) هي (اللات) عند أهل حوران[3] .

وعثر في جزيرة (فيلكا) على نقود يونانية من بينها درهم ضرب في عهد الملك (انطيوخس) الثالث من ملوك السلوقيين ، ويعود تأريخ هذا الدرهم الى حوالى السنة (٢١٢) قبل الميلاد . وتبين أن بعض الدراهم قد ضرب في (جرها) « Gerhha » (الجرعاء)، كما عثر على نقود ضربت من النحاس ، تبين أن قطعة منها ضربت في عهد (سلوقيوس) الأول ، ضربها باسم الملك (الاسكندر) الأكبر، وأن قطعتين منها ضربتا في أيام (انطيوخس) الثالث . فهـي تعاصر الدراهم المذكورة [4] .

أما أهل الحجاز ، فقد تعاملوا بالنقود الرومية والساسانية : تعاملوا بالدنانير ، وتعاملوا بالدراهم ، وتعاملوا بالدانق . وتعاملوا بنقود أهن اليمن ، ولعلهم كانوا يتعاملون بنقود أهل الحبشة كذلك . فقد كان أهل مكة خاصة تجاراً يتاجرون مع اليمن ويتاجرون مع العراق وبلاد الشأم والحبشة . وتجارتهم هذه تجعلهم يستعملون مختلف النقود .

ولم يرد في الأخبـار ما يفيد قيام أهل العربية الغربية أو أي مكان آخـر في جزيرة العرب بضرب النقود الجاهلية فيها ، لكن ذلك لا يمنع من احتمال عثور النقابين في المستقبل على نقود محلية ضربت في مكـة أو في الطائف أو في يثرب أو في مكان آخر ولو على نطاق ضيق محدود .

---

١ Hill, p. XXVII.

٢ Hill, p. XXIX.

٣ Hill, p. XXX.

٤ نقود يونانية من جزيرة فيلكا ، وزارة التربية والتعليم : قسم الآثار والمتاحف ، مطبعة حكومة الكويت .

وكان تعامل أهل مكة بالدنانير ، ترد اليهم من بلاد الشأم ، ولا سيما دنانير هرقل . وبالدراهم الفارسية البغلية ، « فكانوا لا يتبايعون إلا على أنهـا تبر . وكان المثقال عندهم ، معروف الوزن ، وزنه اثنان وعشرون قيراطاً إلا كسراً، ووزن العشرة دراهم، سبعة مثاقيل ، فكان الرطل اثنتي عشرة أوقية . وكل أوقية أربعون درهماً . فأقر رسول الله » ذلك ومن جاء بعده الى أيام (عبد الملك بن مروان) ، فأمر أن تضرب الدراهم على خمسة عشر قيراطاً من قراريط الدينار[1] . وذكر أن الدنانير التي كانت ترد مكة في الجاهلية رومية ، والدراهم كسروية[2] .

وقد اشتهرت دنانير (هرقل) ، وعرفت بـ (الهرقلية) ، حتى انها كانت تسمى الدنانير عامةً (الهرقلية)[3] ، والظاهر ان ذلك بسبب كونها مجلوّةً مطبوعة طبعاً حديثاً ، لم تطمس آثارها ولم يمض زمن طويل عليها،أو لأن العرب حصلت في عهده على أكثر دنانيرها ، فنسبتها اليه .

والدينار عملة من الذهب ، عرف علماء اللغة أنها من الألفاظ المعربة ، ولكنهم لم يتأكدوا من أصلها ، فذهبـوا الى أنها من أصل فارسي[4] . وهي معربة من أصل يوناني هو (ديناريوس) « Dinarius » مختصر « Dinarius Aureus » « Aureus Denarius » كما جاء ذلك في تأريخ (بلينيوس)[5] . والظاهر أن العرب استعملوا التسمية التي كانت شائعة في بلاد الشأم ، منذ عهد إصلاح (قسطنطين) الأول (٣٠٩ – ٣١٩ م) لنظام النقد . فأطلقوا على العملة الذهب لفظة دينار . وقد كان أهل الشأم قد اقتصروا على لفظة « Dinarius » منذ ذلك العهد[6] .

وقد ورد ذكر الدينار في القرآن الكريم : « ومن أهل الكتاب مَنْ إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينارٍ لا يؤده اليك إلا ما دمت عليـه

---

١ فتوح البلدان (٤٥٢) ، (أمر النقود) ،
Josef Von Karabacek, zur orientalischen Alterumskunde, Wien, 1908, S. 61.
المخصص (١٢/٢٧) ، جامع الاصول (١/ ٣٧١) .

٢ فتوح البلدان (٤٥٣) .

٣ « دنانير شيفت من هرقل بروسم » ، الجواليقي (ص ٣٤٩) ، المخصص (١٢/٢٢)، حاشية على الصفحة ٣٧١ وما بعدها من الجزء الاول من كتاب : جامع الاصول من أحاديث الرسول ، لابن الاثير الجزري .

٤ تاج العروس (٣/٢١١) ، (دينار) .

٥ Pliny, Hist. Nat., Book, XXXIII, 13.

٦ Ency., I, p. 975.

قائماً »[1] . والقنطار وزن . وتأويل الكلام أن من أهل الكتاب الذي إن تأمنه على عظيم من المال كثير يؤده اليك ولا يخنك فيه ومنهم الذي إن تأمنه على دينار يخنك فيه ، فلا يؤده اليك إلا بالتقاضي والمطالبة[2] .

ويعرف (الدينار) بـ (العين) . والعين الذهب عامة[3] ، فكأنهم سمّوا عيناً ، لأنه من ذهب .

وقد فكر المسلمون قبل (عبد الملك بن مروان) في موضوع النقود ، وفي ضرورة تحويلها الى نقد اسلامي . وكان (عمر) في جملة من فكر في ذلك . انه أراد أن يجعل الدراهم من جاود الإبل ، فلما استشار ذوي الخبرة ، لم يقرّوه على رأيه فأمسك[4] . وذكر انه أمر بضرب الدراهم ، فضربت سنة ثماني عشرة من الهجرة[5] . وضرب (عثمان) الدراهم كذلك . ثم ان معاوية ضرب الدراهم السود ، وضرب أيضاً دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً[6] . وضرب (زياد) النقد كذلك . ولما قام (عبدالله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة . وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة . وضرب (مصعب بن الزبير) دراهم بالعراق ، ثم غيرها (الحجاج) ، حتى استقر الأمر لعبد الملك ، فعرب النقد على نحو ما هو معلوم[7] .

وقد بقي العرب يتعاملون بالدنانير الرومية الى أيام عبد الملك ، حيث أمر بضرب الدنانير ، فضربت بدمشق . وقد نعت الدينار الجديد بـ (أحرش) اذا كانت فيه خشونة لجدته . ومنه الحديث ان رجلاً أخذ من رجل آخر دنانير حرشاً ، وهي الجياد الخشن الحديثة العهد بالسكة التي عليها خشونة النقش[8] .

ومن أسماء الدينار (السِكّي)[9] .

---

١ آل عمران ، الآية ٧٥ ، المفردات (١٧١) .
٢ تفسير الطبري (٣/٢٢٥ وما بعدها) ، تفسير النيسابوري (٣/٢٢٥ وما بعدها) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٣ تاج العروس (٩/٢٨٨) ، (عين) .
٤ فتوح البلدان (٤٥٦) ، (أمر النقود) .
٥ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٦٠ حاشية) .
٦ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٦٠ حاشية) .
٧ الاحكام السلطانية (١٦٠ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (٤/٢٩٦) ، (حرش) .
٩ تاج العروس (٧/١٤٣) ، (سك) .

وقد ذكر علماء اللغة أن لفظة الدرهم فارسية الأصل ، وقد عربت ، وقالوا في جمعها دراهم ودراهيم[1] . وهو نقد من الفضة . وقد عرف بـ (درم) Diram في الفارسية وبـ (درخمة) (درخما) Drachma في اليونانية . والظاهر أن العرب أخذوا بالتسمية الفارسية . وقد استعملوا في تعاملهم دراهم الفرس ودراهم اليونان .

وأشير الى الدراهم في الآية : « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين »[2] . ويذكر المفسرون أنه كان من عادة الجاهليين التعامل بوزن الدراهم بالأواقي إن زاد عددها على وزن أوقية ،وكان وزن الأوقية أربعين درهماً. فما نقص عن هذا المقدار ،جرى التعامل عليه بالعدد ، وما زاد عليه جرى التعامل عليه بالوزن[3] .

وكانت الدراهم مختلفة كباراً وصغاراً ، فكانوا يضربونها مثقالاً ، وهو وزن عشرين قيراطاً ، ويضربون عشرة قراريط ، وهي أنصاف المثاقيل . وكان أهل الجاهلية يتعاملون بها حسب وزنها . وهي دراهم الأعاجم[4] .

وقد قسّم العلماء الدراهم التي كان يستعملها الجاهليون من أهل مكة وغيرهم الى نوعين : الدراهم السود الوافية ، والدراهم الطبرية العتق . والوافية هي البغلية. وكان لهم دراهم تسمى (جوراقية) . والدرهم الطبري : ثمانية دوانق ، والدرهم البغلي : أربعة دوانق ، وقيل العكس . والدرهم الجوراقي : أربعة دراهم ونصف[5].

وورد ان الدراهم كانت في أيام الفرس مضروبة على ثلاثة أوزان: منها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطاً ، ودرهم وزنه عشرة قراريط ، ودرهم وزنه اثنا عشر قيراطاً[6] .

---

١ قال الفرزدق :

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة نفي الدراهيم تنقاد الصياريف

تاج العروس (٢٩٨/٨) ، (درهم) .

٢ سورة يوسف ، الآية ٢٠ ، المفردات (١٦٨) .

٣ تفسير الطبري (١٢/١٠٢ وما بعدها) .

٤ فتوح البلدان (٤٥١) ، (أمر النقود) .

٥ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى الحنبلي (ص ١٠٨ ، ١٥٨ وما بعدها) ، (تحقيق محمد حامد الفقي) ، الاموال ، لابي عبيد (رقم ١٦٢٢) .

٦ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٥٩) ، الاحكام السلطانية للماوردي (١٥٣) .

وعرفت دراهم الأكاسرة بـ (دراهم الأسجاد) . قيل انها عرفت بذلك ، لأنها كانت عليها صور يسجدون لها ، وقيل : كانت عليها صورة كسرى ، فمن أبصرها سجد لها ، أي طأطأ رأسه لها وأظهر الخضوع . وإياها عنى الأسود بن يعفر النهشلي في رواية من الروايات بقوله :

من خمر ذي نطف أغنّ منطق   وافى بها كدراهم الأسجاد[1]

وذكر في رواية أخرى ، ان الأسجاد : اليهود والنصارى ، أو معناه الجزية[2] .

وكان الفرس عند فساد أمورهم فسدت نقودهم من العين والورق غير خالصة، إلا انها كانت تقوم في المعاملات مقام الخالصة وكان غشها عفواً لعدم تأثيره بينهم الى أن ضربت الدراهم الاسلامية فتميز المغشوش من الخالص[3] .

وورد انه كانت باليمن دراهم صغاراً ، في الدرهم منها دانقين ونصف[4] . وورد ان الدرهم اليمني كان دانقاً[5] . ويظهر انه كان من أيام الحميريين ، بدليل تسمية (الماوردي) لهذه الدراهم بدراهم حميرية ، وكانت كما يقول قليلة[6] .

وعلى هذا يكون أهل مكة قد تعاملوا في الجاهلية بعملة الروم، وبعملة الفرس، وهي الدراهم على الأكثر ، وبعملة اليمن ، وأشار بعض العلماء الى عملة مغربية ، لم يذكروا عنها شيئاً[7] .

وذكر أن (عمر بن الخطّاب) ، أمر بضرب الدراهم على نقش الكسروية ، وشكلها بأعيانها ، غير أنه زاد في بعضها : (الحمد لله) ، وفي بعضها : (محمد رسول الله) ، وفي بعضها ، (لا إلّه إلا الله وحده) . وكان ذلك سنة ثماني عشرة من الهجرة . وفي آخر مدة عمر وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل . فلما بويع (عثمان) ضرب في خلافته دراهم نقشها : (الله أكبر) .

---

١ تاج العروس (٢/٣٧٢) ، (سجد) .
٢ تاج العروس (٢/٣٧٢) ، (سجد) .
٣ الاحكام السلطانية ، للماوردي (١٥٤) ، لابي يعلى (١٦٣) .
٤ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٥٩) .
٥ المصدر نفسه (ص ١٦٢) ، الاحكام السلطانية ، للماوردي (١٥٤) .
٦ الاحكام السلطانية ، للماوردي (١٥٤) .
٧ شرح النووي على صحيح مسلم (٤/٣٢٣) ، (حاشية على ارشاد الساري) .

وفي عهد (معاوية) ، ضرب الدراهم السود الناقصة من ستة دوانق ، فتكون خمسة عشر قيراطاً ، تنقص حبة أو حبتين . وضرب منها (زياد) ، وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل ، وكتب عليها ، فكانت تجري مجرى الدراهم. ولما قام (عبدالله بن الزبير) بمكة ضرب دراهم مدورة ، وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة ، وكان ما ضرب منها قبل ذلك ممسوحاً غليظاً قصيراً ، فدورها عبدالله . وضرب مصعب بن الزبير دراهم بالعراق ، وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل . فلما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان ، ضرب الدنانير والدراهم في سنة ست وسبعين من الهجرة [1] .

وجاء في رواية أخرى أن أصحاب رسول الله كانوا يتعاملون بدراهم العجم، فكان إذا زافت عليهم أتوا بها السوق ، فقالوا : من يبيعنا بهذه ؟ وذاك أنه لم يضرب النبي ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علي ، ولا معاوية[2]. وأن أول من ضرب المنقوشة عبد الملك بن مروان[3] . ونجد بين العلماء اختلافاً في أول من أمر بضرب الدنانير والدراهم في الاسلام .

وذكر بعض أهل الأخبار ، أنه كانت لقريش أوزان في الجاهلية ، فدخل الإسلام ، فأقرت على ما كانت عليه ، كانت قريش تزن الفضة بوزن تسميه درهماً ، وتزن الذهب بوزن تسميه ديناراً ، فكل عشرة من أوزان الدراهم سبعة أوزان الدنانير . وكان لهم وزن الشعيرة وهو واحد من الستين من وزن الدرهم، وكانت لهم الأوقية وزن أربعين درهماً ، والنش وزن عشرين درهماً ، وكانت لهم النواة وهي وزن خمسة دراهم ، فكانوا يتبايعون بالتبر على هذه الأوزان . وقد أقرهم الرسول على ذلك [4] . وكانوا يحتفظون بالأوزان المقررة ، حتى إذا حدث اختلاف على الوزن ، رجعوا الى الوزن المقرر المعتبر . وكان (أبو وداعة ابن ضبيرة السهمي) يمتلك وزن مثقال في الجاهلية ، يوزن به[5] .

---

١ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى الحنبلي (ص ١٦٠ وما بعدها الحاشية) .

٢ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٦٥) .

٣ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٦٤) ، وللمقريزي رسالة في النقود القديمة والاسلامية مطبوعة .

٤ فتوح البلدان (٤٥٢ وما بعدها) ، (أمر النقد) .

٥ فتوح البلدان (٤٥٢) ، (أمر النقد) .

وقد كانوا يثلمون أطراف الدينار والدرهم ، أو يقطعونهما قطعاً ، فيتعاملون بالقطع حسب الوزن ، ويفعلون ذلك غشاً ، كما كانوا يكسرون النقود ، للتأكد من صحة معدنها ، أو لتحويل الدنانير الى تبر[1] . وقد نهي في الاسلام عن التلاعب بالعملة ، مثل قرضهم أطراف الدراهم والدنانير بالمقراض، لغرض الاستفادة من تلك القراضة ، إذ يجمعونها فيسبكونها ، فيخرجون بذلك النقد المقروض عن سعره[2] .

والدرهم اذا عدل المثقال ، فهو درهم واف ، وهو الذي لا يزيد ولا ينقص بل وفى بزنته[3] .

وأطلق علماء اللغة على الدرهم لفظة (الوَرِق) ، وعلى الموسر المالك للدراهم المورق ، وسمّوا الفضة وَرِقاً[4] . وقد وردت اللفظة في نصوص المسند ، وكأنها نوع من أنواع العُمل ، أو وزن . فورد (خمسي ورقم) ، أي (خمسين ورق)[5] ، و (عشر ورقم) ، أي (عشر ورق) ، فكأن لفظة (ورق) هنا اسم علم لنوع معين من العملة ، أو وزن معين وعيار كان معروفاً عندهم . وذهب بعض العلماء إلى ان الورق : الذهب . وهذا التفسير ينطبق مع ما ذهب اليه المستشرقون من أن لفظة (ورق) في المسند ، تعني ذهباً . ولو فسرناها بهذا المعنى أيضاً ، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون المراد من (ورقم) عملة خاصة ضربت من ذهب . وأرجح ان المراد منها عملة خاصة عرفت بهذه التسمية .

وذكر بعض العلماء أن الورق : المال ، ورجل ورّاق كثير المال . والدراهم بعينها والفضة[6] .

---

١ (وفي الحديث : نهى عن كسر السكة الجائزة بين المسلمين الا من بأس ، يعني الدنانير والدراهم المضروبة ، أي لا تكسر الا من أمر يقتضي كسرها ، اما لرداءتها أو في صحة نقدها ٠٠٠ وقيل : كانت المعاملة بها في صدر الاسلام عددا لا وزنا ، وكان بعضهم يقص أطرافها فنهوا عن ذلك) ، اللسان (٦/ ٢٠) ، (بأس) ٠

٢ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٦٦) ٠

٣ تاج العروس (١٠/ ٣٩٤) ، (وفى) ٠

٤ تاج العروس (٧/ ٨٥ وما بعدها) ، المخصص (١٢/ ٢٤) ، « باب بيع الورق بالذهب نسيئة » ، عمدة القارىء (١١/ ٢٩٦) ، اللسان (١٠/ ٣٧٤ وما بعدها) ، (ورق) ٠

٥ Rep. Epigr. 4337.

٦ الاشتقاق (١٠٢) ٠

وأطلق أهل الحجاز على الدرهم والدينار لفظة (الناض) ، وذلك إذا تحول عيناً بعد أن كان متاعاً . وفي حديث (عمر) كان يأخذ الزكاة من ناض المال ، وهو ما كان ذهباً أو فضة ، عيناً أو ورقاً . وقالوا إن النض هو الدرهم الصامت[1]. أما إذا كان الدرهم رديئاً ، فيعبرون عنه بلفظة (بهرج) و (قسيّ) . فيقولون درهم بهرج ، أي رديء ، وكل مردود عند العرب بهرج ونبهرج . وذكر بعض العلماء أن اللفظة فارسية من (نبهرة) ، وأنها بمعنى الباطل والرديء، والدرهم البهرج الذي لا يباع به لرداءته ، والذي فضته رديئة وكل رديء من الدراهم وكل مردود عند العرب بهرج[2] .

وتعرف الدراهم بـ (قطاع) بلغة هذيل[3] .

ودرهم زائف مغشوش ، مردود لغش فيه . يقال درهم زيف وزائف . وزاف فلان الدراهم جعلها زيوفاً[4] . ودراهم فسول ، دراهم زائفة ، وأفسل عليه دراهمه ، اذا زيفها . « ومنه حديث حذيفة انه اشترى ناقة من رجلين وشرط لهما من النقد رضاهما ، فأخرج لهما كيساً فأفسلا عليه ، ثم أخرج كيساً فأفسلا عليه ، أي أرذلا وزيفا منها . وأصلها من الفسل وهو الرديء الرذل من كل شيء »[5] . وكان (عبدالله بن مسعود) يكسر الزيوف وهو على بيت المال[6] .

ويعبر عن الدراهم الموزونة بـ (دراهم مجربة)[7] ، لأنها مجربة . وقد ظهر من التجربة انها صحيحة غير منقوصة .

وقد ورد في الأخبار ، ان الخمسمائة درهم ، كانت تعادل في أيام النبي اثنتي عشرة أوقية ونش[8] . وأن الدرهم سبعة دوانيق ، وكل عشرة دراهم سبعة

١ تاج العروس (٥/ ٩٠) ، (نض) .
٢ تاج العروس (٢/ ١٠ وما بعدها) ، (بهرج) .
٣ تاج العروس (٥/ ٤٧٤) ، (قطع) .
٤ المخصص (١٢/ ٢٧) ، تاج العروس (٦/ ١٣٣) ، (زاف) .
٥ تاج العروس (٨/ ٥٨) ، (فسل) .
٦ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٦٧) .
٧ تاج العروس (١/ ١٨١) ، (جرب) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٦٢) .

مثاقيل[1] . و (النش) نصف أوقية ، وهو عشرون درهماً ، لأنهم يسمون الأربعين درهماً أوقية ، ويسمون العشرين نشاً ، ويسمون الخمسة نواة[2] .

وقد ذكر علماء اللغة نقداً دعوه (النُمّي) ، وقالوا إنه الدرهم الذي فيه رصاص أو نحاس ، وقال بعض آخر إنه الفلس من الرصاص بالرومية ، وكانت بالحيرة على عهد النعمان بن المنذر[3] . قال النابغة أو أوس بن حجر :

وقارفت وهي لم تجرب وباع لها من الفصافص بالنمي سفسير[4]

و (الدانق) من الأوزان ومن النقد . وهو (داناق) ، أيضاً ، من أصل فارسي هو (دانك) في الفهلوية ، ومن Dang و (دانك) Danak في الفارسية ، وهو (دنك) Dank في الارمية[5] . وهو يعادل سدس الدينار أو سدس درهم . وكان معروفاً عند أهل مكة في الجاهلية[6] .

أما (الفلس) ، فلفظة لاتينية يونانية الأصل ، عرّبت من أصل Follis اللاتيني ، ويراد بها نقود مسكوكة من النحاس . وقد استعملها العرب في تعاملهم واحتفظوا بالأصل الأجنبي . وقد كان الفلس في أيام القيصر (أنستاس الأول) (أنسطاسيوس الأول) (٤٩١ — ٥١٨ م) زهاء ثلاثين غراماً ، ووسم بالحرف M . وظهرت بعد ذلك فلوس بأوزان تقل عن هذه . ولما ضرب المسلمون النقد ، كانت الفلوس في جملة ما ضرب من نقد[7] .

---

١ شرح النووي على صحيح مسلم (٤/٣٢٤) ، (حاشية على الاصابة) .

٢ تاج العروس (٤/٣٥٦) ، (نش) .

٣ تاج العروس (٩/٨٥) ، (نم) ، (ن/م/م) ، (١٠/٣٧٨) ، (نمى) ، اللسان (١٢/٥٩٣) ، (نمم) .

٤ تاج العروس (٣/٢٧٢) ، (السفسير) ، (٩/٨٥) ، (ن/م/م) .

٥ Ency., I, p. 912.

٦ اللسان (١١/٣٩٤) ، (دنق) ، القاموس (٣/٢٣٢) ، تاج العروس (٦/٣٤٩) ، (دنق) .

٧ تاج العروس (٤/٢١٠) ، (الفلس) ، Ency., II, p. 47.

وذكر بعض أهل الأخبار ان (القيراط) جزء من الدينار أو الدرهم . وقد ذكر (القيراط) في الحديث . في حديث رعي الرسول غنم قريش وفي أحاديث أخرى[1] . وذكر بعض العلماء ان العرب لم تكن تعرف القيراط الذي هو من النقد[2] . وذكر (ابن الأثير) ان القيراط جزء من أجزاء الدينار ، وهو نصف عشرة ، ويظهر أن منهم من كان ستعمله وزناً ، ومنهم من جعله جزءاً من الدنانير والدراهم[3] .

---

١ ارشاد الساري (١٢٧/٤) .
٢ المصدر نفسه .
٣ تاج العروس (٢٠٣/٥) .

الفصل الثاني عشر بعد المئة

الصناعة والمعادن والتعدين

الصناعة حرفة الصانع وعمله الصنعة . ورجل صنع ، حاذق في الصنعة، وعماد الصانع على يديه ، يستعملها في صنع الأشياء ، كما يعتمد على ذكائه في تحويل الأشياء إلى أشياء أخرى أهم منها أو أي شيء آخر يريده ، أو يطلب منه . وهو بالطبع من أهم العناصر المنتجة اللازمة في الحياة الاقتصادية ، فهو محور الانتاج ، وعلى قدر انتاج أمة ، يقاس غناها ومقدار تقدمها في الحياة وتكون منزلتها بين الشعوب . فبالصناعة يتم تحويل المواد الخام ، الفائضة عن الحاجة ، إلى مواد أخرى أفيد منها ، تستهلك في الأسواق المحلية ، أو تباع في الأسواق الخارجية .

والحِرفة ، الطعمة والصناعة التي يرتزق منها ، وهي جهة الكسب . وكل ما اشتغل الإنسان به وضرى بـه ، أي أمر كان فإنه عند العرب يسمى (صنعة) و (حرفة) . يقولون : صنعه فلان أن يعمل كذا ، وحرفة فلان أن يفعل كذا ، يريدون دأبه وديدنه . ذكر أن (علي بن أبي طالب) ، قال : «إني لأرى الرجل ، فيعجبني ، فأقول ، هل له حِرفة ؟ فإن قالوا : لا سقط من عيني »[1] .

و (المهنة) ، عند العرب الحذق بالخدمة والعمل . وامتهنه : استعمله للمهنة

---

١ تاج العروس (٦/٦٩) ، (حرف) .

وابتذله ، والماهن : العبد والخادم[1] . والمهنة العمل ، والعامل هو الذي يقوم بعمل ما ، والعملة العاملون بأيديهم ، وهم الذين يرتزقون بعمل أيديهم . والعمالة رزق العامل الذي جعل له على ما قلد من العمل . ومن العملة : العاملون في طين ، أو في حفر ، أو في بناء أو غير ذلك . وعامله معاملة سامه بعمل . والأعمال الذين يقومون بما تحتاج اليه من عمارة وزراعة وتلقيح وحراسة ونحو ذلك . وما يعطاه العامل من أجر العمل هو (العملة)[2] .

وأغلب العَمَلة فقراء لا يملكون شيئاً ، رزقهم بعملهم ، فإذا مرض أحدهم أو أصيب بعاهة انقطع رزقه . ثم ان أجورهم قليلة وأرزاقهم من عملهم شحيحة، ولذلك كانت حياتهم ضنكة . عليهم العمل قدر الإمكان لإعاشة أنفسهم وذويهم، والمشي على أرجلهم بحثاً عن عمل . ولهذا فلا عجب إذا ما عرفوا بـ (بني عمل). و (بنو عمل) المشاة على أرجلهم من المسافرين . الذين وصفهم أحدهم الأعراب فقال :

يحث بكراً كلما نص ذمل قد احتذى من الدماء وانتعل
ونقب الأشعر منه والأظل حتى أتى ظل الأراك فاعتزل
وذكر الله وصلى ونزل بمنزل ينزله بنو عمل
لا ضفف يشغله ولا ثقل[3]

والحرف ، أي العمل باليد من الأمور المستهجنة عند الأعراب ، وعند أكثر العرب أيضاً ، فلا يليق بالعربي الشريف الحرّ ، أن يكون صانعاً ، لأن الصناعة من حرف العبيد والخدم والأعاجم،والمستضعفين من الناس . وقد سبق أن تحدثت عن مكانة الصناع في المجتمع ، وعن ازدراء الناس لهم ، على الرغم من احتياجهم اليهم ، وكونهم الطبقة المنتجة المثمرة في المجتمع ؛ وأن أيديهم هي التي تصنع ما يحتاج الإنسان اليه من حاجات ، ومدحهم الرجل الصنع اليد ، بقولهم : « رجل صنع اليدين » . أي حاذق ماهر في الصنعة مجيد من قوم صنعى الأيدي،

---

١ تاج العروس (٩/٣٥٤ وما بعدها) ، (مهن) .
٢ تاج العروس (٨/٣٥) ، (عمل) .
٣ تاج العروس (٨/٣٥) ، (عمل) .

حتى أنهم كانوا إذا وصفوا انساناً بالبلاغة ، قالوا : رجل صنع اللسان ، ولسان صنع . قال الشاعر حسان بن ثابت :

أهدى لهم مدحي قلب يوازره   فيما أراد لسان حائك صنع[1]

ولا تقوم صناعة ، إلا في مكان تتوفر فيه امكانياتها من استقرار وأمن، ومن وجود حاجة اليها ، ومن توفر المواد الأولية فيها ، والمواد الخام اللازمة لها . ومعنى هذا وجود مكان حضري . أما البداوة ، فحاجاتها الى الانتاج قليلة ، لسذاجة الحياة وبساطتها فيها . ولهذا تكون الصناعة فيها بسيطة ، بساطة تتناسب مع بساطة ذلك المجتمع البدوي ، ومع درجة بداوته ، ولهذا تفاوتت مستويات الصناعة البدوية ، بتفاوت مستوى البداوة ، وبتفاوت درجة حاجاتها الى الأشياء. فالبداوة المنعزلة عن الحضارة، التي قلّ اتصال أبنائها بالحضر ، وبالعالم الخارجي، وشحت خبراتها ومواردها الأولية ، لا يمكن أن تظهر فيها صناعة متطورة ، ولا يعقل نموّ عمل مزدهر فيها ، لانعدام الموارد الطبيعية المغذية للعامل ، وللسادة أصحاب المال ، ولعدم وجود حاجة اليها مع تلك البداوة القانعة بالبساطة في الحياة. ومن هنا نجد ، أن الصناعة ، لم تتطور ، إلا في المجتمعات المتطورة، التي توفرت فيها امكانيات التصنيع ، وشعرت بضرورة الاستفادة من الثروات الطبيعية المتوفرة لديها بتصنيعها ، أي بتحويلها الى موارد أخرى يحتاج اليها ، وتوفرت فيها الوسائل اللازمة لظهور الصناعة .

والمجتمعات البدوية مهما كانت من البداوة أو البدائية ، فإنها لا تخلو من وجود صناعات بها . صناعات بدائية ، هي من ناتج حاجات ذلك المجتمع ، وناتجها يتناسب بالطبع مع حالة تلك البداوة . ولا يصح نفي وجود الصناعة بها .

وقد لعب الرقيق والموالي دوراً كبيراً في أعمال الحرف والزراعة في جزيرة العرب . إذ استخدموا في التعدين وفي الزرع . وقد ذكر (الهمداني) أنه كان بمعدن (شمام) ألوف من المجوس الذين يعملون المعدن ، حتى أنه كان لهم بيتا نار يعبدان في ذلك المكان[2] . وذكر أنه كان بـ (جهران) قوم من وضيع

---

١ تاج العروس (٥/٤٢١) ، (صنع) .
٢ الصفة (١٤٩) .

تبع ، أي من الطبقة الوضيعة ، وكذلك بـ (قتاب) ، حيث نسبوا الى (تبع) قوله :

فسكنت العراقَ خيارَ قومي وسَكَنت النبيط قرى قتاب[1]

وكان بمدينة العقيق ، وهي معدن، مائتا يهودي[2] . ولم يذكر (الهمداني) متى كانوا هناك ولا سبب وجودهم بهذا الموضع ، للاتجار أو للعمل بالمعدن .

وقد نتج من هجرة الأجراء والصناع الى القرى والمدن اختلاط في السكان ، لا يحدث مثله عند أهل الوبر . وهو مما جلب ازدراء الأعراب على الحضر ، فكان سكان (ذمار) جمع من حمير ومن أنفار من الأبناء . وكان أهل (جهران) من بطون حمير ، وقوم من وضيع تبع[3] . وقد استعمل الهمداني لفظة (أخلاط) للتعبير عن اختلاط سكان موضع ما ، ووجود عناصر متباعدة فيه لا ترجع الى قبيلة واحدة[4] . واستعمل لفظة (خليط) كذلك[5] ، لأن مدن اليمن وقراها كانت خليطاً من بطون ترجع الى عشائر مختلفة . وهي سمة الحياة الحضرية ، حيث يفد الناس الى مواضع الحضارة من مختلف البطون والعشائر .

وقد استعمل (الهمداني) لفظة (لخوم العرب) في معنى بطون العرب، وكذلك لفظة (طخوم) في المعنى ذاته[6] . وذلك في أثناء حديثه عن المواضع التي اختلط فيها السكّان لوجود فرص العمل بها والرزق الوافر الجزيل .

الإجارة :

والأجر والأجرة يقال فيما كان عن عقد وما يجري مجرى العقد[7] . والاجارة

---

١ الصفة (١٠٤) .
٢ الصفة (١٥٣) .
٣ الصفة (١٠٤) .
٤ الصفة (٩٥) ، (وفيهم أخلاط من بني غيلان ...) .
٥ الصفة (٥٤) .
٦ الصفة (١٦٥) .
٧ المفردات (ص ٩) .

ما أعطيت من أجر في عمل[1] . وهي شرعاً عقد على منفعة مقصودة معلومة قابلة للبذل والإباحة بعوض معلوم[2] . وهي واسعة تشمل نواحي متعددة من فروع الاستئجار.

والأجير ، من يشتغل لغيره في مقابل أجر يدفع له . والأجـرة ، الكراء . وهو ما يعطى الأجير في مقابلة العمل[3] . منهم من يشتغل في الحرف، مثل النجارة والحدادة والبناء وأمثال ذلك ، ومنهم من يشتغل في الزراعة ، ومنهم من يستأجر لأداء أعمال لأجل ، مثل خدمة الفوافل ، أو حراسة زرع وما شابه ذلك، فاذا انتهى الأجل انتهى العمل .

وما يدفع الى الأجير في مقابل عمله ، يتوقف على الشروط التي اتفق صاحب الأرض مع الأجير عليها . فقد يكون الأجر نقداً ، ويقال لذلك (ورقم) (ورق) في لغة المسند . وهو في القليل ، لقلة النقد آنذاك . وقد يكون حصة، أي نصيباً يتفق عليه مع الملاك يؤخذ من الحاصل ، وقد يكون مقايضة ، بأن يدفع للأجير ما يحتاج اليه في حياته من ملبس أو غذاء،أو حيوان ، وأمثال ذلك ، في مقابل جهده وتعبه .

ومن ذلك استئجار الإنسان للقيام بتنفيذ عقد محدد ويبين ويتفق عليـه ، كأن يقوم برعي النعم والماشية مقابل مبلغ من مال أو شيئاً آخر يتفق عليـه ، كالذي روي من أن الرسول رعى غنم قريش عـلى قراريط[4] . أو استئجار شخص أو أشخاص للعمل في سفينة أو في أرض أو لارشاد قافلة أو نفر الى طريق للوصول الى موضع[5] . أو استئجار رجـل ليعمل عملاً محدد بأجل ، أي بوقت ، كأن يحدد بالساعات أو النهار أو الليل كالحراسة أو أياماً أو شهوراً أو سنة او أكـثر أو بغير أجل موقوت[6] . أو استئجار رجل للقيام بعمل محدود معين كالغزو[7] ، أو الحمل ، أي أن يحمل حمـلاً ينقله الى موضع يعين له . أو ينقله من مكان الى مكان[8] .

---

١ اللسان (٤/١٠) .
٢ ارشاد الساري (٤/١٢٦) .
٣ تاج العروس (٣/٧) ، (أجر) .
٤ ارشاد الساري (٤/١٢٦ وما بعدها) .
٥ ارشاد الساري (٤/١٢٧ وما بعدها) .
٦ ارشاد الساري (٤/١٣١ وما بعدها) .
٧ ارشاد الساري (٤/١٢٩ وما بعدها) .
٨ ارشاد الساري (٤/١٣٥) .

ومن ذلك استئجار النبي (عبدالله بن أريقط) من (بني الديل) ، ثم من (بني عدي) ليكون هادياً له للطريق يوصله الى يثرب ، فساحل به وبأبي بكر وبعامر بن فهيرة ، حتى بلغ يثرب . وكان قد ساحل ، لأن أهل مكة كانوا يتبعون طريق (بدر) الى المدينة ، فأراد التخلص بذلك من تعقيبهم له[1] . واستئجار المقاتلين ، للقتال عنهم . فقد كان أحدهم يعتذر عن المشاركة بنفسه في القتال لوجود أسباب مانعة ، فيرسل غيره للقتال عنه ، يدفع اليه أجراً عن ذلك[2] .

و (الكروة) و (الكراء) أجرة المستأجر . والمكاري ، هو الذي يكري دابته لغيره ، في مقابل (كروة)[3] . والمكارين ، هم الذين يكرون دوابهم ، وتدخل الإبل فيها ، فقد كان من أصحاب الإبل من يكاري إبله للتجار ولغيرهم تنقلهم الى مسافات بعيدة أو قريبة .

ويستخدم الملاكون وسادة الأرض الأجراء ممن لا أرض لهم ولا مال لديهم يحصلون به على أرض يستغلونها ، في الاشتغال بأرضهم ومزارعهم لإصلاحها وزرعها وبنائها . ويعرف هؤلاء بـ (ملجا) في بعض نصوص المسند . واللفظة من أصل (لجا) التي هي لجأ في عربيتنا . ويقيم اللاجىء في ملجئه ويتمتع بحماية صاحبه وسيده ما دام فيه ، يزرع ويبني لسيده في مقابل هذه الحماية التي يتمتع بها والحماية التي تحميه من أي ظلم أو اعتداء[4] .

ويعبر عن الأجراء الذين يستخدمهم الملاكون في زراعة الأرض واستغلالها مقابل أجر يدفع لهم بلفظة (اجرم) في المسند[5] . أي أجير وأجراء . والأجراء جماعة كبيرة ، تنقلت من ملك الى ملك ، ومن خدمة سيد الى خدمة سيد آخر ، لتخدم ملاكاً في مقابل أجر يتفق عليه ، وعقد يبرم بين المالك والأجير ، فإذا انتهى العقد أو العمل ، أو رأى المالك انتفاء الحاجة الى خدمة الأجير ، أنهى عمله . وقد كان الأجراء طبقة بائسة لا تملك شيئاً غير عمل يدها ، ولهذا كانت مضطرة بحكم فقرها هذا الى التنقل من مكان الى مكان للحصول على عمل تقتات

---

١ ارشاد الساري (٤/١٢٨) .
٢ ارشاد الساري (٤/١٣٠) .
٣ تاج العروس (١٠/٣١٣) ، (كرى) .
٤ Kat. Texte, II, S. 36.
٥ Jamme, South Arabian Inscriptions, pp. 76, 77.

منه . فكانت من جملة المشكلات الاجتماعية التي تعرضت لهـا حكومات جزيرة العرب في ذلك العهد .

وجاء في أحد النصوص المعينية : « كل معنم حرم واجرم » ، أي : « كل معين أحرار وأجراء » . ويقصد بـ (كل معـين) كل شعب معين[1] . فقسم هذا النص شعب معين الى أحرار ، والى أجراء . وهم أكثر حرية من (الأدم) ، أي (العبيد) والرقيق ، لأنهم يشتغلون بأجر وبعقود يتفقون عليها ، فاذا انتهى العقد ، أو حصل خلاف،جاز للأجير الانتقال الى موضع آخر ، أو الى صاحب محل آخر للعمل لديه ، على حين لا يجوز للعبد فعل ذلك ، لأنه ملك يمين .

ومن أجراء الزراعة أجراء (المحاينة) ، يؤدون خدماتهم موسم الحصـاد ، وينالون أجرهم في مقابل حصاد الحصاد ، حسب ما اتفق عليه . فهم يحصدون الزرع وينقلونه مع سنبلـه الى موضع تجميعه[2] . ويكون ذلك في المزارع الكبيرة التي تحتاج الى أعداد كبيرة من حصاد الزرع .

واليمن ، هي في مقدمة أجزاء جزيرة العرب في الصناعة ، ولا نكاد نجد في جزيرة العرب مكاناً يسبقها فيها . وهي الأولى في الانتاج أيضاً . وقـد عرفت منتجاتها في كل موضع من بلاد العرب . وهي المكان الوحيد فيها ، الذي زادت صادراته فيه على وارداته ، وكان مستواه المعاشي فيه أعلى من المستوى المعـاشي لبقية أجزاء جزيرة العرب . وكان مستهلكاً ومنتجاً ، لحاجتـه الى الاستهلاك . ثم هو المكان الوحيد ، الذي نجد فيه التمايز الطبقي ، والعنعنات الطبقية واضحـة ظاهرة ، لتباين الظروف المعاشية التي عاشت فيها طبقات المجتمع ، فأسياد أغنياء، وطبقات وسط ، وطبقات فقيرة معدمة ، لا تجد رزقها إلا بشق الأنفس .

ولم تبرز صناعة اليمن في نوع واحد أو في صنف معين ، بل برزت في كل نوع من أنواعها المعروفة في ذلك العهد ، والتي دعت الحاجة الى ظهورها ، والتي وجدت موادها الأولية فيها . مثل صناعة الحديد واستخراج المعادن ، وتحويلهـا الى مصنوعات ، والنجارة والحياكة ، والدباغة ، والأصباغ والصموغ ، وغـير ذلك من صناعات اشتهرت اليمن بها وارتبط اسمها بها .

---

١ النقش رقم ٥ ، الفقرة ٣ من كتاب خربة معين (ص ٥)

٢ تاج العروس (١٨٨/٩) ، (حين) .

و (الذهب) هو (ذهبن) في لغة المسند ، أي (الذهب) . ويقال له التبر أيضاً . وذكر أن (التبر) الذي في المعدن ، والذي لم يضرب ولم يصنع[1] . ومن أسمائه (العسجد) . وقيل العسجد اسم جامع يطلق على الجوهر كله كالدر والياقوت[2]. وذهب (ابريز) ، بمعنى خالص . و (العقيان) ، الذهب الخالص ، أو الذهب الذي لا يستذاب من الحجارة ، وإنما هو ذهب ينبت نباتاً[3] . مما يدل على أنهم يقصدون وجود حبيبات منه خالصة في معادنه ، يجمعونها ، فيحصلون عليه من غير نار ولا اذابة حجر . وكانوا يطحنون أحجار الذهب،ويذرون تراب المعدن، لاستخلاص الذهب منه . يقال : « ذريت تراب المعدن ، طلبت ذهبه »[4] . ويقال لتراب الذهب (السحالة) ، وهي أيضاً قشر البر والشعير والأرز[5] .

وكانوا يضعون المعدن في التنور ليميع ، ثم يجعلونه في (الكوج) ، ليتخلص المعدن وينقى من الشوائب[6] .

وقد ذكر الجغرافيون العرب أسماء مواضع عرفت بوجود خام الذهب بها ، مثل موضع (بيشة) أو (بيش) ، وقد كان الناس يجمعون التبر منه، ويستخلصون منه الذهب[7] . و (ضنكان) ، وكان به معدن غزير من التبر[8] . والمنطقة التي بين القنفذة ومرسى (حلج)[9] . وورد أن بـ (بيش) عدة معادن[10] . وذكر (الهمداني) أن بقرية (بنات حرب) شيء من الذهب[11] . وأن معدن (صعاد)، وهو من ديار (عقيل) هو أغزر معدن في جزيرة العرب ، وهو الذي ذكره

---

١ تاج العروس (٢٥٨/١) ، (ذهب) .
٢ تاج العروس (٤٢٢/٢) ، (العسجد) .
٣ تاج العروس (٢٤٩/١٠) ، (عقى) .
٤ تاج العروس (١٣٦/١٠) ، (ذرو) .
٥ تاج العروس (٣٧٢/٧) ، (سحل) .
٦ بلاد العرب (٣٨٠ وما بعدها) .
٧ البلدان (٣٣٣/٢ فما بعدها) ، الصفة (١٢٧ ، ١٥٣ ، ٢٥٧) ، المسالك والممالك (١٨٨) ، فؤاد حمزة ، في بلاد عسير (٦١ فما بعدها) ، Moritz, S. 105.
٨ الصفة (١٢٠) ، (وضنكان : وهو معدن غزير ولا بأس بتبره) .
٩ Moritz, S. 110, Glaser, Skizze, S. 29.
١٠ تاج العروس (٢٨٥/٤) ، (بيش) .
١١ الصفة (٢٥٧) .

الرسول في قوله: مُطرت أرض عقيل ذهباً . مما يدل على أنه كان معدن ذهب[1]. وقد ذكر بعض العلماء أن العرب تسمي معدن الذهب (خُزَيْبة)[2] .

ومن معادن الذهب ، معدن (القُفاعة)[3] ، ومعدن (الأحسن) ، (الحسن) وهو معدن لبني كلاب ، من أول عمـل المدينة وأدنى عمل المدينة الى اليمامة[4] . ومعدن (المؤخرة) ، وهو من مياه (بني الأضبط) من بني كلاب . وهـو معدن ذهب وجزع أبيض[5] ، و (ثَخْب) ، وهو جبل بنجد لبني كلاب، عنده معدن ذهب ومعدن جزع[6]،و (القَشْراء)[7] ، و (خُصْلَة) ، ومعدن (خصلة) بحذائها ، وكان بـه ذهب[8] ، ومعدن (شيبان) ، وبه معادن الذهب والفضة والصفر[9] ، ومعدن (موزر) ، بضرية من ديار كلاب[10] ، و (ناضحة) بين اليمامة ومكة[11] ومعدن (الهردة)[12] ، ومعدن (المخلفة) ، وهو معـدن ذهب جيد ، بأرض حجور . وقد وصفه الهمداني ، وذكر ما كان يستخرج منه من الذهب[13] . وقد ضبط معدن الهردة بـ (الهروة) في موضع آخر مـن (تاج العروس) ، وقال إنه عنـد (الحوأب) وبه معـدن ذهب[14] ، ومعدن

---

١ الصفة (١٧٧) .

٢ كجهينة ، تاج العروس (١/٢٣٢) ، (خزب) .

٣ الصفة (٦٧ ، ٧٣) ، العرب ، السنة الثانية (الجزء الحادي عشر) (آب ١٩٦٨) ، (ص ٩٨٠ وما بعدها) ، (اشكر الدكتور صالح أحمد العلي على تقديمه هذا العدد وأعدادا أخرى من هذه المجلة الي للاستفادة منها ، ولتقديمه كتبا أخرى ، لم تكن متيسرة لدي) ، الصفة (٦٧) .

٤ بلاد العرب ، للحسن بن عبدالله الاصفهاني (ص ٣٧٠ ، ٣٨٧) « ١٩٦٨ » ، (تحقيق حمد الجاسر والدكتور صالح أحمد العلي) .

٥ بلاد العرب (١٩٨) ، العرب (آب ١٩٦٨) ، (ص ٩٨٤) .

٦ بلاد العرب (١٥٩ ، ١٩٩) ، تاج العروس (١/١٦٢) ، (ثخب) ، العرب (٩٨٤) ، (آب ١٩٦٨) .

٧ بلاد العرب (١٩٩) ، العرب (٩٧٩ وما بعدها) ، (آب ١٩٦٨) .

٨ بلاد العرب (٤٥) .

٩ بلاد العرب (٣٩٨) .

١٠ بلاد العرب (٢٠٠) ، العرب (٩٨٤ وما بعدها) ، (آب ١٩٦٨) .

١١ بلاد العرب (١٦٦) ، العرب (٩٨٥) ، (آب ١٩٦٨) .

١٢ بلاد العرب (١٥٤) ، تاج العـروس (٢/٥٤٦) ، (هـرد) ، العـرب (٩٨٩) ، (آب ١٩٦٨) .

١٣ الصفة (١١٣) ، العرب (٩٨٣) ، (آب ١٩٦٨) .

١٤ تاج العروس (٣/٥٦) ، (بقر) .

(الهجيرة)[1] . ومعدن (الحراضة) ، ويقع بين (ينبع) والمروة معـادن للذهب[2] ومعدن (الحُفير) بناحية (عماية) وهو معدن ذهب غزير ، ومعدن (الحسن) ، ومعدن (الثنية) ثنية (حصن بن عصام الباهلي) ، ومعدن تياس ، ذهب مخف بتياس[3] . و (العقيق) : وهو من معادن الذهب[4] . وهو مدينة كان فيها مائتا يهودي ونخل كثير وآبار[5] . ومعدن الضبيب ، عن يسار الضبيب[6] .

ويظهر أن منجم (مهد الذهب) ، هو المنجم الذي كان لبني سُليم ، فعرف باسمهم وقيل له : (معدن بني سليم) (معدن سُلَيم) ، وقـد أقطعه الرسول (بلال بن الحارث)[7] . وقد عثرت شركة التعدين السعودية العربية على أدوات فيها استعملها الأولون قبل الاسلام في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه ، مثل رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح ، وشاهدت آثار القـوم في حفر العروق التي تكون الذهب . وقد عرف معدن (بني سليم) بـ (فران) (قران ؟) ، وقـد نسب الى (فران بن بلي) دخلوا في (بني سليم) ، ويأخذ عليه طريق الكوفة الى مكة [8] .

وتعرف (الفضة) ، في نصوص المسند بـ (صرفن) (الصرف) . والفضة من المعادن المشهورة المعروفة في اليمن . و (الصريف) الفضة الخالصة [9] . وقد كانت جزيرة العرب في جملة الأسواق التي موّنت العبرانيين بهذا المعدن[10] .

ومن المواضع التي عرفت بالفضة (عوسجة) في بلاد هذيل . فقـد كان

---

١ الصفة (١٥٤) ، العرب (٩٨٩) ، (آب ١٩٦٨) ، الصفة (١٥٤) .
٢ العرب (٩٩٠) ، (آب ١٩٦٨) .
٣ الصفة (١٥٢) ، البلدان (٢٧٧/٢) .
٤ الصفة (١٦٦) .
٥ الصفة (١٥٣) ، البلدان (٢٧٧/٢) .
٦ الصفة (١٥٣) .
٧ « بلال بن الحارث بن بجير » ، الاصابة (١٦٨/١ وما بعدها) ، (رقم ٧٣٥) ، الصفة (١٣١) ، Naval, p. 517.
٨ بلاد العرب (١٤٨ ، ١٧٤ ، ١٧٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٣) ، (وفران بن بلي بن عمران بن الحافي في قضاعة) ، تاج العروس (٣٠٠/٩) ، (فرن) .
٩ تاج العروس (١٦٣/٦) ، (صرف) .
١٠ Hastings, p. 619.

معدناً للفضة[1] . ومعدن (شمام) ، معدن فضة ومعدن نحاس وصفر ، « وكان به ألوف من المجوس الذين يعملون المعدن ، وكان به بيتنا نار يعبدان[2] » ، ومعدن (شيبان)[3] ، ومعدن (اليحموم) .

وقد ذكر (الهمداني) أن بـ (قرية المعدن) ، معدن فضة ، فضة لا نظير لها في الغزر ، وبقربه معدن الرضراض[4] ، وهو معدن فضة كذلك ، لا نظير له[5]. وذكر صاحب كتاب بلاد العرب أن (خزبة) معدن من معادن اليمامة ، وكانت جبالها إنما هي فضة ، ثم مسخت معادنها فصارت شيئاً آخر إذا صيرت الى (الكوج) التي كانت تخلص فيه ، وتخلصت تصدعت كتصدع الزجاج ، لا ينتفع بها[6] .

و (اللجين) الفضة[7] ، و (الوذيلة) القطعة من الفضة ، وقيل السبيكة منها ، وقيل القطعة من الفضة المجلوة ، ولعل ذلك هو الذي حمل الطائيين على تسمية المرآة (الوذيلة) ، لأن المرآة في ذلك الوقت صفيحة من المعدن مجلوة ، ينظر فيها[8] .

وقد كانت السلطات الحاكمة تأخذ (الخمس) من معادن (الفرع) ، و (نجران) ، و (ذي المروة) ، و (وادي القرى)[9] . مما يدل على ان الناس كانوا يستغلون مناجم هذه الأرضين في الاسلام .

ويظهر ان ما كان يستخرجه أهل الجاهلية من الذهب والفضة من معادنهما لم يكن بمقياس واسع وبكميات كبيرة تصلح للتصدير الى الخارج ، بدليل اننا لم نعثر على خبر عنه لا في كتابات المسند ولا في روايات أهل الأخبار ، ثم انهم لو كانوا يستخرجون المعدنين المذكورين بكميات وافرة، لاستمروا على الاستخراج ولحسنوا كيفية استخلاص المعدنين المذكورين من معدنهما الى ظهور الاسلام ،

---

١ تاج العروس (٧٤/٢) ، (عسج) ، بلاد العرب (٢٤١) ، الصفة (١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٣) .
٢ بلاد العرب (٢٣٦) ، الصفة (١٤٩ ، ١٥٤) .
٣ بلاد العرب (٣٩٨) .
٤ الصفة (٨١) .
٥ الصفة (٢٠٢) .
٦ بلاد العرب (٣٧٩ وما بعدها) .
٧ تاج العروس (٣٣٠/٩) ، (لجن) .
٨ تاج العروس (١٥٣/٨) ، (وذل) .
٩ البلاذري ، فتوح (٢٧) .

ولأشير الى ذلك حتماً في الموارد الاسلامية ، ولما سكتت هذه الموارد عن الاشارة اليها .

وقد استخدم أهل اليمن الرصاص في كثير من الأعمال ، منها صبه في أسس الأعمدة،وبين مواضع اتصال الحجارة ، لترتبط بعضها ببعض . وقد عثر المنقبون على بقايا منه في مواضع متعددة من الأماكن الأثرية باليمن . والرصاص ضربان : أسود ، وهو الأسرب والأبار ، والأبيض ، وهو القلعي . وقد عرف بالآنك ، والأسرب ، والأسرف ، والصرفان . وشيء مرصص مطلي بـه . وكانوا يطلون الأواني به ، ويشربون بها [1] . وذكر أن (الآنك) ، هو الأسرب ، وهـو الرصاص القلعي ، أو أبيضه ، أو أسوده ، أو خالصه ، وذكر أن الآنك بمعنى الخالص ، وأنهم كانوا يقولون:هذا رصاص آنك ، بمعنى هذا رصاص خالص[2] . وقال بعض العلماء : الانك هو القزدير (القصدير) . وورد في الحـديث : من استمع الى مغنيـة صب الله الآنك في اذنيه يوم القيامة[3] . والأسرب ، الآنك ، وهو الرصاص ، واللفظة من المعربات ، عربت من أصل فارسي[4] . والأسرف، لفظة معربة أيضاً ، تعني الآنك ، من أصل فارسي،هو (سرب)[5] . و(الصرفان) هو الرصاص القلعي ، وقيل النحاس[6] . وأرى أن الرصاص القلعي ، هو رصاص استخرج من (القلعة) موضع باليمن ، بوادي (ظهر) به معدن حديد ، واليـه نسبت السيوف القلعية . زعموا أن (الجن) تغلبت عليه[7] .

وللحديد معدن في (رُغافة) ، باليمن على مرحلة من صعدة [8] . وفي (قساس) ذكر انه جبل بديار بني نمير ، وقيل بني أسد فيه معدن حديد . وذكر أهـل الأخبار اسم موضع آخر عرف بوجود معدن الحديد فيه ، قالوا انه بأرمينية منه

---

١ القاموس (٢/٣٠٤) ، تاج العروس (٤/٣٩٧) ، (رص) .
٢ تاج العروس (٧/١٠٤) ، (آنك) .
٣ تاج العروس (٧/١٠٤) ، (انك) .
٤ تاج العروس (١/٢٩٧) ، (سرب) .
٥ تاج العروس (٦/١٣٨) ، (سرف) .
٦ تاج العروس (٦/١٦٤) ، (صرف) .
٧ تاج العروس (٥/٤٨٠) ، (قلع) .
٨ العرب (١٩٩ وما بعدها) ، (آب ١٩٦٨) .

السيوف القساسية [1] . وذكر (الهمداني) أن باليمن معادن حديد غير معمولة بنقم وغمدان [2] .

ولعل كثرة الحديد باليمن ، واشتهارها به ، جعل أهل الأخبار يروون ان أول من عمل السنان من حديد هو (ذو يزن) (ديرون الحميري) [3] ، وانما كانت أسنة العرب من صياصي البقر [4] . وقد اشتهرت اليمن بسيوفها ، فالسيوف اليمانية هي من السيوف الجيدة التي اكتسبت سمعة طيبة عند الجاهليين .

و (النحاس) الصفر ، وقيل ما سقط من شرار الصفر ، أو الحديد اذا طرق [5] . والصفر ، النحاس الجيد ، وقيل هو ضرب من النحاس ، وقيل هو ما صفر منه . والصفر الذهب أيضاً [6] .

واستعملت لفظة (هاع) بمعنى سال وذاب ، في نصوص المسند ، استعملت لمناسبة صب الرصاص الذائب في أسس الأبنية وبين فواصل أحجار الأعمدة، لتشدها شداً محكماً .

والكبريت من المعادن الموجودة فى اليمن . و (ذمار) هي مركزه ومنها يجلب الى سائر أعمال اليمن [7] . وذكر انهم كانوا يكبرتون أباعرهم ، يطلونها بالكبريت مخلوطاً بالدسم والخضخاض ، وهو ضرب من النفط أسود رقيق لا خثورة فيه ، وليس بالقطران ، لأنه عصارة شجر أسود خاثر . وكانوا يستحمون في العيون التي يجري منها الماء مشوباً به ، ولها رائحة الكبريت [8] .

و (الجزع) من الأحجار التي تستعمل في الفصوص التي توضع في الأختام .

---

١ قال الراجز :
أخضر من معدن ذي قساس ... كأنه في الحير ذي الاضراس
ترمي به في البلد الدهاس
تاج العروس (٤/٢١٧) ، (قس) ، العرب (٩٩٢) ، (آب ١٩٦٨) .
٢ الصفة (٢٠٢) .
٣ ثمرات الاوراق (٢/١٣٣) ، (حاشية على المستطرف) .
٤ ثمرات الاوراق (٢/١٣٣) ، العقد الفريد (٣/٣٧٠) ، اللسان (٢/٤٥٢) ، الروض الانف (١/٩) ، تاج العروس (٢/١٤٥) .
٥ تاج العروس (٤/٢٥٤) ، (نحس) .
٦ تاج العروس (٣/٣٣٧) ، (صفر) .
٧ ابن المجاور (٢/١٩٠ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (١/٥٧٥) ، (كبرت) .

وقد تحفر عليها كتابة أو صور[1] . وقد عثر على فصوص من هذا النوع في مواضع عديدة من الآثار في اليمن وفي العربية الجنوبية والغربية وفلسطين . وذكر علماء اللغة أن الجزع : الخرز اليماني الصيني ، وزاد بعضهم الصيني ، فيه سواد وبياض تشبه به الأعين . قيل إنه سُمّي جزعاً ، لأنه مجزع ، أي مقطع بألوان مختلفة . وقد أشير اليه في شعر امرىء القيس[2] . ومن الجزع : الجزع السماوي، وهو العشاري من وادي عشار[3] .

وقد اشتهرت (ظفار) بالجزع . فقيل : (جزع ظفار)[4] . قيل إنه من (ظفار الحقل) ، قرب صنعاء على مرحلتين منها ، وقيل إنه منسوب الى (ظفار أسد) مدينة باليمن[5] . وكان لعائشة عقد من جزع ظفار[6] . واستخرج أيضاً من جبل شبام[7] . ومن معادنه معدن ضهر ، ومعدن سعوان ، ومعدن عذيقة ، مخلاف خولان[8] . ومن الجزع الموشى والمُسيّر ، وهو في مواضع من اليمن ، منها النقمى[9] .

وعرفت اليمن بالعقيق ، تتخذ منه الفصوص ، يؤتى به من اليمن من معدن له على مرحلة من (صنعاء) يقال له (مقرأ) (مقرى) . وهو أجود من عقيق غيرها[10] . ويوجد عقيق آخر يستورد من الشحر . وقد تختم

---

١ الاشارة الى محاسن التجارة (ص ١٨) .

٢ كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

وقال أيضا :

فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم في العشير مخول

القاموس (١٢/٣) ، (جزع) ، تاج العروس (٣٠٠/٥) ، (جزع) ، ابن المجاور (١٨٤/٢) .

٣ الاكليل (٣٠/٨) ، العرب (٩٩٨) ، (آب ١٩٦٨) .

٤ قال المرقش الاكبر :

تحلين ياقوتا وشذرا وصنعة وجزعا ظفاريا ودارا توائما

تاج العروس (٣٠٠/٥) ، (جزع) .

٥ تاج العروس (٣٧٠/٣) ، (ظفر) .

٦ تاج العروس (٣٠٠/٥) ، (جزع) .

٧ ابن المجاور (١٨٤/٢) .

٨ الاكليل (٣٠/٨) ، العرب (٩٩٧ وما بعدها) ، (آب ١٩٦٨) .

٩ الصفة (٢٠٢) .

١٠ تاج العروس (١٠٣/١) ، (قرأ) .

به[1] . وذكر انه يستخرج من جبل شبام[2] . ومن (الهام) ، ومن (الهان) ، ومن (شهارة) ، ومن قساس[3] . وذكـر (الهمداني) ، ان العقيق الأحمر ، والعقيق الأصفر العتيقين من ألهان[4] .

وقد عرف معدن (بقران) بالأحجار التي تستخرج منها الفصوص البقرانية . وهو في مخلاف بني نجيد من اليمن[5] . وذكر (الهمدانـي) ، أن (البقران) ألوان ، ويبلغ المثلث بها مالاً ، إذ يشترى بأسعار عالية ، وهو أن يكون وجهه أحمر ، فوق عرق أبيض ، فوق عرق أسود . ويوجد البقران بجبل أنس ، وهو ينسب الى أنس بن ألهان بن مالك[6] .

ومن الأحجـــار الأخرى : الفصوص السعوانية من سعوان ، وادٍ الى جنب صنعاء ، وهو فص أسود فيه عرق أبيض ، ومعدنه بشُهارة ، وعيشان من بلد حاشد الى جنب هنوم ، وظليمة والجمش من شرف همدان . والعشاري ، وهو الحجر السماوي[7] .

ومن الفصوص الثمينة: (الدهنج) كالزمرد ، حصى أخضر تتخذ منه الفصوص، وأجوده : (العدسي)[8] . ومن معادنه حرة بني سليم[9] ، وحرة النار[10] .

ومن الجواهر الأخرى : (الزمرد)[11] والزبرجد[12] ، و (الشذر) ، قطع من الذهب تلقط من معدنه بلا إذابة الحجارة ، ومما يصاغ من الذهب فرائـد يفصل بها اللؤلؤ والجوهر ، وقيل خرز يفصل بها ، أو اللؤلؤ الصغار[13] .

و (الجمست) معدن يستخرج من (الصفراء) على ثلاثة أيام من المدينــة ،

---

١ تاج العروس (١٥/٧) ، (عق) .
٢ ابن المجاور (١٨٤/٢) .
٣ العرب (٩٩٨) ، (آب ١٩٦٨) .
٤ الصفة (٢٠٢) .
٥ تاج العروس (٥٦/٣) ، (بقر) .
٦ الصفة (٢٠٢) .
٧ الصفة (٢٠٢) .
٨ تاج العروس (٤٦/٢) ، (دهنج) .
٩ العرب (٩٩٥) ، (آب ١٩٦٨) .
١٠ العرب (٩٩٥) ، (آب ١٩٦٨) ، تاج العروس (١٣٥/٣) . (حرر) .
١١ تاج العروس (٣٦٤/٢) ، العرب (٩٩٦) ، (آب ١٩٦٨) .
١٢ تاج العروس (٣٦٣/٢) ، (الزبرجد) .
١٣ تاج العروس (٢٩٤/٣) ، (شذر) .

وهو في جملة ما يقال له (القوارير)[1] . والبلور ، ويستخرج من البراري من بين الحصى ، ومن (ضهر) ، و (سعوان) ، ومن (عذيقة) مخلاف خولان، ومن وادي عشار ، ومن الهان ، وشهارة[2] .

و (الدرة) اللؤلؤة العظيمة ، وما أعظم من اللؤلؤ[3] . ويستخرج اللؤلؤ من الخليج ، وقد اشتهرت البحرين به منذ أيام ما قبل الإسلام . وأما (الياقوت)، فأجوده الأحمر الرماني ، وقد استورد من سرنديب (سيلان)[4] .

والزاج ، مشهور في اليمن ، ويقال له الشب اليماني ، وهو من الأدوية[5] . و (الشب) ، حجارة يتخذ منها الزاج وما أشبهه ، وأجوده ما جلب من اليمن، وهو شب أبيض له بصيص شديد ، وقد استعمل في دباغة الجلود . وقد أشير اليه في الحديث . وذكر بعض العلماء ان الزاج كثير الأصناف،وهو غير الشب ، وينبعثان من معدن واحد ، والشب من المعادن الأربعة التي لم تكمل صورتها ، وهي الزاج والملح والنوشاذر والشب ، والشب يشبه الزاج وفيه بعض حموضة ، وأما الزاج فحموضته أكثر ، والشب أنواع[6] . وقد ذكروا انه ماء يقطر،فيجمد قبل أن يصل الى الأرض ، فيصير هذا الشب اليماني . ومن معدنه (إسبيل) ، جبل من ديار عنس من مذحج ، بقربه مقطر الشب[7] ، ومعدن الأشعر . ويظهر من أقوال أهل الأخبار انهم كانوا يستخرجونه من (غرض) الجبال ، وهي شقوق تكون في الجبل ، يحفرون بها ، ويستخرجون منها الشب[8] .

ويطلق العرب على الموضع الذي يستخرجون المعدن منه (المعدن) . وقد عرفوا (المعدِن)[9] بأنه منبت الجواهر من ذهب ونحوه ، ومكان كل شيء يكون فيه أصله ومبدؤه ، نحو معدن الذهب والفضة والأشياء . ومنه حديث بلال بن الحرث

---

١ تاج العروس ٣(٤٩١/) ، (قرر) ، العرب (٩٩٦) ، (آب ١٩٦٨) ،
٢ الاكليل (٣٠/٨) ، العرب (٩٩٧) ، (آب ١٩٦٨) ، الصفة (٢٠٢) .
٣ تاج العروس (٢٠٤/٣) ، (در) .
٤ تاج العروس (٥٩٨/١) ، (ياقوت) .
٥ تاج العروس (٥٥/٢) ، (زوج) .
٦ تاج العروس (٣٠٨/١) ، (شبب) .
٧ العرب (٩٩٣) ، (آب ١٩٦٨) .
٨ العرب (٩٩٤) ، (آب ١٩٦٨) .
٩ كمجلس .

أن الرسول أقطعه معادن القبيلة جلسيها وغوريها . وهي المواضع التي تستخرج منها جواهر الأرض[١] . وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة أيام ، وقيل ناحية من نواحي الفرع ، بين نخلة والمدينة[٢] . ومن المعادن : معدن الغاف[٣]، ومعدن النقرة ، منزل لحاج العراق بين إضاخ وماوان ، وبها سوق ، وبها بركة وثلاثة آبار وآبار صغار للأعراب تنزح عند كثرة الناس ، وعندها تفترق الطريق. فمن أراد مكة نزل المغيثة ، ومن أراد المدينة أخذ نحو العسيلة فنزلها[٤] . و(العيصان) من معادن بلاد العرب[٥] .

ومن المعادن التي لم يخصص أهل الأخبار نوع معدنها : معدن (البثر)[٦] ، ومعدن النميرة[٧] (التميرة ؟) ، ومعدن (حليت)[٨] ، ومعدن (الحربة)[٩] ، ومعدن (خزبة)[١٠] ، ومعدن (خصلة)[١١] ، ومعدن (الشبيكة)[١٢] ، ومعدن (الشجرتين)[١٣] ، ومعدن (عراقيب)[١٤] ، ومعدن (ذي العوسج)[١٥] ، ومعدن (العيصان)[١٦] لبني نمير ، ومعدن (عيهم)[١٧] ، ومعدن (قساس) ، وقد كشف فيه حديثاً معدن الحديد[١٨] ، ومعدن (الكوكبة) ، ويظهر انه كان

---

١ تاج العروس (٩/٢٧٥) ، (عدن) .
٢ تاج العروس (٨/٧٣) ، (قبل) .
٣ تاج العروس (٦/٢١٤) ، (غيف) .
٤ تاج العروس (٣/٥٨٢) ، (نقر) .
٥ تاج العروس (٤/٤١١) ، (العيص) .
٦ بلاد العرب (٧٤) .
٧ بلاد العرب (٣٨٢) ، العرب (٩٨٨) ، (آب ١٩٦٨) .
٨ بلاد العرب (١٠٧) .
٩ بلاد العرب (٣٧٩) .
١٠ بلاد العرب (٣٧٩ ، ٣٨٢) .
١١ بلاد العرب (٣٨ ، ٤٥) .
١٢ بلاد العرب (٢٤١) .
١٣ بلاد العرب (٩٦) .
١٤ بلاد العرب (١٠٧) .
١٥ بلاد العرب (٢١٠) .
١٦ بلاد العرب (٣٧٠ ، ٣٨٢) ، البلدان (٣/٧٥٣) .
١٧ بلاد العرب (١٨٣) .
١٨ بلاد العرب (٢٣٦) .

من معادن الفضة [1] ، ومعدن المزبدة [2] ، ومعدن (النقيب)[3] ، ومعدن (منضح) ، وهو اسم معدن جاهلي بالحجاز عند جوبة ماء عظيمة يجتمع فيها الماء[4] ، ومعدن اللقط[5] ، ومعدن (ماوان) ، وهو معدن مشهور[6] ، ومعدن (النصب) من معادن القبلية [7] ، ومعدن (النقرة)[8] ، وبـ (بيش) ، وهو مخلاف من مخاليف مكة عدة معادن[9] . ومعدن شمام ، و (بحران) ، وهو بناحية الفرع من الحجاز به معدن للحجاج بن علاط البهري ، له ذكر في سرية (عبدالله بن جحش)[10] ، و (حوراء) بناحية المدينة وبها معدن البرام[11] . ومعدن (فران) ، وينسب الى (فران بن بلي بن عمرو)[12] . ومعدن (المحجة) بين العمق وبين أفيعة[13] . ومعدن هبود لبني نمير[14] .

والملح من المواد التي تاجر بها الجاهليون . وتوجد معادنه في مواضع متعددة من جزيرة العرب . وقد كان بعضهم يستحضره من المياه المالحة ، ومنهم من كان يستخرجه من مناجم تحفر ، فيستخرج منها . وقد ذكر (الهمداني) أسماء مواضع وجدت فيها معادن الملح[15]. وقد أشير في (المسند) الى الملح والى الاتجار به ، والى وجود كيالين كانوا يكيلونه ويرسلونه الى الأسواق لبيعه فيها .

ومن أشهر مواضع الملح في اليمن : جبل الملح في بلاد مأرب ، وهو ملح صاف كالبلور ، وكان النبي قد أقطعه (الأبيض بن جمال)[16] .

---

١ بلاد العرب (٣٨٢ وما بعدها) .
٢ بلاد العرب (٣٩٤) .
٣ بلاد العرب (١٨١) .
٤ تاج العروس (٢/٢٤٠) ، (نضح) ، العرب (٩٨٤) ، (آب ١٩٦٨) .
٥ العرب (٩٨١) ، (آب ١٩٦٨) .
٦ العرب (٩٨٢) ، (آب ١٩٦٨) .
٧ العرب (٩٨٥) ، (آب ١٩٦٨) .
٨ ابن خرداذبة (١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٧) ، تاج العروس (٣/٥٨٢) ، (نقر) ، العرب (٩٨٧ وما بعدها) ، (آب ١٩٦٨) ، الصفة (١٨٤ وما بعدها) .
٩ تاج العروس (٤/٢٨٥) ، (بيش) .
١٠ تاج العروس (٣/٣١) ، (بحر) .
١١ تاج العروس (٥/٢٢٩) ، (نبط) .
١٢ الصفة (١٧٠) .
١٣ الصفة (١٥٤) .
١٤ بلاد العرب (٣٨٢) .
١٥ الصفة (١٥٥) .
١٦ الصفة (٢٠١) .

وقد استغل التجار (مكر) في العربية الجنوبية تجارة الملح ، فأخذوا يستغلون مناجمه ، ويحملونه منها قوافل الى الأسواق . ونظراً الى سعة هـذه التجارة والى كثرة الملح المستخرج ، ظهرت جماعة عرفت بـ (زلا) (سلا) في لغة المسند، تخصصت بكيل الملح وتعبئته في الجوالق لإرساله الى الأسواق[1] .

الأحجار :

واستفيد من الأحجار في البناء ، ولاسيما في العربية الجنوبية ، إذ كان الحجر مادة البناء عندهم . ويقطع من المقالع قطعاً بعضها ضخمة استخدمت في بناء الأبنية المهمة مثل : قصور الملوك والمعابد والسدود وبيوت السادات .

ولتثبيت الأحجار ولصقها بعضها فوق بعض ، استخدم (الجص) ، ويقال له (القص) بلغة أهل الحجاز . واللفظة معربة على ما يذكره علماء اللغة[2] . و (النورة) حجر يحرق ويستخدم في البناء ، و (البورق) ، وهو حجر يحرق أيضاً ، ويستعمل لتبييض الجدران ، ومـواد أخرى تشبه (السمنت) في قوتها وفي صلابتها وفي تثبيت الأحجار بعضها فوق بعض .

ويقال لبعض أنواع الأحجار (المُسنى) ، وتعمل منها نصب السكاكين[3] . و (الشزب) ، حجر يعمل منه ألواح وصفائح وقوائم سيوف ونصب سكاكين ومداهن وقحفة[4] . و (الهيصمي) وهو حجر يشاكل الرخام ، إلا أنـه أشد بياضاً يخرط منه كثير من الآنية[5] .

وقد نحت النحاتون من بعض الحجارة قدوراً للطبخ، عرفت عندهم بـ (البُرمة). وقيل البرمة قدر نحت من حجارة أو عمل من حديـد أو نحاس . و (المبرم) صانعها أو من يقتلع حجارتها من الجبال فيسويها وينحتها . وقيل للمعـدن الذي تقتلع منه هذه الحجارة : (معدن البرم) و (معدن البرام)[6] . ومن هذه المعادن

---

١ Glaser 1571, Arabien, S. 124.
٢ تاج العروس (٤/٣٧٧) ، (جص) .
٣ الصفة (٢٠٢) .
٤ الصفة (٢٠٣) .
٥ الصفة (٢٠٢) .
٦ تاج العروس (٨/١٩٨) ، (برم) ، الصفة (١٢١) .

(قدقد) ، جبل به معدن البرام[1] .

وكانوا يحفرون المعادن ويدخلون المنجم لاستخراج المعدن منه . وقد ينهار المعدن على حافره فيقتله . والى ذلك أشير في الحديث : « المعدن جبار والبئر جبار والعجماء جبار » . ومعناه أن تنفلت البهيمة العجماء فتصيب في انفلاتها انساناً أو شيئاً ، فجرحها هدر ، وكذلك البئر العادية يسقط فيها انسان فيهلك ، فدمه هدر . والمعدن اذا انهار على حافره فقتله فدمه هدر . ومعناه اذا انهار على من يعمل فيه فهلك ، لم يؤخذ به مستأجره[2] .

النسيج والحياكة :

وقد اشتهرت اليمن عند ظهور الإسلام بالنسيج والحياكة . وهي قد أصدرت أنواعاً عديدة من الأقمشة والثياب الى مختلف أنحاء جزيرة العرب اكتسبت شهرة بعيدة في كل مكان ، لجودة صنعها ونفاسة مادتها . ومن ثياب أهل اليمن الناعمة الثياب التي تعرف باسم (الخال) ، وهو ثوب ناعم ، وضرب من البرود ، وقيل برد أرضه حمراء فيها خطوط سود[3] . و (الوصائل) ، وهي ثياب يمانية حمر أو ثياب حمر مخططة ، أو برود حمر فيها خطوط خضر[4] . والعصب ، وهي ضرب من البرود وضرب من الثياب ، يعصب غزلها ، أي يدرج ثم يحاك ، وليس من برود الرقم . وقيل العصب : برود يمانية يعصب غزلها ، أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج، فيأتي موشى لبقاء ما عصب فيه أبيض ، لم يأخذه صبغ وقيل برود مخططة . وورد أن (عمر بن الخطاب) أراد أن ينهى عن عصب اليمن . وقال نبئت أنه يصبغ بالبول ، ثم قال : نهينا عن التعمق . ويدل هذا الخبر إن صح ، على أن البرود العصب، هي البرود المشدودة المصبوغة بالعصب، ولا ينبت العصب والورس إلا في اليمن . وهو يدل أيضاً . على أن العصب

---

١ تاج العروس (٢/٤٦١) ، (قد) .

٢ تاج العروس (٣/٨٥) ، (جبر) .

٣ قال الشماخ :

وبردان من خال وتسعون درهما ... على ذاك مقروظ من الجلد ماعز

تاج العروس (٧/٣١١) ، (خول) ، (٧/٣١٣) ، (خيل) .

٤ تاج العروس (٨/١٥٦) ، (وصل) .

صبغة تستخرج من نبات العصب ، تصبغ بها البرود ونحوها من الأشياء[1] .

والممرجل (الممرحل) ، ثياب من الوشي فيها صور المراجل[2] . ويظهر انها المراجل ، جمع (المرجل) . والمرجل (المرحل) برد يماني ، ومن أمثالهم : حديثاً كان بردك مرجلياً ، أي انما كسيت المراجل حديثاً ، وكنت تلبس العباء. ويظهر انها كانت موشاة وكانت من ألبسة المترفين ، ففي الحديث : « حتى يبني الناس بيوتاً يوشونها وشي المراحل » ، يعني تلك الثياب ، ويقال لها أيضاً المراجل بالجيم[3] . وذكر ان (المرحل) ، برد فيه تصاوير رحل وما ضاهاه[3] .

وقد صورت بعض ثياب أهل الجاهلية ونمقت ، ومنهـا ثياب صلبت ، أي نقشت بالصلبان . وقد نهى الرسول عن لبس هذه الثياب ، وذكر انه نهى عن الصلاة بالثوب المصلب[4] .

والمقطعات من الثياب كل ما يفصل ويخاط من قمص وجبـاب وسراويلات وغيرها ، وما لا يقطع منها كالأردية والأزر والمطارف والرياط التي لم تقطع وانما يتعطف بها مرة ويتلفع بها أخرى . وقيل القصار من الثياب، وبرود عليها وشي[5].

والحبرة،وهي ضرب من ضروب البرود كذلك ، وهي البرود الموشاة المخططة. وقيل ضرب من برود اليمن منمر . وذكر أن الحبير الثوب الجديد الناعم . وفي حديث أبي ذر : الحمد لله الذي أطعمنا الخمير وألبسنا الحبير[6] . وفيه دلالـة على أن (الحبير) من ألبسة المتمكنين ، وليس في وسع الفقراء اقتناؤها .

والمعاجر ، من ضروب الثياب المصنوعة في اليمن . والمعجر ثوب تعجر بـه المرأة،أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة . وقيل ثوب يمني يلتحف به ويرتدى[7]. و (السيراء) ، وهي ثياب مخططة ، ونوع من البرود ، فيـه خطوط صفر ،

---

١ تاج العروس (٣٨٢/١ وما بعدها) ، (عصب) .
٢ تاج العروس (٣٣٩/٧) ، (رجل) ، القاموس (٣٨٢/٣) .
٣ قال امرؤ القيس :
فقمت بها أمشي تجـر وراءنا ... على أثرنـا أذيال مـرط مرحـل
يروى بالحاء والجيم ، أي معلم . تاج العروس (٣٤٧/٧) ، (رحل) .
٤ تاج العروس (٣٣٧/١) ، (صلب) .
٥ تاج العروس (٤٧٥/٥) ، (قطع) .
٦ تاج العروس (١١٨/٣) ، (حبر) .
٧ تاج العروس (٣٨٣/٣) ، (عجر) .

أو يخالطه حرير والذهب الخالص ، وقيل ثوب مسير فيه خطوط تعمل من القزّ كالسيور ، أو خطوط من الذهب . وهي من حلل الأغنياء والكبراء . روي أن (أكيدر) أهدى الى الرسول حلة سيراء ، وفي حديث عمر : رأى حلة سيراء تباع [1] .

والثياب السحولية ، أثواب كرسف من ثياب (سحول) موضع باليمن تنسج به الثياب السحولية ، وتحمل منه الى سائر الأنحاء . وهي ثيـاب قطن بيض . قال طرفة :

وبالسفح آيات كأن رسومها يمان وشته ريدة وسحول[2]

وذكر ان السحل ثوب أبيض رقيق من القطن ، أو من الكرسف من ثياب اليمن . والسحيل الخيط غير مفتول ، والغزل الذي لم يبرم ، فأما الثوب ، فإنه لا يسمى سحيلاً ولكن يقال له : السحل ، وقيل : السحيل الخيط غير مفتول ، ومن الثياب ما كان غزله طاقاً واحداً . والمبرم المفتول الغزل طاقين . و (المتأم) ما كان سداه ولحمته طاقين ليس بمبرم ولا مسحل . والسحل والسحيل الحبل الذي على قوة واحدة ، والمبرم الذي على طاقين . وذكر ان السحيل من الحبل الذي يفتل فتلاً واحداً كما يفتل الخياط سلكه ، والمبرم أن يجمع بين نسيجتين فيفتلا حبلاً واحداً [3] . ولما توفي الرسول ، كفن في ثلاثة أثواب سحولية ، ويروى في ثوبين سحوليين[4] .

وقد اشتهرت عدن بصنع البرود كذلك . ورد في الحديث أن الرسول كـان قد استعمل هذه البرود [5] . وقد عرفت بـ (العدني) وبـ (العدنيـات) . وهي ثياب كريمة نسبت الى عدن ، واشتهرت برياطها ، فقيل : (رياط عدنيات)[6] .

---

١ تاج العروس (٣/٢٨٧) ، (سير) .
٢ تاج العروس (٧/٣٧٢) ، (سحل) .
٣ تاج العروس (٧/٣٧١) ، (سحل) .
٤ جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم ، تحقيق الدكتور احسان عباس والدكتور ناصرالدين الاسد ، (ص ٦) ،(دار المعـارف) بمصـر ، تاج العروس (٧/٣٧٢) ، (سحل) .
٥ مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١٠/٣٨ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٩/٢٧٦) ، (عدن) .

وقد اشتهرت قطر بنوع من الثياب يقال لها : الثياب القطرية ، كما اشتهرت بنوع من النجائب : هي (النجائب القطريات)[1] . وذكر أنها برود من غليظ القطن ، أو هي برود حمر لها أعلام فيها بعض الخشونة . وجاء في الحديث أن الرسول توشح بثوب قطري[2] .

واشتهرت (هجر) بثيابها كذلك ، واعتبرت من الملابس الفاخرة التي تستحق الإهداء . ولما أرسل الرسول (سليط بن عمرو العامري) الى (هوذة بن علي الحنفي) ، أجاز هوذة (سليطاً) بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر[3] .

وقد اشتهرت برود وثياب اليمن بجودة النسج وبحسن الصنعة والدقة . كما امتازت بألوانها وبوشيها ، والوشي النمنمة والنقش[4] . ومنها المرحل ، وهي برد فيه تصاوير رحل ، والمرط المرحلة ، ومنه الحديث كان يصلي وعليه من هذه المرحلات ، يعني المرط المرحلة[5] .

ومن برد اليمن المعروفة (الخمس) ، ويقال لها أيضاً الخميس . ذكر انه انما قيل للثوب خميس ، لأن أول من عمله ملك باليمن يقال له الخِمْس ، أمر بعمل هذه الثياب فنسبت اليه[6] . و (الفوف) من برود اليمن ، وهي ثياب رقاق موشاة[7] .

ولأهل المعافر ثياب جيدة ، وهم يستعملون (السكينية) في رؤوسهم ، وهم من حمير ، وملوكهم (آل الكرندي)[8] .

واشتهرت (صحار) ، قصبة عمان مما يلي الجبل ، بثياب عرفت بها ، فقيل لها (ثوب صحاري) ، وثياب صحارية . وفي الحديث ان رسول الله كفن في ثوبين صحاريين[9] .

وقد اشتهرت (الحيرة) بنوع من الأنماط ، تزين بها الرحال ، حتى عرف

---

١ القاموس (١١٩/٢) .
٢ تاج العروس (٥٠٠/٣) ، (قطر) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٦٢/١) .
٤ تاج العروس (٣٩١/١٠) ، (وشي) .
٥ تاج العروس (٣٤١/٧) ، (رحل) .
٦ تاج العروس (١٤٠/٤) ، (خمس) .
٧ تاج العروس (٢١٥/٦) ، (فوق) .
٨ الصفة (٩٩) .
٩ تاج العروس (٣٢٧/٣) ، (صحر) .

بها ، فقيل : (الحاري)[1] . والنمط ، ظهارة فراش ما ، أو ضرب من البسط ، أو ثوب صوف يطرح على الهودج ، له خمل رقيق . وقيل : ضرب من الثياب المصبغة ، ولا تكاد العرب تقـول : نمط ، إلا لما كان ذا لون من حمرة أو خضرة ، أو صفرة ، فأما البياض ، فلا يقال أنماط[2] .

وقد اشتهرت صناعة البسط في جزيرة العرب . وهناك أنواع عديدة منهـا تنسب الى مواضع متعددة . وهي تصنع من الأصواف ومن شعر المعز . ويشتغل بنسجها النساء والرجال . وقد اشتهرت بعضها باسم (العبقري) و (العباقري). وفي الحديث : أنه كان يسجد على عبقري ، وهي هذه البسط التي فيها الأصباغ والنقوش . وذكر بعض العلماء أن (عبقرة) موضع باليمن أو بالجزيرة ، يوشى فيه الثياب والبسط ، ثيابه في غاية الحسن والجودة ، فصارت مثلاً لكل منسوب الى شيء رفيع[3] .

وقد اشتهرت اليمن بكثرة المشتغلين من أهلها بالحياكة ، وعرفت بهـا بقية العربية الجنوبية . وقد قيل في انتقاص أهل اليمن وفي النيل منهم ؛ انهم بين حائك برد وسائس قرد . ونسوة حوائك ، يشتغلن بالحياكة . ورد في شعر ذي الرمة قوله يصف محلة :

كأن عليها سحق لفق تأنقت ٭ بها حضرميات الأكف الحوائك[4]

وأشير الى الحياكة في نصوص المسند، إذ كانت صناعة النسيج من أهم الصناعات في اليمن . وقد عرف (الحائك) عندهم بـ (انم)[5] . وكان أهل مكة يقصدون اليمن ، فيشترون منها الألبسة اللطيفة الجيدة ويحملونها الى الأسواق لبيعها ، ومنها أسواق بلاد الشأم .

وقد نشأت من الألياف والخوص وعيدان بعض الأشجار صناعة ، فاستفيد من خوص الدوم في صنع أحفاش النساء ، والدوم شجر المقل ، واحدتها دومة[6] .

---

١ تاج العروس (١٦٦/٣) ، (حار) .
٢ تاج العروس (٢٣٤/٥) ، (نمط) .
٣ تاج العروس (٣٧٩/٣) ، (عبقر) .
٤ تاج العروس (١٢٤/٧) ، (حاك) .
٥ Glaser 1000 A, Arabien, S. 24.
٦ تاج العروس (٢٩٧/٨) ، (دوم) . .

واستفيد من لحاء الخزم في صنع الحبال ، ويقال لصانعها (الخزام)[1] ، وسفّ الخوص على هيأة سفرة ، ويقال لذلك السمهة[2] . وصنعت الحصر من بردى وأسل ومن الخوص[3] . وقيل للحصير المنسوج من سعف النخل (الفحل) . وأما الحصير المنسوج من الدوم ، فيقال له (الطلّيل)[4] . والبارية الحصير . قال بعضهم : الحصير المنسوج من القصب[5] .

وتاجر أهل اليمن بـ (الخضاب) ، ويكون ذلك بالحناء ، واذا كان بغير الحناء قيل : صبغ شعره . وذكر أهل الأخبار أن (عبد المطلب) أول من خضب بالسواد من العرب ، وكل ما غير لونه ، فهو مخضوب[6] . وكانوا يخضبون به الأطراف كذلك[7] . واختضبوا بـ (الوسمة) كذلك[8] . وكانوا اذا أرادوا الحصول على لون أسود قاتم ، ليبدو الشعر به أسود، خلطوا الحناء بالوسمة. والحناء ورق نبات ، وكذلك الوسمة ، يدقان حتى يصيران كالطحين الناعم جداً، أو يطحنان ، ثم يعجن الطحين بالماء فيخضب به . ويخلطون بالحناء دقيق ورق البشام فيسود الشعر[9] .

---

١ المخصص (١١/١٣٦ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/٢٧٤) ، (خزم) .
٢ تاج العروس (٩/٣٩٢) ، (سهم) .
٣ تاج العروس (٣/١٤٣) .
٤ تاج العروس (٧/٤٢٠) .
٥ تاج العروس (٣/٦٠ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (١/٢٣٦) ، (خضب) .
٧ تاج العروس (١/٢٣٦) ، (خضب) .
٨ تاج العروس (٩/٩٤) ، (وسم) .
٩ تاج العروس (٨/٢٠٣) ، (بشم) .

الفصل الثالث عشر بعد المئة

حاصلات طبيعية

الصبغ :

والصبغ ما يلوّن به . وقد استخرج أهل الجاهلية الأصباغ من بعض النبات، لاستعمالها في الصناعة أو في البناء وفي صبغ الانسجة. واشتهرت مواضع من جزيرة العرب بحذقها في الصباغة ، وباتقانها استخراج الصبغ من النبات وبعض المعادن . وقد كانت سلعة مطلوبة رائجة ، لأنها جيدة ثابتة لا تتغير بسرعة .

وقد عصفر الجاهليون ثيابهم بالعصفر . وهو نبات ينبت بأرض العرب ، سلافته الجريال ، صبغ أحمر[1] وبزره (القرطم) ، الذي يصبغ به منه[2] . وصبغوا بـ (الفرصاد) ، وهو صبغ أحمر[3] ؛ وبـ (الفوّة) ، عروق يصبغ بها . وقيل : هي عروق حمر دقاق لها نبت يسمو في رأسه حبٌّ أحمر شديد الحمرة كثير الماء يكتب بمائه وينقش . قال الأسود بن يعفر :

جرت بها الريح أذيالاً مظاهرة كما تجرّ ثياب الفوة العرس

واستعملت (الفوة) دواءً لمعالجة الجلد[4] .

---

١ تاج العروس (٢٥٥/٧) ، (جرل) .
٢ تاج العروس (٤٠٨/٣) ، (عصفر) .
٣ تاج العروس (٤٥١/٢) ، (الفرصد) .
٤ تاج العروس (٢٨٥/١٠) ، (الفوة) .

و (الاحريض) العصفر ، يقال حرض ثوبه إذا صبغه بالاحريض[١] .

و (النكع) اللون الأحمر ، وزهرة حمراء يصبغ بها . و (النكعة) ثمر النقاوى ، وهو نبت أحمر ، ومنه الحديث : كانت عيناه أشد حمرة من النكعة . وهي صمغة القتاد (القناد)[٢] . و (الصرف) صبغ أحمر تصبغ به شرك النعال[٣] . و (اللك) نبات يصبغ به ، وهو صبغ أحمر يصبغ به جلود البقر والمعز وغيرها ، و (اللكاء) الجلود المصبوغة باللك[٤] .

وأكثر أصباغهم ، هي أصباغ أخذت من النبات . وهو شيء طبيعي لسهولة استحصال الأصباغ من النبات ، ولتوفره لديهم في الحضر وفي البر . أما الأصباغ المستخرجة من المعادن ، فهي أقل بكثير من الأصباغ المستخرجة من النبات ، لما يحتاج استخراج الأصباغ منها الى مهارة وحذق وتقدم في الصناعة والعلم .

العصير :

والعصير ، هو ما يحلب من الشيء اذا عصرته ، وهو العصارة . ويعصر كل ماله دهن أو شراب أو عسل ، وأمثاله . و (المعصرة) موضع العصر ، والمعصر ، ما يعصر فيه العنب ، والمعصار الذي يجعل فيه الشي فيعصر حتى يتحلب ماؤه . والعواصر ، ثلاثة أحجار يعصر بها العنب ، يجعلون بعضها فوق بعض[٥] .

وتعصر الأشياء للشرب ، كالخمور والأشربة ، أو للتداوي ، لاستعمال العصير دواء يتداوى به ، أو لاستخراج الدهن من المعصور . وقد استعمل المزارعون المعاصر لعصر الأعناب أو لاستخراج الزيوت من البذور وتسمى (المعصرة) (موهت) في المسند ، من أصل (وهت)[٦] . ومن معاني هذه اللفظة الضغط وشدة الدوس ، وهي تستعمل في الحقول كما تستعمل في البيوت وفي محلات الاتجار بالزيوت .

---

١ تاج العروس (١٩/٥) ، (حرض) .
٢ تاج العروس (٥٣١/٥) ، (نكع) .
٣ تاج العروس (١٦٤/٦) ، (صرف) .
٤ تاج العروس (١٧٤/٧) ، (لك) .
٥ تاج العروس (٤٠٥/٣) ، (عصر) .
٦ REP. EPIGR. 2876, V. p. 209.

و (القطران) ، عصارة الأبهل والارز ، وهو ثمر الصنوبر . يطبخ فيتحلب منه ، ثم يهنأ به الإبل[١] . ويتخذ القطران من الإثرار ، وهو شجر يقتدح سريعاً اذا كان يابساً[٢] . كما يتخذ من العرعر[٣] .

والزفت ، كالقير ، وقيل هو القار ، والزفت المطلى بـه ، وهو غير القير الذي يقير به السفن ، انما هو شيء أسود أيضاً يمتن به الزقاق الحمر . وقد نهي في الحديث عن المزيت والمقير . والزفت أيضاً دواء . وهو شيء يخرج من الأرض يقع في الأدوية[٤] . وذكر أهل الأخبار ، انهم كانوا يستخرجون (الزفت) من أعجاز شجر (الأرز) وعروقه ، وانهـم كانوا يستصبحون بخشب الأرز . وقد أشير اليه في الحديث[٥] . وقد استخرجوا الزفت من شجر (التنوب) وغيره من ضروب الصنوبر ، وهو قريب من دهن القطران[٦] .

الزيوت والدهون :

ويستعمل الحضر الزيت في أكلهم وفي تزييت شعرهم ، وفي أمـور أخرى . وهم يحصلون عليه من النبات بعصر لب الثمر المتشبع بالزيت . واليمن هي على رأس الأمصار العربية في انتاج الزيت . زيت الزيتون وغيره ، وقد كانت تصدره الى الحجاز والى مواضع أخرى من جزيرة العرب . والزيت في اللغة دهن ، وهو عصارة الزيتون[٧] . ويعد التزييت ، أي التدهن بالزيت الجيد المطيب مـن علائم النعيم والرفاه .

و (السليط) ، الزيت عند عامة العرب وعند أهل اليمن دهن السمسم ، وقد ذهب بعضهم الى العكس . وقيل هو كل دهن عصر من حب . وذكر أن دهن

---

١ تاج العروس (٣/٤٩٩ وما بعدها) ، (قطر) ، نهاية الارب (١١/٣٢٣) .
٢ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٨) .
٣ عرام (٤٠٣) .
٤ تاج العروس (١/٥٤٦) ، (زفت) .
٥ تاج العروس (٤/٣) ، (ارز) .
٦ نهاية الارب (١١/٣٢٤) .
٧ تاج العروس (١/٥٤٦) ، (زيت) .

السمسم هو السيرج والحل[1] . و (السيرج) ، هو (الشَّيْرج)[2] ، دهن السمسم[3] ، و (الحَل) ، هو الشيرج ، أي دهن السمسم[4] .

ومن الدهون ، دهن يستخرجه أهل اليمن من (الكاذى) . والكاذى شجر شبه النخل في أقصى بلاد اليمن ، وطلعه هو الذي يصنع منه الدهن . وذكر أنهم كانوا يقلعون طلع (الكاذى) قبل أن ينشق ، فيلقى في الدهن ويترك حتى يأخذ الدهن ريحه ويطيب[5] . ودهن الغار ، دهن يستخرج من شجر الغار ، وهو شجر الغار ، وهو شجر له حمل أصغر من البندق أسود يقشر ، له لبّ يستخرج منه الدهن ، وورقه طيب الريح يقع في العطر ، ويستعمل ثمره في الأدوية . ويستصبح بدهن الغار[6] .

واستخرج أهل (الشوع) دهناً منه ، كما يستخرج أهل السمسم دهناً منه . وذكر ان (الشوع) شجر البان ، الواحدة (شوعة) . وهو يربع ويكثر على الجدب وقلة الأمطار ، وهو مطلوب مرغوب ، فكان الناس يسلفون في ثمره الأموال[7] . و (البان) ، شجر يستخرج من حبّ ثمره دهن طيب يستعمل في التدهين وفي معالجة أمراض عديدة . وقد ذكر في شعر (امرىء القيس)[8] .

وزيت مقتت ، اذا أغلي بالنار ومعه أفواه الطيب ، ودهن مقتت مطيب طبخ فيه الرياحين ، أو خلط بأدهان طيبة . والتقتيت جمع الأفاويه كلها في القدر وطبخها[9] .

واستخرج من موم العسل شمع ، وهو ما يستصبح به . ويذكر علماء اللغة أن (الموم) لفظة مولدة جاءت من الفارسية ، وأن لفظة (الشمع) لفظة مولدة كذلك[10] . ونظراً لوجود العسل بكثرة في اليمن وفي (السراة) وفي مواضع أخرى

---

١ تاج العروس (٥/١٥٨) ، (ملط) .
٢ كصيقل وزينب .
٣ تاج العروس (٢/٦٤) ، (شرج) .
٤ تاج العروس (٧/٢٨٦) ، (حلل) .
٥ تاج العروس (١٠/٣١٢) ، (كذا) .
٦ تاج العروس (٣/٤٥٧) ، (غار) .
٧ تاج العروس (٥/٤٠٤) ، (شوع) .
٨ تاج العروس (٩/١٤٧) ، (البون) .
٩ تاج العروس (١/٥٧١) ، (قت) .
١٠ تاج العروس (٥/٤٠٢) ، (شمع) .

من جزيرة العرب في الجاهلية ، فلا استبعد استخدام أهل الجاهليين شمع العسل لصنع الشموع للاستصباح ولأغراض أخرى .

والحرض ، الأشنان تغسل به الأيدي على أثر الطعام . وشجرته ضخمة وربما استظل بها ، ولها حطب وهو الذي يغسل به الناس الثياب . وقد مدح الأشنان النابت بجو الخضارم باليمامة . والحرّاض من يحرقه للقلي ، أي الذي يوقد على الحرض ليتخذ منه (القلي) للصبّاغين . يحرق الحمض رطباً ثم يرش الماء على رماده فينعقد فيصير قلياً . قال عدي بن زيد العبادي :

مثل نار الحراض يجلو ذرى المز ن لمن شامه إذا يستطير[1]

و (القصيص) نبت ينبت في أصول الكمأة ، يجعل غسلاً للرأس . وقد ذكر في شعر عدد من الشعراء ، منهم امرؤ القيس ، والأعشى وعدي بن زيد العبادي[2].

الصمغ :

الصمغ في تعريف علماء العربية : غراء القرظ ، وهو الصمغ العربي ، ولكل شجر صمغ ، وهو نضحه فيسيل منه[3] . وكانوا يشرطون الشجر ليخرج منه غراءه ، أو كانوا يعصرون بعض النبات ، فيخرج منه عصير ، يستخرجون منه صمغاً . ومن الأشجار التي استخرجوا منها الصمغ (الصاب) ، يشرط فيخرج منه غراء ، وهو شيء مرّ ، ينعقد كالصبر[4] . واستخرجوا صمغاً من (القرظ) ، وهو شجر معروف في بلاد العرب ، استخرجوه من عصارته ، استفادوا منه في الطب ، دعاه الأطباء الاسلاميون : (أقاقيا)[5] . و (الصرب) ، صمغ أحمر يستخرج من الطلح ، وقيل هو صمغ الطلح والعرفط ، وهي حمر كأنها سبائك تكسر بالحجارة[6] .

١ تاج العروس (٥/١٩) ، (حرض) .
٢ تاج العروس (٤/٤٢٣) ، (قصص) .
٣ تاج العروس (٦/٢٢) ، (صمغ) .
٤ تاج العروس (١/٣٤٠) ، (صوب) ، (٦/٢٢ ، (صمغ) .
٥ تاج العروس (٥/٢٥٨) ، (قرظ) .
٦ تاج العروس (١/٣٣٤) ، (صرب) .

والعرب تسمي صمغ العرفط عسلاً لحلاوته ، وعسل اللبنى طيب ، وهو صمغ ينضح من شجرة يشبه العسل لا حلاوة لـــه ، ويتبخر به . وعسل الرمث شيء أبيض يخرج منه كالجمان[1] .

و (الأيدع) ، صمغ أحمر يؤتى به من (سقطرى) ويتداوى به . داووا به الجراح . وذكر ان الأيدع صبغ أحمـــر ، وهو خشب البقـم . وقيـل هو دم الأخوين . وقيل الأيدع شجر له حبّ أحمر يصبـغ به أهل البدو ثيابهم . وان البقم يحمل في السفن من بلاد الهند . وقد اشتهرت جزيرة سقطرى بأحسن أنواع الأيدع والصبر ، حتى قيل : صبر سقطرى[2] . وذكر ان (دم الأخوين) هو (القاطر المكي) ، وهو عصارة حمراء[3] .

وقد عرفت جزيرة العرب بتصديرها بعض أنواع الصمغ واللثى ، وهو شيء يسقط من شجر السمر ، أو هو ماء يسيل من الشجر كالصمغ ، فإذا جمد ، فهو صعرور . وقيل شيء يسيل من الثمام وغيره ، وللعرفط لثى حلو يقـــال له المغافير[4] . والمغافير ، هو صمغ شبيه بالناطف ينضحه العرفط ، وقد يكون المغفور للعشر والسلم والثمام والطلح وغير ذلك . وورد ان المغافير : صمغ الرمث والعرفط ، وذكر أن المغافير عسل حلو مثل الرب إلا انه أبيض[5] .

و (العلك) ، المضغ ، وصمغ الصنوبر والارزة والفستق والسر والينبوت والبطم ، وهو أجودها . يمضغ في الفم ، للتسلية ولمنع العطش بظهور اللعـــاب في الفم ، ولأغراض طبية[6] . وقد اشتهر علك الضرو ، المستخرج من شجر الضرو ، الذي ينبت باليمن . ويعالج به في الطب[7] .

و (الكندر) اللبان ، وهو ضرب من العلك ، يستخدم في الطب[8] . واللبان شجيرة شوكة لا تسمو أكثر من ذراعين ولها ورقة مثل ورقة الآس ، وثمره مثل

١ تاج العروس (١٧/٨) ، (عسل) .
٢ تاج العروس (٥٦٤/٥) ، (أيدع) .
٣ تاج العروس (٥٠١/٣) ، (قطر) .
٤ تاج العروس (٣٢٣/١٠) ، (لثى) .
٥ تاج العروس (٤٥٣/٣) ، (غفر) .
٦ تاج العروس (١٦٤/٧) ، (علك) .
٧ تاج العروس (٢١٩/١٠) ، (ضرى) .
٨ تاج العروس (٥٢٩/٣) ، (الكندر) .

ثمرته ، وله حرارة في الفم . وهي من الصمغ . وذكر أن اللبان شجر الصنوبر[1]. وذكر أن لحب ثمر البان دهن طيب ، وحبّه نافع لمعالجة جملة أمراض جلدية وأمراض داخلية[2] . وذكر أن (الشوع) ، شجر البان ، أو ثمره . قيل إنه يربع ويكثر على الجدب وقلة الأمطار ، والناس يسلفون في ثمره الأموال . وأهل الشوع يستعملون دهنه ، كما يستعمل أهل السمسم دهن السمسم . وهو جبلي ، وقيل ينبت في السهل والجبل[3] .

وورد أن الكندر لا يكون إلاّ بالشحر من اليمن ، ومنابت شجره الجبال ، وقد استعمل دواءً لمعالجة أمراض عديدة[4] .

والصبر ، أنواع فيه العربي والأسقطري ، وأجوده (الأسقطري) . وهو عصارة شجر ، تترك حتى تثخن ، ويشمس حتى يجف . وفي اليمن نوع منه أحمر ملمع بصفرة[5] .

و (الضجاج) مثل شجر (اللبان) يكون في أرض عمان . وهو صمغ أبيض تغسل به الثياب ، فينقيها مثل الصابون[6] . وذكر أنه ثمر نبت أو صمغ تغسل به النساء رؤوسهن[7] .

والمقل ، يستخرج من شجر يشبه الكندر ، طيب الرائحة ، وأكثر نباته فيما بين الشحر وعمان ، وذكر أن المقل المكي ، هو صمغ الدوم ، لأن الدوم هناك يدرك ويصمغ[8] .

و (الدبس) عسل التمر وعصارته ، وهو ما يسيل من الرطب . ويقال له : (الصقر) في لغة أهل يثرب . وذكر انه ما سال من جلال التمر . وأطلق أيضاً على تحلب من الزبيب والعنب[9] . و (الصقر) عند أهل البحرين ما سال

---

١ تاج العروس (٣٢٩/٩) ، (لبن) .
٢ تاج العروس (١٤٧/٩) ، (البون) .
٣ تاج العروس (٤٠٤/٥) ، (شوع) .
٤ نهاية الارب (٢٩٩/١١ وما بعدها) .
٥ نهاية الارب (٣٠٤/١١ وما بعدها) .
٦ نهاية الارب (٣٠٩/١١) .
٧ تاج العروس (٦٨/٢) .
٨ نهاية الارب (٣٢١/١١ وما بعدها) .
٩ تاج العروس (١٤٥/٤) ، (دبس) .

من جلال التمر التي كنزت وسدك بعضها على بعض في بيت مضرج تحتها خواب خضر ، فينعصر منها دبس خام كأنه العسل[1] .

والصبيب عصارة ورق الحناء والعصفر ، وقيل هو العصفر[2] .

الدباغة :

والدباغة حرفة الدبّاغ ، دبغ الإهاب عما يدبغ به[3] . والإهاب الجلد من البقر والغنم والوحش ، أو هو ما لم يدبغ[4] . وقد استخدم الدباغون في ذلك مواد مختلفة ، بعضها بدائية ، وعالجوا الجلد قبل دبغه لترقيقه وتنظيفه وصقله . وقد اشتهرت في ذلك جملة مواضع ، منها : مدينة (جرش) ، وهي من مخاليف اليمن من جهة مكة ، وقد نسب اليها الأدم المعروف بـ (أدم جرش) ، و (أدم جرشي) ، وهي مدينة تسقى بالآبار ، يستخرج منها الماء بالدلاء ، على الإبل ، وقد فتحت في حياة النبي في سنة عشر للهجرة صلحاً على الفيء ، وأن يتقاسموا العُشر ونصف العشر[5] . وقد اشتهرت بإبلها كذلك ، التي نسبت اليها[6] . ومنها (صعدة) ، في مخلاف خولان ، وكانت تسمى في الجاهلية (جماع) ، وكان بها قصر قديم ضخم . ذكر (الهمداني) انها كورة بلاد خولان وموضع الدباغ في الجاهلية ، وذلك انها في موسط بلاد القرظ . وقد اشتهرت أيضاً بالنصال[7] . ونعتها بأنها « بلد الدباغ في الجاهلية الجهلاء ، وهي في موسط بلد القرظ ، ربما وقع فيها القرظ من ألف رطل الى خمسمائة بدينار مطوق على وزن الدرهم القفلة»[8].

والأدم من السلع المهمة المشهورة في تجارة أهل الجاهلية . والأديم ، الجلد الذي قد تمّ دباغه . وقيل الجلد ما كان أو أحمره أو مدبوغه ، وقيل هو بعد

---

١ تاج العروس (٣/٣٣٩) ، (صقر) .
٢ تاج العروس (١/٣٣١) ، (صبب) .
٣ تاج العروس (٦/٨) ، (دبغ) .
٤ تاج العروس ١(/١٥١) ، (أهب) .
٥ البلدان (٣/٨٥) .
٦ تاج العروس (٤/٢٨٧) ، (جرش) .
٧ الصفة (٦٦ وما بعدها) .
٨ الصفة (١١٤) .

الافيق ، وذلك إذا تمّ واحمر[1] . ويدخل في الحرف التي تقوم على تحويل الجلد الى سلع ، مثل الأحذية ، وصنع القباب . التي تضرب للملوك وللسادة وللأشراف امارة على الرئاسة والسيادة . وتصبغ جلودها بلون أحمر في الغالب . وكانت غالية، لذلك لم يستعملها إلا أصحاب الجـاه والمال . فكان سادة مكة إذا نزلوا منزلاً ضربوا قباباً من أدم[2] ، وكان حكام عكـاظ والسادات الذين يحضرون السوق ، يضربون لهم قباباً ، وأما سائر الناس ، فيضربون لهم بيوت الشعر . وبيوت الشعر أرخص ثمناً من قباب الأدم .

وقد اتخذ العرب بيوتاً من جلد عرفت بـ (القشاعة) و (القشوع) ، وذكر بعضهم أن (القشاعة) بيت من أدم . وربما اتخذوا من جلود الإبل صواناً للمتاع[3]. وذكر أن البيت من أدم ، هو (الطراف) . وهو بيت من بيوت الأعراب ليس له كفاء ، قال طرفة بن العبد :

رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطراف الممدد[4]

وقد اشتهرت اليمن بدباغة الجلود وبالاستفادة من هـذه الجلود في أغراض مختلفة ، وبتصدير الجلود الى أماكن أخرى من جزيرة العرب . ولا تزال اليمن تصنع الجلود على الطريقة القديمة ، وتصدرها الى الخارج . وقد ذكر (ابن المجاور) ان الأديم يدبغ في جميع اقليم اليمن والحجاز ، وانهم يبيعونه طاقات بالعدد ، وقد اشتهرت مكة بدبغ الجلود كذلك ، جلود الجمال والبقر والغزلان[5] . واشتهرت الطائف في دباغة الجلود كذلك ، وذُكر ان مدابغها كانت كثيرة ، وأن مياهها كانت تنساب الى الوادي فتنبعث منها روائح كريهة مؤذيـة[6] . وكانوا يدبغون

---

١ تاج العروس (٨/ ١٨١) ، (أدم) ، المفضليات ، للضبي (٥٦) ، (أحمد محمد شاكر)، (دار المعارف ١٩٦٤م) .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/ ١ ، ص ٤١) .

٣ تاج العروس (٥/ ٤٦٧) وما بعدها) ، (قشع) .

٤ تاج العروس (٦/ ١٧٩) ، (طرف) .

٥ ابن المجاور ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجـاز ، المسماة تأريخ المستبصر ، القسم الاول (ص ١٣) .

٦ البلدان (٦/ ١٠ وما بعدها) .

بصورة خاصة الأدم الثقيل المليح[1] . وذكر (الهمداني) ، انها « بلد الدبّاغ ، يدبـغ بها الأهب الطائفية المعروكة »[2] .

وقد ذكر علماء اللغة أسماء مواد كثيرة استعملت في دباغة الجلود ، وذكروا أيضاً طرقاً متعددة في كيفية الدبـغ وفي أسماء الجلود المدبوغة والمواد التي تصنع من مختلف الجلود[3] . والواقع ان اعتماد العرب الجاهليين على الجلود كان كبيراً ، لأنها كانت متيسرة لديهم ، وهي أسهل في العمل من الخشب أو الحديـد أو الأشياء الأخرى بالنسبة الى عمال جزيرة العرب في ذلك العهد .

و (القرظ) من أهم ما استعمل في دباغة الأدم،يجلب فيطحن بحجر الطواحين، ثم يستعمل في الدباغة . ومن (العقيق) يجلب القرظ الى مكة لاستعماله في الدباغة[4]. وقد أشار بعض الأخباريين الى ضخامة حجر الطواحين التي يطحن بها القرظ[5] . واستعمل (الغرف) في الدباغة كذلك.وعرفت الجلود التي تدبغ به بالجلود الغرفية، ومنها جلود يمانيـــة وجلود بحرانية . وسقاء غرفي دبغ بالغرف . وكذلك مزادة غرفية[6] .

ومن المواد التي استعين بها في دباغة الجلد : (الدهناء) . وهي عشبـة حمراء لها ورق عراض يدبغ به[7] ، و (القرضم) قشر الرمان ، ويدبغ به[8] . و(الشث) نبت طيب الريح مر الطعم يدبغ به ، قيل ينبت في جبال الغور وتهامة ونجـد . وذكر بعضهم (الشب) في جملة ما كان يدبغ به[9] . و (الأرطى) شجر دبـغ به ، وعرف الجلد الذي يدبـغ به بـ (المأروط) وبـ (الأرطى) ، وبـ (أديم مرطى)[10] .

---

١ ابن المجاور (١/٢٥) ٠
٢ الصفة (١٢٠) ٠
٣ المخصص (٤/١٠٠ وما بعدها) ٠
٤ تاج العروس (٥/٢٥٨) ، (قرظ) ، ابن المجاور (١/٣٢) ٠
٥ ابن المجاور (١٠/٢٠) ٠
٦ تاج العروس (٦/٢٠٩) ، (غرف) ٠
٧ تاج العروس (٩/٢٠٥) ، (دهن) ٠
٨ تاج العروس (٩/٢٤) ، (قرضم) ٠
٩ تاج العروس (١/٦٢٧) ، (شث) ٠
١٠ تاج العروس (٥/١٠١) ، (ارط) ٠

وعرف الجلد الذي يدبغ بغير (القرظ) بـ (الجلد الحوري)[١] . و (الأفيق) الجلد الذي لم يتم دباغه ، أو الأديم دبغ قبل أن يخرز أو قبل أن يشق . وقيل هو ما دبغ بغير القرظ والأرطى وغيرهما من أدبغة أهل نجد ، وقيل هو حين يخرج من الدباغ مفروغاً منه ، وقيل رائحته ، وقيل ما يكون من الجلد في الدباغ[٢] .

الخمور :

وقد اتخذوا من التمور والكروم والشعير والذرة خموراً ، وذكر ان الخمر ما أسكر من عصير العنب خاصة . وتستعمل لفظة (الشراب) في معنى الخمر كذلك . وفي الحديث حرمت الخمر وما شرابهم يومئذ إلا الفضيخ البسر والتمر ، ونزل تحريم الخمر التي كانت موجودة من هذه الأشياء لا في خمر العنب خاصة[٣]. وأما النبيذ ، فهو ما نبذ من عصير ونحوه ، كتمر وزبيب وحنطة وشعير وعسل، يقال نبذت التمر والعنب ، اذا تركت عليه الماء ليصير نبيذاً ، وقد ينبذ في وعاء عليه الماء ويترك حتى يفور فيصير مسكراً . وسواء أكان مسكراً أو غير مسكر ، فإنه يقال له : نبيذ ، ويقال للخمر المعتصر من العنب نبيذ ، كما يقال للنبيذ خمر[٤] .

ويظهر من كتب الحديث ، ان أكثر خمور أهل المدينة هي خليط من البسر والتمر[٥] . وأن منهم من كان يخلط الزبيب والتمر ، أو الرطب والبسر . وكانوا ينتبذونها في الدباء ، والمزفت ، والحنتم ، والنقير ، والمقير[٦] .

وذكر أن الخليفة (عمر) حدد المواد التي تعمل منها الخمور بخمسة أشياء : الحنطة ، والشعير ، والتمر ، والزبيب ، والعسل . وجعل الخمر ما خامر العقل[٧].

---

١ تاج العروس (١٦١/٣) ، (حور) .
٢ تاج العروس (٢٨٠/٦) ، (أفق) .
٣ تاج العروس (١٧٦/٣ وما بعدها) ، (خمر) .
٤ تاج العروس (٥٨٠/٢) ، (نبذ) .
٥ صحيح مسلم (٨٨/٦) .
٦ صحيح مسلم (٩٢/٦ وما بعدها) .
٧ صحيح مسلم (٢٤٥/٨) ، (باب في تحريم نزول الخمر) .

وقد ذكر هذه الأشياء لأنها كانت هي الشائعة المعروفة عند أهل مكة ويثرب في ذلك العهد على ما يظهر ، لأن هناك خموراً عملت من غير هذه الأشياء .

وكان لأهل اليمن شراب عرف عندهم بـ (البتع) ، وهو من العسل ينبذ حتى يشتد ، وذكر أنهم كانوا يطبخون العسل حتى يعقد ، فيكون البتع . وشراب عرف بـ (المزر) ، وهو من الذرة[1] . وخطب (أبو موسى الأشعري)، فقال : « خمر المدينة من البسر والتمر ، وخمر أهل فارس من العنب ، وخمر أهل اليمن البتع ، وهو من العسل ، وخمر الحبش السكركة »[2] . وقد ذكر (ابن عمر) الأنبذة ، فقال : « البتع نبيذ العسل : والجعة نبيذ الشعير ، والمزر من الذرة ، والسكر من التمر ، والخمر من العنب »[3] . وذكر أن المزر نبيذ الذرة والشعير والحنطة والحبوب ، وقيل نبيذ الذرة خاصة[4] . ويظهر أن اطلاق المزر على أنبذة الحبوب ، هو من باب التجوز والتعميم ، وأن الأصل هو نبيذ الذرة .

و (الضريّ) ، الماء من البسر الأحمر والأصفر يصبونه على النبق فيتخذون منه نبيذاً[5] .

وقد اشتهرت (دُرْنى) بخمورها المصنوعة من الكروم ، وقد ذكرها (الأعشى) في شعره . وكان الأعشى ، يزورها ، وذكر انها هي (أثافت) التي ذكرها (الأعشى) أيضاً في شعره ، فقال :

أحب أثافيتَ وقت القطاف ووقت عصارة أعنابها

وكان كثيراً ما يزورها ، وله بها معصر للخمر يعصر فيه ما أجزل له أهل أثافت من أعنابهم[6] . وورد انها من قرى اليمامة ، كما ذكرت ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب .

---

١ صحيح مسلم (٦/٩٩ وما بعدها) ، (باب بيان ان كل مسكر خمر ، وأن كل خمر حرام) .
٢ تاج العروس (٥/٢٦٩) ، (بتع) .
٣ تاج العروس (٣/٥٤١) ، (مرز) .
٤ المصدر نفسه .
٥ تاج العروس (١٠/٢٢٠) ، (ضرى) .
٦ الصفة (٦٦) .

وأنا لا أستبعد استخدام الجاهليين للماء في ادارة المطاحن ، وقد ذكر (الهمداني) أن أهل اليمن بأودية : سربة ، وشُراد ، وبنا ، وماوة ، والموفد ، وجمع ، ويعسيد ، وأودية رعين ، ووادي ضهر ، كانوا يديرون مطاحنهم بالماء[1] . ولم يشر (الهمداني) الى تأريخ استعمال هذه المطاحن التي تدار بالماء ، ولكني لا أستبعد أخذهم هذه الصناعة من الجاهليين ، وقد أشير الى الطحن والمطاحن والطحين في نصوص المسند . ورد في بعضها ان الحكومات كانت تتقاضى الإتاوة من الناس إما نقداً ، وإما (ورقاً) ، أي ذهباً سبائك ، وإما (طحناً) أي طحيناً ، وهو الدقيق . ويقال له (طحنم) و (طحن) في المسند ، وإما (دعتم) ، أي بضاعة ، بمعنى مواد عينية . فذكر (الطحين) في هذه النصوص ، يشير الى وجود المطاحن بكثرة في اليمن ، وربما كانت تصدر الفائض منه الى الخارج .

---

[1] Handbuch, I, S. 137.

الفصل الرابع عشر بعد المئة

الحرف

من الحرف المتداولة بين الجاهليين النجارة والحدادة والحياكة والنساجة والخياطة والصياغة والدباغة والبناء ونحوها من حرف يحترفها الحضر في الغالب. أما الأعراب فقد كانوا يأنفون من الاشتغال بها، وينظرون الى المشتغلين بها نظرة احتقار وازدراء لأنها في عرفهم حرف وضيعة، خلقت للعبد والرقيق والمولي، ولا تليق بالحرّ، حتى إن الشريف منهم وذا الجاه، كان لا يحضر وليمة يدعوه اليها شخص من أصحاب هذه الحرف، استنكافاً وازدراءً؛ لأنه ليس في منزلته ومكانته. وقد كان عمل الرسول كبيراً في نظر رؤساء القوم يومئذ، حينما جوّز حضور طعام الخيّاط والصائغ وأمثالها، وكان يحضر منازلهم، فعدّ القوم ذلك عملاً غير مألوف ومخالفاً للعرف والتقاليد [1].

وقد كان أكثر أهل القرى ينظرون الى الحرف والمحترفين بها نظرة ازدراء كذلك، ويأنفون لذلك من التزاوج معهم، ويعيّرون من يتزوج من امرأة أبوها قين أو نجار أو دبّاغ أو خياط، ويلحق هذا التعيير الأبناء كذلك. وينظرون هذه النظرة الى المشتغلين بزراعة الخضر مثل البقول في الغالب، ولا تزال هذه النظرة معروفة في جزيرة العرب وفي أماكن أخرى خارج حدود هذه الجزيرة

---

١ « وفيه جواز أكل الشريف طعام الخياط والصائغ واجابته دعوته »، « باب ذكر الخياط »، عمدة القارىء (١١/ ٢١٠ وما بعدها).

كالعراق . وهذه هي مشكلة من جملة المشكلات التي أثرت في الاقتصاد العربي وفي الحياة الاجتماعية ، وإن كانت قد أخذت تخف في هذه الأيام .

ولم يكن العرب وحدهم ينظرون الى الحرف والمشتغلين بها نظرة ازدراء ، بل كانت شعوب العالم كلها تقريباً تنظر الى طبقة أصحاب الحرف مثل هذه النظرة؛ لأن الحرف هي من أعمال الطبقات الدنيا من سواد الناس الرقيق والموالي . أما الحُر ، فلم يخلق لها ولم تخلق له . كذلك كانت نظرة قدماء اليونان الى هذه الحرف ، لأنها عندهم من الأعمال التي يقوم بها سواد الناس ورقيقهم[1] .

وهذه الحرف لم يختص بها الجاهليون وحدهم، بل كانت عامة معروفة ومتداولة عند جميع الشعوب لتلك العهود. وهي لبساطتها وبداءتها متشابهة، لا تجد اختلافاً في آلاتها وأدواتها المستعملة عند الشعوب . فأدوات النجار تكاد تكون واحدة، سواء أكانت عند النجار العربي الجاهلي ، أو النجار العبراني ، أو النجار النبطي . وكذلك قل عن أدوات الحدّاد والصائغ وغيرهما من الطبقات العاملة التي ترتزق وتعيش على هذه الحرف التي تعتمد على اليد .

ونجد في كتب اللغة والأدب وأمثالها ألفاظاً عديدة معربة ، استعملها أهل الجاهلية وذلك بتعريبها ونقلها من أصول عجمية معروفة ، فيها الفارسي والآرامي واليوناني واللاتيني والحبشي والنبطي . وهي مما يدخل في باب الآلات والأدوات والمآكل والملابس والبيت والثقافة والعلم ، دخلت العربية، لأنها كانت مصطلحات متداولة عند أهلها معروفة ، أخذها العرب منهم باحتكاكهم وبتأثرهم بهم ، وقد صقل بعضها وهذب ووسم بسمة عربية ، وأدخل على بعض آخر بعض التعديل ليتناسب مع أسلوب النطق العربي ، وقبل بعض آخر على نحو ما كان في أصله واستعمل في العربية حتى صار في ظن من لا وقوف له على العربية انه عربي صميم .

والألفاظ المعربة التي نعنيها ، قديمة ، دخلت قبل الاسلام بمئات السنين . وقد استعملتها الألسن وتداولتها ، وصارت بهذا الاستعمال ألفاظاً عربية مستساغة . ومنها ما هو مستعمل حتى الآن . وجمع هذه الكلمات وضبط معانيها وتبويبها وتصنيفها ، عمل مهم نافع أرجو أن يتهيأ له أصحاب العلم والاختصاص ، فبها

---

١ Hastings, p. 52.

نتمكن من الوقوف على الاتصال الفكري الذي كان بين العرب وغيرهم ، وبها نتمكن أيضاً من الوقوف على مدى الاتصال ومقـــدار تغلغله في جزيرة العرب . وبأمثال هذه الدراسة سنتمكن أيضاً من تكوين صورة علمية صحيحة للتأريخ الجاهلي وهي صورة ستغير ، ولا شك ، كثيراً من هذه الآراء القديمـــة عند كثير من الناس عن الجاهليين ، تكونت من دراستهم لروايات أهل الأخبار عن العرب قبل الاسلام .

ولم يخفَ أمر هذه المعربات عن قدماء علـــماء اللغة ، فقـــد أدركوا وجودها ودخولها في العربية قبل الاسلام ، وألفوا فيها ، وأشاروا اليها في معجمات اللغة ووضع بعضهم بحوثاً في معربات القـــرآن . وهي تفيدنا فائدة كبيرة بالطبـــع في الوقوف على الصلات الثقافية التي كانت بين العرب والعالم الخارجي قبل الاسلام، وإن كانت تلك البحوث والمؤلفات قد كتبت بطريقـــة ذلك العهد ، استناداً الى الروايات دون التثبت منهـــا وتعرّف أصولها وتتبـــع مواردهـــا بدراسة اللغات الأجنبية ومقارنتها ومطابقتها بالأصل . وهي طريقة أوقعتهم في أغلاط ، ولكنها، أفادتنا مع ذلك فائدة كبيرة في معرفة هذا الغريب الدخيل ، وفي تكوين رأي في الدراسات اللغوية عند علماء اللغة القدامى[1] .

وقد عثر الرحّالون والمنقبون على ألواح من الخشب وعلى شبابيك ومواد خشبية أخرى في اليمن وفي حضرموت منقوشة نقشاً بديعاً ومحفورة حفراً يدل على دقـة الصنعة وإتقان في العمل . وهي شاهد على تمكن النجار من مهنته ، وعلى قدرته فيها ، وعلى حسن استعماله ليده وعلى سيطرته عليها في استخدامها للأدوات النجارية في صنع النفائس والطرائف من الخشب .

والحرف وراثية في الغالب ، يتعلمها الإبن عن والده ، وتنحصر في العائلـــة فتنتقل من الآباء الى الأبناء . ولا يسمح لغريب أن يتعلم أسرار الحرفة وأن يقف عليها وخاصة في الحرف المربحة وفي الحرف التي تحتاج الى مهارة ودقة وذكاء خوفاً من وقوع المنافسة ، وانتقال سر العمل والنجاح الى شخص غريب فينافس أصحاب الحرفة في عملهم وينتزع منهم رزقهم . لذلك حوفظ على أسرار المهنة ، ولم يبح بأسرارها حتى لأقرب الناس اليهم ، وفي حالة اكتشاف رجل طريقة جديدة غير

---

١ المعرب ، للجواليقي ، الاتقان في علوم القرآن ، للسيوطي (١/٢٣١) .

معروفة في حرفته، فإنه يحتفظ بسره حتى لا يتسرب الى الغرباء ومنهم من لا يعلّم حتى أولاده سرّ المهنة إلا في حالة شعوره بعجزه عن العمل أو بقرب وفاته ودنوّ أجله، خشية انتقال السر منهم الى غيرهم، فينافسونهم على رزقهم ومصدر قوتهم من هذا السرّ.

وينضم أصحاب الحرف بعضهم الى بعض مكوّنين (صنفاً)، أي طبقة خاصة، تتعاون فيما بينها تعاون النقابات الحرفية والمهنية في الوقت الحاضر، يتولى رئاستها أبرز رجال (الصنف). وإذا مات أحدهم تعاونوا في تشييعه ودفنه وفي مساعدة أهله ومؤاساتهم. وذلك لحماية رجال الحرفة من كل سوء قد يقع عليها وللمحافظة على حياتهم، ولا يسمح (الصنف) بدخول غريب بينهم، لأنهم جماعة ورثت حرفتها، فلا يجوز لغريب مزاحمتهم فيها.

ويتجمع رجال بعض الحرف في أماكن معينة، كما هو الحال في الوقت الحاضر، كأن يتجمع الحدادون في منطقة معينة، والصاغة في حي، والصفارون في حي والنجارون في حي، وذلك للتعاون فيما بينهم، وتنسب تلك المحلات اليهم.

وقد تشتهر مدينة ما بحرفة من الحرف، فيكون لمنتوجها شهرة واسعة وتباع بأسعار عالية. وقد تشتهر منطقة بجملة صناعات. فقد اشتهرت اليمن بالبرود كما اشتهرت بسيوفها، التي اكتسبت شهرة بعيدة واسعة في كل جزيرة العرب: واشتهرت بعقيقها كذلك وبأنواع أخرى من التجارات. واشتهرت مكة ببعض أنواع العطور واشتهرت ثقيف بالدباغة وبالأدم.

وقد كانت أجور العمل معروفة عند الجاهليين. فتُدفع للعمال والصناع أجور يومية، كما تدفع لهم أجور مقطوعة عن عمل معين. وليس لهؤلاء العمال من أتعاب عملهم سوى ذلك الأجر المتفق عليه. أما الرقيق، فلا يدفع لهم في العادة أي شيء، سوى ما يقدم لهم من طعام وملبس وحماية. وعليهم في مقابل ذلك الاشتغال بالشغل الذي يوكل اليهم به أسيادهم، ولا حق له بالنسبة لقوانين ذلك الوقت الامتناع عن القيام بالعمل الذي كلفوا به.

والأجور، قد تكون يومية وقد تكون سنوية وقد تكون مقطوعة. ولا يشترط في الأجر أن يكون نقداً، فقد يدفع عينة، أي مالاً مثل طعام، أو كساء، لندرة النقد في ذلك الوقت. ومن أمثلة الحرف التي تدفع عنها الأجور، حرفة

البناء ، فيُدفع للعامل أجر يومي في الغالب . والنجارة والحصاد ، وتدفع عنها أجور مقطوعة على الأكثر والرعي وأمثال ذلك من حرف ، يقوم بها سواد الناس لاعاشة أنفسهم منها .

ويمكن تصنيف وجمع الحرف التي عرفت عند الجاهليين في حرف النجارة ، وهي تنجير الخشب وتحويله الى متاع وأثاث أو الى عمل البناء أو الى تماثيل وزخارف وما أشبه ذلك ، ثم حرف البناء ، وتتناول كل ما يتعلق بالبناء من أعمال ، ثم حرف الإعاشة ، ثم حرف التعدين والمعادن ، ثم حرف الجلود، وحرف الملابس وحرف التجميل وحرف أخرى .

النجارة :

والنجارة من الحرف القديمة المهمة في المدن . وقد عثر على نماذج من مصنوعات خشبية في اليمن تدل على حذق النجار وذكائه وتقدمه في مهنته . ويظهر من روايات أهل الأخبار أن أهل مكة والمدينة لم يكونوا على حظ كبير في النجارة ، ولذلك كانوا يستعينون بالرقيق وبالأجانب في أعمال نجارتهم كاليهود أو الروم . وفي الذي رووه عن تسقيف الكعبة في أيام الرسول وقبل نزول الوحي عليه ما يدل على ندرة النجارين في مكة في تلك الأيام . ويعلل أهل الأخبار ذلك بسبب أنفة العربي من الاشتغال بالحرف . فاعتمد على الأجانب وأغلبهم من الرقيق في اداء هذه الحرفة .

والنجار ، هو الذي ينجر الخشب . فيقوم بنشره وحفره واصلاحه وعمله على النحو المطلوب وحرفته النجارة . وفي هذا المعنى : نجارة الخشب[1] .

ومادة النجارة ، الخشب . وهو نوعان : نوع مستورد من الخارج ، إما من الهند ، وإما من إفريقية ، وهو من النوع الجيد الصلب القوي المقاوم . وهو ثمين غال . لهذا استعمل في صنع الأثاث الفاخر الثمين وفي الأدوات التي تحتاج الى خشب صلب مقاوم وفي المعابد والقصور وفي الأبنية المهمة ، ومن أهم أنواعه

---

١ اللسان (١٩٣/٥) ، Hastings, A dictl. of the Bible, I. p. 356.

الساج والآبنوس والعندل . ونوع هو من حاصل أرض جزيرة العرب وناتجها . وهو دون الخشب الأول في المقاومة والجودة ، وفي الاستفادة منه في أعمال النجارة لأن معظمه ليس من النوع الناضج الغليظ الصلد القوي ، لا يصلح إلا للأعمال النجارية الاعتيادية وللوقود ، ما خلا أنواعاً قليلة منه استخرجت من بعض الأماكن مثل (النضار) ، وهو خشب غليظ بعض الشيء ينبت شجره في غور الحجاز ، وبعض أشجار اليمن والمناطق الجبلية الأخرى[١] .

وترد في كتابات المسند كلمة (عضم) (عض) ، ويراد بها (الخشب) في لهجتنا[٢] ، ترد في كتابات البناء بصورة خاصة ، أي الكتابات التي هي عبارة عن وثيقة بناء ، إذ كان أرباب الدور والأبنية يذكرون المواد التي استخدموها في البناء ، وفي جملة ذلك الخشب . وقد وردت لفظة (العضم) في كتب اللغة بمعنى خشبة ذات أصابع يذرى بها الطعام[٣] . ويشترك العبرانيون مع العرب الجنوبيين في تسمية الخشب بـ (عض)[٤] .

وقد استخدم الخشب في تقوية الجدر ، استخدموا الخشب القوي الصلد منه . ولا تزال آثاره باقية ظاهرة فيما تبقى من أبنية الجاهليين ، وبعضه قوي لم يعث به الزمن فساداً ، ولم يفنه ، كما استخدم في صنع السقوف والأبواب وفي تقوية السلالم ، وفي صنع الشبابيك وأمثال ذلك من الأعمال التي تدخل في صلب البناء ، وتكون جزءاً منه . وقد استورد معظم هذا الخشب الصلد القوي الساج[٥] والآبنوس والصندل[٦] من الهند ومن افريقية لعدم وجوده في جزيرة العرب ، ولا تزال آثاره وقطع منه باقية على الرغم من مرور مئات من السنين عليه .

واستخدم الخشب في صنع أثاث البيت وفي كثير من الأدوات المستخدمة في حياة الانسان . وقد عثر على بعض مصنوعات من الخشب استخدمت أثاثاً ، تدل على مهارة صناعها وعلى حسن تصرفهم في صنعها وفي هندستها . ويعبر عن الأثاث في المعينية بلفظة (رثد) . وهي في مقابل متاع . وتؤدي أيضاً معنى التنظيم

---

١ تاج العروس (٣/ ٥٧١) ، (نضر) .
٢ Rep. Epi., Num. 2789.
٣ تاج العروس (٨/ ٤٠١) ، (عضم) .
٤ راجع المعجمات في العبرانية .
٥ تاج العروس (٢/ ٦١) .
٦ تاج العروس (٧/ ٤٠٨) .

والترتيب وتنسيق الأشيـــاء . وفي المسند لفظة أخرى تؤدي هـذا المعنى هي لفظة (ربب) ومعناها السناد والأساس أيضاً[1] . وبالمعنى المذكور ترد لفظة (رثد) في عربية القرآن الكريم[2] .

وقـــد ذكر في القرآن الكريم أسماء بعض الأثاث ، مثل الأرائك[3] والسرر[4] « متكئين على سرر مصفوفة » ، « وسرراً عليها يتكئون » ، و « عـــلى سرر موضونة » ، و « على سرر متقابلين » ، و « فيها سرر مرفوعة » ،والكرسي[5]. وقد تصنع السرر من سعف النخيل ، كما تصنع الكرسي في هذه المـادة أيضاً ، وتصنع المشاجب من الأعواد المركبة توضع عليها الثياب[6] . واذا بوعد بين الأشياء المنسوج بها السرير أو غيره من سعف النخل ، قيل لذلك مرمل ، فيقال: سرير مرمل ، اذا كان قد نسج وجهه بالسعف ، وبوعد فيه بين الأشياء المنسوج بها[7]ه

وقصد بالكرسي ، الكراسي الكبيرة المرتفعة ، وقد استخـــدم خاصة لجلوس الملوك ، وفي غرف الاستقبال . وقد أشير الى الكرسي في القرآن الكريم . فورد : « وسع كرسيه السماوات والأرض » .

والعرش من الألفاظ الواردة في القرآن الكريم كذلك ، وهو من البيت سقفه، ويجمع على عروش ، والعرش شبه الهودج أيضاً . وقد يصنع من الخشب ، يقوم بصنعه النجار ، وقد يكون من حجارة أو غـــير ذلك . ومن ذلك العرش الذي يتربع عليه الملوك ، والعرش : الخيمة من خشب وثمام ، والتابوت أيضاً أي سرير الموت والخشب تطوى به البئر[8] ، والعرش هو السرير الذي ينام عليه . قد يكون له حاجز يمنع النائم من السقوط ، وقد يكون له حاجـــز . وهو بهذه التسميـــة (عرش) عند العبرانيين[9] .

---

١ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 53.

٢ شرح القاموس (٢/٣٥٠) .

٣ المفردات في غريب القرآن ، للراغب الاصفهاني (ص ١٤) ، وسيـــكون رمزه : المفردات ، « وقال الزجاج : فراش في حجلة . وقيل هو السرير مطلقا سواء كان في حجلة أو لا . او كل ما يتكأ عليه » ، شرح القاموس (٧/١٠٠) ، شمس العلوم (١/٧٢) .

٤ المفردات (ص ٢٢٨) .

٥ المفردات (٤٤١) .

٦ جامع الاصول (٤/٣٩٩) ، شرح القاموس (١/٣٠٩) .

٧ جامع الاصول (٩/٣٤٧) ، شرح القاموس (٧/٣٥٢) .

٨ المفردات (ص ٣٣٢) ، تاج العروس (٤/٣٢١) ، (عرش) .

٩ Smith, Vol., I, p. 177.

وقام النجار بصنع أواني الطعام أيضاً ، ولا سيما الأواني الكبار التي تستعمل في إطعام عدد من الناس في المناسبات ، وتدخل بيوت الملوك وسادات القبائل والأغنياء الكرماء في الغالب وفي بعض الظروف والمناسبات ، مثل المآتم والأفراح. ومنها (الجفنة) ، وهي — كما يقول بعض علماء اللغة — أعظم ما يكون من القصاع ، يوضع فيها الطعام ، ليتناول منه عدد من الناس . وقد افتخر الشاعر (حسان بن ثابت) بـ (الجَفَنات) دلالة على الكرم والجود[1] . و (القصعة) وهي تلي الجفنة في السّعة ، يشبع الضخم منها عشرة أشخاص[2] . ثم (الصحفة) وتجمع على (صحاف) وقد وردت في شعر معزوّ للأعشى :

والمكاكيك والصحاف من الفضة والضامرات تحت الرجال

وتصنع من الفضة كذلك ، كما رأينا في هذا البيت المتقدم ، وذكر أنها تشبع خمسة أشخاص[3] . ويليها في الحجم والسعة (المئكلة) ، تشبع الرجلين والثلاثة . ثم الصحيفة ، وتشبع الرجل[4] .

وتصنع بعض هذه الأواني من مواد أخرى ، كالأدم ، أو من المعدن كما قلت في (الصحاف) حيث تصاغ من الذهب والفضة لبيوت الملوك والأمراء والشيوخ والأغنياء .

وقام النجار ، ولا سيما من تخصص بالقداحة منهم ، بعمل القدح النضار ، وهو القدح المعمول من النضار. والنضار خشب معروف في الحجاز في أيام الرسول يكون بغور الحجاز ، يعمل منه ما رقّ واتسع وغلظ من الأقداح ،وذلك لتحمل هذا الخشب ما لا تتحمله الأنواع الأخرى من الخشب المستخرج من الحجاز . وقد كانوا يدفنون هذا الخشب حتى ينضر ، ثم يعمل فيكون أمكن لعامله في ترقيقه . وقد كان عند الرسول قدح نضار عريض . ويعبر أيضاً عن الأقداح المنحوتة من الخشب بـ (الخشيب)[5] .

---

١ تاج العروس (١٦٢/٩) .

٢ تاج العروس (٤٦٩/٥) ، المعرب (ص ٢٧٤) .

٣ تاج العروس (١٦١/٦) .

٤ تاج العروس (١٦١/٦) .

٥ تاج العروس (٢٣٣/١) ، (٥٧١/٣) .

كما جهز النجارون أصحاب الحرف الأخرى بالأدوات المساعدة التي تساعدهم في حرفهم ، فصنع لأهل الطعام (الروسم) أو (الروشم) ، وهو خشبة فيها كتاب منقوش يختم به الطعام لئلا يسرق منه ، ويستخدمه الحنّاطون وأمثالهم من باعة الطعام ، وقيل : الطابع الذي يطبع به رأس الخابية . واللفظة من الألفاظ المعربة على رأي بعض العلماء[1] . وصنع للمزارعين (النورج) ، وهو المدوس ، يداس به الطعام ، وقد يصنع من الحديد أيضاً[2] . و (الهاون) ، وهو المهراس والمنحاز ، ويدق به ، وقد أدخل في المعربات . وقد يصنع من حجر[3] ، فيدق اللحم أو الحبوب فيه لسحقها .

وصنع النجار (الميتدة) ، وهي مطرقة من خشب ، يستعملها الأعرابي بصورة خاصة لدق أوتاد خيمته في الأرض . وتعرف بـ (مقبه) (مقابه) عند العبرانيين[4] .

وصنع النجار أبواب البيوت ، ويقال للخشبة التي تدور فيها رجل الباب (النجران) . ويقال لأنف الباب الرتاج ، ولمترسه القُنّاح والنجّاف . وعمل (النجيرة) : السقيفة من خشب ليس فيها قصب ولا غيره[5] .

وصنع النجار صناديق من خشب ، لخزن الأشياء فيها ، تقفل بقفل . وقد عني بزخرفتها بتلوينها أو بالحفر على أوجهها ، وذلك بالنسبة للصناديق الثمينة التي تستعملها الطبقات الراقية .

وفي جملة مصنوعات النجار (الحدوج) ، مركب من مراكب النساء يشبه المحفة ، تركبه نساء الأعراب على الإبل . وذكر ان الحدج مركب ليس برحل ولا هودج تركبه نساء الأعراب[6] . والهودج مركب للنساء مقبب وغير مقبب

---

١ المعرب (ص ١٦٠) ، تاج العروس (٣١٣/٨) .

٢ المعرب (ص ٣٣٥) ، تاج العروس (١٠٥/٢) .

٣ المعرب (ص ٣٤٦) ، « والهاون الذي يدق فيه ، فارسي معرب » ، تاج العروس (٣٦٩/٩) .

٤ Hastings, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 291.

٥ اللسان (١٩٣/٥) .

٦ تاج العروس (١٩/٢) ، (حدج) .

يصنع من العصي ثم يجعـــل فوقه الخشب فيقبب . وذكر انه محمل له قبّة تستر بالثياب يركب فيه النساء[1] .

ويستعين النجار بجملة أدوات في صنعته ، بعضها من صنع الحداد ، لأنها من الحديد ، مثل الفأس على اختلاف أنواعها ، والمنشار والمحفرة والمحفار ، والمنقار والمسحل والمثقب والكلبتان والمسامير والأوتاد وغير ذلك من أدوات تستعمـل في قطع الخشب وفي تنظيمه وصقله وهندسته لجعله صالحاً للعمـــل[2] . ونجد في كتب اللغة ألفاظاً عديدة تتعلق بهذا الموضوع .

ومن الأدوات التي يستعين بها النجارون في قيـــاس تربيع الخشب (الكُوس) وهي خشبة مثلثة [3] .

ويستعمل النجار المنشار في قطع الأخشاب والأشجار . ويقـال لنحت الخشب النشر كذلك [4] . أما المنقار ، فهو حديدة كالفأس مستديرة لها خلف ينقر بها ، ويقطع بها الحجارة والأرض الصلبة والخشب[5] . ولا سيما في نقش الخشب وحفره. والحفرة وتعرف بالمحفار أيضاً ، حديدة يحفر بها الشيء[6] ، وتستعمـــل في حفر الخشب لأغراض متعددة ، مثل نقشه أو الكتابة عليه . وأما المِسحْل ، فالمنحت، آلة ينحت بها الخشب كالمبرد[7] . والمثقب آلة يثقب بها [8] . والكلبتان آلة يستعملها النجار والحداد ، يستعملها النجّار في اخراج المسامير . ويستعملها الحداد في أخذ الحديد المحمي[9] . وأما المسامير ، فما يشد به [10] .

ونجد في (الكتاب المقدس) — في التوراة والانجيل — أسمـــاء أدوات عديدة استعملها النجار في عمله ، منها ما استعمل لقطع الخشب واعطائه الشكل المطلوب ،

---

١ تاج العروس (٢/١١٥) ، (هدج) .
٢ بلوغ الارب (٣/٣٩٦ وما بعدها) .
٣ المعرب (ص ٢٨٨) ، « الكوس : خشبة مثلثة تكون مع النجار يقيس بها تربيع الخشب . وهي فارسية » ، تاج العروس (٤/٢٣٦) .
٤ تاج العروس (٣/٥٦٥) .
٥ تاج العروس (٣/٥٨٠) .
٦ تاج العروس (٣/١٥١) .
٧ تاج العروس (٧/٣٧٢) .
٨ تاج العروس (١/١٩٦) .
٩ تاج العروس (١/٤٦١) .
١٠ تاج العروس (٣/٢٧٨) .

ومنها ما استعمل لنشر الخشب وقصه ، ومنهـــا ما استعمل لثقبه باستعمال المثاقب الآلية أو اليدوية التي تعمل الثقوب بالطرق وبطريقة الحفـــر ، كما أشير فيه الى المسامير[1] . وقد ذكر في القـــرآن الكريم ألواح الخشب التي تستعمل في صنـــع السفن ، و (الدسر) وهي المسامير . والسفن في ذلك العهد من صنع النجارين . وآلات النجارة المذكورة في التوراة وفي الأناجيل، معروفة ومستعملة عند الجاهليين. وقد تصنع الدسر من الخشب .

وهناك نجارون تخصصوا بصنع القوارب والسفن ، لاستعمالها في صيد السمك وفي البحار للتجارة البحرية والنقل . ونظراً لعدم وجود الأنهر الكبيرة والبحيرات في جزيرة العرب ، انحصرت حرفة صنع القوارب والسفن في السواحل . ويستورد أهل هذه السواحل الخشب القوي الصلد من افريقية والهند لصنع السفن الكبيرة التي يكون في مقدورها الابتعاد عن الساحل والسير الى الأماكن البعيدة .

ولا يستبعد قيام النجار الجاهلي بصنع العربات والمركبات ، وذلك لاستخدامها في السلم وفي الحرب. فقد كان المصريون والعراقيون وأهل بلاد الشأم يستخدمونها، وليس من المعقول عدم وجود علم للجاهليين ولا سيما لأهل اليمن بصنعها وبالاستفادة منها . والعربة هي (عجله) (ع ج ل ه) عند العبرانيين وتستخدم في نقل الحاصلات . وقد أشير اليها في التوراة[2] . وقد عرفت بـ (م ر ك ب ه) (مركبه) كذلك ، وبـ (مركب) أيضاً ، من أصل (ركب) احدى الألفاظ التي ترد في اللهجات السامية . وهي (مركبة) في عربيتنا و (نركبتو Narkabtu) في الأشورية و (مركبثا Markabtha) في السريانية . وقد تعني الحيوان وحده الذي يركب عليه[3] .

ويراد بـ (عجله) ، العربة التي تستخدم في نقـــل الحاصلات الزراعية في الغالب ، وقد عثر عـــلى صور عربات في الآثار المصرية والأشورية واليونانيـــة والرومانية . وبينها عربات استخدمت في القتال . ولبعضها مظلات لتحمي ركابها من الشمس والمطر . ويسحب العربات الزراعية ثور أو ثوران في الغالب . وقد

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٣) ، Hastings, p. 53.

٢ Gen, XIV, 19, 27, Num., VII, 3, 7, 8, Smith, Dict., Vol. I, p. 281.
Ency. Bibl., Vol. I, P. 724, Hastings, Dict., Vol. I, P. 372.

٣ Ency. Biblica., Vol. I, p. 724 ff.

تستخدم الحمير والبغال . أما عربات القتال فتجرها الخيل . وقد كانت دواليب العربات من الخشب ، إلا انها صنعت من الحديد أيضاً . والغالب أن يكون للعربة دولابان ، ولكن العربات ذات الأربعة دواليب كانت معروفة أيضاً ومستعملة ، ولا سيما في أمور النقل . وقد كان الأكاسرة يستعملونها لنقل عوائلهم ، ولها ستائر وسقف[1] .

وذكر علماء العربية أن العجلة : الدولاب[2] . وأن (المركب) واحد مراكب البرّ والبحر[3] . والظاهر أن العجلات والمركبات كانت نادرة الوجود في أكثر مواضع جزيرة العرب . إذ لا نجد لها ذكراً في أخبار الأخباريين عن الجاهليين ولا في كتب اللغة .

الحدادة :

وقد دفعت حاجة الانسان الى المعادن لاستخدامها في أمور حربية وزراعية وفي البيت على انصرافه الى الاشتغال بها لتحويلها الى أشياء نافعة . فظهرت الحدادة والصياغة وأمثالها ، واشتغل بعض الناس بالبحث عن الحديد وعن المعادن الأخرى واستخلاصها من المواد الغريبة المختلطة بها . كما اشتغلوا في خلط المعادن لإيجاد أنواع جديدة منها . وقد وقع ذلك بين أهل الحضر في الغالب ، أما أهل الوبر ، الأعراب ، فلبساطة حياتهم لم يشعروا بحاجة لهم الى هذه الصناعات ، واذا شعروا بوجود حاجة لهم فيها اشتروها من أهل المدن ، واحتقروا الصناعات وأهل الصناعة والمحترفين بالحرف .

ويعرف الحدّاد بـ (القين) كذلك عند الجاهليين[4] . وهو الذي يعدّ للزرّاع الأدوات التي تستعمل في حرث الأرض ، مثل المسحاة والمحراث والمنجل والأدوات

---

١ Smith, Dict., Vol. I, P. 295, Hastings, Dict., Vol. I, P. 357, Ency. Bibli., Vol. I, P. 724.

٢ اللسان (١١/٤٢٨) .

٣ اللسان (١/٤٣١) .

٤ « والحداد كتان معالجه ، أي الحديد ، أي يعالج ما يصنعه من الحرف . ومن المجاز : الحداد السجان ؛ لانه يمنع من الخروج ، أو لانه يعالج الحديد من القيود » ، شرح القاموس (٢/٣٣١) ، تاج العروس (٢/٣٣١) ، (حدد) .

الأخرى ، يصنعها من الحديـــد ، كما أنه يعد للحرف الأخرى ولأهل البيوت كثيراً من الآلات،يصنعها من الحديد . وكان فضلاً عن ذلك الخبير الاختصاصي بصنع السلاح على اختلاف أنواعه وتجهيز الحكومات والأفراد بالسلاح الذي يستعمل في الدفاع وفي الهجوم ، لذلك كانت حرفته مهمة خطيرة ، ولا يزال الحـــدّاد يعدّ للناس في جزيرة العرب السلاح ، كالسيوف والخناجر والدروع والسكاكـين والنصال المعدنية وغير ذلك من أدوات كانت تستعمل في الحروب لذلك العهد ، وسأفرد لها بحثاً خاصاً .

وذكر بعض علماء اللغة أن القين هو العامل بالحديد . وقال بعض آخر : إن القين الذي يعمل بالحديد ويعمل بالكير ، ولا يقال للصائغ قـــين . وذكر بعض آخر أن القين الحدّاد ، ثم صار كل صائغ عند العرب قيناً . وذكر بعض آخر: أن القين هو الذي يصلح الأسنة،الى غير ذلك من آراء . وكان من بين أصحاب الرسول من كان قيناً ، مثل (خباب بن الارت)[1] ، ذكر أنه كان يشتغـل للعاص بن وائل . وكان العاص هذا من الانادقة، ومثله : عقبة بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة ، وأبيّ بن خلف[2] . وكان خبّاب يضرب السيوف الجيـــاد ويدقهـــا ، حتى ضرب به المثل ، ونسبت اليه السيوف[3] . كما اشتهر بها رجل آخر عرف بـ (ريش المقعد) ، أي النبـــل . والمقعد اسم رجل كان يريش السهام[4] . والنبل : السهام ، والنبّال صاحب النبال وصانعها ، وحرفته النِبالة[5] . وتحبس في الجعبة ، يحملهـــا صاحبها معه ، فإذا أراد الرمي ، فتحها ليستخرج منها ما يشاء .

ومن الحدادين الأعاجم الذين ذكرهم أهل الأخبار ، الأزرق بن عقبة أبو عقبة

---

١ تاج العروس (٩/٣١٦) (قين) ، البلاذري (١/١٧٥) وما بعدها) .

٢ عمدة القارىء (١١/٢٠٨ وما بعدها) ، « وخباب بن الارت بن جنـدلة بن سعد بن خزيمة الخزاعي ، وقيل : التيمي ، وهو أصـح ، أبو عبدالله ، من السابقـين في الاسلام ، وشهد بدرا ، ثم نزل الكوفة ، ومات بها سنة سبع وثلاثين » ، شـــرح القاموس (١/٢٢٨) .

٣ تاج العروس (١/٢٢٨) .

٤ تاج العروس (١/٢٢٨) .

٥ تاج العروس (٨/١٢٥) .

الثقفي ، غلام الحارث بن كلدة الثقفي ، ذُكر انه كان رومياً حداداً[1] .

ويرجع في رواية تنسب الى (ابن الكلبي) مبدأ الحدادة عند العرب الى (الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة) ، فهو في هذه الرواية أول من عمل الحديد من العرب ، وكان حداداً ، فنسب اليه الحداد ، فقيل لكل حداد : هالكي . ولذلك قيل لبني أسد القيون ، وقال لبيد :

جنوح الهالكيّ على يديه مُكبّاً يجتلي نقب النصالِ[2]

وعرف القين الذي يقوم بطبع السيوف وصقلها بـ (الطبّاع) و (الصيقل)[3] . وقد عرفت اليمن بإجادتها صنع السيوف وطبعها وصقلها ، حتى اشتهرت بذلك في جميع أنحاء جزيرة العرب . واشتهرت السيوف المصنوعة من حديد بيحان بالجودة ، لجودة حديدها وقوته[4] . ومن الأدوات التي يستعملها (الصيقل) في صقل السيوف (المصقلة) ، وهي خرزة يصقل بها[5] .

ويقال طبع الطبّاع السيف ، أي صاغه ، وكذلك طبع الطبّاع الدرهم. والطبع عند علماء اللغة هو الختم ، والتأثير في شيء ما ، وتصوير الشيء بصورة مثل طبع السكة وطبع الدرهم ، وهو عندهم أعم من الختم وأخص من النقش[6] .

ويعتني الحداد باختيار الحديد عند صنعه السيوف الجيدة الثمينة ، ويخرج منه خبثه ، وينفق جهده في صقل السيف وفي اتقان عمل الحديد الملتهب قبل تبريده ، وإلا صار خشناً قليل الفائدة لا يشترى بثمن جيد . ويقال لهذا النوع من السيوف الخشنة الخشيب ، وتستعمل اللفظة في الضد أيضاً ، فتطلق على السيف الصيقل ، وتطلق على السيف الحديث الصنعة كذلك[7] .

ومن أنواع الحديد الجيد الذي يستخدمه الحدّاد في صنع المصنوعات الثمينة ، (الفالوذ) أي (الفولاذ) . ويقال له (بلدو) Poldo في السريانية و (فلده)

---

١ البلاذري (١/١٥٧) ، الاصابة (١/٢٩) .
٢ اللسان (١٠/٥٠٧) ، « الهالك بن مراد بن أسد بن خزيمة » ، العمدة (٢/٢٣٢) .
٣ بلوغ الارب (٣/٤٠١ وما بعدها) ، تاج العروس (٧/٤٠٤) .
٤ بلوغ الارب (١/٢٠٤) .
٥ تاج العروس (٧/٤٠٣) .
٦ تاج العروس (٥/٤٣٨) .
٧ تاج العروس (١/٢٣٣) .

(فلداه) في العبرانية . وتصنع منه الأسلحة بصورة خاصة[1] . وهو معروف في العربية ، وعرف بقولهم : « وهو مصاص الحديد المنقى من خبثه »[2] .

ويستعين الحدّاد بأدوات في طرق الحديد وفي تغيير شكله على النحو المطلوب. ومن أهم هذه الأدوات (الكير) ، وهو المنفاخ ، وهو زق ينفخ فيه الحداد، أو جلد غليظ ذو حافات ، يستعمل لاثارة النار وإيقادها ، كي ترتفع درجات حرارتها فتؤثر في الحديد وتجعله ليناً يسهل طرقه واعطاؤه الشكل المطلوب[3] . والكور وهو مجمرة الحدّاد وهي مبنيـــة بالطين وبالحجارة ، وتوقد فيها النـار ، ويسلط عليها الكير ، ويوضع الحديد على النـــار ليحمى ويلين[4] . ومن أصل (كوّر) (كور) و (كير) ، ويراد بها الموضع الذي تحرق فيه القرابين من بخور وذبائح تهيأ للحرق تقرباً الى الآلهة[5] . ويعرف الكور بـ (كور) عند العبرانيين . وقد وردت اللفظة في التوراة[6] .

ويطرق القـــين الحديد المحمى على (السندان) ، ليحولـه الى الشكل الذي يريده . ويعرف بـ (العلاة) أيضاً[7] .

وقد استغل اليهود انفة أهل المدينة والعرب الصرحاء من الاشتغال بالحدادة ، فاحتكروها لأنفسهم ، وربحوا منها ربحاً طيباً ، وذلك بإنتاجهم الأدوات والآلات الزراعية وبصنعهم الأسلحة اللازمة لكل انسان لحماية نفسه ، مثـــل صنع السيوف والخناجر والدروع . وقد سلحوا أنفسهم بها ، كما باعوا منتوجهم من غيرهم . وتصنع الدروع من الحديد الثقيل، كي تقاوم قراع السيوف[8] . وقد تزرد الدروع، لتقاوم في الدفاع ، ويقال عندئذ (درع مزرود)[9] .

والسرد عند علماء اللغة نسج الدرع ، وهو تداخل الحلق بعضهـا في بعض .

---

١ Smith, Dict. of the Bible, Vol. III, p. 1377.

٢ اللسان (٣/٥٠٣) .

٣ عمدة القارىء (١١/٢٢٠) ، تاج العروس (٣/٥٣٢) ، مجمع الامثال (١/٦) .

٤ تاج العروس (٣/٥٣٠ ، ٥٣٢) .

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 33, 170.

٦ Smith, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 637.

٧ شرح ديوان لبيد (ص ٩٦) .

٨ تاج العروس (٥/٣٢٥) .

٩ تاج العروس (٢/٣٦٣) .

والسرد اسم جامع للدروع وسائر الحلق . وسمي سرداً لأنه يسرد فيثقب طرفا كل حلقة بالمسمار ، فذلك الحلق المسرد . والمسرد هو المثقب . وهو السرّاد[1] . ويراد بالحلقة السلاح عاماً ، وقيل : الدرع خاصة ، وانما ذلك لمكان الدروع ولشدة غنائه . وقد سمي (النعمان) دروعه حلقة[2] .

وتصنع النصال من الحديد أيضاً . والنصل حديدة السهم والرمح ، ويقال نصل السيف ونصل السكين . وقد ذكر أيضاً أن نصل السيف حديدة السيف ما لم يكن له مقبض . فإذا كان لها مقبض ، فهو سيف . وقيل : إن النصل السهم العريض الطويل ، والمشقص على النصف من النصل[3] .

ومن المجاز الحداد السجّان ، لأنه يمنع من الخروج أو لأنه يعالج الحديد من القيود . وفي هذا المعنى ورد :

يقول لي الحداد وهو يقودني   الى السجن لا تفزع فما بك من باس

والحداد البواب ، لأنه يمنع من الخروج[4] .

والعتلة : حديدة كأنها رأس فأس عريضة ، في أسفلها خشبة تحفر بها الأرض والحيطان ، وليست بمعقفة كالفأس ، ولكنها مستقيمة مع الخشبة ، أو هي العصا الضخمة من حديد ، لها رأس مفلطح ، يهدم بها الحائط . وقيل : هي بيرم النجار[5] .

ومن مصنوعات الحداد (الإبزيم) ، وهو حلقة لها لسان يدخل في الخرق في أسفل المحمل ، ثم تعض عليها حلقتها ، والحلقة جميعها (ابزيم) . وقد أدخلها الجواليقي في باب المعربات[6] من الفارسية . ومن مصنوعات الحدّاد (المقدحة) ، الأداة التي استعان بها الإنسان في إيجاد النار . وهي حديدة يقدح بها حجر يوضع عليه مادة قابلة للالتهاب ولأخذ النار ، مثل الصوف ، فيورى منها النار[7] .

---

١ تاج العروس (٢/٣٧٥) .
٢ تاج العروس (٦/٣١٩) .
٣ تاج العروس (٨/١٣٦) .
٤ تاج العروس (٢/٣٣١) ، (حد) .
٥ تاج العروس (٨/٣) .
٦ المعرب (ص ٢٤) ، تاج العروس (٨/٢٠٢) .
٧ تاج العروس (٢/٢٠٢) .

ويهيء الحدّاد أقفال الأبواب ، وقد يصنعهـا النجار أيضاً . ويوضع خلف الباب وتد من حديد لتسميرها ، فلا يمكن فتحه[1] ، كما يهيأ البيت بمـا يحتاج اليه من أدوات تستعمل في الطبخ وفي الغسيل وفي الزينة . ويجهز الرجـل والمرأة بالأدوات المساعـدة للتجميل كـ (المدرى) ، وهو شيء يسرح به شعر الرأس محدد الطرف من حـديد ، وقد يصنع من غيره مثل الخشب . وهو كسنّ من أسنان المشط ، أو أغلظ قليلاً ، إلا أنه أطول[2] .

وقد ذكر أصحاب اللغة بعض أسمـاء الآلات والأدوات التي كان يستعملها الحدادون في حرفتهم ، نذكر بعضاً منها ، مثل : (القرزم) و (العلاة) . والقرزم لوح الإسكاف المدور . و (المِطرقة) ، و (الفطيس) ، وهي أكبر من المطرقة ، وهي (الميفعـة) أيضاً . و (المـِبرد) الذي يبرد به الحديد ، و (البرادة) ما سقط منه[3] . وأما (فسالة الحديد) فما تناثر من الحديد عند الضرب اذا طبع ، و (المشحذ) مبرد للحديد ، أعظمها وأخشنها . وقال بعض اللغويين : المشحذ المسنّ ، و (المفراص) وهو للحديـد كالمقراض للثوب ، والمنفاخ (المنفاخة) وهو ما ينفخ به الكير ، والكير الذي ينفخ فيه[4] . وأما المبني من الطين ، فهو الكور . و (المشرجع) مطرق لا حروف لنواحيه ، ومطرقة مشرجعة ، مطولة ولا حروف لنواحيها . أما اذا كان الشيء مربعاً ، وقد نحتت حروفه ، قيل له (شرجعة) . و (العسقلان) ، أصغـر مطرقات الصائغ . و (الغُداف) الحديدة التي يدخل في أحد طرفيها الخاتم ويركزها على الجبأة ، والخشبة التي بين يديه . أما (الحـِملاج) ، فمنفاخ الصائـغ ، وهو حديدة مجوفة ينفخ فيها الصائغ ، اذا أراد النفخ في كيره . وله الكلبتان والمثقب[5] .

وقد وردت في التوراة لفظة (ا ج ن) (اجن)[6] ، وهي (اجانة) و (اجان) في العربية . وهي إناء يعجن فيه العجين ،أو يوضع فيه سائل أو أي مادة أخرى .

---

١ المعرب (ص ٢٦٤) .
٢ جامع الاصول (٧/ ٥٧١) .
٣ شمس العلوم (١/ ١٤٥) .
٤ المغرب (٢/ ٢٢٠) .
٥ أخذت ذلك من بلوغ الارب (٣/ ٤٠٣ وما بعدها) .
٦ Hastings, Dict. of the Bibl., Vol. I, p. 533.

ولا تزال الكلمة حيّة معروفة . وتصنع من المعدن في الغالب ، ولكنها قد تصنع من خشب في بعض الأحيان .

ويستخدم الحدّاد المطرقة في طرق الحديد المحمى لتحويله الى الشكل المطلوب. ويقال للمطرقة الكبيرة (الفطيس) ، وتقابلها لفظة (بطيش) Pattish ، عند العبرانيين[1] . وقد أشار علماء اللغة الى (الفطيس)[2] . ويستخدم الـ (قـــدوم) ، وهي مطرقة كذلك ، تسمى بـ (قردم) (قردوم) عند العبرانيين[3] . وذكر علماء العربية أن (القدوم) التي ينحت بها[4] .

ومن أنواع المطارق مطرقة دعيت بـ (جرزن) عند العبرانيـين ، وتستخدم في القطع : في قطع الأشجار والأخشاب التي تستعمل في البناء . ويرى بعض العلماء أنها أخف من (القردم)[5] . وبين (جرزن) و (الجرز) اللفظة العربية تقارب وارتباط . وقد ذكر علماء اللغة أن (الجرز) من السلاح ، والعمود من الحديد وأن الجواز بمعنى : قاطــع ، ولذلك قالوا سيف جراز ومدقة جراز[6] . وهي الفأس في العبرانية ، ولعلها بهذا المعنى في العربية أيضاً . وتستعمل لقطع الأحجار والاخشاب ولتكسيرها[7] .

والمطارق الحديثة المستعملة في الشرق الأوسط وفي بلاد العرب ، لا تزال محافظة على شكلها وهيئتها التي كانت عليها عند الجاهليين وعند غيرهم قبـل الاسلام . كما يظهر ذلك من النماذج التي عثر عليها ومن صور المطارق المصورة على بعض الآثار . وبعض هذه المطارق ذات رأسين ، وبعضها ذات حافتـين . ويختلف شكلها باختلاف المهمة التي تستخدم فيها . واستخدمت المطارق في الحروب كذلك، حملها المحاربون معهم في قتال الأعداء وفي فتح الثغرات في الجدر والأسوار وتحطيم الدبابات والآلات الأخرى المستخدمة في حروب تلك الأيام .

---

١ Hastings Dict. of the Bible, Vol. I, p. 291.

٢ شمس العلوم (١/١٤٥) ، المغرب (٢/٢٢٠) .

٣ Smith, Dict., Vol. I, p. 142.

٤ اللسان (١٢/٤٧١) .

٥ Hastings, Dict., Vol. I, P. 205, Smith, Dict., Vol. I, 141 f., Ency. Bibli., Vol. I, p. 392.

٦ اللسان (٥/٣١٧) .

٧ The Bible Dictionary, I, p. III.

الصياغة :

و (الصائغ) ، من يحترف الصياغة ، وذلك في اللهجة العربية الشمالية ، ويشتغل في صياغة الذهب والفضة . وقد كان بين أصحاب الرسول من احترف هذه الحرفة . وقد ورد عن أبي رافع الصائغ ان عمر بن الخطاب كان يمازحه بقوله : « أكذب الناس الصواغ ، يقول اليوم وغداً »[1] . وكلام عمر بن الخطاب هذا يدل على أن الصاغة لذلك العهد كانوا يخلفون أيضاً في المواعيد ، ولا يحافظون على الأوقات .

وقد تحدث بعض الكتبة اليونان عن أثاث وحلي مصنوعة من الذهب والفضة ، ذكروا أن السبئيين كانوا يستعملونها في بيوتهم ، ولكننا لم نقف على شيء مهم من ذلك ، إلا قطعاً متآكلة من المعدن وصلت الينا . لنتحدث عن عمل الصاغة والحدادين في العربية الجنوبيــة . وأكثرها من المصنوعات المعمولة من البرنز . فلدينا مصباح من البرنز مصاب ببعض العطب ، عثر عليه في (شبوة) ، عــلى طرفه جسم (أيل) جميل ، صنع وكأنه متهيء للوثوب . وهناك قطع أخرى تمثل احداها جملاً ، وأخرى حصاناً ، كما عثر على عصي مصنوعة من البرنز ، وعلى ألواح من هذا المعدن أيضاً ، عليها كتابات . وهي محفوظــة في المتاحف الأوروبية . وهذا الذي عثر عليه هو شيء قليل بالطبع بالنسبة الى ما سيعثر عليه ، متى سمح للآثاريين بالبحث عن الآثار والكشف عن المطمور في جزيرة العرب ، ولا سيما في العربية الجنوبية حيث تشاهد تلول من الأتربة منتشرة تضم تحتها كنوزاً ثمينة من الآثار .

ويقال للذهب الأنضر ، وقــد ذكر بعض علماء اللغة أن لفظــة الأنضر اسم للذهب والفضة ، وكذلك النضار . أما النضرة فإنها السبيكة من الذهب . ونُضار الجوهر الخالص من التبر[2] .

وقد عرف التبر ، بأنه الذهب كله ، وقيل : هو من الذهب والفضة وجميع جواهر الأرض من النحاس والصفر والشبه والزجاج وغير ذلك مما استخرج من المعدن قبل أن يصاغ ويستعمل . وقيل : التبر هو الذهب المكسور ، وقيل الفتات

١ تاج العروس (٦/٢٣) .
٢ تاج العروس (٣/٥٧١) .

من الذهب والفضة قبل أن يصاغا ، فإذا صيغا فهما ذهب وفضة . وورد التبر ما كان من الذهب غير مضروب فإذا ضرب دنانير فهو عين . وقد يطلق التبر على غير الذهب والفضة من المعدنيات كالنحاس والحديد والرصاص ، وأكثر اختصاصه بالذهب . وورد في الحديث : الذهب بالذهب تبرها وعينها ، والفضة بالفضة تبرها وعينها [1] . وأما (الجذاذ) ، فإنه حجارة فيها ذهب ، أي الحجر الذي يقلع من مناجم الذهب ، ثم يسحن بالمساحن لاستخلاص الذهب من المواد الأخرى . والمسحنة حجر يدق به حجارة الذهب [2] .

والحلي ، ويراد بها ما يزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة [3] ، هي من أهم أعمال الصائغ عند الجاهليين ، يقوم بصنعها من الذهب أو الفضة ، ويزينها ببعض الحجارة في بعض الأحيان . وقد اشتهر (بنو قينقاع) في منطقة (يثرب) بإجادتهم حرفة الصياغة واتقانهم لها . ومن هذه الحلي ما يعلق على الصدر ، ومنها ما يوضع في الأيدي أو في الأصابع ، ومنه ما يوضع حول الساق . وما يعلق في مواضع أخرى من الجسد مثل الأذنين أو الأنف أو على الجبين ، كما ان بعضه مما يحلى به الحيوان أو الأشياء النفيسة في البيت .

ومن الحلي المشهورة عند الجاهليين ، القلادة . وتصنع من الذهب أو الفضة في الغالب ، وقد تكون من ربط حجارة أو عظام أو خرز بعضها الى بعض . وتربط حول العنق ، وتتدلى على الصدر . على أن القلادة في اللغة لفظة عامة تطلق على أمور كثيرة . وقد كان الجاهليون يضعون قلادة في عنق البدن ، مثل عروة مزادة ، أو خلق نعل ،أو غير ذلك ، ليعلم أنها هدي . كما كانوا يقلدون الإبل بلحاء شجر الحرم ، ويعتصمون بذلك من أعدائهم [4] .

والأسورة من أدوات الزينة كذلك . وقد استعملها أهل الجاهلية ، تضعها المرأة في يدها . ويذكر علماء اللغة أن (السوار) لفظة معربة ،عربت من الفارسية وأصلها في الفارسية (ستوار) ، فأخذها العرب وعربوها . واشتقوا منها (سوّرت

---

١ اللسان (٤/٨٨) .
٢ المعاني الكبير (٢/٨٤٨) .
٣ تاج العروس (٦/٢٣) .
٤ **تاج العروس (٢/٤٧٥) ، جامع الاصول (٥/٤٠٩) .**

الجارية) و (جارية مسوّرة)[1]. على أن بعض المحاربين كانوا يستعملون الأسورة، ويتباهون بها في الحروب .

وأما (العصمة) ، فقيل إنها القلادة ، وقيل إنها شبه السوار ، توضع حول اليد . وأما المعصم ، فإنه موضع السوار من اليد أو الساعد[2] . وأما القرط ، فمن حلي الاذن يعلق بشحمة الاذن[3] ، سواء أكان درّة أم ثومة من فضة أم معلاقاً من ذهب[4] .

والخلخال من أدوات الزينة التي تستعملها النساء ، يوضع على الساق يصاغ من الذهب أو الفضة[5] . وقد يحشى بالقـار ، كما تحشى الأسورة أيضاً في بعض الأحيان لتبدو غليظة . ويستعمل القير والقار في طلي السفن ، لمنع الماء من الدخول فيها . والعرب تسمى الخضخاض قاراً ، وهو قطران وأخلاط تهنأ بها الإبـل . وقد ذكر انه صعد يذاب ، فيستخرج منه القار[6] . ولا يزال أهل البادية والقرى يتحلون بالخلخال . وللأجراس الصغيرة التي تعلق به رنين خاص ونغمات . وهو من أدوات الزينة المستعملة بين شعوب الشرق الأوسط منذ القديم . وقد أشير اليه في التوراة[7] .

وقد نهى الاسلام تبختر النساء بالخلاخل ، واثارتهن نغماتها ، لما في ذلك من اثارة للرجال وتأثير عليهم[8] .

والخاتم من عمل وصنع الصائغ ، وهو من حلي الاصبع.ويحلى بالحجارة الكريمة في الغالب ، مثل الياقوت والماس والشذر وغير ذلك . ويستعمل الخاتم للختم كذلك أي للطبع بدلاً من التوقيع ، وذلك بحفر رمز أو كلمة أو عبارة أو اسم صاحب الخاتم على الخاتم ، فإذا أريد كتابة كتاب أو تصديق قرار أو وثيقة ختم به على

---

١ تاج العروس (٣/٢٨٣) ، المفردات (ص ٢٤٧) ، جامع الاصول (٥/٤٠٨) .
٢ تاج العروس (٨/٤٠٠) .
٣ **جامع الاصول (٧/٥٣٦) ، المغرب (٢/١١٧)** .
٤ تاج العروس (٥/٢٠٢) .
٥ قال امرؤ القيس :
كأني لم أركب جوادا للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
تاج العروس (٧/٣٠٩) .
٦ المعرب (ص ٢٦٦) .
٧ Hastings, Dictl. of the Bible, I, p. 99.
٨ السورة ٢٤ الآية ٣١ .

الشيء المراد ختمه ، فيقوم اذ ذاك مقـام التوقيع والاعتراف بصحة المذكور ويقال لما يوضع على الطينة وما يختم على اللبنة الخاتم كذلك[1] . ولذلك عدّ الخاتم عند الشعوب القديمة رمزاً للتفويض والتصديق والملك . وختم الملك ، يدل على ارادة الملك ورضائه وأمره . ولذلك قيل : خاتم الملك[2] .

وقد يصنع الخاتم من الشبه أو الصفر أو الحديد ، ويعمل على صور وأشكال متعددة متنوعة . وقد كان خاتم رسول الله من حديد ملوي ، عليه فضة[3] .

وفي المتاحف وعند الناس عدد كبير من الأختام،عثر عليها في مواضع متعددة من جزيرة العرب . وهي تكون عند علماء الآثار دراسة خاصة ، لما كان لها من أهمية عند الشعوب القديمة ولما في بعضها من دقة في الصنعة ومن تفنن وابداع وبعض هذه الأختام مستورد من الخارج وبعضه متأثر بالاختام الأجنبية ، مثل الأختام العراقية أو الأختام اليونانية أو الفارسية .

ويقوم الصائغ بعمل الزينة للرأس ، ومنها التيجان . وقـد كان ملوك الحيرة يضعون التيجان عـلى رؤوسهم . وقد ورد في شعـر لمالك بن نويرة أن تاج النعمان بن المنذر كان من الزبرجد والياقوت والذهب[4] .

ومن حلي النساء الفتخ والخُرص والسخاب والحلق . وقد حـلي بها الأولاد كذلك[5] . وكذلك المسكة من ذهب والسلسلة والأطواق والأجراس والجلاجـل ويراد بالفتخ الخواتيم الضخام . يكون في اليد والرجـل ، بفص وبغير فص وقيل الخاتم أياً كان ، أو حلقة من فضة[6] . وأما المسكة ، فسوار من ذبل أو عاج ، فإذا كانت من غيرهما أضيفت الى ما هي منـه[7] . وتوضع السلسلة في العنق ، وأما الأجراس فتوضع في الأرجل[8] .

---

١ تاج العروس (٨/٢٦٦) ، اللسان (١٢/١٦٣) ، « صادر » .
٢ Smith, Vol. III, p. 1044.
٣ جامع الاصول (٥/٤٠٢) .
٤ لن يذهب اللؤم تاج قد حبيت به   من الزبرجد واليـاقوت والذهب
المعرب (ص ٣٥٦) ، تاج العروس (٢/١٢) .
٥ جامع الاصول (٥/٤٠٤ وما بعدها) .
٦ جامع الاصول (٥/٤٠٨) ، تاج العروس (٢/٢٧٠) .
٧ جامع الاصول (٥/٤٩٣) .
٨ جامع الاصول (٥/٤١٠) .

ومن الحلي : (الحُبلة) ، ضرب من الحلي يصاغ على شكل ثمرة (الحبلة) يوضع في القلائد في الجاهلية [1] .

ويقال للنقوش والزينة المزوقة والتصاوير المموهة بالذهب (الزخرف) . وذكر علماء اللغة أن (الزخرف) الذهب ، وهو الأصل ، ثم قيل لكل زينة زخرف، وكذلك كل شيء مُوّه به . وقد ورد في كتب الحديث والأخبار أن الكعبة كانت قد زينت بالزخرف ، أي بنقوش وتصاوير ، وكانت بالذهب . فلما كان يوم الفتح ، لم يدخل الرسول الكعبة ، حتى أمر بالزخرف فنحي ، وبالأصنام فكسرت ، فدخل بعد ذلك الكعبة [2] .

وقد ألف أهل مكة وغيرهم استعمال الآنية المصنوعة من الذهب والفضة ، فاستعملوا الأكواب والأباريق والكؤوس والقوارير والأواني ، وبعضها عليه صور مرسومة أو محفورة . وقد أشير في القرآن الكريم الى هذه الأواني ، وذكرت في كتب الفقه ، وقد ورد النهي عن الشرب بأواني الذهب في الحديث[3] ، وفي ذلك دليل على وجودها واستعمالها عند العرب قبل الاسلام .

وقد ذكر علماء اللغة أن من الأواني المستعملة من الفضة الجام [4] ، وعرفوا الكوب بأنه كوز لا عروة له ، أو هو المستدير الرأس الذي لا خرطوم له . وقد ذكر في شعر عدي بن زيد العبادي[5] ، وفي شعر نفر آخر من الشعراء الجاهليين ممن ألفوا الحضارة . وورد (أكواب) جمع (كوب) في القرآن الكريم ، دليل على استعمال أهل مكة للأكواب .

واللفظة من الألفاظ المعربة عن اليونانية . وتقابل لفظة Cup في الانكليزية . وقد أخذت من هذا الأصل اليوناني .

والكوب ، هو في معنى (كوس) عند العبرانيين ، أي كأس في عربيتنا . وتصنع الكؤوس من المعدن ، كما تعمل من الطين . وعملت كؤوس الملوك وكبار

---

١ اللسان (١١/١٤٠) .
٢ تاج العروس (٦/١٢٦) .
٣ شمس العلوم (١/١٠٣) .
٤ تاج العروس (٨/٢٣٤) .
٥ متكئاً تصفق أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب
تاج العروس (١/٤٦٤) .

الأغنياء من الذهب والفضة . ولبعضها يد أو علاّقة ليحمل الكأس بها [1] . وقد ذكرت لفظة (كأس) في القرآن الكريم .

واستعمل أهل مكة الأباريق المصنوعة من الذهب والفضة كذلك . وقد ذهب علماء اللغة الى ان لفظة (ابريق) لفظة معربة ، أصلها فارسي هو : (آب رى). وقد وردت لفظة (الأباريق) في القرآن ، كما وردت لفظة (ابريق) في شعر منسوب الى عدي بن زيد العبادي [2] .

وأخذ تجار مكة من الفارسية بعض الألفاظ الحضارية التي لها علاقة بالصياغة ، بحكم اتصالهم بالعراق ، مثل لفظة (زركش) ، وهي من أصل فارسي معناه الراسم والناقش على الذهب [3] .

وصاغ الصياغ خرزاً من الفضة ، جعلوها على أمثال اللؤلؤ ، وعرفت عندهم باسم (الجمان) . وقد وردت لفظة (جمانة) في شعر منسوب للبيد . وذكر الجواليقي أن اللفظة معربة من أصل فارسي ، وانها تكلمت بها العرب قديماً [4] .

ويصنع الصائغ اطارات للمرائي ، جمع المرآة ، وهي ما تراءيت فيه،وما ترى فيه صور الأشياء [5] . وقد يصنع الصائغ المرآة على هيأة سبيكة مصقولة من الفضة اذا نظر اليها بان وجه الانسان.وقد ذكر العلماء نوعاً من المرائي دعوه (السجنجل)، وقد وردت هذه اللفظة في معلقة امرىء القيس،وذكر العلماء أن اللفظة معربة من أصل رومي [6] .

وقام الصائغ بعمل كل ما طلب منه ، فعمل قبيعة السيف من الذهب والفضة وزين السيوف بالذهب والفضة ، بل صنع بعضهم أنوفاً من ذهب لمن أصيبت

---

١ Smith, Vol. I, p. 372.

٢ ودعا بالصبوح يوماً فقامت قينة في يمينها ابريق

تاج العروس (٢٨٦/٦) ، وورد « فجاءت » ، المعرب (ص ٢٣) ، شمس العلوم (١٤٥/١) .

٣ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (ص ٣٨١ ، تموز ١٩٦٠) .

٤ المعرب (١١٥) ، تاج العروس (١٦٣/٩) .

٥ تاج العروس (١٣٩/١٠) .

٦ المعرب (ص ١٧٩) :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

تاج العروس (٣٧١/٧) .

أنوفهم . فذكر أن صائغاً صنع أنفاً من ذهب لعرفجة بن سعد،وكان قد أصيب أنفه يوم الطلاب في الجاهلية [1] .

وزينت الدروع والدرق بالذهب كذلك.ووجد الصائغ عملاً مهماً له في المعابد، اذ أمدها بزخارف مموهة بالذهب وضعت على أبوابها وعلى الأماكن المقدسة فيها . كما أمدها بالتماثيل المصنوعة من الابريز وبالقناديل والمصابيح المصنوعة من الذهب والفضة .

ومن أدوات الصاغة المهمة التي يستعملونها في صناعتهم (الحماليج) ، وهي المنافيخ ، وتستخدم في إيقاد النار وفي زيادة لهبها كي تتمكن من صهر المعدن أو جعله ليناً ليحوله الصائغ على الشكل الذي يريده [2] .

ومن الأدوات المصنوعة من الحديد ومن النحاس والبرنز أيضاً (التور)[3] و (الطست)[4] و (الطاجن)[5] ، وهي أوان يوضع فيها الماء في الغالب . وذكر بعض علماء اللغة انها كلها ألفاظ معربة من الفارسية [6] .

وقد عرف التور بأنه إناء من الأواني ، وقيل انه إناء من صفر أو حجارة كالإجانة وقد يتوضأ منه[7] .

ومن الأدوات التي يصنعها النحاسون (القمقم) . ذكر بعض علماء اللغة انه الجرة أو ما يستقى به من نحاس[8] . واللفظة ما تزال حية معروفة في العراق ،

---

١ جامع الاصول (٥/٤١٠ وما بعدها) ، اللسان (٨/٢٥٩) .
٢ المعاني الكبير (٢/٧٦٣) .
٣ المعرب (ص ٨٦) ، (تاج العروس (٣/٧٠) .
٤ المعرب (ص ٨٦) ، تاج العروس (١/٥٦٣) ، المغرب (٢/١٤) ، فرائد اللغة (ص ٢٣٨) .
٥ « الطجن : القلو ، دخيل في العربية ... والمطجن : كمعظم ، المقلو في الطاجن » ، تاج العروس (٩/٢٦٨) .
٦ المعرب (ص ٨٦)
٧ اللسان (٤/٩٦) .
٨ المعرب (ص ٢٦٠) : « والقمقم كهدهد : الجرة عن كراع . وايضا آنية من نحاس وغيره ، يسخن فيه الماء ، ويكون ضيق الرأس . قال الاصمعي : هو رومي معرب « كمكم » بكافين عجميتين . وقال عنترة :
وكان ربا أو كحيلا معقدا حش القيان به جوانب قمقم
ومنه استعير لاناء صغير من نحاس أو فضة أو صيني يجعل فيها ماء الورد ، تاج العروس (٩/٣٣) .

تطلق على وعاء يوضع فيه ماء الورد ، يسكب منه في المآتم خاصةً .

وقد اشتهرت بعض مواضع اليمن بالمعادن ، وتعرف الأرضين المحتوية على خاماتها بـ (مَعْدِن) عند أهل الأخبار . ويذكر بعد هذه اللفظة اسم المكان الذي يوجد فيه المعدن ثم نوعه ، فقد ورد مثلاً (معدن عشم) و (معدن ضنكان) ، وقد اشتهرا بالذهب . وذكر ان ذهبهما من النوع الجيد الجليل . أما (معدن القفاعة) ، ففيه ذهب كذلك ، لكنه دون ذهب المعدنين المذكورين ، وهو خير من ذهب (معدن بني محيد)[1] .

وقد استغل الناس مناجم الذهب والفضة والحديد ، وعثر عند بعضها على أدوات استخدمت في إذابة المعدن ، لاستخلاصه من المواد الغريبة العالقة به . وقد ذكر (فؤاد حمزة) في كلامه على جبل (تهْلل) بجوار السودة في عسير ، وبه معدن الحديد[2] ، أنه عثر فيها على آثار عشرات النقر لإذابة المعادن . وقد كانوا يضعون خام الحديد المستخرج من منجمه في هذه النقر ومعه الخشب والأغصان التي توقد لايجاد النار الكافية لإذابة المعدن واستخلاصه من المواد الغريبة المختلطة في خامه . فإذا ذاب المعدن وخلص من المواد الغريبة التي كانت ممتزجة به ، عولج معالجة خاصة لتنقيته ولاستخراج فحمه والمواد الأخرى التي تجعله هشاً قابلاً للكسر والثلم بسهولة . وقد يعالج جملة مرّات إن أريد استعماله في أمور تستدعي استعمال حديد نقي صاف في مثل السيوف الجيدة التي يجب صنعها من هذا الحديد .

واستعمل الأتون أيضاً في إذابة المعادن لتنقيتها وإذابتها ولإحالتها الى الشكل المطلوب . وتوقد النيران في أسفل الأتون ، لتذيب المعدن وتحيله الى سائل يسيل من فتحة تقع في جانبه ليحوله المعدن الى الشكل الذي يريده . ويخرج الدخان من فتحة تكون في نهاية موقد النار ، وتقوم هذه المدخنة في تهوية الموقد في الوقت نفسه . وطريقة إذابة المعادن وتنقيتها هذه ، معروفة عند الرومان واليونان والفرس والعبرانيين . ويطلق العبرانيون على الأتون ، لفظة (أتون) كذلك[3] .

وأشير الى معادن أخرى في اليمن ، منها : الفضة ، وقد وجد في (معدن

---

١ بلوغ الارب (١/٢٠٤) .
٢ في بلاد عسير : (ص ١١٣ وما بعدها) .
٣ Smith, Dict. of the Bible, Vol., I, p. 637.

الرصاص) ، موضع بين (فهم) من همدان ، بين خولان العالية ومراد ، ومعها الرصاص ، وعليه كان اعتماد أهل اليمن . وكان في الموضع قرية تسمى (قرية الرصاص) ، وأهلها من العرنيين . وقد ارتدّوا ، فقتلهم رسول الله[١] . وعرف الرصاص الخالص بالآنك[٢] . وقد ذهب بعض الباحثين الى انها من أصل إرمي هو (أنكو) Anko [٣] .

ومن المعادن : الجزع ، واليفران ، والعقيق ، وهو في مواضع عديدة من اليمن ، بعضه بعدن أبيض ، وبعضه بأرض وادعة بين صعدة والحجاز ، وفي نجران وبيحان[٤] .

والنحاس ، هو (نحشت) في العبرانية . ويعرف بـ (صبرو) Siparu في البابلية . ومن هذه اللفظة (الصفر) ، المستعملة في العراق بمعنى نحاس[٥] . وذكر علماء اللغة أن النحاس ضرب من الصفر والآنية شديدة الحُمرة[٦] . وذكروا أن الصفر : النحاس الجيد ، وقيل ضرب من النحاس . والصفار صانع الصفر[٧].

وقد عرف المشتغلون بالمعادن طريقة خلط المعادن ، فاستعملوها في أغراض شتى . فخلطوا بين الفضة والرصاص أو النحاس في صنع النمي ، وهي الفلوس . وكانت في الحيرة على عهد النعمان بن المنذر[٨] . وخلطوا الحديد بمعادن أخرى ، ليتناسب مع طبيعة الأشياء التي يراد صنعها منه . ويكون خلط المعادن بنسب مقدرة معلومة كي تؤدي الغاية المرجوة منه . ومن هذه المعادن : الشبه . وقد ذكر علماء اللغة أنه ضرب من النحاس يلقى عليه دواء فيصفر[٩] .

وفي العربية لفظة (فولاذ) ، وتعني معنى Steel في الانكليزية ، أي نوعاً خاصاً من أنواع الحديد وتقابل لفظة (فلدو) (بلدو) في السريانية و (فلداه)

---

١ بلوغ الارب (٢٠٤/١) .
٢ شمس العلوم (١٠٢/١) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٧٢) .
٤ بلوغ الارب (٢٠٤/١) .
٥ Ency. Bibli., Vol., I, p. 893.
٦ اللسان (٢٢٧/٦) .
٧ اللسان (٤٦١/٤) .
٨ تاج العروس (٨٥/٩) .
٩ اللسان (٥٠٥/١٣) .

في العبرانية . ويظهر أن الفولاذ كان معروفاً عند الشعوب القديمة قبل الميلاد[1] .

ولم يختلف أهل اليمن القدماء عن أهل اليمن المحدثين في طرقهم البدائيـــة في استخراج المعادن واستخلاصها من خاماتها ، ولا يزال أهـل اليمن يضرمون النار في الحجارة المحتوية على المعدن ، فيسيل المعدن بتأثير الحرارة ، فإذا سال سكب عليه الماء ، فيبرد ، وتتكون قطع منه ، يستعان بها في صنع ما يحتاجون اليه من آلات وأدوات .

ولا يزال كثير من سكان جزيرة العرب يمارسون الصناعات على الطريقة القديمة ، يعتمدون فيها على الأيدي وعلى الآلات البدائية التي ورثوها من الماضي ، فيدبغون الأدم على طريقتهم الموروثة ، ويصنعون سرج الخيل وهوادج الإبل ، والأحذية ، وينسجون الأنسجة من صوف الأغنام أو الماعـز أو الوبر ، للملابس ، ولبيوتهم التي تنتقل بتنقلهم .

والعِطارة من الحرف القديمة المعروفة ، وقد ذكرت في التوراة[2] . والعطّار وإن كان اسمه قد جاء من العطر بسبب تعاطيه بيع الطيب والعطور ، يبيـع أيضاً مختلف الأعشاب والعقاقير والأدوية . فهو صيدلي في الواقــع ، واليه تأتي وصفة الطبيب تعيّن الأعشاب والعقاقير التي يحتاجها المريض . وقد كان العطارون يبيعون في مكة ويثرب وأماكن أخرى أنواع العطور والطيوب ، وفي جملتها المسك. وقد ضرب الرسول المثل (بصاحب المسك) أي العطار ، إذ جعله مثـــال الجليس الصالح[3] للرجل .

ويبيع العطارون عـــدة أشياء تستعمل في الطب وفي الطعام ، مثـــل الزعفران والكركم وهو أصغر ، وذكر أنه (الهُرد) ، وهو عروق يصبغ بها[4] . ومثل (المصطكا) ، وهو علك رومي ، ويدخل في الأدوية أيضاً[5] .

وقد يحمل العطارون آلتهم معهم ، يضعونهـــا في خريطة من أدم ، يطلقون

---

١ Smith, A dicti. of the Bible, Vol., III, p. 1377.
٢ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٢) .
٣ عمدة القارىء (١١/٢٢٠) .
٤ المعرب (ص ٢٩١) .
٥ المعرب (ص ٣٢٠) .

عليها (القفدانة) و (القفدان) . وهي لفظة فارسية معربة ، وتطلق على المكحلة كذلك كما يقول بعض علماء اللغة [1] .

حرف الإعاشة :

وأعني بها الحرف التي تهيء الأكل للإنسان من تقديم أكل وشراب وما يتعلق بهما من أعمال مساعدة في تهيئة ذلك . فيدخل فيها طحن الحبوب والطبخ والخبز والأواني التي يوضع فيها الطعام وما شابه ذلك من أمور .

ولا بد للإنسان من سحق الحبوب وطحنها ليكون في امكانه أكلها والاستفادة منها . لذلك فقد يدقها دقاً بين حجرين أو بآلات صلبة ، ثم يلهم الحبوب المدقوقة لهماً أو يحمصها على النار أو يمزجها بمادة أخرى لتكون طيبة المذاق مستساغة في الطعم . وقد يطحنها طحناً ، أي يحولها الى دقيق بواسطة : الرحى ، وهي حجران من حيث الأساس أحدهما ثابت وهو الأسفل ، والآخر متحرك وهو الحجر الأعلى وهو أصغر قليلاً من الحجر الأسفل ، به فتحة توضع الحبوب بها فتنزل منها الى سطح الحجر الثاني، فتقع بواسطة حركة الحجر الأعلى بين الحجرين وتداس فتسحق ، وبواسطة استمرار الحركة وثقل الحجر الأعلى تتحول الحبوب الى طحين يخرج من بين الحجرين الى الخارج حيث يسقط في حفرة أمامية عملت لتجميع الطحين بها ، وذلك فيما إذا كان الحجر الأسفل مبنياً على قاعدة ، أما اذا كان متحركاً فيسقط الطحين على أطراف الرحى على قماش أو أي شيء يوضع تحت الحجر الثاني ، ثم يجمع الطحين .

وهذا النوع من الرحي هو من النوع المحسن الذي يمثل تقدماً في صناعة طحن الحبوب . وقد عثر على نوع هو أبسط من الرحى المتقدمة ، فهو عبارة عن حجر مائل نوعاً ما ، أحد طرفيه مرتفع عن الطرف الآخر ، يوضع الحب عليه ثم يسحق بحجر اسطواني الشكل في الغالب يمسك بالأيدي من مقبض نحت منه على كل طرف من طرفيه ثم يحرك على الحبوب لسحقها ، وقد يقبض بطرفي الحجر ثم يحرك نحو الأسفل فالأعلى حتى تسحق تلك الحبوب وتتحول الى طحين.

---

١ المعرب (ص ٢٦٣) ، تاج العروس (٢/ ٤٧٤) .

ولا أستبعد استعمال العرب الجنوبيين للطواحين الكبيرة التي تدار بالماء ، وذلك بالاضافة الى الطواحين التي تديرها الحيوانات ، وذلك لبيع الطحين في الأسواق . وقد كان الناس يستعملون الرحي في الغالب للحصول على الطحين ، فلم يكد يخلو بيت منها ، ولذلك كانت صناعة الرحي من الصناعات النافقة المربحة في ذلك الزمان .

والطحن من الأعمال التي تخصص بها النساء ، وتقوم به الخادمات في البيوت الكبيرة . وقد توضع جملة رحى في البيت الكبير حيث تخبز كميات وافرة من العجين لإعاشة أفراد البيت .

ولمكانة الرحي عند القوم يومئذ ، تخصص أناس باصلاح الحجر لتحويله الى رحى صالحة لطحن الحبوب أو لعمل الزيوت. وليس يصلح كل حجر لأن يكون حجر رحى ، ولهذا فعلى الخبير بالرحى اختيار الحجر الصالح ، ثم عليه اصلاحه ليكتسب الاستدارة وعمل ثقب فيه ونقره وغير ذلك مما يتعلق بهذا العمل . وتكون حجارة الرحى مختلفة في الحجم ، باختلاف العمل الذي يوكل اليها أداؤه . فبعض الرحى كبيرة ثقيلة ذات قطر واسع ، وتستخدم في طحن بعض المواد الصلبة مثل العفص ومواد الدباغة الأخرى والمواد التي تستخدم في إنتاج الزيت والطحين . ويستخدم الحيوان لإدارة مثل هذه الرحى . وقد عثر على حجارة رحى ضخمة استخدمها العرب قبل الإسلام في تلك الأغراض .

وبائع الحنطة يقال له الحنّاط ، يعيش من الإتجار بالحنطة ، وقد يبيع معها الشعير والحبوب الأخرى . وقد ورد ذكر (الحناطين) في كتب الحديث[1] .

والخبز في العادة هو من الأعمال البيتية ، أي من الأعمال التي تتم في البيت ، حيث تقوم الزوجة بخبزه ، ويقوم الرقيق أي الخدم بخبزه في البيوت الكبيرة الغنية. وهو من اختصاص النساء .

وقد احترف بعض الناس الخبازة ، وعرف واحدهم بـ (الخباز) ، إذ يصنع الخبز المصنوع من الحنطة أو المصنوع من الشعير أو من الذرة ومن الرز . والخبز على أنواع ، فيه الغليظ وفيه الطري وفيه الناشف ، وفيه ما يضاف اليه

---

١ المعرب (ص ١٤١) ، تاج العروس (٥/١٢١ وما بعدها) .

السكر . وقد ذكر أن من الخبز الغليظ مـا يقال له (جرذق) و (جردق) و (الجردقة) ، واللفظة فارسية معربة وأصلها (كرده)[١] .

والخبز المصنوع من الحنطة ، هو أجود أنواع الخبز وأغلاها ، ولذلك يعتبر خبزها خبز الأغنياء وخبز الطبقة المتمكنة . أما خبز الأعراب والفقراء وأهل القرى فهو الخبز المصنوع من الشعير أو من الذرة . ويقتات فلاحو بـلاد الشأم واليمن بخبز الذرة ، لوجوده بكثرة عندهم ، ولرخص ثمن الذرة بالنسبة الى القمح . كما يقتات بعضهم بالخبز المصنوع من (الدخن) ، وهو من الحبوب القديمة وقد أشير اليه في التوراة[٢] .

ومن أنواع الخبز (المرقق) ، أي الرقاق ، وقد ورد ذكره في كتب الحديث[٣]، ويقال له (المرقوق) في بلاد الشأم ، ويعرف بـ (رقيقيم) أي (الرقيق) عند العبرانيين[٤] . ولا زال معروفاً مستعملاً . ويكون ناشفاً رقيقاً يمكن حفظه وخزنه مدة طويلة . ولذلك يدخر للشتاء وللأسفار . ويرقق خبـــز الرقاق بآلة تسمى : المرقاق[٥] .

والخبز الجيد هو الخبز المصنوع من الطحين المنقى الصافي من قشرة الحبوب ، وذلك بنخل الطحين في منخل فيسقط لبّ الطحين ويعزل عن القشرة الـتي تبقى في المنخل ، حيث يستعمل لأغراض أخرى كعلف للحيوان ، أو لتنظيف الأواني وما شابه ذلك من أعمال .

و (الكعك) ، هو نوع من الخبز اليابس . ويحمل في الأسفار أيضاً ، حيث يبقى مدة طويلة محافظاً على طعمه ونكهته . وقد ذكره بعض اللغويين في المعربات[٦]. والسميذ ، نوع من أنواع الخبز اليابس كذلك .

وقد يحلى الخبز ، بوضع مادة حلوة فيه ، وقد يعجن بالـدهن أو الزيت ،

---

١ المعرب (ص ٩٥ ، ١١٥) ، تاج العروس (٦/٣٠٥) .
٢ حزقيال ، الاصحاح الرابع ، الاية التاسعة ، Hastings, Dict., Vol., I, p. 315 f.
٣ المعرب (ص ١٩٧) ، فتح الباري (٩/٤٦٤) ، اللسان (١٠/١٢٣) .
٤ Hastings, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 318, Hastings, a dict. of Christ and the Gosple, Vol., I, p. 231.
٥ تاج العروس (٦/٣٥٩) .
٦ تاج العروس (٧/١٧٤) ، المعرب (ص ٢٩٧) .

وقد توضع فيه بعض المواد لاعطائه نكهة خاصة ، أو يوضع عليه السمسم أو غيره ، كما نفعل اليوم .

ويخبز الخبز عند الحضر وأهل الريف في (التنور) . و(التنور) من الألفاظ الواردة في عدد من اللغات السامية ، فهو (تنورو) Tanuru في الآشورية [1] . و (تنور) في العبرانية [2] . والتنور العربي هو نفس البابلي القديم نفسه[3] .

وقد عيّر (حسان بن ثابت) رهط (النجاشي) الشاعر بأنهم لم يكونوا أهل حرب ولا طعان ولا فرسان ، وانما هم قوم لا يعرفون غير الأكل والجلوس حول التنانير ، يأكلون ما يخبز فيها [4] .

وعاش بعض الناس على بيع الحليب واللبن والزبدة والجبن . أما (اللبن) ، فإنه الحليب المثخن ، أي الحليب الغليظ . غلظ بتسخينه وبإضافة خميرة اليه . وأما الزبدة ، فتستخرج من خض الحليب وتحريكه ، فتتجمع مادة دهنه وتكون الزبدة . وأما الجبن ، فإنه من أكل أهل القرى والمدن في الغالب . أما الأعراب ، فلم يستعملوه بكثرة ، ولا زالوا على هذه العادة . وقد يستعمل بعضهم اللبن المجفف ، فبعد تحويلهم الحليب الى لبن ، يجففون اللبن ، ويستعملونه عند الحاجة . وقد ذكر الجبن في التوراة بـ (جبينه) من أصل (جبن) احد الألفاظ السامية القديمة [5] .

ويعيش أناس من الجزارة ، فكانوا يبيعون اللحم ويتكسبون بهذه الحرفة ، كما كانوا يقومون بالجزارة للناس في مقابل أجر يتقاضونه ، قد يكون نصيباً يدفع اليهم من الذبيحة ، وقد يكون شيئاً آخر يحصل التراضي عليه[6] . ولكن العادة أن يقوم الذبّاحون بذبح الذبائح لأهل البيوت مقابل دفع شيء اليهم من الذبيحة أو بعض الأشياء التي يحتاجون اليها ، وقد يقوم بالذبح أصحاب البيوت أو الخدم أو الطبّاخون وذلك في العوائل الكبيرة ، ولهذا فحرفة الجزارة لم تكن من الحرف

---

١ Reallexikon, Bd., I, S. 5 Lieferung, S. 387.

٢ Hastings, A Dictionary of the Bible, p. 315.

٣ Reuther, Innenstadt von Babylon, S. 26, f., 53, 107, 118.

٤ الا طعان ، الا فرسان عادية   الا تجشؤكم حول التنانير
ديوان حسان (ص ٢١٥) « البرقوقي » .

٥ Smith, Vol., I, p. 237.

٦ جامع الاصول (٣٩٦/٤) .

الشائعة ، لا سيما وأن سواد الناس لم يكن في امكانهم تناول اللحوم في كل يوم، لغلائه بالنسبة لهم ، بل كانوا يعيشون على الخبز وبعض الادام الرخيص ، ولهذا صار الخبز المادة الأساسية في معيشة الإنسان ، ومن هنا قيل له (العيش) ، وقيل للطعام : (العيش) . كما كان اللبن أساساً لمعيشتهم ، وقد يتأدمون بالتمر مع الخبز[1] .

وأحسن اللحوم عند العرب لحوم الإبل ، لا يفضلون شيئاً عليها ، ومنهم من كان يستطيب أكل الضب[2] . وهم في أكل لحم الجمل على عكس يهود ، الذين يحرمون أكل لحوم الجمل . أما لحوم الغنم والماعز ، فإنها تكون عند أهل القرى والمدن ، حيث يبيعها الجزارون . وقد يأكلون لحوم الخيل . وفي الأدب العربي قصص عن ذبح فرس لضيف قادم ، حين لا يكون لدى المضيف من حيوان سوى الفرس . وقد يأكلون الحمر الوحشية ، والحيوانات الأخرى حيث يصطادونها. أما الدجاج ، فإنه من مآكل أهل القرى والمدن حيث تربى عندهم ويبيعونها في السوق .

وكان مأكولهم في غالب الأزمان لحوم الصيد والسويق والألبان ، وكان الغالب من أهل باديتهم لا يعاف شيئاً من المأكل لقلتها عندهم . وكان الاصطياد ديدناً لهم ، وسيرة فاشية حتى كان ذلك أحد المكاسب التي عليها معاشهم،لاضطرارهم الى النقلة في الغالب وتشاغلهم بالحروب وغزو بعضهم بعضاً،ولضيق ذات يدهم، فكانوا يتغلبون على كل ذلك بالاصطياد وبمطاردة الحيوانات بكل طريقة ممكنة لأكل لحومها[3] .

والطباخة من الحرف التي كانت معروفة عند الجاهليين . وقد ورد في كتب اللغة والأخبار وكتب الحديث أسماء بعض الأطعمة التي كان يستعملها أهل الجاهلية وبينها أسماء أطعمة معربة ، اقتبسها العرب من الفارسية والارمية واليونانية . ومن هذه الاطعمة المعربة ، (الخرديق) (الخردق) ، وهو طعام شبيه بالحساء أو

---

١ اللسان (٦/٣٢٢) .
٢ بلوغ الارب (١/٣٨٠) ، وكان الرسول ممن لا يستسيغ أكل العنب ، كتاب التاريخ الكبير ، لابي عبد الله ، محمد بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفي البخاري (المتوفى سنة ٢٥٦هـ) ، (١/١٧٠) ، «طبعة حيدر آباد الدكن سنة ١٣٦٣ هـ » .
٣ بلوغ الارب (١/٣٨٠ وما بعدها) .

(الخزيرة)[1] . وقيل المرقة بالشحم . ذكر العلماء أنها من أصل فارسي ، هو (خورديك)[2] . و (الخشنكان)[3] .

وتقوم المرأة صاحبة البيت بالطبخ ، أما اذا كانت الأسرة غنية موسرة ، فتستخدم طبّاخات للطبخ . وقد يقوم (طباخ) بذلك . وفي الولائم الكبيرة حيث يدعى عدد كبير من الناس ، يصعب على الطبّاخات الطبخ بالقدور الكبيرة ، ولهذا يقوم الرجال بذلك .

وقد استخدم أصحاب المال والثراء طبّاخين أعاجم لطبخ الأطعمة لهم ، وذلك لاتقانهم عمل الطبخ ولتفننهم فيه،ولمعرفتهم بأنواع المآكل الأعجمية التي لا يعرفها العرب . وقد ذكر أن (عبدالله بن جدعان) جاء بطبّاخ فارسي من العراق ليطبخ له مأكولات لا يعرفها أهل مكة وقد أعجبته، ومنها الفالوذج ، وهو من مأكولات الفرس .

وتستعمل القدور في طبخ الأكل . والعادة أن تكون هذه القدور من معدن . مثل نحاس أو حديد . ولكنها قد تصنع من الحجارة المنحوتة أو طين مشوي بالنار ، أي قدور من فخار . وتستخدم المقلاة للقلي ، فيقلى فيها أو في القدر ما يراد قليه من لحم أو غير ذلك . وقد يسلق اللحم ، أو الخضر سلقاً، ويعبر عن ذلك في العبرانية بلفظة (سلق) كذلك . أما (المرق) ، فيقال له (مرق) في العبرانية كذلك . وقد يهيأ الطعام بطريقة الشوي على النار ، بأن يشوى اللحم أو السمك على النار ، ويعبر عن ذلك بالشواء . يعلق اللحم أو السمك بعود أو أعواد أو بعمود من حديد ، ثم يقرب من اللهيب أو الجمر حتى ينضج اللحم أو السمك فيرفع للأكل .

وقيل للقدر (البرمة) بلغة أهل مكة والجمع (بِرام) . وقد وردت لفظة (قدور) في القرآن الكريم : « وجفان كالجوابي وقدور راسيات »[4] والمفرد : قدر . و (القدير) ما يطبخ في القدر . وقيل ما طبخ من اللحم بتوابل ، فإن لم يكن ذا توابل فهو طبيخ . والقدّار : الطبّاخ ، وقيل الجزّار ، وقيل الجزّار

---

١ المعرب (ص ١٢٨) .
٢ تاج العروس (٣٢٧/٦) .
٣ المعرب (ص ١٣٤) .
٤ اللسان (٨٠/٥) . البيان (١٩/١) .

هو الذي يلي جزر الجزور وطبخها . قال مُهلهل :

إنّا لنضرب بالصوارم هامها ضرب القدار نقيعة القدّام[1]

وعرفت البرمة بقولهم : البرمة : قدر من حجارة والجمع برم وبرام . وهي في الأصل المتخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن[2] .

ويطلق على الحجارة التي تنصب عليها القدر الأثافي ، واحدتها أثفية ، وعلى المسافة بين أثافي القدر التي يجتمع فيها الجمر (الرّبعة)[3] .

وطعام ابن البادية طعام محدود ، لضيق أرضه وسذاجة حياته . أما الحضر ، ولا سيما أصحاب الحضارة ومن كان منهم على اتصال بالروم والفرس ، فكانت أطعمتهم متعددة متنوعة ، فيها تفنن ومهارة في الطبخ . وقد يبقى الأعرابي مدة لا يذوق فيها طعاماً مطبوخاً باللحم ، لأن اللحم نادر في البادية ، إلا اذا جاء ضيف فنحر له ، أو وقع له صيد. ولهذا أكل بعضهم الضباء والأرانب والحيوانات الأخرى التي تقع أيديهم عليها ، لحاجتهم الى اللحوم ، وأكلوا الجراد . والأغلب شيء لحوم الصيد ، لسهولة ذلك .

أما الحضر وسادات القبائل وذوو اليسار ، فكانوا يطبخون وقد وردت اسماء بعض أطعمتهم في الشعر وفي الحديث النبوي ، ومنها الثريد وهو لحم مقطع يغلى في الماء ، وقد يوضع البصل معه أو مادة أخرى ، وبعد نضجه يثرد خبز ويلقى اللحم والمرق عليه ، فيسمى الأكل ثريداً . وقد كان من الأكل الطيب المحبوب . وقد ذكر في كتب الحديث . ويقدم في الولائم وللضيوف . والخبز ممدوح عند العرب ، والذلك مدح هاشم حين هشم الخبز . والثريد عام في الأشراف ، يقدمونه للناس ، ويرون أكل الخبز ، سبباً في صفاء العقل . ولهذا ذكروا أن كسرى مدحه ، حينما سمع حديث هوذة بن علي الحنفي معه ، فلما رأى رجاحة عقل هوذة وحسن ذكائه ، قال له : « ما غذاؤك ببلدك ؟ قال : الخبز . فقال كسرى : هذا عقل الخبز ، لا عقل اللبن والتمر . ويقال : إن عبدالله بن حبيب العنبري ، كان يعاف التمر ، ولا يرغب في اللبن ، ولا يأكل

---

١ اللسان (٥/ ٨٠) .
٢ اللسان (١٢/ ٤٥) .
٣ المخصص (١١/ ٣٣) .

إلا الخبز ، فقيل في المثل : « أقرى من آكل الخبز » وكان من الأجواد[1] .

وفي كتـاب الأغاني : أن كسرى قال كلامه المذكور المتقدم الى غيلان بن سلمة ، وهو من ثقيف ، وكان قد جاء مع أبي سفيان في تجارة الى العراق . وقد خاف أبو سفيان من الفرس ومن احتمال مصادرتهم أموال تجارتهم ، فتقدم غيلان ، ودخل مع الداخلين الى بلاط كسرى ، وتحدث معه ، فأعجب كسرى به ، وأخذ يسائله ، حتى سرّ منه ، فاشترى منه تجارته ، وقال له ذلك القول المذكور ، وكساه ، وبعث له معه من الفرس من بنى له أطماً بالطائف ، فكان أول أطم بني بها »[2] .

وفي المآدب الكبيرة يكون (الثريد) ، هو الطعـام الرئيسي . ويهيأ بسلق قطع اللحم الملقاة في الماء ، وقد يضاف اليه البصل والحمص ، فإذا سلق اللحم ونضج ، وتولد منه مرق ، ألقي مع مرقه على الخبز المثرود في قصع وصحاف، ليأكله المدعوون . والثريد من الأطعمة المحببة الى نفوس أهل مكة والحجـاز . وقد قـدم (ابرهة) الثريد الى الجنود والفعلة الذين أتموا سدّ مأرب ، وذلك يوم الاحتفال بانتهاء العمل . وقد يقابل ذلك ما يقال له (سلوق) و (سليقوت) عند العبرانيين[3] . وقد أشير الى الثريد في قصة ذهاب (هاشم بن عبد مناف) الى بلاد الشأم ، والتقائه بهرقل ، وتثريده لمن معه ولأهل مكة .

ولازدراء العرب من يزرعون البقول والخضر ، أحجم الناس عن زراعتهـا ، فقلّ وجودها في مطابخ أهل الحضر . أما أهل البادية ، فإن مآ كلهم تكاد تكون خلواً من الخضر المطبوخة ، لندرة الخضر في البادية ، ولأنهـا تحتاج إلى لحم ، وهو نادر في البادية أيضاً . ثم إن الطبخ المعقد ، لا يناسب الحياة في الصحراء ، لهذا كان المطبخ الجاهلي،مطبخاً يكاد يكون مستغنياً عن الخضرة المطبوخة باللحوم. لا يستثنى من ذلك إلا السادة المتصلون بالروم وبالفرس وأهل اليمن ، والأغنياء من أهل المدن والقرى ، فقد كان في امكانهم الحصول عليها،ومن هنا استعملوها في الطبخ ، يطبخونها مع اللحم .

---

١ مجمع الامثال (٢/٧٣) ، بلوغ الارب (١/٨٦ وما بعدها) .

٢ الاغاني (١٠٢/٤٦) .

٣ Ency. Bibl., Vol., I, p. 888.

لذا صار عماد الأكل الجاهلي والتمر واللبن والسمن والدقيق المصنوع من البر أو الشعير والشحوم والعسل ، وذلك عند أهل الحضر في الغالب ، والجراد والأقط. واذا دققنا في قائمة المأكولات الجاهلية ، رأينا موادها لا تتعدى هذه الأشياء ، وهي تختلف باختلاف خلط هذه المواد وباختلاف مزجها وطبخها . ولكنها كلها لا تخرج عن حدود الأشياء المذكورة .

ونجد في قائمة مأكولات أهل الجاهلية أكلات تقوم على استعمال الدقيق في الطبخ . من ذلك الحساء : وهو طبيخ يتخذ من دقيق وماء ودهن . وقد يحلّى ويكون رقيقاً يحسى[1] .

وقد يستعمل الدقيق مع الحليب ، بأن يطبخ ، ومن ذلك الحريرة : الحسا من الدسم والدقيق ، وقيل هو الدقيق الذي يطبخ بلبن ؛ وقيل الحريرة من الدقيق والخزيرة من النخال[2] . وقد عرفت قريش باكثارها من أكل أكلة عرفت بـ (سخينة) ، ولاكثار قريش من أكلها عيّرت بها حتّى قيل لها (سخينة). والسخينة أكلة ارتفعت عن الحساء وثقلت عن أن تُحسى ، وهي طعام يتخذ من الدقيق دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء ، وذكر انها دقيق يُلقى على ماء أو لبن فيطبخ ثم يؤكل بتمر أو يحسى ، وقيل تعمل من دقيق وسمن . وذكر أن الناس يأكلون السخينة في شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المال[3] .

ويذكر أهل الأخبار أن أول من لقب قريشاً بـ (سخينة) (خداش بن زهير)، حيث يقول :

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرمُ

فذهب ذلك على أفواه الناس حتّى كان من التمازح به ما كان بين معاوية بن أبي سفيان وبين الأحنف بن قيس التميمي ، حين قال له : ما الشيء الملفّف في البجاد ؟ فقال له : السخينة يا أمير المؤمنين ، أراد معاوية قول الشاعر :

---

١ اللسان (١٤/١٧٧) .
٢ اللسان (٤/١٨٤) .
٣ اللسان (١٣/٢٠٦) .

إذا ما مــات ميت من تميم فسرّك أن يعيش فجيء بزاد
بخبز ، أو بلحم ، أو بتمر أو الشيء الملفف في البجــاد

يريد وطب اللبن ، وأراد الأحنف قول خداش بن زهير ، يا شدة ما شددنا.. البيت . وحتى قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، لكعب بن مالك الأنصاري: أترى الله نسي قولك ؟ يعني :

زعمت سخينة أن ستَغلب ربها وليغلبنّ مغــالب الغلاب[1] »

وورد في بعض الروايات أن البيت المتقدم هو من شعر حسّان بن ثابت[2] .

ومن المآكل التي يأكلها أصحاب العيال إذا غلب عليهم الدهـر : النفيتة ، وهي الحريقة ، أن يذر الدقيق على ماء أو لبن حليب حــتّى تنفت ، ويتحسى من نفتها ، وهي أغلظ من السخينة . وقد قيل عنها : حساء بين الغليظة والرقيقة[3] . والحريقة اسم مرادف للنفيتة[4] .

ومن المآكل الحدرقة . وهي دقيق يلقى على ماء أو على لبن فيطبخ ثم يؤكل بتمر أو يحسى وهو الحساء ، فهي مثل السخينـة ، والنفيتة والخزيرة والحريرة . وقيل الحريرة أرق منها[5] . و (النجيرة) العصيدة : وهي لبن وطحين يخلطان[6] . ومنها (الصحيرة) ، وهي اللبن يغلى ثم يذر عليه الدقيق . ومنها (العكيسة) ، وهي لبن يصب عليه الإهالة وهي الشحم المذاب . ومنها (الغريقة) ، وهي حلبة تضم الى اللبن والتمر وتقدم إلى المريض والنفساء ، ومنها (الرغيدة) وهي اللبن الحليب يغلى ثم يذر عليه الدقيق حتى يختلط فيلعق[7] .

ومن مآكلهم : (الأصية) ، وهي دقيق يعجن بلبن وتمر ، ومنها (الرهية)، وهي برّ يطحن بين حجرين ويصب عليه لبن . ومنها (الوليقة) وهو طعــام

---

١ العمدة (١/٧٦ وما بعدها) ، « القاهرة ١٩٦٣ م » .
٢ العقد الفريد (٦/٢٩٢) ، كتاب التأريخ الكبير ، للبخاري (١/٧٠) ، بلوغ الارب (١/٣٨١ وما بعدها) .
٣ اللسان (٢/١٠٠) ، بلوغ الارب (١/٣٨٣) .
٤ اللسان (١٠/٤٣) .
٥ اللسان (٢/١٠٠) ، (١٠/٤٠) .
٦ اللسان (٥/١٩٤) .
٧ بلوغ الارب (١/٣٨٣) .

يتخذ من دقيق وسمن ولبن ، ومنهـا (الخزيفة) ، وهي شحمة تذاب ويصب عليها ماء يطرح عليه دقيق فيلبك به ، ومنها (الرغيغة) ، وهي حسو من دقيق وماء وليست في رقة السخينة . و (الربيكة) ، وهي طعام يتخذ من بر وتمر وسمن . ومنها (التلبينة) ، وهي حُثالة تتخذ من دقيق أو نخالة ويجعل فيـــها عسل . ومنها (الوشيقة) ، وهي أن يُغـــلى اللحم ثم يرفع . و (العثيمة) ، طعام يطبخ ويجعل فيه جراد وهو (الغثيمة) أيضاً . و (البغيث) و (الغليـث) الطعام المخلوط بالشعير[1] .

و (العريقة)،وهي شيء يعمل من اللبن . و (البكيلة) السمن يخلط بالأقـط، وقيل الدقيق يخلط بالسويق ثم يبل بماء أو بسمن أو بزيت[2] .

ومن مآكلهم (الخزيرة) ، وهي أن ينصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير ، فإذا نضج ، ذر عليه الدقيق . فإن لم يكن لحم ، فهو عصيدة . وينسب صنعها إلى سويد بن هرمي . ولذلك قال شاعرهم لبني مخزوم :

وعلـمتمُ أكل الخزير وأنتم   على عدواء الدهر صم صلاب[3]

وعرفت الخزيرة : انها اللحم الغابُ يؤخذ فيقطع صغاراً في القدر ثم يطبـخ بالماء الكثير والملح ، فإذا أميت طبخاً ذرّ عليه الدقيق فعصد به ثم أدم بأي ادام شيء ، ولا تكون الخزيرة إلا وفيها لحم ، فإذا لم يكن فيها لحم فهي عصيدة. وقيل الخزيرة مرقة،وهي أن تصفى بلالة النخالة ثم تطبخ ، وقيل الخزيرة والخزير الحسا من الدسم والدقيق . وقيل الحسا من الدسم[4] .

وصنع أهل مكة طعاماً ، عدّ عندهم من رقيق العيش:هو لباب البرّ بصغار المعزى[5] .

وهناك أكلات أخرى بسيطة ، مثل أكل تمر مع لبن ، أو الزبد مع الرطب ،

---

١ بلوغ الارب (١/٣٨٣ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (١/٣٨٤) .
٣ بلوغ الارب (١/٣٨٤ وما بعدها) .
٤ اللسان (٤/٢٣٧) .
٥ البيان (١/١٨) ، الحيوان (٥/٤٨١) .

أو خلط لبن بلبن آخر ذكر أسماءها علماء اللغة[1] ، لا أرى حاجة إلى ذكرها ، لعدم وجود أهمية لها وعلاقة كبيرة بهذا الموضوع .

وقد استورد الحضر بعض مآكلهم من الخارج ، لاستساغتهم واستحسانهم، فقد قيل إن عبدالله بن جدعان سيد قريش كان قد زار العراق، ودخل قصر كسرى وأكل عنده . وكان في جملة ما أكل (الفالوذج) ، فتعجب منه ، وسأل عنه، فوصف له . ويقال انه ابتاع غلاماً يصنعه ، وأخذه معه إلى مكة ، وصار يأكله وأمر بوضع موائده بالأبطح إلى باب البيت ، ليأكله النـــاس ، وكان ممن أكله أمية بن أبي الصلت ، فقال فيه شعراً ومدح صاحبه لجوده وكرمه[2] :

الى ردح من الشيزى عليها لُباب البُرِّ يُلبكُ بالشِهاد

والردح : الجفنة العظيمة ، والشيزى : خشب أسود تتخذ منـــه القصاع ، واللباب : الخالص ، والشهاد : العسل[3] . وقد نسب (البرقوقي) ذلك البيت الى (ابن الزبعرى)، عبدالله وهو من الشعراء الذين عرفوا بهجائهم للرسول وبدفاعهم عن المشركين[4] .

وكان عبدالله بن جُدعان من أغنى أغنياء قريش ، جمع مالاً عظيماً ، ولكنه كان على خلاف عادة التجار الأغنياء كريماً جواداً متأنقاً ينفق على طعامه وشرابه. كسا بيته بأحسن ما كان في ذلك العهد ، كانت أواني شربه من ذهب ، وفيه ورد في المثل : أقرى من حاسي الذهب[5] .

ويقال إن ابن جدعان هذا كان في ابتداء أمره صعلوكاً تَرِبَ اليدين، شريراً فاقطاً ، لا يزال يجني الجنايات ، فيعقل عنه أبوه وقومه ، حتى أبغضته عشيرته، ونفاه أبوه ، وحلف لا يُؤويه أبداً ، فخرج في شعاب مكة تائهاً حائراً ، فرأى شقاً في جبل ، فدخل فيه ليستريح ، وإذا به يعثر على مقبرة فيها جثث عليها

---

١ اللسان (١/٣٨٤) .
٢ مجمع الامثال (٢/٧٣) ، الاغاني (٨/٤) « طبعة ساسي » ، بلوغ الارب (١/٣٨١) .
٣ البيان (١/١٧ وما بعدها) .
٤ البرقوقي (ص ٥٧) .
٥ مجمع الامثال (٢/٧٢) .

ثياب قد بليت ، صارت كالهباء حين لمسها ، ووجد كنزاً حمله معه الى والده ليسترضيه ، فرضي عنه ، ومن هناك جاء غناه [١] . ويقال إنه كان نخاساً [٢] .

وروي انه مذ هذا الحادث صار يطعم الناس ويفعل المعروف، وصنع له جفنة كبيرة جداً يأكل منها القائم والراكب لعظمها ، ووضع له جفاناً في ردحة بيته ليأكل منها من يقصده . وورد ان الرسول ربما كان يحضر طعامه ، وقد رأى جفنته ، واستظل بها لضخامتها [٣] .

ولمكانته هذه ولمنزلته في قومه وبين الناس ، آمنت به العرب ، ووثقت به ، فكانت تدفع أسلحتها اليه ، حتى تفرغ من التسوق من سوق عكاظ ومن الحج ، فإذا أرادت الرجوع ، دفع اليها أسلحتها [٤] .

وقد عرف السكر عند الجاهليين ، ويقال له : المبرت بلغة حمير [٥] . ولا يستبعد صنعه في جزيرة العرب أو استيراده من الهند أو من أماكن أخرى . وقد ذكر (ديوسقوريدس) Dioscurides أن في الهند وفي اليمن مادة تشبه الملح في المنظر، تستخرج من سائل كالعسل [٦] ، وفي هذا الوصف ما ينطبق على السكر .

حرف أخرى :

ومن الحرف الحلاقة والحجامة . ويجمع الحلاق في الغالب بين حلاقة الشعر والحجامة . ويستعمل الحلاق الموسى والمقص في الحلاقة ، ويتخذ المرآة لإراءة المحلوق شعره وكيفية قصه، وكذلك يتخذ أدوات زينة وطيب لتطييب الشخص، إذ الحلاقة نوع من أنواع الزينة كذلك . وكانت حلاقة الرأس مختلفة ، لا تجري على طريقة واحدة . فللقبائل عادات مختلفة في طريقة حلاقة الشعر وقصه ، كما أن الأعراب يختلفون عن أهل المدن في تنظيم شعر رؤوسهم وحلاقته. وهم يدهنون

---

١ بلوغ الارب (١/٨٧ وما بعدها) .
٢ المعارف (ص ٢٥٠) .
٣ بلوغ الارب (١/٨٨ وما بعدها) .
٤ الاغاني (١٩/٧٦) .
٥ شمس العلوم (١/١٤٦) ، (البرت بالضم السكر الطبرزذ ، باعجام الذال ، وهو لغة اليمن) ، تاج العروس (١/٥٢٥) ، (برت) .
٦ Ency. of Islam, Vol., IV, p. 510.

شعورهم ويتركونها تتــدلى في الغالب ، وقد يجعلونها ضفائر وجدائل تتدلى على الاكتاف .

واعتماد الحجام على الموسى يشرط به جروحاً خفيفة يمص منها الدم بكأس من الزجاج توضع فوق الشرط ، ثم يسحب الحجام الهواء من الفتحة الضيقـة المتصلة بقناة داخل الكأس ، فيخرج الدم الى داخل الكأس . وقــد كانت الحجامة من وسائل التداوي في ذلك الزمن . كذلك عدّ (الفصد) ، وهو اخراج الدم من عرق في اليد ، نوعاً من أنواع المداوة . ويقال للقائم به (الفصاد) . وقــد يقوم بذلك الأطباء . واستعمل نوع من الديدان في امتصاص الدمّ كذلك ، وذلك كنوع من أنواع المعالجات الطبية . ولا تزال هذه الطريقة معروفة عنـد الأعراب وأهل القرى والمدن . وقد حجم الرسولَ رجلٌ اسمه (أبو طيبة) ، وأعطاه أجره عليه [1] ويستعمل الفصاد المبضع في الفصد[2] .

وعاش بعض الناس على بيع الحطب ، فكانوا يجمعونه من البادية ومن الجبال ويأتون به إلى المدن والقرى مثل مكة ويثرب فيبيعونه . يقوم بذلك (الحطّابة)[3] . وقد نعتت امرأة أبي لهب في القرآن الكريم بـ (حمّالة الحطب) ، وذلك على سبيل الازدراء والتحقير . ويشد الحطب ويربط بحبل ، ويوضع على ظهر الدابة ، وقد يحمله الأشخاص لبيعه . والأغلب أن تبيع النساء العاقول والحطب .

والرتم من الحطب الذي يعطي ناراً شديدة ذات لهب ، يبيعه الحطابون لأهل المدن ، ويقال له (روتيم) في العبرانية . ويتخذ منه فحم ، وذلك باطفاء ناره قبل احتراقه . فيتولد من ذلك الفحم[4] .

ومن أنواع الحطب الأطد ، وهو : (اطد) في العبرانية أيضاً . والعوسج ، والحدق . ويقال له (حدق) في العبرانية كذلك ، والسمر ، وهو (شمير) عند العبرانيين[5] .

وقد كان أكثر من يتعاطى الطبخ والخبازة والجزارة من العبيد . وقد تخصص

---

١ عمدة القاري (١١/ ٢٢١ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/ ٢٣٧) .
٢ المغرب (ص ٣٩) .
٣ المغرب (ص ١٢٦) .
٤ Hastings, Dict. of the Bible, Vol., I, p. 71.
٥ Smith, Dict., Vol., III, p. 1191.

بعضهم بعمل واحد من الحرفة الواحدة ، مثل بيع نوع واحد من الطبيخ ، فذكر ان رسول الله دعا اليه مرة عبداً ، كان يبيــع الخردبق[1] . و (القدّار) هو (الجزار)[2] .

والموقد ، هو الموضع الــذي توقد فيه النــار ، ويعرف بـ (ميقده) عند العبرانيين[3] . وقد كان عرب بلاد الشأم والعراق يتخذون المواقد للاصطلاء بها في أيام الشتاء ، كما يستعمله الطباخ موضعاً للطبـخ ، يضع القدور عليه ويشعل فيه النار .

وقد عاش أناس على كراء الحمير والإبل للمحتاجين الى ذلك ، ويقال لذلك البرطسة[4] . ولمكتريها للناس المبرطس[5] .

وقد احترف بعض الناس حرفة صنع الحصر والسلال والقلل والسرر . صنعوها من الخوص ومن سعف النخيل . لوجودها بكثرة . وصنعها بعضهم من القصب وذلك في الأماكن التي تكثر فيها المياه والرطوبة . ولا تزال هذه الحرف قائمـــة معروفة.وتصنع بعضها بنسج الخوص أو الألياف كما هو الحال بالنسبة الى (الحصر)، جمع حصير المنسوج الذي يبسط في البيوت . وذكر أن الحصير : سقيفـة تصنع من بردي وأسل ثم تفرش[6] .

ويستخدم (السفط) في حفظ الأوراق والأشياء الثمينة . ويصنع من القصب والخيزران ومن الخوص أيضاً ، حيث يصف صفاً .

و (القفة) ، نوع من السلال أيضاً . وتكون مختلفة الحجوم . وتستخدم في أغراض متعددة ، ومنها نقل الطين ، وتعرف عند أهل العراق بـ (قفة طين)، أو لنقل الأحجار. وتصنع من المعدن أو من الأغصان. وأشير اليها بـ « Kophinoi » و « Kophinos » « Cophinus » في الأناجيل، من اليونانية حيث تسمى بـ« Kophinoi »

---

١ تاج العروس (٦/٣٢٧) .
٢ الفاخر (ص ٩٨) .
٣ Hastings, Dict. of the Bible , Vol., I, p. 72.
٤ شمس العلوم (حـ ١ ق ١ ص ١٥٥) .
٥ شمس العلوم (حـ ١ ق ١ ص ١٥٥) .
٦ اللسان (٤/١٩٥ وما بعدها) .

« Kophinos » واللاتينية ،حيث تسمى بـ « Cophinus »[1] . ولعل بين لفظة (قفة) والتسمية اليونانية اللاتينية صلة.ومن لفظة « Kophinos » ،أخذت لفظة« Coffen » أي تابوت . ويلاحظ أن بين هذه اللفظة ولفظة (كفن) العربية ، صلة كبيرة كذلك[2] .

وذكر علماء اللغة ان القفة : الزّبيل ، ويسمونها القِفعة ويجعلون لهـا معاليق يعلقونها بها من آخرة الرحل ، يلقي الراكب فيها زاده وتمره ، وهي مدورة . وعرفت انها شبه زبيـل صغير من خوص يجتنى فيه الرطب وتضع فيهـا النساء الغزل[3] . وعرف الزبيل والزنبيل : بالجراب ، وقيل الوعاء يحمل فيه ، والقفة[4] .

وأما السلة المصنوعة من الخوص ، فيقال لها (العلاقة) في العراق في الوقت الحاضر . وتكون صغيرة ومتوسطة . أما الكبيرة،فيقال لها (الكوشر) و (الزنبيل) ، ويستعملها الحمالون في حمل الأشياء للناس .

وتستعمل السلال المصنوعة من الأعواد ومن أغصان الشجر الطريـة في حفظ الأطعمة والمطبوخات ، لدخول الهواء اليها ، ولمنع الطيور والكلاب والقطط من الوصول اليها . وتكون مثل هذه السلال مرتفعة ذات قاعدة أصغر من الوجـه العريض الذي يوضع على العرض .

وقد وردت في التوراة والانجيل وفي الكتب اليونانية واللاتينية وفي الآثار المصرية أسماء سلال صنعت في ذلك العهد.تفيدنا في تكوين فكرة عن السلال عند الجاهليين. وقد صنعت بعض تلك السلال من القصب ومن التبن ومن الخوص ومن الأعواد، وهي مختلفة في الأحجام والسعة . ففي التوراة لفظة هي : (س ل) (سل) ، وهي (السلة) عندنا . والجمع (سلال) . وتصنع في بلاد العرب من الخوص أو من الأغصان الطرية.وتستعمل في نقل الخبز واللحوم والخضر والأشياء الأخرى[5].

---

١ Hastings, Dict., vol., I, p. 256, Hastings, Dict. of the Christ, vol., I, p. 174, Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 171.
٢ The Bible dictionary, vol., I, p. 283.
٣ اللسان (٢٨٧/٩) .
٤ اللسان (٣٠٠/١١ وما بعدها) .
٥ Hastings, Dict., vol., I, p. 255, Smith, Dict., vol., I, p. 171, Ency. Bibl., vol., p. 499.

وهي مثل الكيس أحياناً ، يمكن ضمها بعضها الى بعض وتكون لها يد تحمل بها. وهي في مقابل (الطبق) عند العراقيين . غير ان الطبق ثابت يصنع من أغصان بعض الأشجار مثل الرمان،حيث تكون لينة لا تنكسر . ويكون بأحجام متعددة، منه ما هو صغير الحجم ، ومنه ما هو وسط ومنه ما هو كبير ، يستعمل لنقل الخضر والفواكه من البساتين والحقول الى مواضع البيع . ومنه ما يستعمله القصابون المتجولون لبيع اللحم .

والسرير: المضطجع والذي يجلس عليه [1] . وكانت أكثر الأسرة مصنوعة من الجريد ، وذلك لتوفر الجريد في كل أنحاء جزيرة العرب ، وقلة الخشب فيها .

ولبست العباءة كذلك . تلبس فوق الملابس . وقد ذكر أن رسول الله كان يلبس العباء [2] .

والبيطرة من الحرف المعروفة عند الجاهليين . وقد كانوا يستعملون الأدوية والكيّ في مداواة الحيوان كما يستعملون بعض الآلات في معالجتها ، مثل (المبزغ) وهو مثل مشرط الحجام [3] .

حرف الجلد :

والدباغة حرفة مهمة اشتهرت بها أماكن متعددة من جزيرة العرب ، ولا سيما بعض القرى والمدن مثل الطائف وجرش مواضع متعددة في اليمن وفي العربية الجنوبية . وهي صناعة تقوم على أساس اصلاح الجلد وإبعاد الصوف والشعر عنه، للاستفادة منه في أغراض نافعة . وقد استخدم الدباغون موادّ مساعدة تعين على نتف الصوف والشعر من الجلد بسهولة ، وبدون أذى له أو للجلد ، مثل مادة الجير أو مواد أخرى ، كما استخدموا مواد تساعد على حفظ الجلد ومنعه من التلف لدبغه ، مثل العفص وغيره من مواد نباتية دابغة . وقد أنف كثير من الناس من هذه الصناعة وتجنبوها ، لما ينشأ عنها من روائح كريهة ولاستعمال

---

١ اللسان (٤/٣٦١) .

٢ البيان (١/٢٣٦) ، (٢/٣٠) .

٣ المغرب في ترتيب المعرب : تأليف أبي الفتح ناصر بن عبد السيد بن علي المطرزي الخوارزمي المتوفى سنة ٦١٦ ، (ص ٣٧) طبعة حيدر آباد ، تاج العروس (٣/٥١)

الدباغين بها مواد تعدّ نجسة في نظر بعض الأديان . كما منعوا إقامة المدابغ في الأماكن المأهولة المعمورة ، وحرصوا على عزلها وحصرها في الأماكن البعيدة عن أحياء السكنى ولا سيما سكنى الطبقات المتنفذة الغنية .

ويقوم الدباغون ببيع ما يدبغونه من التجار . وقد يحمل إلى أسواق بعيدة لاستخدامه في أغراض عديدة ، كتحويله إلى قرب يخزن فيها الماء أو يحمل أو أوعية تحفظ فيها الخمور والسمن والسويق والطيب ، أو أحذية وسيور وغير ذلك من الحاجات . وقد يحوّله الدباغون أنفسهم إلى هذه الأشياء المذكورة. كما تخصص أناس بحرف تحويل الجلود إلى مواد نافعة يستعملها الانسان في حياته اليومية، كالمواد المتقدمة والدلاء وأمثال ذلك من أدوات .

والقرب في ذلك الوقت مهمة جداً في حياة الانسان. فقد كانت مخازن متحركة يخزن فيها أشياء كثيرة ضرورية . فكانت أوعية لحمل الماء في الحضر وفي السفر، كما كانت الأوعية الرئيسة لحفظ الخمور والأنبذة والزيوت والدهون والشحوم والدبس والمواد الغذائية الأخرى.يحتاج اليها الأعرابي في حله وفي ترحاله والحضري في مستقره وفي سفره.كان المصريون واليونان والرومان والعبرانيون يحفظون الخمور والأنبذة في أوعية القرب. وقد أشار الى ذلك بعض الكتبة القدماء . ويعالج اهاب القرب معالجة خاصة ليعطي الشراب نكهة طيبة ، ولئلا يتأثر الشراب من رائحة الجلد[1] .

وذكر علماء اللغة أن (القربة) الوطب من اللبن ، وقد تكون للماء ، وقيل هي المخروزة من جانب واحد[2] .

وأما (الجراب) فوعاء من اهاب الشاء لا يُوعى فيها إلا يابس[3] . فهو وعاء من الجلد إذن خصص لحفظ الأشياء الجافة كالدقيق وما أشبه لحفظه . كما يقال لوعاء الزاد ، المزود[4] .

وتدخل المصارين ، وهي أمعاء الحيوانات المذبوحة ، في جملة الأعمال التي

---

١ Smith, Dict. of the Bible, vol., I, p. 223.

٢ اللسان (٦/٦٦٨) .

٣ اللسان (١/٢٦١) ، تاج العروس (١/١١٩) ، (جرب) .

٤ تاج العروس (٢/٣٦٦) .

يقوم بها الدباغون ، إذ يتعهدونها بالرعاية والعناية والاصلاح ، فينظفونها مما بها من أوساخ ويصلحونها ويعالجونها ، ثم يبيعونها من التجار أو يحوّلونها إلى مواد نافعة مفيدة ، مثل اتخاذها أوتاراً لآلات موسيقية أو للأقواس لرمي السهام ، أي لأغراض حربية . وكلما كانت العناية شديدة بمعالجة هذه الأمعاء ، كانت الأوتار ذات قابلية كبيرة على الشد والتوتر ، وبذلك يكون مجـال رمي السهام بالأقواس كبيراً ، وفائدة القوس في القتـال عظيمة . وقـد كان القوّاسون : أي الرماة بالقوس ، قوة ذات أهمية في مصير حرب ما في ذلك العهد .

وتدخل الجلود في أغراض حربية كذلك . فقـد استخدمت لحماية الجسم من ضربات السيوف ومن تساقط السهام عليه ، كما استخدمت في صنع الدروع والخوذ الواقية للرأس ، وفي حماية الدبابات والمنجنيقات بتغليفها بجلود ثخينة مقاومة. وتعالج بمواد خاصة تكسبها مقاومة خاصة أمـام تساقط النار أو المـاء الحار أو الزيوت الساخنة عليها ، وقد تعمل ستائر منها يحتمي الجنود المشغلون لها تحتها من المواد المقذوفة عليهم . وهناك استعمالات أخرى للجلود أدت للجيوش خدمات كبرى في الحروب . فالقرب ، مادة ضرورية في الحرب ، لأنها أوعية ومخازن للماء ، والماء مادة ضرورية للانتصار في الحروب . والراوية وهي المزادة من ثلاثة جلود ، هي مادة ضرورية في الحرب وفي غير الحرب لما تحمله من ماء[1] . وصنعت الدرق من الجلود ، وهي الحجفة تتخذ من جلود ليس فيها خشب ولها عقب[2]. ويراد بالحجفة الترس من جلود خاصة ، وقيل من جلود الإبل مقورة بلا خشب ولا عقب . وقد كانت معروفة عند الأحباش خاصة[3] . ويراد بالترس كـل الأسلحة التي يتوقى المحارب بها . والتراسة صنعة الترس ، وأما الصانع ، فهو التّرّاس[4] .

وتفرغ أناس لاحتراف أنواع خاصة من أعمال الجلود ، فصرف بعضهم نفسه الى صناعة القرب والدلاء وأدوات السقي ، وتخصص قوم بعمل السروج ونحوهـا من الأدوات التي تستعمل في الحيوان مثل اللجام و (الرسن)،كما تخصص آخرون

---

١ المغرب (ص ٢٢٥) .

٢ تاج العروس (٣٤٢/٦) .

٣ المصدر المذكور (٦٥/٦) .

٤ تاج العروس (١١٤/٤) .

بصنع الأحذية . وذكر بعض العلماء أن بعض هذه الأدوات المصنوعة مثل (الرسن)[1] هي من الألفاظ المعربة ، وان (الرسن) لفظة فارسية الأصل ، وقد عربت في الجاهلية . وتصنع (القباب) ، من الأدم خاصة[2] . وقد تكون كبيرة ، ولكنها ذات أحجام مختلفة .

ومن الأدوات المصنوعة من الجلد (الجلبان) ، وهي شبه جراب من الأدم، يوضع فيه السيف مغموداً ، ويطرح فيه الراكب سوطه وأداته ، ويعلقه بآخر الرحل وواسطته[3] . والغرز وهو ركاب الرحل الذي تركب به الابل ، ويصنع من الجلد . فإذا كان من خشب أو حديد فهو ركاب[4] . والسقاء وهو ظرف الماء اذا كان من جلد[5]،ويكون في الغالب من جلد رقيق[6] . والركوة دلو صغير يشرب فيه ، ويصطحب في الأسفار[7] . والكنانة وهي الجعبة التي يكون فيها النشاب[8] ، والقفّاز ويعمل لليدين وقد يحشى بالقطن وتكون له أزرار يزرّ بها على الساعدين من البرد.وقد كان يستعمله النساء[9] . وأما (الأرندج) و (اليرندج) فذكر الجواليقي أنها لفظة معربة ، وأن أصلها (رندة) ، وهي كلمة فارسية ، ويراد بها الجلد الأسود المدبوغ بالعفص حتى يسود . وقد وردت لفظة (أرندج) في شعر منسوب الى الأعشى[10] .

وتصنع الهماين من الجلود أيضاً . وقد اشتهرت همايين عجر . واللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية[11] . ويراد بالهميان الكيس تُجعل فيه النفقة ويشد على الوسط .

---

١ المعرب (ص ١٦٤) .
٢ تاج العروس (٤١٩/١) .
٣ جامع الاصول (٣٩٧/٤ ، تاج العروس (١٨٧/١) .
٤ جامع الاصول (٣٧١/٤ ، ٥٠٤) ، تاج العروس (٦٣/٤) .
٥ جامع الاصول (١١٩/٦) .
٦ جامع الاصول (١٢٥/٦) .
٧ جامع الاصول (١١٩/٦) .
٨ جامع الاصول (٣٢٧/٩) .
٩ جامع الاصول (٣٦٥/٤) .
١٠ عليه ديابوذ تسربل تحته أرندج اسكافه يخالط عظلما
المعرب للجواليقي (ص ١٦) ، تحقيق أحمد شاكر ، (القاهرة ١٩٤٢) ، تاج العروس (٥٠/٢) .
١١ تاج العروس (٣٦٨/١) .

وتحلى الجاهليون بحلي مصنوعة من الجلد أيضاً . ومن هذه الحلي الجمانة : وهي سفينة من أدم ينسج ، وفيها خرز من كل لون ، تتوشحه المرأة [1] .

ويصنع الخوان من الجلد في بعض الأحيان ، ويراد به ما يؤكل عليه الطعام، وهو من الألفاظ المعربة [2] . وأما الصُفن ، فخريطة الراعي ، يكون فيها طعامه وزاده وما يحتاج اليه . وقيل : هو مثل الركوة [3] .

و (العياب) ، هي أوعية من الأدم ، ويقال للواحد منها (عيبة) ، يوضع فيها المتاع والثياب ، وتطلق أيضاً على الزبيل ، الذي ينقل فيه الزرع المحصود إلى الجرين [4] . و (الشن) الوعاء المعمول من أدم ، فإذا يبس فهو شن . وفي المثل : « وافق شن طبقه » . يضرب لكل اثنين أو أمرين جمعتهما حالة واحدة اتصف بها كل منهما ، وهناك قصص عن أصل هذا المثل [5] .

واستعمل النصارى واليهود (الزنار) ، يشدونه في وسطهم على القميص أو الثوب أو المسوح الذي يلبسونه ، ويتدلى أحد طرفيه الى قريب من القدمين . ويصنع من الجلد أو الحرير أو القطن أو الوبر أو شعر الماعز . وقد يشد على الوسط عدة مرات . وقد يوضع فيه محل لحفظ منديل فيه ، أو محبرة وحبر اذا كان صاحبه من الرهبان أو الكتاب ، وقد يوضع خنجر أو سلاح حاد فيه . وهو يشبه في فائدته الحزام في الوقت الحاضر . واذا اشتغل الفلاح أو الأعرابي أو غيرهما بعمل ما رفع الطرف الأسفل من قيصه الى الزنار أو الحزام ، ليسهل عليه العمل ، وقد يضع في عُبّه أي القسم الواقع فوق الزناد من جهة الصدر أشياء عديدة يحملها معه مثل خبزه وطعامه أو نقوده أو أشياء أخرى يحتاج اليها في ترحاله [6] .

وقد كان الجاهليون يستفيدون من جلود السمك أيضاً ، يصنعون منها أشياء متعددة . فالسفن مثلاً وهو جلد الأطوم ، وهي سمكة في البحر ذات جلد خشن

---

١ تاج العروس (٩/١٦٣) .
٢ تاج العروس (٩/١٩٤) .
٣ المغرب (ص ٣٠٤) .
٤ البرقوقي (ص ٥٨) .
٥ اللسان (١٠/٢١٤) .
٦ Hastings, Dict., of the christ, vol., I, p. 498.

يستخرج منه السياط والسهام ، ويكون على قوائم السيوف[1] .

واستخدم الجاهليون كذلك فراء مختلف الحيوانات في الأيام الباردة، ومن أنواع الفراء نوع يدعى (سبنجونة) ، وهي من جلود الثعالب ، وهي من الألفاظ المعربة [2] ، ونوع آخر يدعى (الفنك) ، وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الفنك دابة يفترى جلدها ، وذكر أيضاً ان الفنك جلد يلبس[3] .

ومن أنواع الفراء (المساتق) وواحدتها (المُستُقة) . وقد ورد ذكرها في كتب الحديث ، حيث قيل إن الرسول كان يلبس (مستقة) ، كما ذكر أن عمر كان يصلي وعليه (مستقة) . وذكر الجواليقي انها لفظة معربة عن الفارسية ، وانها (مشته) بالفارسية . وقيل : انها فراء طوال الأكمام[4] ، وذكر انها جبة واسعة [5] .

ويقوم صانع الأحذية بصنع الأحذية ، مثل النعال والخف (والقفش) أو (الكفش) ويراد به الخف أو الخف القصير ، واللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية [6] . ومن أنواع النعال ، النعالُ السبتية التي لا شعر لها ، وتصنع من جلود البقر المدبوغة بالقرظ[7] . و (السبت) كل جلد مدبوغ أو المدبوغ بالقرظ، ومنه تصنع النعال السبتية [8] .

ويقال للخف (الموزج) أيضاً ، وقد ذكر الاسم في كتب الحديث وكذلك (الموق) . وذكر أن (الموق الخف الغليظ يلبس فوق الخف) . وقد ذكر الجواليقي أن أصل الموزج فارسي هو (موزه) (موزجان) وأدخل الموق أيضاً في باب المعربات[9] . والجمع (أمواق) ، ويظهر من بيت شعر لـ (النمر بن

---

١ المغرب (ص ٢٥٥) ، تاج العروس (١٨٧/٨) .
٢ المعرب (ص ١٨٨) .
٣ المعرب (ص ٢٤٨) ، تاج العروس (١٧٠/٧) .
٤ المعرب (ص ٣٠٨) .
٥ تاج العروس (٧٠/٩) .
٦ المعرب (ص ٢٦٨) .
٧ جامع الاصول (٣٩٨/٤) .
٨ قال عنترة :
بطل كأن ثيابه في سرحة ... يحذى نعال السبت ليس بتوأم
تاج العروس (٥٤٨/١) .
٩ المعرب (ص ٣١١) .

ثولب) ، أن العباديين ، وهم نصارى الحيرة كانوا يمشون بالأسواق[1] . وهناك نوع آخر من أنواع الخفاف ، يقال لها (القسوبية) و (القساب)[2] ، و (النعل) هو لباس الرجل المستعمل عند الجاهليين وعند الساميين . وهو (نعليم) أي (نعل) في العبرانية . ولا يزال النعل مستعملاً حتى اليوم . يستعمل في البيت وفي خارجه ، وهو يحمي باطن القدمين من حر الأرض في الصيف ومن الحجارة والمواد المؤذية التي تكون على وجه الأرض . وقد يستعمل نعلاً من خشب، يستعمله أهل القرى وأهل المدن في البيوت . والعرب تمدح برقة النعال وتجعلها من لباس الملوك ، وتقدم النعال على سائر أنواع الأحذية[3] .

ومن أنواع النعال : (النعال السبتية) . وهي المصنوعة من الجلد المدبوغ بالقرظ . وخص بعضهم جلود البقر ، مدبوغة كانت أم غير مدبوغة . وقيل نعال سبتية : لا شعر عليها . وذكر انها نعال أهل النعمة والسعة[4] .

وعرفت (حضرموت) بنعالها ، فقيل (نعل حضرمي) و (الحضرمي) . وعرفت بأنها النعال المخصرة التي تضيق من جانبيها ، كأنها ناقصة الخصرين[5] .

وقد تفنن في تزيين وزخرفة الجلود . فذهّبوها ورسموا عليها صوراً، وضغطوا عليها بآلات لابراز بعض الصور عليها . ومن الجلود المذهبة : (المذاهب)، وهي جلود كانت تذهب ، تجعل فيها خطوط مذهبة ، فيرى بعضها في أثر بعض ، فكأنها متتابعة . وقيل سيور تموّه بالذهب[6] .

والجلود التي يستعملها الاسكافي هي: جلود البقر والجمال والغنم والماعز وقد تستعمل جلود الثعابين والسمك إذا كانت كبيرة سميكة ، وذلك بعد إصلاحها ودبغها .

ويستعمل الإسكافي والنحّات الإزميل . وقد ذكر علماء اللغة ان الازميل حديدة تجعل في طرف رمح الصيد لصيد البقر : بقر الوحش . والمطرقة[7] . وهي من الألفاظ المعربة وأصلها (زميلي) « Zmili » في اليونانية[8] .

---

١ فترى النعاج به تمشي خلفة مشى العباديين في الاسواق
المعرب ، للجواليقي (ص ٣١١) .
٢ البرقوقي (ص ١٤٦) .
٣ اللسان (٦٦٧/١١) .
٤ اللسان (٣٦/٢ وما بعدها) ، الروض الانف (٧١/١) .
٥ اللسان (٢٠٢/٤) ، الروض الانف (٧١/١) .
٦ اللسان (٣٩٥/١) .
٧ تاج العروس (٣٦٠/٧) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢٥٢) .

الحياكة والنسيج والثياب :

والحياكة والنسيج ، من الحرف التي لا ينظر الى صاحبها نظرة احترام وتقدير في المجتمع العربي القديم ، ويقوم بالغزل النساء في الغالب . والحياكة والنسج في الحضر في الغالب . وقد ذكر أهل اللغة أسماء بعض آلات الحياكة والنسج ، مثل (الحف) وهي الآلة التي تلمظ بها اللحمة أي تلقم وتصفق ليلتقمها السدى . وقيل : الحفة المنوال ، وهو الخشبة التي يلف عليها الحائك الثوب ، وقيل : الحف المنسج[1] . و (الوشيعة) وهي المنسج ، وهي قصبة في طرفها قرن يدخل الغزل في جوفها ، وتسمى السهم . وقيل لفيقة من غزل ، وتسمى القصبة التي يجعل النساج فيها لحمة الثوب للنسج[2] . و (المشيعة) ما يلف عليه الغزل[3] . و (الثناية) التي يثنى عليها الثوب . و (العدل) خشبة لها أسنان ، مثل أسنان المنشار ، يقسم بها السدى ليعتدل . و (الصيصية) عود من طرفاء ، كلما رمي بالسهم فألحمه ، أقبل بالصيصة فأدبر بها ، وقيل : إنها شوكة الحائك التي يسوّي بها السداة واللحمة[4] . و (النير) لحمة الثوب ، وقيل : الخشبة المعترضة التي فيها الغزل . وقد تنسج الثياب على نيرين ، ويكون بذلك أصفق وأبقى[5] . و (الصنار) رأس المغزل[6] . وأما (المداد) فالعصا في طرفها صنارتان يمدد

---

١ تاج العروس (٦/٧٢) ، المعاني الكبير (١/٥٠) .

٢ تاج العروس (٥/٥٤٣) .

٣ بلوغ الارب (٣/٤٠٤) .

٤ « والصيصة كذا في سائر النسخ ، وهو خطأ ، أو هو على التخفيف . وفي الصحاح والعباب : والصيصية ـ شوكة الحائك التي يسوى بها السدى واللحمة ، وأنشد لدريد بن الصمة :

فجئت اليه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في النسيج الممد

قال ابن بري : حق صيصية الحائك أن تذكر في المعتل ، لان لامها ياء ، وليس لامها صادا » تاج العروس (٤/٤٠٥) .

٥ تاج العروس (٣/٥٩٣) .

٦ « قال أبو حنيفة : وهي فارسية معرب جنار ، وقد جرت في كلام العرب . وقال الليث : هو فارسي دخيل . والصنار : رأس المغزل ، ويقال : هي الحديدة الدقيقة المعقفة التي في رأس المغزل ، ولا تقل صنارة . وقال الليث : الصنارة مغزل المرأة ، وهو دخيل » تاج العروس (٣/٣٤١) .

بهما الثوب[1] . و (الكُفة) الخشبة المعترضة في أسفل السدي[2] . و (الحماران) يوضعان تحتها ليرفع السدي من الأرض . و (المثلث) قصبات ثلاث . و(المبرم) و (البريم) ، الحبل الذي جمع بين مفتولين ففتلا حبلاً واحداً . و (المبرم) من الثياب المفتول الغزل طاقين ، ولذلك اطلقت اللفظة على نوع خاص من الثياب. و (الدعائم) خشبات تنصب ويمدّ عليها السدي . و (الشفشقة) قصبة تشق وتوضع في السدي عرضاً ، ليتمكن به من السقي . و (الكحتّمة) ما يلحم به، وأداة الحائك المنصوبة تسمى (المنوال) ، وهو (النول) أيضاً [3] .

وأما المادة التي يغزل منها ويحاك وينسج ، فهي الصوف بأنواعه ، وشعر الماعز والوبر والقطن والشاش والبز والكتان والحرير . وأما التي يغزل بها ، فهي (المغزل)[4] ومنه نوع بسيط يحمل باليد . وهو قديم جداً معروف في العصور المتقدمة قبل الاسلام ، ولا يزال معروفاً ومستعملاً في الزمن الحاضر ، ومنه ما هو سريع بعض السرعة . وهو على هيأة دولاب يدار بالأرض ، فيكون سريعاً بالغزل بعض السرعة بالنسبة الى اليد ، ويكون مجال الغزل فيه أوسع من مجال الغزل بالمغزل اليدوي البسيط .

ويلف الغزل على آلة تسمى (الهراوة) ، وذلك تمهيداً لتقديمها الى (النساج) لنسجها[5] .

ويقال للمغزل : « المُردن) أيضاً . وقيل : (المردن) المغزل الذي يغزل به الردن . والردن الغزل . وقيل : الغزل يفتل الى قدّام ، وقيل هو الغزل المنكوس ، وثوب مردون : منسوج بالغزل المردون[6] .

والغزل هو من أعمال النساء في الغالب ، فهي تمسك المغزل وتغزل به . وقد يقوم الرجال بالغزل أيضاً . وهناك أنواع من المغازل وهي متشابهة من حيث

---

١ « والامدة كالاسنة جمع مداد كسنان ، وضبطه الصاغاني بكسر الصخرة ٠٠ سدى الغزل ٠ وهي أيضاً المساك في جانبي الثوب اذا ابتدىء بعمله » تاج العروس (٤٩٨/٢) ٠

٢ بلوغ الارب (٤٠٤/٣ وما بعدها) ٠

٣ بلوغ الارب (٤٠٤/٣ وما بعدها) ٠

٤ تاج العروس (٤٢/٨) ٠

٥ المعاني الكبير (٥٠/١) ٠

٦ اللسان (١٧٨/١٣) ٠

الأساس والتصميم . وقد عثر على أنواع منها في مواضع من جزيرة العرب .

وفي التوراة وصف لكيفية إعداد الصوف وشعر الماعز للغزل . فقد كان على الغزّال تنظيف الصوف والمادة المراد غزلها قبل غزلها ، وذلك بنثر المادة وتنظيفها من المواد الغريبة المختلطة بها . وقد تضرب بعصا أو بآلة خاصة ، على نحو ما يفعله (الندّاف) في الوقت الحاضر ،لتلطيف المادة المراد غزلها وجعلها سهلة للنزل. وقد تغسل بالماء ثم تنشف ثم تنظف . فإذا وجد ان المادة المراد غزلها صارت نقية صالحة للغزل ، غزلت . وقد عثر على صور لعمال كانوا يقومون بغسل المواد قبل غزلها على نهر النيل ، وقد صورت على جدران مقابر قدماء المصريين[1] .

وأهل الجاهلية مثل من تقدم أيضاً في تنظيف الصوف وشعر الماعز والوبر والكتان وسائر المواد الأخرى المراد غزلها ، كانوا ينظفونها ويمشطونها بأمشاط خاصة ، لاخراج ما قد يعلق بها فيها من مواد غريبة ، ويعالجونها معالجة خاصة . فإذا نظفت وخلصت من الشوائب ، غزلت . وقد كانوا يدقون الكتّان لتهترىء أليافه وتتشقق فتنفصل ، ثم تمشط بالممشقة ، حتى تخلص وتبقى فتاته وقشوره، ويؤخذ الكتان لغزله ونسجه . أما الفتات والقشور ، فهي المشاقة ، وتستعمل في حشو الخفتان وللقبس[2] .

ويقال لمشاقة الكتان وللخشن من ليف الكتان والقنب (أسطبة)[3] . ويظهر أنها من أصل يوناني هو « Stippi »[4] .

ويهيأ الفتال (السلك) ، وهو الخيط . وقد يكون من حرير أو قطن أو كتّان . وإذا وضع في الخيط الخرز واللؤلؤ ، فيقال لذلك عندئذ (السمط)[5] .

ومن اللوازم المستعملة في البيوت وفي الحياة اليومية والتجارية،الحبال؛يستعملونها من لحاء الشجر في بعض الأحيان ، يؤخذ فيدق ويفتل منه حبل ، ويقال لذلك

---

١ Hastings, p. 873.

٢ المغرب (١٨٦/٢) ، « والمشاقة (كثمامة) : ما سقط من الشعر أو الابريسم والكتان والقطن عند المشط ، أي تخليصه وتسريحه ، وهي المشاطة أيضا » . تاج العروس (٧٠/٧) .

٣ تاج العروس (٢٩٨/١) .

٤ غرائب اللغة (ص ٢٥٢) .

٥ المغرب (ص ٢٦٤) ، « والسلكة (بالكسر) : الخيط الذي يخاط به الثوب ، ج سلك بحذف الهاء ، جمع الجمع : أسلاك وسلوك . » تاج العروس (١٤٤/٧) .

(القَرَن)[1] ، أو من شعر الماعــز أو من الأصواف ، أو من مختلف الألياف المستخرجة من النبات ، أو من الخوص .

أما الخيوط ، فإنها أدق من الحبل ، وتصنع من الكتان أو القطن أو الصوف أو الحرير ، ويخيط بها . وأما (الاطنب) و (الطنب) ، فإنها حبال الخيمة، تستخدم لربط الخيمة . وأما (الوتر) ، فيصنع من أمعاء الحيوانات ، وتوضع في الأقواس ، لرمي السهم ، وتستخدم في الآلات الموسيقية كذلك . وتستخــدم الحبال رُبُطاً ، يربط بها . يربط بها الأسرى والمساجين والحيوانات[2] .

والصوف مادة مهمة في صنع البسط والسجاجيد . وأكثر صوف جزيرة العرب من النوع الخشن ، الذي يصلح لصنع السجاد . وتصنع منه الخيام كذلك . والمستعمل في صنع الخيام هو من شعر الماعز في الغالب . أما أصواف الأغنام ، فتستعمل في الغزول والأنسجة اللطيفة التي تحتاج إلى صوف ناعم ودقيق . ولا يزال أهل البادية يصنعون خيامهم الشهيرة ذات اللون الأسود من شعر الماعز[3] . وقد كان عمــاد العبرانيين في نسجهم على الصوف وشعر الماعز والكتان[4] . وقد عرف البساط الضخم المنسوج من الوبر أو الصوف بـ (الاراخ)[5] ، ويقال للفسطاط (البلق)[6] .

وقد اشتهرت اليمن بالغزل والنسيج ، وعرفت بإنتاج بعض البرد التي اختصت بها حتى عرفت بـ (البرد اليمانية) . وهي من الأنواع الغالية الثمينة التي لا يشتريها في العادة إلا المترفون والمرفهون . وقد جعل النبي في جملة ما يدفعه أهل الجزية الثياب عوضاً عن النقد إن لم يكن في قدرة من فرضت عليه الجزية دفعها نقداً[7]، كما عرفت بصنع (الحلل) الغالية ، اشتهرت بجميــع أنواع الغزل والنسيج ، غزل القطن والصوف والحرير ، وبأنسجة الصوف والقطن والحرير . وقــد كان من عادة رؤساء اليمن لبس الملابس الثمينة والحلل الغالية المصنوعة في بلادهم ،

---

١ المخصص (١١/١٥) ، تاج العروس (٩/٣٠٥) .

٢ Hastings, Dicti. of the Bible, I, p. 479, Smith, Vol., I, p. 352.

٣ تويتشل (ص ٣٣) .

٤ Hastings, p. 873.

٥ شمس العلوم (١/٧١) .

٦ شمس العلوم (١/١٨٥) .

٧ « وعلى كل حالم : ذكر أو أنثى ، حر أو عبد ، دينار واف أو عوضه ثيابا » ، « اسلام بني الحارث بن كعب على يدي خالد بن الوليد » ، ابن هشام (٤/٢٤٢) « القاهــرة ١٩٢٦ » ، الطبري (٣/١٥٨) .

كما كانوا يصدرونها الى الخارج لبيعها في مختلف أسواق بلاد العرب وفي العراق وبلاد الشأم .

وعرفت دور النسيج في اللهجات العربية الجنوبية بـ (تعمت) . وقد ورد في كتب اللغة: « عمت الصوف والوبر ... لف بعضه على بعض مستطيلاً ومستديراً حلقة فغزله » . وورد : « يعمت الغزل »[1] .

وقد ازدهرت صناعة غزل القطن ونسجه في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية في القرن السادس للميلاد[2] ، فصارت صناعة الغزل والنسيج من أهم الموارد التي يتعيش عليها عدد كبير من الشعب والتي تكون مورداً كبيراً من موارد الدولة . وقد كان للملوك مغازل ودور نسيج تعمل لحسابهم ولهم . وقد عرفت دور النسيج الملكية بـ (تعمت ملكن)[3] ، أي (المنسج الملكي) و (دار النسيج الملكية).

وهناك لفظة أخرى في المسند للموضع الذي ينسج فيه وتغزل فيه الغزول ، هي لفظة : (ح ل ل ت) (حللت) . ويرى (رودوكناكس) انها (حلالة) . وأما النساج ، فيقال له (انم) في المسند[4] ، وهو للمفرد والجمع[5] . وعندي ان المراد بـ (ح ل ل ت) (حللت) ، الحلة . والحلة عند علماء اللغة إزار ورداء ، بُرد أو غيره . وقيل : الحلل الوشي والحبر والخز ، وقيل : كل ثوب جيد جديد تلبسه غليظ أو رقيق ، وقيل : كل ثوب له بطانة ، وعند الأعراب من ثلاثة أثواب القميص والإزار والرداء[6] . فيراد بها الموضع الذي تعمل فيه الحلل .

---

١ « عمت يعمت عمتا من حد ضرب كما هو مقتضى قاعدته • لف الصوف بعضه على بعض مستطيلا ومستديرا حلقة ، ليجعل في اليد فيغزل بالمدرة •• والعميتة من الوبر كالغليلة من الشعر • ويقال عميتة من وبر أو صوف كما يقال سبيخة من قطن وسليلة من شعر •• عمت الوبر والصوف لفه حلقة فغزله كما يفعله الغزال الذي يغزل الصوف ، فيلقيه في يده •• والاسم العميت ••• يعمت يغزل من العميتة ، وهي القطعة من الصوف ••• عمت فلان الصوف يعمته عمتا اذا جمعه بعدما يطرقه ، وينفشه ، ثم يعمته ليلويه على يده ويغزله بالمدرة ••• » تاج العروس (١/٥٦٤ وما بعدها) •

٢ Von Kremer, Kulturgeschichte, II, S. 326.

٣ الفقرة الرابعة من النص الموسوم بـ : Glaser 1150, Halevy 192, 199.

٤ Rhodokanakis, Altsab. Texte, I, S. 74.

٥ Rhodokanakis, Altsab. Texte, I, S. 27.

٦ تاج العروس (٧/٢٨٣ وما بعدها) ، شمس العلوم (١/٧٦) •

وقد كانت بعض الحكومات تحتكر صناعة بعض أنواع النسيج ، وذلك بصنع أنواع فاخرة منه لاستعمال الملوك ، أو للانعام بـه على الأمراء والكبراء ورجال الدين كالذي كان في مصر . ويوسم بسمة المعمل وبشعار الحكومة أو الحاكم ، ليكون في علم الناس انه من صنع الحكومة . وقـد تبيعه الحكومة للناس . وتعد هذه الأنواع من النسيج من أفخر ما تنتجه المناسج ، ويعرض في السوق .

وقد كان الملوك والكهنة والأغنياء المتأنقون بملابسهم ، يرتدون أنسجة دقيقـة مصنوعة صنعاً خاصاً بأيد ماهرة متقنة لعملها،لا تصنع الا الأنسجة الثمينة الغالية . ومن هذه الأقمشة ما كان يصنع من الكتان الخالص أو الصوف النـاعم الرقيق ، ومنه ما كان يصنع من الحرير الخالص أو المخلوط بمـادة أخرى . وقد يقصب القماش بالذهب ، يوشى بـه ، كألبسة الملوك ورجال الدين الكبار الذين كانوا يرتدون ملابس موشاة ومطرقة في أثناء أدائهم الصلوات واقامة الشعائر الدينيـة . وقد كان الملوك والكهـان يستوردون الأقمشة الجيدة من أماكن أخرى اشتهرت باتقانها واجادتها صنع الأقمشة الجيدة ، مثل بابل وبلاد الشأم والهند ومصر وفارس وغيرها لمثل هذه الأغراض[1] .

وقد اشتهرت منسوجات اليمـن في كـل مكان من جزيرة العرب ، بجودتها وأناقتها ، وظلت محافظة على سمعتها هذه الى الاسلام، فكان أغنياء الحجاز وغيرها من جزيرة العرب يفتخرون بحصولهم عليها ويلبسونها خاصة في أعيادهم ومواسمهم. وكانت البرد المعروفة بـ (الحبر) ، وهـي برد موشاة مخططة ، تعد من أثمن البرد اليمانية في القرن السادس والسابع الميلاديين ، ولما قدم وفد نجران على الرسول كانوا يتوشحون بها . ولما توفي الرسول ، ووضع مسجى في ناحية من البيت ، وضعت عليه الحبرة[2] .

ويقال للثوب الجديد الناعم (الحبير) . وذكر أيضاً ان الحبير البرد الموشى المخطط ، وأن الحبرة ضرب من برود اليمن منمر ، وبائعها حبري لا حبار[3] . وتعد (ثياب الحبرة) من الثياب الغالية الجيدة التي يلبسها الأغنيـاء والسادات ،

---

١ Hastings, p. 874.

٢ المغرب (ص ١٠٤) ، جامع الاصول (٤٧٨/٧) ، تاج العروس (١١٨/٣) ، (حبر) شمس العلوم (١٤٤/١) ، الطبقات ، لابن سعد (٣٥٧/١) .

٣ تاج العروس (١٨٨/٣) ، (حبر) ، الطبقات لابن سعد (٣٥٧/١) .

فلما قدم وفد نجران على النبي بالمدينة « فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحبرة ، وأردية مكفوفة بالحرير »[1] .

واشتهرت اليمن بـ (المراجل) ، وهي ضرب من البرود[2] . وذكر بعض علماء اللغة أن البرد المُرجل، فيه صور كصور الرجال . وورد ثوب مرجل بمعنى معلم[3] ، وبرد مرحل أي برد فيه تصاوير رحل على تفسير بعض علماء اللغة . وورد المرحلات يعني المرط المرحلة ، وهي الموشاة ، وقد أشير اليها في كتب الحديث[4] . و (القيصران) وهو ضرب من الثياب الموشاة[5] . والعصب ضرب آخر من البرود اليمانية يعصب غزله ثم يصبغ ثم يحاك وينسج ، فيأتي موشى لبقاء ما عصب فيه أبيض لم يأخذه صبغ . وقيل : هي برود مخططة[6] . ويقال ثوب مبرج إذا كان ثوباً ذا تصاوير[7] .

وقد عرفت (البُرد) ، أنها أكسية يلتحف بها ، وقيل إذا جعل الصوف شقة وله هدب . وقيل : البرد من برود العصب والوشي ، وأما البردة ، فكساء مربع أسود فيه صغر تلبسه الأعراب ، وأن البرد ثوب فيه خطوط وخص بعضهم به الوشي[8] .

واشتهر بلد المعافر بنوع من البرد والثياب ، حتى قيل له : برد معافري وثوب معافري[9] . وأما (الشرعبية) فضرب من البرود[10] . وذكر انها من الثياب الحارية . واليها أشير في شعر امرىء القيس :

فلما دخلناها أضفنا ظهورنا الى كل حاري حديد مشطب[11]

---

١ الطبقات ، لابن سعد (٣٥٧/١) .
٢ المعرب (ص ٢٧٢) ، جامع الاصول (٤٠٨/٤) .
٣ تاج العروس (٣٣٥/٧) .
٤ تاج العروس (٣٤١/٧) .
٥ تاج العروس (٣٤٢/٧) .
٦ تاج العروس (٣٨٣/١) ، المغرب (٤٥/٢) .
٧ شمس العلوم (١٥٤/١) .
٨ اللسان (٨٧/٣) ، النهاية في غريب الحديث والاثر ، (٨٦/١) .
٩ تاج العروس (٤١٢/٣) .
١٠ اللسان (٤٩٤/١) .
١١ العمدة ، لابن رشيق (٢٢٠/٢) .

وعرفت (صنعاء) بوشيها وبأنواع أخرى من النسيج[١] .

وعرفت اليمن بنوع من البرود سُمّي (عَصْباً) لأن غزلـه يعصب ، أي يدرج ، ثم يصبغ . وذكر أنها خاصة باليمن ، لأنها تصبغ بالعصب . ولا ينبت العصب والورس إلا باليمن[٢] . وقيل العصب برود مخططة ، اشتهرت بها اليمن[٣].

والمسندة والمسندية وأثواب سند ، نوع من البرود اليمانية[٤] . والثياب القدمية منسوبة الى موضع باليمن[٥] . وثوب (أكباس) (أكباش) من برود اليمن[٦] .

وهناك ضرب من البُرود قيل له (القطرية) والمفرد (قطري) . وكان الرسول متوشحاً بثوب قطري . كما كان على عائشة درع قطري ثمنه خمسة دراهم، وذكر أن البرود القطرية حُمر لها أعلام فيها بعض الخشونة ، وأنها تأتي من (قطر) بسيف البحرين[٧] .

وعرفت الأنسجة اليمانية المصنوعة من الكتان في كل مكان من جزيرة العرب . وقد كانت لباس الأغنياء والوجهاء . وتعطي أنسجة الكتان برودة خاصة في الصيف ، ولهذا كانت رائجة في كل مكان . وقد كانت مصر ذات شهرة خاصة في تصدير أنسجة الكتان ، فقد كان كتانها لطيفاً ناعماً . ولهذا بيع بثمن مرتفع . وذكـر علماء العربية أن الكتان لفظة عربية النجار ،سمي بذلك لأنه يُخيس ويلقي بعضه على بعض حتى يكتن[٨] .

و (البرجد) ، كناية عن كساء ضخم مخطط . وقد ذكر في شعر طرفة[٩]. وذكر انه كساء من صوف أحمر[١٠] .

والعباءة ، هي مقابل (س م ل هـ) (سمله) (شمله) عنـد العبرانيين

---

١ نهاية الارب (١/٣٦٩) .
٢ اللسان (١/٦٠٤) ، الروض الانف (١/٧١) .
٣ تاج العروس (١/٣٨٣) ، (عصب) .
٤ اللسان (٣/٢٢٣) .
٥ اللسان (١٢/٤٧٢) .
٦ اللسان (٦/٣٣٩) .
٧ اللسان (٥/١٠٦) .
٨ اللسان (١٣/٣٥٥) .
٩ شرح المعلقات ، للزوزني (ص ٤٨) « دار صادر » ، شمس العلوم (حـ ١ ق ١ ص ١٤٩) .
١٠ تاج العروس (٢/٣٠١) ، (البرجد) .

و « Himation » عند اليونان[1]،وتلبس فوق الألبسة . وتكون بعضها ثقيلة تصنع من الوبر أو الصوف ، وتستعمل في الشتاء خاصة وفي الأوقات الباردة ، وبعضها خفيف ، يصنع من الصوف أو من شعر الماعز . وتستعمل في الأوقات التي لا يكون فيها البرد شديداً وفي أيام الصيف . وقد يستلقي عليها الانسان ، فتكون بمثابة فراش له . وقد تصنع العباءة من قطعتين من القماش ، وقد تصنع من قطعة واحدة . وهي أحسنها وأغلاها . وتكون عباءة الأغنياء والرؤساء من قماش جيد منسوج نسجاً خاصاً محلاة في الغالب من ناحية العنق والصدر والجهة العليا من اليدين بخيوط من الحرير أو الذهب يروفها (الروّاف) ، بأشكال متعددة فيختلف سعرها لذلك باختلاف الجهد الذي بذله الروّاف في تطريزها وفي زخرفتها .

وتصنع أحسن العباءات من الوبر[2] . وقد تفنن فيها ، وتخصصت بعض الأماكن بنسجها . ولا تزال هذه الصناعة باقية تدر على أصحابها ربحاً يتعيشون منه ، كما تصنع من أوبار الجمال أشياء أخرى عديدة . على أن القرن العشرين قد علّم سكان الجزيرة تصدير الوبر الى الخارج الى المعامل الحديثة لاستعماله مع الأصواف في صناعة الغزل والنسيج .

والشملة : كساء دون القطيفة يشتمل به كالمشمل . والمشملة عند العرب مئزر من صوف أو شعر يؤتزر به ، فإذا لفق لفقين ، فهي مشملة يشتمل بها الرجل إذا نام بالليل . وقيل المشملة والمشمل : كساء له خمل متفرق يلتحف بـه دون القطيفة . واشتمل الثوبَ أداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده[3] .

وقد ذكر أن الجاهليين كانوا يستوردون الجبب والأردية والأقمصة والأقمشة من بلاد العراق والشأم ، وكانت غالية الثمن وذات قيمة عندهم ، لحسن صنعتها وإتقان قماشها . وقد كانت للرسول جبة من صنع بلاد الشأم[4] ، وكان له طيلسان مدبج،أي منقوش الأطراف بالديباج[5] . وفي جملة ما استورد من مصر من ألبسة

---

١ Hastings, Dict. of the Bible, Vol., I, p. 625, Hastings, a dictionary of christ and the Gospels, vol., I, p. 498, ff.

٢ تويتشل (الصفحة ٣٢) ، اللسان (١١٨/) ، المخصص (١١٨/٤) .

٣ تاج العروس (٣٩٧/٧) ، (شمل) .

٤ عمدة القاري (٣٠٣/٢١) ، « والجبة : ثوب من المقطعات يلبس » ، تاج العروس (١٧٣/١) .

٥ المغرب (ص ١٧٤) .

وثياب ، القبـاطي وهي ثياب بيض دقيقة رقيقة تتخذ بمصر[1] ، والقسي[1] وهي ثياب منسوجة من كتـان وابريسم مضلعة ، تصدر من مصر ، من قرية تسمى القسي فنسبت اليها .

وقد بقيت مصر تصدر القباطي حتى في الاسلام . وذكر علماء اللغة أن القباطي والثياب القبطية منسوبة الى القبط ، أهل مصر الخلص من ولد القبط بن حام بن نوح على رأي بعض النسابين ، أو من ولد قبط بن مصر بن فوط بن حام على رأي فريق آخر . وذكر أن لفظة قبطية ، وردت في شعر لزهير هو هذا البيت:

ليباح كأن بالأتحمية مسبع   إزاراً وفي قبطية متجلبب[2]

وورد ذكرها في بيت شعر آخر ينسب له أيضاً هو[3] :

ليأتينك مني منطق قـذع   باق ، كما دنس القبطية الودكُ

وقد ورد ذكرها في كتب الحديث ، فقد ذكر أن الرسول كسا (أسامة) قبطية[4] .

وأشير الى ثياب بيض قيل لها (القبطرى) . وزعم بعض علماء اللغة أن في الكلمة غلط ، وأن الراء زائدة[5] .

وعرفت بعض الثياب بـ (الأنماط) ، جمع (نمط) ، وهي الثياب المصبغة . وفي حديث (ابن عمر) أنه كان يجلل بدنه بالأنماط . وذكر أن الأنماط ضرب من البسط له خمل رقيق[6] .

---

١ المغرب (٢/١٠٧) ، جامع الاصول (٤/٣٩٥) ، اللسان (٧/٣٧٣) .
٢ تاج العروس (٥/٢٠٠) .
٣ اللسان (٧/٣٧٣) .
٤ المصدر نفسه .
٥ اللسان (٧/٣٧٣) .
٦ قال المتنخل :
علامات كتحبير النماط
اللسان (٧/٤١٧ وما بعدها) .

ويقال للنمط الزوج كذلك . وقيل الزوج : الديباج واللون[1] .

وأما السبج ، فالسبجة درع عرض بدنه عظمة الذراع ، وله كُمّ صغير نحو الشبر ، تلبسه ربات البيوت . وقيل هي بردة من صوف فيهـا سواد وبياض . وقيل ثوب له جيب ولا كمّين له ، يلبسه الطيّانون . وقيل هي مدرعة كُمها من غيرها . وقيل كساء أسود ، أو القميص . وهي لفظة معربة أصلها بالفارسية (شبي) . وذكر ان (السباج) ثياب من جلود[2] .

وقد كانت بعض الثياب المستوردة من بلاد الشأم ومصر ومن الأرضين التي تسودها أكثرية نصرانية ترد وعليها صلبان منسوجة . فلما جاء الاسلام ، وأمـر بطمس الصلبان ، كان الرسول اذا رأى الصليب في ثوب قضبه وقطع موضعه أو نقشه[3] .

وإذا كان الحرير المعروف بـ (الخسرواني) ، معروفاً حقاً عند الجاهليين ، فإنه يدل على انه كان مستورداً من العراق ، بدلالة اسمه عليه . ويذكر علماء اللغة انه منسوب الى الأكاسرة ، وانه حرير رقيق حسن الصنعة[4] .

ولفظة (حرير) من الألفاظ المستعملة في العربية ، غير أن من الصعب تعيين أصلها . وقـد ذكر (سترابون) أن اليونان أخذوا الحرير من الهنود. ولذلك أطلقوا عليه لفظة أخذوها من اسم أحد الشعوب الهندية . أما العبرانيون فقد أطلقوا عليه لفظـة (مسى)[5] . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن لفظة (سريقوم) « Sericum » الواردة في النصوص الكلاسيكية تعني الحرير الخام . ووردت في العبرانية لفظة (دمشق) « Demeshek »،يرى بعض العلماء أنها تعني حريراً دمشقياً،

---

١ قال الاعشى :

وكل زوج من الديبـاج يلبسه ... أبو قدامة ، محبو بـذاك معـا

وقال لبيـد :

من كل محفوف ، يظـل عصية ... زوج ، عليـه كلـه وقرامهـا

اللسان (٢/٢٩٣) .

٢ اللسان (٢/٢٩٤) .

٣ المعرب (ص ٣٠٥)

٤ المعرب (ص ١٣٥) ، « والخسرواني (بضم الاول والثالث) : شراب ونوع من الثياب كالخسروي . قال الزمخشري : منسوب الى خسروشاه من الاكاسرة » ، تاج العروس (٣/١٧٦) .

٥ اللسان (٤/١٨٤) ، Hastings, Vol. I, p. 624. (1910).

أي معمولاً بدمشق . وذهب آخرون الى أن اللفظة ، محرفة من لفظة (دمقس) الواردة في العربية ويراد بها نوع من الحرير أو الحرير الخام[1] . والديباج من الثياب المعمولة من الحرير . واللفظة من الألفاظ الفارسية المعربة [2] .

ومن الثياب والأقمشة التي تحمل اسماً معرباً (الدخدار) . وهو كما يقول (الجواليقي) (تخت دار) بالفارسية . وذكر أنه ورد في هذا البيت منسوب الى عدي بن زيد العبادي :

تلوح المشرفيــة في ذراه ويجلو صفح دخدار قشيب[3]

وأشير إلى (الديباجة) في شعر (حسان بن ثابت) ، ويراد بها الثياب المتخذة من الابريسم[4] .

وقد وردت في القرآن الكريم لفظة (سندس) ، وذهب العلماء إلى ان المراد بها رقيق الديباج ، وذكر بعضهم أنه ضرب من (البزيون) يتخذ من المرعزاء ، واللفظة من الألفاظ المعربة [5] .

وأما الاستبرق ، فإنه ما خشن من الديباج على رأي بعض العلماء . وأصله من الفارسية ، فهو من المعربات[6] .

وكان الأغنياء وسادات القبائل يلبسون الألبسة المنسوجة من الحرير ، وهي ثمينة غالية ، يستوردونها من الخارج ، وينسج بعض منها في اليمن . وقد نهى

---

١ Smith, Dicti. of the Bible, Vol. II, p. 1310 f.

٢ المعرب (ص ١٤٠) ، تاج العروس (٣٧/٢) ، المخصص (٧٦/٤) .

٣ المعرب (ص ١٤١) ، « الدخدار ، بالفتح : ثوب أبيض مصون ، أو أسود . وقد جاء في الشعر القديم . وهو معرب تخت دار ، فارسية ، أي يمسكه التخت ، أي ذو تخت . وقال بعضهم : أصله تختار ، أي صين في التخت ، والاول أحسن . » ، تاج العروس (٢٠٣/٣) .

٤ البرقوقي (ص ١٤٦) ، تاج العروس (٣٧/٢) ، (دبج) .

٥ المعرب (ص ١٧٧) ، « السندس (بالضم) : البزيون ... وقال الليث : انه ضرب من البزيون ، يتخذ من المرعزي ، أو ضرب من البرود . وفي الحديث : ان النبي صلى الله عليه وسلم ، بعث الى عمرو (رضي الله عنه) بجبة سندس . قال المفسرون في السندس : انه رقيق الديباج ورفيعه ، وفي تفسير الاستبرق : غليظ الديباج ، ولم يختلفوا فيه . معرب بلا خلاف عند أئمة اللغة » ، تاج العروس (١٦٨/٤) .

٦ اللسان (٥/١٠) ، المخصص (٧٦/٤) .

الاسلام عن لبس الحرير ، لما في ذلك من ترف يميت الرجولة ومن تشبّه بمترفي العجم ، ومن تأثير يتركه استعماله في نفوس الفقراء .

ومن أنواع الثياب الجيدة المصنوعة من القز الأبيض (الدمقس) ، وهو ناعم وذكر علماء اللغـة أن اللفظة من الألفاظ المعربة القديمة الواردة في شعر لامرىء القيس[1] . ويرى بعض الباحثين أن الدمقس تحريف (مدقس) وهو الحرير الأبيض، وأن أصلها يوناني هو : « Metaxa »[2] .

ويعرف الحرير الجيد بالسَّرق ، وقيل : السرق شقق الحرير أو الأبيض أو الحرير عامة . وذهب بعض العلماء الى أنها من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، وأن أصلها سَرَه أي جيد . وقد ورد في الحديث : انك في سرقة من حرير ، أي قطعة من جيد الحرير[3] . ويقال للسرق (سريكون) « Sirikon » « Sericum » في اليونانية[4] . ويراد بها الحرير عامة . ومن هذا الأصل جاءت لفظة (السرق) على ما أرى .

ويعرف الحرير بـ (مشى) و (دمشق) في العبرانية . وقد ذهب بعض علماء التوراة أن للفظة (دمشق) صلة بدمشق الموضع المعروف . ودمشق من المواضع المشهورة منذ القديم بنسج الحرير . وذهب آخرون أنها من أصل (دمقس) ، تحرف فصار (دمشق) ولا علاقة لها بدمشق . وأما لفظة (حرير) ، فتعرف بـ « Sericum » عند اليونان واللاتين كما ذكرت . أما لفظة (حرير) المستعملة في العربية ، فإن من الصعب تعيين أصلها والوقت الذي ظهرت فيه[5] .

والخز : ثيـاب تنسج من صوف وإبريسم ، وقيـل انه الثياب المعمولة من

---

١ فظل العذارى يرتمـين بلحمهـا وشحم كهـداب الدمقس المفتـل
المعرب (ص ١٥١) ، « الدمقس (كهزبر) ، الابريسم أو القـز ··· أو الديباج أو الكتان ··· والدمقس والمدقس مقـلوب ··· وثوب مدمقس منسوج به » ، تاج العروس (٤/١٥٤ وما بعدها) ·

٢ غرائب اللغة (ص ٢٥٨) ·

٣ تاج العروس (٦/٣٧٩) ، المعرب (ص ١٨٢) ، المخصص (٤/٦٨) ·

٤ غرائب اللغة (ص ٢٥٩) ·

٥ Smith, A dict. of the Bible, Vol. III, p. 1310 f.
Hastings, Dict. of the Bibl., Vol. I, p. 624.

الإبريسم[1] . وقيل انه الحرير[2] . وذكر علماء اللغة أن (اللاذ) ثياب من حرير تنسج بالصين ، وأن (الاضريج) الخز الأصفر ، وأن المطرف : ثوب مربع من خز له أعلام[3] .

وربما كان (الديبوذ) و (الديابوذ) من الثياب التي وصلت إلى الحجاز من الاتصال التجاري بالعراق . واللفظة من المعربات . ذكر الجواليقي أنها من الألفاظ الفارسية الأصل ، وان المراد بها ثوب ذو نيرين ، وأورد شعراً للأعشى جاءت فيه هذه اللفظة[4] .

وقد وردت في القرآن الكريم لفظة (سرابيل) جمع (سربل) . وذكر علماء اللغة أن (السربال) القميص من أي جنس كان[5] ووردت السربال في شعر منسوب إلى الأعشى :

مقلص أسفل السربال معتمر[6]

وفي هذا المعنى لفظة (سروال) ، والجمع (سراويل) والسربال هو (سربالين) (س ر ب ل ي ن) في العبرانية[7] . وهو أيضاً (السروال) في العربية و (الشروال) من أصل فارسي . وقريب من السربال والسروال (اللباس) الطويل المستعمل عند أهل القرى والفلاحين وبين كثير من أهل المدن في الوقت الحاضر . يشد عند

---

١ اللسان (٣٤٥/٥) ، تاج العروس (٣٣/٤) .
٢ المخصص (٦٨/٤) .
٣ المخصص (٦٨/٤) .
٤ المعرب (ص ١٣٨ وما بعدها) ، « الديبوذ : ثوب ذو نيرين ... معرب ، فارسيته دوپوذ (بالضم) ، ونقله الجوهري عن أبي عبيدة ، وأنشد بيت الاعشى يصف الثور :
عليه ديابوذ تسربل تحته   أرندج أسكاف يخالط عظما » ،
تاج العروس (٥٦٢/٢) .
٥ المفردات (ص ٢٢٨) .
٦ برصوم : الالفاظ السريانية (ص ٢٥٨) ، « السربال ، بالكسر : القميص أو الدرع أو كل ما لبس فهو سربال والجمع سرابيل . قال الله تعالى : وسرابيل تقيكم بأسكم . ومنه قول كعب بن زهير :
شم العرانين أبطال لبوسهم   من نسج داود في الهيجا سرابيل
... وقد تسربل به وسربلته اياه ، ألبسته السربال . ومنه حديث عثمان رضي الله تعالى عنه : لا أخلع سربالا سربلنيه الله تعالى . السربال القميص وكني به عن الخلافة » ، تاج العروس (٣٧٤/٧) .
٧ Hastings, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 625 f.

المحصر ثم يعرض وينتهي بفتحتين ضيقتين لدخول الرجلين منها . ولا زال (الشروال) مستعملاً بين الايرانيين والأكراد وفي بلاد الشام . وقد ذكر علماء اللغة أن السروال لفظة معربة من أصل فارسي . وورد «في حديث أبي هريرة : أنه كره السراويل المخرفجة » أي (الواسعة الطويلة)[1] . وقد اشتهر الفرس بلبس السراويل ، والظاهر أن الرسول كره السراويل الواسعة الطويلة ، لأنها كانت من سنة الأعاجم . فأراد عدم التشبه بهم . وأما القميص ، فقد يقال له (الدرع) والسربال[2] .

وأما (القز) (القهز) ، فهما ثياب صوف كالمرعزي وربما خالطها الحرير[3] . وأما (الزازفية)، فثياب بيض من كتان[4] . وأما (الخنف) فما غلظ من الثياب[5] .

ومن الأكسية (الجودياء) ، وقد ذكر بعض علماء اللغة أنها لفظة معربة عن أصل فارسي أو نبطي، وذكروا أن الأعشى تصرف بها في شعره فجعلها (اجياد)[6].

وهناك نوع من أنواع القميص أو البرد المنسوجة من الصوف فيها سواد وبياض يقال لها (سبيج) (السبيج) و (السبجة) و (السبيجة) . وقد ذكر الجواليقي أنها من الألفاظ المعربة[7] .

والطيلسان : من الألفاظ المعربة ، ويراد بها ثوب يلبس على الكتف ، أو ثوب يحيط بالبدن ينسج للبس ، خال عن التفصيل والخياطة . وذكر أيضاً أنه كساء مدور أخضر ، لا أسفل له ، لحمته أو سداه من صوف[8] . وقد اشتهرت

---

١ اللسان (١١/٣٣٤) .

٢ اللسان (٧/٨٢) ، (١١/٣٢٥) .

٣ المخصص (٤/٦٨) .

٤ النهاية في غريب الحديث (١/٨٣) .

٥ النهاية (١/٤) .

٦ « والجودياء (بالضم) : الكساء ، نبطية او فارسية . وعربها الاعشى فقال :

وبيداء تحسب آرامها ... رجال اياد بأجيادها

وأنشد شمس لابي زبيد الطائي في صفة الاسد :

حتى اذا ما رأى الانصار قد غفلت ... واجتاب من ظله جودي سمور

قال : جودي بالنبطية هي جودياء ، أراد جبة سمور » ، تاج العروس (٢/٣٢٨) ، المعرب (ص ١١١ وما بعدها) .

٧ المعرب (ص ١٨٢) ، تاج العروس (٢/٥٦) .

٨ المعرب (ص ٢٢٧) ، المغرب (٢/١٦) .

الفرس بلبسه ، ويسمى عندهم بـ (تالسان) ، حتى استعمل العرب جملة : « يا ابن الطيلسان » أي يا ابن الأعجمي في الشتم ، وذلك من تطلسهم به[1] .

والساج : الطيلسان الضخم الغليظ ، وقيل : هو الطيلسان المقوّر ينسج كذلك ، وقيل : هو طيلسان أخضر . وفي حديث ابن عبّاس ، أن النبي ، كان يلبس في الحرب من القلانس ما يكون من السيجان الخضر ، جمع ساج ، وهو الطيلسان الأخضر ، وذكر (ابن الأعرابي) : السيجان الطيالسة السود[2] .

و (الشوذر) من الألفاظ المعربة القديمة على رأي بعض العلماء ، ويراد بها الملحفة والإزار[3] .

وقد اشتهرت اليمن بصنع الأزر ، واشتهرت بهذه الصناعة مواضع أخرى . وقد كان العراق يصدر الأزر إلى جزيرة العرب . واشتهرت ازره عند العبرانيين. فأطلقوا عليها (ازرت شنعار) (ازرت شنعر) ، أي (ازر شنعار) . ويريدون بشنعار ما يقال له أرض بابل . وهو من نسيج جيد مبروم . وقد عرفت بـ (لُبلتي برمه) « Lubulti birme » ، وعرف النساج الذي اختص بهذا النوع من الأزر بـ (اشبر برمي) « Ushbar Birmi »[4].

و (القهز) و (القهزى) ، ثياب بيض يخلطها حرير . وهي من الألفاظ المعربة. وذكر بعض علماء اللغة أن الأصل الفارسي هو (كهزانة)[5] .

والخميصة : ثوب أسود معلم من خز أو صوف . وأما الأنبجانية فكساء له خمل ، وقيل : الغليظ من الصوف . والفروج : القباء له فرج من وراء أو من أمام . وأما المِرْطُ فالكساء يتغطى به[6] .

ومن أنواع الثياب (القباء) . وقد ذكر بعض العلماء ان اللفظة فارسية الأصل معربة[7] .

---

١ تاج العروس (١٧٩/٤) .

٢ اللسان (٣٠٢/٢ وما بعدها) .

٣ المعرب (ص ٢٠٥) ، « والشوذر : الملحفة معرب ، فارسيته جادر » ، تاج العروس (٢٩٤/٣) .

٤ Hastings, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 230.

٥ المعرب (ص ٢٦٣) ، « ثياب تتخذ من صوف أحمر كالمرعزي وربما يخالطه الحرير . وقيل هو القز بعينه . وأصله بالفارسية كهزانه » ، تاج العروس (٧٢/٤) .

٦ جامع الاصول (٤٩٦/٧) .

٧ المعرب (٢٦٢) ، تاج العروس (٢٨٦/١٠ وما بعدها) .

و (النرمق) ثياب لينة بيض ، وهي من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، وأصلها (نرمه)[1] . وأما (النمرق) و (النمرقة) ، فالوسادة أو الميثرة والطنفسة [2] .

ولاحتياج الانسان الى الملابس في كل زمن ، كانت حرفة الغزل والحياكة يحترفها كثير من الناس وتعيش عليها أسر عديدة . ويمكن عدّها من أهم الحرف في ذلك العهد ، وعد العمال المشتغلين بها من أكثر عمال الحرف الأخرى عدداً . ولم يكن المتعاطون لهذه الحرف هم أصحاب معامل النسيج ، ولكن أصحابها الأغنياء والمتمولون . أما المشتغلون بها ، فعمال يشتغلون فيها بأجر يتقاضونه ، ومنهم من كان رقيقاً مملوكاً يعمل لحساب سيده ومالكه ، في مقابل قيامه بأوده . والقليل من العمال من كان يملك مصانع نسيج ، تعمل له وتدر الربح عليه .

بل كان الملوك يشاركون الشعب في امتلاك دور النسيج وينافسونهم في الإنتاج . وفي نصوص المسند إشارات عديدة الى دور الحياكة والنسيج الملكية ، والى انتاجها واشتغالها . ولا يستبعد احتكارهم لها أو احتكار صناعة بعض الأنواع من النسيج وبيع الأقمشة . وقد علمنا في الجزء السابق من هذا الكتاب أن البطالمة كانوا قد احتكروا بيع أنواع معينة من النسيج وصناعتها . وقد ظل احتكار حكومات مصر لأنواع معينة من النسيج معروفاً الى الاسلام ، تنسجها في معاملها ، ولا تسمح للأهلين بإنتاجها ، كما فعل ذلك غير المصريين أيضاً . فصناعة النسيج صناعة مهمة ذات أرباح وفوائد،وهي من أهم الصناعات في المجتمع . ولأرباحها هذه ولكونها مورداً مهماً ، فكرت بعض الدول في احتكارها ، للحصول على أرباحها ، كما تفعل الدول في الزمن الحاضر في احتكار بعض الصناعات والمناجم وبعض المصالح العامة مثل سكك الحديد أو التلفون والبرق وغير ذلك لتكون مورداً يمون الدولة بالمال.

ومن أسماء القطن (الطوط) ، وقيل : الطوط قطن البردي . وورد في شعر لأمية ابن أبي الصلت :

والطوط نزرعه أغن جراؤه فيه اللباس لكل حول يعضد[3]

---

١ المعرب (ص ٣٣٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٧/ ٧٥) .
٢ تاج العروس (٧/ ٨١) .
٢ تاج العروس (٥/ ١٧٩) ، (طوط) .

ولم يقتصر عمل الحائك على حياكة الأقمشة ونسجها وحدها ، بـل شمل عمله كل شيء يحاك ، مثل البسط والطنافس والسجاجيد و (الدرانك) التي هي نحو من الطنافس والبسط . ويذكر علماء اللغة أن اللفظة من المعربات . وذكر بعض العلماء أن (الدرنوك) و (الدرموك) ضرب من الستور والفرش ، يكون فيها الصفرة والخضرة ، وقال بعض آخر : انه ضرب من الثياب له خمل قصير كخمل المناديل ، وبه شبه فروة البعير . وورد انه الطنفسة والبسط ذات الخمل . وقد تكون كبيرة تفرش البيت[1] . والأنماط ، وهي ضرب من البسط[2] ، وضرب من الثياب المصبغة ، وثياب من صوف تطرح على الهودج[3] . والنساجة وهي ضرب من الملاحف المنسوجة[4] . والقطيفة وهي دثار مخمل . وقيل هي كساء مربع غليظ له خمل ووبر[5] . والوسادة وهي المخدة[6] . والنمرقة وهي الوسادة ، وقيل الصغيرة منها ، أو هي الميثرة ، وتوضع على الرحل كالمرفقة ، غير ان مؤخرها أعظم من مقدمها ولها أربعة سيور تشد بآخرة الرحل[7] .

وهناك حرفة أخرى لها علاقة بالنساجة والحياكة ، هي الخياطة[8] . وحرفة الخياط تحويل الأقمشة الى كسوة ، وصنع الثياب والعمائم بتفصيل القماش وقصه ثم خياطته على وفق القياس المطلوب . وهي حرفة تروج في المدن . أما في البادية ، فتقوم المرأة بعمل الضروريات ، ويلتجيء الرجال الى القرى والمدن في شراء ما يحتاجون اليه من ثياب . ونجد بين أسماء الثياب ، ما هو معرب ، مما يدل على أنه منقول مستورد ، وأن الخياطين الجاهليين قد رأوه فقلدوا صنعه .

كذلك نجد بين أسماء أجزاء الثوب أسماء معربة. فذكر علماء اللغة أن (الدخريص) و (التخريص) من المصطلحات المعربة ، وأن أصلها فارسي ، وهي تعني (البنيقة) و (اللبنة) . وقد وردت (الدخارص) في شعر منسوب الى الأعشى[9] .

---

١ المعرب (ص ١٥٢) ، تاج العروس (١٢٩/٧) .
٢ جامع الاصول (٣٩٥/٤) ، تاج العروس (٢٣٤/٥) .
٣ المعرب (٢٣١/٢) ، تاج العروس (٢٣٤/٣) .
٤ جامع الاصول (٣٩٩/٤) .
٥ المغرب (١٢٨/٢) ، تاج العروس (٢٢٤/٦) .
٦ جامع الاصول (٤٠٢/٤) ، تاج العروس (٥٣٤/٢) .
٧ تاج العروس (٨١/٧) .
٨ تاج العروس (١٣١/٥) .
٩ المعرب (ص ١٤٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٩٣/٤) ، (٣٠٠/٦) .

ويعبر عن (الخيّاط) بلفظة (درز) ، و (بنو درز) الخيّاطون والحاكة [1] . و (الخياط) الإبرة [2] . والإبرة ، هي التي يخاط بها ، وذلك بإدخال الخيط في سمّها أي في ثقب الإبرة ، وتخييط ما يراد تخييطه بها . والخياطة صناعة الخائط [3] . ويقال للذي يُسوّي الابر الأبّار [4] . و (السم) الثقب ، ومنه (سم الخياط) ، أي سم الإبرة [5] .

ومن أسماء الخياط : (القراريّ) . قال الأعشى :

يشق الأمور ويجتابها كشق القراري ثوب الردن [6]

ويعبر عن خياطة الخياط الثوب خياطة متباعدة بـ (شمج) و (شمرج) ، وذلك بأن يباعد بين الغرز . و (الشمرج) الرقيق من الثياب وغيرها [7] .

ويعبر عن الخيط بلفظة (السلك) و (السلكة) [8] .

والثوب اللباس [9] ، وهو ما يلبس [10] . ولذلك فهما من الكلمات العامة التي تطلق على أشياء عديدة . وقد اشتهرت بعض الثياب بكونها ثياب رقاق ، منها (السبوب) والسب : الشقة البيضاء ، وكذلك الخمار . و (الشف) ، وهو الثوب الرقيق ، و (اللهله) و (النهنه) ، الثوب الرقيق النسج . وثوب هلهل وهلهال ، رقيق النسج ، وهو المتدارك النسج [11] .

والمواد التي يستعين بها الخياط في صنع الثياب والاكسية هي الأنسجة المصنوعة من القطن أو الحرير أو الكتان أو الأصواف أو الشاش أو البز أو الكرباس .

---

١ اللسان (٣٤٨/٥) .
٢ بكسر الخاء .
٣ اللسان (٢٩٨/٥ وما بعدها) .
٤ اللسان (٤/٤) .
٥ اللسان (٣٠٣/١٢) .
٦ اللسان (١٧٧/١٣) .
٧ اللسان (٣٠٨/٢ وما بعدها) .
٨ اللسان (٢٩٨/٥) ، (٤٤٣/١٠) .
٩ اللسان (٢٤٥/١) .
١٠ القاموس (٢٤٨/٢) .
١١ المخصص (٦٣/٤) .

ولفظة (قطن) ، من الألفاظ التي يصعب تعين أصلها . وقد ذهب كثير من الباحثين الى أنها من أصل هندي . وفي التوراة لفظة (كربس) « Karpas » ، أي الكرباس ، فسرها علماء التوراة بمعنى (قطن) . ولفظة (كرباس) معروفة في العربية . وهي من الألفاظ المعربة المعروفة عند الجاهليين. وترد في لغة بني إرم وفي العبرانية واليونانية واللاتينية . وقد ذهب بعض العلماء،أنها من أصل سنسكريتي وانها تعني شجرة القطن . وقد ذكرت اللفظة في تأريخ (هيرودتس) ، وعرفها اليونان الذين كانوا في حملة الاسكندر الكبير . ودعوها « Carbasus » و « Carbasina » . وقد أشار الى القطن (هيرودوتس) و (سترابو) وصاحب مؤلف « Periplus maris Erythr » و(لوقان) « Lucan » و « Quintus Curtius » وأشاروا الى صلتها بالهند [1] . واللفظة من الألفاظ الواردة في الفارسية أيضاً . وذهب علماء العربية الى ان الكرباس ثوب من القطن الأبيض معرب عن الفارسية[2]. وفي حديث عمر : « وعليه قبص من كرابيس » ، جمع كرباس وهو القطن[3] .

ومن أسماء القطن الخرفع والخرنع . وذكر أن (الطوط) ، هو قطن البردي[4] .

والبز عند علماء العربية : الثياب ، وقيل ضرب من الثياب ، وقيل البُزّ من الثياب أمتعة البزاز ، والبزاز بائع البَزّ وحرفته البزازة . والبِزّة الهيئة والشارة واللبسة[5] . وذكر ان (البز) ضرب من برود اليمن[6] .

واللباس والألبسة والملبس كل ما يلبس[7] . والكسوة ، اللباس أيضاً . والكساء واحد الأكسية[8] . وقد عرفت لفظة الكسوة في العربيات الجنوبية كذلك ، إذ وردت في بعض النصوص ، (كسوت) (كشوا) (كشوي)[9] . وذكر علماء العربية ان الكساء الذي لا بطانة له ، يقال له : (كساء سمط)[10] .

---

١ Ency. Bibl., Vol. I, p. 915, Hastings, Diction. of the Bible, Vol. I, p. 623, Smith, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 360.

٢ القاموس المحيط (٩٣/٢) ، تاج العروس (٢٣١/٤) .

٣ اللسان (١٩٥/٦) .

٤ المخصص (٦٩/٤) .

٥ اللسان (٣١٢/٥) .

٦ المعاني الكبير (١١٧٥/٣) .

٧ اللسان (٢٠٢/٦ وما بعدها) .

٨ اللسان (٢٢٣/١٥ وما بعدها) .

٩ Mahram, p. 439.

١٠ اللسان (٣٢٤/٧) .

وفي العبرانية لفظة (بجد) وتقابل (بجاد) و (بجد) في العربية ، وتعني اللباس عامة ، من دون تمييز . أما لفظة (لبوش) ، فهي من أصل (لبس) ، وهي في معنى (لبوس) و (لبس) في العربية [١] . والبجاد عند العبرانيين من الألبسة التي تستعملها الطبقات الراقية [٢] .

وذكر علماء العربية أن البجاد : كساء مخطط من أكسية الأعراب . وقيل : اذا غزل الصوف بسرة ونسج بالصيصة ، فهو بجاد . ويقال للشقة من البجد : قليح وجمعه (قلح) . وقيل البجاد الكساء [٣] . وقيل انـــه من وبر الإبل وصوف الغنم مخيطة [٤] .

ومن أنواع الأكسية : (المشملة) : كساء يشتمل به دون القطيفة . وذكر : المشمل : كساء له خمل متفرق يلتحف به دون القطيفـــة . وورد في الحديث : « ولا تشتمل اشتمال اليهود » ، وهو افتعال من الشملة ، وهو كساء يتغطى به ويتلفف فيه ، والمنهي عنه هو التجلل بالثوب وإسباله من غير أن يعرف طرفه [٥] . وهو (سمله) « Simlah » و « Salmah » عند العبرانيين .

و (البرنس) : كـــل ثوب رأسه منه ملتزق به دُرّاعة كان أو ممطراً أو جُبّة . وذكر أن (البرنس) قلنسوة طويلة ، وكان النسّاك يلبسونها في صدر الإسلام . وهو من (البرس) ،القطن [٦] . وعرف بهذه التسمية أيضاً عند العبرانيين [٧] .

والمُلاءة : الريطة ، وهي الملحفة والإزار [٨] . وذكر أن الريطة الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفقين ، وقيل : الريطة كلا ملاءة غير ذات لفقين كلها نسج واحد ، وقيل : هو كل ثوب لين دقيق . والرائطة : المنديل [٩] .

---

١ Ency. Bibli., Vol. I, p. 1135. f.

٢ The Bible Dictionary, I, p. 30.

٣ اللسان (٣/٧٧) .

٤ شرح المعلقات العشر ، للتبريزي (ص ٧٧) .

٥ اللسان (١١/٣٦٩) .

٦ اللسان (٦/٢٦) .

٧ The Bible Dictionary, I, p. 96.

٨ اللسان (١/١٦٠) .

٩ اللسان (٧/٣٠٧) .

والإزار : الملحفــة ، والمئزرة : الإزار [1] . والرداء الذي يلبس ، والجمع أردية [2] . وذكر أن المئزر من الصوف أو الشعر يؤتزر به، فإذا انفق فهو (شملة) يشتمل بها الرجل اذا نام بالليل [3] .

والردن : الكُمّ . يقـال : قميص واسع الردن . وذكر أن الردن مقدم كُمّ القميص ، وقيل هو أسفله ، وقيل : هو الكمّ كله [4] .

ويصنع الخياط الهماين جمع (الهميان) ، ويراد به الحزام وبه كيس تجعل فيه النفقة ويشد على الوسط . وقد يصنع من الجلود أيضاً ، وهو من الألفاظ المعربة من الفارسية [5] .

أما (الكيس) ، فهو لحفظ ولخزن ولحمل الأشياء . ويعرف بـ (كيس) في العبرانية كذلك ، وقد يصنع من الجلد . وأما (الخريطة) ، فإنها (خريط) في العبرانية . وتحفظ فيها الأشياء الثمينة ، وقد تحلى وتزخرف . وأما (الصرة)، وهي (صرور) في العبرانية ، فلصر الأشياء [6] . ولا تزال هـذه الأسماء مستعملة معروفة .

والجاهليون مثل عرب الاسلام في اختلاف ملابسهم ، فقـد كانت ملابسهم تختلف باختلاف منازلهم ودرجاتهم . فللشرفاء والوجهاء أهل المدن والقرى لبس خاص يميزهم عن الطبقات الدنيا من الناس . وللتجـار لبس خاص بهم ، أما الأعراب ، فكانوا يتميزون أيضاً بطريقة لبسهم عن أهل المدن والقرى . ثم انهم عموماً كانوا يختلفون في ألبستهم باختلاف أمكنتهم وبحسب درجة اتصالهم واختلاطهم بالأعاجم . فقد كان عرب العراق قـد تأثروا بألبسة الفرس وبألبسة بني إرم ، فأخذوا منهم . وتأثر عرب بلاد الشأم بالروم ، فأخذوا منهم بعض ملابسهم ،

---

١ اللسان (١٦/٤ وما بعدها) .

٢ اللسان (٣١٦/١٤ وما بعدها) .

٣ الاغاني (٣٧٢/١) .

٤ اللسان (١٧٨/١٣) .

٥ المعرب (ص ٣٤٦) ، « والهميان دخيل معـرب . والعرب قد تكلمـوا به قديمـا ، فأعربوه . ويقال له هميان أعجر ، وهمايين عجر . وقد جاء ذكر لفظ الجمع في حديث النعمان يوم نهاوند : تعاهدوا همياينكم في أحقيكم وأشساعكم في نعالكم » ، تاج العروس (٣٦٧/٩ وما بعدها) .

٦ Hastings, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 231.

حتى أسمائها ، احتفظوا بها ، وقد حفظتها لنا كتب الاسلاميين . وبعضها لا تزال حية نستعملها هذا اليوم . ولا تختلف ألبسة الرأس المعروفة عند الجاهليين عن ألبسة الرأس المستعملة بين الأعراب وفي قرى جزيرة العرب . فقد اقتضت طبيعة الصحراء ، أن يحمي الجاهلي رأسه بألبسة واقية تقيه من أذى أشعة الشمس المحرقة ومن الرمال التي تذرها العواصف في العيون وفي الأنوف ، فأوجد لنفسه ألبسة رأس مناسبة له ولبساطة حياته . فستر رأسه بقطعة قماش مربعة الشكل في الغالب، تمتد على أطرافه ليتلثم بها وقت ظهور العواصف وارتفاع الرمال ، أو وقت ظهور السموم ، فيحمي نفسه منهـا ومن العطش ، كما يحمي مؤخر رأسه من أشعة الشمس ، ولتحميه من البرد في الشتاء كذلك . ويضع فوق هذه القطعة عقالاً ، يصنع من الصوف أو من شعر الماعز أو الوبر ، ليمسك قطعة القماش فلا تسقط . وتعرف قطعة القماش هذه بالكوفية وبـ (الكفية) في الوقت الحاضر ، ويقال لها وللعقال (الكفية والعقال) و (الكوفية والعقال) في اصطلاح المحدثين .

أما عرب بلاد الشأم ، فقد كانوا يضعون لباداً فوق رأسهم مصنوعاً من مادة مضغوطة من الصوف أو الوبر ، يشبه ما يسمى بـ (العرقجين) في العراق (العرقية) ، يلف حوله بقماش مختلف الألوان ، قد يمتد أحد طرفيه ، ليستعمل لثاماً للوجه وستراً للرقبة ، وهو زي الفلاحين والرعاة .

والعمامة من لباس الرأس عند الجاهليين . « والعرب تقول للرجل إذا سُوّد : قد عمم . وكانوا إذا سوّدوا رجلاً عمموه عمامة حمراء.وكانت الفرس تتوج ملوكها فيقال له متوج »[1] . ويقال لها (السبائب) كذلك . والعمامة : (السُّب)[2] .

وعادة صبغ الثياب ، من العادات المعروفة عند العرب قبل الإسلام . وكانوا يستعملون في ذلك أصباغاً مختلفة،كالقرف وهو قشور الشجر ، والجذور يستخرجون ما فيها من مادة ملونة لصبغ ما يضعونه فيها من ملابس ، والأصباغ المستخرجة من بعض النباتات[3] . وللألوان العمائم أو الملابس دخل في المناسبات الاجتماعية ، فكانوا يستعملون للحرب مثلاً نوعاً خاصاً من العمائم ذوات ألوان خاصة ، تعبر

---

١ اللسان (١٢/ ٤٢٤) .
٢ اللسان (١/ ٤٥٦) ، الروض الانف (١/ ٥٩) .
٣ المخصص (١١/ ١٤) .

عن المواقع ، ويستعملون في الأحزان نوعاً خاصاً من العمائم والثياب ، وفي الفرح ملابس خاصة ، وهكذا ، كما كانوا يقومون بتجميرها في بعض الأحوال .

ويقوم بصبغ الثياب وقصرها الصباغون، يصبغون الملابس كما يصبغون الأقمشة قبل تفصيلها وخياطتها . وذكر أن الكهان كانوا لا يلبسون المصبغ[1] ، ولعلهم كانوا يفعلون ذلك بسبب اعتقادهم أن تابع الكاهن ينفر من الصبغ .

وفي جملة الأصباغ المعروفة والشائعة عند الجاهليين ، العصفر ، وهو نبت أصفر يستخرج منه صبغ أصفر ، تصبغ به الثياب والأقمشة وأمثالها . ومن هذه الصبغة جاءت لفظة (المعصفرات) ، ويراد بها الثياب المصبوغة بالعصفر[2]. والورس وهو صبغ أصفر ، يؤخذ من نبت طيب الرائحة تصبغ به الملابس ، فيقال ملحفة مورسة ، إذا كانت مصبغة بالورس[3] . وقد جاء النهي عن لبس الثياب المعصفرة في الاسلام[4] .

والثوب الأحمر ، هو الثوب المصبوغ بلون أحمر ، أما (الكرك) ، فالثوب الأحمر كذلك . و (ثوب مشرق) ، ثوب بين الحمرة والبياض ، و (ثوب قتمة) و (مقتوم) ثوب سواده ليس بشديد ، و (ثوب مفروك) ، مصبوغ بالزعفران ، وزبرقت الثوب زبرقة ، صفرته . وقد سمي (الزبرقان بن بدر) بذلك ، لصفرة عمامته[5] .

ويظهر ان الصباغين كانوا يمطلون بالمواعيد ويخلفون ، لذلك ضرب بهم وبالصياغين المثل في الخلف . وورد في الحديث : « أكذب الناس الصباغون والصوّاغون »[6] .

ويستعمل شعر الماعز في الغالب لصنع الخيام، وذلك للأعراب وللتجار والمسافرين وغيرهم . والاتجار بالخيام ، من التجارات التي كانت رائجة يومئذ ويستعمل شيوخ القبائل والرؤساء والملوك خياماً خاصة مصنوعة من أقمشة غليظة تتحمل المطر والعوارض الطبيعية الأخرى ، ولها أسعار غالية عالية ، تختلف باختلاف حجمها

---

١ بلوغ الارب (٣/٤٠٧) ، اللسان (٨/٤٣٧) .
٢ جامع الاصول (٤/٣٦٥) .
٣ المعرب (٢/٢٤٦) .
٤ صحيح مسلم (٦/١٤٤) .
٥ المخصص (٤/٩٥) .
٦ اللسان (٨/٤٣٧) .

ونوع القماش المصنوعة منه . ولبعضها قواطع تجزىء الخيمة الى أقسام تكون شبه غرف يسكن فيها . ويستعمل بعضها مضارب يعقد فيها ديوان الرئيس ، وبعضها معابد توضع فيها الأصنام والأشياء المقدسة التي تتنقل مع القبيلة ، يحملها الكهنة معهم.وقد أشير الى هذه الأصنام المتنقلة مع القبائل في الأخبار التي سجلها الآشوريون عن حروبهم مع الأعراب، كما كان العبرانيون يصنعون خياماً واسعة تكون مقدسة لخدمة الرب . ومن الخيم الكبار (الفسطاط) . ويطلق على الأبنية كذلك[1] .

والبساط ، ما بسط . وقد اشتهرت أنواع خاصة من البسط بين الجاهليين . منها بسط عبقر ، والبساط العبقري من الأبسطة الجيدة ، ومن عادة العرب أنهم اذا استحسنوا شيئاً أو عجبوا من شدته ومضائه نسبوه الى (عبقر) . وعبقر عندهم أرض من أرض الجن . وورد (ثياب عبقرية) نسبة الى عبقر . حتى قالوا : « ظلم عبقري » أي شديد فاحش[2] . ومن أنواع البسط : (النخ) . وهو بساط طوله أكثر من عرضه ، وهو فارسي معرب ، وجمعه نخاخ[3] .

وللعرب طرق في هيأة لبسهم وفي كيفية وضعها على أبدانهم ، ولا سيما أهل الحضر منهم . كما كانوا يكيفون لبسهم حسب المناسبات في مثل الغارات والحروب والسفر . ومن ضروب لبسهم ، ما يقال له : (الاضطباع) ، ويقال له : (التأبط) ، وهو أن يدخل الثوب من تحت يده اليمنى فيلقيه على منكبه الأيسر[4] .

ومن ضروب اللبس : (التفضل) ، وهو التوشح ، أن يخالف اللابس بين أطراف ثوبه على عاتقه . وأما (الفضلة) فالثياب التي تبتذل للنوم لأنها فضلت عن ثياب الصرف[5] . وعرف التوشح : أن يتوشح بالثوب، ثم يخرج طرفه الذي ألقاه على عاتقه الأيسر من تحت يده اليمنى ، ثم يعقد طرفيها على صدره . وقيل : التوشح بالرداء مثل التأبط والاضطباع ، وهو أن يدخل الثوب من تحت يده اليمنى فيلقيه على منكبه الأيسر ، كما يفعل المحرم[6] .

وأما (الاشتمال) ، فهو ادارة الانسان الثوب على جسده كله حتى لا تخرج

---

١ المعرب (٢/٩٦) ، تاج العروس (٥/١٩٨ وما بعدها) .
٢ المخصص (٤/٧٣) .
٣ اللسان (٣/٦١) .
٤ اللسان (٧/٢٥٤) ، المخصص (٤/٩٧) .
٥ اللسان (١١/٥٢٦) ، المخصص (٤/٩٩) .
٦ اللسان (٢/٦٣٣) .

منه يده . وروي أن النبي نهى عن اشتمال الصماء . والشملة الصماء التي ليس تحتها قميص ولا سراويل ، وذكر أن اشتمال الصماء هو أن يشتمل بالثوب حتى يجلل به جسده ولا يرفع منه جانباً ، فيكون فيه فرجة تخرج منها يده ، وهو التلفع ، وربما اضطجع فيه على هذه الحالة . وذكر الفقهاء : أن الاشتمال هو أن يشتمل بثوب واحد ليس عليه غيره ، ثم يرفعه من أحد جانبيه فيضعه على منكبه فتبدو منه فرجة[1] .

(والسند) ، ضرب من ضروب اللبس عند العرب ، وهو أن يلبس قميصاً طويلاً تحت قميص أقصر منه . كما أن السند ضروب من البرود ، وضرب من الثياب . وذكر أن السناد هي الحمراء من جباب البرود[2] .

وإذا نام الشخص وأدخل رأسه في ثوبه قيل لذلك الكبس والكباس[3] . و (الكمكمة) التغطي بالثياب[4] .

وقد عرف الجاهليون (الكلل) . و (الكلة) : الستر الرقيق يخاط كالبيت يتوقى فيه من البق[5] .

ويعبر عن الستر بـ (السجف) ، وهو قماش يستر به . والسجافة السدافة ، أي الحجاب . وكل باب ستر بسترين مقرونين فكل شق منه سجف . وقيل لا يسمى سجفاً إلا أن يكون مشقوق الوسط كالمصراعين[6] .

---

١ اللسان (٣٦٨/١١) ، المخصص (٩٧/٤) .
٢ اللسان (٢٢١/٣ وما بعدها) ، المخصص (٩٩/٤) .
٣ اللسان (١٩٠/٦) .
٤ اللسان (٥٢٨/١٢) .
٥ اللسان (٥٩٥/١١) .
٦ اللسان (١٤٤/٩) .

الفصل الخامس عشر بعد المئة

قياس الابعاد والمساحات والكيل

وقد استعمل الجاهليون قياس الأبعاد والوزن والكيل في معاملاتهم. وهي متقاربة بين الشعوب السامية لاختلاط هذه الشعوب بعضها ببعض، ولمستوى تلك الشعوب في الأيام الماضية، ودرجتها في الثقافة بالنسبة إلى تلك العهود، هذا ونجد الأوزان والمكاييل قد تطورت شيئاً فشيئاً، تطورت بالتدريج من أحوال بدائية حسية يدركها الانسان البدائي، إلى أن اتخذت أشكالاً تستند إلى أسس علمية. ويستعمل الوزن لقياس الكميات. أما المسافات والأبعاد، فتقاس بالطبع بمقاييس تستند إلى أساس تقدير الأبعاد.

ويختلف أهل الجاهلية في الكيل والوزن، اختلاف الناس في هذا اليوم. منهم من يوزن الشيء، ومنهم من يكيله كيلاً. كان أهل المدينة يكيلون التمر، وهو يوزن في كثير من أهل الأمصار. وان السمن عندهم وزن، وهو كيل في كثير من الأمصار[1]. وقد يباع الشيء عدداً، بينما يباع وزناً عند قوم آخرين. والذي يعرف به أصل الكيل والوزن، أن كلّ ما لزمه اسم المختوم والقفيز والمكوك والمدّ والصاع، فهو كيل. وكل ما لزمه اسم الأرطال والأواقي والأمناء، فهو وزن. ودرهم أهل مكة ستة دوانيق، ودراهم الإسلام المعدّلة كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل[2].

---

١ تاج العروس (٨/١٠٧)، (كيل).
٢ تاج العروس (٨/١٠٧)، (كيل)، اللسان (١٤/١٢٥ وما بعدها).

وقد كان الجاهليون يستعملون المكاييل في الغالب لقياس الجوامد والمائعات على حدّ سواء . وذلك كما يتبين من دراسة أسماء المعايير بالقياس الى المعايير المستعملة عند الرومان واليونان . وكما يتبين من مراجعة معجمات اللغة ، حيث تذكر المقياس في قياس الجوامد أحياناً وفي قياس المائعات أحياناً أخرى . وكما يتبين من عدم تفريق بعض اللغويين بين الوزن والكيل .

وقد جاءت في كتب الحديث والفقه وكتب اللغة أسماء بعض العيارات والموازين التي كان يستعملها العرب قبل الاسلام . ويظهر من هذه الكتب أن هذه العيارات والموازين كانت تختلف باختلاف المواضع ، وإن اتفقت في الأسماء . فبين مكة والمدينة مثلاً اختلاف في تقدير العيارات . كذلك اختلف العرب في وزن الأشياء في بعض الأحيان ، فقد ذكر أن أهل المدينة كانوا يكيلون التمر ، وهو يوزن في كثير من الأمصار. ثم إن بعض المواد تكال وتوزن ، فالسمن يكال في بعض الأماكن ، ويوزن في أماكن أخرى ، ويكال ويوزن في آن واحد في أماكن غيرها [1] . وقد ورد في الحديث : « الوزن وزن أهل مكة ، والمكيال مكيال أهل المدينة » [2] .

والكيل والوزن سواء في معرفة المقادير . وتعني لفظة (كال) معنى وزن . وقد ورد عن النبي أنه قال : المكيال مكيال أهل المدينة والميزان ميزان أهل مكة [3]. وورد : الكيل كيل الطعام ، يقال : كلتُ الطعام إذا توليت ذلك له . وورد في القرآن الكريم : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » [4] . وذلك إن كان مخصوصاً بالكيل ، فحث على تحري العدل . وقد وردت لفظة : (الكيل) و (كيل) و (المكيال) و (كلتم) و (اكتالوا) و (نكتل) في مواضع من القرآن الكريم [5] .

ويعبر عن الوزن وعن قياس الأبعاد بلفظة : (كل) (كال) أي (كالَ)

---

١ تاج العروس (٨/١٠٧) ، (كيل) .
٢ جامع الاصول (١/٣٧١) .
٣ جامع الاصول (١/٣٧١) ، اللسان (١١/٦٠٥) .
٤ سورة المطففون ، الآية ١ وما بعدها ، المفردات (٤٦٠) .
٥ الانعام ، الآية ١٥٢ ، الاعراف الآية ٨٥ ، يوسف الآية ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٨٨ ، الاسراء ، الآية ٣٥ ، الشعراء الآية ١٨١ ، هود ، الآية ٨٤ وما بعدها .

في المسند . والوحدة (كلت) أي (كيلة)[1] . أما في عربيتنا ، فقد استعملت في الوزن والكيل[2] . وجاء الكيل : كيل الطعام[3] . وورد كال البئر ، أي قدر ما فيها من ماء[4] . والإسم (الكيلة) ، والكيل ، والمكيل ، والمكيال، والمكيلة، ما كيل به حديداً كان أو خشباً . وكال الدراهم والدنانير وزنها .

وفي معنى (كلت) ترد لفظة (سفرت) (سفرة) . وتستعمل خاصة في قياسات الأبعاد ، مثل البعد بين مكانين ، أي المسافات والأطوال فهي بمعنى مرحلة أي وحدة قياسية للبعد[5] . ومعدل ما يسافره الانسان أو تقطعه القافلة في اليوم ، أي السفرة التي تتمكن منها القافلة في اليوم ، فسفرت ، هي سفرة في لغتنا ، أي مرحلة .

وتعد قياسات الأبعاد والموازين والمكاييل البابلية من أهم وأدق المكاييل والأوزان عند الشعوب الشرقية . فقد استند البابليون في قياساتهم هذه الى أسس علمية . وهم في ذلك أدق من قدماء المصريين ، ومن اليهود[6] .

والعادة قياس الأبعاد الصغيرة والمسافات القصيرة ، بمقاييس تتناسب مع هذه الأبعاد . وذلك باستعمال مقاييس صغيرة مثل الاصبع والشبر والذراع ، صارت أساساً للمقاييس التي تقاس بها المسافات البعيدة ، مثل المسافات بين مراحل السفر أو الأبعاد بين المدن والقرى وما شاكل ذلك . إذ لا بد من اتخاذ وحدة قياسية كبيرة في قياس الأبعاد الطويلة ، لسهولة الضبط والحفظ ، ولهذا اصطلحت الأمم على اتخاذ وحدات كبيرة في قياسات المراحل والأبعاد ، سمتها .

وقاس الجاهليون مساحات الأرضين الزراعية بمقدار البذور المنثورة وبمقدار ما يحرثه ثور واحد أو حيوان في نهار . ويراد بذلك متوسط عمل محراث واحد في الأرض . فتقدر مساحة أرض بمقدار كميات البذور التي تنثر في الأرض ، وتذكر عندئذ مقدار كيلات البذور المنثورة ، ويدل عددها على مساحة الأرض .

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 79.

٢ اللسان (١١/٦٠٤ وما بعدها) « دار صادر » .

٣ المفردات (ص ٤٦٠) .

٤ اللسان (١١/٦٠٤) « دار صادر » .

٥ Rhodokanakis, Studi., II, S. 79.

٦ Hastings, p. 967.

ولو تعمقنا في دراسة قياس المسافات ، فإننا نجد أن الانسان قد استعان بأجزاء جسمه في بادىء الأمر في القياسات ، فاستعان بالإصبع ، واعتبره وحدة قياسية صغيرة لقياس البعد، استعمل عرضه كما استعمل طوله . واستعمل (الكف) قياساً للأبعاد كذلك . وهو أربع أصابع عند العبرانيين[١] . واستعمل (الشبر) للأبعاد التي تزيد على الكف . والشبر هو مسافة ما بين طرف الإبهام وطرف الخنصر ، ويساوي ثلاث كفوف . ويعدل من ثمانية قراريط الى أحد عشر قيراطاً . واستعملت (الذراع) وجعلوها تعادل شبرين . وتقدر بنحو قدم الى قدمين . ثم (الخطوة) وتعادل ذراعين أو ثلاث أقدام أو اثني عشر كفاً . ثم (القامة)، وتعادل خطوتين أو أربع أذرع أو ستة أقدام . ثم (القصبة) . وتعادل قامة ونصف قامة ، أو ستة أذرع . وتعادل تسع أقدام أو ستاً وثلاثين كفاً[٢] .

والكف — عند العرب — اليد ، أو منها إلى الكوع[٣] . والشبر ما بين أعلى الإبهام وأعلى الخنصر ، ويكال به . ومنه (الشّبر) ، كيل الثوب بالشبر ، يشبره شبراً[٤] . والذراع من طرف المرفق إلى طرف الاصبع الوسطى ، وقيل الذراع والساعد واحد . يقال ذرع الثوب وغيره ، قاسه بالذراع . وهو ما يذرع به من حديد أو قضيب[٥] . و (الباع) ، قدر مد اليدين وما بينهما من البدن ، ويستعمل في قياس الأعماق ، مثل الآبار ، وأعماق الماء[٦] .

والخطوة ما بين القومين[٧] . والقامة عند العرب ، مقدار هيأة رجل ، والبكرة بأداتها ، وقيل : البكرة التي يستقى بها الماء من البئر[٨] . والقامة مقياس أيضاً تقاس به الأعماق[٩] .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٣١) .

٢ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٣١) ، Hastings, p. 967.

٣ تاج العروس (٦/٢٣٤) ، (كف) .

٤ تاج العروس (٣/٢٢٨) ، (شبر) .

٥ تاج العروس (٥/٣٣٣ وما بعدها) ، (ذرع) .

٦ تاج العروس (٥/٢٨٣) ، (بوع) .

٧ تاج العروس (١٠/١١٥) ، (خطا) .

٨ تاج العروس (٩/٣٦) ، (قوم) .

٩ قول أبو ذؤيب :

فلو كان حبلا من ثمانين قامة وخمسين بوعا نالها بالانامل

« وفي الديوان : وتسعين باعا ، وأما بوعا فانه رواية الاخفش » ، تاج العروس (٥/٢٨٣) ، (بوع) .

وذكر الذراع في القرآن الكريم في آية : « في سلسلة ذرعُها سبعون ذراعاً فاسلكوه »[1] . ويعبر به عن المذروع ، أي الممسوح بالذراع[2] . وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الذراع من طرف المرفق الى طرف الإصبع الوسطى[3] . وذكر بعض العلماء أن الذراع والساعد واحد . وأما المذارعة فالبيع بالذراع[4] . ويقال ذراع من الثوب والأرض[5] . فتستعمل المذارعة إذن في الأموال المنقولة التي لها اتساع مثل الثياب والأقمشة والخشب وما شابه ذلك ، كما يستعمل في ذرع الأرض . وقد اختلف الذراع الجاهلي عن الذراع في الاسلام[6] .

والقصبة من أصل « Kas - Pu » في البابلية ، ومعناها (ساعتان) ، أي مسيرة تقطع في ساعتين . وورد « Kas - Pu Kakkari » في النصوص البابلية ، ويراد بالجملة : ما يقابل (قصبة أرض) أو (ميل أرض)[7] . وقد كان أهل مصر في الاسلام يمسحون أرضهم بقصبة طولها خمسة أذرع بالتجاري ، فمتى بلغت المساحة أربعمائة قصبة ، فاسمها : الفدان[8] .

و (الغلوة) ، وكانت مقياساً يونانياً ، وتعادل نحو (١٤٥) خطوة ، أو ثُمن ميل . وتسمى (فرسخاً) أيضاً[9] . وذكر علماء اللغة أن (الغلوة) قدر رمية بسهم ، وتستعمل في سباق الخيل[10] . وقيل هي قدر ثلاثمائة ذراع الى أربعمائة ذراع . وذكر بعض علماء اللغة،أن الفرسخ التام خمس وعشرون غلوة[11] .

وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الفرسخ ساعة من النهار . وقال بعض آخر انه المسافة المعلومة ، وهو ثلاثة أميال هاشمية أو ستة أو اثنا عشر ألف ذراع أو عشرة آلاف ذراع . واللفظة من الكلمات المعربة ، وهي « Frasong » (فرسنك)

---

١ الحاقة ، الآية ٢٣ ، تفسير الطبري (٢٩/٤٠ وما بعدها) ، « بولاق » .
٢ المفردات (١٧٦) .
٣ تاج العروس (٥/٣٣٣ وما بعدها) .
٤ Ency., I, p. 959.
٥ المفردات (١٧٦) .
٦ تاج العروس (٨/١٢٣) ، (ميل) .
٧ Schrader, S. 339.
٨ تاج العروس (٥/٢٠٣) ، (قرط) .
٩ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٣٢) .
١٠ اللسان (١٥/١٣٢) « صادر » .
١١ تاج العروس (١٠/٢٦٩) ، (غلا) .

في الفهلوية . وقد أشير الى هذا المقياس الفارسي في بعض مؤلفات الكتبة اليونان مثل (هيرودوتس) و (كسينوفون) « Xenophon » . وهو « Farsong » في الفارسية الحديثة . Prasakhä في لغة بني إرم[١] .

وأما (الميل) ، فمقياس روماني . وقد اختلف في طوله ، فقيل إنه ثلث الفرسخ ، وقيل إنه ثلاثة آلاف ذراع أو أربعة آلاف ، وقيل أربعة آلاف خطوة ، كل خطوة ثلاثة أقدام . وقيل إنه سدس الفرسخ . وهو من الألفاظ المعربة ، من أصل « Miloin » [٢] . وذكر علماء اللغة أن الميل هو المنار يبنى للمسافر في أنشاز الأرض ، وأنه أيضاً الأعلام المبنية على الطرق لهداية الناس[٣] .

وقد استخدم الجاهليون مصطلحات خاصة في تقدير المسافات والأبعاد ، ولا سيما في الأسفار . فاستعملوا مصطلح (مسيرة ساعة) ومسيرة ليلة ومسيرة نهار ومسيرة قافلة وأمثال ذلك . وقصدوا بذلك معدل ما يقطعه الانسان والقافلة في المدد المذكورة . واستعملوا (البريد) في تقدير الأبعاد والمسافات ، و (البريد) ، فرسخان ، كل فرسخ ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف ذراع ،أو أربعة فراسخ، وهو اثنا عشر ميلاً . وفي الحديث : لا تقصر الصلاة في أقل من أربعة برد ، وهي ستة عشر فرسخاً ، وفي كتب الفقه : السفر الذي يجوز فيه القصر أربعة برد ، وهي ثمانية وأربعون ميلاً بالأميال الهاشمية في طريق مكة[٤] .

وقاس الجاهليون المساحات ، مثل مساحات البيت أو الملك كالأرضين بالذراع، إن كانت غير كبيرة . أما اذا كانت كبيرة ، فقد قيست بمقدار متوسط ما يحرثه (الفدان) في اليوم . وذكر علماء اللغة أن (الفدان) الثوران اللذان يقرنان فيحرث عليهما ، وأن الفدان المزرعة[٥] ، والآلة ، ومقدار محدود من الأرض اصطلح الناس على تحديد مقداره[٦] .

---

١ تاج العروس (٢/٢٧٢ وما بعدها) ، البلدان (١/٣٥) ، « الباب الثالث » ، Ency., II, p. 70, Horn, Grundriss der Iranische Philologie, I, 127.

٢ تاج العروس (٨/١٢٣) ، البلدان (١/٣٦) ، Hastings, p. 968.

٣ تاج العروس (٨/١٢٣) ، (ميل) .

٤ تاج العروس (٢/٢٩٨) ، (برد) .

٥ اللسان (١٣/٣٢١) ، « صادر » ، (فدن) .

٦ تاج العروس (٩/٢٩٩) ، (فدن) .

وتقاس الأرض بالجريب أيضاً . قال علماء اللغة : الجريب من الأرض مقدار معلوم الذراع والمساحة ، وهو عشرة أقفزة ، كل قفيز منهـا عشرة أعشراء ، فالعشير جزء من مائة جزء من الجريب . وقيل : الجريب المزرعة،وقدر ما يزرع فيه من الأرض . وقد استعمـل للطعام ولتقدير غلة الأرض ، أي وحدة قياس للأرضين ، ومكيلة في آن واحد[1] . وقال بعض العلماء انه يختلف باختلاف البلدان[2] .

ومن وحدات القياس في اليمن : (ا م ت) (امت) . وقد ذكرت هـذه الوحدة في نصوص المسنـد . وتقاس بها الأبعاد طولاً وعرضاً[3] . وذكر علماء اللغة أن (الأمت) الحزر والتقدير ، يقال كم أمت ما بينك وبين الكوفة ، أي قدر ، وأمت القوم أمتاً ، إذا حزرتهم[4] . فللمعنى اذن صلة بالمعنى المفهـوم من اللفظة في لغة المسند .

والشوحط من وحدات قياس الأبعاد كذلك . فورد : (سدثي شوحطم)، أي ستون شوحطاً . وقد ذكر هذا المقياس في كتابات المعينيين[5] . ولعله قصبـة أو خشبة ، حدد طولهـا ، واعتبرت كالمتر و (الياردة) وحدة أساسية لقياس الأبعاد . و (الشوحط) ، في كتب اللغة ضرب من شجـر الجبال تتخذ منـه القسي ، أو ضرب من النبـع تتخذ منه القياس[6] . فلا يستبعد وجود صلة بين الشوحط اليماني،وهذا الشوحط ، وهو اتخاذ قضب الشوحط ، مقياساً معيناً محدداً، لقياس الأبعاد .

وترد في بعض كتابات المسند لفظة (ممد) مع العدد، كأنها استعملت للتعبير عن قياس . وقد ذهب بعض الباحثين الى أنها لا تعبر عن وحدة قياسية قائمـة بذاتها ، كما تعبر لفظة قدم أو ذراع ، بل هي تعبر عن معنى عام ، هو مسافة

---

١ اللسان (١/٢٦٠) ، « صادر » ، (جرب) .
٢ تاج العروس (١/١٢٩) ، المخصص (١٢/٢٦٤ وما بعدها) ، برصوم (ص ١٣٦) .
٣ راجع الفقرة الرابعة من النص : Glaser 1150, Halevy 192, 199.
٤ تاج العروس (١/٥٢٢) ، (أمت) .
٥ راجع النص الموسوم بـ : Halevy 352
٦ تاج العروس (٥/١٦٥) ، (شحط) .

أو كيل أو وزن . ويفهم ذلك المعنى من مكانة الكلمة وموضعها في الجملة [1] .

وأما وزن الأشياء ، أي تقدير مقدار ثقلهـا ، فيختلف في الغالب باختلاف طبيعة الشيء المراد معرفة وزنه وتقدير ثقله . فإذا كان الشيء جافاً قدّر بمعايير خاصة ، واذا كان سائلاً قدّر بمعايير أخرى . غير ان هـذا التفريق ليس يعدّ قاعدة عامة ، وانما يختلف باختلاف الأماكن والأعراف والعادات . فقد يزن بعض الناس المائعات بمعايير توزن بها الأشياء الجافة عند أناس آخرين ، فالسمن مثلاً يوزن ويكال ، والتمر يوزن ويكال ، وهناك أمثلة عديدة أخرى من هذا القبيل[2] .

وأما الأوزان ، أي معرفة الخفـة أو الثقل للأشياء التي يراد وزنها لمعرفـة مقدارها ، فقد كانت توزن بوضعها في إحدى كفتي ميزان ووضع الأوزان في الكفة الثانية . وقد كانت للأوزان البابلية شهرة ، وعليها كان اعتماد العبرانيين .

والميزان الآلة التي يوزن بهـا . وقد ذكر علماء اللغة أسماء أجزاء الميـزان . والميزان الذي كان يستعمله الجاهليون لا يختلف عن الميزان المستعمل عند الشعوب الأخرى . ويقوم الوزن على أساس المعادلة بين الكفتين[3] .

ويظهر أن الجاهليين كانوا قد أخذوا الأوزان من العراق ومن بـلاد الشأم ، واستعملوها كلها وبأسمائها الأصلية ، وذلك بدليل ما نجده في أسماء هذه الأوزان التي استعملوها من مسميات بابلية أو إرمية وفهلوية ويونانية ورومانية . لقد أخذوها بتعاملهم مع أهل العراق ومع أهل بلاد الشأم ، وأدخلوا مسمّياتها الى لغتهم بعد ادخالهم بعض التحوير والتغيير عليها لتتناسب مع النطق العربي . وقد كان لا بد لهم من استخدام تلك الموازين كلها أو أكثرها على حدّ سواء ، لأنهم تعـاملوا وتاجروا مع العراق وبلاد الشأم منذ القدم . فكان لا بد لهم من التعـامل مع كل بلد بموازينه وبمقاييسه ،ومن استعمال هذه الأوزان في بلادهم أيضاً بحكم ذلك التعامل والإتجار ، كما نستعمل اليوم الأوزان والمقاييس الأجنبية في التعـامل عندنا بدلاً من الموازين والمقاييس القديمة .

---

١ Rhodokanakis, Kata. Textile, II, S. 34.

٢ اللسان (١٤/١٢٥) .

٣ المخصص (١٢/٢٦٣) .

ومن الأوزان التي يعود أصلها الى الروم : (الرطل) ، وهو « Litra » عند اليونان . والأوقية ، وتقابل « Ounguiya » « Oncia » عند البيزنطيين[1] . و (الدرهم) ، وهو وحدة وزن ، وقطعة نقد ، من « Dhrakhmi »[2]. (وقيراط) وهو من « Keration »[3] .

ومن وحدات القياس التي يعود أصلها الى الفارسية : (الدانق) ، فإنه من (دانك) ، وهو سدس الدرهم[4] . وأما (المثقال) فمن أصل آرامي ، من « Matqolo »[5] .

والقسطاس : الميزان ، ويعبر به عن العدالة ، كما يعبر عنها بالميزان[6] . ويذكر العلماء ان القسطاس أقوم الموازين[7] . و (القسط) مكيـال يسع نصف صاع . و (الفرق) ستة أقساط . وذكر بعضهم ان (القسط) أربعمائة وواحد وثمانون درهماً . والقسط الحصة من الشيء ، والمقدار[8] .

ويقاس الذهب بالوزن ، وكذلك الفضة ، فكان التجّار يحملون معهم الموازين ليزنوا بها هذين المعدنين . وقد كان (الشاقل) هو وحدة القياس للوزن عنـد الجاهليين . ويقال في العربية : « شقل الدينار وشوقل الدينار ، بمعنى وزنه وعايره وصححه » . وجاء أن الشقل : الوزن . يقال : اشقل لي هـذا الدينار ، أي زنه[9] . واللفظـة من الألفاظ البابلية التي دخلت الى لغة بني إرم والى العبرانية والعربية[10] .

و (الحبّة) من العيارات المستعملة عند الجاهليين والتي بقيت مستعملة في الإسلام كذلك ، ولا تزال تستعمل . أما وزنها فاختلف فيه باختلاف الأزمنة والأمكنـة

---

١ غرائب اللغة (٢٥٤) .
٢ غرائب اللغة (٢٥٨) .
٣ غرائب اللغة (٢٦٧) .
٤ غرائب اللغة (٢٢٧) .
٥ غرائب اللغة (١٧٦) .
٦ المفردات (٤١٣) .
٧ المخصص (١٢/٢٦٣ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (٥/٢٠٥) ، (قسط) .
٩ اللسان (١١/٣٥٦) ، القاموس (٣/٤٠١) .
١٠ غرائب اللغة (ص ١٩١) ، برصوم ، الالفاظ السريانية (ص ٩٧) Schrader, S. 340.

وقد قدرها بعضهم بعُشر الدانق[1] . وقدرها بعض آخر بسدس ثمن درهم ، وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من درهم[2] .

والقيراط ، هو نصف دانق . وذكر بعض العلماء أنه جزء من أجزاء الدينار ، وهـو نصف عشره في بعض البلاد في الإسلام ، وجزء من أربعة وعشرين في بلاد الشأم[3] . وهو عند الروم جزء من أربعة وعشرين من أجزاء شيء . وهـو من أصل رومي هو « Keration »[4] . ويظهر أو وزنه لم يكن ثابتاً ، بل اختلف باختلاف البلدان[5] .

و (المثقال) من الأوزان القديمة عند العرب ، وقد وردت لفظة (مثقال) في القرآن الكريم بمعنى مقدار ووزن[6] . ويظن بعض المستشرقين ان (المثقال) من أقدم المعايير عند العرب ، ويستعمله العطارون والصيارفة وباعة اللؤلؤ والحجـارة الثمينة . وهو عبـارة عن اثنتين وسبعين شعيرة . وفي بعض الموارد : المثقـال عشرون قيراطاً . وهو يقابل الـ « Solidus » عند الروم على وفق النظام الذي أقره القيصر (قسطنطين) « Costantine » . وهو نظام اتبع في بلاد الشأم،وأقره العرب واستعملوه[7]. واللفظة من الألفاظ المعربة عن الإرمية من أصل(متقولو) « Matqolo » على بعض الآراء[8] .

والأوقية من الأوزان التي كانت مستعملة في الجاهلية . وقد اختلف العلماء في ضبط وزنها وتعيين مقداره . فقال بعضهم : هي سبعة مثاقيـل ، وانها أربعون درهماً . وقال بعض آخر : هي أربعون درهماً . وقـد ورد في الحديث : ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة[9] . وفي حديث النبي : انه لم يصدق امرأة من نسائه أكثر من اثنتي عشرة أوقية ونش . قال مجاهد: الأوقية أربعون درهماً،

---

١ تاج العروس (٥/٢٠٥) ، Ency., II, p. 185.
٢ القاموس (٣/٣٣٠) ، تاج العروس (٥/١٨٠) ، (دنق) .
٣ اللسان (٧/٣٧٥) ، (قرط) .
٤ غرائب اللغة (ص ٢٦٧) .
٥ تاج العروس (٥/٢٠٣) ، (قرط) .
٦ تاج العروس (٧/٢٤٥) ، (ثقل) .
٧ Ency., III, p. 558.
٨ غرائب اللغة (١٧٦) .
٩ تاج العروس (١٠/٣٩٦) ، (وقى) .

والنشُ عشرون[1] . وهي تقابل « Uncia » عند الروم .
و (البزمة) وزن ثلاثين درهماً[2] .

وقد أشير في الحديث الى (نواة من ذهب) ، وقد جعل بعض العلماء النواة زنة ، وقال بعض آخر : النواة من العدد عشرون أو عشرة ، أو هي الأوقيــة من الذهب أو أربعة دنانير أو ما زنته خمسة دراهم أو ثلاثـة دراهم ونصف أو ثلاثة دراهم وثلث[3] .

وقد كان الجاهليون يبايعون الذهب والفضة بالأوزان التي ذكرتهــا مثل النواة والحبة والشعيرة والمثقـــال والأوقية . ولما جاء الرسول المدينة وجد أهلها يبايعون اليهود الوقية من الذهب بالدنانير ، فقال لهم : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلاّ وزناً بوزن »[4] .

وأما الرطـــل ، فإنه في مقابل « Litra » في اليونانية ، و « Libra » في اللاتينية . وهو قدر نصف (من) . وهو من الأوزان المعروفة عنـد الجاهليين . وذكر أن الرطل الجاهلي هو ضعف الرطل الإسلامي ، وقد اختلف وزنه عنـــد المسلمين باختلاف الأماكن والمواضع والناس[5] . وذكر بعضهم : الرطل اثنا عشر أوقية بأواقي العرب ، والأوقية أربعون درهماً ، فذلك أربعمائة وثمانون درهماً[6] .

وأما (المـــنّ) ، « Mnh » « Mina » « Maneh » « Mna » « Mana » (منا) و (منو) « Mnu » في البابلية ، فإنه خمسة عشر شاقلاً ، وعشرون شاقلاً وخمسة وعشرون شاقلاً ، أي انه ورد في ثلاثة أوزان . فعرف كل وزن من هذه الأوزان الثلاثـة باسم (من)[7] . وهو معروف عنـــد قدماء اليونان ، وعند السريان[8] . وهو من الأوزان المعروفة عند العـــرب الجاهليين .

---

١ اللسان (١٥/٤٠٤) ، «صادر» ، (وقى) ، تاج العروس (٨/٢٠٢) ، (بزم) .
٢ تاج العروس (٨/٢٠٢) ، (بزم) .
٣ تاج العروس (١٠/٢١٩) ، عمدة القارىء (١١/١٦٤) .
٤ صحيح مسلم (٥/٤٦ وما بعدها) .
٥ Ency., III, p. 1129.
٦ تاج العروس (٧/٣٤٦) ، (رطل) .
٧ قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٢٥) ،
Hastings, p. 970, Shrader, Keil. und das alte Testment, S. 338.
٨ غرائب اللغة (٢٧٠) .

وقد ذكر علماء اللغة انه كيل أو ميزان وهو رطلان[1] .

والقنطار وزن أربعين أوقية من ذهب ، وقيل ألف ومئتا دينار ، وقيل ألف ومئتا أوقية ، وقيل سبعون ألف دينار ، وقيل ثمانون ألف درهم ، وقيل مئة رطل من ذهب أو فضة . وزعم بعض علماء اللغة انه سرياني ، وزعم آخرون انه عربي[2]. ويظهر انه لاتيني الأصل وانه من أصل « Centenarium Pondus » أي وزن يساوي مئة ضعف وزن آخر[3] . وقد اختلف العلماء في القنطار ، وقد ذكر العلماء آراءهم فيه. ويظهر انهم كانوا قد اختلفوا فيه في الجاهلية كذلك، وسبب ذلك على ما يظهر ، انهم استعملوه وزناً ، أي معياراً ، واستعملوه ثمناً ، أي بمقدار ما يعادله بالذهب والفضة ، وبالنقد ، ثم بالمقايضة ، مثل قولهم انه ملء ثور ذهباً أو فضة[4] .

وقد ذكر في الآية : « ومن أهل الكتاب مَنْ إن تأمنه بقنطار يؤده لك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً »[5] . وفي الآية : « وآتيتم إحداهن قنطاراً »[6] . وورد : « والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة »[7]. وفي الإشارة الى القنطار في القرآن الكريم دلالة على استعماله في الحجاز وربما في أماكن أخرى من جزيرة العرب كذلك .

والقناطير جمع قنطار . ومعنى القناطير المقنطرة : المال الكثير من الذهب والفضة ، والمال الكثير بعضه على بعض . ويظهر من اختلاف المفسرين وسائر العلماء في مقدار القنطار أن العرب لا تحد القنطار بمقدار معلوم من الوزن، ولكنها تقول هو قدر ووزن ؛ لأن ذلك لو كان محدوداً قدره عندها لم يكن بين متقدمي أهل التأويل فيه كل هذا الاختلاف[8] .

والمُدّ مكيال ، وهو رطلان أو رطل وثلث أو ملء كفي الإنسان المعتدل ،

---

١ تاج العروس (٩/٣٥٠) ، « منن » ، برصوم (١٢١) .
٢ المخصص (١٢/٢٦٦) .
٣ غرائب اللغة (٢٧٩) ، Ency., II, p. 1022.
٤ تاج العروس (٣/٥٠٩) ، (قنطر) .
٥ آل عمران : الآية ٢٥ .
٦ النساء : الآية ١٩ .
٧ آل عمران : الآية ١٤ .
٨ تفسير الطبري (٣/١٣٠) ، « طبعة بولاق » .

إذا ملأهما ومدّ يده بهما ، وبه سُمّي مُداً[1] . وقيل هو ربع الصاع ، لأن الصاع أربعة أمداد . وقد اختلف في مقدار المدّ في الإسلام ، وقد ورثوا ذلك من الجاهلية ، فقد اختلفوا في مقداره أيضاً باختلاف مواضعهم[2] .

والصاع من المكاييل التي كان يستعملها أهل الحجاز عند ظهور الإسلام . وقد عرف خاصة عند أهل المدينة . ويأخذ أربعة أمداد . وهو يأخذ من الحبّ قدر ثلثي الصاع في بعض الأماكن . وكان لأهل المدينة صيعان مختلفة . وورد صاع المدينة أصغر الصيعان . كما ورد في كتب الحديث والفقه،صاع النبي وصاع عمر[3] وقد كالوا به التمر والحبوب[4] . وقد اختلف العلماء في مقداره في الاسلام . ومردّ ذلك الى الجاهليـة الذين كانوا يختلفون في تقدير الصاع وذكـر المفسرون أن (صواع الملك) ، أو (صاع الملك) حسب قراءة (أبي هريرة) كناية عن الصاع الذي يكـال به الطعام . وذكر أنه الإناء الذي يكال به الطعام ، وإناء يشرب فيه ، وكان يشرب الملك ، وهو من فضة . وكان للعباس في الجاهليـة واحد ، وهو المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه ، كانت تشرب فيه الأعاجم[5] .

والقفيز من المكاييل القديمة المستعملة لتقدير كميات الأشياء الجامدة ، ويتسع لنحو عشرة (غالونات) ، وأصله من المكاييل البابلية . وقد ذكـره المؤرخ (اكسينيفون)[6] ، وهو عند العرب أصغر من القاب « Cub »[7] .

والوسق من المكاييل التي كان يستعملها العرب قبل الاسلام كذلك . قيـل : هو ستون صاعاً . وقيل : هو حمل بعير . وقيـل : الوسق مئة وستون منّـاً . وقال الزجّاج : خمسة أوسق هي خمسة عشر قفيزاً . وكل وسق بالملجم هو ثلاثة أقفزة . وقيل إن الوسق ستون صاعاً . وهو ثلاث مئة رطل وعشرون رطلاً عند

---

١ القاموس (١/٣٣٧) ، تاج العروس (٢/٤٩٨) ، (مدد) .
٢ تاج العروس (٢/٤٩٨) ، (مدد) .
٣ عمدة القارىء (١١/٢٤٧ وما بعدها) ، جـامع الاصول (١/٣٧٤) ، المخصص (١٢/٢٦٤) ، اللسان (١٠/٨٢) ، تاج العروس (٥/٤٢٣) ، (صاع) .
٤ صحيح مسلم (٥/٦ وما بعدها) .
٥ تفسير الطبري (١٣/١٣) ، تفسير القرطبي (٩/٢٣٠) .
٦ Anabasis, I, 5.
٧ J. Abermyer, Die Landschaft Bobylonien, S. 221. ff., 241.

أهل الحجاز . وأربع مئة رطل وثمانون رطلاً عند أهل العراق على اختلافهم في مقدار الصاع والمدّ . والأصل في الوسق الحمل . وقيل : الوسق العِدْلُ ، وقيل : العدلان ، وقيل هو الحمل عامة [1] .

واستعملوا الحمل كيلاً ، وقد رأينا ان بعضهم عرّف الوسق بأنه عدل ، أو عدلان ، وهو مقدار ما يحمله الحيوان . وبهذا المعنى وردت لفظة (الوِقر) وتطلق على حمل البغل أو الحمار أو البعير [2] ؛ فهو شيء تقديري غير مضبوط تماماً . وقد ورد في القرآن للكريم : « كيل بعير » [3] ، وذلك تعبيراً عن حمل بعير ، وهو مقدار ما يحمل . كما ورد فيه « حمل بعير » في المعنى نفسه [4] .

ولا يزال العرف جارياً بين أهل القرى والبادية في البيع (حمولاً) ، جمع (حمل) ، وهو حمل (بعير) أو حمار أو غير ذلك من الدواب التي تنقل الشيء الذي يراد بيعه مثل الملح أو (العوسج) أو (العاقول) أو (حطب البادية) أو الزرع الى الأسواق ، فتباع حملاً لا وزناً ، ويشتريه المشترون على هذه الصفة.

وذكر علماء اللغة ، أن الكر ، مكيال لأهل العراق ، وقد أشير اليه في كتب الحديث . وذكر أنه ستة أوقار حمار ، وهو عند أهل العراق ستين قفيزاً . والقفيز ثمانية مكاكيك . والمكوك صاع ونصف . وهو ثلاث كيلجات . وذكر (الأزهري) أنه اثنا عشر وسقاً ، كل وسق ستون صاعاً أو أربعون أردباً بحساب أهل مصر [5] . وهو (كور) في لغة بني (ارم) ، ويعادل عند أهل بابل وقر ستة حمير [6] .

وذكر علماء اللغة ، أن (المكوك) طاس يشرب به أعلاه ضيق ووسطه واسع ، والصاع كهيئة المكوك . وكان للعباس مثله في الجاهلية يشرب به . وقد ورد في الحديث أن الرسول كان يتوضأ بمكوك . ويسع صاعاً ونصفاً ، أو نصف رطل

---

١ اللسان (١٢/٢٥٨) ، المخصص (١٢/٢٦٥ وما بعدها) ، المفردات (٥٤٥) ، تاج العروس (٧/٨٩) ، (وسق) .
٢ اللسان (١٢/٢٥٨) ، المخصص (١٢/٢٦٠) .
٣ سورة يوسف ، الآية ٦٥ .
٤ يوسف ، الآية ٧٢ .
٥ شرح القاموس (٣/٥١٩) ، اللسان (٥/١٣٧) .
٦ J. Obermeyer, S. 241.

الى ثماني أواق،أو يسع نصف الويبة ، والويبة اثنان وعشرون ، أو أربع وعشرون مداً بمد النبي ، أو هو ثلاث كيلجات ، وهو صاع ونصف . والكيلجة تسع منًا وسبعة أثمان منا . والمنا رطلان ، والرطل اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية أستار وثلثاً ، والأستار أربعة مثاقيل ونصف ، والمثقال درهم وثلاثة أسباع درهم ، والدرهم ستة دوانق ، والدانق قيراطان ، والقيراط طسوجان ، والطسوج حبتان، والحبّة سدس ثمن درهم ، وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من درهم . وذكر أن الكر : ستون قفيزاً ، والقفيز ثمانية مكاكيك ، والمكوك صاع ونصف، وهو ثلاث كيلجات[1] .

والكيلة مقياس استعمله العبرانيون والجاهليون ؛ وهي « Seah» ، و « Saton » في اليونانية « Modius » ، وهي تختلف باختلاف اصطلاح الأمم . فالكيلة العبرانية كبيرة بالقياس الى الكيلة الرومانية ، وهي تعادل كيلة وربع كيلة رومانية . وتبلغ ثلث (الأيفة)[2] . وتعادل اثنين وعشرين « Sextari »[3]. وتستعمل في وزن المواد الجامدة مثل الحبوب .

وأما (الأيفة) « Ephah » ، فكلمة مأخوذة من اللغة المصرية ، ترد كثيراً في العهد القديم . وهي تعادل ثلاث كيلات « Seah » . وتستعمل لقياس المواد الجافة فقط ، وتقابل « Atrabe » ، و « Metretis » عند اليونان ، وهي مجزأة الى عشرة أجزاء ، يقال للجزء الواحد (العمر) (عومير) (اومير) « Omer » ، أو الكومة . ويقال له (عشر) « Issaron‘ » أيضاً[4] . وتقسم الى ستة أقسام كذلك يطلق على كل قسم اسم (سدس)[5] .

ولعل لأومير (عومير) « Omer‘ » ، صلة بـ (الغمر) عند الجاهليين . وهو عندهم قدح صغير يتصافن به القوم في السفر ، اذا لم يكن معهم من الماء

---

١ تاج العروس (٧/١٨٠) ، (ملك) .

٢ التكوين الاصحاح ١٨ ، الآية ٦ ، والاصحاح الثالث عشر ، الآية ٢١ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٨١) ، تاج العروس (٨/١٠٧) ، (كيل) .

٣ Hastings, p. 969.

٤ الخروج ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٣٦ ، الخروج ، الاصحاح التاسع والعشرون ، الآية ٤٠ ، الكتاب المقدس (٢/٢٨١) ، Hastings, p. 969.

٥ Hastings, p. 969.

إلا يسيراً على حصاة يلقونها في إناء ثم يصب فيه من الماء قدر ما يغمر الحصاة فيعطاها كل رجل منهم . وقيل هو (القعب) الصغير يحمله الراكب معه ، يعلقه على رحله . وقيـل : الغمر : أصغر الأقـداح . قال أعشى باهلة يرثي أخاه المنتشر بن وهب الباهلي :

تكفيه حزة فلذان ألمّ بها   من الشواء ويروي شربه الغمر

والغمر يأخذ كيلجتين أو ثلاثاً ، والقعب أعظم منه ، وهو يروي الرجل[1] . و (الكيلجة)[2] ، مكيال[3] .

و (الكر) من المكاييل المستعملة عند العبرانيين . وذكر علماء اللغة أن الكُر مكيال لأهل العراق . وقد أشير اليه في كتب الحديث والفقه . ويظهر أنه مكيال للمائعات . ورد : إذا كان الماء قدر كرّ لم يحمل القذر . ومكيال للجوامد أيضاً. وهو ستة أوقار حمار ، وهو عند أهل العراق ستون قفيزاً . والقفيز ثمانية(مكاكيك). والمكوك صاع ونصف ، وهو ثلاث كيلجات . وذكر الأزهري أنه اثنا عشر وسقاً ، كل وسق ستون صاعاً أو أربعون اردباً بحساب أهل مصر[4] .

واستعمل الجاهليون (الزق) ، وحدة عامة لوزن المائعات . فورد: (زق خمر) مثلاً . ويستعمل خاصة في الخمور[5] .

وقد عثر على عدد من قطع الأوزان المصنوعة من الحديد وبعضها من برونز ، وقد استعملت في وزن الأشياء . وقد تأثر بعضها بالعوارض ولعبت الأيدي ببعض آخر . ونأسف عـلى عدم وقوفنا وقوفاً تاماً على أسماء الأوزان ومقدار ثقلها ، لعدم وصول عدد كاف منها الينا عليه كتابة تشير الى اسمه ومقدار وزنه ، ولعل الأيام تجود علينا منها بما يحقق لنا هذه المعرفة .

أما (الصُبرة) : فما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن بعضه فوق بعض .

---

١ تاج العروس (٣/٤٥٤) ، (غمر) .
٢ بكسر الكاف وفتح اللام .
٣ تاج العروس (٢/٩١) ، (كلج) .
٤ تاج العروس (٣/٥١٩) ، (كر) .
٥ تاج العروس (٦/٢٧١) .

فهي : الطعام المجتمع كالكومة[١] . ومن ذلك بيع (الصبرة) من التمر . وقد نهى الاسلام عن هذا النوع من البيع[٢] .

والفالج والفلج مكيال ضخم ، وقيل هو القفيز . وقد ذكر بعض الباحثين انه سرياني الأصل ، وأن أصله (فالغا) فعرب . قال الجعدي يصف الخمر :

ألقى فيها فلجان من مسك دا   رين وفلج من فلفلٍ ضرم

ومن هنا يقال للظرف المعدّ لشرب القهوة وغيرها (فلجان) ، والعامة تقول: فنجان[٣] .

و (الطسق) مكيال أيضاً[٤] . وهو من أصل فارسي ، وذكر أنــه مكيال لكيل الزيوت وكل أنواع الدهن[٥] . وهو ضريبة الأرض كذلك ، أي في معنى خراج في الإسلام . كتب عمر الى (عــثمان بن حنيف) في رجلين من أهــل المدينة أسلما : ارفع الجزية عن رؤوسهما وخذ الطسق من أرضيهما[٦] .

والفرق مكيال بالمدينة ، اختلف فيه . فقيل : يسع ستة عشر مداً ، وذلك ثلاثة آصع ، أو يسع ستة عشر رطلاً ، وهي اثنا عشر مداً وثلاثة آصع عنــد أهل الحجاز . أو هو أربعة أرباع ، وقيل الفرق خمسة أقساط ، والقسط نصف صاع . وقيل غير ذلك[٧] . وذكر أن (الفرق) هو مكيال لأهل اليمن ، وقــد ذكر في عهد الرسول لقيس بن مالك بن سعد بن لأي الأرحبي الهمــداني ، إذ جاء فيه : « وأطعمه ثلاثمائة فرق من خيوان ، مائتا زبيب وذرة شطران ومن عمران الجوف مائة فرق بُرّ »[٨] .

وقد ذكر بعض علماء اللغة اسم مكيال من مكاييل أهل اليمن دعوه (الذهب)، ويجمع على أذهاب[٩] .

---

١ اللسان (٤/٤٤١) ، « صادر » .
٢ صحيح مسلم (٥/٩ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٢/٨٧) ، (فلج) .
٤ اللسان (١٠/٢٢٥) .
٥ غرائب اللغة (٢٣٨) .
٦ تاج العروس (٦/٤٢٣) ، (الطسق) .
٧ تاج العروس (٧/٤٣) ، (فرق) .
٨ ابن سعد ، الطبقات (١/٣٤١) ، (وفد همدان) .
٩ المخصص (١٢/٢٦٤) .

ومن المكاييل المذكورة في التوراة والمعروفة عند الجاهليين كذلك ، والتي تكال بها الأشياء الجافة : (القبضة) ، أي كومة اليد . والكومة كيلة عند الشعوب الأخرى وهي بمعنى (صبرة) . ولا يزال البدو يستعملونها ، ولكنها ليست من المكاييل الرسمية ، بل هي في الواقع كيلة عرفية . وهي تختلف في المقدار والكمية بحسب اتساع قبضة اليد[1] . وقد كان الجاهليون يكوّمون ما يريدون بيعه بالتكوم كوماً ، ولا زال هذا البيع معروفاً . وقد كان أهل الجاهلية ، يبيعون قبضة من التمر ، أو قبضة من السويق ، أو الدقيق ، وذلك بحسب ما تقبضه اليد ، أي كفاً منها[2] .

١ اللآويون : الاصحاح الثاني ، الآية الثانية « كومة من ذهب وكومة من فضة » ، تاج العروس (٩/٥٢) ، (كوم) .
٢ تاج العروس (٥/٧٤) ، (قبض) .

الفهرس